



علم النفس وقضايا العصر

علم النفس وقضايا العَصْر

عِلم النفس وقضايا العَصر

(مقالات وبحوث مُجمعة)

تأليف
دكتور فرج عبد القادر طه

أستاذ علم النفس
بكلية الآداب - جامعة عين شمس
عضو المجمع العلمي المصري
عضو مجلس إدارة
الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقي (IAAP) سابقاً
خبير علم النفس بمجمع اللغة العربية

الطبعة السابعة
معدّلة وموسّعة
١٩٩٩م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشـر : عين للدراسـات والبحـوث الإنسانيـة والاجتماعيـة

– ٥ شـارع ترعة المريوطية – الهـرم – ج.م.ع – تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خـالد بن الوليد بالهـرم – رمـز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

الإهـداء

إلى أمى !

التى منحتنى الحياة والحب ؛ آملا أن أكون

قد وفَّيْتها بعضًا من حقها .

فرج عبد القادر طه

الفهرس

صفحة

رابعا : القسم الانجليزى

English Part

كتب للمؤلف

١- موسوعة علم النفس والتحليل النفسى (إشراف) : دار سعاد الصباح ، القاهرة - الكويت ، ١٩٩٣ .

٢- علم النفس الصناعى والتنظيمى : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، الطبعة الثامنة، ١٩٩٧ .

٣- قراءات فى علم النفس الصناعى والتنظيمى (إشراف) : دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٩٤ .

٤- أصول علم النفس الحديث : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٩ .

٥- علم النفس وقضايا العصر (بحوث ومقالات مجمَّعة) : الطبعة الرابعة لدار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦ ، والطبعة السابعة : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ،١٩٩٩ .

٦- المجمل فى علم النفس والشخصية والأمراض النفسية : الدار الفنية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

٧- سيكلوچية الشخصية المعوِّقة للإنتاج : مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ١٩٨٠ .

٨- سيكلوچية الحوادث وإصابات العمل : مكتبة الخانجى بالقاهرة ، ١٩٧٩ .

تقديم الطبعة السابعة

مضى على الطبعة الأولى من هذا الكتاب أكثر من عشرين عامًا، طبع فيها ست طبعات في مصر وفي لبنان . مما يدل - والحمدلله - على أنه يلبي حاجة للمكتبة العربية ، ويرضى رغبة للمعرفة العلمية .

الأمر الذى شجعنى على أن أمضى فى إعداد هذه الطبعة السابعة ، وتقديمها مع تعديلات جوهرية فيها ، بحيث تشتمل على كل المادة التى قدمت فى الطبعات السابقة ، بالإضافة إلى مواد أخرى كثيرة رأيت إضافتها مستهدفًا تحقيق مزيد من فوائده المبتغاة وأهدافه المتوخّاة ، من نشر المزيد من المعرفة والثقافة والتوعية العلمية . فلئن وفقت إلى بعض من هذا كنت حقًا سعيداً غاية السعادة .

ولما كانت مواد هذا الكتاب مما سبق لى نشر نصوصها فى مناسبات شتى وظروف مختلفة، مع التزامى بالحفاظ على أصولها ؛ فقد يبدو - فى أحيان قليلة - تكرار لبعض الأفكار أو المواد ، الأمر الذى ليس منه مفر ؛ مما يجعلنى أنبه إلى ذلك ، وأقدم عنه اعتذارى، راجيًا من القارئ الكريم قبوله وتقديره . والله الموفق ،

فرج عبد القادر طه

المقطم فى

٢٦ / ٧ / ١٩٩٨

تصدير

بقلم الأستاذ الدكتور مصطفى زيور

يسعدنى أن أقدّم للقارئ العربى كتابًا ينتمى مؤلفُه إلى مدرسة علم النفس بجامعة عين شمس ، والتى يعرف المختصون أنها تتميز بخصائص تنفرد بها عن غيرها من المدارس . ذلك أن هذه المدرسة لم تأت ببدع من حيث التضافر بين علم النفس التقليدى الذى يستند إلى القياس والتجريب ، وبين علم نفس الأعماق - أى التحليل النفسى- وما يزودنا به من قضايا ووقائع ، مما يجتاز معه حدود الفرد ويترامى البصر من نافذته إلى آفاق تصل إلى طفولة الإنسان، لا بل إلى فجر تاريخ الإنسانية وتطور مراحلها جميعًا .

والواقع أن علم نفس الأعماق يعمل بمنهج خاص به هو الذى يمكّن من الوصول إلى مستويات عميقة فى علم النفس لايستطيع منهج آخر أن يدركه بمناهج علم النفس التقليدية (أعنى القياس والتجريب) .

وإنه لخطأ إبيستمولوچى صارخ إذا ما أردنا أن نسبر غور هذه الأعماق بمنهج لايصلح لها، والخطأ الذى يقع فيه بعض علماء النفس هو تصورهم للموضوعية على نحو يكاد أن يكون ميتافيزيقيًا من حيث إنهم يفترضون أنه يصلح لكل شىء فى البحث ما دام- هو - مشابهًا للبحث فى طرائق العلوم الفيزيائية .

ومع ذلك ، فإن البحث فى ميادين العلوم الفيزيائية ما تقدّمت فروعه إلا لأن كلاً منها قد فاز بمنهج ملائم لموضوع بحثها ، فهل كنّا نستخدم التليسكوب للبحث عن البكتيريولوچيا ، أو هل كنّا نستخدم الميكروسكوب للنظر ولفحص عالم الفلك، وهل هو بخافٍ أنّ ما استطاعه علم البكتيريولوچيا من تقدم حاسم لم يتأت إلا بعد اختراع الميكروسكوب ، ثم الإجراءات المعملية وابتداعات باستير فى ميدان البكتيريولوچيا . والأمر بالمثل فى كل علم من العلوم . إذ لا بد من منهج خاص يتناسب وموضوع البحث فى هذا الميدان الخاص ، فالقول بأن هناك منهجًا وحيداً علميًا يطبق فى كل بحث مهما اختلف ميدانه إنما يفترض افتراضًا ميتافيزيقيًا - دون أن يدرى أنه يقول بهذا- إنه قد خرج من ميدان العلم إلى ميدان الميتافيزيقا .

ولنأت إلى سؤال آخر ، هل تستخدم وسائل البحث فى علوم مثل الكيمياء والفيزياء والأحياء عمليات منهجية هى هى فى كلٍ من هذه العلوم .

إن القول بهذا يعنى أننا نفرض على كثرة التجربة نمطًا واحداً نعرفه فى ميدان واحد صالح له ، ومن هنا أيكون عالم الإنسان هو هو عالم الفيزياء حتى نتشبث بمناهج البحث فى العلوم المضبوطة «الفيزياء وما إليها» ونفرضه فرضًا على مجال الإنسان بما هو إنسان ، وهل يصح فى الأذهان أن ننقل نتائج البحوث فى ميدان الفسيولوچيا ، بما فى ذلك الفعل المنعكس الشرطى ، على الإنسان الذى وجد بما هو عليه من حيث إن التراكمات الكمية جعلته يخطو نحو الاختلاف الكيفى ... وليس بخافٍ على أحد أن أول شاغل للباحث فى معظم البحوث التى تتم فى عالم الغرب والشرق إنما هو الظفر بمنهج يلائم موضوع بحثه ، وهو ما يحدث فعلاً لا فى العلوم الإنسانية فحسب إنما فى العلوم الفيزيائية أيضًا ، وما سر اكتشاف أعماق النفس على يد فرويد إلا لأنه وقع بحدس نافذ على منهج التداعى الطليق . ولقد دأبت مؤسسات علمية كبيرة فى كلٍ من أمريكا والعالم الغربى فى أوروبا على محاولة التأليف بين قضايا علم النفس التقليدى وقضايا علم النفس المستند إلى التحليل النفسى ، بل أضافوا إلى ذلك - أيضًا - قضايا علم الأنثروبولوچيا المعاصرة ، فكان لهم من مجموع هذه القضايا المتضافرة من هذه الميادين الثلاثة ما استفاد كل منهم من بحوث الميدانين الآخرين، وهذا هو طابع مدارس ييل وهارڤارد وغيرها . ونذكر، على سبيل المثال لا الحصر ، الجهد الذى بذله هنرى موريه فى الاستفادة من كلٍ من علم النفس التقليدى من جهة ، وعينه لاتغمض فى الآن نفسه عن قضايا التحليل النفسى، فكان من أثر ذلك اختباره المشهور «اختبار تفهم الموضوع».

وفى رأينا أن الدراسة المتعمقة للإنسان بما هو إنسان لابد وأن تبدأ بأسلوب البحث فى التحليل النفسى حتى إذا ظفرنا بقدرٍ كافٍ من المعارف نخضعها لأسلوب التحليل العاملى وغيره من أساليب البحث فى القياس النفسى والتجريب للتحقق من صحة القضايا التى سبق الكشف عنها بمنهج التحليل النفسى- أو من بطلانها ، بوصفها فروضًا نصوغها على نحو إجرائى ، وهو ما أنجز بعضه ريمون كاتل ومن نحا نحوه .

وقد نشرت فى الآونة الأخيرة بحوث كثيرة اختطت لنفسها هذه الخطة، وأمام ناظرينا بحوث «ريمون كاتل» وغيره بعد أن أضفوا على قضايا علم نفس الأعماق تعريفات إجرائية مناسبة للتحقق بالتحليل العاملى .

ومن هنا يبين لنا أن المؤلف قد فطن - كما فطن زملاؤه فى نفس المدرسة - إلى وظيفة كل من أدوات البحث فى علم النفس ؛ فمنهج البحث فى أعماق النفس يقتضى استخدام كل التكنيكات التى أبان الزمن الطويل عن فائدتها وضرورتها، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة التجريب والقياس بأساليبهما المختلفة ، وعلى الأخص التحليل العاملى ، لكى تقيم الدليل على صحة هذه الفروض أو تفنيدها .

وليس غريبًا ، والحالة هذه ، أن يبدأ المؤلف كتابه بفصل * عن مناهج البحث بعامة فى علم النفس والتحليل النفسى بخاصة : ثمّ يعرِّج بعدها على العديد من الميادين التى يهتم بها علم النفس ، وهو فى ذلك كله ابن لمدرسة عين شمس تفخر به ويفخر بها ، وها هو يقدِّم لنا موضوعًا يفيد منه كل راغب فى الإحاطة بميادين البحث فى علم النفس، باذلاً من الجهد الأكاديمى الصادق والأمانة العلمية ، اللتين اتَّصف بهما دومًا ، ما يجعل عمله جديراً بالقراءة، وليس أدلُّ على دأبه واهتمامه بمادته من تطبيقه لاختبار وكسلر - بلفيو على عينة من الشعب المغربى ، وتقنينه للاختبار هناك إبان عمله مدرسًا بجامعة الرباط ، مما جعله سفيراً طيبًا لبلده وعلمه ومدرسة عين شمس .

مصطفى زيور

دكتور فى الطب

رئيس عيادة الأمراض النفسية

بكلية الطب بجامعة باريس سابقًا

أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس

عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسى

---

* حدث هذا بالفعل فى أول طبعة للكتاب عام ١٩٧٨ .

مُقدّمَة الطبعة الأولى

هذه مجموعة من البحوث والمقالات التى سبق أن كتبتها فى موضوعات مختلفة ، رأيت أن أجمعها فى هذا الكتاب ، هادفًا من ذلك إلى بيان ما يمكن لعلم النفس أن يقدِّمه من إسهام فى استجلاء بعض الحقائق المتعلقة بهذه الموضوعات ، وإلى بيان ما يمكن لعلم النفس تقديمه من خدمات فى مجالاتها .

ومع أنَّ هذه الموضوعات متباينة إلا أنه يجمع بينها كونها قضايا تهم عالمنا الحاضر وتشغل علمنا المعاصر ، مما ارتأيت معه أن أجعل عنوان هذا الكتاب الذى يجمعها ، «علم النفس وقضايا العصر» .

فرج عبد القادر طه

مدينة نصر فى ١٩٧٨

مدخل : علم النفس وأهدافه

تمهيـــد :

لكتاب عن «علم النفس وقضايا العصر» يحسن أن نقدم بتعريف لعلم النفس مع مناقشة لأهدافه . أمَّا عن تعريف لعلم النفس ، فمما لاشكَّ فيه أن تعريف أى علم من العلوم ، وبخاصة إذا كان من العلوم الإنسانية شأن علم النفس ، يعتبر شائكًا إلى حد بعيد ، بحيث يكاد يستحيل على القائم به أن ينجح فى وضع التعريف المثالى ، والذى يحقق به الخاصية الشهيرة للتعريف الدقيق من حيث كونه جامعًا مانعًا . ذلك أن الحدود الفاصلة بين علم وغيره فى كثير من الحالات تكون حدوداً هولامية يكتنفها الكثير من الظلال ، ويشوبها الكثير من الخلط ، حتى أنه نشأت علوم حديثة نسبيًا تقع بين علم وآخر آخذة من هذا ومتداخلة مع ذاك . فهناك - على سبيل المثال - علم النفس الاجتماعى الذى يأخذ من علم النفس ويتداخل مع علم الاجتماع ، وعلم النفس الفسيولوچى الذى يأخذ من الفسيولوچيا ويتداخل مع علم النفس، وعلم الكيمياء الحيوية الذى يأخذ من علم البيولوچيا ويتداخل مع علم الكيمياء . . .

إلا أن هذا الاستدراك لاينبغى أن يعفينا من محاولة وضع تعريف لعلم النفس -على نحو ما نعتقد به- فى هذا الكتاب ، الذى نبحث فيه إسهامه فى دراسة بعض القضايا التى تستحوذ على اهتمامنا ، أو تستثير تساؤلاتنا .

ما هو علم النفس :

علم النفس هو العلم الذى يدرس سلوك الإنسان ، بأوسع معنى لمصطلح السلوك ، بحيث يشمل نشاط الإنسان فى تفاعله مع بيئته تعديلاً لها حتى تصبح أكثر ملاءمة له ، أو تكيفًا ذاتيًا معها حتى يحقق لنفسه أكبر توافق معها . والسلوك بهذا المعنى الشامل الواسع يتضمن ما هو ظاهر يمكن للآخر إدراكه ؛ كتناول الطعام والشراب والمشى والجرى والقفز والاعتداء بالضرب والقيام بالأعمال والواجبات، كما يتضمن ما هو غير مدرك إلا من صاحبه ؛ مثل التفكير الصامت والتخيل والتذكر والأوهام والمخاوف والآمال والحزن والسرور والغضب ، وما

إلى ذلك من انفعالات قد لاتصاحبها مظاهر مكشوفة يحسها الآخرون ، بل إن السلوك يتضمن ما لايستطيع أن يدركه حتى القائم به ذاته ؛ مثل ما يعتمل داخل النفس من دوافع ورغبات وآمال ومخاوف لايشعر بها صاحبها ، وحتى إن شعر بها فهو لايعرف كنهها الحقيقى ؛ لأنها لاشعورية فى أساسها على نحو سلوك النائم فى تخييلات أحلامه وما يراه فيها ، بل وحركته الفعلية أثناءها ؛ كالكلام بصوت مسموع أو المشى أثناء النوم، وعلى نحو -أيضًا- أعراض الأمراض النفسية ومظاهرها عمومًا . كما يتضمن السلوك بالمثل ما تقوم به أجهزتنا الجسمية من نشاطات قد نستطيع الإحساس بها ؛ كالتنفس وطرفة العين ، وقد لانستطيع أن نحسها حتى لو قصدنا إلى ذلك؛ مثل إفرازات المعدة وإفرازات السكر فى الدم ...

ومن الجدير بالذكر أن علم النفس كثيراً ما يلجأ إلى دراسة سلوك الحيوان مما يبدو مناقضًا لتعريفنا الذى عرضناه ، حيث دراسته لسلوك الإنسان . لكننا ينبغى أن نذكر أن علم النفس عندما يدرس سلوك الحيوان - على الأقل حتى يومنا هذا - إنما يكون هادفًا أساسًا منه إلى إلقاء مزيد من الضوء وتحقيق مزيد من المعرفة بسلوك الإنسان . وكأن علم النفس فى هذا الموقف يتخذ من الحيوان سلمًا لمعرفة الإنسان وفهمه ، ذلك أن عالم النفس كثيراً ما يرى ضرورة إجراء تجارب لفهم سلوك الإنسان وتفسيره، لكنه يعجز عن ذلك، أو تعترضه عقبات تحول دون غرضه، فيستبدل التجريب على الحيوان بالتجريب على الإنسان . ونضرب لذلك مثلاً بتجربة تريون Tryon (٢ : ١٣٨) التى قام فيها بدراسة توارث القدرة على تعلم اجتياز المتاهة فى ثمانية عشر جيلاً من الفئران البيض . فكان يعرض الفئران لاختبار يقيس به هذه القدرة لدى كل منها . ثم يزاوج بين أفضل أبناء جيل الآباء الممتازين فى قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجًا انتقائيًا فى كل جيل من هذه الأجيال الثمانية عشرة، وفى مقابل هؤلاء كان يزاوج بين أقل أبناء جيل الضعفاء فى قدرتهم على تعلم اجتياز المتاهة تزاوجًا انتقائيًا بالمثل فى تلك الأجيال. وهكذا ، كانت ذكور الفئران الممتازة فى القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتزاوج مع إناث الفئران الممتازة، كما كانت ذكور الفئران الضعيفة فى هذه القدرة تتزاوج مع إناث الفئران الضعيفة . وقد كان تريون يضبط تلك الظروف البيئية التى كانت تعيش فيها كل من مجموعتى الممتازين والضعاف ؛ مثل مكان الإقامة والتغذية والتهوية والحرارة والرطوبة .. بحيث يحقق للمجموعتين تعادل البيئة . ولقد تبين لتريون من تجربته هذه أن القدرة على تعلم اجتياز المتاهة تتأثر بعامل الوراثة بشكل واضح . وليس بخاف أن هذه القدرة يمكن أن تقابل ما يعرف بالذكاء عند الإنسان .

لقد استطاع المجرب فى تجربته تلك أن يتدخل فى حرية الحيوان الشخصية، فجعله يتزاوج مع من يحدده له ، كما جعله يعيش فى ظروف ضبطها له ، كما تمكن نتيجة قصر دورة حياة الحيوان أن يدرس عدداً كبيراً من الأجيال فى بضع سنوات قليلة ، مما جعله يدرك فى سهولة وسرعة واطمئنان انتقال الخصائص الوراثية من جيل لآخر ، ولأجيال كثيرة ، مما يكاد يستحيل عليه فيما لو أصر على التجريب على إنسان . فى هذه التجارب ومثيلاتها على الحيوان يكون الهدف المضمر أو المعلن لعالم النفس هو أن يستشف بالقياس على الحيوان معرفة أدق وفهمًا أشمل وتفسيراً أضبط لسلوك الإنسان وخصائصه النفسية . وواضح أن عالم النفس ما كان يستطيع ذلك لولا أن سبقه دارون فى القرن الماضى، فأقام بنظريته فى التطور الدليل على القرابة الحميمة بين الإنسان والحيوان .

ما هى أهداف علم النفس

علم النفس ، شأنه فى ذلك شأن غيره من العلوم ، يتفق معها فى الأهداف الأساسية للعلم، عندما يتناول ظواهره بالدراسة والبحث . وهذه الأهداف هى :

١- الفهم والتفسير .

٢- الضبط والتحكم .

٣- التنبؤ .

أولاً - الفهم والتفسير :

الإنسان ، منذ بدأ تاريخه حتى الآن ، يجاهد ليعرف كنه ما يحيط به من ظواهر محاولاً فهمها وتفسيرها . وعندما لم يكن يسعفه علمه أو منهجه فى الوصول إلى الفهم السليم والتفسير الصائب كان يضطر إلى التفكير الغيبى ، يفسر به ويعلل حدوث الظواهر معتقداً فى سلامته وصدقه . فظواهر الخير ترجع إلى رضا الآلهة عن البشر ، وظواهر الكوارث والمصائب ترجع إلى غضب الآلهة عليهم وانتقامها منهم ... وهذا الضرر الذى أصاب فلانًا سببه السحر الذى سعى إليه عدوه ، واستعادة هذا المريض لصحته يرجع إلى التميمة المباركة من عمل هذا العرّاف الطيب ، وهذا المرض الذى ذهب بعقل هذا المهووس فاضطرب له سلوكه واعتل تفكيره إنما يرجع إلى شيطان نجس قد تسلل إلى جسمه فسكنه ، وليس من سبيل إلى شفائه إلا بطرد هذا الشيطان الخبيث وخروجه من جسمه . وليس بخافٍ أننا لا زلنا حتى اليوم نجد

بقايا هذا الفهم والتفسير منتشراً بين عدد لا بأس بحجمه فى مختلف المجتمعات ، خاصة المتخلفة منها . ذلك أن الإنسان لايطيق الغموض ويفزع من المجهول ، فيسعى إلى استجلائه معتسفًا المعرفة والأسباب والعلل ، حتى أن بعض علماء النفس يعد حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة غريزة مغروزة فى البشر بحكم تكوينهم وطبيعتهم .

وبالمثل ، فإننا نجد أن هدف الفهم والتفسير والمعرفة من أول الأهداف الأساسية التى يسعى العالم لتحقيقها من بحثه فى الظواهر التى تقع فى مجال اختصاصه . فالباحث فى مجال علم الطبيعة -مثلاً - يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويعلل أسباب حدوث ظاهرة طبيعية؛ كتمدد المعادن بالحرارة على سبيل المثال ... وعالم النفس بالمثل -أيضًا- يريد أن يعرف ويفهم ويفسر ويكتشف أسباب حدوث الظاهرة النفسية؛ كالتفوق الدراسى، أو التوافق المهنى، أو المرض الهستيرى .

ثانيًا - الضبط والتحكم :

من القول المأثور إنك إذا عرفت استطعت ؛ بمعنى أن الإنسان إذا نجح فى فهم أسباب حدوث الظاهرة ومعرفة عواملها استطاع أن يؤثر فى مسار الظهارة نفسها ويتحكم فى حدوثها ، فيمكنه أن يهيئ لها أسباب حدوثها فتحدث ، كما يمكنه أن يغير فى هذا العامل أو ينقص من هذا أو يزيد من ذاك ، أو يلغى أو يضيف ، فتتأثر تبعًا لذلك الظاهرة وتتحور ، بل إنها تصير وفق ما نريد ، أو تختفى وقتما نشاء .

إذن ، فنحن هنا نتحكم فى الظاهرة ونضبطها بناءً على معرفتنا بمسببات حدوثها وتغييرها واختفائها وظروف كل ذلك . وبمعنى آخر ، فإننا بناءً على تحقيق الهدف السابق (الفهم والتفسير) ننطلق لتحقيق الهدف الحالى . إذن، فإننا نتوقع أن يؤدى وجود قصور ما فى معرفتنا وفهمنا وتفسيرنا للظاهرة إلى أن تقل كفاءتنا فى ضبطها والتحكم فيها ، ومن الصعب أن يستقيم لنا ذلك ما لم يستقم لنا الفهم وتسلم المعرفة .

ولئن بدا لنا الهدف الأول للعلم هدفًا نظريًا بالدرجة الأولى يستهدف ترف العلم وإشباع حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة واستجلاء الغموض - وهو حتى بهذه النظرة لابأس به فى حد ذاته - فإن الهدف الثانى ، الذى نحن بصدده الآن ، هو فى الواقع هدف تطبيقى نفعى إلى أبعد حد. فنحن نريد أن نتحكم فى الظواهر حتى تحدث فى الوقت المناسب وبالشكل الذى يحقق لنا الفائدة ويقينا الأضرار . فمثلاً ، من معرفتنا تمدد المعدن بالحرارة نصمم قضبان

السكك الحديدية، ونثبتها بالطريقة التى لاتجعلها تتقوس أو تتزحزح عندما تتعرض لحرارة الشمس حتى لايضطرب سير القطار عليها . وبالمثل، فإنه بناءً على معرفتنا بأسباب الصحة النفسية نعمل على تهيئتها لأبنائنا وعلى علاج اضطراباتها فيهم ... ولذلك، فإننا نجد أنه عندما تسبق الرغبة فى ضبط الظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من اللازم، لإتمام هدف الضبط، أن نبدأ أولاً بتحقيق هدف الفهم والتفسير.

ثالثًا – التنبؤ :

أما الهدف الثالث من أهداف العلم الأساسية فهو إمكانية التنبؤ بحدوث الظاهرة قبل أن تقع . وتنبنى إمكانية تحقيق هذا الهدف- كسابقه أيضًا – على استقامة فهم الظاهرة وسلامة تفسيرها ودقة معرفتها ؛ أى على مدى الدقة فى تحقيق الهدف الأساسى الأول من أهداف العلم . وهذا التنبؤ يعتبر هدفًا تطبيقيًا نفعيًا يمثل ما يعتبر الهدف الأساسى الثانى والخاص بالضبط والتحكم ، ذلك أننا نتوقع حدوث الظاهرة متى أدركنا توافر مقدماتها وتهيؤ عواملها ، مما يمكننا عند ذاك من الاستعداد لملاقاة الظاهرة بما نستطيع معه جنى أكبر فوائدها وتحاشى معظم أضرارها . فمثلاً ، نحن نسمع عن انتشار وباء فى بلد قريب ، ونعلم أن العدوى من أهم مسبباته ، فنتخذ من هذه المعرفة أساسًا للتنبؤ بانتشار هذا المرض عندنا مستقبلاً ما لم نسارع إلى حصاره ومقاومته بتحصين المواطنين ، ومنعهم من السفر إلى هذا البلد الموبوء ، ومنع مواطنى هذا البلد من الدخول إلى بلدنا إلا بعد الفحوص الطبية والتحصينات ومختلف الاحتياطات التى تمنعهم من نقل الوباء إلينا . ولنا أن نتصور -أيضًا- فى حالة التنبؤ المسبق بموعد زلزال مدمر فى منطقة ما كيف يمكن لساكنيها -نتيجة هذه المعرفة المسبقة- تفادى الكثير من أضرار هذا الزلزال الذى يستطيع أن يضرهم أبلغ الضرر فيما لو داهمهم دون سابق توقع .

وبالمثل، يدرس عالم النفس عوامل النجاح الدراسى وعوامل الفشل الدراسى ومسببات كلٍ منهما ، فيمكنه استناداً على هذا أن يتنبأ بمن يحتمل نجاحه ومن يحتمل فشله قبل أن يتعرض للموقف الفعلى للدراسة ، وبالتالى يستطيع أن يوجه التلاميذ أو الطلبة توجيهًا تربويًا أو مهنيًا يحفظ لهم مستقبلهم التربوى والمهنى ، فيحقق لهم ولمجتمعهم أفضل النفع ويجنبهم أشد الضرر . ولذلك، فعندما تسبق الرغبة فى التنبؤ بالظاهرة فهمها وتفسيرها يصبح من الضرورى لتحقيق التنبؤ أن نبدأ بتحقيق الفهم والتفسير لهذه الظاهرة .

العلاقة بين أهداف العلم :

عرضنا فيما سبق الأهداف الثلاثة الأساسية للعلم بصفة عامة ، ولعلم النفس بصفة خاصة، والآن ينبغى أن نناقش العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة . ما من شك فى أن العلاقة بين هذه الأهداف الثلاثة علاقة شديدة الوثوق ، وهى فى جانب منها تعتبر علاقة فى اتجاه واحد ، بينما تعتبر من الجانب الآخر علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين الأهداف الثلاثة . فمن حيث العلاقة فى الاتجاه الواحد ، نجد أن العلم ينطلق من فهم ومعرفة أسباب الظاهرة إلى التحكم فيها بناءً على هذا الفهم وتلك المعرفة ، كما أن العلم ينطلق -أيضًا- من فهم أسباب الظاهرة ومعرفتها - مرة أخرى - إلى التنبؤ بها ، ثم أخيراً إلى ضبط ما سوف تكون عليه حتى يتحقق أكبر النفع ويقل الضرر . ومن الواضح أن دقة الضبط وكذا دقة التنبؤ ، سوف تعتمدان على دقة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة ، بحيث يختل الضبط ويفشل التنبؤ بمقدار مايعيب التفسير والفهم والمعرفة من نقص أو ضعف أو قصور . ومن هنا كانت حيطة العالم واهتمامه أن يصل إلى أكبر توفيق فى فهمه وتفسيره لظاهرته وإحاطته بعواملها حتى يضمن تقديم أكبر فائدة لعلمه ومجتمعه .

أما من الجانب الآخر ، فإن هذه العلاقة بين الأهداف الثلاثة تعتبر فى جوهرها علاقة جدلية متبادلة الاتجاهات بين كلٍ منها . فنحن نسلم بأن التحكم والتنبؤ يعتمدان على مدى دقة الفهم وصواب التفسير وسلامة المعرفة . لكن ، ماذا يحدث عندما يتبين للعالم أن التحكم الذى قام به على أساس من فهمه وتفسيره ومعرفته للظاهرة لم يكن تحكمًا بمستوى الدقة الذى كان يتوقعه؟ لا بد له عندئذٍ من أن يعاود بحث الظاهرة من جديد ، محاولاً أن يعالج ما أصاب فهمه ومعرفته وتفسيره للظاهرة من ضعف أو قصور حتى تستقيم له المعرفة والفهم والتفسير ويزول ما علق بها من قصور ، عندئذٍ يعاود التحكم فى الظاهرة بناءً على معرفته الأصوب بعوامل الظاهرة ومسبباتها، فإذا بقدرته على التحكم تزداد وتقوى. ويصدق نفس الموقف عندما يفشل التنبؤ بناءً على الفهم السابق للظاهرة وعواملها ، إذ لابد للعالم عندئذ من معاودة بحث عملية الفهم واستجلاء عوامل حدوث الظاهرة ومسبباتها، حتى ترتفع دقته فى كل ذلك، فتزداد تبعًا لذلك درجة نجاحه فى التنبؤ . هذا، وفى نفس الوقت سوف نجد أن كلاً من دقة الضبط ودقة التنبؤ المبنيين على فهم الظاهرة وتفسيرها سوف تعودان بزيادة الثقة فى دقة هذا الفهم وسلامة ذلك التفسير . وهكذا، تستمر العلاقات الجدلية المتبادلة بين الأهداف الثلاثة للعلم دافعة العلم نحو مزيد من التقدم والرسوخ.

هذا ، ونظراً للطبيعة التراكمية للعلم، فإننا نجد أن كل عالم يضيف إلى ما أضافه سابقوه، كما يستفيد من منجزاتهم فى بحثه لظواهره وفى تحقيقه لأهداف علمه، وبالتالى يكمل العلماء بعضهم بعضًا ربما حتى فى تحقيق أهداف العلم فى بحث ظاهرة مفردة ، وبغير هذا لايطرد تقدم العلم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأهداف الأساسية للعلم -على نحو ما ناقشناها الآن- تؤكد أن العلم والعالم معًا ليسا مقطوعى الصلة بالمجتمع ، بل إنهما فى خدمته بمثل ما هما نتيجته . فالعالم نادراً ما يبحث بهدف «العلم للعلم» ، وإنما يبحث أساسًا بهدف «العلم للمجتمع»، كما أن مشكلات مجتمعه وظروفه وأمانيه هى التى تدفع عمله العلمى وتوجهه وترتفع به ، أو تقاومه وتحاصره وتعوق مسيرته . إذ «ليس العلم ظاهرة منعزلة ، تنمو بقدرتها الذاتية وتسير بقوة دفعها الخاصة وتخضع لمنطقها الداخلى البحت ، بل إن تفاعل العلم مع المجتمع حقيقة لاينكرها أحد . فحتى أشد مؤرخى العلم ميلاً إلى التفسير (الفردى) لتطور العلم ، لايستطيعون أن ينكروا وجود تأثير متبادل بين العلم وبين أوضاع المجتمع الذى يظهر فيه ، حتى ليكاد يصح القول بأن كل مجتمع ينال من العلم بقدر ما يريد» (١ : ٢١٧) .

معيار تقدم العلم :

إننا إذا ارتضينا الأهداف الثلاثة السابقة بحسبانها الأهداف الأساسية للعلم فأغلب الظن أننا سوف نرتضى اتخاذها معياراً نقيم على أساسه مدى تقدم علم أو تخلفه. فالعلم الذى لايستطيع أن ينجح فى تحقيقها مجتمعة، بحيث يتخلف عن تحقيق أحدها هو علم متخلف بمقدار تخلفه عن تحقيق هذا ؛ مثل علم الفلك الذى لم يستطع حتى الآن أن يتحكم فى حركة كوكب أو ظهوره وأفوله فى حين أن دقته فى تحقيق الهدفين الآخرين دقة كبيرة ؛ أعنى التفسير والتنبؤ . كما أن العلم الذى يمكنه تحقيق الأهداف الثلاثة مجتمعة ، لكن بمستوى قليل من الدقة ، هو -أيضًا- علم متخلف .

وفى ضوء هذا المعيار الذى نضعه لتقدير العلم أو تخلفه نرى أن علم النفس قد حقق تقدمًا لابأس به كعلم يمكنه أن يحقق الأهداف الأساسية الثلاثة للعلم مجتمعة ، وبدرجة مرضية من الدقة . وهذه الدرجة من الدقة ، وإن لم تصل بعد إلى مستواها فى العلوم الطبيعية المتقدمة ، إلا أن علماء النفس يجاهدون لرفعها أكثر عن طريق محاولاتهم الدؤوبة لتطوير منهجهم فى

البحث والتقصى ، وعن طريق الاستعانة بأدوات البحث المتطورة وبالأساليب الإحصائية المتقدمة . ولما كانت مسألة تقدم علم أو تخلفه ، هى بالدرجة الأولى مسألة نسبية ، فإن كثيراً من علماء النفس يقتنعون بما وصل إليه علمهم من تقدم خاصة مع ما هو معروف عن التعقد الشديد فى طبيعة ما يدرسونه من ظواهر ، وما هو معروف عن الحداثة النسبية لانسلاخ علمهم عن الفلسفة، واستقلاله عنها موضوعًا ومنهجًا ، وهو حدث مضى عليه الآن فترة قليلة نسبيًا من الزمان ، منذ أن أنشأ فندت Wundt أول معمل لعلم النفس فى العالم كله ، وكان ذلك بجامعة ليبزج فى ألمانيا عام ١٨٧٩ .

* * *

المراجع :

١- فؤاد زكريا : التفكير العلمى، سلسلة عالم المعرفة ، ٣ ، الكويت ، ١٩٧٨ .

٢- Anastasi, A & P. Foley. Differential Psychology. The Macmillan Company, New York , 1954 .

أولاً

مقالات وبحوث ومؤتمرات

علم النفس وقضية التنمية *

تمهيـــد :

تعتبر التنمية (بمختلف جوانبها) قضية هامة تشغل كافة المجتمعات على اختلاف المذاهب الأيديولوچية التى تتبناها وتتخذها أساسًا لتنظيم النشاط والإنتاج والعلاقات فيها، بل إن كثيراً من المجتمعات تتباهى بأنها حققت معدلات تنمية ترى أنها فاقت فيها غيرها، أو فاقت فيها ما توقعته أو خطّطت له ، بينما نجد مجتمعات أخرى فشلت فى تحقيق معدل التنمية الذى توقعته أو خططت له تشير إلى هذا الفشل فى استحياء ، وتجهد نفسها بحثًا عن تبرير مقبول بين أفرادها فى الداخل وأصدقائها أو منافسيها فى الخارج . والسبب فى اهتمام المجتمعات بقضية التنمية واضح ، ذلك أن التنمية فى نهاية الأمر تعنى مزيداً من الإنتاج الذى يحتاجه المجتمع لاستهلاكه ولرفاهيته ولتصدير فائضه أو المبادلة عليه لقاء سلع أخرى يحتاجها من مجتمع آخر ، كما أنها تعنى -أيضًا- مزيداً من النجاح فى مواجهة المشاكل الاجتماعية الهامة وحلها ، سواء مشكلة الفقر أو مشكلة الأمية أومشكلة البطالة .. وما إلى ذلك من مشكلات يصعب حصرها ، ويضيق بنا المقام عن ذكرها .

وتقوم مختلف العلوم بمختلف فروعها بدور أساسى فى تحقيق التنمية . ولاشك أن معدلات التنمية الهائلة فى أمريكا وفى روسيا وفى الصين وفى اليابان وغيرها ما كانت لتتم لولا التقدم العلمى المذهل الذى وصلت إليه هذه البلاد ، والذى تبعه استخدامه التطبيقى لتحقيق التنمية . بل إن أوروبا التى تحطمت من جراء حربين عالميتين عنيفتين فى أقل من ثلث قرن، ما استطاعت أن تقوم هذه القومة المذهلة فى سرعتها بعد هذا التحطيم الشديد إلا على أساس متين من العلم واستخداماته التطبيقية . ويكفى دليلاً على ذلك سرعة نهضة ونمو كل من روسيا وألمانيا واليابان بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد كل التدمير الذى تعرضت له من جرائها .

---

* نشر هذا البحث فى مجلة «المناهل» المغربية : الرباط ، وزارة الثقافة ، مجلد : ٣ ، عدد : ٦ ، ٣٣٦- ٣٥١ ، يوليو ١٩٧٦ .

وفى هذا المقال نحاول طرح الدور الذى يقوم به علم النفس كأحد العلوم المختلفة التى تتشابك فى وضع الأساس العلمى للتنمية فى أى مجتمع مهما كانت قيمه واتجاهاته . ونظراً لأن علم النفس يتخذ من الشخصية الإنسانية وسلوكها موضوعه الرئيسى، ونظراً -أيضًا- لأن التنمية تعتمد بدرجة كبيرة على نوعية وخصائص الشخصية السائدة فى المجتمع الذى ينشد التنمية ، فإن خدمة علم النفس - فى رأينا- لقضية التنمية ترتكز على منطلقات أربعة ، تتعلق ثلاثة منها بالشخصية ، فى حين أن المنطلق الرابع ينعكس فى نهاية الأمر بالتأثير عليها. أما هذه المنطلقات الأربعة فإننا نحددها فى التالى :

١- تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها .

٢- الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها .

٣- الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطربت .

٤- علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها .

ونتناول فيما يلى كلاً من هذه المنطلقات الأربعة بشىء من التفصيل :

أولاً - تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها :

إن الشخصية الإنسانية -منذ تكوينها جنينًا وطوال حياتها- فى حاجة مستمرة إلى الرعاية التى تحقق لها تنمية إمكانياتها وطاقاتها واستعداداتها الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة حتى تصل إلى المستوى اللائق بما ينتظر منها فى مثل مراحل حياتها وظروفها ؛ فالرعاية الطبية والاجتماعية للمرأة الحامل تتضمن رعاية للجنين وتهيئة أنسب الظروف لنموه الطبيعى. كما أن رعاية الأم لوليدها ، ثم بعد ذلك رعاية المدرسة لتلاميذها ، ومن بعد رعاية مؤسسة العمل لمستخدميها ورعاية المجتمع عامة لأفراده ، كلها تهدف إلى تحقيق نفس الهدف الخاص بتنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعداداتها المختلفة حتى يمكنها أن تؤدى دورها وتواصله بالكفاءة اللازمة لعملية التنمية التى يستهدفها المجتمع .

ويقوم علم النفس بدور ذى قيمة كبيرة فى هذا المجال . فهناك الدراسات والتوصيات الهامة الكثيرة التى يقدمها علماء النفس، والخاصة بكيفية رعاية الأم خاصة والأسرة لأطفالها وتربيتها وتنشئتها لهم بالكيفية التى تسمح لهؤلاء الأطفال بتفتح إمكانياتهم الجسمية والعقلية والشخصية، وتحافظ على صحتهم النفسية وتغرس فيهم الفضائل الخلقية ، بل إن

وسائل الإعلام الجادة من صحافة وإذاعة وتليفزيون كثيراً ما تعهد إلى بعض علماء النفس ومتخصصيه بإعداد المقالات والأحاديث والموضوعات والبرامج النفسية التى ترشد الآباء والأمهات وأفراد المجتمع عامة إلى كيفية تربية الأطفال وتنشئتهم ، وتناول مشكلاتهم ، وعلاج انحرافاتهم .

وتزخر كتب علم النفس عامة ، وتلك التى ألفها المحللون النفسيون وعلماء نفس الطفل خاصة ، بالبحوث والآراء التى تؤيد ما قلناه فى مجال رعاية الأطفال وتنشئتهم . ولايتسع المقام هنا إلا لإيراد مثلين على ذلك :

١- فى بحث شامل قامت به كمنجز Cummings (١٤ : ٣٤) فى إنجلترا ، نشر عام ١٩٤٤ على ٢٣٩ طفلاً بين الثانية والسابعة من العمر لدراسة الاضطرابات النفسية الشائعة بينهم ، وكانوا يوجدون فى دور حضانة وفى مدارس للأطفال ، تبين منه أن الآباء فى ٣٥ حالة يمكن تصنيفهم إلى مجموعتين : مجموعة المهملين لأبنائهم ومجموعة المهتمين أكثر من اللازم (أو المنشغلين أكثر من اللازم بأبنائهم أو المفرطين فى تدليل أبنائهم) كما تبين أنه كان يوجد فارق كبير بين أطفال المجموعتين ؛ فأطفال الآباء المفرطين فى تدليلهم أظهروا صفات العصبية أكثر من الأطفال المهملين . بينما أظهر الأطفال المهملون صفات مضادة للمجتمع أكثر من الأطفال المدللين (مثل صفات العدوانية ، والقسوة ، وإدمان الكذب) .

ولنا أن نتساءل : ما دلالة معلومة قد تبدو بسيطة كهذه ؟ لاشك أن دلالتها كبيرة ، وهى ذات فائدة أكبر . إنها تقول لنا بكل بساطة ووضوح : إذا كان لنا أن نربى أطفالاً تتحقق لهم الصحة النفسية ، ويتوفرون على الخصائص اللازمة لتنشئة رجال المستقبل بما يضمن السلامة النفسية والخلو من الاضطرابات السلوكية التى تضعف الشخصية وتهد قواها وتقعدها عن أداء دورها المنتظر فى عملية التنمية ، فلا بد لنا من الاعتدال أثناء تنشئة أطفالنا بين الاهتمام والإهمال .

٢- مشكلة الطفل الوحيد : من الملاحظات الشائعة أن الطفل الوحيد لوالديه، سواء كان ذكراً أو أنثى - غالبًا ما تشيع فيه الاضطرابات النفسية أكثر من أقرانه . ولقد لفتت هذه الظاهرة أنظار المحللين النفسيين على وجه خاص ، بسبب ميلهم إلى الغوص فى أعماق العلاقات النفسية بين الأبناء والآباء وبين الأخوة بعضهم البعض ، وبسبب -أيضًا- ما يعرض على المحللين النفسيين من حالات مرضية طلبًا للعلاج، سواء من الأطفال الوحيدين، أو الراشدين الذين كانوا أطفالاً وحيدين .

وكنموذج لدراسات وتعليقات المحللين النفسيين على هذه الظاهرة سنكتفى بالرجوع إلى علمين من أعلام التحليل النفسى ؛ أحدهما هو بريل Brill ، وهو من أول وأشهر المحللين الأمريكيين الذين تتلمذوا على يد فرويد وزاملوه وصادقوه وترجموه إلى الإنجليزية ، أما الثانية فهى ميلانى كلاين Melanie Klein ، وتعتبر من أشهر المحللات النفسيات على الإطلاق، ومؤسسة أشهر مدرسة ذات اتجاه تحليلى للأطفال هو العلاج باللعب بدلاً من طريقة التداعى الطليق التى لاتتناسب صغار الأطفال بقدر مناسبتها للكبار .

ولنبدأ ببريل الذى أفرد فصلاً خاصًا فى كتابه : «المبادئ الأساسية للتحليل النفسى» هو الفصل الحادى عشر ، والمعنون «الطفل الوحيد» (٨ : ٢٥٤ - ٢٦٨) .

ومما يذكره عن اضطراب الشخصية والضعف النفسى فى الطفل الوحيد أنه يحتل مكانة خاصة فى المنزل، وأن الآباء - سواء تعمدوا أو لم يتعمدوا- دائمًا يشبعون رغبات الطفل الوحيد ويفسدونه بالإفراط فى تدليله . ويحوطونه بالرعاية والتوجيه المحكم مما يجعله يعتمد عليهم اعتماداً زائداً فى تصريف أموره ويرتبط بهم ارتباطًا انفعاليًا شديداً ، الأمر الذى يؤدى به فى نهاية الأمر إلى أن يصبح ضعيف الشخصية لايقوى على مواجهة مواقف الحياة ومشكلاتها مواجهة مستقلة ناضجة . هذا إلى جانب أن الطفل الوحيد يكون محرومًا من الإخوة الذين يدخل معهم فى علاقات تعاون ومنافسة، ويشاركهم مواقف معيشية تقترب فى طبيعتها من مواقف الكبار، وبالتالى يحرم من التدريب على مواجهة هذه المواقف ومن تنمية مهاراته فى علاجها . ولذلك ، فهو «لايعرف كيف يتصرف ، ولايثق فى الناس ، ولايستطيع أن ينسجم مع أحد» .

أما ميلانى كلاين، فأثناء عرضها لحالة إرنا Erna ، (١٣: ص٣٥- ٥٧) تلك الطفلة الوحيدة البالغة من العمر ست سنوات ، والتى كانت تعالجها من بعض الأعراض العصابية الشديدة ، لفتت ميلانى كلاين النظر إلى أن الطفل الوحيد يعانى بدرجة أكبر من القلق الذى يشعر به إزاء أخته أو أخيه الذى يتوقع وصوله دائمًا ، ومن إحساسه بالذنب كنتيجة لدوافع العدوان اللاشعورية التى يوجهها نحو هؤلاء الإخوة أثناء توهم وجودهم داخل الأم ؛ لأنه لاتوجد لديه الفرصة لتنمية علاقات إيجابية معهم فى مستوى الواقع . و«هذه الحقيقة غالبًا ما تجعل الأمر أكثر صعوبة على الطفل الوحيد لكى يكيف نفسه مع المجتمع » .

ويمكن أن نضيف إلى كل من رأيى بريل وميلانى كلاين أن الطفل بين إخوته يتاح له أن ينفس عن مختلف انفعالاته ورغباته أثناء لعبه مع إخوته ، وبالتالى يتخفف منها ، ويجد لها إشباعًا فى الواقع فلا يحبسها داخل نفسه فى عملية قمع أو كبت تضر بنفسيته ، وهكذا يكون أفضل حظًا من الطفل الوحيد من حيث الصحة النفسية .

وعند هذا نتساءل من جديد : ما دلالة حقيقة قد تبدو بسيطة كهذه ؟ نحن لانشك فى أن هذه الحقيقة -على بساطتها- شديدة الأهمية كبيرة النفع . إنها تقول لنا إنه يفضل دائمًا لسلامة البناء النفسى للطفل ، ولتنشئته بالكيفية التى تكسبه الاتزان النفسى المطلوب، لكى يصبح أكثر قدرة على الإسهام فى تنمية مجتمعه عند رشده ، نقول أفضل لهذا الطفل ألا يكون الطفل الوحيد. لكن، إذا أجبرت الظروف الأبوين على أن يكون طفلهما وحيداً فلا بدَّ من اللجوء إلى الحلول البديلة ؛ مثل تهيئة صداقات وزمالات للطفل تتواجد معه لفترات طويلة يلعب معها ؛ ويختبر معها العلاقات الاجتماعية ، ويعبر من خلالها عن الانفعالات والدوافع التى تعتمل فى داخله (مثل إلحاقه بدور الحضانة ، واصطحابه كثيراً فى زيارة الأسر التى يتواجد بها أطفال ليلعب معهم ...) . ومن جانب آخر، فإن مثل هؤلاء الآباء الذين لديهم الطفل الوحيد ينبغى عليهم أن يكونوا -وهم يتعاملون معه- على وعى بضرورة الاعتدال فى الاهتمام به والاستجابة لرغباته، على نحو ما ذكرناه من قبل .

وإذا كان المثلان السابقان ، اللذان أوردناهما كنموذج لإسهامات علم النفس فى مجال تحديد الأساليب المثلى التى ينبغى على الوالدين والأسرة اتباعها فى تربية الأطفال وتنشئتهم حتى يشبوا متمتعين بشخصيات ناضجة متزنة ، أقدر طاقة على الإسهام فى تنمية بلادها والنهوض بها، فإن الأمر بالمثل -أيضًا- فيما يتعلق بإسهامات علم النفس التى تزخر بها مؤلفاته، خاصة ما تعلق منها بعلم نفس الطفل وبعلم النفس التربوى، والتى توضح الأساليب المثلى فى توجيه التلاميذ وتعليمهم ، وفى إرشاد المعلمين والمسؤولية عن التعليم إلى أنسب طرق التعامل مع التلاميذ وعلاج مشكلاتهم ، ورفع كفاءة المؤسسة التعليمية فى أداء رسالتها. ونظراً لأهمية دراسات وإسهامات علم النفس فى هذا المجال ، فقد فضلنا معالجتها فى فصل مستقل عن علم النفس والمدرسة . وهذه الدراسات والإسهامات تهدف -أيضًا- إلى تقديم التوصيات إلى المسئولية عن التعليم لرفع كفاءته ، ومساعدة مؤسسة التعليم على القيام بواجبها الذى يتكامل مع واجب الأسرة فى تنمية إمكانيات الشخصية ورفع طاقاتها

وتحسين مستوى نضجها وكفاءتها، حتى يمكنها - فى نهاية الأمر- القيام بدورها فى عملية التنمية خير قيام .

فإذا ما انتهينا من دور الأسرة ودور مؤسسة التعليم فيما يختص بتنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها ، وصلنا إلى الدور الذى ستضطلع به من بعد مؤسسة العمل التى سوف تمارس الشخصية من خلالها أداء وظائفها فى خدمة المجتمع وتنميته . وهو دور هام -أيضًا- فى مجال تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها . ولعل مؤسسات العمل ووحداته بالمجتمع تقوم بدورها هذا بشكل أوضح ما يكون فيما يعرف بالتدريب المهنى، والذى تنظمه للملتحقين الجدد بالعمل أو من يريدون الالتحاق به ، لإكسابهم المعرفة اللازمة والمهارة المطلوبة لإنجاز العمل الذى سيكلفون به ومواجهة مشكلاته ، أو الذى تنظمه للعاملين فيها بهدف رفع مستوى مهاراتهم فى أداء عملهم ، وفى مواجهة مشكلاته، أو بهدف تعلم أساليب وطرق جديدة فى الإنتاج . وتخصص مؤلفات علم النفس الصناعى خاصة فصولاً توقفها على دراسات علم النفس وإسهاماته المتعلقة بالأساس النفسى لعملية التدريب، وتوصيات علم النفس لرفع كفاءة العملية التدريبية .

وللتدليل على ذلك نكتفى بالإشارة إلى مثل واحد كنموذج لتلك الأسس النفسية الكثيرة التى أوضحتها دراسات علم النفس وتوصياته لرفع كفاءة العملية التدريبية ، ويتعلق بتركيز وتوزيع مدة التدريب . فطالما كانت برامج التدريب تحدد زمنًا معينًا يقضيه العامل فى التدريب ، فهل يكون من الأجدى لتدعيم أثر التدريب وزيادة درجة استفادة العامل منه أن يركز زمن التدريب فى فترة واحدة طويلة (أو فترات قليلة العدد طويلة المدد) أو يوزع على فترات كثيرة كل منها تستغرق مدة قصيرة . إن نموذج الدراسات التجريبية التى تجرى للإجابة عن هذا التساؤل هو اختيار واجب يستغرق التدريب على إجادة القيام به زمنًا معينًا وليكن ست ساعات على سبيل المثال ، ثم تكوين ثلاث مجموعات أو أربع - على سبيل المثال أيضًا- من العاملين المراد تدريبهم على إجادة القيام بهذا الواجب ، ويراعى -قدر الإمكان- تشابه هذه المجموعات فى قدراتها وإمكانياتها الشخصية . ثم نجعل المجموعة الأولى تتلقى البرنامج التدريبى مكثفًا فى مدة ست ساعات متواصلة، ونجعل المجموعة الثانية تتلقى نفس برنامج التدريب فى يومين متتاليين على فترتين كل منهما ثلاث ساعات . ونجعل المجموعة الثالثة تتلقى نفس البرنامج فى ثلاثة أيام متتالية على ثلاث فترات كل واحدة منها ساعتان .

أما المجموعة الرابعة فتتلقى نفس البرنامج فى ستة أيام متتالية على ست فترات كل منها ساعة واحدة ، ثم بعد الانتهاء من برنامج التدريب فى كل مجموعة نختبر مدى استفادتها من هذا التدريب .

هذا نموذج يوضح الملامح العامة للدراسات التجريبية التى تجيبنا عن تساؤلنا هذا ، أما التفاصيل فمن البديهى أنها سوف تختلف من دراسة لأخرى (مثل عدد مجموعات التجربة، وعدد فترات التدريب، وطول كل فترة ... إلخ) . وتكاد تتفق نتائج الدراسات التجريبية بهذا الشأن على أن التدريب الموزع يفضل التدريب المركز . ويورد لنا جون فريزر John Freser (٩ : ٢٢١) نتائج تجربة فى هذا المجال يتضح منها أن الإنجاز قد ارتفع من ١٢٥ وحدة إلى ٢٦٥ بعد أن قسمت مدة التدريب من فترة واحدة طويلة إلى اثنتى عشرة فترة قصيرة . ويعلل فريزر ذلك بأن تقسيم مدة التدريب إلى فترات قصيرة يقلل التعب ويستحث دافع العامل أكثر نحو الإنجاز والتحصيل ، ويثبت أكثر عادات العمل المفيدة . وفى دراسة لكروفورد Craw-ford نشرت فى عام ١٩٤٧ (١٠ : ٤٠٥) عن تدريب القوات الجوية ؛ حيث كان برنامج التدريب للطيارين المقاتلين عبارة عن ألفى طلقة لإصابة هدف معين استكمل بعض الطيارين هذه الطلقات الألفين فى أربع طلعات، وآخرون فى خمس، وغيرهم فى ست، ومجموعة أخرى فى سبع، بينما الباقون فى ثمان طلعات . فتبين من هذه الدراسة أن دقة إصابة الهدف فى نهاية التدريب ، كانت تتزايد مع تزايد توزيع فترات التدريب؛ حيث كان الطيارون الذين تدربوا فى ثمان طلعات أفضل بأكثر من خمس مرات فى استفادتهم من هذا التدريب عن زملائهم الذين تدربوا فى أربع طلعات فقط .

ولاشك أن لهذه المعلومة النفسية البسيطة قيمة كبيرة فى تخطيطنا لبرامج التدريب المختلفة لنرفع كفاءتها فى إكساب المتدربين أكبر فائدة من برنامج التدريب . فهذه المعلومة توصينا بتجزئة مدة التدريب إلى عدد مناسب من الفترات بدلاً من تجميعها فى فترة واحدة طويلة ، أو فى عدد قليل من الفترات الطويلة ؛ إذ يساعدنا هذا على تحقيق استفادة أكبر من برامج التدريب .

ثانيًا - الاستفادة المثلى من إمكانيات الشخصية وطاقاتها :

إن تنمية إمكانيات الشخصية وطاقاتها ، والتى سبق أن تعرضنا لها فى البند السابق، لاتحقق الفائدة المرجوة منها إلا إذ قام المجتمع -عن طريق تنظيماته وهيئاته ومؤسساته المختلفة- بتحقيق أفضل استفادة ممكنة من هذه الشخصية فى دفع عجلة التنمية بالمجتمع . وبمعنى آخر، ينبغى على المجتمع أن يقوم بتخطيط ينظم عن طريقه كيفية إسهام كل فرد فى تنمية مجتمعه، ويوزع على كل شخصية الدور المناسب لها ولإمكانياتها فى عملية التنمية . فهذه الشخصية المعينة التى نشأها المجتمع ونمىَّ طاقاتها وتعهدها فى مختلف مراحلها التى مرت بها أصبحت تتميز بميزات معينة وبخصائص خاصة تختلف عن غيرها . ومن ثم فهى أصلح من غيرها للقيام بدور معين فى عملية التنمية ، فى حين أن غيرها هذا يكون أصلح منها للقيام بدور مخالف فى نفس عملية التنمية ... وهكذا . هذه إذن هى جوهر القضية : أن يأخذ كل شخص الدور الأنسب له ولإمكانياته الخاصة فى عملية التنمية، حتى نتوقع له أن يقوم بدوره خير قيام، فتنجح فى نهاية الأمر عملية التنمية التى يستهدفها المجتمع . ويعرف المسئولون عن سياسة التشغيل هذا الأمر بـ «وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب» ؛ أى يشغل كل فرد الوظيفة التى تتناسب وإمكانياته الجسمية والعقلية والشخصية المختلفة . ولما كانت الوظائف تختلف فيما تتطلبه من الخصائص الجسمية والعقلية والشخصية ، وكذلك الأمر -أيضًا- بالنسبة للأفراد، حيث يختلفون فيما بينهم فى هذه الخصائص ، فإننا سوف نجد أن شخصًا يكون أصلح من غيره لوظيفة ما ، وأن غير الصالح لوظيفة ما هو أصلح من يكون لوظيفة أخرى. فإذا وضعت كل شخصية فى العمل الذى يتناسب وإمكانياتها وطاقاتها تحقق واحد من أهم أسباب نجاح التنمية فى مجتمع من المجتمعات . ولنا أن نتصور أن كل تلميذ يتعلم نوع التعليم الذى يناسبه (والتلمذة تعتبر وظيفة فى نظر علم النفس) وأن كل عامل يعمل فى العمل الذى يناسبه ، وأن كل موظف يعمل فى الوظيفة التى تناسبه ، وأن كل رئيس وكل مدير وكل مسؤول يعمل فى نوع الرئاسة أو الإدارة ، أو يتحمل نوع المسئولية التى تتناسب وإمكانياته الشخصية ... أقول : لو تصورنا أن هذا هو الحادث فى مجتمع ما لوصلنا إلى قناعة كبيرة بأن تلاميذ هذا المجتمع سوف يحققون تفوقًا علميًا كبيراً ، وأن العاملين فيه سوف يحققون مستوى إنتاجيًا ممتازاً . وهكذا، يحقق هذا المجتمع معدلاً كبيراً فى التنمية .

ويقوم علم النفس بدور كبير فى «وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب» حيث يحلل نوع الدراسة أو نوع العمل لمعرفة الخصائص العقلية والشخصية اللازمة للنجاح فيه، ويدرس الفرد لمعرفة خصائصه العقلية والشخصية . وبناءً على ذلك، يوجه كل تلميذ لنوع الدراسة المناسب له ، وكل عامل لنوع العمل المناسب له، أو يختار لكل نوع من الدراسة أو الأعمال من يناسبه من التلاميذ أو العاملين .

ثالثًا - الحفاظ على إمكانيات الشخصية وطاقاتها واستعادتها إذا اضطربت :

من الحقائق المعروفة فى علم النفس تلك التى أبرزها وتبناها علماء التحليل النفسى والقائلة بأن الصحة النفسية «هى القدرة على الحب والعمل» ؛ بمعنى أن أوضح علامات الصحة النفسية فى الشخصية وأهمها هى قدرتها الكبيرة على أن تحب ، وقدرتها العالية على العمل والإنتاج . وحقيقة ، ما أحوج قضية التنمية فى أى مجتمع إلى توافر هاتين الطاقتين فى الشخصية : طاقة الحب وطاقة العمل. فالحب يقوى الروابط بين أفراد المجتمع ومؤسساته ويزيد من تماسكه ، ويقاوم النزعات التدميرية والعدوانية الموجودة بين أفراده ، فينصرف الجميع كل يعمل لصالح نفسه وغيره ومجتمعه . أما العمل فهو - لاشك- جوهر قضية التنمية ومن أكبر عوامل تحقيقها ، فليست التنمية فى نهاية الأمر إلا عائد عمل الأفراد بالدرجة الأولى. فكم من مجتمعات بسبب العمل حققت معدلات كبيرة من التنمية لاتتفق وما تتمتع به من إمكانيات وثروات طبيعية ؛ كاليابان وسويسرا، وغيرهما . ولعل هذه بديهية لاتحتاج إلى برهنة أو دليل .

خلاصة القول -إذن- أن هذه الشخصية التى اهتم المجتمع بتنمية إمكانياتها وطاقاتها فى مختلف مراحل حياتها - جنينًا - وطفولة مبكرة وتلمذة ، وعملاً - ووضعها المجتمع فى الدراسة المناسبة أو العمل المناسب ، لابد أن يتابعها المجتمع بالرعاية حتى تظل -قدر المستطاع -فى مستوى مناسب من الصحة النفسية، فلا تتعرض للضغوط الشديدة والأزمات العنيفة التى تفقدها الكثير من اتزانها النفسى، وتبدد الجزء الكبير من طاقاتها الشخصية فى الصراعات النفسية ، تلك الطاقات التى كان ينبغى أن تعبأ لصالح التنمية فى المجتمع .

وليست هذه الحقيقة على المستوى المنطقى النظرى فقط، بل هى بالمثل مؤيدة على المستوى الميدانى الواقعى ، ففى الدراسات التى قام بها المتخصصون فى علم النفس ما يدعم ذلك بدرجة كبيرة . ففى بحث ميدانى للدكتور محمود أبو النيل (٧) يتضح منه أن المرضى السيكوسوماتيين (المرضى النفسيون الذين تتبلور أمراضهم فى أعراض جسمية) لهم سمات

معروفة بأنها تعوق الإنتاج . وفى بحث ميدانى لنا عن سيكولوچية العامل المشكل فى الصناعة (العامل الذى يعتبر سلوكه معوقًا لعملية الإنتاج) (٤) تبين أن العمال المشكلين تشيع بينهم الاضطرابات النفسية الخطيرة فى المقارنة بزملائهم غير المشكلين . وإذا تركنا أثر الاضطراب النفسى على قدرة العامل الإنتاجية إلى مظاهر سوء التوافق المهنى : مثل كثرة الحوادث التى يتورط فيها العامل، ومثل كثرة غيابه عن عمله بدون عذر .. فسوف نجد نفس الأثر الواضح فى البحوث الميدانية . ففى دراسة لسوسن إسماعيل (١) عن علاقة مستوى القلق بغياب العمال فى المجال الصناعى تبين لها وجود علاقة قوية بين مستوى القلق وأيام الغياب بدون إذن، حيث وصل معامل الارتباط بينهما إلى ٠,٦٩٥ . وكان دالاً عند مستوى ٠,٠٠١ . مما يوضح أن العمال الذين يعانون من قدر كبير من القلق النفسى كثيرو التغيب عن أعمالهم بدون إذن. أما فارس حلمى، فقد درس فى بحثه الميدانى (٢) عن سيكولوچية العامل المتغيب علاقة تغيب العمال الصناعيين بدون عذر بسبعة عوامل ، هى : مدى بعد مسافة السكن عن مكان العمل - الحالة الاجتماعية - الأجر - فترة العمل- المؤهل الدراسى - السن - سمات الشخصية ، فتبين له عدم وجود علاقة أو تأثير لأى من تلك العوامل على التغيب بدون عذر عن العمل باستثناء سمات الشخصية ، حيث تبين أن العمال كثيرى التغيب بدون عذر يتميزون بأنا ضعيف لايقوى على التمييز بين الجوانب المواتية وتلك المعادية فى مجالات الحياة، وبالتالى فلايستطيع التعامل المناسب معها ، أو التوافق مع العالم المحيط، كما تبين -أيضًا- أن القلق النفسى كان يشيع بينهم بدرجة أكبر، كما كانوا يحسون أكثر بالاضطهاد وبالإحباط وبرؤية العالم المحيط على أنه معاد ومهدد لهم . وهذا يؤيد شيوع الاضطراب النفسى فى العامل كثير الغياب عن عمله. أما بالنسبة لحوادث العمل ، فقد تبين للدكتور قدرى حفنى فى دراسته الميدانية (٦) عن أثر الجمود الإدراكى والجمود الحركى على التعرض للحوادث فى الصناعة أن هناك علاقة واضحة بين الجمود بمظهريه الحركى والإدراكى وبين الحوادث . ونظراً للعلاقة الوثيقة بين الجمود والتوتر النفسى، فإن هذا يشير إلى تأثير الاضطراب النفسى على رفع معدلات حوادث العمل. كما أننا قمنا بدراسة ميدانية أخرى عن علاقة الحوادث فى الصناعة بالصفحة النفسية للذكاء (٣) تبين منها أن مستوى الذكاء لم يرتبط بحوادث العاملين فى الصناعة ، لكن كان نمط الصفحة النفسية للذكاء هو الذى يرتبط بالحوادث، حيث كانت تشيع فيها العلامات التى تدل على الاضطراب النفسى بين العمال متكررى الحوادث . مما يؤيد نتائج البحث السابق وغيره من البحوث فى تراث علم النفس عامة .

وإذا كانت القدرة على العمل تعتبر مظهراً أساسيًا من مظاهر الصحة النفسية فى الراشدين- على نحو ما سبق أن أوضحنا - فإن هذه الحقيقة تصدق بالمثل على الأطفال والتلاميذ فى كافة مراحلهم ، حيث يعتبر التحصيل الدراسى ممثلاً لقدرة التلميذ على العمل ، ولهذا فكثيراً ما يكون اضطراب مستوى تحصيل التلميذ وتدهوره من أوضح الدلائل على إصابته بالاضطراب النفسى، ولهذا كثيرا ما يشيع الفشل الدراسى فى تاريخ الحالات التى يدرسها ويعالجها المحللون النفسيون كعرض مرتبط بالمرض النفسى لهذه الحالات، كما فى حالة إرنا السابق ذكرها ، والتى تولت كلاين أمر علاجها . بل ذهبت ميلانى كلاين إلى حد القول بأن كف القدرة التعليمية لإرنا (أى عدم قدرتها على التعليم على الرغم من إمكانياتها العقلية المناسبة للتعليم) كان أكثر أعراضها المرضية مقاومة للعلاج . وفى دراسة ميدانية نشرت عام ١٩٧٠ لفيلدهسن Feldhusen وزميليه ، درسوا فيها العلاقة بين التحصيل الدراسى وكلٍ من السلوك العدوانى والسلوك المقبول اجتماعيًا (١١ : ٣٨٨-٣٨٩) حددوا فيها مجموعة من التلاميذ تمثل نوعية السلوك العدوانى، وأخرى تمثل نوعية السلوك المقبول اجتماعيًا . وبعد خمس سنوات من ذلك قاموا بعمل مقارنة بين مستوى التحصيل الدراسى فى كلٍ من المجموعتين، فاتضح أن مجموعة التلاميذ العدوانيين كانت أقل فى القراءة والكتابة والدراسات الاجتماعية والعلوم والرياضيات . ولما كان السلوك العدوانى الذى حدده هؤلاء الباحثون كمعيار لاختيار مجموعة العدوانيين يمثل الاضطراب النفسى بوضوح : مثل إحداث فوضى فى حجرة الدراسة، وكثرة الغضب وشدّته ، وحب السيطرة ، والتأخير أو الغياب بدون عذر ، والإجابة بفظاظة وبعدم احترام، والكذب والسلوك المتصف بالشر ، فإن هذا يؤكد لنا تأثير الاضطراب النفسى على تحصيل التلميذ .

إذن، نخلص إلى القول بأنه إذا كنا نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة الجسمية للشخص فى مختلف مراحل عمره وعلاج ما يضطرب منها ، كما هو الواقع فعلاً حيث انتشار التأمين الصحى ومستشفيات العلاج الطبى وعياداته، فإنه ينبغى علينا بالمثل أن نسلم بضرورة الحفاظ على الصحة النفسية للشخص فى مختلف مراحل عمره وعلاج ما يضطرب منها ، وعلى علم النفس تقع مسئولية ذلك . وهو يقوم بهذه المسئولية عن طريق مكاتب وعيادات التوجيه والإرشاد النفسى ومستشفيات العلاج النفسى ، سواء منها ما هو ملحق بالمدارس والجامعات، أو بالمصانع ومؤسسات الدولة، أو ما هو خاص يتولاه الاختصاصيون بصفتهم الشخصية . وبذلك تحفظ الطاقة الخاصة بالفرد دون أن يبددها الاضطراب النفسى، فيقوى الفرد على تأدية دوره فى عملية التنمية .

رابعًا - علاج المشكلات الاجتماعية العامة والوقاية منها :

خصصنا بندين سابقين للحديث عن الإسهامات التى يمكن لعلم النفس تقديمها لتهيئة أفضل تكوين وتنمية ورعاية ممكنة للشخصية وطاقاتها ، على اعتبار أن الشخصية من أهم عناصر النجاح فى تحقيق معدل عالٍ للتنمية فى المجتمع . ولكن مع انطلاقة المجتمعات نحو التنمية تنطلق بعض المشكلات الاجتماعية أو قد تتفاقم ؛ مثل الجريمة، وانحراف الأحداث ، والبغاء ، وتعاطى المخدرات ، وتفكك الأسرة ... وما إلى ذلك من مظاهر الاغتراب أو الاستلاب النفسى. وتحتاج تلك المشكلات فى دراستها وعلاجها أو الوقاية منها إلى إسهامات المتخصصين فى علم النفس . وكثيراً ما تنشئ المجتمعات مراكز للبحث العلمى يكون بين أهدافها دراسة مثل هذه المشكلات ومحاولة علاجها أو الوقاية منها على المستوى القومى . ومن أمثلة ذلك تلك الدراسات التى يقوم بها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر، والتى يشترك فيها علماء النفس ومتخصصوه مع آخرين . وأن نجاح علماء النفس فى ذلك -لا شك- مفيد فى تقليل نزف الطاقة البشرية التى تتبدد هباء من جراء انتشار مثل هذه المشكلات الاجتماعية وتفاقمها ، وبالتالى يحفظها لتعنأ لصالح تنمية البلاد وتقدمها .

تدريس علم النفس :

لعلنا انتهينا الآن إلى قناعة بأهمية علم النفس وإسهاماته التى يمكن أن يقدّمها لفائدة المجتمع عامة، ولصالح التنمية خاصة . وقبل أن ننتهى من مقالنا هذا لابد من الإشارة إلى الاعتراف المتزايد الذى يلقاه علم النفس من مختلف بلدان العالم شرقه وغربه ، وإن كانت اتجاهات هذا العلم التفصيلية وتركيز مجالات اهتمامه تختلف -بالضرورة- من بلد لآخر تبعًا لاختلاف ما يعتنقه كل بلد من اتجاهات ، وما يتعرّض له من ظروف . فإذا كان علم النفس فى أمريكا يتجه أكثر نحو الصناعة وخدمتها ، فهو فى روسيا يتجه أكثر نحو التنشئة الاجتماعية والرعاية النفسية التربوية ، دون أن يعنى ذاك تجاهل بقية الاهتمامات الأخرى لعلم النفس فى كلٍ من البلدين ، وإنما يعنى -فقط- مراكز ثقل اهتمامات العلم .

وإذا كان اهتمام أمريكا بعلم النفس ليس محل جدل، فإن الاهتمام المتزايد لروسيا بعلم النفس هو حقيقة واقعة أيضًا . فقد كان يوجد بجامعة موسكو قسم لعلم النفس بكلية الفلسفة، وكنتيجة لتزايد الاهتمام والاعتراف بعلم النفس تحول هذا القسم إلى كلية كاملة لعلم النفس بجامعة موسكو منذ عام ١٩٦٦ ، تدرس علم النفس العام وفروعه المتخصصة المختلفة

(١٢ ص٦٤) . إلى جانب أن كل الجامعات فى روسيا والمعاهد التربوية بها تدرس مواد علم النفس . وفى مصر، ظلت هناك شعبة واحدة لتخصص علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس من أوائل الخمسينيات حتى أواخر الستينيات، حيث أضيفت إليها شعبة أخرى لعلم النفس بكلية الآداب بجامعة القاهرة . ومنذ أواخر الستنيات وأوائل السبعينيات جاهدت هاتان الشعبتان لعلم النفس للانفصال والاستقلال استقلالاً تامًا من السنة الأولى بالجامعة ونجحتا حديثًا فى هذا الانفصال والاستقلال، مكونة كل منهما قسمًا خاصًا بعلم النفس اعترف له فى الجامعة بكامل الاستقلال من السنة الأولى للتعليم الجامعى . أما تدريس مواد علم النفس فهو شائع فى كافة جامعات مصر ومعاهدها التربوية .

خاتمـــة :

استعرضنا فى هذا المقال نماذج -فقط- من بعض إسهامات علم النفس التى رأينا أنها يمكن أن تسهم بشكل جدِّى وبتأثير كبير فى نجاح المجتمع فى تحقيق أهداف التنمية به . وإذا كانت بلاد العالم المتقدمة تسعى نحو تحقيق أكبر استفادة ممكنة من إسهامات مختلف العلوم -بما فيها علم النفس- لخدمة قضايا التنمية بها، فإن مجتمعاتنا السائرة فى طريق النمو أحوج منها لهذه الاستفادة ، وبالتالى ينبغى أن تكون أحرص منها عليها .

ولعل القراء قد اقتنعوا الآن بأهمية علم النفس لبلد نام كالمغرب. وتقديراً لذلك من جانب المسئولين عن جامعة محمد الخامس ، واعترافًا منهم بحاجة المغرب إلى هذا التخصص فى الجامعة ، فإنهم قد استجابوا لاقتراحنا بضرورة إنشاء شعبة خاصة بعلم النفس فى كلية الآداب بالجامعة ، وكلفونا بوضع برامجها . وبالفعل تم افتتاحها فى العام الجامعى (١٩٧٤-١٩٧٥) لتمد المغرب بحاجته التى -ولاشك ستتزايد مع الزمن- إلى متخصصين فى علم النفس ، يسهمون - إلى جانب زملائهم من التخصصات العلمية الأخرى - فى دفع عجلة التنمية ببلادهم لتنطلق بأوسع خطى ممكنة .

وفى بداية العام الجامعى (١٩٧٥-١٩٧٦) ثار جدل شديد بين بعض أساتذة الجامعة، واشتركت فيه بعض الصحف حول حاجة المغرب إلى مثل هذا التخصص فى الوقت الحاضر ، وما إذا كان الصالح العام يقتضى بقاء هذا التخصص داخل الجامعة أم يقتضى إلغاءه . وفى النهاية انتصر الرأى القائل بضرورة استبقاء هذا التخصص لعلم النفس بالجامعة ، مع العمل على تدعيمه ؛ لأنه -فى نهاية الأمر- هو الرأى الذى يساير التطور ، ويتفق والمنطق .

المراجـع :

١- سوسن إسماعيل عبد الهادى . العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال فى المجال الصناعى، فى: قراءات فى علم النفس الصناعى، إشراف فرج عبد القادر طه . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ .

٢- فارس حلمى أحمد . سيكولوچية العامل المتغيب ، فى: قراءات فى علم النفس الصناعى السابق ذكره.

٣- فرج عبد القادر طه . العلاقة بين الإصابات فى الصناعة والصفحة النفسية للذكاء ، القاهرة، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد السادس ، العدد الثالث، سبتمبر ١٩٦٩ .

٤- فرج عبد القادر طه . سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة ، القاهرة، المجلة الاجتماعية ، المجلد التاسع، العدد الثانى، مايو ١٩٧٢ .

٥- فرج عبدالقادر طه . علم النفس فى مؤسسات العمل، الرباط، المناهل، العدد الثالث ، يونيه ١٩٧٥ .

٦- قدرى محمود حفنى . دراسة تجريبية لأثر الجمود الإدراكى والجمود الحركى على التعرض للإصابات فى الصناعة ، فى قراءات فى علم النفس الصناعى السابق ذكره .

٧- محمود السيد أبو النيل . علاقة الاضطرابات السكوسوماتية بالتوافق المهنى فى الصناعة . فى: قراءات فى علم النفس الصناعى السابق ذكره .

٨- Brill , A,. Basic Principles of Psycho- analysis. Simon Q. Schuster . Inc ., 1972 .

٩- Frazer, J. Psychology. Pitman Publishing , 1971 .

١٠- Ghiselli , E; and C. Brown. Personnel and Industrial Psychology . McGraw - Hill, 1955 .

١١- Johnson , R; And , G. Medinnus; Child Psychology, John Willy & Sons, 1974 .

١٢- Luria , A . L' enseignement de La Psycho logie . AL. Université de Moscou . Bulletin de Psychologie, XXV, 294 , 1971- 1972 . (Paris)

١٣- Klein , M . The Psycho - analysis of Children , The Hogarth Press, 1975 .

١٤- Valentin, C. The Normal Child. Pelican Book, 1956 .

علم النفس والمدرسة *

تمهيـد :

تكاد تتركز أهداف المدرسة فى عمليتين أساسيتين متكاملتين ومتداخلتين ، هما : عملية التعليم (أى إكساب النشء القدرة على القراءة والكتابة وإحاطته بالمعارف العامة والمتخصصة، وبكيفيات البحث العلمى ومناهجه، وبطرق التفكير الموضوعى المنظم) وعملية التربية (أى تربية النشء جسميًا ونفسيًا واجتماعيًا) . وتبدو كفاءة المدرسة لتحقيق أهدافها فى نسبة نجاح تلاميذها ومستوى تحصيلهم الدراسى ومدى توفيق خريجيها فى دراستهم العليا وفى مجالات الحياة والعمل المختلفة .

ونظراً للأهمية الشديدة للمدرسة فى أى مجتمع ، فإن مختلف العلوم تحاول الإسهام بنصيب فى رفع كفاءة المدرسة ، وفى هذه الدراسة نبحث الإسهامات التى يمكن أن يقدمها علم النفس لمساعدة المدرسة على تحقيق أهدافها .

عوامل نجاح المدرسة :

يتوقف نجاح المدرسة فى تحقيق أهدافها على عوامل أربعة أساسية - إذا استثنينا الخطوط والسياسة العامة التى تضعها الدولة وتكون موحدة فى المدارس- وتتكامل هذه العوامل الأربعة وتتفاعل فيما بينها عاملة على نجاح المدرسة أو إخفاقها . أما هذه العوامل الأربعة فهى :

١- شخصية التلميذ (أو الطالب) وخصائصها .

٢- شخصية المعلم (أو الأستاذ) وخصائصها .

٣- طريقة التدريس .

٤- طريقة إدارة المدرسة .

---

* نشر هذا البحث فى مجلة «البحث العلمى» المغربية (جامعة محمد الخامس بالرباط): عدد ٢٥ ، يونيو ١٩٧٦ ، ٢٨٣ - ٢٩٩ ، كما نشر - أيضًا - فى مجلة كلية التربية (جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة): : السنة الثالثة ، العدد الثالث ، ١٩٧٧ ، ٦١-٧٨ .

أولاً ـ شخصية التلميذ (أو الطالب) وخصائصها :

من المعروف أنه لايمكن أن يتعلم الفرد إلا إذا توافر له شرطان أساسيان ؛ أحدهما القدرة اللازمة لنوع التعلم ، والآخر الدافع إلى هذا التعلم . ولابد لهذين الشرطين أن يتوافرا معًا وبالقدر اللازم وإلا استحالت عملية التعليم أو انخفضت كفاءتها . فعلى سبيل المثال، لو أننا حاولنا تعليم طفل فى الشهر السادس من عمره القيام بعمليات حسابية بسيطة ؛ كالجمع والطرح لاستحال علينا ذلك؛ لأن قدرته العقلية لم تنم بعد إلى الدرجة اللازمة لعملية التعلم هذه . وما ينطبق على تعلم الأمور العقلية يصدق بالمثل على تعلم الأمور الحركية ؛ فهذا الطفل فى هذه السن نفسها مهما دربناه لايمكن له أن يقود دراجة . وإذا كان هذا بالنسبة إلى ضرورة توافر القدرة اللازمة للاستفادة من التعلم المعين فإن الأمر يشبه ذلك بالنسبة إلى ضرورة توافر الدوافع إلى هذا التعلم . ففى حالة غياب الدافع إلى التعلم لايتعلم الفرد شيئًا حتى لو توافرت له القدرة اللازمة لهذا التعلم ؛ فالتعلم كظاهرة سلوكية لايحدث إلا إذا كان وراءه دافع يدفع الفرد إلى القيام به . فمن المسلمات المعروفة فى علم النفس أن كل سلوك لابد وأن يكون وراءه دافع .

(أ) القدرة :

ينبغى أن نطمئن إلى أن طاقات التلميذ العقلية والجسمية ، تتناسب ونوع التعليم الذى يقدم له . فلقد وجد سيمون[1] Simon فى بحث له عن الخصائص الجسمية والاستعداد الدراسى- نشره فى عام ١٩٥٩- أن التلاميذ الذين رسبوا فى السنة الأولى (الابتدائية) كانوا أقل نضجًا من الناحية الجسمية ، عن مجموعة الناجحين . كما وجد ميديناس[2] Medinnus فى بحث له عن الاستعداد الدراسى والتوافق- نشره فى عام ١٩٦١- معامل ارتباط موجب قدره ٠,٥ بين نسب ذكاء التلاميذ التى حصلوا عليها من تطبيق مقياس ستانفورد بينيه Stanford- Binet قبل دخولهم المدرسة وبين درجات تحصيلهم فى نهاية السنة الأولى (الابتدائية) .

١- R , Johnson and Medinnus , G. Child Psychology , Behavior and Development. New York , John Willey & Sons, 1974 , 377 .

٢- المرجع السابق بنفس الصفحة .

هذا ، وفى بعض الحالات نجد أن طاقات التلميذ أقل من المستوى اللازم للنجاح الدراسى، كما هو الحادث بالنسبة لضعاف العقول الذين يوجدون فى مدارس التعليم العام والتى يدرس بها التلاميذ العاديون . فنظراً لحاجة التعليم العام إلى قدرة عقلية متوسطة على الأقل فى مستواها ، فإن ضعاف العقول هؤلاء يفشلون فى مواصلة دراستهم ، أو يتخلفون فى التحصيل عن أقرانهم ، وهذا أمر يسبب الكثير من المشاكل والحيرة بالنسبة للمعلمين ، فهل ينزل المعلم إلى مستواهم فى الفهم الضعيف والبطئ فيعيد الشرح كثيراً من المرات حتى يستطيعوا أن يفهموا ؟ (وهو إن فعل هذا ضيَّع وقت التلاميذ العاديين والمتفوقين فى مستواهم العقلى ، إذ لايستفيدون من هذا التكرار ، بل بالعكس غالبًا ما يضيقون به ، فينصرفون عنه إلى المشاغبات والفوضى فى قاعة الدراسة، هذا علاوة على أن تكرار الشرح يعطل المعلم عن استكمال المنهج المقرر تدريسه لتلاميذه خلال العام الدراسى المحدد) ، أم يقوم المدرس بتجاهل ضعاف العقول هؤلاء ، ويشرح الدرس بالمعدَّل العادى فيفهمه العاديون والمتفوقون ويتخلف عن فهمه ضعاف العقول ؟ (وهو إن فعل هذا ضيع إمكانية الاستفادة والتعلم على ضعاف العقول، وخان أمانة ألقاها المجتمع على كاهله هى إفادة تلاميذه وتعليمهم ، مما يخالف ضميره المهنى وينتقص من ثقته فى كفاءاته الذاتية فى أداء عمله) .

وتحل هذه المشكلة بإنشاء مدارس خاصة لضعاف العقول ، وهى كثيرة الانتشار على وجه خاص فى البلاد المتقدمة . ويسهم علم النفس بدور فعَّال فى اختيار التلاميذ لهذه المدارس، وذلك عن طريق تطبيق الاختبارات النفسية، وعلى رأسها اختبارات الذكاء لتقدير مدى أحقية الفرد فى دخول هذه المدارس ومدى استفادته المتوقعة من نوع التعليم فيها.كما يسهم بدور فعَّال -أيضًا- فى حل المشكلات المختلفة التى تعترض تعليم ضعاف العقول وتدريبهم فى هذه المدارس. ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن اهتمام علم النفس بمشكلات التعليم والدراسة قد أسهم إسهامًا فعالاً فى وضع البذور الأولى للقياس والاختبارات النفسية التى تطورت حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن من تنوع ، وما تؤديه لمجالات النشاط المختلفة من خدمات. فمؤرخو علم النفس لاينسون بهذا الخصوص فضل رواد أوائل مثل ؛ أسكيرول[١] Esqorol وسيجوان Se- giun وبينيه Benet ، ومحاولاتهم تصنيف وتدريب وتعليم ضعاف العقول، وابتداعهم لذلك وسائل وأجهزة ومقاييس كان لها أكبر الأثر فى نشأة وتطوير الاختبارات النفسية عامة واختبارات الذكاء خاصة .

١- A, Anastasi . Psychological Testing . The Macmillan Company , 1970 , 5-11

وما دمنا بصدد الحديث عن مدارس الضعف العقلي، فينبغي ألا ننسى الدورالذى يضطلع به إخصائيو علم النفس فى علاج اضطرابات التوافق لدى ضعاف العقول من التلاميذ، سواء كان هذا الاضطراب فى مجال المدرسة بصفة خاصة، أم فى مجال الحياة عامة. ولهذا تعد الخدمة النفسية ركنًا أساسيًا فى مدارس ضعاف العقول ومؤسساتهم .

وإذا كان ما سبق ينطبق على التعليم العام، فإن التعليم النوعى بدوره يحتاج إلى قدرات مختلفة تلائم كل نوع منه، وينبغى أن تتوافر فى طالبه وإلا فشل فيه أو ضعف تحصيله منه. فمثلاً ، نجد أن التعليم فى أقسام الميكانيكا ، سواء كان ذلك بالمدارس أو الكليات يلزمه استعداد مرتفع فى الميكانيكا ، ودراسة الفن المعين سواء أكان رسمًا أم نحتًا أم زخرفة أم موسيقى أم غناء، وسواء أكان بالمدارس أم المعاهد أم الكليات يحتاج إلى توافر الاستعدادات العقلية النوعية اللازمة لكل نوع من هذه الفنون . وعلم النفس فى كل هذه الحالات وأمثالها هو الذى يقوم بدراسة وتحليل كل نوع من أنواع التعليم هذه لتحديد الاستعدادات والقدرات العقلية المختلفة اللازمة له . كما يقوم بوضع وتصميم وإعداد الاختبارات اللازمة والصالحة لقياسها ، ويقوم إخصائيوه بتطبيقها وتصحيحها وتفسيرها واختبار التلاميذ بناءً على نتائجها ، أو توجيههم لنوع الدراسة الملائم لكل منهم .

ويقول دوجلاس فراير بهذا الصدد : «بينت مئات من الأبحاث صحة اختبارات القدرة العامة للدراسة الجامعية فى التنبؤ بالتفوق فى الدراسة الجامعية . ويعتبر اختبار الـ «هـ أ ت A C B) السيكلوجى نموذجًا للاختبارات الشائعة الاستعمال للقدرة الجامعية . ويذكر سيجال Segal أن متوسط ٤٣ معاملاً من معاملات الارتباط بين نتيجة هذه الاختبارات مع تقديرات السنة الأولى بالكلية يبلغ ٤٨, ٠ وكان المدى الربيعى لهذه المعاملات بين ٤٠, ٠ و٥٥, ٠ . وكانت معاملات الارتباط مع التفوق فى السنوات الثانية والثالثة والرابعة أقل من ذلك على وجه العموم ، إلا أن اختبارات الكلية المؤلفة خصيصًا لكلية خاصة غالبًا ما تعطى معاملات ارتباط أعلى من السابقة ، مع تقديرات الكلية حيث تبلغ ٧٠, ٠ ويفهم من ذلك أن اختبار القدرة على الدراسة الجامعية الذى يؤلف ويقنن لموقف خاص هو عادة أفضل الاختبارات»[١]. هذا، ويمكن أن يصدق هذا على اختبارات التوجيه والاختيار للمدارس والمعاهد.

١- دوجلاس فراير : سيكلوجية المهن الحرة - ترجمة الدكتور السيد محمد خيرى - فى ميادين علم النفس- المجلد الثانى - أشرف على تأليفه جيلفورد - وأشرف على ترجمته الدكتور يوسف مراد- - القاهرة - دار المعارف - ١٩٥٦ - ص٩١٣- ٩١٤ .

هذا ، ويمكن إدخال طاقة الفرد النفسية على الدراسة ضمن القدرات اللازمة لنجاحه فى التحصيل ؛ فالفرد المريض نفسيًا الذى ينهكه الصراع النفسى ويبدد طاقته، يصبح أقل قدرة على مواصلة الانتباه والتركيز والجهد اللازم لمتابعة شرح المعلم، أو استذكار الدرس، أو القيام بعمل البحث ، كما تعوزه الطاقة اللازمة لكل ذلك كنتيجة لتبديدها فى القلق والصراع النفسى ، مما يؤدى به إلى الفشل الدراسى أو نقص التحصيل . هذا إضافة إلى اضطراب علاقته بزملائه وأساتذته، مما ينعكس بالتالى على مستوى تحصيله، فيزيد من فشله دراسيًا، أو يخفض من مستوى تحصيله أكثر وأكثر . وهناك الكثير من البحوث التى أيدت هذا الرأى، نذكر منها بحث فيلدهسن وثرستون وبننج[1] Feldhusen , Thurston and Bening - المنشور عام ١٩٧٠- والذى درسوا فيه العلاقة بين التحصيل الدراسى وكلٍ من السلوك العدوانى (مثل إحداث فوضى فى الفصل وكثرة الغضب وحب السيطرة والتأخير، أو الغياب بدون عذر والإجابة بفظاظة وبعدم احترام والكذب والسلوك الشرير) والسلوك المقبول اجتماعيًا (مثل الجد والإنتاج وطيب الخلق والطموح والتعاون والصدق وإنجاز الواجبات فى أوقاتها) . وكانت عينة الدراسة عبارة عن مجموعتين من تلاميذ المدارس . ومن دراستهم للبيئة العائلية لكلٍ من المجموعتين تبين أن التلاميذ العدوانيين كان آباؤهم يظهرون عاطفة أقل نحوهم ، ويشرفون عليهم بدرجة غير كافية ، كما كان هؤلاء الآباء أقل قدرة على تكوين علاقات أسرية متماسكة ، وأقل فى المستوى التعليمى والمهنى، وأقل إسهامًا وفاعلية فى حياة المجتمع وخدماته فى المقارنة بآباء مجموعة التلاميذ المقبول سلوكهم اجتماعيًا . وبعد خمس سنوات عملت مقارنة بين التحصيل الدراسى لكلٍ من المجموعتين، فتبين أن مجموعة التلاميذ العدوانيين أقل فى القراءة والكتابة والدراسات الاجتماعية والعلوم والرياضيات من المجموعة الأخرى .

(ب) الدافع :

إذا كانت قدرات التلميذ العقلية وطاقاته النفسية تؤهله لمزيد من التحصيل والتفوق الدراسى لملاءمتها وكفايتها لنوع الدراسة التى يواصلها ، فإن هذا وحده لن يكفى، بل لابد من أن يتوافر إلى جانبه دافع قوى للتحصيل والتفوق، على نحو ما سبق أن ذكرنا . والدافع هنا- كقوة دافعة داخل الفرد ذاته- هو الذى يستثير حماسة للتحصيل والتفوق . وبناءً على هذا المبدأ النفسى، ينصح علماء النفس بضرورة تقوية الدافع عند التلميذ للتحصيل إلى الحد الذى يمكنه من استغلال قدراته على أمثل وجه .

١- المرجع السابق، ص٣٨٨-٣٨٩ - لـ Johnson and Medinnus

وعلى هذا ينصح علماء النفس بأن يوجه التلميذ -بقدر الإمكان- إلى نوع الدراسة الذى يميل إليه؛ بمعنى الذى يستهويه ويريده ويحبه . فهذا الميل فى -حد ذاته- يقوى دافعه نحو الاستفادة والتحصيل . كما ينبغى أن نهيئ الظروف المختلفة التى تخلق وترفع مستوى الدافع لدى التلميذ للدراسة والتحصيل، مثل تهيئة علاقات طيبة بين المعلمين والتلاميذ ، وبين التلاميذ بعضهم البعض ، وتهيئة المدرسة وإمدادها بوسائل النشاط التى تشبع هوايات التلاميذ المختلفة، كالترفيه والرياضة والنشاطات الاجتماعية والفنية المختلفة . والعمل على علاج ماينشأ بين التلاميذ بعضهم وبعض، أو بينهم وبين المسئولية من خلافات أو مشكلات . هذا بالإضافة إلى ضرورة تهيئة الظروف الفيزيقية المناسبة والمريحة فى قاعات الدرس وفى المدرسة عمامًا ؛ مثل التأثيث والأدوات والأجهزة الكافية والإضاءة والتهوية والحرارة المناسبة؛ إذ أن كل ذلك يزيد من الميل إلى الدراسة، ويقلل من الضيق الذى ينتاب التلاميذ من مواصلتها، ويجذبهم أكثر نحو مدرستهم .

وإلى جانب كل ذلك ، فإن طريقة التدريس وما يقع فيها من نظم وأساليب ذات تأثير كبير على دافع التلميذ نحو التحصيل ، على نحو ما سنرى فيما بعد عند بحثنا للعامل الثالث من عوامل نجاح المدرسة .

وبناءً على ما سبق أن ذكرناه عن شخصية التلميذ وخصائصها ومدى تأثير ذلك على نجاحه الدراسى، فإن الإخصائى النفسى فى المدرسة يضطلع بدور هام فى تشخيص وعلاج مشكلات التخلف الدراسى، فيبحث عن العوامل المسئولة عن التخلف الدراسى لدى التلميذ المعين، هل هو يرجع إلى ضعفه العقلى، فيوصى بناءً على ذلك بتحويله إلى مدرسة ضعاف العقول ، أم إلى عدم توافر القدرات والاستعدادات والطاقات العقلية والنفسية الخاصة التى يتطلبها التعليم فى هذه المدرسة أو فى هذا القسم، فيوصى بتوجيه التلميذ إلى مدرسة أخرى أو إلى قسم آخر، يرى -من دراسته لشخصية التلميذ وخصائصها- أنه أكثر ملاءمة له، وأن احتمال نجاحه فيه أكبر، أم أن الفشل الدراسى لهذا التلميذ راجع إلى مشكلات انفعالية أو اضطرابات نفسية فيقوم هو بعلاجها - إن كان يستطيع ذلك- أو يحولها إلى المتخصصين فى علاجها حتى تستقيم الحالة النفسية للتلميذ أو تخف حدة الاضطراب النفسى عنده فيستطيع عندئذ متابعة الدراسة، أم أن الفشل الدراسى لهذا التلميذ راجع إلى مجموعة من هذه العوامل وغيرها فينصح بما ينبغى اتباعه لعلاجه .

ثانيًا - شخصية المعلم (أو الأستاذ) وخصائصها :

العامل الثانى الذى يعتمد عليه نجاح المدرسة فى قيامها بدورها التعليمى والتربوى هو شخصية المعلم وخصائصها . وكفاءة المعلم فى القيام بواجبه تعتمد على نفس العنصرين اللذين سبق ذكرهما بالنسبة للتلميذ : وهما القدرة والدافع . فما لم تتوافر لدى المعلم القدرة على التدريس والدافع إلى القيام به على وجه مرضٍ فلن ينجح فى عمله .

(أ) القدرة :

نناقش فيما يلى أهم عوامل هذه القدرة على التدريس :

١- المعرفة الواسعة فى مجال التخصص : لاشك أن أول ما يتبادر إلى الذهن فيما يتعلق بضرورة توافر القدرة عند المعلم هو ضرورة توافر المعرفة على أوسع درجة ممكنة فى مجال تخصصه ؛ فمعلم الحساب -مثلاً- يكون أول شرط لناجحه فى أداء عمله هو الإلمام إلمامًا واسعًا -قدر المستطاع- بالمعارف والمعلومات والمهارات الخاصة بمادة الحساب وموضوعاتها المختلفة . ومعلم اللغة بالمثل لابد وأن يكون إلمامه باللغة ومفرداتها وقواعدها وآدابها على درجة عالية من الدقة والشمول . ولما كان فاقد الشيء لايعطيه، فإن المعلم الضعيف فى مادة تخصصه يكون من الصعب عليه تدريسها بكفاءة عالية ، كما أنه يتعرض أثناء تدريسه لها لمواقف صعبة، أو إلى أسئلة واستفسارات تتعلق بها من تلاميذه يعجز عن الإجابة الصحيحة عنها فى حينها، مما ينتقص من قيمته لدى تلاميذه ومن ثقته فى نفسه. وبالتالى، تقل كفاءته فى القيام بواجباته وإفادة تلاميذه الفائدة المرجوة .

ولعل المؤهلات العلمية والتربوية، التى يشترط حصولها للتعيين فى وظائف المعلمين، تستوفى هذا الجانب إلى حد لا بأس به .

٢- المهارات اللغوية والشفهية خاصة : إن مهارة المعلم اللغوية والشفهية خاصة، وخلوه من عيوب النطق وقدرته على الإقناع وعلى التفكير المنظم المنطقى بصوت عالٍ (مما يدخل ضمن مهارة الفرد اللغوية والشفهية) من ألزم الأمور التى تمكن المعلم من أداء دوره بنجاح ؛ إذ تمكنه من شرح موضوعات مادته لتلاميذه وإفهامهم أسسها وإقناعهم بمنطقها ، فيسهل عليهم فهمها واستيعابها ، أما إن كان المعلم يعانى من عيوب النطق، ولاتمكنه مهارته اللغوية من التعبير السليم عن أفكاره فسوف يكون من الصعب عليه شرح موضوعات مادته لتلاميذه وإفهامهم إياها ، وإيصال فكره ومعلوماته إليهم .

٣- الذكاء : يعتبر ذكاء المعلم من أهم العوامل التى تؤثر على كفاءته فى القيام بواجبه التعليمى، ولذا ينبغى أن يكون ذكاؤه فوق المتوسط أو متوسطًا على أقل تقدير . ومن الجدير بالذكر أن تصنيف المهن وفقًا للدرجات فى اختبار الجيش الأمريكى (اختبار التصنيف العام- وهو اختبار ذكاء أساسًا) حسب ما أورده موريس فيتلس[١] فى فصل كتبه عن علم النفس المهنى فى كتاب ميادين علم النفس، يضع مهنة المدرس على اعتبار أنها المهنة الثانية، فى ترتيب المهن التى أوردها ، من حيث مستوى الذكاء المرتفع الذى يقابلها ؛ إذ يتضح من الجدول الوارد به هذا التصنيف أن وسيط مهنة المدرس هو ١٢٤ درجة معيارية على أساس أن متوسط مجموعة التقنين ١٠٠ وانحرافها المعيارى ٢٠ : ومهنة المدرس فى هذا الجدول تلى مهنة المحاسب على اعتبار أنها المهنة التى تقابلها أعلى درجة ذكاء للمهن جميعًا ؛ إذ كان وسيط مهنة المحاسب ١٢٩ . كما يقول دوجلاس فراير بهذا الصد : «تستعمل كليات المدرسين غالبًا (قاصداً بلده بطبيعة الحال وهى الولايات المتحدة الأمريكية) اختباراً للقدرة العامة (أى للذكاء) كوسيلة للتمييز فى منح الشهادات، أو لتوجيه الطالب فى مهنة التدريس»[٢].

٤- الطاقة النفسية : أما طاقة المعلم النفسية على القيام بواجبات التدريس والتعليم فهى شديدة الأهمية بالمثل ؛ فاتزان المعلم النفسى وخلوه من الاضطرابات والصراعات النفسية الشديدة، وتحرره من القلق العنيف يحفظ له كل ذلك طاقته النفسية التى يحتاج إليها فى القيام بواجبات التدريس والتعليم . كما أن ثقته المعتدلة فى نفسه ، وذكاءه الاجتماعى المرتفع، وميله المعتدل للانبساط دون الانطواء يدعم كفاءته وقدرته فى مهنته .

هذا ، وتتضح أهمية الطاقة النفسية للمعلم بشكل أكثر عندما نذكر أن مهمته ليست قاصرة -فقط- على تعليم تلاميذه مهارات علمية معينة، بل إنها تمتد إلى العناية والرعاية المتعلقة بالجوانب الانفعالية والنفسية لهم، على نحو ما يقرر جونسون وميديناس[٣]. فلاشك أن المعلم الأكثر اتزانًا من الناحية النفسية يكون أكثر كفاءة فى تحقيق هذه المهمة . ويراعى

١- موريس فيتلس : علم النفس المهنى- ترجمة الدكتور أحمد زكى صالح- فى ميادين علم النفس- المجلد الثانى- أشرف على تأليفه جيلفورد - وأشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد- القاهرة- دار المعارف- ١٩٥٦ - ص٧٦٧ .

٢- المرجع السابق لدوجلاس فراير، ص٩٢٢ .

٣- المرجع السابق. . Johnson and Medinnus, p. 882

الإخصائيون النفسيون الذين يكلفون باختيار أو توجيه المعلمين كل هذه القدرات المعرفية والخصائص العقلية والنفسية، ويذكر ڤالنتين[1] Valentine بهذا الخصوص أن البحوث بينت أن حوالى ربع الناس عامة فى انجلترا يعانون من الاضطرابات النفسية المعروفة بالعصاب Neurosis ، وأن الاختيار الدقيق لطلبة مهنة التدريس سيؤدى إلى خفض هذه النسبة ، وأن بعض هذه الاضطرابات النفسية تجعل المدرس يستجيب استجابات عنيفة وغير متعقلة للتصرفات الطفلية غير المقبولة من التلاميذ. كما يضيف ڤالنتين -تأكيداً لهذا الرأى- ما تبين من بحث نشره كلارك Clark - عام ١٩٥١ - أجرى على مائتى معلم اختيروا عشوائيًا من ثمانٍ وعشرين مدرسة ابتدائية بالولايات المتحدة الأمريكية من وجود اتجاه بين المعلمين الأكثر صحة نفسية لأن يكونوا أقل ضيقًا عن الآخرين فى حالة وجود بعض المظاهر السلوكية غير المقبولة بين التلاميذ ؛ كالإهمال وعدم الانتباه وارتداء ملابس قذرة و(مضغ اللبان) .

ولعل من أوضح البحوث دلالة على تأثير المعلم على التوافق النفسى لتلاميذه بحث بيرت وهوارد Burt and Haward عن طبيعة وأسباب سوء التوافق بين الأطفال فى سن المدرسة - والذى نشراه فى عام ١٩٥٢ - حيث اتضح منه تحسن تام فى ٧٣ فى المائة من حالات التلاميذ من بين ١٢٤ تلميذاً سيئى التوافق بسبب الظروف المدرسية- - فيما يبدو- وبخاصة المدرسين ، بعد أن انتقلوا إلى مدارس أخرى (وتغير مدرسوهم) .

(ب) الدافع :

القيام بالتدريس -شأن قيام الفرد بأى سلوك- لابد له من دافع. فمهما توافر للمعلم من طاقة جسمية وعقلية ونفسية مناسبة لمهنة التدريس فلا بد له من توافر دافع قوى إلى القيام بواجبات هذه المهنة، إذا كنا نرجو له نجاحًا فيها؛ فالدافع يزيد من طاقة الفرد على القيام بواجبات المهنة من جانب، كما يدفعه إلى إنجازها على أحسن مستوى ممكن من جانب آخر . ونناقش فيما يلى أهم عوامل هذا الدافع .

١- C. W. Valentine, The Normal Child and Some of His Abnormalities, Pelican Books 1956 , 175 - 179 .

٢- المرجع السابق ، ص١٧١ .

١- **الميل** : يعتبر ميل الفرد إلى مهنة التدريس من أقوى دوافعه للنجاح فيها ، فالفرد -عادة- إن مال إلى عمل معين فضل أن يقضى فيه وقتًا طويلاً دون أن يحس من جراء ذلك بسرعة التعب أو الملل ، كما يستمتع بصرف جزء كبير من طاقته فى أدائه ، ولايدخر جهداً فى تنمية مهاراته ومعلوماته فى مجاله . وليس قليلاً ما نسمعه عن تطوع البعض للقيام بواجبات تعليمية بدون مقابل، اللهم إلا إشباع ميلهم إلى مهنة التدريس واستمتاعهم الشخصى من القيام بها . ويؤكد فيتلس أهمية ميل الفرد لعمله فيقول : ولاشك أن قياس الميل ذو قيمة وخاصة فى التوجيه المهنى؛ لأنه يبين ما إذا كان الفرد يميل إلى العمل فى المهنة التى يتقدم إليها ميلاً كافيًا يجعله يستمر فيها ، وكذلك ما إذا كان الفرد سيجد نفسه بين زملاء له فى العمل مشابهين له فى العمل والميل ، ولاقتراح مجالات أخرى غير المهنة التى قد لايكون له ميل فيها »[1]. كما يضيف أنه «يمكن استعمال قياس الميول فى بعض الأحوال فى التنبؤ بدرجة النجاح فى المهنة ، بيد أنه فى ضوء الأدلة الحالية ومع تأجيل النظر فى الأدلة المستقبلة، ويحسن أن نقصر مسئولية اختبارات الميول على التنبؤ برضا الفرد عن عمله وليس على درجة النجاح الإنتاجى فى العمل»[2].

٢- **الضمير الحى** : كما أن الضمير الحى - والذى يعتبر مكونًا هامًا من مكونات الشخصية عامل أساسى يدفع المعلم إلى الاجتهاد فى أداء واجباته التعليمية على أحسن مستوى يستطيعه ؛ فالمعلم الذى يمتاز بالضمير الحى يراعى بذل كل ما يستطيع لكى يفهم جميع تلاميذه الدروس ، ولايضيق بالتكرار والإعادة إن تبين له أن الدرس صعب أو لم يفهمه البعض - حتى يطمئن إلى أنه أصبح مفهومًا . كما أنه يوزع اهتمامه بعدالة ومساواة وموضوعية على كافة تلاميذه دون تحيز مبنى على عوامل مصلحية أو أهواء شخصية ، فإذا به يهتم بكل تلميذ ويحاول أن يفيده ما استطاع ذلك ، ولايرتاح له ضمير إن هو أهمل القيام بواجبه نحو أحد تلاميذه . أو تحيز لتلميذ واهتم به وبتحصيله وتجاهل آخر وأهمل إفادته وتعليمه ، واحترم هذا واستصغر ذاك .. ولذلك يقال عن مهنة التدريس- خاصة - أنها مهنة ضمير . ويلاحظ أن مشكلة الضمير هذه مشكلة خلقية تقع على الأسرة خاصة والمجتمع عامة

١- المرجع السابق لفيتلس ، ص٧٩٤ .

٢- المرجع السابق بنفس الصفحة .

مهمة تكوينه وتنميته وتربيته على صورة فاضلة عند الأفراد . ولهذا ، فإن فساد المجتمع أو صلاحه لابد منعكس فى نهاية الأمر على ضمائر أبنائه ، ومنهم المعلمون بطبيعة الحال .

٣- البواعث : تعتبر البواعث من المثيرات الأساسية التى تستثير حماس الفرد للقيام بواجباته على أفضل ما يستطيع . ويتحدث عنها چون فريزر John Fraser فيقول : «كلمة (Incentive) تستخدم بكثرة هذه الأيام ، وهى عندما تتعلق بالناس فى عملهم تعنى- بصفة عامة - شيئًا يجعل الناس تعمل باجتهاد أكثر»[١] . كما يذكر راسل ليڤانواى[٢] Russell Levanway أن البواعث تؤثر على الأداء على نحو ما وجد يونج Young فى بحثه المنشور عام ١٩٤٧ ، وأن المكافأة نفسها تؤثر -أيضًا- على الأداء على نحو ما وجد ولف وكابلون Wolfe and Kaplon فى بحثهما المنشور عام ١٩٤٢ - كما يضيف ليفانواى - أن زيمون Zeamon أثبت فى بحثه - المنشور عام ١٩٤٩- أن تغيير مقدار المكافأة يؤثر فوراً على الأداء .

هذا ، «والبواعث (الحوافز) التى أمكن بحثها لدى الإنسان تقسم عادة إلى : (١) معرفة النتائج (٢) المكافآت (٣) العقاب (٤) المدح (٥) التأنيب (٦) التسهيل الاجتماعى (٧) التنافس (٨) التعاون»[٣]. فإذا ما أحسن استخدام مثل هذه الحوافز مع المعلمين وطبقت تطبيقًا سليمًا عادلاً وموضوعيًا أدى ذلك إلى رفع كفاءتهم فى عملهم إلى حد كبير . ولايتسع المقام هنا لعرض كثير من البحوث التى أثبتت تأثير كل نوع من أنواع البواعث تلك . لذا نشير - على سبيل المثال فقط - إلى التجربة التى قام بنشرها بوك ونرفل[٤] Book and Norvell - عام ١٩٢٢ - حيث تبين أن نسبة الزيادة بعد معرفة النتائج كانت ٤٦,٨٢ للرجال و ٤٢,٢٧ للنساء . ولعل هذا يوحى بضرورة أن يقوم المفتشون الذين يتولون تقييم عمل المعلمين باطلاعهم على تقاريرهم وبيان رأيهم صراحة فى عملهم حتى يحفزهم هذا على

١- J. M. Fraser . Psychology ; General, Industrial , Social, Pitman Publishing, London, 1971 , 228 .

٢- R. W . Levanway. Advanced, General Psychology , Davis Company, Philadelphia, 1972 , 288 .

٣- المرجع السابق لدوجلاس فراير، ص٧٢١ .

٤- المرجع السابق، ص٧٧٢ .

تحسينه . بل يمكننا فى ضوء هذا أن نقول إن التقارير السرية عن كفاءة الموظف أو العامل، والتى يقوم رئيسه بكتابتها، لاتؤتى الفائدة منها بالدرجة المرجوة إلا إذا عرفها الموظف أو العامل المعنى. وبالتالى، فإن سريتها تفقدها الكثير من فائدتها، علاوة -أيضًا- على الكثير من موضوعيتها .

ونظراً للاعتراف المتزايد بأهمية البواعث فإن الكثير من نظم الترقى وتقدير المكافآت والأجور والمرتبات تربطها بمستوى الإنتاج ، بحيث يرقى ويرتفع أجر أو مكافأة أو مرتب الأكفأ إنتاجًا ، بل ويهدد بالفصل من العمل كل ذى مستوى ضعيف فى إنتاجه . وبهذا يعمل المسئولون على رفع الدافع إلى الإنتاج لدى العاملين .

هذا ، ومما يزيد من أهمية شخصية المعلم أنها تعتبر - إلى حدكبير - امتداداً لشخصية الأب أو الأم ، وكثيراً ما تحل محلهما ، أو تضاف إليهما ، كسند وجدانى للتلميذ يستعين به فى مواجهة مشاكله وإشباع عواطفه وتحقيق استقراره النفسى . كما أن شخصية المعلم كثيراً ما تصبح المثل الأعلى للتلميذ الذى يحاول أن يقتدى به فى سلوكه ويتلقى عنه مثله وقيمه . ولهذا يذكر چونسون وميدناس[1] أن المعلمين يؤثرون على تحصيل تلاميذهم عن طريق نوعية العلاقات التى يقيمونها معهم ، وأن هناك تشابهًا كبيراً بين القيم التى يتخذها المعلم وتلك التى يتخذها التلاميذ ذوو التحصيل المرتفع عنه بين قيم المعلم وتلك التى يتخذها التلاميذ ذوو التحصيل المنخفض ، على نحو ما أوضح بحث ماكدافيد Mc David الذى نشره عام ١٩٥٩ . لهذا ، فكلما كانت شخصية المعلم سوية متزنة وعلى درجة عالية من الكفاءة والخلق الطيب توقعنا أن يكون ذا أثر حميد على تلاميذه الذين هم جيل المستقبل وعماده . ومن هنا ، فإن المجتمعات يجب أن لاتألو جهداً فى سبيل اختيار وتكوين وإعداد المعلمين سواء من النواحى العلمية أو التربوية أو النفسية لإكسابهم أقصى درجة ممكنة من الصلاحية لمهنة التدريس. بل إننا نجد فى كثير من البلاد مراكز ومؤسسات خاصة ليست فقط لتخريج المعلمين، بل وأيضًا لإعطاء العاملين منهم بالفعل دورات تدريبية بين الحين والآخر لرفع مهاراتهم وكفاءاتهم فى عملهم، واطلاعهم على الجديد والمفيد فى مجال تخصصهم وعملهم والمناسب من أساليب تربية النشء وطرق تعليمه وكيفية التعامل معه . كما توجه المعلمين وتدفعهم إلى ما ينبغى أن يقوموا به باستمرار من تنمية لمهاراتهم ومعارفهم وذواتهم ، وذلك من تلقاء أنفسهم عن طريق متابعة الجديد فى مجال تخصصهم، وفى أساليب تدريسه وما إلى ذلك.

١- المرجع السابق لـ . Johson and Medinnus, p. 389

ثالثًا - طرق التدريس :

والعامل الثالث -الذى ذكرنا أنه من أهم عوامل نجاح المدرسة فى أهدافها- هو النظم والطرق التى يؤدى بها المعلمون واجباتهم التعليمية ، فهى ذات أثر فعال فى تحصيل التلاميذ واستفادتهم من التعليم . وهناك الكثير من الدراسات والتجارب التى قام بها علماء النفس وعلماء التربية، وتزخر بها كتبهم، توضح النظم والطرق المثلى لرفع كفاءة التعليم . ونظراً لضيق المقام هنا سوف نكتفى -فقط- بذكر أمثلة لهذه النظم وتلك الطرق .

(أ) التنظيم الأمثل لطول الحصص وتوزيعها :

ينبغى أن يكون طول الحصة مناسبًا لمستوى التلميذ وقدرته على مواصلة التركيز ؛ فمعروف -مثلاً- أن التلميذ فى المرحلة الابتدائية لايستطيع مواصلة التركيز على موضوع معين لمتابعته إلا لفترة قصيرة ، بينما تزيد قدرته على مواصلة التركيز لمدة أطول فى المرحلة الثانوية . وتزيد هذه القدرة أكثر وأكثر فى المرحلة الجامعية مع إشرافه على مرحلة الرشد والنضج فى استعداداته وقدراته . ولهذا ، وجب أن تكون الحصة قصيرة فى المدرسة الابتدائية (بين ٣٠ و٤٠ دقيقة على سبيل المثال) ، وأطول قليلاً فى المدرسة الثانوية (بين ٤٠ و ٦٠ دقيقة على سبيل المثال) ، وأطول أكثر فى المرحلة الجامعية أو ما يعادلها (بين ٦٠ و١٢٠ دقيقة على سبيل المثال) . ولا نستطيع تحديد هذا الطول بدقة إلا بعد القيام بدراسات تجريبية ميدانية تحدد لنا الطول الأمثل للحصة فى كل مرحلة دراسية خاصة .

كما أننا فى حاجة- أيضًا- إلى دراسات تجريبية وميدانية توضح لنا أمثل توزيع للحصص ولفترات الراحة (وطولها) على اليوم الدراسى. وينبنى ذلك على دراسة منحنى التعب الخاص بكل مرحلة دراسية معينة .

أما نظام توزيع المواد الدراسة على حصص اليوم الدراسى (أو ما يعرف بجدول الحصص) فينبغى أن يكون متفقًا وطبيعة هذه المواد الدراسية . فالمواد النظرية -مثلاً- يحسن أن تكون فى بداية اليوم الدراسى قبل أن يحل التعب بالتلميذ ثم تليها المواد العملية ؛ وذلك لأن المواد النظرية تحتاج إلى قدرة أكبر على التفكير المركز تكون متوافرة أكثر قبل أن يتعب التلميذ، فى حين أن المواد العملية تتطلب نشاطًا حركيًا أكثر، والنشاط الحركى بطبعه يذهب الخمول الذى يعترى التلميذ فى أواخر حصص اليوم الدراسى، هذا من جانب . ومن جانب آخر، فإن النشاط الحركى لايتطلب من تركيز التفكير الشىء الكثير الذى تحتاجه المواد النظرية .

(ب) الشرح والإفهام :

إن طريقة التدريس القائمة على الشرح والإفهام أكثر فائدة من تلك القائمة على الحفظ و(حشو الذهن) بالمعلومات دون الفهم ؛ فالتدريس القائم على الشرح والإفهام يمكن التلميذ من استخدام ذكائه فى التحصيل ومن فهم موضوعات المادة فيحسن تحصيله ويقاوم النسيان ، كما يستطيع التلميذ نتيجة فهمه للمادة أن يحسن الاستفادة التطبيقية منها فى الحياة الواقعية، وهذا هدف أساسى للتعليم . أما الحفظ الآلى و(حشو الذهن) بمعلومات غير مفهومة فلن يغير كثيراً من شخصية المتعلم بل يجعله يقوم بترديد ما حفظ ترديداً آليًا دون فهم ، مما يعوقه عن الاستفادة التطبيقية مما حصله ، كما أن النسيان يسارع إلى ما حفظه دون فهم ؛ فالفهم من آثاره أن يساند عملية الحفظ ويقاوم النسيان . ولعل فيما يقوم به طلبة علم النفس التجريبى من تجارب مبسطة عن المقارنة بين سرعة تعلم المادة المفهومة وسرعة تعلم المادة غير المفهومة وبين سرعة نسيان المادة المفهومة وسرعة نسيان المادة غير المفهومة، ما يؤيد ذلك ؛ إذ يتبين من مثل هذه التجارب أن المادة غير المفهومة (كالكلمات التى لامعنى لها أو الجمل غير المفهومة) أصعب فى تحصيلها وأسرع فى نسيانها من مثيلاتها المفهومة (أو الحاصلة على معنى) . ولذلك، يصبح من الأهمية بمكان أن يقوم المعلمون بالتركيز على شرح المادة ومراعاة إفهام تلاميذهم واستبصارهم بالأسس التى تقوم عليها موضوعاتها . وينبغى أن يستعين المعلم على تحقيق ذلك بكل ما يستطيع من شرح وأمثلة وتجارب ووسائل إيضاح ومواد وأجهزة مختلفة ، وأن يقوم بتكرار الشرح والإيضاح ، إذا تطلب الأمر ذلك .

ويؤيد هوراس إنجلش[١] هذا الرأى ، فيشير إلى أن هناك تجارب كثيرة قد أوضحت أن التعليم يكون منتجًا بمقدار ما تكون للمادة المتعلمة من معنى، على نحو ما بينت دراسة ماكجوك Mcgeoch المنشورة عام ١٩٣٠ ، ويذهب هوراس إنجلش إلى أبعد من ذلك فيقول : «وفى الحقيقة لو أسقطنا من اعتبارنا نوع التعليم الذى يظهر بوضوح فى الاستجابة الشرطية أمكننا أن نفترض أن وجود المعنى ضرورة أولية للتعليم[٢].

١- هوراس إنجلش . علم النفس التربوى - ترجمة الدكتور السيد محمد خيرى- فى ميادين علم النفس- المجلد الأول - أشرف على تأليفه جيلفورد- أشرف على ترجمته دكتور يوسف مراد- القاهرة، دار المعارف ، ١٩٥٥ ، ص١٩٤ .

٢- المرجع السابق بنفس الصفحة .

(جـ) توجيه المتعلم وإرشاده :

لاشك أن التلميذ فى حاجة إلى توجيه وإرشاد مستمر من جانب معلمه يشرح له فيه الصواب ويصحح له فيه الخطأ . إلا أن المعلم ينبغى له أن يعرف متى يكون التلميذ فى حاجة إلى توجيهه وإرشاده ، ومتى يكون من الأفيد له تركه ليحاول حل مشاكله وحده والاعتماد على ذاته فى محاولات الفهم والاستبصار والتعلم والتحصيل ، حتى إذا ما تأكد للمعلم عجز تلميذه وحاجته إلى مساعدته تدخل المعلم فى الوقت المناسب حيث تكون فائدة المساعدة أكثر ؛ بمعنى أن المعلم يجب عليه أن يترك للتلميذ فرصة المحاولة وحده حتى لو أخطأ التلميذ ، ففى ذلك فائدة مزدوجة للتلميذ ، فهو من جانب ينمى فى التلميذ روح الاعتماد على النفس والثقة فيها ، ومن جانب آخر فإن التلميذ يستفيد من خطئه بعد أن يقوم المعلم بتصويبه له ، فيقل احتمال أن يقع فيه مرة أخرى .

هذا ، ومما يفيد التلميذ كثيراً معرفة نتائج تعلمه ، وإلى أى حد وصل فيه ، وأين أخطأ وأين أصاب . فهذا يعطى التلميذ فكرة صحيحة عن مدى تحصيله ومستواه العلمى الحقيقى فيصحح بهذا فكرته عن ذلك ، وهى فكرة كثيراً ما تكون منحرفة ؛ فضعيف التحصيل أحيانًا يتصور نفسه متقدمًا فى التحصيل فيقعده هذا عن الاستزادة . لكن لو عرف أنه ضعيف فسوف يبذل جهداً أكبر ليتقدم ، فى حين أن المتقدم فى تحصيله قد يتصور نفسه ضعيفًا فى التحصيل ، وبذلك فمعرفة حقيقة مستوى تحصيله تكسبه ثقة أكبر فى نفسه وفى إمكانية أن يحقق تفوقًا أكثر . ولذلك تكون معرفة التلميذ لحقيقة المستوى الذى وصل إليه فى تحصيله من عوامل دفعه أكثر - فى غالب الأحوال- نحو مزيد من التحصيل، سواء أكان تحصيله ضعيفًا أم متفوقًا . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن معرفة حقيقة مستوى تحصيل التلميذ تبين له أين أخطأ وأين أصاب ، وفى أى المواد هو متفوق وفى أيها هو ضعيف ؛ ومن شأن ذلك أن يجعله يبذل مزيداً من الجهد لتصحيح أخطائه وتقوية تحصيله فى المواد التى تبين له ضعف مستواه فيها .

ويؤيد هوراس إنجلش هذا الرأى فيقول : «وهناك تجارب كثيرة تبين أن معرفة النتائج تساعد على التعلم بل تكون وسيلة مساعدة لايمكن الاستغناء عنها . وأغلب التجارب التى كان الغرض منها بيان أثر المدح أو التأنيب والثواب أو العقاب يمكن أن تفسر ببساطة على أنها اختبارات لمعرفة أثر إخطار المتعلم بنتيجة ما تعلمه، ودرجات التفوق فى العمل المدرسى

تعتبر (مفيدة) بقدر نجاحها فى اطلاع التلميذ على مدى تفوقه، بينما قيمتها كبواعث للتعليم تعتبر أقل أهمية . والتجارب فى هذا الموضوع متفقة على وجه العموم ؛ فمعرفة النتائج تسهل التعليم فى كل الظروف»[١] . كما يضيف : «والدراسات التجريبية فى المعمل (حتى الدراسات التجريبية على الفيران) والدراسات التى أجريت فى الظروف المدرسية تتفق تمامًا فى نتائجها، فاجعل المتعلم يقف تمامًا على مكان خطئه ومداه إن كنت تريد له التقدم»[٢] . وهذا يقابل ما سبق أن ذكرناه عند الحديث عن معرفة النتائج كحافز للمعلم .

وإضافة إلى كل ذلك ، فإنه ينبغى على المعلم أن يسارع بإرشاد التلميذ إلى الصواب بمجرد أن يلحظ خطأه قبل أن يثبت لديه هذا الخطأ ، ويصبح من الصعب بعدئذ محوه وإحلال الصواب محله . ومن هنا يبدو لنا واضحًا مدى قيمة الامتحانات الدورية التى تعطى للتلميذ، ومدى استفادتهم من معرفة نتائجها أولاً بأول .

(د) التفاعل الاجتماعى :

كلما اعتمدت طريقة المعلم فى تدريسه على التفاعل الاجتماعى بينه وبين تلاميذه ، وبين تلاميذه بعضهم وبعض ، وكلما أتاحت فرصة للنقاش المتبادل بينه وبينهم، كانت طريقة التعليم أجدى؛ إذ يزداد التلاميذ فهمًا للمادة المدروسة وإزالة لما يعتريها من غموض ، كما يرتفع دافعهم فى نفس الوقت نحو تحصيلها . «ولقد وجد بعض علماء النفس الألمان منذ بداية هذا القرن أن العمل يتحسن فى الظروف الاجتماعية ، وقد وجدوا أن الواجبات المدرسية التى يقوم بها التلميذ فى منزله تكون أقل دقة وأكثر بطئًا من الأعمال التى يقوم بها فى مثل هذه الظروف الاجتماعية التى تهيئها قاعة الدراسة . وقد أجريت دراسات معملية كثيرة بعد ذلك فى ألمانيا وفى أمريكا ، فأيدت أن مجرد وجود أشخاص آخرين مع الشخص الذى يقوم بالعمل يؤدى -على وجه العموم- إلى تحسين فى العمل (على نحو ما وجد ألبورت Allport فى دراسته المنشورة عام ١٩٢٠) »[٣]. كما «وجد بارتون Barton فى بحثه (المنشور

١- المرجع السابق لهوراس إنجلش، ص ٢٠٨ .

٢- المرجع السابق ، ص ٢٠٨- ٢٠٩ .

٣- المرجع السابق ، ص ١٩٨- ١٩٩ .

عام ١٩٢٦) أن أربعة أيام استغرقت فى مناقشة مسائل الجبر أنتجت تفوقًا مستمراً عظيمًا فى التحصيل على الطريقة العادية الفردية ، إذا ساوينا بين قدرة التلاميذ الذين أجريت عليهم المقارنة وتدريبهم . وقد وجد بين Bane (فى بحثه المنشور، عام ١٩٢٥) أيضًا أن المناقشة ساعدت على استيعاب المادة لمدة أكثر ، وقد يكون السبب أن المناقشة قد ضمنت اشتراك التلاميذ اشتراكًا فعالاً ومحاولتهم فهم العلاقات الموجودة فى المادة المحفوظة»[١].

(هـ) الثواب والعقاب :

يعتبر كل من الثواب والعقاب من أهم البواعث للتحصيل وللإنتاج ، بل ولالتزام المعايير المرغوبة فى السلوك : ولكل منهما أشكال عدة تتفق فى حالة الثواب فى رغبة الفرد فى الحصول عليها ، وفى حالة العقاب أن يتجنب المجازاة . فمثلاً ، نجد من أشكال الثواب المكافآت المالية والجوائز والمنح ، ومن أشكال العقاب الحرمان المالى والضرب والتأنيب . ويرجع أثر الثواب والعقاب إلى أن الفرد -عادة- يميل إلى الحصول على اللذة (والتى تأتيه عن طريق الثواب) وإلى تجنب الألم (والذى يأتيه عن طريق العقاب) . وهذا ما يعرف بمبدأ طلب اللذة وتجنب الألم الذى تخضع له الحياة النفسية للبشر ضمن ما تخضع له من مبادئ .

ويشير دوجلاس فراير إلى أهمية العقاب قائلاً : «فلدى نزلاء السجون وغيرها من المنشآت الجنائية لاتنجح الجهود التى تبذل لتوجيه سلوكهم إلا قليلاً إذا لم يصاحبها على الأقل التهديد بالعقوبة . ولعل كل أم تعرف كم تحتاج إلى استعمال التأنيب أو العقاب مع أطفالها حتى تجعلهم يسيرون طبقًا للأشكال المقبولة من السلوك الاجتماعى[٢] . كما يضيف أنه «قد وجد بوجه عام أن الصدمة الكهربائية إذا استعملت كعقوبة فإنها تعمل على زيادة الكفاية فى التعلم ورد الفعل . ففى التجربة التى قام بها چوهانسون Johanson (المنشورة عام ١٩٢٢) وجد أن الصدمة الكهربائية قد أنقصت زمن الرجع بما يعادل ١٥ فى المائة . وقد ذكر ڤون وديزرنس Vaughn Diserenes أن تعلم السير فى متاهة التعلم المعدنى Stylus Maze تطلب عدداً أقل من المحاولات ، وقدراً أقل من الأخطاء ، وقدراً أقل من الزمن فى حالة

١- المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

٢- المرجع السابق لدوجلاس فراير ، ص ٧٢٣ .

إعطاء صدمات كهربائية خفيفة من عدمه »[١] . ومن الجدير بالذكر أن العقاب الذى ينبغى أن يوجهه المعلم للتلميذ المهمل فى أداء واجباته ، أو غير الملتزم للمعايير السلوكية المقبولة ينبغى أن يكون معتدلاً حتى يؤتى الأثر المطلوب منه . فإن كان العقاب شديداً أو طائشًا أدى غالبًا إلى اضطراب التلميذ وخوفه الشديد ، مما يرفع من نسبة القلق لديه فتضطرب قدرته على التحصيل .

وللثواب -أيضًا- تأثيره الكبير على التحصيل والإنتاج . فعلى سبيل المثال ، وجد لوبا[٢] Leuba فى بحثه المنشور عام ١٩٣٠ - أنه قد حدث تقدم ذو دلالة إحصائية فى مستوى أداء أطفال من الحادية عشرة فى العمر عندما كانوا يقومون بعمليات ضرب عند مكافآتهم بقطع من الشيكولاتة .

لقد عرض دوجلاس فراير[٣] جدولاً يلخص نتائج أربع دراسات مختلفة لبعض العلماء على أطفال صغار وتلاميذ مدارس وطلبة كليات بهدف دراسة أثر كل من المدح والتأنيب . وفى تعليقه على هذه الدراسات يقول : «ففى هذه الدراسات نرى أن كلاً من المدح والتأنيب عادة يحدث زيادة فى الأداء إلا أنه قلما يحدث فرق له دلالة إحصائية بين أثرهما »[٤] . كما يضيف : «وتسفر الدراسات الأخرى فى هذا المجال عن نتيجة مشابهة وهى أن المدح والتأنيب يمكن أن يعتبرا على وجه العموم كبواعث للعمل، وأن المدح يتفوق قليلاً فى أثره الدافع على التأنيب خاصة وأن أثره يمتد إلى مدة أطول»[٥].

هذا ، ولاشك أننا سنجد فروقًا فردية كبيرة بين تأثير الأشكال المختلفة من الثواب والعقاب على الأفراد، سواء فى التحصيل أو فى الإنتاج ، باختلاف ظروف كل منهم وتكوينه النفسى . فهذا يجدى معه نوع معين من الثواب أكثر من غيره ، وذاك يجدى معه نوع من العقاب أكثر من غيره ، وآخر يجدى معه العقاب بصفة عامة أكثر مما يجدى الثواب .. وهكذا . مما يجعل من الأفضل أن يستخدم المدرس (أو المعلم) أكثر من نوع من أنواع الثواب وأكثر من نوع من

١- المرجع السابق ، ص ٧٢٣- ٧٢٤ .

٢- المرجع السابق ، ص ٧٢٥ .

٣- المرجع السابق بنفس الصفحة .

٤- المرجع السابق بنفس الصفحة .

٥- المرجع السابق ، ص ٧٢٦ .

أنواع العقاب فى نفس الوقت وبدرجة كبيرة من المرونة والفهم والاعتدال. وهذا ما يؤكد ضرورة إحاطة المعلم بالكثير من أسس التربية وعلم النفس ونظرياته ودراساته، خاصة تلك المتعلّقة بالطفولة والنمو النفسى وسيكولوچية الشخصية وديناميات الجماعة .

رابعًا - طريقة إدارة المدرسة :

لإدارة أية مؤسسة أو جماعة أثر كبير فى نجاحها أو إخفاقها، سواء أكانت هذه المؤسسة أو الجماعة مصنعًا أم مصلحة حكومية أم ناد رياضى أم مدرسة . وكتب علم النفس، وخاصة منها ما تعلق بفرعى علم النفس الصناعى وعلم النفس الاجتماعى، تخصص فصولاً كثيرة مطوّلة تستعرض فيها الكثير من الدراسات والتجارب التى تؤيد التأثير الكبير للإدارة وكيفيتها على إنتاج المؤسسة ، وعلى الروح المعنوية والراحة النفسية للعاملين فيها . وتكاد تجمع هذه الدراسات على ضرورة الإدارة الديمقراطية للمؤسسة حتى تحقق أكبر نجاح ممكن . وعلى أن الإدارة الديكتاتورية مضرة على وجه خاص بالروح المعنوية والراحة النفسية للعاملين فى المؤسسة ، وأن الإدارة الفوضوية مضرة على وجه خاص بالإنتاج .

ولهذا، ينبغى أن تكون إدارة المدرسة (مديرها أو ناظرها ومساعدوه) على درجة عالية من الكفاءة الشخصية ، وأن تراعى وتطبق فى عملها الأسلوب الديمقراطى فى إدارة المدرسة بحيث تهتم بآراء العاملين بالمدرسة وتناقشها وتحترمها فى اتخاذ القرارات الخاصة بالمدرسة أو بتخطيط عملها ووضع سياستها .

ولعل مجالس الآباء المعروفة فى المدارس تمثل شكلاً من أشكال الديمقراطية المتفقة وطبيعة تكوين المدرسة وظروف وخصائص عملها . ولهذا ، فمن الأهمية بمكان مراعاة الدقة فى اختيار أعضاء إدارة المدرسة وتعيينهم وتدريبهم على أصلح الأساليب الإدارية وأكفأها .

وما يصدق على إدارة المدرسة ككل، يصدق - إلى حد لابأس به- على إدارة المعلم لتلاميذه أثناء الحصة أو خارجها ؛ إذ ينبغى عليه -كلما كان من الممكن ذلك- أن يأخذ بعين الاعتبار آراء التلاميذ وأن يناقشها معهم فيقتنع بها أو يقنعهم بغيرها . والإنسان بعد الاقتناع بالرأى يكون أكثر استعداداً لتبنيه وتنفيذه والدفاع عنه .

خاتمــة :

استعرضنا فى هذا البحث أهم العوامل التى رأينا أنها ذات تأثير كبير على نجاح المدرسة وتحقيقها لأهدافها فى ضوء علم النفس، مع التركيز على الإسهامات والتوجيهات التى يمكن لعلم النفس أن يقدِّمها فى مجال المدرسة (أو أى مؤسسة تعليمية أخرى) ، حتى يشترك مع غيره من العلوم فى خدمة المدرسة ورفع كفاءتها . ولقد تبين لنا أن علم النفس يمكن أن يقدم الكثير فى هذا المجال ، سواء ما يتعلق فيه بالتلميذ ، أم بالمعلم ، أم بطرق التدريس وتنظيمه، أم باستخدام الثواب والعقاب ، أم بكيفية الإدارة بالمدرسة .

وإذا كانت البلاد المتقدمة قد استعانت بإسهامات علم النفس فى مدارسها وفتحت له أوسع الأبواب، وهيأت له أنسب الظروف لكى يمارس تطبيقاته ، فإن البلاد النامية أولى منها بذلك وأشد حاجة حتى يمكنها أن تخفض هذه النسبة العالية فيها من الأمية ، وأن ترفع هذا المستوى المنخفض فيها من التعليم .

المراجع :

١ - دوجلاس فراير: سكولوجية المهن الحرة - ترجمة السيد محمد خيرى- فى ميادين علم النفس - المجلد الثانى- أشرف على تأليفه جيلفورد - وأشرف على ترجمته يوسف مراد- القاهرة - دار المعارف - ١٩٥٦ .

٢- موريس فيتلس : علم النفس المهنى - ترجمة أحمد زكى صالح - فى ميادين علم النفس - المجلد الثانى - أشرف على تأليفه جيلفورد ، وأشرف على ترجمته يوسف مراد- القاهرة - دار المعارف- ١٩٥٦ .

٣- هوراس إنجلش : علم النفس التربوى- ترجمة السيد محمد خيرى- فى ميادين علم النفس- المجلد الأول- أشرف على تأليفه جيلفورد، وأشرف على ترجمته يوسف مراد- القاهرة - دار المعارف- ١٩٩٥ .

٤- Anastasi , A. Psychological Testing , Macmillan Company, 1970 .

٥- Fraser, J; Psychology : General , Industrial , Social , Pitman, London, 1971 .

٦- Johnson , R. and G . Medinnus , Ghild Psychology ; Behavior and Development, John Willey & Sons, New York ; 1974 .

٧- Levanway, R. Advanced General Psychology , Davis Company, Philadelphia, 1972 .

٨- Valentine C. The Normal Child and Some of His - Abnormalities, Pelican Books, 1956 .

علم النفس
بين
خدمة العامل وخدمة الإنتاج *

تمهيـــد :

مع مطلع هذا القرن ، وبعد دراسات تيلر على وجه خاص ، بدأت تثار مشكلة هامة حول دخول علم النفس ميدان العمل . فهل هو يخدم الإنتاج ذاته؛ أى يحقق مصلحة صاحب العمل، سواء أكان دولة أم أفراداً فى الاستزادة من الربح ، أم هو يخدم العامل كإنسان له دوافع ورغبات يريد إشباعها ، وكرامة يريد أن يحافظ عليها ؟ ومما زاد من حدة هذه المشكلة أن دراسات تيلر وخلفائه ، التى يمكن اعتبارها -بحق- بداية الدخول الملموس لعلم النفس فى ميدان العمل ، قد ركزت على اختيار أفضل الصالحين، واتخذت السبل المنهجية المختلفة لزيادة الإنتاج حتى وصل إنتاج العامل فى بعض الحالات إلى أربعة أضعاف . ومن لم يكن إنتاجه يصل إلى قرابة هذا الحد كان يفصل من العمل، فى وقت كانت العطالة فيه أخشى مايخشاه العامل . وهكذا، بدا دخول علم النفس ميدان العمل وكأنه أساس لتحقيق مصلحة صاحب العمل على حساب مصلحة العامل. ومن ثم بدأ العمال ينظرون بعين ملؤها الريبة إلى دخول علم النفس ميدان العمل، على اعتبار أنه سوف يستغلهم -إلى أبعد حد- لخدمة الانتاج وصاحب العمل، دون مراعاة لمصالحهم . وبالتالى، أخذوا يقاومون دخول علم النفس هذا الميدان. ولازلنا -حتى الآن- نسمع من الكثيرين أن تطبيقات علم النفس فى ميدان العمل تزدهر، حيث النظام الرأسمالى الذى يسعى لاستغلال العامل إلى أقصى حد لخدمة الإنتاج تحقيقاً لمصلحة صاحب رأس المال، وأن هذه التطبيقات تقل حيث النظام الاشتراكى الذى يقاوم استغلال الفرد .

وطالما نحن بدأنا خطوات جادة فى سبيل تحقيق أكبر استفادة ممكنة من تطبيقات مختلف العلوم لخدمة العمل والإنتاج، فإن استجلاء المشكلة -التى نطرحها الآن- حول خدمة علم

---

* نشر هذا المقال فى مجلة «الفكر المعاصر» التى كانت تصدرها الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة فى العدد : ٦١ ، مارس ١٩٧٠ ، ٢٦-٣٦ .

النفس للعامل وللإنتاج معا يصبح ذا ضرورة خاصة . لهذا ، سوف أستعرض أهم المجالات التى يخدمها علم النفس فى ميدان العمل، ضاربًا بعض الأمثلة من الدراسات الميدانية والإحصائية ، المحلية والأجنبية ، والتى تلقى الضوء على الكيفية التى يخدم بها علم النفس ميدان العمل، وما يعود نتيجة ذلك على كلٍ من العامل والإنتاج ، لاستجلاء جوانب هذه المشكلة المطروحة . وسأقسم هذه المجالات إلى :

١- الاختيار المهنى .

٢- التوجيه المهنى .

٣- التدريب المهنى.

٤- التأهيل المهنى .

٥- علاقة العامل برؤسائه وزملائه .

٦- ظروف العمل الطبيعية .

٧- الهندسة البشرية .

٨- الدعاية والإعلان .

٩- الإرشاد النفسى .

١- الاختيار المهنى :

المقصود بالاختيار المهنى هو اختيار أفضل المتقدمين صلاحية لعمل معين لتعيينهم فيه. فإذا كان العمل -مثلاً- فى حاجة إلى تشغيل ٥٠ فرداً وتقدم ١٠٠ فرد ، فإن الاختيار المهنى تكون مهمته فى هذه الحالة انتقاء أصلح ٥٠ من هؤلاء الـ ١٠٠ لتعيينهم فى هذا العمل . وفى هذه الحالة يقوم الإخصائى بتحليل العمل الذى يراد الاختيار له حتى يحدد الخصائص النفسية والجسمية المختلفة التى ينبغى أن يتصف بها العامل لكى ينجح فى أداء هذا العمل ، ثم بعد ذلك يصمّم أو يختار - بناءً على نتائج التحليل - مقاييس ووسائل لتقدير مدى توافر هذه الخصائص فى المتقدمين ، فيطبقها عليهم ويختار منهم العدد المطلوب على أساس نتائجها. وإذا تم كل ذلك على أسس علمية سليمة حقق فوائد ملموسة . ففى بعض الأحيان ، بلغ إنتاج الأفراد الذين أحسن اختيارهم للعمل أربعة أضعاف من اختيروا اختياراً عشوائيًا .

ومن بحث لبنيت وفير (الدكتور السيد محمد خيرى : علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية، الجزء الأول ، ص ٢٠٩) Bennet and Fear عن اختيار عمال ميكانيكيين ، تبين لهما أن اختبارى الفهم الميكانيكى ومهارة اليدين فى استخدام الأدوات كانت لهما قدرة عالية على التمييز بين الممتازين والضعاف من الميكانيكيين . وبعد مرور اثنى عشر شهراً من اختيار عمال ميكانيكيين جدد على أساس هذين الاختبارين مندمجين ، قدر بعض هؤلاء العمال بأنه ممتاز فى عمله ، والبعض بأنه جيد، والبعض بأنه متوسط ، والبعض بأنه أقل من المتوسط ، والبعض بأنه ضعيف .

ومن مقارنة هذه التقديرات بنتائج الاختبارات بدت تلك العلاقة الوثيقة بين نتائج الاختبار والأداء الفعلى للعمال، مما يشير إلى أن استخدام الاختبارات المناسبة لاختيار العمال الجدد على أساسها يمكننا من اختيار أصلح العمال واستبعاد ذوى القدرات الضعيفة فى الأداء الفعلى للعمل .

ومن الأمثلة واضحة الدلالة على مدى الكسب الذى يعود نتيجة لعملية الاختيار السليم أن شركة النقل المشترك بباريس (الدكتور يوسف مراد : دراسات فى التكامل النفسى، ص٢٢٤-٢٢٨) لاحظت ارتفاعًا ملحوظًا فى عدد حوادث سائقيها مما كان يكلفها الكثير . فدعت فى عام ١٩٢٣ لاهى Lahy لدراسة المشكلة ووضع خطة لعلاجها ، فقام بتحليل دقيق لمهنة السائق أدى به إلى اكتشاف القدرات النفسية والحركية اللازمة للنجاح فى مهنة السواقة، ووضع لكلٍ منها اختباراً أو أكثر لقياسها . ثم بدأ يختار السائقين للشركة على أساس نتائج تطبيق هذه الاختبارات . فكان من أهم نتائج هذا :

١- أن انخفضت نسبة من كانوا يستبعدون أثناء التدريب لعدم صلاحيتهم من ٢٠٪ قبل استخدام الاختبارات إلى ٤٪ فقط بعد استخدامها .

٢- أن نقصت المدة اللازمة لتدريب السائقين من ١٥ يومًا إلى ١٠ أيام ، فوفر ذلك للشركة حوالى ثلث نفقات التدريب .

٣- أن انخفض معدل حوادث سائقى الشركة باطراد عامًا بعد آخر. حتى أن متوسط عدد حوادث السنة الواحدة بالنسبة للسائق فى عام ١٩٢٣ ، والذى كان ٢,٢ حادثة ، ظل ينخفض حتى أصبح ,٥ حادثة فى عام ١٩٤٨ .

من هذه البحوث وغيرها يتبين أن عملية الاختيار المهنى السليم تعود بفوائد جمة على الإنتاج ، حيث ترفع معدله كمًا وكيفًا وتخفض من معدلات الحوادث أثناء القيام به، كما

تجعل العامل أكثر استعداداً للإفادة من التدريب وسرعة فى اكتساب المهارة المتطلبة ، فتتحقق للإنتاج فوائد مؤكدة».

وإذا كان الاختيار المهنى السليم يحقق للإنتاج كل هذه الفوائد فإن ما يحققه للعامل ذاته من فوائد لايقل عن ذلك ؛ فالعامل الذى يختار للعمل الذى يناسبه سوف يرتفع فيه إنتاجه ويحقق فيه توافقًا ناجحًا . وتبعًا لذلك سوف يزداد أجره وترتفع قيمته فى نظر المسئولين فتنفتح أمامه سبل التقدم والترقى. كما أن الابتعاد عن التعرض لحوادث العمل نتيجة للاختيار المهنى السليم سوف يجنب العامل كثيراً من الكوارث التى تلحق به نتيجة تعرضه للإصابات ، أو نتيجة ما يطالب به من تعويضات إن هو تسبب فى إصابة غيره، أو نتيجة مايتعرض له من فقدان عمله إن تكررت حوادثه فيه .. إلخ .

بل إن سوء الاختيار المهنى يؤدى فى نهاية الأمر إلى أن يبلغ سوء توافق الفرد فى عمله درجة يضطر معها -أحيانًا- إلى فقدان عمله نهائيًا، سواء برغبته أو بالرغم منه . ففى دراسة لبل Bill (الدكتور السيد محمد خيرى : الصحة النفسية والصناعة، مجلة الصحة النفسية ، مجلد ١ ، عدد : ١ ، ص٥٨-٥٩) على ١٣٣ عاملاً كانوا يعملون فى خمس حرف تمثل خمسة مستويات مختلفة من الذكاء المتطلب للنجاح فيها ، قام بتطبيق اختبار للذكاء على هؤلاء العمال ، وبعد عامين ونصف أحصى الذين استمروا فى أعمالهم ، فتبين له أن جميع الممتازين فى ذكائهم تركوا الحرفتين اللتين تتطلبان مستوى منخفضًا من الذكاء ، أما الحرفة التى تتطلب مستوى ممتازى من الذكاء فكانت فيها النتيجة عكس ذلك ، إذ استمر يعمل بها ٥٧٪ من ممتازى الذكاء ، و٧٪ فقط من ضعافه . لهذا ، فإن الاختيار المهنى لو نجح فى وضع الفرد فى العمل الذى يناسبه لساهم كثيراً فى استمرار العامل فى عمله وأبعد عنه الخوف من احتمال فقدان مصدر رزقه ، وما يتعرض له بسبب ذلك من متاعب جمة مادية ونفسية . ولو أضفنا إلى ذلك أن بعض الدراسات تشير إلى أن متوسط التكاليف التى تنتج عن ترك العامل الواحد للمؤسسة ثم إعادة تعيين غيره وما يستتبع من ضرورة تدريبه حتى يصل إلى مستوى مناسب للإنتاج يصل فى البلاد الصناعية إلى ٢٠٠ دولار «الدكتور السيد محمد خيرى- علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية ، ص٢١٤ » . لأدركنا مدى الخسارة التى تعود -أيضًا- على الإنتاج من جراء ترك العامل لعمله .

وهكذا، يتضح أن عملية الاختيار المهنى- كمساهمة تطبيقية من علم النفس فى ميدان العمل- لاتعود بالفائدة -فقط- على الإنتاج، وإنما تعود -أيضًا- وفى نفس الوقت بفائدة لاتقل عنها على العامل ذاته . ومن هنا تتكامل مصلحة العامل ومصلحة الإنتاج فى عملية الاختيار المهنى . لكن هناك تساؤلا كثيراً ما يتبادر للذهن عن الخلفية الإنسانية لعملية الاختيار المهنى ؛ إذ يظن أن عملية الاختيار المهنى إنما تحسن -فقط- إلى فريق من الناس هم من يختارون للعمل دون أن تهتم بالفريق الكبير الذى لاينجح فى أن يختار للعمل. إلا أن هذا الظن مردود عليه إذا ما ذكرنا مع إيزنك أن «الشخص الذى يلمع فى نشاط معين قد يكون فاشلاً تمامًا فى غيره، ومتوسطًا فى ثالث . فارتباطات النجاح فى أوجه نشاط مختلفة تكون ضعيفة نسبيًا ، مشيرة إلى أن المهن الصناعية المختلفة تتطلب بالأحرى أنماطًا مختلفة من القدرة» . ويؤيد مبدأ الفروق الفردية هذا الرأى أى حيث يقرر أن كل فرد كان يمتلك أى قدرة بدرجات متفاوتة ، وبالتالى فإن من يستبعد فى عملية الاختيار لعمل معين قد يكون من أوائل المختارين لغيره . وهكذا، يجد كل فرد عمله المناسب فى المجتمع مع مراعاة مصلحته ومصلحة العمل فى نفس الوقت.

٢- التوجيه المهنى :

إذا كان المقصود بالاختيار المهنى هو انتقاء أصلح الأشخاص لعمل معين، فإن المقصود بالتوجيه المهنى هو انتقاء أصلح عمل لشخص معين ؛ أى أننا فى الحالة الأولى (الاختيار) يكون عندنا أشخاص كثيرون متقدمون لعمل معين ونريد أن ننتقى من بينهم أصلحهم لشغل هذا العمل، بينما فى الحالة الثانية (التوجيه) يكون عندنا شخص واحد وأمامنا عدة أعمال، ونريد أن نختار له من بينها أنسب عمل تؤهله له قدراته واستعداداته لكى نوجهه للالتحاق به. لهذا ، كان الهدف النهائي لكلٍ من عمليتى الاختيار والتوجيه واحداً ، وهو وضع الشخص فى العمل الذى يتناسب واستعداداته وقدراته . ومن هنا ، فإن الخطوتين الأساسيتين فى عملية الاختيار ؛ وهما تحليل العمل للكشف عن الخصائص اللازم توافرها للشخص حتى ينجح فيه وتحليل الشخص لقياس مدى توافر تلك الخصائص اللازمة فيه، هما -أيضًا- الخطوتان الأساسيتان فى عملية التوجيه ، مع فارقين بسيطين ؛ أحدهما أن عدد الأعمال التى ينبغى تحليلها فى عملية التوجيه يكون كبيراً بينما لايتطلب الأمر فى عملية الاختيار إلا تحليلاً واحداً، والثانى أن عدد الأفراد الذين ينبغى تحليلهم فى عملية الاختيار يكون كبيراً بينما يكون فى عملية التوجيه فرداً واحداً. وقد نجد برامج تجمع بين العمليتين فى وقت واحد، حسب

ظروف التشغيل ، كأن تكون الأيدى العاملة نادرة فى السوق فيضطر المسئولون إلى اختيار الصالح من المتقدمين لعمل معين وتوجيه غير الصالحين لهذا العمل إلى أعمال أخرى يصلحون لها داخل نفس المؤسسة .

ومن الأمثلة الدالة على مدى الكسب الذى يعود من جراء التوجيه المهنى السليم تلك الدراسة التى اشتهرت بتجربة برمنجهام للتوجيه المهنى (الدكتور عبد المنعم المليجى : خبراء النفوس ، سلسلة الثقافة السيكلوجية، ص٧٦- ٧٩). ففى هذه التجربة ، تتبع الباحثون ١٦٣٩ طفلاً لمدة سنتين ، واستمروا فى تتبع ٦٠٣ منهم لمدة أربع سنوات . وقد وفر لنصف هؤلاء الأطفال التوجيه المهنى على أسس نفسية ، بينما لجأ النصف الآخر لمكاتب العمل العادية طالبين نصيحتها . وقسم كل فريق منهما إلى فئتين ؛ إحداهما تضم الذين التحقوا بالعمل طبقا للنصيحة التى قدمت لهم ، والأخرى تضم الذين خالفوا هذه النصيحة والتحقوا بأعمال أخرى . ولما تتبع الباحثون هؤلاء الأطفال لمدة سنتين ، وبعضهم لمدة أربع سنوات، تبين لهم أن ٩٠٪ من الذين طبق عليهم التوجيه المهنى على أسس نفسية وعملوا بتوجيه الإخصائى كانوا بعد عامين من التحاقهم بالعمل سعداء به راضين عنه غاية الرضا ، فى مقابل ٢٦٪ فقط من الذين خالفوا توجيه إخصائى التوجيه النفسى، فالتحقوا بأعمال أخرى غير التى اختارها لهم . وبعد أربع سنوات أصبحت النسبتان المقابلتان هما ٩٣ ٪ و ٣٣٪ على التوالى. وهذا واضح الدلالة على أن الالتحاق بالعمل حسب التوجيه المهنى يؤدى إلى إحساس العامل بالرضا عن عمله ، فيسعد به ويحقق فيه قدراً كبيراً من التوافق النفسى داخل مؤسسة العمل. أمابالنسبة لمن توجهوا لمكاتب العمل طلبًا لنصيحتها ثم عملوا بهذه النصيحة فالتحقوا بالعمل الذى اختاره لهم مكتب العمل، فقد تبين -بعد مرور سنتين من التحاقهم بالعمل- أن نسبة الراضين عن أعمالهم كانت ٦٤٪ ، ولم تزد عن ذلك بعد مرور أربع سنوات على التحاقهم بالعمل ، بينما أن نسبة الراضين عن أعمالهم من أولئك الذين التحقوا بأعمال تخالف ما اختارته لهم مكاتب العمل بعد سنتين من التحاقهم بالعمل كانت أعلى ؛ إذ بلغت ٧٦٪ ، ثم ارتفعت إلى ٧٨٪ بعد مضى أربع سنوات من التحاقهم بالعمل. وهذا يعنى أن الذين عملوا حسب نصيحة مكاتب العمل كانوا أقل رضًا عن أولئك الذين تجاهلوا نصيحة مكاتب العمل والتحقوا بأعمال تخالفها . وهذا يدلّل على أن الوسائل النفسية العلمية التى يلجأ إليها الإخصائى النفسى فى التوجيه المهنى تساعد الفرد كثيراً على اختيار العمل الذى

يرتاح له ويسعد به ، وأن مكاتب العمال العادية لاتستطيع أن تفى بهذا الغرض ما لم يتوافر لها إخصائى نفسى للتوجيه المهنى .

ونمضى مع هذه التجربة لنتبين أثر التوجيه المهنى فى احتفاظ الفرد بعمله ، فنجد أن ٦٠٪ من الذين التحقوا بأعمال طبقًا لتوجيه الإخصائى النفسى ظلوا بها طوال السنتين ، واستمر ٤٦٪ منهم طوال السنوات الأربع من تتبعهم . أما الذين التحقوا بأعمال مغايرة لتوجيه الإخصائى النفسى فلم يستمر فى العمل فى السنتين الأوليتين سوى ١١٪ واستمرت نفس النسبة مدة السنوات الأربع أيضًا . وبالنسبة للذين التحقوا بالعمل الذى نصح به مكتب العمل، تبين أن ٣٧٪ منهم استمروا فى عملهم لمدة السنتين، ثم هبطت هذه النسبة إلى ٢٧٪ بعد مضى السنوات الأربع. أما الذين خالفوا نصيحة مكتب العمل والتحقوا بأعمال أخرى غير التى نصحهم بها ، فقد استمرت منهم فى أعمالهم نسبة ٣٣٪ لمدة السنتين، و٢٦٪ لمدة السنوات الأربع. وهنا نجد أن الفروق لاتكاد تذكر بين من عمل بتوجيه مكتب العمل ومن خالفه، بعكس الأمر بالنسبة لمن عمل بتوجيه الإخصائى النفسى ومن خالفه .

ولاشك أن هذا يشير إلى أن التوجيه المهنى السليم يلعب دوراً كبيراً فى جعل العامل يستمر فى عمله ناجحًا فيه راضيًا عنه ، فتقل بذلك ظاهرة دوران العمل، والتى تهدد الإنتاج بخسارة جسيمة نتيجة تعطله أو اضطرابه فى الفترة ما بين ترك العامل القديم وتعيين العامل الجديد وتدريبه حتى يصل إلى المستوى المرضى للإنتاج . وهكذا ، فإن العامل الذى أحسن توجيهه إلى العمل الذى يناسب قدراته واستعداداته المختلفة يتحقق له الرضا عن عمله والسعادة به ، والقدرة على أدائه والإقبال عليه والاستمرار فيه، فيزداد تبعًا لذلك إنتاجه ويحسن توافقه، مما يؤدى فائدة مزدوجة لكلٍ من العامل والإنتاج ، ومن ثم يشارك التوجيه المهنى فى تحقيق فائدة متكاملة لكل منهما .

٢- التدريب المهنى :

لاتكفى عملية الاختيار المهنى أو عملية التوجيه المهنى لتحقيق كل النجاح المنشود للفرد فى عمله والحفاظ عليه، بل ينبغى أن تتبع ذلك عمليات تدريب لرفع مستوى كفاءته فى العمل، ولمساعدته على تحقيق أكبر قدر له من التوافق فيه «فهناك- على حد قول جيزيللى وبراون Ghiselli and Brown ، قانون غير مكتوب بأن صاحب العمل مجبر على أن يوجه العامل فى الاستجابات المطلوبة للعمل ليساعده على اكتساب المعرفة ، وتنمية المهارة التى

سوف تمكنه من أن ينتج على مستوى مقبول من الكفاية. ومتصل بهذا الشرط أن هناك إجباراً من ناحية العامل لأن يتعلم وأن يتقبل التوجيه من صاحب العمل ، وأن يجتهد فى أن ينمى ويحسن الوسائل الفنية والمهارات الضرورية التى تضمن مستوى عاليًا من الإنتاجية» .

ومما يؤيد قيمة التدريب أنه تبين من إحدى الدراسات (نورمان ماير : علم النفس فى الصناعة ، ترجمة الدكتور محمد عماد الدين والدكتور صبرى جرجس والدكتور أمين كمال محمد ، ص٤١٤). أن الوقت اللازم لتغيير أسلحة مقص متحرك كان فى المتوسط ٢٩ دقيقة حيث لم يطرأ عليه تحسن خلال ست سنوات ، وبتلقى برنامج تدريبى انخفض هذا الوقت حوالى ١٨ دقيقة ؛ أى انخفض بمقدار يزيد عن الثلث ، مما وفر للمؤسسة ما يقدر بـ ٢٠٨٨٠ دولاراً سنويا . كما يعمل التدريب -أيضًا- على التقليل من كمية التلف فى الآلات والمواد المستخدمة فى عملية الإنتاج . ففى أحد البحوث «المرجع السابق» قل استبدال عجلات التجليخ بالتدريج مع ازدياد فترة التدريب، حتى بلغ معدل الاستبدال بالنسبة لمن تلقوا تدريبًا لمدة ١٢ أسبوعًا نصف معدله للعمال ذوى خبرة لمدة ٣٦ أسبوعًا . كما يعمل التدريب -أيضًا- على خفض معدلات الغياب وخفض معدلات دوران العمل ، مما يشير إلى أن التدريب يرفع الروح المعنوية للعامل ويزيد رضاه عن العمل .

ويدخل ضمن هذا ما يعرف بدراسات الزمن والحركة ، فيعمل الإخصائى على دراسة الحركات التى يقوم بها العامل أثناء تأديته للعمل ليتبين منها الحركات المفيدة فى عملية الإنتاج ، وتلك التى لاتسهم فيها أو تعرقلها بتبديد طاقة العامل فى نشاط غير مسهم فى عملية الإنتاج ، وذلك تمهيداً لوضع البرامج التدريبية الكفيلة بتمرين العامل على الاحتفاظ بالحركات الفردية وعلى استحداث الحركات اللازمة والتى لم يكن يمارسها من قبل ، وعلى التخلى عن الحركات الطائشة أو غير المفيدة لعملية الإنتاج . وبهذا يصان للعامل طاقته ووقته، ويوجهان توجيهًا مركزاً لعملية الإنتاج .. ولعل دراسات تيلر وتابعيه منذ أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى خير مثال لهذا النوع من الدراسات ؛ فعن طريق استخدام تيلر لأسس رئيسية ثلاثة تتلخص فى اختيار أصلح الأفراد للعمل (الاختيار المهنى) ، وتدريبهم على أكثر طرق الأداء كفاية وأكثر الحركات اقتصاداً فى خدمة الإنتاج (التدريب المهنى على أساس من تحليل الزمن والحركة) ، ومنحهم مكافآت تشجيعية عبارة عن رفع الأجر كلما زاد الإنتاج (الدوافع النفسية وحوافز الإنتاج) ، نقول عن طريق هذه الأسس استطاع تيلر أن يرفع

إنتاجية العامل لأربعة أضعافها. وبهذا خفض عدد العمال اللازمين لتحميل عربات شركة الصلب -التى كان يجرى دراسته فيها- من ٥٠٠ عامل إلى ١٤٠ فقط ، وزود دخل العمال اليومى ٦٠٪ ، فوفر بهذا للشركة حوالى ٧٥٠٠٠ دولار سنويا (براون : علم النفس الاجتماعى فى الصناعة، ترجمة الدكتور السيد محمد خيرى والدكتور سمير نعيم والدكتور محمود الزيادى، ص١١-١٢) .

وهكذا ، يعمل التدريب على رفع الكفاية الإنتاجية ، وخفض مظاهر سوء التوافق المهنى، كالغياب وانخفاض الروح المعنوية ودوران العمل وغيرها ، مما يعود على الإنتاج وعلى العامل فى نفس الوقت بالفائدة الكبيرة . ولعل هذا ما يدفع الكثرة الغالبة من مؤسسات العمل ومصالحه إلى إفراد أقسام خاصة بها لتدريب العاملين على كافة مستوياتهم .

لكن ... ما هو دور علم النفس فى مجال التدريب، خاصة وأنه يبدو بعيدًا -إلى حد كبير- عن موضوع علم النفس، وقريبًا -إلى حد أكبر- من العلوم الهندسية والميكانيكية ؟ إننا لاينبغى أن ننسى أن الأمر فى عملية التدريب يتلخص فى تناول إنسان لتعليمه طرقًا ومهارات واتجاهات تفيده فى العمل، ، وتدريبه على التخلى عن طرق واتجاهات غير صالحة أو لاتفيد العمل ، وما يتصل بها من جوانب نفسية ؛ كالقدرات والدوافع والتعب والملل والتذكر.. لهى من أهم دعامات نجاح برنامج التدريب ، إذا ما أحسنت الاستفادة التطبيقية منها فى إعداد وتنفيذ برامج التدريب لكل العاملين على مختلف مستوياتهم ووظائفهم .

٤- التأهيل المهنى :

يحدث أن يصاب الفرد بعاهة تقعده عن أن يزاول عمله السابق (كما يحدث فى إصابات العمل أو إصابات الحروب والحوادث) ، أو يكون معوقًا بحالته الراهنة عن أن يجد عملاً يحقق فيه الكفاية الإنتاجية اللازمة لتحقيق مستوى مناسب من الكسب . وهنا يأتى دور التأهيل المهنى، فيجمع أساسًا بين العمليتين -السابق العرض لهما- وهما التوجيه المهنى والتدريب المهنى، ليخدم فلسفة تقوم على أساسين : أحدهما تحقيق ذاتية العامل وكرامته وإنسانيته ، وثانيهما تعبئة كافة طاقات المجتمع لخدمة الإنتاج .

وتكون مهمة الإخصائى النفسى فى مجال التأهيل المهنى هى دراسة الفرد المصاب بالعاهة من حيث إمكانياته وقدراته الجسمية والنفسية الخاصة ، ليوجهه إلى العمل الذى يرى أنه أنسب له بحالة عجزه الراهنة ، ثم مساعدته فى التدريب على هذا العمل لإجادته . ويتخلل

ذلك تقديم جوانب أخرى من العون؛ مثل المساعدة عن طريق الإرشاد والعلاج النفسى على تقبل حالة العجز والتقليل من آثارها على حالته النفسية ، ومثل مساعدته على الالتحاق بالعمل الذى يختاره له ، ومتابعته بعد تعيينه فى هذا العمل لمساعدته على حل ما يجابهه من مشاكل فى توافقه المهنى ..

وإذا كان التأهيل المهنى يعتبر -فى المرتبة الأولى- خدمة إنسانية ؛ إذ يحقق للفرد استمراره فى العمل والإنتاج، فيحفظ له كرامته كإنسان يبغى العمل لكسب العيش ولتحقيق الذات ، فإننا نجد ، من جانب آخر، أن الدراسات والتقارير التى كتبت عن الكفاية الإنتاجية والتوافق المهنى لذوى العاهات تشير إلى أنهم يحققون مستوى مرضٍ فى كليهما . فمن الدراسة المقارنة التى قام بها ماك فارلاند Mc Fariand (كينيث هاملتون : أسس التأهيل المهنى، ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسى ، ص٣٤١ و٣٥٣). بين ٦٨٥ عاملاً من ذوى العاهات وعدد مماثل من الأسوياء ، تبين أن نسبة الفصل المسبب كانت أعلى بمقدار ٦,٥٪ بين الأسوياء ، وأن ذوى العاهات حصلوا على زيادة فى الأجور بنسبة ٦,٤٪ ، وكان معدل غيابهم أقل بنسبة ٧٪ عنه لدى الأسوياء . ومن بحث كوساريس وهامون Kossaris and Hammond على ٤٠٠٠ عامل من ذوى العاهات و٦٥٠٠ عامل من الأسوياء يعملون فى ٤٧ مؤسسة ، تبين أن ذوى العاهات كانوا أكثر إنتاجًا بنسبة ٢٪ ، وأن سجلات حوادث ذوى العاهات كانت أفضل بدرجة واضحة من سجلات الأسوياء . كما قام نوڤيس Novis بدراسة على ١٠٠٠٨ عمال من ذوى العاهات فى ٦٣ مؤسسة تبين منها أن كفايتهم الإنتاجية فوق المتوسط حسب تقارير أصحاب الأعمال ، وأن نسبة تعرضهم للحوادث غير ملحوظة ، وأنهم أكثر انتظامًا فى العمل من زملائهم الأسوياء . ويخرج Hamilton من مثل هذه الدراسات إلى رأيه الذى يسجله حيث يقول : «ويمكن الخروج من هذه الدراسات بنتيجة هامة ، مؤداها أن كفاية ذوى العاهات وأهليتهم للعمل مشابهة لتلك الخاصة بالأسوياء ولاتختلف عنها».

وهكذا ، لاتؤدى عملية التأهيل المهنى خدمة للعامل فقط، حيث تعيد لأولئك الذين ساءت حظوظهم فأصيبوا بالعجز صلاحيتهم للعمل وقدرتهم على الإنتاج، فلايصبحون عالة على المجتمع ، بل وأيضًا تؤدى خدمة جليلة للإنتاج ، حيث يستفيد من تعبئة كافة الطاقات البشرية لخدمته ، فلايستثنى منها حتى من أصابته عاهة معوقة .

٥- علاقة العامل برؤسائه وزملائه :

يمكننا أن نحقق عن طريق الاختيار والتوجيه والتدريب والتأهيل الملاءمة اللازمة بين العامل وعمله، ومع ذلك فإن هذا لايكفى لتحقيق الكفاية الإنتاجية المنشودة والتوافق النفسى اللازم للعامل . ذلك أن العامل لايؤدى العمل وحده ، وإنما يتعاون فى أدائه أو يتنافس مع زملاء ، ويشرف عليه رؤساء . ومن ثم فهو محتاج لأن يسود علاقاته مع كل هؤلاء أكبر قدر من الوئام والتفاهم والرضا والثقة المتبادلة . وبذلك ترتفع روحه المعنوية ، فيتهيأ جو العمل لتحقيق الكفاية الإنتاجية والتوافق النفسى للعامل .

ولبيان ما يمكن لعلم النفس أداؤه من خدمات فى هذا المجال، أذكر بعضًا من نتائج دراساته وتطبيقاته فيما يلى :

(أ) يعتبر الرئيس الديمقراطى أصلح من الرئيس الاستبدادى ومن الرئيس الفوضوى ، سواء كان ذلك بالنسبة لرضا العامل وراحته النفسية فى علاقاته سواء مع الرئيس أو الزملاء . ومن الدراسات التى أثبتت ذلك بحوث ليڤين وليبيت وهوايت Lewin , Lippit and White «المرجع السابق لماير، ص١٨٦ ، والمقال السابق للدكتور السيد محمد خيرى ، ص٦٢٠» ؛ إذ تبين أن المجموعة التى كانت تحت الرئاسة الفوضوية كانت أقل مستوى من المجموعتين الأخريين من جميع النواحى ؛ حيث كان الرئيس الفوضوى أقل نصيبًا من حيث حب الأعضاء له ، كما كانت مجموعته أقل إنتاجًا وأقل حبًا للعمل . كما كانت المظاهر العدوانية أكثر ظهوراً فى سلوك أعضاء المجموعة الاستبدادية نحو بعضهم البعض عنها فى المجموعة الديمقراطية ، وكانت العلاقة بين الأعضاء والرئيس الديمقراطى علاقة صداقة وتفاهم، فى حين كانت العلاقة بالرئيس الاستبدادى علاقة خضوع ، كما كان تعاون أعضاء المجموعة الديمقراطية واتحادهم أكثر وضوحًا . وبالإضافة إلى كل هذا كان الابتكار والإتقان فى العمل يختفيان بمجرد اختفاء الرئيس فى المجموعة الاستبدادية . ويشير هذا كله إلى ضرورة تدريب الرؤساء والمدير على أساليب الإدارة والإشراف الديمقراطية حتى يتحقق لكلٍ من العامل والإنتاج الفائدة المرجوة . وهناك بعض التوجيهات التى استخلصها أويرداهم «المقال السابق للدكتور السيد محمد خيرى، ص٦٢-٦٣» . والتى من شأنها خلق علاقات طيبة بين الرئيس ومرءوسه ، بحيث تحقق جواً صالحًا للإنتاج وتوافقًا نفسيًا للعاملين فيه ؛ مثل معاملة الرئيس للمرءوسين على وجه يشعرهم باحترامه لشخصياتهم وكرامتهم ، ومرونته فى تطبيق قوانين

العمل ولوائحه عليهم، ومعاونتهم على تحقيق النمو والتقدم المهنى ، ومعاملة كل منهم المعاملة التى تتناسب وخصائصه المميزة، وتحمل المسئولية عن المرءوسين عندما يقعون فى أخطاء ، وأن يكون الرئيس ممثلاً أمينًا لمطالب المرءوسين وآرائهم لدى الهيئات العليا .. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أهمية تكوين مجموعات العمل ، سواء طاقم العمل على آلة واحدة، أو مجموعة العمل فى قسم واحد أو عنبر واحد، على أساس من الاختيارات السوسيومترية ليعملوا بعضهم مع البعض، الأمر الذى يحقق الوئام والانسجام بين أعضاء مجموعة العمل الواحدة، كما يتيح الاستفادة من قوة تأثير التنظيم غير الرسمى على أعضائه لخدمة التنظيم الرسمى فى العمل .

(ب) لكل من ظاهرة التعاون وظاهرة التنافس بين الزملاء آثارها على الإنتاج وعلى العامل ذاته ؛ ففى حالة التعاون يسود قدر أكبر من الود والتفاهم بين الزملاء، ربما كان على حساب الإنتاج فى بعض الحالات، بينما فى حالة التنافس يرتفع الإنتاج لكن على حساب العلاقات بين الزملاء ، حيث تميل إلى الفساد وتزداد مظاهر العدوان نحو بعضهما البعض . ففى دراسة لستوك وويات Stock and Wyatt عن أثر المنافسة على جو العمل تبين أن العاملات فى مؤسسة للف الورق زاد إنتاجهن بنسبة ٤٦٪ عند استحداث المنافسة بينهن . ثم استطاع الباحثان عن طريق زيادة حدة المنافسة بين العاملات أن يحصلا على زيادة إضافية فى الإنتاج نسبتها ٣٠٪ ، إلا أنه كان من نتيجة ذلك وضوح فساد كبير فى العلاقات المتبادلة بينهن ، فبينما كن قبل استحداث المنافسة يتحدثن سويًا، ويتبادلن الرأى فى حرية وتفاهم ، أحدثت المنافسة بينهن مظاهر كثيرة من المنازعات والغيرة والحسد . فارتفع عدد الشكاوى ضد بعضهن البعض ، وعدد الشكاوى عن ظروف العمل ورداءة المواد المستخدمة ، فى حين أنها لم تكن قد تغيرت . ولهذا اقترح الباحثان إجراء المنافسة بطريقة جمعية لافردية مع العمل بقدر الإمكان على أن تكون المجموعات المتنافسة متعادلة القوة تقريبا ، ولكى تنجح جماعة فى مرة أخرى فى غيرها . هذا بالإضافة إلى أن المنافسة الجمعية فيها توفيق بين ظاهرتى التعاون والتنافس ، حيث يتعاون أعضاء الجماعة الواحدة وتتنافس الجماعة كوحدة مع غيرها ، فيتحقق بذلك التوازن بين ظاهرتين أساسيتين ؛ إحداهما هى اندماج الذات فى الجماعة ، حيث تحدث فى موقف التعاون ، والأخرى تأكيد الذات والاعتداد بها ، حيث تحدث فى موقف التنافس . كما اقترح الباحثان أنه فى حالة المنافسة الفردية -التى لامفر منها- ينبغى ترتيب مواضع العمال بحيث يكون الأفراد المتجاورون متعادلى القوة على وجه التقريب .

ومن هنا ، فإن المهمة الأولى لعلم النفس فى مجال الإدارة والرئاسة هى إسداء النصح للمديرين والرؤساء فى كل ما يتعلق بعلاقات العمال بهم ، وبعلاقة العمال بعضهم بالبعض الآخر ، وبتنظيم العمال فى مجموعات وأقسام ، وبتدبير خدمات مختلفة لهم ، وإجراء المزيد من الدراسات العلمية لبحث المشاكل التى تنشأ بين العمال والإدارة أو بين العمال بعضهم والبعض الآخر ، واقتراح الحلول المناسبة لها، بحيث يساهم كل هذا فى تحسين علاقات العمال بعضهم بالبعض ، وعلاقاتهم بالرؤساء والإدارة ، مما يساعد فى رفع الروح المعنوية للعمال، فيرتفع مستوى الإنتاج ويشعر العامل بالراحة النفسية فى عمله .

٦- ظروف العمل الطبيعية :

لابد للعامل، مهما كانت مهاراته الفنية واستعداداته المهنية وميله للعمل، من توافر ظروف عمل طبيعية مناسبة؛ كالإضاءة والحرارة والتهوية والهدوء وساعات العمل المحدودة وفترات الراحة المنتظمة ، وذلك حتى يحقق ويحافظ على مستوى مرتفع من الكفاية الإنتاجية .

فماير يشير إلى أن البحوث الصناعية بينت -بصفة عامة- أن الزيادة فى الإنتاج تتراوح بين ٨٪ و٢٧٪ مع زيادة الإضاءة ، حيث تعتمد الزيادة الفعلية على نوع العمل. كما يذكر أن بحوث لجنة التهوية التابعة لولاية نيويورك بينت أن الحرارة المرتفعة والهواء الراكد يخلان بالعمل البدنى ؛ إذ اتضح أن الهواء الراكد يسبب انخفاض الإنتاج بنسبة ٩٪ تقريبا عند درجتى حرارة ٦٨ و٧٥ درجة فهرنهيتية ، وأن الإنتاج فى حالة الهواء الدافئ الراكد كان أقل بنسبة ٢٤٪ من الإنتاج فى أكثر الحالات صلاحية حيث الهواء البارد النقى. ويستطرد ماير مشيراً إلى أن المقارنات بين نشاط عمال المناجم الذين يعملون فى ظروف متغيرة من الحرارة والرطوبة بينت أنهم يستريحون سبع دقائق كل ساعة فى أفضل حالات الحرارة والرطوبة ، وأنهم يستريحون ٢٢,٤ دقيقة كل ساعة فى أسوأ الحالات ، وأن الوقت اللازم لملء نصف برميل من الفحم ، والوقت الضائع بسبب المرض، وعدد الحوادث، كانت كلها أقل فى الحالات الأكثر صلاحية من حيث الرطوبة والحرارة ..

وبينت دراسات موجان (فيتلس ، فى فصل علم النفس المهنى: المحافظة على الأهلية للعمل . ترجمة الدكتور أحمد زكى صالح ، تحت إشراف الدكتور يوسف مراد، فى ميادين علم النفس ، المجلد الثانى، ١٩٥٦، ص٨٧٠) ، وليرد وفريمان وغيرهم أن العمل فى الضوضاء

يكلف استنفاداً أكثر من الطاقة والجهد عنه فى الجو الهادئ ، ويتسبب فى شعور العمال بالضيق والملل. وأوضحت التجارب التى أجريت فى انجلترا فى صناعة النسيج زيادة فى الكفاية الفردية للعامل بمقدار ٧,٥٪ إذا استعملت «وقايات للأذن» تضعف شدة الضوضاء بنسبة ٥٠٪ تقريبًا، وبالتالى تزيد من شعور العمال بالارتياح .

كما أوضحت الدراسات بالنسبة لتحديد ساعات العمل اليومى أن زيادتها عن الحد المناسب لاتتبعها زيادة فى الإنتاج .. ففى بداية الحرب العالمية الأولى، كانت انجلترا فى حاجة إلى مزيد من إنتاج مصانع الذخيرة ، فزدوت ساعات العمل بها ، لكن الإنتاج لم يرتفع بعكس ما كان متوقعًا ، الأمر الذى اضطر المسئولين إلى دراسة المشكلة ، فتبين لهم أنه بخفض ساعات العمل الأسبوعى من ٥٨,٢ إلى ٥٠,٦ ، زاد الإنتاج فى الساعة بنسبة ٣٩٪ ، كما زاد الإنتاج الكلى فى الأسبوع بنسبة ٢١٪ ؛ أى أن تخفيض ساعات العمل أدى إلى زيادة كبيرة فى الإنتاج . ولقد أدى بحث آخر إلى نفس النتيجة حيث زادت كمية إنتاج عاملات أحد المصانع بنسبة ٦٨٪ فى الساعة عندما خفضت ساعات العمل من ٦٦ إلى ٤٨,٦٪ فى الأسبوع ، وتبع ذلك زيادة فى كمية الإنتاج الكلى بنسبة ١٥٪ . ولاشك أن تخفيض ساعات العمل عن حد معين سوف يؤدى بالضرورة إلى انخفاض فى كمية الإنتاج . كما تبين من دراسة لڤرنون Vernon عن علاقة الحوادث بساعات العمل اليومى أن الحوادث فى يوم العمل البالغ ١٢ ساعة تعادل ضعفين ونصف لحوادث يوم العمل البالغ عشر ساعات . وهذا يشير إلى أن طول ساعات العمل عن الحد المناسب يؤدى إلى التعب والإرهاق، فتقل بذلك قدرة العامل على الاستمرار فى بذل نشاطة وتوجيهه نحو عملية الإنتاج بالكفاية المطلوبة، بالإضافة إلى انعكاس ذلك على الحالة النفسية للعامل فيحس بالضيق من العمل وعدم الرغبة فى استمراره، فتقل كفاءته فى أداء العمل ويتعرض لإصاباته .

ومما لاشك فيه أن مدى تأثير ظروف العمل هذه على عملية الإنتاج وعلى العامل نفسه سوف يختلف من مهنة لأخرى، بل ومن بيئة لغيرها بالنسبة لنفس المهنة. لذا ، ينبغى على الإخصائى النفسى أن يقوم بدراسات علمية لتحديد أنسب الظروف الملائمة للعمل حسب نوعية الأعمال ، ونوعية العمال، ونوعية الظروف نفسها ، وذلك لاتخاذ نتائج هذه الدراسات أساسًا لتحسين ظروف العمل خدمة للعامل، إذ يهيئ له جواً مريحًا للعمل وخدمة الإنتاج فى نفس الوقت، إذ يرفع معدله كمًا وكيفًا . وينبغى ألا تغيب عن الأذهان نتائج تجارب الهاوثورن

Howthorne ، وما تشير إليه من ضرورة العمل على كسب تنمية اتجاهات العمال الإيجابية نحو التغيير المطلوب لظروف العمل، حتى يتحقق تأثير هذا التغير على كلٍ من العامل والإنتاج بالدرجة المطلوبة .

٧- الهندسة البشرية :

الهندسة البشرية، أو ما يسمى أحيانًا بعلم النفس الهندسي Engineering Psychology فرع من فروع علم النفس، يقوم على خدمة كلٍ من العامل والإنتاج وذلك عن طريق تصميم وتعديل الآلة حتى تتناسب والإمكانيات البشرية المحدودة لمن يعمل عليها . وذلك أنه إذا كان لنا أن نختار الإنسان الذى يعمل على الآلة وأن نحور ونعدل من سلوكه ومهاراته عن طريق التدريب لكى يصبح أكثر مناسبة لها ، فإنه يجب علينا من الجانب الآخر أن نقوم بتكييف الآلة للإنسان فنعدّل فى تصميمها حتى تصبح أكثر ملاءمة ، هى الأخرى لإمكانيات الإنسان الذى يعمل عليها وخصائصه . ولقد أشار فيتز Fitts إلى أن ما نحصل عليه من تحسن فى كفاية العامل الإنتاجية بواسطة تغييرات بسيطة فى تصميم الآلة يكون فى العادة أكثر مما نحصل عليه عن طريق الاختيار الدقيق للعمال وتدريبهم لفترة طويلة. فهذه هى الفكرة الأساسية التى قام هذا الفرع من علم النفس لخدمتها ، وهو أحدث فروع علم النفس جميعًا ؛ إذ لم تعترف جمعية علم النفس الأمريكية بأهميته إلا فى عام ١٩٥٦ ، حيث أفردت له قسمًا خاصًا من أقسامها .

لهذا ، فإن عالم النفس الهندسى يشترك مع المهندسين أثناء إعدادهم وتصميمهم للآلات والمعدات فيمدهم بالمعلومات اللازمة عن خصائص السلوك البشرى المتعلقة بعمل الإنسان على الآلة ، ويشترك معهم فى الخطوات الأولى من تصميمها أو تعديلها حتى تكون أكثر ملاءمة لخصائص السلوك البشرى وإمكانياته . وفيما يلى مثال لما يمكن أن يؤديه عالم النفس فى مجال الهندسة البشرية : طلب مِّن المهندس -مثلاً- أن تكون الآلة التى يصنعها مزودة بجهاز للتنبيه يستتبع من العامل (أو الجندى) أن يصدر رد فعل معينًا بأقصى سرعة ممكنة . هنا يكون دور عالم النفس أن ينبه المهندس إلى أن الإشارات الضوئية تختلف عن الإشارات الصوتية فى سرعة الرد الذى يترتب على كل منهما ؛ فالتنبيهات السمعية تستتبع رد فعل أسرع مما تستتبعه التنبيهات البصرية (هذا نعرفه من دراستنا التجريبية المعملية) . بهذه المعلومة الصغيرة تزداد قدرة المهندس على أن يقرر أى الإشارتين يختار، وهو على بينة من أن

إحداهما تزيد من كفاءة آلته » «الدكتور مصطفى سويف : المعالم الرئيسية لعلم النفس الحديث : معالم التطبيق ، مجلة المجلة ، عدد ١٠٣ ، ١٩٦٥، ص٤٢» .

وفى الحرب العالمية الثانية ، أجريت أبحاث لتطبيق علم النفس الهندسى فى مجال إنتاج وتطوير المعدات الحربية ، مما حقق فوائد هامة فيما يتعلق بتشغيل هذه المعدات بسهولة أكبر ودقة أكثر .. وهكذا ، يمكن لعلم النفس الهندسى أن يشارك فى تصميم الآلة وتعديلها بما يحقق تكييفها لحدود قدرات الإنسان وخصائصه بحيث يصبح العمل عليها أيسر وأدق وأأمن، فتزيد الكفاية الإنتاجية ويتحقق للعامل نصيب أوفر من التوافق المهنى والراحة فى العمل .

٨- الدعاية والإعلان :

الإنسان كائن له حاجات فسيولوچية ونفسية مختلفة لاتكف عن دفعه لإشباعها ، ويقوم الإنتاج أساسًا لإشباع هذه الحاجات . والمنتج الناجح هو الذى يحسن استغلال هذه الحقيقة، فيصطنع مختلف الأساليب الممكنة لتصريف منتجاته بتعريف الجمهور بها ، ودفعه إلى الاعتقاد بأنها تشبع للمستهلك رغبات أساسية لاينبغى له أن يهملها أو يمهلها ، وأن الثمن الذى يدفع مقابلها لايوازى نسبة تذكر من الاستفادة التى تحققها له . ولهذا يلجأ المنتج إلى أساليب الدعاية والإعلان عن منتجاته بهدف توجيه اتجاهات الناس نحو طلب هذه المنتجات بالذات والتأثير على آرائهم حتى يحبذوا شراءها . والمنتج فى هذا لايكتفى بمحاولة تحويل الناس عن طلب سلعة من غير منتجاته إلى طلب سلعته التى ينتجها هو ، بل إنه -أيضًا- يجاهد لغرس حاجة جديدة لدى الناس لشراء سلعته هذه .. ويستخدم فى هذا مختلف وسائل الإعلام التى تملك التوجيه على الرأى ، والتأثير فى الاتجاه ؛ كالإذاعة والتيلفزيون والسينما والجرائد والمجلات والملصقات والمنشورات .. ليعلن بطريقها عن منتجاته .

ويساعد علم النفس فى مجال الدعاية والإعلان ، فيقوم بتطويع وتطبيق الحقائق السيكلوچية عن الدوافع والإيحاء والإدراك الحسى والتذكر وتغيير الاتجاهات وتأثير الجماعة على الفرد .. وغير ذلك من الجوانب النفسية التى تؤثر على فاعلية الدعاية والإعلان ، سواء فى التصميم أو التنفيذ . ويحتاج الأمر من الإخصائى النفسى فى مجال الدعاية والإعلان ، لأن يستفيد من نتائج الدراسات السابقة فى تصميم وتنفيذ الدعاية والإعلان ، وأن يقوم فى كثير من الحالات بعمل دراسات ميدانية أو معملية ترشده إلى أنسب تصميم وتنفيذ للدعاية والإعلان حتى يصل إلى أكبر عدد من الأفراد، ويتناول آراءهم بالتغيير حتى يحبذوا السلعة المعينة ويقبلوا على شرائها .

وهكذا، فإن الحقائق والدراسات السيكلوچية تستطيع أن تخدم الدعاية والإعلان لتصريف المنتجات باستثارة الرغبة من جانب الجمهور فى استهلاكها . ويبدو للكثير أن علم النفس فى مجال الدعاية والإعلان يخدم الإنتاج وحده دون العامل فيه . لكن النظرة الأكثر عمقًا تجعلنا ندرك أن بقاء المؤسسة ونجاحها رهن بتصريف منتجاتها ، وأن بقاء المؤسسة ونجاحها لهو ، من جانب آخر ، ضرورة أساسية لتحقيق كلٍ من ذات العامل واستقراره وأمنه وأجره على مستوى مُرْض . ومن ثم ، فإن علم النفس إذ يقدم الأساس السيكلوچى للدعاية والإعلان فإنما يحقق فائدة متكاملة لكلٍ من العامل والإنتاج .

٩- الإرشاد النفسى :

يهتم الإشاد النفسى بعلاج المشكلات التوافقية التى يتعرض لها الفرد ، ولاتصل فى شدتها حد المرض الخطير الذى نجده فى حالات الذهان أو العصاب . ولاشك أن وضع الفرد فى العمل الذى يناسبه جسميًا ونفسيًا، وتدريبه لرفع قدرته على أداء هذا العمل، وتهيئة عادات صحية له مع رؤسائه وزملائه ، وتوفير ظروف عمل طبيعية مناسبة ، وتكييف الآلة لحدود إمكانياته الشخصية ، سوف يقلل كله من مشكلات العامل التوافقية فى عمله . إلا أن هذا لايقضى تمامًا عليها ؛ إذ أن العامل إنسان له حياته الخاصة ومشاكله المختلفة التى تأتيه عن طريق علاقاته المتعددة فى بيئته خارج مجال العمل ، والتى -ولاشك- تؤثر بالضرورة على نشاطه فى العمل . لهذا ، لابد لنا -أيضًا- من الاستعانة بالإرشاد النفسى للعامل حتى نقلل- قدر المستطاع- من مشكلاته التوافقية ونعمل على علاجها أو تخفيف حدتها ، حتى لاتؤثر كثيراً على توافقه المهنى فيسوء . ومن أبرز مظاهر سوء التوافق المهنى للعامل كثرة غيابه ، وعدوانه على الآخرين ، وتعرضه للحوادث ، وادعائه المرض . ومن دراسة عن توزيع العمال والعاملات وفقًا لأيام التغيب بدون إذن خلال فترة ثمانية أشهر - من يناير إلى أغسطس من عام ١٩٦٥- بأحد مصانع النسيج القريبة من مدينة القاهرة ، ويعمل به ٢٠٢٨ عاملا وعاملة، تبين أن حوالى نصف العاملين يبينون عن مظهر واحد من سوء التوافق بين العامل وعمله .. فلو أضفنا إلى ذلك المظاهر الأخرى لسوء التوافق ونسبناها إلى العدد الضخم من العاملين فى بلدنا لتبين لنا مقدار الخسارة التى تلحق باقتصادنا القومى نتيجة هذه المظاهر لسوء التوافق المهنى .

وفى دراسة للباحث عن سيكلوچية العامل المشكل فى الصناعة (باعتباره العامل الذى يمثل عقبة مباشرة أو غير مباشرة فى سبيل زيادة مستوى إنتاج المؤسسة كميًا وكيفيًا) تبين أن الاضطرابات الانفعالية كانت أوضح فى العامل المشكل عنها فى العامل غير المشكل . وهكذا، تكون للإرشاد النفسى أهميته القصوى فى التقليل من هذه المظاهر لسوء التوافق بين العامل وعمله، حيث يعاون العامل على تحقيق التوافق داخل مجال العمل وخارجه، عن طريق تناول مشكلات العامل التوافقية بالدراسة المتعمقة والوصول معه فيها إلى حلول مرضية وعلاج يزيل أسبابها، فيتحقق للعامل توافقه المنشود مع عمله وخارجه .

وأذكر ، على سبيل المثال لما يمكن للإرشاد النفسى أن يحققه بالنسبة لأحد مظاهر سوء التوافق المهنى وهو التعرض للحوادث ، أن حوادث ١٥٤ عاملاً ممن تكرر تعرضهم لحوادث وعولجوا لمدة عام فى عيادة لتلافى وقوع الحوادث بشركة ملووكى للسكك الحديدية والكهرباء قد نقصت فى المتوسط من ٢,٨ إلى ٥١, حادثة ، وهو متوسط يقل كثيراً عن متوسط وقوع الحوادث لجميع عمال الشركة . كما أن شركة بوسطن للقطارات وضعت برنامجًا فى عام ١٩٢٧ لدراسة وعلاج السائقين الذين يقعون فى حوادث ، فكان من نتيجته أن بلغ مقدار التوفير فى عام ١٩٢٩ عنه فى عام ١٩٢٨ مبلغًا قدره ٣٠٠٠٦٧,٧٣ دولاراً . ومما يؤكد ماحققه الإرشاد النفسى من فوائد ملموسة أن كانتور Cantor وجد فى بحث وجه فيه أسئلة كثيرة عن جدوى الإرشاد النفسى فى مؤسسات صناعية مختلفة استخدمته أن ٩٠٪ منها ترى الاحتفاظ به والتوسع فيه مستقبلاً .

وبهذا ، يتبين لنا كيف أن الإرشاد النفسى يؤدى خدمة كبيرة فى خفض مظاهر سوء التوافق بين العامل وعمله، مما يعود بالفائدة المحققة على الإنتاج، ويحقق فى نفس الوقت للعامل راحة نفسية ، كما يجنبه الآثار الضارة المادية والنفسية المختلفة التى تعود عليه من جراء سوء توافقه . أما فى حالات الاضطرابات النفسية الشديدة، كالتى نجدها فى حالات الذهان والعصاب، فإنها تحتاج إلى علاج نفسى شامل وعميق . وفى هذه الحالة يقوم إخصائى الإرشاد النفسى بتحويلها إلى إخصائى فى العلاج النفسى، فيعمل هذا على تناول البناء الأساسى لشخصية المريض بالدراسة العميقة والعلاج الشامل طويل الأمد ، كما فى حالات التحليل النفسى .

خاتمــة :

هدف هذا المقال إلى الإجابة عما إذا كان علم النفس فى ميدان العمل يسعى لخدمة الإنتاج أم يسعى لخدمة العامل فيه . وعرضنا عرضًا موجزاً لأهم ما يقوم به علم النفس فى ميدان العمل من خدمات . ومنه تبين كيف يستطيع هذا العلم أن يقدم خدمات ملموسة الفائدة فى حل مشكلات العمل ومشكلات العامل . كما اتضح لنا كيف تتكامل الفائدة العائدة من استخدام أسسه وتطبيقاته على كلٍ من العامل والإنتاج ؛ إذ يحقق توازنًا كبيراً بين مصلحة كلٍ من العامل والإنتاج فلا تطغى إحداهما على الأخرى. وهكذا، يخدم علم النفس العامل بمثل ما يخدم الإنتاج ؛ إذ تختفى هذه الازدواجية فى تكامل مثمر بين مصلحة العامل ومصلحة الإنتاج، حيثما دخل علم النفس ميدان العمل، مما أدى بالبلاد المتقدمة فى المضمار الصناعى ، على اختلاف نظمها الاقتصادية، لأن تستعين بخدمات علم النفس فى حل مشكلات العمل والعمال.

على أننا ينبغى أن نشير إلى أن البحوث التى تمت فى مصر فى مصانع تتملكها الدولة وتسير على نظام اشتراكى ؛ ومن أمثلتها بحث الكاتب الذى أشير إليه فى هذا المقال، تتلاقى مع نتائج الدراسات التى تمت فى البلاد الغربية ، والتى أشرنا إليها فيما جاء بهذا المقال . ولكن تظل أمامنا الحاجة إلى الاطلاع بالتفصيل على معظم الدراسات التى تمت فى البلاد الاشتراكية مثل الاتحاد السوفيتى. وهذا أمر نعترف إزاءه أننا لم نتمكن من الحصول على مراجع تمكننا من تحقيقه . ونعتقد أن من واجبنا الوقوف على مثل هذه الدراسات فى الاتحاد السوفيتى، أو فى غيره من الدول الاشتراكية ، حتى تكتمل لنا صورة واضحة شاملة لما يمكن لعالم النفس أن يؤديه لكلٍ من العامل والإنتاج من خدمات تتمشى مع الفكر الاشتراكى .

ولما كان مجتمعنا فى السنوات الحالية يركز على النهوض بالصناعة لتدعيم اقتصادنا القومى، حيث قطع فى ذلك شوطًا كبيراً نرجو له المزيد ، فإننا نأمل مزيداً من الاعتماد على استخدام أسس علم النفس وتطبيقاته لخدمة الصناعة ؛ إذ أن الاعتماد على أسس هذا العلم وتطبيقاته لا زال -حتى الآن- ضعيفًا لايساير ما نطمح إليه من فوائد يمكن له أن يحققها فى ميدان العمل كما رأينا ، وحيث إن هدف علم النفس النهائى هو تحقيق فائدة كلٍ من الفرد والمجتمع بشكل متكامل ؛ إذ يدفع بالفرد إلى مزيد من السعادة ، وبالمجتمع إلى مزيد من التقدم ، فما أحوجنا إلى الاستفادة من أسسه وتطبيقاته فى مختلف مناحى حياتنا- كما استفدنا من غيره من العلوم المختلفة- دفعًا لعجلة التقدم المنشود .

علم النفس الصناعى والإدارة *

تمهيد فى مدخل :

هناك ثلاثة أهداف أساسية ينبغى على الإدارة فى مؤسسة العمل أن تعمل على تحقيقها فى الدول النامية بقدر ما تستطيع، وهى :

١- الوصول بالإنتاج إلى أعلى حد ممكن ، سواء بالنسبة للناحية الكمية (مقدار الإنتاج) أو الناحية الكيفية (جودة الإنتاج ونوعيته) .

٢- تحقيق أكبر قدر ممكن من الرضا بالعمل فى المؤسسة والراحة النفسية للعاملين فيها .

٣- القدرة على تصريف منتجات المؤسسة «إذا كانت المؤسسة تنتج منتجات للبيع» .

وينبغى أن يكون تقييمنا لأية إدارة (أو لأى رئيس فى عمل) مبنيًا أساسًا على مدى النجاح فى تحقيق هذه الأهداف فى المؤسسة التى تتولى إدارتها (أو العمل الذى يقوم الرئيس برئاسته) .

هذا - وتسهم العلوم المختلفة فى ترشيد الإدارة لتحقيق أهدافها، بما تقوم به من دراسات وبحوث عن المشاكل التى تعترض تحقيقها، وبما تنتهى إليه من اكتشافات ونتائج علمية على أساسها تقدم حلولاً وتوصيات للتغلب على هذه المشاكل وعلاجها . وكل هذا - فى نهاية الأمر - يسهِّل مهمة الإدارة ويعمل على تحقيق أعلى مستوى ممكن من النجاح لها .

ولم يتخلف علم النفس عن المشاركة فى هذه المساهمة ، إذ قدم - ولا زال يقدم- الكثير من الأسس السيكولوجية التى تستفيد من تطبيقاتها الإدارة فى مؤسسات العمل، وقام - ولازال يقوم- بالكثير من الدراسات والبحوث للتعرف على أفضل الوسائل التى يمكن الاستعانة بها على حل المشاكل التى تعترض العمل والإنتاج . ولقد بلغ اهتمام علم النفس بتحقيق هذا حداً بعيداً إلى درجة أن خصص أحد فروعه والمعروف «بعلم النفس الصناعى» لخدمة هذا وحده.

---

* البحث الذى اشترك به المؤلف فى المؤتمر العربى الأول لتدريس العلوم الإدارية بالقاهرة عام ١٩٧١ تحت عنوان : علم النفس الصناعى- حاجة الإدارة إليه وتدريس الجامعة له . ونشر بعد ذلك بمجلة العلوم الإدارية (المعهد الدولى للعلوم الإدارية) ; مجلد ١٣ ، عدد ٣ ، ديسمبر ١٩٧١ ، ١١٢-١٤٧ .

ما هو علم النفس الصناعى ؟

إن المستعرض لمختلف التعريفات التى ذكرت عن علم النفس الصناعى سواء بقواميس علم النفس أو كتبه - العربية أو الأجنبية - يجد أنها جميعًا تدور حول فكرة أساسية عنه خلاصتها أنه : أحد فروع علم النفس الذى يهدف إلى تطبيق نتائج هذا العلم ، ونظرياته ، ومناهجه فى البحث فى ميدان الصناعة بصفة خاصة والعمل بصفة عامة، وذلك بهدف الوصول إلى أفضل الحلول الممكنة للمشاكل التى تبرز فى هذا الميدان .

هذا - ويمكننا أن نفصل الهدف الشامل لعلم النفس الصناعى إلى الأهداف الفرعية التى يذكرها ڤيتلس Viteles فيما يلى :-

« ١- زيادة الكفاية الصناعية .

٢- زيادة توافق العامل فى عمله .

٣- إنشاء نوع من الاستقرار الصناعى بإزالة مصادر الشكوى والمنازعات بين العمال وأصحاب العمل»[١] .

ونضيف إليها - بالنسبة للبند الأول- زيادة الكفاية الإنتاجية ، سواء صناعية أم غير صناعية ، وبالنسبة للبند الثالث ، إزالة مصادر الشكوى والمنازعات بين العاملين من جانب وبين الإدارة أو ممثليها أو نظمها أو لوائحها من جانب آخر .

مجالات علم النفس الصناعى :

فإذا كانت هذه الأهداف الهامة هى ما يهدف علم النفس الصناعى إلى تحقيقه، وإذا كانت بلادنا تخوض هذه الأيام معركة ضارية لتحقيق نهضة صناعية جديدة بنقلنا إلى المجتمع الصناعى العصرى، وإذا كان تحقيق هدف النهضة الصناعية -فى نهاية الأمر- أمانة تحملها الإدارة بمفهومها الواسع، فإنه ينبغى علينا إلقاء بعض الضوء على المجالات المختلفة التى يقدم فيها علم النفس الصناعى خدماته محاولين إبراز ما يمكن تحقيقه فى هذه المجالات، إسهامًا منه فى مساعدة الإدارة على تحقيق أقصى قدر ممكن لها من النجاح . ولاشك أن هذه المجالات يصعب حصرها حصراً شاملاً ، لهذا سوف نكتفى بقصر هذا الحديث على المجالات الأكثر

١- موريس س ڤيتلس ، فى فصل علم النفس المهنى، من كتاب ميادين علم النفس الذى أشرف على تأليفه جيلفورد ، ترجمة دكتور أحمد زكى صالح، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٥٦ ، ص٧٥٥ .

أهمية، والأجدر بالتركيز عليها، وهى مجالات الاختيار المهنى- والتوجيه المهنى- والتدريب المهنى- والتأهيل المهنى- والهندسة البشرية - وظروف العمل الطبيعية - وتقييم العمل- وإصابات العمل - وقياس مدى كفاءة العامل- والعلاقات الإنسانية فى مجال العمل- وحوافز العمل- والروح المعنوية للعاملين - والإرشاد النفسى لهم - والدعاية للمنتجات.

١- الاختيار المهنى Vocational Selection :

نقصد بالاختيار المهنى أن نختار للتعيين فى العمل أفضل من تقدم للعمل صلاحية لشغله، فنعينهم فيه. فإذا كان العمل- على سبيل المثال - فى حاجة إلى تشغيل ١٠٠ فرد وتقدم ٢٠٠ فرد بطلبات للالتحاق بهذا العمل، فإن الاختيار المهنى هنا تكون مهمته انتقاء أصلح ١٠٠ من هؤلاء الـ ٢٠٠ لتعيينهم فى هذا العمل. وفى هذا الحال، يقوم الإخصائى بتحليل العمل الذى تريد المؤسسة الاختيار له، لكى يحدد الخصائص النفسية والجسمية المختلفة التى ينبغى أن يتصف بها الفرد حتى ينجح فى القيام بهذا العمل ؛ مثل الطول والقوة العضلية والذكاء والذاكرة والقدرة الميكانيكية والقدرة الحسابية والقدرة اللفظية والاتزان النفسى ... إلخ . كما يحدد الإخصائى فى تحليل العمل المقدار الذى ينبغى أن تكون عليه كل خاصية من تلك الخصائص حتى تكون مناسبة لهذا العمل . وبالتالى يكون الفرد الذى تتوافر فيه هذه الخصائص بالمقادير المناسبة ذا استعداد طيب للنجاح فى هذا العمل. ثم بعد ذلك يقوم الإخصائى بتصميم أو اختيار - بناءً على نتائج تحليل العمل هذا - مقاييس ووسائل (مثل الاختبارات النفسية والمقابلة) لتقدير مدى توافر هذه الخصائص فى المتقدمين هؤلاء (الـ ٢٠٠ متقدم) .

وإذا نجحت الإدارة فى القيام بالاختيار المهنى على أسس علمية موضوعية سليمة دون أن تتأثر بأية أهواء شخصية ، فإنها تستطيع بذلك تحقيق فوائد ملموسة ، ففى بعض الأحيان بلغ متوسط إنتاج العمال الذين اختيروا على أسس الاختيار المهنى السليم أربعة أمثال متوسط من عينوا فى العمل بطريقة الاختيار العشوائى [١]. ومن بحث لبنيت وفير[٢] Bennett and Fear (عام ١٩٤٣) عن اختيار عمال ميكانيكيين، تبين لهما أن اختبارى الفهم الميكانيكى

١- دكتور السيد محمد خيرى، علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، (سنة النشر غير مبينة) ص٢٠٩ .

٢- المرجع السابق ، ص٢١٦-٢١٧ .

ومهارة اليدين فى استخدام الأدوات كانت لهما قدرة عالية على التمييز بين المتازين فى عملهم والضعاف من الميانيكيين . وبناءً على هذا ، طبق هذان الاختباران على عمال ميكانيكيين جدد. وبعد عام من العمل لهؤلاء العمال قدر بعضهم بأنه ممتاز فى عمله ، والبعض بأنه جيد، والبعض بأنه متوسط، والبعض بأنه أقل من المتوسط، والبعض بأنه ضعيف، كما قسم نفس العمال بناءً على درجات الاختبارين مندمجين إلى أربعة مستويات ، أ، ب، جـ، د ، بحيث كان مستوى أ يضم أعلى العمال درجات فى الاختبارين معًا، و د أقل العمال درجات . والجدول التالى يلخص نتائج هذه الدراسة .

جدول يوضح العلاقة بين مستوى الأداء الفعلى

فى العمل ومستويات درجات الاختبارين معًا

مستوى الأداء الفعلى	مستوى الدرجات فى الاختبارين مندمجين				
	أ	ب	جـ	د	المجموع
	٪	٪	٪	٪	٪
ممتاز فى العمل	٥٠	٤١	٩	صفر	١٠٠
جيد فى العمل	٣١	٤٤	٢١	٤	١٠٠
متوسط فى العمل	١٨	٣٦	٣٦	١٠	١٠٠
أقل من المتوسط	صفر	٤٣	١٩	٣٨	١٠٠
ضعيف فى العمل	صفر	٢٥	٢٥	٥٠	١٠٠

ومن هذا الجدول تتضح العلاقة الوثيقة بين درجات الاختبارين وبين النجاح فى العمل، حيث إننا لانجد فى المستويين الضعيفين فى العمل (الأقل من المتوسط والضعيف فى العمل) فرداً واحداً كان ممتازاً فى الاختبارين، كما أننا لانجد فرداً واحداً ممتازاً فى العمل وقع ضمن من حصلوا على الدرجات الضعيفة فى الاختبارين (المستوى د) .

وهذا يشير إلى أن استخدام الوسائل المناسبة لاختيار العمال الجدد على أساسها يمكننا من اختيار أصلح العمال للنجاح فى العمل واستبعاد ذوى الاستعداد الضعيف للأداء الفعلى للعمل .

ولو تركنا مجال الصناعة إلى مجال آخر من مجالات العمل هو مجال النقل، لنرى ما يمكن للإدارة أن تحققه من كسب إن هى عملت على تهيئة عملية اختيار مهنى سليمة تعين على أساسها العاملين فى مؤسساتها ، فإننا نجد أمثلة كثيرة واضحة الدلالة من أهمها تلك الدراسة التى قام بها لاهى[1] Lahy . فقد لاحظت شركة النقل المشترك بباريس ارتفاعًا ملحوظًا فى عدد حوادث سائقيها مما كان يكلفها الكثير، حيث بلغت حوادثها فى عام ١٩٢٢ ثمانية عشر ألف حادثة أودت بحياة الكثيرين من الركاب والمارة ، وكلفت الشركة خسائر مادية ومعنوية ضخمة ، فدعت لاهى فى عام ١٩٢٣ لدراسة المشكلة ووضع خطة كاملة لعلاجها ؛ فقام بتحليل دقيق لعمل السائق أدى به إلى اكتشاف الاستعدادات النفسية والمهارات الحركية اللازمة للنجاح فى مهنة السواقة ، ووضع لكل منها اختبارًا أو أكثر لقياسها . ثم بدأ يختار السائقين للشركة على أساس تطبيق هذه الاختبارات. فكان من أهم نتائج هذه الاختبار المهنى السليم ما يلى :

١- أن انخفضت نسبة السائقين الذين كانوا يستبعدون أثناء التدريب لعدم صلاحيتهم من ٢٠٪ قبل استخدام الاختبارات إلى ٤٪ فقط بعد استخدامها .

٢- أن نقصت المدة التى كانت تلزم لتدريب السائقين من خمسة عشر يومًا قبل استخدام الاختبارات إلى عشرة أيام بعد استخدامها ، فوفر ذلك للشركة حوالى ثلث نفقات التدريب .

٣- أن انخفض معدل حوادث سائقى الشركة عامًا بعد عام ، حتى إن - متوسط عدد حوادث السنة الواحدة بالنسبة للسائق فى عام ١٩٢٣- والذى كان ٢,٢ حادثة - ظل ينخفض حتى أصبح نصف حادثة عام ١٩٤٨ .

من هذه البحوث وغيرها يتبين لنا أن عملية الاختيار المهنى السليم تحقق للإدارة فوائد جمة، فهى تساعدها على أن تصل بإنتاجية المؤسسة التى تتولى إدارتها إلى معدل مرتفع كمًا وكيفًا ، مع خفض معدلات الحوادث أثناء عملية الإنتاج ، كما تجعل العامل أكثر استعدادًا للإفادة من التدريب وأكثر سرعة فى اكتساب المهارات المتطلبة للنجاح فى العمل .

١- الدكتور يوسف مراد ، دراسات فى التكامل النفسى، القاهرة ، مؤسسة الخانجى، ١٩٦٨ ، ص٢٢٤-٢٢٨ .

وإذا كان الاختيار المهنى السليم يحقق للإدارة كل هذه المكاسب فيما يتعلق بالإنتاج كهدف أساسى لإدارة المؤسسة ، فإنه بالمثل يحقق للإدارة هدفها الأساسى الآخر من حيث رضا العاملين بعملهم فى المؤسسة وراحتهم النفسية ؛ فالعامل الذى يختار للعمل الذى يتناسب وإمكانياته الجسمية والنفسية سوف ينجح فيه، وتبعًا لذلك سوف يزداد أجره وترتفع قيمته فى نظر المسئولية ، فتنفتح أمامه سبل التقدم والترقى . ولاشك أنه لايوجد شىء أدعى من ذلك لتحقيق رضا العامل بعمله وراحته النفسية فيه ؛ بل إن سوء الاختيار المهنى يؤدى بالفرد فى نهاية الأمر إلى أن يبلغ فشله فى العمل وضيقه به درجة يضطر معها إلى تركه للعمل برغبته أو فصله منه بالرغم عنه. ففى دراسة لبيل[١] Bill عام ١٩٢٣ على ١٣٣ عاملاً كانوا يعملون فى خمس حرف تمثل خمسة مستويات من الذكاء المتطلب للنجاح فيها، قام بتطبيق اختبار للذكاء على هؤلاء العمال، وبعد عامين ونصف أحصى الذين استمروا فى أعمالهم ، فتبين له أن الممتازين فى ذكائهم تركوا الحرفتين اللتين تتطلبان مستوى منخفضًا من الذكاء للنجاح فيها، أما الحرفة التى تتطلب مستوى ممتازًا من الذكاء فقد استمر ٥٧٪ من الممتازين عقليًا فيها فى مقابل ٧٪ فقط من ضعافه . لهذا، فإن الاختيار المهنى لو تم على أسس علمية سليمة وبُعد عن الأهواء الشخصية فإنه ينجح بدرجة كبيرة فى وضع الفرد فى العمل الذى يناسبه ، وبذلك يسهم -إلى حد بعيد- فى استمرار العامل فى عمله، وإبعاد خوفه من احتمال فقدانه لمصدر رزقه، وما يتعرض له بسبب ذلك من متاعب جمة مادية ونفسية. وهكذا، يتحقق للعامل قدر أكبر من الرضا بالعمل فى المؤسسة والراحة النفسية ولو أضفنا إلى ذلك أن بعض الدراسات تشير إلى أن متوسط التكاليف التى تنتج عن ترك العامل الواحد للمؤسسة ثم إعادة تعيين غيره، وما يستتبع ذلك من ضرورة تدريبه حتى يصل إلى مستوى مناسب للإنتاج . يصل فى البلاد الصناعية إلى ٢٠٠ دولار[٢] لأدركنا مدى أهمية انخفاض دوران العمل ... Turnover كهدف تسعى إدارة المؤسسة -بقدر استطاعتها- لتحقيقه . وهكذا، فإن عملية الاختيار المهنى السليم تساعد الإدارة على تحقيق أهدافها إلى حد بعيد .

١- دكتور السيد محمد خيرى «الصحة النفسية والصناعة» مجلة الصحة النفسية، عدد ١ ، مجلد ١ ، ١٩٥٨ ، ص٥٨-٥٩ .

٢- الكتاب السابق للدكتور السيد محمد خيرى، ص٢١٤ .

لكن، هناك تساؤلاً كثيراً ما يتبادر إلى الذهن عن الخلفية الإنسانية لعملية الاختيار المهنى على الأساس العلمى، إذ يظن البعض أن عملية الاختيار المهنى السليم إنما تحسن -فقط- إلى فريق من الناس هم من يختارون للعمل المطلوب التعيين فيه دون أن تهتم بالفريق الكبير الذى يستبعد أثناء عملية الاختيار هذه. إلا أن هذا الظن مردود عليه إذا ما ذكرنا مع أيزنك Ey-senck « أن الشخص الذى يلمع فى عمل معين قد يكون فاشلاً تمامًا فى غيره، ومتوسطًا فى ثالث . فارتباطات النجاح فى أوجه نشاط مختلفة تكون ضعيفة نسبيًا ، مما يشير إلى أن المهن الصناعية المختلفة تتطلب بالأحرى أنماطًا مختلفة من القدرة »[1] . ويؤيد مبدأ الفروق الفردية هذا الرأى، حيث يقرر أن أى فرد كان يمتلك كل قدرة بدرجات متفاوتة ، وأن الفروق بين الأفراد ليست كيفية (بمعنى امتلاك الفرد القدرة أو عدم امتلاكه لها) وإنما هى فروق كمية فقط (بمعنى أن الذى يفرق بين فرد وآخر من حيث قدرة معينة هو فقط أن هذه القدرة تتوافر بدرجة أعلى أو أقل فى هذا الفرد عن الآخر) . كما أن الارتباط بين القدرات المختلفة ارتباط ضعيف ؛ بمعنى أن الفرد قد يكون ضعيفًا فى الاستعداد الميكانيكى قويًا فى الاستعداد اللغوى ... وهكذا . وبالتالى فإن من يستبعد فى عملية الاختيار المهنى لعمل معين قد يكون من أوائل المقبولين للتعيين فى عمل آخر يتطلب استعدادات معينة بدرجات تختلف عن العمل الأول. فكما أن الأفراد تختلف عن بعضها فى درجات توافر الاستعدادات الجسمية والنفسية، فبالمثل -أيضًا- نجد أن الأعمال تختلف فيما بينها فيما تتطلبه من استعدادات بدرجات معينة . وهكذا، تكون مهمة الاختيار المهنى تحقيق أكبر قدر ممكن من الملاءمة بين استعدادات الفرد ومتطلبات العمل الذى يختار له ، هذا من جانب . ومن جانب آخر، فإنه إذا كان الذين يمتلكون الاستعدادات الجسمية والنفسية بدرجات عالية نسبة قليلة من المجتمع ، فإن نسبة الأعمال التى تتوافر فى المجتمع وتتطلب هذه الاستعدادات بدرجات عالية هى -أيضًا- قليلة. وإذا كانت نسبة الذين يمتلكون هذه الاستعدادات بدرجات متوسطة تمثل غالبية المجتمع فإننا بالمثل -أيضًا- نجد أن نسبة الأعمال فى المجتمع، والتى تتطلب هذه الاستعدادات بدرجات متوسطة، تمثل غالبية الأعمال . وكذلك أيضًا إذا كانت نسبة الذين يمتلكون هذه الاستعدادات بدرجات منخفضة تمثل نسبة قليلة من المجتمع ، فإننا -أيضًا- نجد أن نسبة الأعمال التى

١- H. J, Eysenck : Uses and Abuses of Psychology, Pelican Book, 1953 . p. 102 .

تتطلب هذه الاستعدادات بدرجات منخفضة هى نسبة قليلة فى المقارنة بما يتوافر فى المجتمع من أعمال . وهكذا، يجد كل فرد فى المجتمع العمل الذى يتناسب واستعداداته ، ولا تسئ عملية الاختيار المهنى السليم إلى أحد كما يظن البعض . ولو أضفنا إلى ذلك أن العمل الذى يحتاج إلى تعيين ١٠٠ فرد فيه ولايتسع لغيرهم ، سوف يقوم بتعيين ١٠٠ عامل فقط ، سواء عن طريق الاختيار المهنى السليم (والذى يتم على أساس موضوعى بعيداً عن الأهواء الشخصية) أو عن طريق غير علمى (كالاختيار العشوائى، إن كانت النية صافية، أو الاختيار بناءً على الأهواء الشخصية والانحيازات الذاتية) . ولاشك أن اختيار هؤلاء الـ ١٠٠ عامل بالطريق العلمى الموضوعى أفضل من اختيارهم بالطريق غير العلمى طالما كنا سوف نحسن فقط (بتعبير من ينتقدون طريقة الاختيار المهنى السليم) إلى ١٠٠ من أفراد المجتمع فى كلتا الحالتين . وبهذا يتحقق لكلٍ من العامل والإنتاج مصلحتهما المتكاملة بعملية الاختيار المهنى السليم .

٢- التوجيه المهنى : Vocational Cuidance :

إذا كان المقصود بالاختيار المهنى هو انتقاء أصلح المتقدمين لشغل عمل معين ، فإن المقصود بالتوجيه المهنى هو انتقاء أنسب عمل لشخص معين ؛ أى أننا فى الحالة الأولى (الاختيار المهنى) يكون عندنا أشخاص كثيرون متقدمون لعمل معين ، وتتلخص المهمة فى أن ننتقى من بينهم أصلحهم للقيام بهذا العمل فنعينهم فيه، بينما فى الحالة الثانية (التوجيه المهنى) يكون عندنا شخص واحد وأمامنا أعمال عديدة ، وتتلخص مهمتنا فى أن ننتقى له من بين هذه الأعمال الكثيرة أنسب عمل تؤهله له استعداداته الجسمية والنفسية فنوجهه للالتحاق به . لهذا ، فإن الهدف النهائى لكلٍ من عمليتى التوجيه والاختيار واحد، ألا وهو وضع الشخص فى العمل الذى يتناسب واستعداداته الجسمية والنفسية . ومن هنا ، فإن الخطوتين الأساسيتين فى عملية الاختيار، وهما تحليل العمل للكشف عن الاستعدادات اللازم توافرها فى الشخص حتى ينجح فيه، وتحليل الشخص لقياس مدى توافر تلك الاستعدادات فيه بنفس الدرجة المطلوبة ، هما -أيضًا- الخطوتان الأساسيتان فى عملية التوجيه . وقد تجمع الإدارة بين العمليتين فى وقت واحد حسب ظروف التشغيل فى المؤسسة بصفة خاصة، وفى السوق بصفة عامة ، كأن تكون الأيدى العاملة نادرة فى السوق فيضطر المسئولون إلى اختيار الصالح

من المتقدمين لعمل معين، وتوجيه غير الصالحين منهم لهذا العمل إلى أعمال أخرى داخل نفس المؤسسة، يتبين من استعداداتهم أنهم يصلحون لها .

ولاتقل الفائدة التى يمكن أن تحققها الإدارة من الاستعانة بعمليات التوجيه المهنى السليم عن تلك التى تحققها عن طريق الاختيار المهنى السليم ، وهى تلك الفوائد التى تعود من وضع الفرد فى العمل الذى يتناسب واستعداداته الجسمية والنفسية ، على نحو ما ذكرنا عند مناقشة فوائد الاختيار المهنى. وفى الدراسة التى اشتهرت بتجربة برمنجهام للتوجيه المهنى[1] خير دليل على ذلك . ففى هذه التجربة ، قام الباحثون بتتبع ١٦٣٩ طفلاً لمدة سنتين ، واستمروا فى تتبع ٦٠٣ منهم لمدة أربع سنوات . وقد وفر لنصف هؤلاء الأطفال التوجيه المهنى على أسس نفسية سليمة . بينما لجأ النصف الآخر إلى مكاتب العمل العادية التى لايوجد بها إخصائيون نفسيون طالبين نصحها . وقسم كل فريق منهما إلى فئتين، إحداهما تضم الذين التحقوا بالعمل طبقًا للنصيحة التى قدمت لهم، والأخرى تضم الذين خالفوا هذه النصيحة والتحقوا بأعمال أخرى. ولما تتبع الباحثون هؤلاء الأطفال لمدة سنتين وبعضهم لمدة أربع سنوات، تبين لهم أن ٩٠٪ من الذين طبق عليهم التوجيه المهنى على أسس نفسية وعملوا بتوجيه الإخصائى النفسى كانوا- بعد عامين من التحاقهم بالعمل- سعداء به راضين عنه غاية الرضا، وذلك فى مقابل ٣٦٪ فقط من الذين خالفوا توجيه الإخصائى النفسى، فالتحقوا بأعمال أخرى غير التى اختارها لهم، وبعد أربع سنوات أصبحت النسبتان المقابلتان هما ٩٣٪ و٣٣٪ على التوالى. ويدل هذا بوضوح على أن الالتحاق بالعمل حسب عملية توجيه مهنى على أساس نفسى سليم يؤدى إلى إحساس العامل بالرضا عن عمله بالمؤسسة، فيسعد به ويتحقق له قدر أكبر من الراحة النفسية كهدف أساسى تسعى الإدارة إلى تحقيقه للعاملين فى المؤسسة . أما بالنسبة لمن توجهوا لمكاتب العمل العادية (التى لم يتوافر فيها التوجيه النفسى) طلبًا لنصيحتها ثم عملوا بهذه النصيحة فالتحقوا بالأعمال التى اختارتها لهم مكاتب العمل هذه، فقد تبين بعد مرور سنتين من التحاقهم بالعمل أن نسبة الراضين منهم عن أعمالهم كانت ٦٤٪ . ولم تزد عن ذلك بعد مرور أربع سنوات من التحاقهم بالعمل، بينما كانت نسبة الراضين عن أعمالهم من أولئك الذين التحقوا بأعمال

١- الدكتور عبد المنعم المليجى : خبراء النفوس ، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٦ ، ص ٧٦ ، ٧٩ .

تخالف ما اختارته لهم مكاتب العمل العادية هذه بعد سنتين من التحاقهم بالعمل أعلى ؛ إذ بلغت ٧٦٪ ، ثم ارتفعت إلى ٧٨٪ بعد مضى أربع سنوات من التحاقهم بالعمل. وهذا يعنى أن الذين عملوا حسب نصيحة مكاتب العمل هذه كانوا أقل رضًا عن أولئك الذين تجاهلوا نصيحتها والتحقوا بأعمال تخالفها . وهذا يدلل على أن الوسائل النفسية العلمية التى يلجأ إليها الإخصائى النفسى فى التوجيه المهنى تساعد الفرد كثيراً على اختيار العمل الذى يرتاح له ويسعد به ، وأن مكاتب العمل العادية لاتستطيع أن تفى بهذا الغرض ما لم يتوافر لها إخصائى نفسى للتوجيه المهنى .

وإذا تابعنا هذه التجربة لنرى أثر التوجيه المهنى فى تحقيق نجاح الفرد فى عمله وتوفيقه فيه ، كما يدل عليه احتفاظه بالعمل وعدم تركه له أو فصله منه، لوجدنا أن ٦٠٪ من الذين التحقوا بأعمال طبقًا لتوجيه الإخصائى النفسى ظلوا بها طوال السنتين الأوليين ، واستمر ٤٦٪ منهم طوال السنوات الأربع من تتبعهم . أما الذين التحقوا بأعمال مغايرة لتوجيه الأخصائى النفسى فلم يستمر فى العمل منهم فى السنتين الأوليين سوى ١١٪ فقط ، واستمرت نفس النسبة لمدة السنوات الأربع أيضًا ، أما الذين التحقوا بأعمال نصحتهم بها مكاتب العمل العادية ، فقد تبين أن ٣٧٪ منهم استمروا فى عملهم لمدة السنتين الأوليين ، ثم هبطت هذه النسبة إلى ٢٧٪ بعد مضى فترة السنوات الأربع . فى حين أن الذين خالفوا نصيحة مكاتب العمل العادية والتحقوا بأعمال أخرى غير التى نصحتهم بها استمرت منهم فى أعمالهم نسبة ٣٣٪ لمدة سنتين و٢٦٪ لمدة السنوات الأربع . وهكذا، لانجد فروقًا تكاد تذكر بين من عملوا بتوجيه مكتب العمل العادى ومن خالفوه ، بعكس الأمر بالنسبة لمن عملوا بتوجيه الإخصائى النفسى ومن خالفوه .

وهكذا ، فإن التوجيه المهنى على أسس نفسية علمية سليمة ينجح فى توجيه الفرد إلى العمل الذى يناسب قدراته واستعداداته ، فيتحقق له بذلك الرضا عن عمله، والسعادة به، والقدرة على أدائه ، والإقبال عليه ، والاستمرار فيه ، فيزداد تبعًا لذلك إنتاجه ، ويحسن توافقه فى عمله. ولاشك أن هذه كلها أهداف تسعى إدارة أية مؤسسة لتحقيقها . وبهذا يشارك التوجيه المهنى على أسس علمية نفسية سليمة فى مساعدة الإدارة على تحقيق أهدافها ، ويعمل على إنجاحها .

٣- التدريب المهنى : Vocational Training

إن كلاً من عملية الاختيار المهنى وعملية التوجيه المهنى بناءً على أسس علمية نفسية سليمة لاتكفى لتحقيق كل التوفيق والنجاح المنشودين للفرد فى عمله، والحفاظ عليهما فى مستوى مرض ، بل ينبغى أن تتبع ذلك عمليات تدريب لرفع مستوى كفاءة الفرد فى أدائه لعمله ، ولمساعدته على تحقيق أكبر قدر من التوافق والتوفيق فيه . ويكون من أهم مسئوليات الإدارة وواجباتها أن تعمل على تهيئة برامج تدريبية مناسبة، تساعد الفرد على اكتساب الكثير من المهارات والمعارف اللازمة لتطوير كيفية أدائه لواجباته عمله ولرفع كفاءت فيه .

ولاشك، أن لبرامج التدريب المناسبة فوائد كثيرة تؤدى إلى مساعدة الإدارة على تحقيق أهدافها وتعمل على إنجاحها . فعلى سبيل المثال، تبين من إحدى الدراسات[1] أن الوقت اللازم لتغيير أسلحة مقص متحرك كان فى المتوسط ٢٩ دقيقة، حيث لم يطرأ عليه تحسن خلال ست سنوات . وعندما تلقى العاملون برنامجًا تدريبيًا مناسبًا انخفض هذا الوقت حتى أصبح حوالى ١٨ دقيقة فى المتوسط ؛ أى انخفض بمقدار يزيد عن الثلث ، مما وفَّر للمؤسسة مبالغ طائلة . كما يعمل التدريب -أيضًا- على التقليل من كمية التلف فى الآلات والمواد المستخدمة فى عملية الإنتاج . ففى أحد البحوث[2] قل استبدال عجلات التجليخ بالتدريج مع ازدياد فترة التدريب، حتى بلغ معدل الاستبدال بالنسبة لمن تلقوا تدريبًا لمدة ١٢ أسبوعًا نصف معدله للعمال ذوى خبرة لمدة ٣٦ أسبوعًا ، مما يشير إلى أن البرامج التدريبية المنظمة أفضل قيمة من الخبرة غير المنظمة، والتى يحصل عليها العامل تلقائيًا. كما أن التدريب يعمل -أيضًا- على خفض معدلات غياب العاملين، وخفض معدلات دوران العمل، مما يدل على أن التدريب يرفع مهارة العامل، وفى نفس الوقت يرفع روحه المعنوية، ويزيد رضاه عن العمل، وراحته النفسيه فيه .

١- نورمان ماير : علم النفس فى الصناعة ، ترجمة للدكاترة محمد عماد الدين إسماعيل وصبرى جرجس وأمين كمال محمد، القاهرة ، مؤسسة الحلبى، ١٩٦٧، ص٤١٤ .

٢- المرجع السابق ، ص٤١٥ .

ويوضع برنامج التدريب لرفع المهارة فى أداد عمل معين بناءً على نتائج دراسات تحليل هذا

العمل ونتائج دراسات الوقت والحركة فيه. فمن تحليل العمل يتبين لنا مختلف المهارات والقدرات والخبرات اللازمة للنجاح والتوفيق فى أداء هذا العمل، فنستفيد من ذلك فى التعرف على المهارات والقدرات التى يلزم أن يستهدف برنامج التدريب رفعها، لنضع فى البرنامج فقرات تساعد على تحقيق ذلك .

أما عن الاستفادة من نتائج دراسات الوقت والحركة فى العمل، فإنها توقفنا على الحركات التى يقوم بها العامل أثناء تأديته لعمله، مما يمكننا من دراسة كل حركة دراسة شاملة لتبين ماإذا كانت لازمة ومسهمة فى عملية الإنتاج ، أم طائشة غير مسهمة فى الإنتاج وعبئًا عليه، تستغرق وقتًا وجهداً دون لزوم، أم تحتاج إلى تعديل لتصبح أكثر راحة وأسرع وأكثر اقتصاداً لعملية الإنتاج . وبناءً على هذا، يمكننا فى وضع برنامج التدريب على هذا العمل أن نستفيد -أيضًا- من نتائج دراسات الوقت والحركة هذه، بجعل برنامج التدريب يركز على تمرين العامل على الاحتفاظ بالحركات اللازمة لعملية الإنتاج ، وعلى استحداث الحركات اللازمة التى لم يكن يمارسها من قبل، وعلى التخلى عن الحركات الطائشة ، وعلى تعديل الحركات التى يلزم تعديلها حتى تصبح أكثر راحة للعامل وأكثر اقتصاداً لوقته، وبهذا يصان للعامل وقته وطاقته اللذان كانا يتبددان فى نشاط غير مسهم فى الإنتاج ، ويوجهان توجيهًا مركزاً لعملية الإنتاج. ولعل دراسات تيلور Tayler وتابعيه منذ أوائل القرن الحالى، خير مثال لفوائد التدريب على أسس تحليل العمل ودراسات الوقت والحركة . فعن طريق استخدام تيلور[١] لأسس رئيسية ثلاثة ، هى : اختيار أصلح الأفراد للعمل (الاختيار المهنى) وتدريبهم على طرق الأداء الأكثر كفاية والحركات الأكثر اقتصاداً فى خدمة الإنتاج (التدريب المهنى) ، ومنحهم مكافآت تشجيعية عبارة عن رفع الأجر كلما زاد الإنتاج (الدوافع النفسية وحوافز العمل) نقول عن طريق هذه الأسس، استطاع تيلور أن يرفع إنتاجية العامل لأربعة أمثالها . كما استطاع -أيضًا- جلبرت Gilbreth[٢] أن يرفعها إلى حوالى ثلاثة أمثالها .

١- براون : علم النفس الاجتماعى فى الصناعة، ترجمة الدكاترة : السيد محمد خيرى وسمير نعيم محمود الزيادى، دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص١١ .

٢- Michael Argyle, Psychology and Social Problems , ASociate Book Publishers, London, 1967 , p. 103 .

ولعل مثل هذه الأمثلة، التى ذكرناها عن فوائد التدريب المهنى، هى التى تدفع غالبية إدارات مؤسسات العمل ومصالحه إلى إفراد أقسام خاصة بها لتدريب العاملين على كافة مستوياتهم . لكن يتبقى علينا أن نوضح دور علم النفس الصناعى فى مجال التدريب المهنى؛ فالإخصائى النفسى الصناعى يشترك فى عمليات تحليل العمل الذى يراد وضع برنامج تدريبى له ، وفى دراسات الزمن والحركة الخاصة بهذا العمل، وفى وضع وتنسيق فقرات برنامج التدريب عليه . وهو يشترك مع مختلف الإخصائيين فى ذلك (سواء فنيين، مهندسين ، إداريين...) حيث يطبق الأسس النفسية العلمية التى تؤدى فى النهاية إلى رفع كفاءة التدريب وتحقيقه للهدف المنشود منه . فإذا كان الأمر فى عملية التدريب لايخرج عن تناول إنسان لتعليمه طرقًا ومهارات واتجاهات تفيده فى عمله، وتدريبه على التخلى عن طرق واتجاهات غير صالحة، أو لاتفيده فى العمل ، فإن الاستفادة التطبيقية من الأسس النفسية العلمية المتعلقة بالجوانب النفسية للفرد، كالقدرات والاستعدادات ، والدوافع والحوافز ، والملل والتعب.. إلخ فى تنظيم وتنفيذ البرامج التدريبية أمر -ولاشك- لازم لإنجاحها ورفع كفايتها.

٤- التأهيل المهنى : Vocational Rehabilitaion :

قد يصاب الفرد بعاهة تقعده عن الاستمرار فى مزاولة عمله (كما يحدث فى إصابات العمل أو الحروب أو الحوادث المختلفة) ، أو قد يكون الفرد معوقًا بحالته الراهنة عن تأدية عمل يحقق فيه الكفاية الإنتاجية بدرجة مرضية ، تحقق له مستوى مناسبًا من الكسب ومن رضا الإدارة بإنتاجيته . وفى هذه الحالة يأتى دور التأهيل المهنى ، فيجمع -أساسًا- بين العمليتين السابق التعرض لهما ، وهما : التوجيه المهنى والتدريب المهنى، ليخدم فلسفة تقوم على أساسين : أحدهما تحقيق ذاتية العامل وكرامته وإنسانيته (عن طريق إيجاد عمل شريف ينتج فيه ويؤجر عليه) وثانيهما هو تعبئة كافة طاقات المجتمع لخدمة الإنتاج (عن طريق إعادة الفرد المعوق إلى العمل بكفاية إنتاجية مرضية) .

وتكون مهمة الإخصائى النفسى فى مجال التأهيل المهنى هى الاشتراك ضمن فريق التأهيل المهنى (والذى يتكون أساسًا من إخصائيين فى الطب والعلاج الطبيعى والخدمة الاجتماعية والتدريب المهنى والخدمة النفسية) فى دراسة الفرد المصاب، وتقديم كافة الخدمات له لعلاج حالته ، ومساعدته على إيجاد عمل مناسب ، وتدريبه عليه وتعيينه فيه . فيقوم الإخصائى النفسى بدراسة الفرد المصاب بالعاهة، من حيث إمكانياته وقدراته الجسمية والنفسية الحالية

ليوجهه إلى العمل الذى يرى أنه أنسب له بحالة عجزه الراهنة ، ثم يساعد فى وضع برنامج تدريبى له حتى يجيد هذا العمل . ويتخلل ذلك تقديم جوانب أخرى من العون : مثل المساعدة عن طريق الإرشاد النفسى (والعلاج النفسى) على تقبل حالة العجز هذه والتقليل من آثارها على حالة الفرد النفسية، ومثل مساعدته على الالتحاق بالعمل الذى اختير له ، ومتابعته بعد تعيينه فى هذا العمل لمساعدته على حل ما يجابهه من مشاكل فى عمله ، تؤثر على توافقه المهنى وراحته النفسية .

وإذا كان التأهيل المهنى يعتبر فى المرتبة الأولى خدمة إنسانية : إذ يحقق للفرد استمراره فى العمل والإنتاج ، فيحفظ له بذلك كرامته كإنسان يبغى العمل لكسب العيش ولتحقيق الذات ، فإننا نجد من جانب آخر ، أن الدراسات والتقارير التى كتبت عن الكفاية الإنتاجية والتوفيق المهنى لذوى العاهات تشير إلى أنهم يحققون مستوى مرضيًا فى كليهما . فمن الدراسة المقارنة التى قام بها ماك فارلاند[1] Mc Farland ، وقارن فيها بين ٦٨٥ عاملاً من ذوى العاهات وعدد مماثل من الأسوياء ، تبين أن نسبة الفصل المسبب كانت أعلى بمقدار ٥,٦٪ بين الأسوياء ، وأن ذوى العاهات حصلوا على زيادة فى الأجور بنسبة ٤,٦٪ ، كما كان معدل غيابهم أقل بنسبة ٧٪ عنه لدى الأسوياء . ومن بحث كوساريس وهاموند[2] Kossaris and Hammond على ٤٠٠ عامل من ذوى العاهات و٦٥٠٠ عامل من الأسوياء يعملون فى ٤٧ مؤسسة ، تبين أن ذوى العاهات كانوا أكثر إنتاجًا بنسبة ٢٪ ، وأن سجلات حوادثهم كانت أفضل بدرجة واضحة من سجلات حوادث الأسوياء . كما قام موفيس[3] Mo-vis بدراسة على ١٠٠٨ عمال من ذوى العاهات فى ٦٣ مؤسسة . تبين منها أن كفايتهم الإنتاجية فوق المتوسط (حسب تقارير أصحاب الأعمال) وأن نسبة تعرضهم للحوادث غير ملحوظة، وأنهم أكثر انتظامًا فى العمل من زملائهم الأسوياء . ويخرج هاملتون Hamilton من مثل هذه الدراسات برأيه الذى يسجله حيث يقول : «ويمكن الخروج من هذه الدراسات

١- كينيث هاملتون، أسس التأهيل المهنى، ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص٣٥١،٣٥٢ .

٢- المرجع السابق ، ص ٣٥١ .

٣- المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

بنتيجة هامة ، مؤداها أن كفاية ذوى العاهات وأهليتهم للعمل مشابهة لتلك الخاصة بالأسوياء، ولاتختلف عنها » [١]. وهكذا، لاتؤدى عملية التأهيل المهنى خدمة للعامل فقط ، حيث تعيد لأولئك الذين ساءت حظوظهم، فأصيبوا بالعجز، صلاحيتهم للعمل وقدرتهم على الإنتاج ، فلا يصبحون عالة على المجتمع ، بل وأيضًا تؤدى خدمة جليلة للإنتاج، حيث يستفيد من تعبئة كافة الطاقات البشرية لخدمته ، فلا يستثنى منها حتى من أصابته عاهة. وهكذا، يتضح لنا كيف أن عملية التأهيل المهنى تساعد الإدارة على تحقيق أهدافها ، خاصة تلك المتعلقة بالكفاية الإنتاجية والراحة النفسية للعاملين فى مؤسسة العمل .

٥- الهندسة البشرية : Human Engineering

تعتبر الهندسة البشرية، أو ما يسمى أحيانًا بعلم النفس الهندسى Engineering Psychology ، أحدث فروع علم النفس الصناعى أو مجالاته . ويتلخص هدف الهندسة البشرية (أو علم النفس الهندسى) فى تصميم أو تعديل الآلة حتى تتناسب والإمكانيات والاستعدادات النفسية لمن يعمل عليها من بشر ، ذلك أنه إذا كان لنا أن نختار الإنسان الذى يعمل على الآلة (على نحو ما ذكرنا محاولين وضع الشخص فى المكان الذى يناسبه) ، وأن نحوِّر ونعدِّل من سلوكه ومهاراته (عن طريق التدريب أو التأهيل) لكى يصبح أكثر صلاحية للعمل عليها، فإنه يجب علينا من الجانب الآخر أن نقوم بتكييف الآلة لإمكانيات الإنسان المحدودة ، فنعدِّل من تصميمها حتى تصبح أكثر ملاءمة لإمكانيات من يعمل عليها. ولقد أشار فتز[٢] Fits إلى أن ما نحصل عليه من تحسن فى كفاية العامل الإنتاجية بواسطة تغييرات بسيطة فى تصميم الآلة يكون -فى العادة- أكثر مما نحصل عليه عن طريق الاختيار الدقيق للعمال وتدريبهم لفترة طويلة .

لهذا ، فإن عالم النفس الصناعى يشترك مع المهندسين أثناء إعدادهم وتصميمهم للآلات والمعدات فيمدهم بالمعلومات اللازمة عن خصائص السلوك البشرى المتعلقة بعمل الإنسان على الآلة ، ويشترك معهم منذ الخطوات الأولى فى تصميمها أو تعديلها حتى تكون أكثر ملاءمة

١- المرجع السابق ، ص٣٥٤ .

٢- موريس فيتلس : فى فصل (علم النفس المهنى» من كتاب : «ميادين علم النفس» الذى أشرف على تأليفه جيلفورد، ترجمة الدكتور أحمد زكى صالح، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦ ، ص٨٦٨ .

لخصائص السلوك البشرى وإمكانياته. وفيما يلى مثال لما يمكن أن يؤديه عالم النفس الصناعى فى مجال الهندسة البشرية : «طلب من المهندس - مثلاً - أن تكون الآلة التى يصنعها مزودة بجهاز للتنبيه يستتبع من العامل (أو الجندى) أن يصدر رد فعل معين بأقصى سرعة ممكنة .

«هنا يكون دور عالم النفس أن ينبه المهندس إلى أن الإشارات الضوئية تختلف عن الإشارات الصوتية فى سرعة الرد الذى يترتب على كل منهما ؛ فالتنبيهات السمعية تستتبع رد فعل أسرع مما تستتبعه التنبيهات البصرية (هذا نعرفه من دراساتنا التجريبية المعملية) . بهذه المعلومة الصغيرة تزداد قدرة المهندس على أن يقرر أى الإشارتين يختار، وهو على بيِّنة من أن إحداهما تزيد من كفاءة آلته [١].

لكن «كيف يؤدى عالم النفس هذه المهمة ؟ هناك طريقتان : إما أن يعود إلى المراجع (وهو أدرى بمسالكها من غيره) فيستخلص منها القدر المطلوب من المعلومات ويقدمه فى لغة مفهومة لزملائه المهندسين ، وإما أن يجرى هو نفسه تجربة أو يضع تجارب يتوصل بها إلى المعلومات المطلوبة، وهو -طبعًا- أقدر من غيره على إجراء تجربة تتناول جوانب السلوك البشرى المختلفة»[٢].

بالإضافة إلى هذا، فإن عالم النفس الهندسى يقوم «بالاشتراك مع المهندسين فى تقييم جهاز (الآلة - الإنسان) وهو يعمل . وقد استعين بعلماء النفس -فعلاً- فى تقييم مئات الأجهزة كسماعات التليفون ، والعدادات المختلفة، وغرفة الإرسال التيلفزيونى وأجهزة التحكم فى الصواريخ والرادار، وترتب على تقييمهم إدخال تغييرات وتعديلات -لا حصر لها- طلبًا للمزيد من الكفاءة فى أداء الجهاز لوظيفته، والسبب الرئيسى فى الاستعانة بهم فى هذه المهمة هو أن التقييم هنا لاينصب على الآلة ، ولكن على الجهاز المركب من الإنسان والآلة» [٣].

وفى الحرب العالمية الثانية، أجريت دراسات لتطبيق علم النفس الهندسى فى مجال إنتاج وتطوير المعدات الحربية مما حقق نتائج هامة فيما يتعلق بتشغيل هذه المعدات بسهولة أكبر

١- دكتور مصطفى سويف . علم النفس الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٧ ، ص١١٠ .

٢- المرجع السابق ، ص١٠٩ .

٣- المرجع السابق ، ص١١٠ ، ١١١ .

ودقة أكثر . وهكذا، يمكن لعلم النفس الهندسى أن يشارك فى تصميم الآلة وتعديلها بما يحقق تكييفها لحدود قدرات الإنسان وخصائصه الجسمية والنفسية ، بحيث يصبح العمل عليها أيسر وأدق وأأمن ، فتزيد الكفاية الإنتاجية، ويتحقق للعامل نصيب أوفر من التوفيق فى عمله والراحة النفسية فى مؤسسته . وبهذا، تخدم الهندسة البشرية -أو علم النفس الهندسى- إدارة مؤسسة العمل على نحو ما ذكرنا . ومما هو جدير بالذكر أن هذا الفرع من علم النفس لم ينل الاعتراف الرسمى به إلا فى عام ١٩٥٦ ، حيث أفردت له جمعية علم النفس الأمريكية قسمًا خاصًا من أقسامها .

٦- ظروف العمل الطبيعية : Physical Conditions

لابد للعامل -مهما كانت مهاراته الفنية واستعداداته النفسية للعمل- من توافر ظروف طبيعية مناسبة فى بيئة عمله ؛ كالإضاءة والحرارة والتهوية والهدوء وساعات العمل المحدودة وفترات الراحة الكافية والمنظمة ، وذلك حتى يحقق المستوى المنشود من الكفاية الإنتاجية والراحة النفسية ، ويظل محافظًا عليهما طوال عمله . وهذه حقائق يعلمها كافة العاملين فى مجال الصناعة على اختلاف تخصصاتهم، ويشتركون- شأنهم فى ذلك شأن الإخصائى النفسى الصناعى - فى الدراسات والتطبيقات الخاصة بتهيئة أنسب هذه الظروف فى بيئة العمل .

ولما كان المجال لايتسع لذكر أمثلة توضح أهمية توافر جميع الظروف المناسبة للعمل، فإننا سوف نقصر حديثنا على ظرفين فقط- كمثال- هما الضوضاء والتعب . فالعمل فى الضوضاء يكلف العامل استنفاداً أكثر من طاقته وجهده وراحته النفسية عنه فى الجو الهادئ ، مما يتسبب عنه رفع فى مستوى شعور العامل بالضيق والتعب وخفض فى كفايته الإنتاجية . ولقد أوضحت التجارب التى أجريت فى إنجلترا فى صناعة النسيج زيادة فى الكفاية الفردية للعامل بمقدار ٧,٥٪ فى حالة استعمال وقايات للأذن تضعف شدة الضوضاء بنسبة ٥٠٪ تقريبًا ، وبالإضافة إلى ذلك زادت من شعورهم بالارتياح [١]. كما أوضحت الدراسات بالنسبة لتحديد ساعات العمل اليومى أن زيادتها عن الحد المناسب لاتتبعها زيادة فى الإنتاج . ففى بداية الحرب العالمية الأولى ، كانت إنجلترا فى حاجة إلى مزيد من إنتاج مصانع الذخيرة ، فزودت ساعات العمل بها ، لكن الإنتاج لم يرتفع بعكس ما كان متوقعًا ، الأمر الذى اضطر

١- المرجع السابق لموريس فيتلس، ص٨٧ .

المسئولين إلى دراسة المشكلة ، فتبين لهم[١] أنه بخفض ساعات العمل الأسبوعى من ٥٨,٢ إلى ٥٠,٦ زاد الإنتاج فى الساعة بنسبة ٣٩٪ ، كما زاد الإنتاج الكلى فى الأسبوع بنسبة ٢١٪ ؛ أى أن زيادة ساعات العمل عن الحد المناسب سوف تؤدى بالضرورة إلى انخفاض فى كمية الإنتاج . وإضافة إلى ذلك ؛ فإن التعب إذا كان يعمل على خفض الإنتاج – على نحو ما رأينا فإنه -أيضًا- يعمل على زيادة تعرض العامل لإصابات العمل. فمن دراسة لڤرنون[٢] Vernon تبين أن للتعب أثرًا كبيرًا على معدل الإصابات، حيث كان معدّل الإصابات يزداد فى نهاية يوم العمل عنه فى بدايته، كما كان تأثير التعب على الإصابات من الوضوح بحيث إنه خلال يوم العمل البالغ ١٢ ساعة حدث للعاملات مثلان ونصف مثل الإصابات التى حدثت لهن خلاله بعد أن خفض إلى ١٠ ساعات فقط . وهذا يشير بوضوح إلى أن طول فترة العمل عن الحد المناسب يؤدى إلى التعب والإرهاق ، فتقل بذلك قدرة العامل على الاستقرار فى بذل نشاطه وتوجيهه نحو عملية الإنتاج بالكفاءة المطلوبة ، بالإضافة إلى انعكاس ذلك على الحالة النفسية للعامل ، فيحس بالضيق من العمل وعدم الرغبة فى استمراره ، فتقل كفاءته فى أداء العمل، ويتعرض لإصاباته .

ومما لاشك فيه ، أن مدى تأثير ظروف العمل هذه على عملية الإنتاج وعلى العامل نفسه سوف يختلف من مهنة لأخرى ، بل ومن بيئة لغيرها بالنسبة لنفس المهنة . لكن ، ما هو دور إخصائى علم النفس الصناعى فى هذا المجال ؟ يمكننا أن نلخص أهم ما يقوم به فيما يلى :

١- إمداد الإدارة بالمعارف المتوافرة لديه عن أنسب الظروف الطبيعية فى مجال العمل .

٢- القيام باستخدام المنهج السيكلوجى فى بحث هذه الظروف ودراستها دراسة علمية للوقوف على أنسبها إذا ما اقتضى الأمر ذلك، حتى تتخذ نتائج هذه الدراسات أساسًا لتحسين ظروف العمل .

٣- استخدام الوسائل السيكلوجية المختلفة لتحسين اتجاهات العمال النفسية نحو التغير المطلوب لظروف العمل وتأييده ، ذلك أن التغييرات التى تقوم بها الإدارة لتحسين ظروف

١- المرجع السابق للدكتور عبد المنعم المليجى، ص٩٠ .

٢- Tiffin and McCormick :.Industrial Psychology , Prentice Hall, 1968, p. 563 .

العمل ما لم يصاحبها اتجاه إيجابى من العاملين فلن تؤتى بفائدة ، بل -بالعكس- قد تضر إذا كان اتجاه العاملين سلبيًا نحو هذا التغيير إلى الأفضل ، وتجارب الهاوثورن Hawthorne خير دليل على هذا الرأى .

٧- تقييم العمل : Job Evaluation :

نعنى بتقييم العمل وضع قيمة مالية للعمل ؛ أى تحديد الأجر أو المرتب الذى ينبغى أن يعطى لمن يزاول هذا العمل أو يعين فيه. ولاشك أن الوصول إلى هذا التقييم بشكل موضوعى عادل بعيد عن الأهواء الشخصية هدف أساسى ينبغى أن تحققه الإدارة للعاملين فى مؤسستها، بل إنه قد صدرت فى مصر قرارات جمهورية (كالقرار الجمهورى رقم ١٩٥٨ لسنة ١٩٦١) تلزم الإدارة فى مؤسسات العمل بوضع سياسة عادلة للأجور والمرتبات، وتقييم الأعمال وتصنيفها فى فئات أو درجات مالية .

ولاشك أنه كلما تحققت العدالة والموضوعية فى تقييم الأعمال بالمؤسسة تحققت لها الكفاية الإنتاجية والراحة النفسية والأمن لعمالها، فالشعور بالغبن شئ مدمر لكفاية الفرد الإنتاجية ولروحه المعنوية فى العمل على حد سواء . ويشترك الإخصائى النفسى الصناعى مع غيره من الإخصائيين فى مجال العمل فى القيام بعملية التقييم على أسس علمية موضوعية عادلة .

ويتم تقييم العمل أساسًا بناءً على تحليل هذا العمل، حيث يوضح التحليل المهارات المتطلبة للعمل، والخبرات والمؤهلات اللازمة له، ومقدار الجهد البدنى أو الذهنى الذى يبذل فى أدائه ، ومقدار المسئوليات الملقاة على عاتق القائم به، والظروف التى يؤدى فيها العمل ، وهى فى مجموعها تمثل أهم العناصر التى تؤخذ فى الاعتبار عند تقييم العمل بأى طريقة نستخدمها ، سواء فى ذلك طريقة الترتيب المتدرج، أو طريقة مقارنة العوامل، أو طريقة النقط، وهى أشهر طرق التقييم .

ويشارك الإخصائى النفسى الصناعى فى تحليل العمل، كما يشارك فى عملية التقييم هذه. وبذلك، يقوم بدور أساسى فى إتمام تقييم العمل على أساس علمى موضوعى سليم، بعيد عن الأهواء الشخصية ، والانحيازات الذاتية .

١- دكتور أحمد عزت راجح : علم النفس الصناعى ، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ص٣١٢ .

٨- إصابات العمل : Accidents

إن الدراسة العلمية لإصابات العمل والحوادث التى تقع من العمال، أو لهم، تبين أن هناك أفراداً معينين يكثر تورطهم فى الحوادث ، وآخرين يبتعدون عنها . ففى دراسة للباحث[١] عن حوادث سائقى «شركة أبورجيلة» فى عام ١٩٦٠ (قبل التأميم) تبين له أن ٩٪ منهم -فقط- تورط فى ٣١٪ من جملة الحوادث كلها ، فى حين أن ٢٧٪ من السائقين لم يتورط فى أى حادثة، كما تبين أن معامل الارتباط بين حوادث نصف السنة الأول وحوادث نصف السنة الأخير كان ٣٣٥, . ، وأن معامل الارتباط بين حوادث الستة أشهر الفردية (يناير - مارس - مايو - يوليو- سبتمبر- نوفمبر) وحوادث الستة أشهر الزوجية (فبراير - أبريل - يونيو - أغسطس - أكتوبر- ديسمبر) كان + ٤١٣, . ، وكان المعاملان دالين إحصائيًا عند مستوى ٠٠١, . وهذه النتائج كلها تؤيد ميل الحوادث لأن ترتبط بأفراد معينين، وأن تبتعد عن أفراد آخرين ، الأمر الذى يشير إلى وجود ما يعرف بالقابلية للحوادث (أو الاستهداف للحوادث) Accident Proneness ؛ والتى تعنى أن لكل فرد استعداداً نفسيًا وجسميًا بدرجة ما لأن تحدث له حوادث، وأن هذا الاستعداد ثابت إلى حد ما.

وتكون مهمة الإخصائى النفسى الصناعى فى هذا المجال هى البحث عن الخصائص النفسية للفرد ذى القابلية العالية للحوادث فى مهنة معينة للتعرف عليها تمهيداً -فيما بعد- لعلاجها فى الفرد (إذا كان ذلك متيسراً) أو لنقله إلى عمل آخر أكثر أمنًا ، بحيث لايسهل له التورط فى حادثة (إذا كان علاجها صعبًا) ، وللاستفادة -أيضًا- من ذلك فى عمليات الاختيار والتوجيه والتدريب والتأهيل التى سبق ذكرها ، على نحو ما سبق أن بينا من ضرورة مناسبة خصائص الفرد ومتطلبات العمل الذى يختار له، أو يوجه إليه، أو يدرب عليه، أو يؤهل للعمل فيه . كما أن للإخصائى النفسى الصناعى مهمة أخرى فى هذا المجال هى دراسة الظروف البيئية التى يؤدى فيها العمل، سواء كانت ظروفًا فيزيقية، أو نفسية، أو اجتماعية، لبيان مدى تأثيرها على تورط العاملين فى الحوادث، والعمل على علاجها -بقدر الإمكان- عن طريق ترشيد الإدارة فى هذا الشأن، حتى يقل معدل الحوادث بمؤسسة العمل إلى أقل حد

١- فرج عبد القادر طه : العلاقة بين الإصابات والصفحة النفسية للذكاء . رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس فى ١٩٦٥ .

ممكن . وفى البحث الذى سبقت الإشارة إليه لفرنون عن علاقة التعب بحوادث العمل خير نموذج لهذه الدراسات ، وما يمكن أن تؤدى إليه من توصيات وفوائد تطبيقية لمجال إصابات العمل .

٩- قياس كفاءة العامل : Proficiency of Worker

المقصود بقياس كفاءة العامل تقدير مدى نجاحه فى القيام بواجبات عمله وتحمل مسئولياته. ومن أهم الأهداف التى يحققها قياس كفاءة العامل ما يلى (١):

١- يستخدم كأساس لترقية العامل، أو نقله ، أو فصله .

٢- يستخدم كأساس لتقدير ما يستحقه من أجر أو مكافأة تشجيعية .

٣- يستخدم كوسيلة لتقييم مدى فاعلية طرق معينة فى تأدية العمل، ومدى قيمة أدوات معينة أو معدات لعملية الإنتاج ، ومدى تأثير ظروف العمل المختلفة على إنتاجية العامل .

٤- يستخدم كوسيلة لتقييم الوسائل التى اتبعت فى اختيار العاملين وتصنيفهم وتوجيههم.

هذا ، وينبغى أن تتحقق للقياس الذى نستخدمه لتقدير مدى كفاءة العامل صفة الدقة فى التقدير والموضوعية ، بحيث يلغى تأثير التحيزات والأهواء الشخصية . وهناك طرق فنية كثيرة يستطيع بها إخصائى علم النفس الصناعى وضع واستخدام مقاييس دقيقة تحقق لإدارة المؤسسة هذا الهدف . ومما لا شك فيه أن تطبيق هذا المقياس بشكل موضوعى سوف يجعل كل عامل بمؤسسة العمل يحس بأن إنتاجه فى العمل سوف يخضع لتقييم دقيق ، وأن مستقبله فى هذا العمل رهن بهذا التقدير ، الأمر الذى سوف يؤدى به إلى رفع إنتاجيته مع إحساسه بالعدالة فى عمليات الترقى، أو النقل، أو الفصل، أو المكافآت التى تقوم بها الإدارة.

١٠- العلاقات الإنسانية : Human Relations :

مجال العلاقات الإنسانية فى ميدان العمل مجال واسع إلى حد كبير ؛ حيث إنها تعنى «السلوك الإدارى الذى يقوم على تقدير كل فرد، وتقدير مواهبه وإمكانياته وخبراته ، واعتباره قيمة عليا فى حد ذاته ، والذى يقوم على الاحترام المتبادل بين صاحب العمل

١- Ghiselli and Brown . Personnel and Industrial Psychology , McGraw Hill , Tokyo , 1955 , p. 60

أو القائم عليه والعامل، وبين العمال بعضهم مع البعض الآخر ، وبين المشتغلين فى مؤسسة من المؤسسات والمتصلين بهذه المؤسسة ، والذى يقوم على حسن النية نحو الآخرين وحسن القصد فى العمل، والذى يقوم على الدراسة الموضوعية العلمية الجماعية لمشكلات الإدارة على هدى من المصلحة العامة، والذى يقوم على شعور وإيمان عميق بانتماء الفرد إلى الجماعة التى يعمل فيها [١].

وبالتالى، فإن تحسين العلاقات الإنسانية داخل مؤسسة العمل يقتضى من الإدارة تهيئة الظروف المناسبة لتطبيق نتائج الدراسات والبحوث والنظريات السيكلوچية عن الدوافع النفسية وسيكلوچية الإدارة وسيكلوچية الجماعة ، واتخاذ القرارات ... إلخ فى مجال العمل، مع القيام بدراسات لبيان العوامل النفسية وراء المشكلات التى تشير إلى وجود علاقات إنسانية سيئة فى مجال العمل، وذلك تمهيداً للعمل على علاجها، والقضاء عليها، ووقاية المؤسسة من تكرارها فى المستقبل .

وكمثال لما يمكن لعلم النفس أداؤه فى مجال العلاقات الإنسانية من خدمات ، نشير إلى أن دراسات ليڤين وليبيت وهوايت[٢] Lewin, Lippit and White أثبتت أن الرئيس الديمقراطى أصلح من الرئيس الاستبدادى ومن الرئيس الفوضوى ، سواء كان ذلك بالنسبة للإنتاج من حيث كمه ونوعيته، أو بالنسبة للعلاقات الإنسانية داخل مجال العمل. إذ تبين أن المجموعة التى كانت تحت الرئاسة الفوضوية كانت أقل مستوى من المجموعتين الأخريين من جميع النواحى ؛ حيث كان الرئيس الفوضوى أقل نصيبًا من حيث حب واحترام وتقدير الأعضاء له، كما كانت مجموعته أقل إنتاجًا وأقل حبًا للعمل. كما كانت المظاهر العدوانية أكثر ظهوراً فى سلوك أعضاء المجموعة الاستبدادية نحو بعضهم البعض عنها فى المجموعة الديمقراطية ، وكانت العلاقة بين الأعضاء والرئيس الديمقراطى علاقة صداقة وتفاهم ، فى حين كانت العلاقة بالرئيس الاستبدادى علاقة خضوع ، كما كان تعاون أعضاء المجموعة الديمقراطية واتحادهم أكثر وضوحًا. بالإضافة إلى كل هذا، كان الابتكار والإتقان فى العمل يختفيان بمجرد اختفاء الرئيس فى المجموعة الاستبدادية، عكس الأمر فى المجموعة الديمقراطية . ويشير هذا كله إلى ضرورة تدريب الرؤساء والمديرين على أساليب الرئاسة والإشراف والإدارة الديمقراطية .

١- الدكتور سيد عبد الحميد مرسى . العلاقات الإنسانية فى مجال الإدارة، المعهد القومى للإدارة العليا بالقاهرة ، عدد ٣٩ من سلسلة الدراسات، ١٩٧٠ ، ص١٣ .

٢- المرجع السابق لماير ، ص١٨٦ ، ١٩٠ ، والمقال السابق للدكتور السيد محمد خيرى ، ص٦٢ .

وهناك بعض التوجيهات التى استخلصها أوبرداهم Oberdahm[١] ، والتى من شأنها خلق علاقات طيبة بين الرئيس ومرءوسيه (فيتحسن بذلك مستوى العلاقات الإنسانية فى مجال العمل) ؛ مثل معاملة الرئيس للمرءوسين على وجه يشعرهم باحترامه لشخصياتهم وكرامتهم ، ومرونته فى تطبيق قوانين العمل ولوائحه عليهم، ومعاونتهم على تحقيق النمو والتقدم المهنى، ومعاملة كل منهم المعاملة التى تتناسب وخصائصه المميزة، وتحمل المسئولية عن المرءوسين عندما يقعون فى أخطاء ، وأن يكون الرئيس ممثلاً أمينًا لمطالب المرءوسين وآرائهم لدى الهيئات العليا .. ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أهمية تكوين مجموعات العمل، سواء طاقم العمل على آله واحدة، أو مجموعة العمل فى قسم واحد أو عنبر واحد، على أساس من الاختيارات السوسيومترية المتبادلة ليعملوا بعضهم مع البعض ، الأمر الذى يحقق الوئام والوفاق بين أعضاء مجموعة العمل الواحدة ، فتتحسن العلاقات الإنسانية داخل العمل .

وما دمنا بصدد الحديث عن العلاقات الإنسانية فى مجال العمل ، فإنه ينبغى أن نتعرض لظاهرتى التعاون والتنافس لما لهما من أثر فى هذا المجال. ففى حالة التعاون يسود قدر أكبر من الود والتفاهم بين الزملاء، ربما كان على حساب الإنتاج فى بعض الحالات ، بينما فى حالة التنافس يرتفع الإنتاج لكن على حساب العلاقات بين الزملاء ، حيث تميل هذه العلاقات إلى الفساد، وتزداد مظاهر العدوان بين الزملاء، بعضهم البعض . ففى دراسة لستوك وويات Stock and Wyatt [٢] عن أثر المنافسة بين الزملاء فى العمل، تبين أن العاملات فى مؤسسة للف الورق زاد إنتاجهن بنسبة ٤٦٪ عند استحداث المنافسة بينهن، ثم استطاع الباحثان عن طريق زيادة حدة المنافسة بين العاملات أن يحصلا على زيادة إضافية فى الإنتاج بلغت نسبتها ٣٠٪ ، إلا أنه كان من نتيجة ذلك وضوح فساد كبير فى العلاقات المتبادلة بينهن، فبينما كن قبل استحداث المنافسة يتحدثن سويًا ، ويتبادلن الرأى فى حرية وتفاهم وود متبادل أحدثت المنافسة بينهن مظاهر كثيرة واضحة من المنازعات والغيرة والحسد، فارتفع عدد الشكاوى ضد بعضهن البعض، وعدد الشكاوى عن ظروف العمل ورداءة المواد المستخدمة ، فى حين أنها لم تكن قد تغيرت ؛ وبمعنى آخر، فإن العلاقات الإنسانية قد فسدت بين

١- المقال السابق للدكتور السيد محمد خيرى، ص٦٢ ، ٦٣ .

٢- المقال السابق للدكتور السيد محمد خيرى ، ص٦٤ ، ٦٥ .

العاملات نتيجة حدة المنافسة . ولهذا ، اقترح الباحثان إجراء المنافسة فى مؤسسات العمل بطريقة جمعية لافردية مع العمل بقدر الإمكان، على أن تكون المجموعات المتنافسة متعادلة القوة، لكى تنجح جماعة فى مرة، وأخرى فى غيرها . فالمنافسة الجمعية فيها توفيق بين ظاهرتى التعاون والتنافس ، حيث يتعاون أعضاء الجماعة الواحدة، وتتنافس الجماعة كوحدة مع غيرها . فيتحقق بذلك التوازن بين ظاهرتين أساسيتين ؛ إحداهما هى اندماج الذات فى الجماعة (حيث تحدث فى موقف التعاون) والأخرى تأكيد الذات والاعتداد بها (حيث تحدث فى موقف التنافس)، كما اقترح الباحثان أنه فى حالة المنافسة الفردية -التى لامفر منها- ينبغى ترتيب مواضع الأفراد، بحيث يكون الأفراد المتجاورون متعادلى القوة على وجه التقريب.

وهكذا ، يسهم علم النفس الصناعى فى إسداء النصح لإدارة مؤسسة العمل فى مجال العلاقات الإنسانية لكى يرتفع الإنتاج ، وفى نفس الوقت تتحسن العلاقات الإنسانية داخل مؤسسة العمل .

١١- بواعث العمل : Work Incentives

لابد لكل سلوك يقوم به الإنسان من دوافع Motives تدفعه إلى القيام بهذا السلوك ؛ إذ يستحيل على عامل أن يذهب إلى مؤسسة العمل ويؤدى واجبات عمله دون أن تكون هناك دوافع نفسية تحفزه على ذلك، بحيث يصبح العمل بمثابة استجابة لهذه الدوافع وإرضاء لها. ولاشك ، أن العمل يرضى فينا دوافع كثيرة يصعب حصرها؛ كالحاجة إلى المأكل والملبس والمسكن، وتأكيد الذات، والانتماء إلى الجماعة، والإحساس بالأمن وبالحب وبالتقدير... إلخ.

وتستخدم الحوافز[١] لإثارة همم العاملين حتى يبذلوا أقصى طاقاتهم فى العمل والإنتاج، فيحققوا أقصى ما يمكنهم فيه من نجاح وتوفيق . ويعتبر المال الذى يعطى للعامل كأجر أو مكافآت تشجيعية من أهم البواعث الأساسية فى مجال العمل . وبطبيعة الحال، فالمال ليست له قيمة فى حد ذاته، وإنما تأتى قيمته من استخدامه كوسيلة لإشباع حاجات الفرد الأساسية وإرضائها؛ كالحاجات التى سبق أن أشرنا إليها من مأكل وملبس ... إلخ. لذلك، تهتم الإدارة بتطبيق أفضل نظم حساب الأجور ودفعها ، وحساب المكافآت وصرفها تحقيقًا لرفع الإنتاجية

١- الدكاترة عصمت المعايرجى وسيد عبد الحميد مرسى ونجيب اسكندر : الحوافز ، المعهد القومى للإدارة العليا، بالقاهرة ، عدد ٤٠ من سلسلة الدراسات ، ١٩٧٠ .

واستثارة لحماس الأفراد للعمل . فهل من الأفضل أن يدفع الأجر أو تحسب المكافآت على حسب مدى إنتاج العامل، أم على حسب اليومية بغض النظر عن الإنتاج ، أم على حسب الأقدمية ،فمن تكون له مدة خدمة أطول يكون أجره أعلى بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى، أم على حسب حاجة العامل، بحيث يعطى الأجر الأكبر لمن يكون أكثر حاجة بسبب مسئولياته العائلية مثلاً ، أم على أساس نظام متوسط يجمع بين نظامين أو أكثر من طرق حساب الأجر هذه؟ وعلى كل حال. فإن الدراسات العلمية والاعتبارات الإنسانية هما وحدهما اللذان سوف يقرران أفضلية نظام على غيره فى المواقف المعينة .

وهناك إلى جانب الباعث المالى بواعث أخرى لها قيمتها الكبرى وهى الحوافز المعنوية ؛ كالترقية (وإن كانت فى جانب منها تعتبر حافزاً ماليًا) وكالمدح والثناء لإشباع حاجة الفرد لأن يعترف به الآخرون ويقدرونه ويحبونه، وكؤوس الإنتاج التى يفوز بها من هم أكثر إنتاجًا ، وأنواط الجدارة التى تهدى إلى كل من أدى عملاً ممتازاً ، والمصايف والرحلات والمزايا المختلفة التى يختص بها المتفوقون فى أعمالهم ، ولوحات الشرف التى تدرج بها أسماء الممتازين فى أعمالهم .. إلخ .

وكما سبق أن ذكرنا ، فإن نظام البواعث فى مؤسسة العمل ينبغى أن تضعه الإدارة بناءً على دراسات ميدانية واقعية توضح أكثر هذه النظم فعالية ، وبناءً -أيضًا- على اعتبارات إنسانية معينة ؛ كالحفاظ على كرامة العامل وإحساسه بالأمن فى عمله . وليس نظام البواعث الذى يصلح فى مؤسسة معينة بالضرورة يكون مناسبًا فى غيرها ، كما أن نظام البواعث الذى يصلح لمؤسسة معينة فى مجتمع ذى نظام اقتصادى اجتماعى معين قد لايصلح لمؤسسة شبيهة فى مجتمع ذى نظام اقتصادى اجتماعى مختلف .. إلخ . والدراسات الواقعية وحدها هى الفيصل فى تحديد أى نظم البواعث يكون أكثر فاعلية لمؤسسة معينة ، ويشترك إخصائى علم النفس الصناعى بمناهج البحث السيكلوجى وأساليبه فى تصميم وإجراء هذه الدراسات ومعالجة نتائجها ، والخروج منها بتوصيات عما ينبغى أن يكون عليه نظام البواعث فى المؤسسة .

١٢- الروح المعنوية للعاملين : Morale

يقصد بالروح المعنوية للعاملين تلك الروح السائدة بين العاملين فى المؤسسة، والتى تتميز بالثقة فى المؤسسة وفى جماعة العمل، وبالتقدير الذاتى لدور كل عامل فى المؤسسة وأهميته

لجماعة العمل، وبالولاء والإخلاص لمؤسسة العمل ، وبالاستعداد للكفاح والنضال من أجل تحقيق أهداف المؤسسة والعمل على إنجاحها ، والمحافظة عليها ، والدفاع عنها ضد أى تهديد لها. ولاشك، أن العمل على رفع الروح المعنوية للعاملين والإبقاء عليها فى مستوى عالٍ هدف ينبغى أن تسعى كل إدارة إلى تحقيقه، فبدون الروح المعنوية العالية لن تحصل الإدارة على الإنتاجية المرضية ، ولن يتحقق للعاملين الراحة النفسية المنشودة .

ولاشك ، أن مراعاة الإدارة لتطبيق النتائج والأسس السيكلوچية المتعلقة بالموضوعات التى ناقشناها حتى الآن (العلاقات الإنسانية - الاختيار المهنى- التوجيه المهنى- التدريب- التأهيل- ظروف العمل الطبيعية - تقييم العمل- حوافز العمل ... إلخ) سوف تعمل على رفع مستوى الروح المعنوية لدى العاملين، مما سوف يؤدى -فى نهاية الأمر- إلى رفع الكفاية الإنتاجية، وزيادة مستوى الرضا بالعمل فى المؤسسة والراحة النفسية للعاملين . ويمكن أن نضيف إلى ذلك إشراك العاملين فى إدارة المؤسسة عن طريق ممثليهم. وتنظيم المؤسسة لرحلات يشترك فيها العاملون بمبالغ رمزية ، وعمل حفلات ترفيهية بين آن وآخر ، وإشراك العاملين فى نوادٍ ونشاطات رياضية ، وتهيئة خدمات طبية للعاملين وأسرهم بأجور رمزية ، وتهيئة مساكن اقتصادية للعاملين ، وتهيئة سبل مواصلات ميسرة لهم ... إلخ ؛ إذ إن كل ذلك سوف يسهم فى رفع روح العاملين المعنوية .

١٣- الإرشاد النفسى للعاملين : Psychological Counseling

يقصد بالإرشاد النفسى علاج المشكلات التوافقية التى يتعرض لها الفرد ، ولاتصل فى شدتها حد المرض النفسى، الذى نجده فى حالات العصاب أو الذهان. لاشك، أن وضع الفرد فى عمل يناسبه جسميًا ونفسيًا ، وتدريبه لرفع قدرته على أدائه ، وتهيئة علاقات إنسانية حسنة داخل مجال العمل، وتوفير ظروف طبيعية مناسبة للعمل، وتكييف الآلة لحدود الإمكانيات الشخصية للعامل، ورفع روح العامل المعنوية بالوسائل المختلفة ... سوف يقلل من مشكلات العامل التوافقية، ويحقق له مستوى أعلى من الراحة النفسية ، إلا أن هذا لايقضى تمامًا على مشكلات العامل التوافقية، ولايضمن له تحقيق الراحة النفسية بالدرجة المطلوبة ؛ إذ أن العامل إنسان له حياته الخاصة، ومشكلاته المختلفة التى تأتيه عن طريق علاقاته المتعددة فى بيئته التى يعيش فيها خارج العمل -ولاشك- تؤثر بالضرورة على نشاطه فى العمل . لهذا. لابد لنا- أيضًا - من الاستعانة بالإرشاد النفسى للعامل، حتى نقلل -قدر المستطاع- من

مشكلاته التوافقية، وتعمل على علاجها، أو التخفيف من حدتها، حتى لاتؤثر كثيراً على نجاحه فى عمله، وتقعده عن تأديته له على مستوى مرض . ومن أبرز مظاهر فشل الفرد فى عمله وسوء توافقه النفسى فيه ما نلاحظه من كثرة غيابه ، وسوء علاقاته مع الآخرين ، وتعرضه لإصابات العمل، وادعائه المرض ... إلخ .

ومن دراسة للباحث[١] عن سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة (باعتباره العامل الذى يمثل عقبة مباشرة ، أو غير مباشرة ، فى سبيل زيادة إنتاج المؤسسة كميًا أو كيفيًا) تبين أن الاضطرابات النفسية كانت أوضح فى العامل المشكل عنها فى العامل غير المشكل . وهكذا، تكون للإرشاد النفسى أهميته القصوى فى التقليل من مظاهر سوء التوافق بين العامل وعمله؛ حيث يعاون العامل على تحقيق التوافق داخل مجال العمل وخارجه عن طريق تناول مشكلاته بالدراسة المتعمقة والوصول معه فيها إلى علاج يزيل أسبابها أو يخففها . وأذكر مثالاً لما يمكن أن يحققه الإرشاد النفسى بالنسبة لأحد مظاهر سوء التوافق المهنى، وهو التعرض للحوادث، أن حوادث[٢] ١٥٤ عاملاً ممن تكرر تعرضهم لحوادث وعولجوا لمدة عام فى عيادة لتلافى وقوع الحوادث بشركة ملووكى للسكك الحديدية والكهرباء، قد نقصت فى المتوسط من ٢,٨ قبل العلاج إلى ٠,٥١ حادثة بعده، وهو متوسط يقل كثيراً عن متوسط وقوع الحوادث لجميع العمال بالشركة .

وهكذا ، يتبين كيف يمكن للإرشاد النفسى أن يؤدى خدمة كبيرة فى خفض مظاهر سوء التوافق بين العامل وعمله، مما يحقق للإدارة أهدافها سواء زيادة الإنتاج كمًا وكيفا ، أو بتحقيق الراحة النفسية للعاملين بالمؤسسة . أما فى حالات الاضطرابات النفسية الشديدة ، كتلك التى نجدها فى حالات مرضى العصاب أو الذهان، فإنها تحتاج إلى علاج نفسى شامل وعميق ، وفى هذه الحالة يقوم المرشد النفسى بتحويلها إلى أخصائى فى العلاج النفسى. فيعمل هذا على تناول البناء الأساسى لشخصية المريض بالدراسة العميقة والعلاج الشامل إلى أن يحقق للمريض الشفاء النفسى المطلوب .

١- فرج عبد القادر طه . سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة ، رسالة دكتوراة غير منشورة قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس تحت إشراف د. مصطفى زيور والسيد محمد خيرى فى ١٩٦٨ .

٢- المرجع السابق لفيتلس ، ص٨٥٠ .

١٤- الدعاية للمنتجات : Propaganda

يعتمد نجاح الإدارة إلى حد كبير ، وفى كثير من مؤسسات العمل، على نجاحها فى تسويق منتجاتها وتصريفها . وهو أمر يعتمد -إلى حد كبير- على نجاح الدعاية التى تتم لهذه المنتجات. فالإنسان كائن له رغبات بيولوچية ونفسية مختلفة لاتكف عن دفعه لإشباعها ، ويقوم الإنتاج أساسًا لإشباع هذه الحاجات . والمنتج الناجح هو الذى يحسن استغلال هذه الحقيقة السيكلوچية، فيصطنع مختلف الأساليب الممكنة لتصريف منتجاته بتعريف الجمهور بها، ودفعه للاعتقاد بأنها تشبع للمستهلك رغبات أساسية لاينبغى له أن يهملها أو يمهلها ، وأن الثمن الذى يدفع مقابلها لايوازى نسبة تذكر من الاستفادة التى تحققها له. ولهذا، تلجأ إدارة المؤسسة إلى أساليب الدعاية والإعلان عن منتجاتها بهدف توجيه اتجاهات الناس نحو طلب هذه المنتجات بالذات ، والتأثير على آرائهم حتى يحبذوا شراءها. والمؤسسة فى هذا لاتكتفى بمحاولة تحويل الناس عن طلب سلعة من غير منتجاتها إلى طلب سلعتها التى تنتجها هى، بل إنها -أيضًا- تجاهد لغرس حاجة جديدة لدى الناس لشراء سلعتها هذه. وتستخدم إدارة المؤسسة مختلف وسائل الإعلام التى تمتلك التوجيه فى الرأى ، والتأثير فى الاتجاه ؛ كالإذاعة والتليفزيون والسينما والجرائد والمجلات والملصقات والنشرات ، لتعلن بطريقها عن منتجاتها .

ويقدم علم النفس الأساس السيكلوچى للدعاية الناجحة ، وذلك بتطويع وتطبيق الحقائق السيكلوچية عن الدافع والإيحاء والإدراك الحسى والتذكر وتغيير الاتجاهات وتأثير الجماعة على الفرد . وغير ذلك من الجوانب النفسية التى تؤثر على فاعلية الدعاية والإعلان، سواء فى التصميم أو التنفيذ . ويحتاج الأمر من الإخصائى النفسى فى مجال الدعاية أن يستفيد من نتائج الدراسات السابقة فى تصميم وتنفيذ الدعاية والإعلان ، وأن يقوم -فى كثير من الأحيان- بعمل دراسات ميدانية أو معملية ترشده إلى أنسب تصميم وتنفيذ للدعاية والإعلان حتى يصل إلى أكبر عدد من الأفراد، ويتناول آراءهم بالتغيير حتى يحبذوا السلعة المعينة التى تنتجها المؤسسة، ويقبلوا بالفعل على شرائها، كنتيجة لنجاح الدعاية والإعلان فى استثارة الرغبة النفسية لدى الناس فى استهلاكها .

وبهذا العرض السريع للمجالات التى يقدم فيها علم النفس الصناعى خدماته لإدارة مؤسسة العمل، يتبين بوضوح أنه يسهم إسهامًا فعالاً فى إنجاح الإدارة ومساعدتها على تحقيق

أهدافها الأساسية، إذا ما طلبت الإدارة منه ذلك، وهيأت له فرصة الدراسة والتطبيق والإفادة، وما أحوج الإدارة إلى ذلك .

لكن، يتبقى سؤال عما إذا كان علم النفس الصناعى- بما يقدمه من خدمات فى مجال العمل- يخدم الإنتاج على حساب مصلحة العامل الشخصية ، بحيث يبدو موقفه غير إنسانى. إن الإجابة عن هذا السؤال (وربما استشفها القارئ من ثنايا هذا البحث) هى أن علم النفس الصناعى ، فى كل مجال من مجالات خدماته ، إنما يحقق فائدة متكاملة لكل من الإنتاج والعامل على نحو سواء[1].

تدريس الجامعة لعلم النفس الصناعى

بعد أن أوضحنا الأهمية الخاصة لعلم النفس الصناعى فى خدمة الإدارة مساعدة لها على تحقيق أهدافها، والوصول بها إلى أعلى مستوى ممكن من النجاح والتوفيق، ينبغى أن نتحدث عن موقف الجامعات المصرية من تدريس هذا العلم لطلبة اليوم، ومديرى مؤسسات العمل المختلفة وأقسامها، فى الغد.

ولسهولة العرض والمناقشة ، سوف نقوم بتقسيم هذا الحديث إلى ثلاث فقرات : الأولى نقصرها على الحديث عن تدريس علم النفس الصناعى فى أقسام التخصص بالجامعات ، والثانية عن تدريسه بالدبلومات العالية فى التخصصات المختلفة ، والثالثة عن إعداد رسائل الماجستير والدكتوراة فيه .

أولاً - تدريسه فى أقسام التخصص :

ونعنى بأقسام التخصص هنا تلك الأقسام الموجودة بكليات الجامعات، والتى تعطى درجة الليسانس فى تخصص علم النفس وحده (كما فى كلية الآداب- بجامعة عين شمس) أو فى تخصص مشترك بين علم النفس وغيره من العلوم، كالفلسفة، أو الاجتماع (كما هو الحادث فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكلية الآداب بجامعة الإسكندرية) .

١- فرج عبد القادر طه . علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج ، مجلة الفكر المعاصر ، مارس ١٩٧٠ .

والحقيقة تقال ، أن أقسام التخصص هذه قد أدركت أهمية تدريس علم النفس الصناعى ضمن موادها حتى تعد الصالحين لممارسة دور الإخصائى النفسى الصناعى فى مؤسسة العمل. ويتراوح عدد الساعات المخصصة لتدريس علم النفس الصناعى بها بين ساعتين وثلاث أسبوعيًا ولمدة عام دراسى كامل، وتشتمل فقرات علم النفس الصناعى بها على :

١- مواد نظرية، تشتمل على بيان أهمية علم النفس الصناعى ومجالاته ولمحة عن تاريخه، مع دراسات ومناقشات مستفيضة لموضوعات علم النفس الصناعى الأساسية، ونتائج أهم الدراسات والبحوث والتجارب فى كل منها ، كموضوعات تحليل العمل- تحليل الفرد- الاختيار المهنى- التوجيه المهنى- التدريب المهنى- التأهيل المهنى- الهندسة البشرية- تقييم العمل- تقييم الأداء - ظروف العمل الطبيعية- الأمن الصناعى- سيكلوچية القيادة والإدارة - الروح المعنوية- الاختبارات النفسية فى ميدان الصناعة - الدعاية والإعلان ... إلخ . وتهدف جميعها إلى إكساب المتخصص وعيًا بالأسس السيكلوچية لكل هذه الموضوعات ، وقدرة على نقد البحوث والدراسات التى أنجزها العلماء فى هذه الموضوعات ، واستعداداً لدراسة الأسس النفسية الكامنة وراء المشكلات التى تبرز فى ميدان العمل بطريقة منهجية علمية، ومهارة فى تطبيق الأسس السيكلوچية لخدمة ميدان الصناعة بصفة خاصة، والعمل بصفة عامة .

٢- تدريب الطالب عمليًا على إمكانية التطبيق العملى لما درسه نظريًا كتدريبه على كيفية تحليل العمل، وتطبيق الاختبارات النفسية، وإجراء المقابلة المهنية، وتحليل المواد الدعائية فى الصحف أو الإذاعة .. إلخ .

٣- قيام الطلبة بزيارة بعض المؤسسات التى يمارس الإخصائى النفسى الصناعى فيها دوراً ملموسًا للتعرف على جوانب هذا الدور وكيفيات ممارسته .

٤- تكليف الطالب ببحوث ودراسات نظرية وعملية عن بعض موضوعات علم النفس الصناعى ، يقوم بها الطالب لكى تؤخذ فى الاعتبار عند تقدير درجة أعمال السنة له . وقد يكتفى بتقديم هذه البحوث والدراسات على هيئة بحث مكتوب يقدم لأستاذ المادة، أو يضاف إلى ذلك تكليف الطالب بعرضه على هيئة محاضرة أمام زملائه ومناقشته فيه ، سواء من جانب أستاذ المادة أو الزملاء . وذلك لزيادة استيعاب الطالب للمادة ، وإكسابه خبرة بالبحث النظرى والعملى فى موضوعاتها .

وبطبيعة الحال، قد لاتسمح ظروف التدريس بتغطية كل هذه الفقرات، وما تشتمل عليه من موضوعات تغطية كافية ، وعلى مستوى مرض، ولكن -فى اعتقادنا- فإن أى أستاذ يقوم بتدريس مادة علم النفس الصناعى للمتخصصين بالجامعات يحاول قدر طاقته ، وحسب الظروف ، القيام بتغطية كل هذه الفقرات بموضوعاتها المختلفة على نحو مرض، حتى يحقق طلبته الاستفادة المنشودة من تدريس هذه المادة، ويعدهم إعداداً سليمًا للقيام مستقبلاً بدور الإخصائى النفسى الصناعى فى أى مؤسسة للعمل .

ثانيًا - تدريسه بالدبلومات العالية بالتخصصات المختلفة :

نقصد بالدبلومات العالية بالتخصصات المختلفة تلك الدبلومات التى تقبل طلبتها من خريجى الجامعة ومن تخصصات مختلفة، لتدرس لهم ما تهدف منه أساسًا إلى رفع كفاءة هؤلاء الطلبة ومهاراتهم بالنسبة للوظائف التى يقومون بأدائها فى مؤسسات العمل المختلفة . وبطبيعة الحال، نجد أن الكثير من هذه الدبلومات لايتقيد بقبول طلبته من خريجى الجامعة فى تخصص معين. بل نجده يقبل طلبته من خريجى الكليات والأقسام المختلفة بالجامعة، بحيث يدرس هذا الدبلوم ذوو التخصصات المختلفة؛ كدبلوم إدارة الأعمال الصناعية بكلية تجارة عين شمس ، حيث يدرس به طلبة من خريجى كليات الآداب والحقوق والتجارة والهندسة والزراعة.. إلخ، جنبًا إلى جنب ويحصلون فى نهايته على نفس المؤهل ، وتهتم بعض هذه الدبلومات فى التخصصات المختلفة ؛ كدبلوم إدارة الأعمال الصناعية بكلية تجارة عين شمس، والسابق ذكره، ودبلوم علم الاجتماع الصناعى بكلية الآداب جامعة القاهرة، ودبلوم العلاقات الصناعية بكلية آداب جامعة عين شمس بتدريس مادة علم النفس الصناعى ضمن المواد المفروض دراستها للحصول على الدبلوم ، ويختلف عدد الساعات المخصصة أسبوعيًا ، ولمدة عام دراسى كامل ،لتدريس علم النفس الصناعى بمثل هذه الدبلومات من ساعتين (كما فى دبلوم إدارة الأعمال الصناعية بتجارة عين شمس) إلى أربع ساعات (كما فى دبلوم الاجتماع الصناعى بآداب القاهرة) .

ولاتختلف طريقة تدريس علم النفس الصناعى والموضوعات والفقرات فيه عن طريقتها فى أقسام التخصص -على نحو ما سبق أن ذكرناه- إلا فى إضافة بعض موضوعات من فروع مختلفة لعلم النفس، سبق أن درسها المتخصص (كالقياس السيكلوجى- وعلم النفس المرضى- وعلم النفس الإكلينيكى- وعلم النفس التجريبى- وعلم النفس الدينامى ... إلخ) . والتى

نرى ضرورة الإلمام بها حتى يسهل تدريس موضوعات علم النفس الصناعى، حيث إننا لانفترض مسبقًا إلمام الطالب بها فى مثل هذه الدبلومات ، لذا ينبغى أن نقوم بتدريسها ضمن موضوعات علم النفس الصناعى حسب النسق المناسب لتدريس المادة . لهذا تدرس لمثل هؤلاء الطلبة ، بالإضافة إلى موضوعات وفقرات علم النفس الصناعى- السابق الإشارة إليها- موضوعات : مثل الفروق الفردية - مبادئ الفروق - الدوافع النفسية وأنواعها- الشخصية وجوانبها المختلفة- كيفية تصميم الاختبار النفسى والتأكد من اكتمال مواصفات القياس الجيد فيه .. إلخ .

ثالثًا - إعداد رسائل الماجستير والدكتوراة فيه :

إن عدد رسائل الماجستير والدكتوراة التى ناقشتها الجامعات المصرية فى علم النفس الصناعى ، أو سجلتها ولم ينته منها بعد أصحابها ، آخذ فى الازدياد بنسبة تزيد عن مثيلتها فى فروع علم النفس الأخرى. ورسائل الماجستير والدكتوراة التى نوقشت بقسم علم النفس بكلية آداب عين شمس خير دليل على ذلك .

وربما كان ذلك راجعًا إلى الإحساس المتزايد من جانب المتخصصين بأهمية هذا الفرع من علم النفس وتطبيقاته لخدمة نهضتنا الصناعية وتقدم مجتمعنا بصفة عامة . لكن هناك بعض العقبات التى تواجه القيام بمثل هذه البحوث العلمية، وربما كان من أبرزها :

١- عقبات التمويل : إذ لايخفى على أحد أنها تتم عن طريق التمويل الذاتى من جانب الباحث نفسه . فهو الذى يتحمّل كافة الأعباء المالية التى يتطلبها إتمام رسالته ، مما يجعل البعض يحجم عن مثل هذه الدراسات، ويجعل آخرين يتأخرون عن إتمامها فى وقت مناسب أو بشكل مرض . وكل هذا -فى نهاية الأمر- خسارة تلحق بالبحث العلمى وتعود على المجتمع . والأمل معقود على أن تتولى الجامعات، أو مؤسسات العمل المختلفة، مستقبلاً الإنفاق على هذه الدراسات، وتحمل كافة تكاليفها تشجيعًا للطالب، وتيسيراً عليه، وخدمة للبحث العلمى.

٢- عدم تفرغ الطالب لمثل هذه البحوث، فالغالبية العظمى من طلاب الماجستير والدكتوراة ملتحقة بوظائف رسمية، ويخضعون لقيود هذه الوظائف، من حيث الحضور والانصراف والتواجد فى مكان العمل ولوائح الإجازات ... إلخ ، وكلها قيود تعوق السرعة المطلوبة فى إنهاء هذه البحوث، بل وتشجع على الانصراف عنها بالنسبة لمن ابتدأها . وحبذا لو استصدرت

الجامعة قانونًا يجبر مؤسسات العمل على منح تفرغ فى حدود مدة معينة- بناءً على طلب المشرف على الرسالة - للطالب الموظف بها ، حتى تساعده وتحفزه على إنهائها على خير وجه، وفى أقصر وقت .

٣- نقص وعى بعض المسئولين بأهمية البحوث العلمية وقيمتها . وبالتالى يتراخون عن تقديم المساعدات والتسهيلات اللازمة لإنجاز البحث على خير وجه، إذا ما كان الباحث فى حاجة إلى مساعدتهم . بالإضافة إلى أنهم يتراخون - أيضًا - عن تطبيق ما يصل إليه الباحث من نتائج، أو يقدمه من توصيات بعد أن ينتهى من بحثه .

٤- نقص المراجع والدوريات والأدوات والأجهزة العلمية الحديثة ، والتى تمكن الباحث من الاستفادة فى بحثه من أحدث ما وصل إليه العلم .

٥- نقص البعثات أو الإجازات الدراسية إلى الخارج فى المقارنة بشدة حاجاتنا إليها، وبذلك تضيع على كثير من الباحثين المتخصصين فرصة الإلمام بالتكنيكات الحديثة التى تلزمهم لبحوثهم ، كما يصعب عليهم التعرف على أحدث ما وصل إليه العلم من نتائج ومكتشفات فى مجال تخصصهم وبحوثهم .

٦- عدم وجود مؤسسة تتولى نشر الرسائل الجامعية وتوزيعها لتعم الاستفادة منها، ولتحفز الباحث ماديًا ومعنويًا لاستكمال بحثه ،

٧- عدم وجود نظام تضعه الجامعة وتلتزم به لإيفاد أساتذتها كل مدةٍ محددةٍ ، وبشكل دورى إلى الخارج لزيارة الجامعات والمؤسسات الأجنبية، والتعرف على أحدث الأساليب المستخدمة فى التدريس والتدريب والتطبيق، وأحدث ما توصل إليه العلم فى الخارج وحتى يظل الأستاذ مسايراً للتقدم العلمى غير متخلف عنه ، سواء من حيث المادة التى يلقنها للطالب، أو المنهج الذى يعلمه إياه ، أو الموضوعات التى يقررها عليه، أو الإنتاج الذى يقوم به .

ولاشك ، أن ما ذكرناه فى هذا البند ، وما ذكرناه سلفًا فى البند الرابع ، مما يمثل - أيضًا - مشكلة بالنسبة لتدريس علم النفس الصناعى بصفة عامة ، سواء فى أقسام التخصص أو الدبلومات العالية .

خاتمـة :

وبعد ، فقد حاولنا فى هذا البحث أن نوضح حاجة الإدارة إلى مساهمات علم النفس الصناعى ، لترشيدها فيما يتعلق بتحقيق أهدافها الأساسية من وفرة للإنتاج وتحسين لنوعيته وتصريف له وتحقيق للراحة النفسية والرضا للعاملين فى المؤسسة التى تديرها . ولقد ضربنا الأمثلة من واقع الدراسات الإحصائية والميدانية ، التى أبرزت لنا الفوائد الضخمة التى تعود من مساهمات علم النفس الصناعى فى مجال الصناعة بصفة خاصة والعمل بصفة عامة، ورجاؤنا أن يعمل المسئولون عن الإدارة فى مجتمعنا على الاستفادة -قدر المستطاع- من تطبيقات علم النفس الصناعى وأسسه فى ميدان العمل والإنتاج . أما فى نهاية البحث، فقد حاولنا إعطاء صورة تقريبية لما عليه الحال من تدريس علم النفس الصناعى بالجامعات المصرية والمشاكل التى تعترضه ، راجين أن يعمل المسئولون بالجامعة على إدخال مادة علم النفس الصناعى فى المقررات المفروضة على الأقسام التى تخرج متخصصين فى المجال الصناعى أو الإدارى (سواء كانت هذه الأقسام تابعة لكليات التجارة أم الحقوق أم الهندسة أم الآداب أم غيرها) مع العمل على علاج مشكلات تدريسه على نحو ما عرضنا .

* * *

المراجـع :

١- أ. براون : علم النفس الاجتماعى فى الصناعة ، ترجمة السيد محمد خيرى وسمير نعيم ومحمود الزيادى، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .

٢- أحمد عزت راجح : علم النفس الصناعى ، القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ .

٣- السيد محمد خيرى : علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية ، القاهرة ، دار النهضة العربية .

٤- السيد محمد خيرى : الصحة النفسية والصناعة ، مجلة الصحة النفسية ، مجلد : ١، عدد : ١ ، ١٩٥٨ .

٥- سيد عبد الحميد مرسى : العلاقات الإنسانية فى مجال الإدارة ، المعهد القومى للإدارة العليا بالقاهرة، عدد ٣٩ من سلسلة الدراسات ، ١٩٧٠ .

٦- عبد المنعم المليجى : خبراء النفوس ، مكتبة مصر، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٧- عصمت المعايرجى وسيد عبد الحميد مرسى ولجيب اسكندر : الحوافز ، المعهد القومى للإدارة العليا بالقاهرة ، عدد ٤٠ من سلسلة الدراسات، ١٩٧٠ .

٨- فرج عبد القادر طه : العلاقة بين الإصابات فى الصناعة والصفحة النفسية للذكاء، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٦٥ .

٩- فرج عبد القادر طه : سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، قدمت لكلية الآداب جامعة عين شمس ، ١٩٦٨ .

١٠- فرج عبد القادر طه : علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج، مجلة الفكر المعاصر ، مارس ١٩٧٠ .

١١- كنيث هاملتون : أسس التأهيل المهنى، ترجمة الدكتور سيد عبد الحميد مرسى، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢ .

١٢- مصطفى سويف : علم النفس الحديث ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧ .

١٣- موريس فيتلس : فى : فصل «علم النفس المهنى» من كتاب ميادين علم النفس الذى أشرف على تأليف جيلفورد ، ترجمة الدكتور أحمد زكى صالح، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٥٦ .

١٤- نورمان ماير : علم النفس فى الصناعة ، ترجمة الدكاترة محمد عماد الدين إسماعيل وصبرى جرجس وأمين كمال محمد ، القاهرة ، مؤسسة الحلبى ، ١٩٦٧ .

١٥- يوسف مراد : دراسات فى التكامل النفسى ، القاهرة ، مؤسسة الخانجى، ١٩٥٨ .

١٦- Eysenck . H . J : Uses and Abuses of Psychology, Pelican Book , 1955 .

١٧- Ghiselli and Brown : Personel and Industrial Psychology, Mc Graw Hill , Tokyo, 1955 .

١٨- Michael Argyle : Psychology and Social Problems , Associated Book Publishers, London , 1967 .

١٩- Tiffin and McCormick : Industrial Psychology , Prentice Hall, 1968 .

نظرة على «علم النفس الصناعى والتنظيمى»*
فى مواكبته لـ «الجمعية المصرية للدراسات النفسية»

تمهيـــد :

«علم النفس الصناعى والتنظيمى Industrial and Organizational Psychology » ، أو ما نطلق عليه اختصاراً «علم النفس الصناعى» هو أحد الفروع التطبيقية الهامة لعلم النفس فى خدمة المجتمع ، مستهدفًا أساسًا رفع الكفاية الإنتاجية Efficiency ، سواء للفرد أو مؤسسة العمل بصفة خاصة ، أو المجتمع كله بصفة عامة ؛ مع تحقيق وضمان أفضل مستوى ممكن من الراحة النفسية والجسمية للعاملين والمنتجين .

ومن هنا ، يكتسب علم النفس الصناعى أهميته الكبرى للمجتمعات البشرية عمومًا وللمجتمعات النامية أو المتطلعة للنمو خصوصًا ؛ حتى تُضيِّق الفجوة بينها وبين المجتمعات المتقدمة ؛ حيث تكون مثل هذه المجتمعات أحوج إلى كل التطبيقات العلمية المختلفة – بما فيها تطبيقات «علم النفس الصناعى والتنظيمى» – لتساعدها فى سرعة تحقيق النمو الشامل والتقدم المنشود؛ حتى تلحق بالمجتمعات المتقدمة، وتقوى على مقاومة ضغوطها، وصد أطماعها . وهنا نجد أن «علم النفس الصناعى والتنظيمى» ببحوثه المختلفة، وبوسائله التطبيقية المتنوعة، يسهم إسهامًا جاداً وهامًا فى رفع مستوى الإنتاج كمًا وكيفًا دون حاجة إلى بذل مزيد من الجهد أو الإنفاق أو الوقت باستخدام أساليبه العلمية المختلفة ووسائله التطبيقية المتعددة ، وغير المكلفة فى الوقت نفسه ، أو على الأقل تكون قليلة التكلفة نسبيًا فى المقارنة بفوائدها الكثيرة وعوائدها الكبيرة . وكل ما يحتاجه هذا الأمر هو اقتناع المسئولين بهذا العلم ودعوتهم وتهيئتهم الظروف المناسبة لمتخصصيه ، ليقوموا بالإسهام بأساليبهم العلمية ووسائلهم التطبيقية .

---

* كتب هذا البحث بعد أن عرضت أفكاره الأساسية فى كلمة ألقيت فى «المؤتمر الرابع عشر لعلم النفس فى مصر» ، والذى عقدته «الجمعية المصرية للدراسات النفسية » فى «كلية التربية بجامعة عين شمس» بالقاهرة بين ٢٣ و ٢٥ فبراير عام ١٩٩٨ ؛ وذلك بمناسبة اليوبيل الذهبى للجمعية، ثم نشر فى المجلة المصرية للدراسات النفسية (الجمعية المصرية للدراسات النفسية بالقاهرة) : مجلد : ٨ ، عدد : ٢٠، سبتمبر ١٩٩٨ ، ص ص٨–٢٧ .

لمحة تاريخيــة :

«فى تمام الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين ٢٣ فبراير ١٩٤٨ الموافق ١٣ ربيع الثانى ١٣٦٧هـ ، بدار المعهد العالى للتربية للمعلمين بالمنيرة (كلية التربية جامعة عين شمس فيما بعد) اجتمعت الهيئة التأسيسية للجمعية المصرية للدراسات النفسية المؤلفة من تسعة عشر عضواً لمناقشة مواد مشروع قانون خاص بإنشاء (الجمعية المصرية للدراسات النفسية). وقد أقرت الهيئة التأسيسية للجمعية مشروع القانون بعد إدخال بعض التعديلات عليه ... وتحددت أهداف الجمعية فى النهوض بالدراسات النفسية من الوجهتين العلمية والتطبيقية، والتعاون مع البلاد العربية للنهوض بهذه الدراسات فى المجتمع العربى ... وهكذا، تم فى هذا اللقاء التاريخى إنشاء هذه المؤسسة العلمية العريقة ... وقد أجريت فى هذا الاجتماع الخالد الانتخابات لأول مجلس (إدارة) للجمعية المصرية للدراسات النفسية، حيث انتخب الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصى رئيسًا ، والأستاذ الدكتور يوسف مراد وكيلاً (نائبًا للرئيس)، كما انتخب تسعة أعضاء (آخرون) «... (فؤاد أبوحطب : ١٩٩٨ ، ٧) . ومن الصدف الطريفة أن يأتى ٢٣ فبراير ١٩٩٨ -يوم الاثنين أيضًا- ليتم خمسين عامًا كاملاً من سن الجمعية النفسية، وأن يكون اجتماعنا للاحتفال بعيدها الخمسينى (يوبيلها الذهبى) يوم الاثنين أيضًا.

ولعل من الصدف -المبنية على حسن تقدير للقيمة العلمية وللمكانة العالمية فى الآن نفسه- أن يُنتخب أستاذنا المرحوم الدكتور عبد العزيز القوصى (١٩٠٦-١٩٩٢) أول رئيس للجمعية الوليدة ، وأستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد (١٩٠٢-١٩٦٦) أول نائب لرئيسها. فقد كانا من أكبر أعلام علم النفس فى مصر والوطن العربى آنذاك . وكانت إسهاماتهما العلمية السيكلوجية محل تقدير المجامع العلمية ، عربية وأجنبية (فرج عبد القادر طه : ١٩٩٣ ؛ ٦٣٩ - ٦٤٢ ، ٧٠٢ - ٧٠٤) .

علم النفس الصناعى وكبار الرواد :

إذا ما نظرنا فى سير كبار رواد علم النفس فى مصر ، وعلى الأخص أهمهم أثرًا وأعظمهم قيمة : عبد العزيز القوصى (فى كلية التربية بجامعة عين شمس) ، ومصطفى زيور (١٩٠٧-١٩٩٠) فى كلية الآداب بجامعة عين شمس ، ويوسف مراد (فى كلية الآداب بجامعة القاهرة) ، وأحمد عزت راجح (١٩٠٨-١٩٨٠) فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية؛

فإننا نجدهم قد تنوعوا ؛ أولاً : فى تخصصات درجاتهم العليا فى علم النفس ، وثانيًا : فى اهتماماتهم المهنية ، وثالثًا : فى آثارهم البحثية ، ورابعًا : فى مؤلفاتهم وكتاباتهم العلمية (راجع سير هؤلاء بشىء من التفصيل فى : فرج عبد القادر طه : ١٩٩٣ ؛ ٦٣٩-٦٤٢ ، ٣٧٢-٣٧٧ ، ٧٠٢-٧٠٤ ، ٣٥٣-٣٥٤- على التوالى) ؛ فالقوصى قد تخصص فى التحليل العاملى والقياس النفسى ، وزيور قد تخصص فى الطب والتحليل النفسى، ومراد قد تخصص فى بزوغ الذكاء والنمو النفسى والعقلى، وراجح قد تخصص فى القياس والتوجيه المهنى . إلا أن الاهتمامات المهنية والبحثية والتأليفية قد تنوعت فى الواحد منهم بعد عودتهم من بعثاتهم ليستطيعوا ملء الفراغ فى الساحة العلمية، والذى كان يعانيه علم النفس، نظراً لقلة المتخصصين، ولكى يستجيبوا -أيضًا- للظروف الخاصة التى أتيحت لكلٍ منهم . فها هو القوصى يوجه اهتمامًا أكبر إلى المجالات التطبيقية التربوية خاصة ، وها هو زيور يوجه اهتماماته إلى العلاج بالتحليل النفسى والترجمات والتأليفات فيه ، وها هو مراد يوجه اهتمامه إلى التأليف والترجمة فى مختلف فروع علم النفس، علاوة على الصحافة النفسية، فيصدر مع زميله زيور أول مجلة متخصصة وجادة فى علم النفس بالعربية والإنجليزية والفرنسية كانت لها شهرتها العالمية ، وها هو راجح يركز اهتمامه فى التأليف فى فروع مختلفة من علم النفس ، خاصة العام والصناعى ، جنبًا إلى جنب مع ترجمة لمحاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى (لفرويد) ، لايقوى على دقتها وجمال أسلوبها وأناقته إلا من أوتى موهبته اللغوية، وأناقة عبارته العربية . كل هذا إلى جانب واجبات كلٍ منهم التى أملتها عليهم وظائف الأستاذية بالجامعة من محاضرات وإشراف على بحوث طلبة الدراسات العليا فى فروع علم النفس المتنوعة ، مع إنشاء أقسام علمية جامعية ، والإشراف على وضع برامجها وعمل تجهيزاتها ...

وفى هذا الإطار ، كان لعلم النفس الصناعى - كفرع من فروع علم النفس - نصيب كبير من اهتمام كلٍ من هؤلاء الرواد إلى جانب الاهتمام الأساسى لكلٍ منهم ، وإن اختلفت درجة تركيز كلٍ منهم واهتمامه بهذا الفرع . فكلهم أشرف على رسائل ماجستير ودكتوراة ، كان بعضها فى التخصص المباشر لعلم النفس الصناعى ، أو فى موضوعات مرتبطة به . كما أن بعضهم قد ألف فيه تأليفًا مباشراً أو ترجم فيه . فأول كتاب علمى متكامل يصدر فى مصر بعنوان : «علم النفس الصناعى» كان من تأليف أحمد عزت راجح ، حيث صدرت طبعته

الأولى عن مؤسسة المطبوعات الحديثة عام ١٩٦١ . وفى طبعته الثانية التى صدرت عام ١٩٦٥ عن الدار القومية للطباعة والنشر يضيف تحت العنوان الرئيسى للكتاب عنوانًا فرعيًا له هو «المواءمة المهنية - الهندسة البشرية - العلاقات الإنسانية» . كما يترجم راجح -أيضًا- كتاب «علم النفس التطبيقى» الذى ألفه هنرى ڤالون لوزارة التربية والتعليم ؛ مما يدخل مباشرة فى مجال علم النفس الصناعى ، حيث يشتمل الكتاب على أربعة أقسام تحت عناوين: سيكلوچيا الشغل - القدرات : طريقة الاختبارات - النشاط المهنى- الدوافع والنتائج النفسية للنشاط : استغلالها . (نشر مكتبة مصر ، بدون تاريخ) . وقد علق عليه يوسف مراد فى العام التالى لنشره بقوله : «فيكاد يكون هذا الكتاب مع عدد مجلة علم النفس الخاص بعلم النفس الصناعى (وسوف نتحدث عن هذا العدد فى مقالنا هذا فيما بعد) الصادر فى فبراير ١٩٤٨ كل ما تحويه المكتبة العربية فى هذا الميدان الحيوى» (يوسف مراد : ١٩٥٤ ؛ ٣١٣).

أما يوسف مراد فإنه فى كتابه المعنون «دراسات فى التكامل النفسى» والذى نشرته مؤسسة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٥٨ ، فيكتب فصلين ضافيين عن علم النفس الصناعى ؛ هما الفصل السادس بعنوان : «علم النفس الصناعى» والفصل السابع بعنوان : «الدراسات النفسية فى خدمة الصناعة» . ومن بين اهتمامات مراد بالترجمة إشرافه على ترجمة الكتاب الذى أشرف على تأليفه ج . ب جيلفورد، ونشرته دار المعارف بمصر فى جزئين فى سلسلة «منشورات جماعة علم النفس التكاملى» التى كونها وأشرف على إصداراتها يوسف مراد نفسه. ولقد صدرت الترجمة فى جزئين : الأول عام ١٩٥٥ خاصًا بالميادين النظرية ، والثانى فى العام التالى خاصًا بالميادين التطبيقية. وفى هذا الجزء الثانى-الخاص بالميادين التطبيقية- نجد أربعة فصول مباشرة فى تخصص علم النفس الصناعى تستغرق أكثر من نصف هذا الجزء تحت عناوين : «الكفاية العقلية لدى الفرد» و«علم النفس المهنى : إعداد العامل لعمله» و«علم النفس المهنى : المحافظة على الأهلية للعمل» و«سيكلوچية المهن الحرة» (وعلم النفس المهنى هو تسمية أخرى لعلم النفس الصناعى شاعت عنه قبل انتشاره ، وفى مراحل ظهوره المبكرة ، وتكاد تختفى الآن)، وهى الفصول أرقام : ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ من هذا الكتاب .

ويشارك زيور زميله مراد ، بصفتهما رئيسى تحرير «مجلة علم النفس» ، الاهتمام بعلم النفس الصناعى ، فيصدران عدداً خاصًا من المجلة (العدد : ٣ ، مجلد : ٣ ، فبراير ١٩٤٨) عن «علم النفس الصناعى والتوجيه المهنى» مع عنونته به . ولعل من الصدف الطريفة أن

يصدر هذا العدد متزامنًا مع ميلاد الجمعية المصرية للدراسات النفسية فى ذات الشهر والسنة، حيث احتل يوسف مراد منصب نائب رئيسها ، كما سبق أن ذكرنا . وفى هذا العدد، نجد يوسف مراد يكتب عن «علم النفس الصناعى وضرورة تنظيمه فى مصر» ، وزكريا إبراهيم (أستاذ الفلسفة فيما بعد والذى كان يهوى علم النفس) يكتب عن «التوجيه المهنى بين الأسرة والمدرسة » ، وعبد العزيز عبد المجيد عن «التوجيه المهنى والتعليم بمصر»، وأحمد عزت راجح عن «المهارة اليدوية» ، وجـ . هـ . جرين عن «علم النفس والدعاية»، وصبرى جرجس عن «حوادث الصناعة وإصابات العمل» ، وحسن الساعاتى عن «الخدمة الاجتماعية العمالية» ، ومحمود الراوى عن «سيكلوچية الإضراب» ، ومحمود أمين العالم (الصحفى والمفكر وخريج الفلسفة المعروف) يكتب عن «الإنسان والمهن الصناعية» ، وأبو مدين الشافعى عن «أثر التعب فى العمل الإنسانى» وهوراس إنجلش H. B. English (عالم النفس الأمريكى الشهير يكتب فى القسم الإنجليزى من المجلة «شرح التحليل العاملى (بدون رياضة) Factor Analysis Explained "Without Mathematics" . وفى «باب الكتب الجديدة » يعرض لنا زكريا إبراهيم عرضًا ناقداً لكتاب أندرى كورثيال Andrée Courthial «المدخل إلى دراسة التوجيه المهنى Introduction a` L'étude de L'Orientation Professionnelle» الصادر عام ١٩٤٦ . ويدلل هذا على وعى مبكر فى مصر بماهية علم النفس الصناعى وأهميته متزامنًا مع ميلاد الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، رغم حداثة هذا الفرع آنذاك على المستوى العالمى . حيث لم يكن قد مضى أكثر من ثلاثة أعوام على اعتراف جمعية علم النفس الأمريكية به ، حيث خصصت عام ١٩٤٥ قسمًا له بها هو القسم رقم ١٤: (Gilmer 1971;19) ، هذا -بطبيعة الحال- بخلاف المقالات والموضوعات التى تقع فى اختصاص علم النفس الصناعى ، أو ذات الصلة بمجاله والتى تنتشر على امتداد مجلة علم النفس من أول مجلد لها صدر فى عام ١٩٤٥ حتى آخر مجلد صدر لها فى عام ١٩٥٣ (المجلد الثامن) .

وحتى بعد توقف «مجلة علم النفس» عن الصدور فى منتصف عام ١٩٥٣ ، انفرد يوسف مراد عام ١٩٥٤ بالإشراف على إصدار «الكتاب السنوى فى علم النفس» كامتداد لمجلة علم النفس تحت مسمى آخر وعن «دار المعارف بمصر» ، وهى نفس الدار التى أخذت على عاتقها فى الماضى نشر مجلة علم النفس . وكان اهتمام الكتاب السنوى بعلم النفس الصناعى شديد الوضوح، حيث نجد فيه مولود قاسم يترجم مقالة لبسكوازى R. Pasquasy ، المنشور أصلها

فى هذا الكتاب السنوى نفسه عن «التوجيه المهنى فى الجيش البلجيكى L' Orientation Professionnelle A L' Armee Belge » ، وصبرى جرجس يكتب عن «التأهيل والرعاية اللاحقة فى ميدان الصحة العقلية»، وأحمد عزت راجح عن «الاختبار الشخصى والاختبارات السيكلوجية فى انتقاء طلبة الجامعات وغيرهم» ، ومختار حمزة عن «تأهيل العجزة وذوى العاهات» ، ويوسف مراد عن «زيادة القدرة الإنتاجية لدى العميان» ، ومحمد عزت حجازى يترجم ما كتبه چان كاردينييه Jean Cardinet بالفرنسية خصيصًا لهذا الكتاب عن «أفضل توزيع للمجندين على وظائف الجيش المختلفة Le Classement Optimum du Contingent Entre le Divers Emplois Militaires» . كما أن المقالة نشرت -أيضًا- بلغتها الأصلية فى القسم الإنجليزى- الفرنسى من هذا الكتاب ، وأميرة حلمى تلخص محاضرة پ جوجلان P. Goguelin التى ألقيت فى المؤتمر الدولى الحادى عشر لعلم النفس التطبيقى فى باريس فى شهر يوليو ١٩٥٣ فى «العوامل السيكلوچية لزيادة الإنتاج فى المؤسسات الصناعية Psychological Factors Capable of Increasing Productivity in a Firm» .

وفى باب الكتب الجديدة ، نجد يوسف مراد يكتب مقالاً بعنوان «دراسات حديثة فى علم النفس الصناعى» يعرض فيه عرضًا ناقدًا لكتاب «علم النفس فى الصناعة لستانلى جراى J. Stanley Gray : Psychology in Industry , 1952 » ؛ و«دراسة الزمن والحركة لآرثر سلفستر L. Arthur Sylvester : The Handbook of Advanced Time - Motion Study , 1950 » ؛ و «مطالعات فى علم النفس الصناعى وسيكلوچية الأعمال - بإشراف كارن وجيلمر "Readings in Industrial and Business Psychology ; Edited by; Harry Karn & Haller Gilmer, 1952 » ، و«علم النفس التطبيقى -السابق ذكره- من تأليف هنرى ڤالون ، وترجمة أحمد عزت راجح ، ١٩٥٣». كما يقوم يوسف مراد -أيضًا- بعرض كتاب «التقدم الصناعى والتكامل الاجتماعى - تأليف سكوت ولنتون ، ١٩٥٣» من منشورات اليونسكو .

وفى بداية عام ١٩٥٨ ، يتولى مصطفى زيور رئاسة تحرير «مجلة الصحة النفسية» التى تبدأ فى الصدور عن «الجمعية المصرية للصحة العقلية» . وفى عددها الأول (يناير - أبريل ١٩٥٨) يستكتب زيور زميلين له هما السيد محمد خيرى ولويس كامل مليكة فى موضوعين من موضوعات علم النفس الصناعى، فيكتب أولهما عن «الصحة النفسية والصناعة»، ويكتب الثانى عن «إعداد القادة وتدريبهم».

وعندما يتولى زيور فى أوائل الخمسينيات إنشاء ورئاسة أول قسم لعلم النفس بالجامعات المصرية (قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة عين شمس) . يضع مادة دراسية مستقلة فى السنة الرابعة باسم «علم النفس المهنى» ، وهو -كما سبقت الإشارة- كان التسمية المبكرة لعلم النفس الصناعى .

ولعل ما سبق أن عرضناه حتى الآن- مجملاً أحياناً أو مفصلاً فى أحيان أخرى- يؤكد أن كبار رواد علم النفس فى مصر يولون علم النفس الصناعى عناية خاصة تزامنت وقويت مع إنشاء الجمعية المصرية للدراسات النفسية ؛ التى أخذ أعضاؤها على عاتقهم دعم ونشر علم النفس وتطبيقاته فى مصر والعالم العربى ؛ كما سبق أن أشرت فى بدايات هذا المقال عند الحديث فى اللمحة التاريخية .

علم النفس الصناعى مع ثورة يوليو ١٩٥٢ :

عندما قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ ، لم يكن علم النفس الصناعى بمصر أكثر من اهتمام نظرى يُدَرِّسه الأساتذة كموضوعات متفرقة ضمن مقررات أشمل ، أو يكتب فيه العلماء ويدبجون مقالات ينشرونها فى المجلات العلمية أو الثقافية التى كانت تصدر آنذاك . ولم تكن الظروف التاريخية التى يمر بها المجتمع المصرى قد نضجت بعد إلى حد القيام بالاستفادة التطبيقية منه وجنى ثماره الهائلة من منجزاته فى الواقع الميدانى. فقد كان عدد المتخصصين فى علم النفس قليلاً ؛ كما كانت المؤسسات الصناعية والإنتاجية قليلة العدد ، ضعيفة الإمكانيات . علاوة على أن إمكانيات المجتمع ومقدراته كانت آنذاك فى أيدى طبقة من المستعمرين والمتعاونين معهم ، لايهمها كثيراً التقدم الفعلى والنمو الحقيقى للمجتمع ، يصاحب كل ذلك نسبة كبيرة من الأمية، وضعف شديد فى التوجه العلمى للمجتمع . يضاف إلى كل ذلك الحداثة النسبية لعلم النفس الصناعى وتطبيقاته الميدانية فى العالم ككل ؛ حيث إن تطبيقاته لم تبرز وتنتشر فى العالم على مستوى واضح إلا مع الحرب العالمية الثانية، وبصفة أخص بعدها . ومن هنا ، كانت الإرهاصات النظرية فى مصر عن علم النفس الصناعى بعد الحرب العالمية الثانية ومع بدايات الثورة ، على نحو ما سبق أن عرضت فى هذا المقال .

وما أن جاءت الثورة ، حتى أصبح الظرف التاريخى للمجتمع المصرى أكثر استعداداً لتطبيقات علم النفس الصناعى ، وأكثر وعياً بأهميته ، وأكثر حماساً للتوجهات العلمية

عمومًا . فها هو النظام الجديد يريد أن يحارب المحسوبيات والرشوة والفساد الإدارى فى تعيين الموظفين ؛ فيبكر بإنشاء «ديوان الموظفين» فى عام ١٩٥٣ ليكون مسئولاً - ضمن مسئوليات أخرى- عن تعيين الموظفين الجدد بالدولة ، بناءً على اختيار موضوعى يقوم به خبراء علميون متخصصون . وحتى يمكن لمدير ديوان الموظفين أن يرد ضغوط كبار المسئولين لتعيين من يتوسطون لهم من ذوى القربى أو النسب أو المصالح المتبادلة أو المجاملات الشخصية ... كان مدير الديوان بدرجة وزير ، حيث عين المرحوم حمدى إبراهيم فى هذه الوظيفة . وتتصادف عودة المرحوم السيد محمد خيرى حاملاً الدكتوراة فى علم النفس (تخصص الإحصاء والقياس النفسى) من بعثته فى انجلترا فينتدب مشرفًا على القسم النفسى بديوان الموظفين ؛ ويعين بدوره ، أو ينتدب من يساعدونه من خبراء ومتخصصين نفسيين فى إعداد وتطبيق الاختبارات النفسية والمقابلات الشخصية على المتقدمين للتعيين فى الوظائف الشاغرة .

وتتوجه الثورة للاهتمام بالصناعة ، حيث ترى فيها الفرصة الكبرى للنهوض بالمجتمع المصرى ؛ فالزراعة قليلة العائد إذا قورنت بالصناعة ، كما يحدها ضيق الرقعة الزراعية ، وخضوعها لتقلبات موارد النيل المائية ، وهى أمور تخضع للصدفة التى لايمكن التنبؤ بها ، أو الاطمئنان إليها . ومن بداية التخطيط للتحول الصناعى لابد أن يكون على أساس علمى سليم، وأن تستحدث وزارة خاصة للصناعة ، بعد أن كانت جزءًا فى «وزارة التجارة والصناعة». ويتم ذلك فى منتصف الخمسينيات، حيث يُعين عزيز صدقى وزيراً للصناعة فى عام ١٩٥٦ ؛ وبمساعدات أجنبية ينشئ ويدعم وينشر مراكز تدريب مهنى فى أنحاء مصر ؛ يدرس بها الحاصلون على الإعدادية العامة دراسات نظرية وعملية وميدانية بالمصانع والشركات على نظام التلمذة الصناعية لمدة ثلاث سنوات. وهذه المراكز يختص كل واحد منها بالإعداد لمهنة معينة ، فهذا للنجارة ، وذاك للميكانيكا ، وغيره للكهرباء ، وآخر للزجاج أو الجلود ... بغية تخريج كوادر صناعية، وبناء قاعدة مدربة ومؤهلة على مستوى علمى جيد لتنهض الصناعة فى مصر على أكتافها. ولقد انتدب السيد محمد خيرى-أيضًا- للإشراف على القسم النفسى بمصلحة الكفاية الإنتاجية، التى تتبع لها هذه المراكز بوزارة الصناعة ، فاستعان بتلاميذه من الإخصائيين النفسيين، الذين بدأ يخرجهم قسم الدراسات النفسية بكلية الآداب بجامعة عين شمس، لإنجاز مهمة الاختيار المهنى السليم للتلاميذ المناسبين من المتقدمين سنويًا

لمراكز التدريب هذه ، وتصنيفهم على أنواع المهن المختلفة ، حسب مدى مناسبة كلٍ منهم للمركز المهنى المعين ، وفق نتائج الاختبارات النفسية والمقابلات الشخصية التى تجرى لكلٍ منهم ؛ حيث تشير إلى صلاحية هذا للتدريب فى مركز الجلود ، بينما يصلح ذاك للتدريب فى مهنة الميكانيكا، وغيره للتدريب فى مهنة الزجاج ، ورابع للتدريب فى مهنة النجارة ... وهكذا ... بينما غيرهم لايصلح للتدريب فى أى مهنة ، ومن ثم يستبعد نهائيًا ويرفض . ولقد زاد عدد المتقدمين لهذه المراكز التدريبية فى بعض السنوات عن الآلاف العشرة من التلاميذ (Taha, Farag: 1982) .

وفى أوائل السبعينياتِ من القرن العشرين ؛ أصبحت وزارة القوى العاملة فى مصر مهتمة بتطبيق الاختبارات النفسية والمقابلات الشخصية فى مكاتب التوجيه المهنى التابعة لها ، والمنتشرة فى أنحاء مصر. كما تستخدم وزارة الشئون الاجتماعية - أيضًا- وتستفيد من خدمات علم النفس الصناعى والتنظيمى فى بعض مصالحها ، وفى كثير من المؤسسات ومراكز الخدمات الاجتماعية والتأهيلية التى تشرف عليها ؛ مثل مؤسسة «يوم المستشفيات والتأهيل المهنى» ، و«المركز النموذجى لرعاية وتوجيه المكفوفين»، ومراكز «التربية الخاصة» ، ومعاهد «التثقيف الفكرى» ومراكز «الصم والبكم» ... ومنذ السبعينيات أصبحت وزارة التربية والتعليم مهتمة أكثر بالخدمات النفسية فى مدارسها التى كرستها «للتربية الخاصة» ؛ حيث توجيه وتدريب وتأهيل التلاميذ غير العاديين ؛ مثل المكفوفين والصم والبكم وضعاف العقول... وفى كل هذه المراكز والوزارات ، وأيضًا فى كثير غيرها من المؤسسات الحكومية والخاصة، ينتشر الإخصائيون النفسيون الذين يمارسون واجبات ومسئوليات وتطبيقات علم النفس الصناعى، مع مزجها -أحيانًا- بواجبات وتطبيقات علم النفس الإرشادى أو الإكلينيكى، مع الاستعانة -غالبًا وفى الوقت ذاته- بالقياس النفسى والمقابلات الشخصية، (فرج عبد القادر طه : ١٩٩٧ ، ٣٢- ٣٥) .

علم النفس الصناعى من عقد الستينيات حتَّى أواخر القرن العشرين :

إذا كانت مرحلة كبار الرواد فى مسيرة علم النفس الصناعى قد وضعت البذرة الأولى لهذا العلم فى التربة المصرية، بتقديمه لنا وتنبيهنا إلى أهميته لخدمة المجتمع وتنميته الإنتاجية على المستوى النظرى، بطرح مقالات وكتابات متفرقة فيه، فإن قيام الثورة تلاه مباشرة ظهور نبتة هذه البذرة ببدء تطبيقاته الفعلية فى المجتمع فى ديوان الموظفين، ثم فى وزارة الصناعة على نحو ما سبق أن أشرت ، مع امتداد هذه التطبيقات وانتشارها فى مواقع أخرى من مواقع

العمل والانتاج. وظل الحال هكذا يقوى ويزداد ، خاصة مع تخريج الدفعة الأولى من المتخصصين النفسيين من كلية الآداب جامعة عين شمس ، والذين تلاهم فى السبعينيات متخصصون من كلية الآداب جامعة القاهرة ، وما تلاهما من جامعات مصرية أخرى .

والحق أن هذا التطور الإيجابى، وبروز تطبيقات علم النفس الصناعى لخدمة المجتمع المصرى مع ظهور الثورة ، ونموه الواضح مع بداياتها ، لم يكن فريداً ؛ حيث أنه صاحب تطورات وتوجهات علمية هامة فى مجالات أخرى ؛ كالتعليم والصحة القروية والشئون الاجتماعية ؛ حيث كانت الثورة فتية تريد أن تنشر وتجسم أفكارها التنموية ، وتوجهاتها العلمية ، وإصلاحاتها الاجتماعية ، مع ما يصاحب كل ذلك من عدالة ومساواة .

وما أن بدأ عقد الستينيات حتى حظى علم النفس الصناعى فى مصر بنقلة هامة ساعدته عليها عدة عوامل توافرت آنذاك للمرحلة التى كانت تمر بها مصر ؛ لعل من أهمها :

١- بدء تخريج الجامعات المصرية لمتخصصين فى علم النفس منذ أواسط الخمسينيات مع تزايد أعدادهم ، وتزايد - أيضًا- أعداد طلبة التخصص فى علم النفس عامًا بعد عام. فقد وفر هذا كوادر يمكن الاستعانة بها فى تطبيقات علم النفس الصناعى فى مواقع العمل والإنتاج المختلفة .

٢- إلحاح الثورة على ضرورة التنمية الصناعية وإقامتها على أساس علمى ، مما لفت انتباه طلبة الدراسات العليا فى علم النفس إلى أهمية التخصص فى مجال علم النفس الصناعى . وبالفعل ، كانت نسبة الطلبة المسجلين فى علم النفس الصناعى ، أو الذين ناقشوا بحوثهم لدرجتى الماجستير والدكتوراة فيه عالية نسبيًا ، فى مقارنتها بتخصصات علم النفس الأخرى.

٣- بدء ظهور مؤلفات علمية ومترجمات تحمل بشكل صريح عنوان «علم النفس الصناعى» بعد أن كانت الكتابات فيه مجرد مقالات فى مجلات ، أو فصول متوارية فى كتب، أو تحت عناوين غامضة ؛ مثل علم النفس التطبيقى ، الذى سبقت الإشارة إلى ترجمة أحمد عزت راجح له، أو الجزء التطبيقى من ميادين علم النفس ، الذى سبقت الإشارة إلى ترجمته تحت إشراف يوسف مراد ... ومن نافلة القول إن علم النفس الصناعى مجرد جزء من علم النفس التطبيقى، شأنه شأن علم النفس التربوى، أو علم النفس الإكلينيكى أو علم النفس الجنائى، أو علم النفس العائلى، أو علم النفس

الرياضى... وبالتالى، فإن بداية تأليف أو ترجمة كتب خاصة بعلم النفس الصناعى منذ بداية الستينيات حاملة بشكل صريح عنوانه إنما تعنى بداية اعتراف المجتمع بهوية هذا العلم وأهميته ؛ ومن ثم الترويج له، وتكريس تطبيقاته فى المجتمع، ودعمها، ونشرها.

٤- لما كان السيد محمد خيرى -عضو هيئة تدريس قسم الدراسات النفسية بكلية الآداب بجامعة عين شمس- هو الذى انتدب للإشراف على تطبيقات علم النفس الصناعى فى ديوان الموظفين وفى وزارة الصناعة منذ الخمسينيات ، فلقد دفع وهيأ لبعض تلاميذه فى الماجستير والدكتوراة بمؤازرة مصطفى زيور رئيس القسم التخصص فى الماجستير والدكتوراة فى مجال علم النفس الصناعى. ولقد ظل هذا القسم -حتى الآن- أبرز أقسام علم النفس وأشهرها بين الجامعات المصرية والعربية، فيما يتعلق بمجال علم النفس الصناعى والمتخصصين فيه .

وفى ضوء هذا ؛ يمكن أن نشير إلى الكتب العلمية التالية، والتى توالى ظهورها منذ أوائل عقد الستينيات حتى الآن :

١- كتاب «علم النفس الصناعى» ؛ الذى ألفه أحمد عزت راجح ، ونشرت طبعته الأولى مؤسسة المطبوعات الحديثة بالقاهرة عام ١٩٦١ ؛ وقد سبقت الإشارة إليه فى متن هذا المقال.

٢- كتاب «علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية» ؛ الذى ألفه السيد محمد خيرى، وحصل به على جائزة الدولة التشجيعية فى علم النفس ، وقد نشرت طبعته الأولى دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧ ، ولم توضح ذلك على الكتاب.

٣- كتاب «قراءات فى علم النفس الصناعى» ؛ الذى أشرف على تأليفه فرج عبدالقادر طه، ونشرت مكتبة سعيد رأفت بالقاهرة طبعته الأولى عام ١٩٧٣ .

٤- كتاب «علم النفس الصناعى» ؛ الذى ألفه فرج عبد القادر طه ، ونشرت طبعته الأولى دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٨٠ .

٥- كتاب «علم النفس الصناعى : بحوث عربية وعالمية » ؛ الذى أعده محمود السيد أبو النيل، ونشرت طبعته الأولى دار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٥ .

٦- كتاب «علم النفس الاجتماعى فى الصناعة» ؛ الذى ألفه أ. براون ، وترجمه السيد محمد خيرى وزميلاه ، ونشرت دار المعارف بالقاهرة طبعته الأولى عام ١٩٦٠ .

٧- كتاب «علم النفس فى الصناعة» ؛ الذى ألفه نورمان ماير ، وأشرف على ترجمته محمد كامل النحاس ، ونشرت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بالقاهرة طبعته الأولى عام ١٩٦٧ .

مع ملاحظة أن بعض هذه الكتب لازال يراجع وتعاد طباعته ، وتعتمد عليه بعض الجامعات العربية فى تدريسها ومراجعها لعلم النفس الصناعى حتى الآن .

كما يمكن -أيضًا- أن نشير - فى هذا العرض التاريخى - إلى بعض البحوث العلمية والميدانية التى تم إنجازها ونشرها فى مصر فى مجال علم النفس الصناعى، فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ، مثل :

١- بحث «قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين » ؛ الذى أشرف عليه السيد محمد خيرى وأحمد زكى محمد ، ونشره المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة عام ١٩٧٢ .

٢- بحث «دراسة تجريبية لأثر الجمود الإدراكى والجمود الحركى على التعرض للإصابات فى الصناعة » ؛ الذى قام به قدرى محمود حفنى ، ونشرته جامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٧٤ .

٣- بحث «سيكلوجية السائق» ؛ الذى أشرف عليه عماد الدين سلطان وفرج عبد القادر طه ، ونشره المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة عام ١٩٧٥ .

٤- بحث «سيكلوچية الحوادث وإصابات العمل» ؛ الذى قام به فرج عبد القادر طه ، ونشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٨٠ .

٥- بحث «سيكلوچية الشخصية المعوِّقة للإنتاج» ؛ الذى قام به فرج عبد القادر طه، ونشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٨٠ .

٦- بحث «علاقة الاضطرابات السيكوسوماتية بالتوافق المهنى فى الصناعة» ؛ الذى قام به محمود السيد أبو النيل ، ونشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٨٤ تحت عنوان «الأمراض السيكوسوماتية» .

علم النفس الصناعى يرد جميل القياس النفسى :

إذا كانت العلوم يغذى بعضها بعضا ، ويدعم بعضها بعضا ، فيؤدى التطور فى أحدها إلى تطور فى الآخر ؛ فالأولى بذلك أن يصدق على فروع العلم الواحد. وبالفعل ، فإن هذا يصدق على فروع علم النفس المختلفة ؛ حيث يفيد التطور فى أحدها فى تطوير كثير من غيرها .

وفى مصر -بصفة خاصة- نشأ علم النفس الصناعى، وتطور منذ بداياته على يد علماء متخصصين فى القياس النفسى على وجه أخص ، حيث عبد العزيز القوصى مكتشف العامل المكانى، والذى سُمى عالميا باسمه K- Factor منذ عام ١٩٣٤ ، وأحمد عزت راجح الذى كان عنوان رسالته للدكتوراة «المهارة اليدوية والتوجيه المهنى» (عام ١٩٣٨) ، والسيد محمد خيرى مرسى ، الذى نقل علم النفس الصناعى فى مصر من مرحلة الكتابة النظرية إلى مرحلة التطبيق العملى فى الواقع الفعلى ؛ حيث كانت رسالته فى الدكتوراة عام ١٩٥٢ فى «بحث تحليلى عاملى عن تدرج العمليات العقلية المعرفية » والذى نشر خلاصته فى الكتاب السنوى فى علم النفس : المجلد الأول عام ١٩٥٤ - الذى سبقت الإشارة إليه - بعنوان : «مستويات العمليات العقلية المعرفية» .

ولقد أتاحت تطبيقات علم النفس الصناعى الفعلية فى مصر ظرفًا مناسبًا له لكى يرد الجميل للقياس النفسى . وفى هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى خمس بطاريات اختبارات نفسية أعدت خصيصًا للاستعانة بها فى التطبيقات الفعلية لعلم النفس الصناعى ؛ كما قننت أثناء تطبيقاته هذه أو تمهيداً لها ، حتى تتم هذه التطبيقات على أسس علمية سليمة :

١- «بطارية حرف المعادن» : وقد أشرف على إعدادها وتقنينها السيد محمد خيرى فى القسم النفسى بمصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة . وتتكون هذه البطارية من اختبارات لفظية وأخرى عملية :

أ- «الاختبارات اللفظية ، وهى : (١) الاستدلال اللفظى (٢) الذكاء الإعدادى (٣) الاستدلال الميكانيكى (٤) المعلومات الميكانيكية (٥) العمليات الحسابية (٦) التصور المكانى (٧) تكميل الأشكال (٨) تذكر الأشكال .

ب- «الاختبارات العملية ، وهى : (٩) التجميع الميكانيكى (١٠) مهارة الأصابع (١١) ثبات اليد» (وزارة الصناعة والتعدين : ١٩٧٦ ، ٢٧) .

٢- « بطارية حرف النسيج» : وقد أشرف على إعدادها -أيضًا- السيد محمد خيرى فى نفس المصلحة التى أعد فيها بطارية الاختبارات السابقة ، وتتكون هذه البطارية من :

«أ- الاختبارات اللفظية، وهى: الاستدلال اللفظى - التفكير الحسابى- المصفوفات المتتابعة .

«ب- الاختبارات العملية ، وهى : الخيوط المتقطعة - إدراك النمط- تآزر اليدين- تقدير سمك الخيوط - زمن الرجع - مهارة الأصابع » (السيد محمد خيرى : ١٩٦٦، جـ) .

٣- «بطارية حرف الجلود » : وقد أشرف على إعدادها -كذلك- السيد محمد خيرى فى نفس المصلحة التى أعد فيها البطاريتين السابقتين، وتتكون بطارية الجلود من :

«أ- الاختبارات اللفظية ، وهى : الذكاء الإعدادى - العمليات الحسابية - التفكير الحسابى .

«ب- الاخبارات العملية، وهى : المثابرة العضلية - قوة قبضة اليد- زمن الرجع» (السيد محمد خيرى : المرجع السابق بنفس الصفحة) .

٤- «بطارية اختبارات الاستعدادات الحسية الحركية للمكفوفين » : وقد أعدها فرج عبد القادر طه للاستخدام فى التوجيه المهنى للمكفوفين . وتتكون البطارية من ستة اختبارات، هى : تمييز الأبعاد- تمييز الوزن- المهارة اليدوية (نزع)- المهارة اليدوية (تركيب) - مهارة الأصابع - تآزر اليدين (فرج عبد القادر طه : ١٩٧٤) .

٥- «بطارية اختبارات التوجيه المهنى للصبية» : وقد أشرف على إعدادها -أيضًا- فرج عبد القادر طه بتكليف من وزارة القوى العاملة. وتتكون البطارية من :

أ- تسعة اختبارات أدائية ، هى : اختبار اليقظة العقلية والتركيز- اختبار تقدير الأطوال - اختبار أداء أكثر من عمل فى وقت واحد- اختبار المثابرة على أداء العمل الروتينى- اختبار التتبع- اختبار مهارة الأصابع - اختار التآزر بين اليدين والعينين- اختبار ثبات اليد مع التصويب - اختبار الاستعداد الميكانيكى (فرج عبد القادر طه : ١٩٨٠) .

ب- أربعة اختبارات فرعية لقياس الذكاء العملى من «مقياس وكسلر لذكاء الأطفال» الذى وضعه وكسلر، ونقله إلى البيئة المصرية محمد عماد الدين إسماعيل ولويس كامل مليكة ، حيث أجريت عليها بعض إجراءات التقنين أثناء إعداد البطارية .

علم النفس الصناعى والمؤتمرات السنوية للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، ومنشوراتها:

حفلت المؤتمرات السنوية للجمعية المصرية للدراسات النفسية -منذ بدئها فى عام ١٩٨٥ حتى الآن- ببحوث كثيرة ومناقشات جادة حول موضوعات مباشرة فى اختصاص علم النفس الصناعى، أو مرتبطة به ، وعن تطبيقات علم النفس الصناعى- ضمن تطبيقات علم النفس عمومًا - فى مجالات الحياة والعمل المختلفة ومعوقات ذلك، وتوصيات مختلفة لزيادة انتشار هذه التطبيقات ودعمها . والأمر بالمثل فيما قامت الجمعية بنشره من مجلدات أو كتب سنوية أو مجلات يضيق المجال بذكر ما تعلق بموضوعات علم النفس الصناعى فيها (راجع فى هذا الصدد الموضوعات التى نشرت بالكتاب السنوى للجمعية من بداية صدور الكتاب السنوى الأول عام ١٩٧٤ ، وأيضًا تلك التى نشرت بالمجلة المصرية للدراسات النفسية منذ بداية صدور عددها الأول فى سبتمبر من عام ١٩٩١ حتى الآن لمزيد من التفاصيل) .

علم النفس الصناعى والتنظيمى فى نهايات القرن العشرين وآفاق القرن الحادى والعشرين :

ظلت مسيرة «علم النفس الصناعى والتنظيمى» على طريق التطور والنمو، سواء أكان ذلك فى مجال التبشير به ، أم التأليف فيه، أم نشر مقالات وبحوث عنه ، أم إعداد رسائل ماجستير أو دكتوراة بالجامعات المصرية فى مجالات اختصاصه، أو تطبيقاته واستخداماته فى الواقع الفعلى .

إلا أنه كان يصاب -أحيانًا- فى بعض مواقع استخدامه وتطبيقاته بنكسات ؛ على نحو ماحدث عندما ألغت الدولة ديوان الموظفين فى عام ١٩٦٤ ، وأيضًا عندما قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى الثمانينيات بحل الوحدة النفسية به، وكذلك عندما أوقفت وزارة الصناعة ، فى أوائل التسعينيات ، نظام الاختبارات النفسية والاختبار السيكلوجى للراغبين فى الالتحاق بمراكزها الخاصة بالتدريب المهنى والتلمذة الصناعية . وربما كان ذلك - ومثله كثير- ناشئًا عن الصراعات المهنية المعهودة ، أو تضارب الاختصاصات ، أو تناقض المصالح الخاصة لكبار المسئولين وذوى النفوذ ... وهى وغيرها كثير آفات ابتُلى بها النظام الإدارى فى دول العالم الثالث ، إلا أنه من حسن الحظ أن بعض هذه المراكز والمواقع -التى أصيبت تطبيقات علم النفس الصناعى واستخداماته فيها بنكسات- كانت تتراجع وتعود مرة أخرى لإفساح المجال أمام تطبيقاته . كما أن وزارة التربية والتعليم قد بدأت منذ أواسط التسعينيات تفتح أبوابها أمام مئات وصلوا إلى آلاف من الإخصائيين النفسيين لتعيينهم فى

مدارسها العامة ومؤسساتها ؛ حيث تكون من بعض مهامهم الاستعانة بإجراءات علم النفس الصناعى ووسائله فى توجيه التلاميذ، وتصنيفهم، وإرشادهم، وتأهيلهم تربويًا ومهنيًا ...

وفى عصر التوجه العلمى الذى يسود العالم حاليًا ، والتنافس بين دول العالم فى مجال الإنجازات العلمية والتكنولوچية ، وتطبيقاتها اللامتناهية لتقدم الإنسان ورفاهيته ولتنمية المجتمعات وتقدمها ؛ لابد لمصر -حاليًا وفى المستقبل القريب- من التوجه بقوة نحو العلوم جميعها ؛ تستفتيها المشورة، وتستطلعها الحكمة، وتسألها أجدى وسائلها التطبيقية للإسراع بالتنمية فى كل المجالات ، حتى تتمكن من اللحاق بالأمم المتقدمة ، وتكفل لشعبها العيش الكريم ، والرفاهية المرجوة . ومن نافلة القول أن نؤكد أن «علم النفس الصناعى والتنظيمى» واحد من هذه «العلوم جميعها» . ولما كان «لايصح إلا الصحيح» ؛ فإننا على ثقة من أن «علم النفس الصناعى والتنظيمى» فى مصر سوف يزداد انتشاراً ويتقوى دعمًا ؛ كعلم نظرى وتطبيق عملى، مع مرور الأيام ، ولئن تأخر خطوة ، فلكى يقفز خطوتين .

علم النفس الصناعى والوطن العربى ومصر :

لاشك فى أن مصر تمثل قلب الوطن العربى موضعًا ورأسه قيادة ؛ بما لها من ثقل بشرى وحضارى ، ومكانة جغرافية وتاريخية . وبالتالى، فإن التطورات العلمية والأساليب التكنولوچية والتطبيقية التى تنتشر فى مصر ، لابد وأن يظهر صداها فى مختلف دول الوطن العربى ، وإن كان ذلك بنسب مختلفة ، حسب الظروف التاريخية والمجتمعية التى تمر بها الدولة المعنية. ومن هنا، فإننا نجد تشابهًا كبيراً بين الكتابات الخاصة بعلم النفس الصناعى وطرائق أبحاثه، وأساليب تطبيقاته فى مؤسسات العمل ومواقعه ، مع ما هو حادث بمصر ، وإن اختلفت كل دولة عربية عن الأخرى فى مستوى التطور الذى وصل إليه هذا العلم فيها (Taha , Farag: 1998) . ويبدو واضحًا أن هذا التشابه يرجع -فى أساسه- إلى عاملين واضحين : أولهما هو الوحدة الثقافية والحضارية ، والتاريخية والجغرافية ، واللغوية والظرفية التى تلفُّ البلاد العربية جميعها فى عباءة واحدة ، أما العامل الثانى فهو اعتماد غالبية الجامعات فى أقطار الوطن العربى - إلى حد كبير - على أساتذة الجامعات المصرية فى تدريس المواد العلمية ، وفى إنشاء وتطوير الدراسة بها، وبالتالى حملوا إلى أقطار الوطن العربى أساليب العلم ومناهجه واتجاهاته فى مصر .

* * *

المراجـع :

١- أحمد عزت راجح . علم النفس الصناعى ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٢- جيلفورد ، ج. ب . ميادين علم النفس ، الميادين التطبيقية ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٣- السيد محمد خيرى. علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧ .

٤- السيد محمد خيرى . الصحة النفسية والصناعة ، مجلة الصحة النفسية : مجلد : ١ ، عدد : ١ ، يناير ١٩٥٨ .

٥- السيد محمد خيرى (إشراف) . الاختيار السيكلوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى، وزارة الصناعة (مصلحة الكفاية الإنتاجية، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٦- السيد محمد خيرى وأحمد زكى محمد (إشراف) : قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٧- عماد الدين سلطان وفرج عبد القادر طه (إشراف) . بحث سيكلوجية السائق ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٨- ڤالون ، هنرى . علم النفس التطبيقى ، ترجمة أحمد عزت راجح ، مكتبة مصر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٩- فرج عبد القادر طه . علم النفس الصناعى والتنظيمى (ط٨) ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٧ .

١٠- فرج عبد القادر طه . سيكلوجية الحوادث وإصابات العمل، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٩ .

١١- فرج عبد القادر طه . سيكلوجية الشخصية المعوقة للإنتاج ، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٢- فرج عبد القادر طه . بطارية الاستعدادات الحسية الحركية للمكفوفين ، مطبعة دار التأليف ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٣- فرج عبد القادر طه (إشراف) . بطارية التوجيه المهنى للصبية ، وزارة القوى العاملة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٤- فرج عبد القادر طه (إشراف) . قراءات فى علم النفس الصناعى ، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة، ١٩٧٣ .

١٥- فرج عبد القادر طه (إشراف) . موسوعة علم النفس والتحليل النفسى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة- الكويت ، ١٩٩٣ .

١٦- فؤاد أبو حطب . كتاب تذكارى عن الجمعية المصرية للدراسات النفسية بمناسبة يوبيلها الذهبى ، الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، فبراير، ١٩٩٨ .

١٧- قدرى محمود حفنى . دراسة تجريبية لأثر الجمود الإدراكى والجمود الحركى على التعرض للإصابات فى الصناعة، جامعة عين شمس (كلية الآداب) ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

١٨- لويس كامل مليكه . إعداد القادة وتدريبهم ، مجلة الصحة النفسية ، مجلد : ١ ، عدد : ١ ، يناير ١٩٥٨ .

١٩- محمود السيد أبو النيل . الأمراض السيكوسوماتية (دراسات عربية وعالمية) ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢٠- محمود السيد أبو النيل . علم النفس الصناعى (بحوث عربية وعالمية) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .

٢١- وزارة الصناعة (مصلحة الكفاية الإنتاجية) : الاختيار السيكلوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٢٢- يوسف مراد . دراسات فى التكامل النفسى، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٢٣- يوسف مراد (إشراف) : الكتاب السنوى فى علم النفس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٢٤- يوسف مراد . دراسات حديثة فى علم النفس الصناعى، فى المرجع السابق .

25- Gilmer, B. Haller . Industrial and Organizational Psychology , McGraw- Hill, 1971.

26- Taha, Farag . Industrial Psychology in Egypt: Past, Present and Future , 20th International Congress of Applied Psychology , Edinburg, Scotland, 1982 ./

27- Taha , Farag . Industrial and Organizational Psychology in the Arab World, Derasat Nafsiah (Psychological Studies), Vol . 8 , No. I, Cairo , January 1998 .

الصحة النفسية والكفاية الإنتاجية لعمال الصناعة *

تقديم فى تمهيد :

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء نظرة سريعة على بعض البحوث النفسية العلمية التى أجريت فى المنطقة العربية ، مستهدفة بحث العلاقة بين الكفاية (أو بعض مظاهرها ؛ مثل عدم الوقوع فى حوادث أو تسبيبها ، وعدم الغياب عن العمل ... إلخ) وبين الصحة النفسية للعامل فى ميدان الصناعة . ولايعنى هذا اعتقادنا بأن إخصائيى علم النفس وعلماءه هم الخبراء الوحيدون الذين يجرون بحوثًا علمية فى مثل هذا المجال . بل أننا جميعًا نعلم أن هناك خبراء كثيرين وعلماء يقومون ببحوث هامة فى نفس المجال ؛ مثل الأطباء النفسيين والإخصائيين الاجتماعيين ... إلخ.

١- الروح المعنوية لعمال الصناعة :

قام السيد محمد خيرى (الأستاذ السابق لعلم النفس بكلية الآداب- جامعة عين شمس) بمشاركة أحمد زكى محمد (وكيل وزارة التعليم العالى السابق) بالإشراف على بحث ميدانى عن الروح المعنوية للعمال الصناعيين، نشره المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة عام ١٩٧٢ [١] . ولقد أوضح هذا البحث أن هناك ارتباطًا إيجابيًا بين ذكاء العمال وروحهم المعنوية (١ : ٢٥٩) ، كما صدقت هذه النتيجة نفسها -أيضًا- على المشرفين على العمال (١ : ٢٦٠) الذين كانوا يشرفون على أقسام ذات روح معنوية عالية فى مقارنتهم بزملائهم الذين كانوا يشرفون على أقسام منخفضة الروح المعنوية . ولقد أبان البحث -أيضًا- أن مشرفى الأقسام منخفضة الروح المعنوية كانوا أقل سواء فى صحتهم النفسية فى مقارنتهم بزملائهم الذين كانوا يشرفون على أقسام مرتفعة الروح المعنوية، إذ كانوا أكثر سواءً

---

* ترجمة البحث الذى ألقاه المؤلف فى المؤتمر الدولى للصحة النفسية، ، والذى عقد بالقاهرة فى أكتوبر من عام ١٩٨٧ . وقد نشرت هذه الترجمة فى مجلة علم النفس، عدد : ٦ ، القاهرة ، أبريل ١٩٨٨ ، ٧-١٠ . والنص موجود بالقسم الإنجليزى من الكتاب .

(٢٦١:١) وأكثر نضجًا نفسيًا (١ : ٢٧٧). كما أن البحث الميدانى -علاوة على كل ذلك- قد أوضح وجود علاقة إيجابية بين تماسك الجماعة وبين روحها المعنوية (١ : ٢٧٧) .

ولقد وجد عبد المنعم جابر حامد (باحث عراقى) فى بحث ميدانى (عام ١٩٨١) قام بإجرائه فى المنشأة العامة للغزل والنسيج العراقية نتائج شبيهة -إلى حد كبير- بتلك التى وجدها السيد محمد خيرى وزميله فى مصر، خاصة ما تعلق منها بالعلاقة الإيجابية بين الروح المعنوية والصحة النفسية، وبين الروح المعنوية وتماسك الجماعة ، وبين الروح المعنوية -أيضًا- والذكاء (٣ : ٤٧٣- ٥٠٤) .

٢- الاضطرابات السيكوسوماتية والتوافق المهنى :

وفى دراسة ميدانية لمحمود السيد أبو النيل (أستاذ علم النفس بكلية الآداب- جامعة عين شمس) التى أجراها بمصر عام ١٩٧٢) وجد علاقة سلبية بين التوافق المهنى للعاملين بالصناعة والاضطرابات السيكوسوماتية، ووجد نفس العلاقة السلبية -أيضًا- بين التوافق المهنى لهم وبين القلق (٧ : ١٩٧ - ٢٢٥) . وفى دراسته الميدانية -أيضًا- عام ١٩٧٤ على الاضطراب السيكوسوماتى والعوامل الانفعالية لدى العمال سيئى التوافق مهنيًا، وجد من تطبيق قائمة كورنيل أن الجماعة سيئة التوافق فاقت الجماعة حسنة التوافق فى كثير من جوانب الاضطراب النفسى ؛ كالقلق والاكتئاب والسيكوباتية (٨ : ٢٥١-٢٦٢) .

٣- الصحة النفسية وغياب العمال الصناعيين :

فى بحثها الميدانى (عام ١٩٧١) طبقت سوسن إسماعيل عبد الهادى (أستاذة علم النفس بكلية البنات- جامعة عين شمس) ترجمة عربية لمقياس القلق الذى وضعه ريموند كاتل على عينة من ٥٤٤ عاملاً صناعيًا . ولقد وجدت معاملات ارتباط إيجابية مرتفعة الدلالة الإحصائية بين مستويات القلق وبين غياب العمال الصناعيين ، حيث كان متوسط هذه المعاملات ٤٦ , ٠ (٢ : ٢٩٧-٣٢٣) ، كما درس فارس حلمى أحمد (باحث فلسطينى) سيكلوچية العامل المتغيب (عام ١٩٧١) حيث أجرى بحثه الميدانى فى شركة النصر لصناعة السيارات بمصر . وقد تكونت عينة بحثه من مجموعتين متناقضتين بالنسبة لمتغير الغياب عن العمل، اشتملت كل منهما على ٧٣ عاملاً ، وقد حقق فيهما التكافؤ والتناظر . ولقد قام فارس حلمى أحمد بدراسة مجموعتين من العوامل : إحداهما كانت إحصائية صرفة (هى السن

، والحالة الزواجية، والأجر ، ومدة الخدمة ، ومستوى التعليم ، والمسافة بين مكان السكن والشركة) . أما المجموعة الثانية من تلك العوامل فكانت البناء النفسى للشخصية . وقد أوضحت هذه الدراسة أنه لاتوجد علاقة بين أىٍ من تلك العوامل الإحصائية الصرفة وبين مشكلة غياب العمال .

أما بالنسبة لدراسة البناء النفسى للشخصية (المجموعة الثانية من العوامل التى درسها فارس حلمى أحمد) والتى تمت على ٣٠ عاملاً من العينة الأصلية، فقد طبق عليهم اختبار تفهم الموضوع والمقابلة الإكلينيكية . ولقد استعان -إلى حد ما- بالمنهج الدينامى المتعمق ، فوجد أن العامل كثير التغيب لديه مشاعر اضطهادية أكثر ، كما كان أكثر إحساسًا بالإحباط وأكثر إحساسًا بالعجز (٤ : ٢٦٣ - ٢٩٥) .

٤- الصحة النفسية والحوادث :

قام فرج عبد القادر طه ببحث ميدانى (٥) عن الحوادث والذكاء (عام ١٩٦٥) طبق فيه مقياس وكسلر- بلڤيو لذكاء الراشدين والمراهقين (الذى اقتبسه وأعده للبيئة العربية لويس كامل مليكة ومحمد عماد الدين إسماعيل) على مجموعتين متكافئتين ومتناظرتين من عمال الصناعة (فى الشركة الشرقية للدخان والسجائر بمصر) تكونت كل منهما من ٣٥ عاملا . كانت المجموعة الأولى بمثابة مجموعة تجريبية ، حيث تكرر وقوع كل فرد منها فى حوادث خلال مدة السنوات الأربع السابقة على بداية البحث . بينما كانت المجموعة الأخرى بمثابة مجموعة ضابطة ، حيث لم يقع أى فرد منها فى حادثة خلال الفترة المذكورة . وتتلخص نتائج بحثه بهذا الخصوص فيما يلى :

١- لاتوجد علاقة دالة (أى ارتباط دال) بين الحوادث والذكاء الكلى، ولابينها وبين الذكاء اللفظى ، ولابينها وبين الذكاء العملى، (ولابينها وبين معامل الكفاءة) .

٢- لاتوجد علاقة دالة بين الحوادث وبين أى اختبار فرعى من اختبارات الوكسلر بلڤيو باستثناء اختبار الفهم العام .

٣- لاتوجد علاقة دالة بين الحوادث وبين الدرجات المرتفعة فى الذكاء الكلى أو الذكاء اللفظى أو الذكاء العملى أو أى اختبار فرعى من اختبارات الوكسلر . وبالمثل -أيضًا- لاتوجد علاقة دالة بين الحوادث وبين الدرجات المنخفضة فى كل المتغيرات السابقة .

٤- توجد علاقة دالة بين الحوادث وبين التشتت فى الصفحة النفسية للوكسلر - بلفيو .

٥- كان الفارق بين مستوى الذكاء اللفظى ومستوى الذكاء العملى دالاً إحصائيًا فى جماعة الحوادث .

٦- كان ثبات الصفحة النفسية للذكاء فى جماعة الحوادث أميل إلى الانخفاض .

٥- الصحة النفسية والعامل المشكل :

فى بحث ميدانى (٦) عن سيكلوجية العامل المشكل فى الصناعة (عام ١٩٦٨) قام فرج عبد القادر طه بتطبيق هذه الأدوات الأربع .

١- مقياس وكسلر - بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين (السابق ذكره) .

٢- اختبار اليد ، الذى ترجمه وأعده المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بمصر .

٣- اختبار تفهم الموضوع .

٤- المقابلة الإكلينيكية باستخدام منهج تداعى الذكريات * .

وقد طبق مقياس الوكسلر- بلفيو واختبار اليد على مجموعتين متكافئتين ومتناظرتين من العمال الصناعيين (بالشركة الشرقية للدخان والسجائر السابق ذكرها) تكونت كل منهما من ٢٠ عاملاً ، حيث اختيرت المجموعة الأولى لتمثل المجموعة التجريبية (العمال الأكثر إشكالاً) بينما اختيرت المجموعة الأخرى لتمثل المجموعة الضابطة (العمال الأقل إشكالاً، والتى تكاد تختفى منهم المظاهر السلوكية المعوقة للإنتاج) أما اختبار تفهم الموضوع والمقابلة الإكلينيكية ، فلقد طبقهما فرج عبد القادر طه -فقط- على ثمانية عمال من كل مجموعة . وفى هذه الدراسة حدد العامل المشكل بأنه العامل الذى يعتبر -بسبب سلوكه- عقبة فى سبيل تحقيق المؤسسة الصناعية للإنتاجية العالية (كمًا وكيفًا) ؛ مثل الوقوع فى الحوادث والغياب عن العمل والمرض ، والتمارض وكثرة الشكوى ، وضعف الكفاءة ... إلخ . وكانت أهم نتائج هذا البحث.. فيما يتعلق بمقالنا هذا- ما يلى .

---

* لمزيد من التفاصيل عن هذا المنهج ، ارجع إلى :

Deutch, F. & W. Murphy, The Clinical Interview, (Vol . I) New York , International Universties Press Inc. 1951 .

١- لاتوجد فروق دالة إحصائيًا بين مجموعة العمال المشكلين (المعوقين للإنتاج) وبين مجموعة العمال غير المشكلين فى نسب الذكاء المختلفة التى نستخرجها من الوكسلر - بلفيو (نسبة الذكاء الكلية، نسبة الذكاء اللفظية، نسبة الذكاء العملية، معامل الكفاءة) .

٢- كان متوسط درجات العدوان أعلى بشكل دالٍ لدى مجموعة العمال المشكلين (كما يستخرج من اختبار اليد) .

٣- كان متوسط درجات التسيير منخفضًا بشكل دالٍ لدى مجموعة العمال المشكلين (كما يستخرج من اختبار اليد) .

٣- كان متوسط درجات الاعتماد -أيضًا- منخفضًا بشكل دالٍ لدى مجموعة العمال المشكلين (كما يستخرج من اختبار اليد) .

٥- أظهرت مجموعة العمال المشكلين سمات وعلامات ذهانية أكثر فى البناء النفسى للشخصية (مثل الإصابات العقلية العضوية والاتجاهات الاضطهادية التدميرية والميول السيكوباتية والأرجاع الاكتئابية، وخلط التفكير) على نحو ما كشفت عنه الدراسة الدينامية المتعمقة باستخدام اختبار تفهم الموضوع والمقابلة الإكلينيكية .

٦- كذلك ، أظهرت مجموعة العمال المشكلين -فى الدراسة الدينامية المتعمقة سابقة الذكر- أنها أقل لجوءًا إلى الأرجاع والميكانيزمات العصابية (مثل الكبت والإزاحة ، والأمراض السيكوسوماتية والتكوين العكسى للدوافع والرغبات المدانة) .

٧- وبصفة عامة ، فإن العامل المشكل (المعوق للإنتاج) أظهر علامات وسمات مرضية أوضح فى الدراسة المتعمقة لبنائه النفسى.

مناقشـــة :

فى البحوث الميدانية العربية- على نحو ما ذكرنا سابقًا- نجد اتجاهًا قويًا لتأييد أن الكفاية الإنتاجية للعامل الصناعى مرتبطة ارتباطًا إيجابيًا عاليًا بصحته النفسية ؛ بمعنى أنه كلما كانت صحة العامل النفسية أفضل كلما أصبح أكثر كفاية إنتاجية . ففى دراسة السيد محمد خيرى وزميله ، وأيضًا دراسة عبد المنعم جابر حامد، نجد أن الصحة النفسية والذكاء وتماسك الجماعة أفضل فى الأقسام ذات الروح المعنوية العالية، كما أنها أفضل -أيضًا- فى المشرفين على هذه الأقسام (مقارنة بالأقسام ذات الروح المعنوية المنخفضة) . وكما نعلم جميعًا فإن الروح المعنوية ذات أهمية كبرى للكفاية الإنتاجية .

وفى دراسات محمود السيد أبو النيل كان من الواضح أن القلق والاضطرابات السيكوسوماتية لهما أثر سيئ على الكفاية، حيث يجعلان العامل أضعف انتباهًا وأكثر إرهاقًا ، وبالتالى تقل كفايته فى العمل .

كما أن الغياب عن العمل .. كما درسه فارس حلمى أحمد وسوسن إسماعيل عبد الهادى كان مرتبطًا ارتباطًا مرتفعًا بالقلق ، وبالإحساس بالاضطهاد ، وبالشعور بالإحباط العام وبالإحساس بالعجز .. وهذا يشير إلى أن الغياب عن العمل (كعلامة من علامات نقص الكفاية) مرتبط -بشكل كبير- بعوامل الاضطراب النفسى فى بناء الشخصية لدى العامل . هذا فى نفس الوقت الذى لم يجد فيه فارس حلمى أحمد أية علاقة بين غياب العامل والعوامل الفيزيقية التى درسها ، مما يشير إلى أن الغياب هو فى أساسه مشكلة نفسية أكثر من كونه نوعًا آخر من المشكلات .

وفى دراسة فرج عبد القادر طه عن الحوادث (كعلامة هامة لنقص الكفاية) اتضح أن الحوادث ليست مرتبطة بمستوى الذكاء فى حد ذاته ، وإنما هى مرتبطة -فقط- بنمط الصفحة النفسية للذكاء على نحو ما تتأثر بدورها بالاضطرابات النفسية ، فيظهر ذلك واضحًا فى التباين الكبير فى مكونات الصفحة النفسية للذكاء ، والفارق الكبير بين مستوى الذكاء اللفظى ومستوى الذكاء العملى ... إلخ .

وعندما قام فرج عبد القادر طه بدراسة الكفاية الإنتاجية مباشرة فى بحثه الميدانى عن سيكلوجية العامل المشكل (أو العامل المعوق للإنتاج) تبين له أن هذا العامل أكثر عدوانية بشكل دال (فى مقارنته بالعامل غير المشكل) مما يشير إلى اضطرابه النفسى . كما وجد أنه إلى حد ما - غير مهتم بإقامة علاقات مع الآخرين (حيث كان أقل بشكل دال فى درجات التسيير ودرجات الاعتماد فى اختبار اليد) كما أنه أبان -أيضًا- عن علامات ذهانية أكثر، مما يشير إلى نقص كبير فى كفاءة العامل المشكل عند إدراكه للواقع وحكمه عليه، وتعامله معه، ويلاحظ أن كل هذه الاضطرابات النفسية المتمثلة فى المظاهر السابقة يمكن -أيضًا- على المستوى المنطقى والنظرى - الاقتناع بتأثيرها السلبى على الكفاية الإنتاجية للعامل الصناعى وذلك أن التوافق المهنى -بصفة عامة - يحتاج أساسًا إدراكًا سليمًا وحكمًا موضوعيًا وتعاملاً سويًا مع بيئة العمل الفيزيقية والاجتماعية . ويبدو -أيضًا- أن قدراً معتدلاً من الميكانيزمات العصابية :كالكبت والتكوين العكسى يمكن أن ييسر تحقيق الكفاية الإنتاجية ويرفعها .

خلاصة فى خاتمة :

لقد أوضحت البحوث الميدانية العربية عن سيكلوچية الكفاية الإنتاجية فى الصناعة -كما أوضحت غيرها فى البيئات الأخرى- أن هناك علاقة قوية بين الصحة النفسية الجيدة والكفاية الإنتاجية العالية ؛ فالصحة النفسية تتضمن التوافق النفسى، والتوافق النفسى بدوره يتضمن نوعًا من أكثر أنواعه أهمية هو ما يطلق عليه التوافق المهنى، والذى تعتبر الكفاية الإنتاجية أهم ملامحه وأخطرها .

وما دامت بلاد العالم الثالث النامية فى حاجة ماسة إلى رفع مستوى إنتاجيتها (كمًا وكيفًا) فلابد لها من توجيه مزيد من الاهتمام والرعاية للأنشطة والإجراءات التى ترتقى بالصحة النفسية للمواطنين (حتى ينتجوا بأعلى كفاية إنتاجية ممكنة) مثل الإرشاد النفسى والاجتماعى ، والتوجيه المهنى والتربوى ، والعلاج النفسى ، والطب النفسى .

* * *

المراجــع :

١- السيد محمد خيرى وأحمد زكى محمد «إشراف» . قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٢- سوسن إسماعيل عبد الهادى . العلاقة بين مستوى القلق وغياب العمال فى المجال الصناعى ، فى: قراءات فى علم النفس الصناعى والتنظيمى، إشراف فرج عبد القادر طه ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ .

٣- عبد المنعم جابر أحمد . قياس الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين فى العراق وتشخيصها ، فى: الكتاب السابق الذى أشرف عليه فرج عبد القادر طه .

٤- فارس حلمى أحمد . سيكلوچية العامل المتغيب ، فى الكتاب السابق .

٥- فرج عبد القادر طه . سيكلوچية الحوادث وإصابات العمل، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٦- فرج عبد القادر طه . سيكلوچية الشخصية المعوقة للإنتاج ، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٧- محمود السيد أبو النيل . علاقة الأضطرابات السيكوسوماتية بالتوافق المهنى فى الصناعة، فى الكتاب السابق الذى أشرف عليه فرج عبد القادر طه .

٨- محمود السيد أبو النيل . الحوافز والصحة النفسية فى الصناعة ، فى الكتاب السابق .

٩- Deutch , F & W. Murphy. The Clinical Interview, (Vol . I) New York International Universities Press Inc, 1951 .

التعليم والتدريب والإنتاجية *

تمهيـــد :

يسعى كل مجتمع إلى تحقيق أكبر قدر يستطيعه من التنمية ، سواء فى ذلك المجتمع الاشتراكى أو المجتمع الرأسمالى ، المجتمع المتقدم أو المجتمع المتخلف ، حتى يستطيع المجتمع بذلك أن يرفع مستوى معيشة أفراده ، ويوفر لهم ما يحتاجون من ضروريات ، وما يتطلعون إليه من كماليات .

ويعتمد نجاح المجتمع فى تحقيق معدلات تنمية عالية على مصدرين أساسيين : أولهما موارد المجتمع الطبيعية ، وهى موارد حبته الطبيعة بها : مثل الأرض الخصبة الصالحة للزراعة والمياه اللازمة لها ، والمعادن فى باطن الأرض أو عليها . أما المصدر الثانى لنجاح المجتمع فى تحقيق تنميته فهو قوى هذا المجتمع البشرية ، ومدى ما تتمتع به من كفاية إنتاجية وتنظيم، فهذه القوى هى التى يتوقف عليها حسن استغلال هذه الموارد الطبيعية أو تبديدها وسوء استغلالها .

ولما كانت موارد المجتمع الطبيعية شيئًا أقرب إلى القدر الصعب تغييره، فإن أهمية القوى البشرية للمجتمع ، وضرورة تنمية إمكانياتها وترشيد استغلالها ، تحتل المكانة العظمى فى عملية التنمية . ومن هنا كانت أهمية تعليم وتدريب القوى البشرية لصالح الكفاية الإنتاجية المؤدية بدورها إلى التنمية المنشودة للمجتمع .

التعليم والتدريب :

التعليم هو إكساب الفرد المعرفة والمهارة العقلية والحركية اللازمة له لإزالة ما يعانيه من أمية فى المجالات المختلفة ، سواء كانت هذه الأمية فى مجال القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والعلوم البسيطة (على نحو ما هو شائع عن معنى الأمية) أو سواء كانت هذه الأمية فى مجال

---

* البحث الذى اشترك به المؤلف فى مؤتمر «دور تعليم الكبار فى تكوين القوى العاملة» الذى عقدته جامعة الدول العربية : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار فى القاهرة بين ٢٧ نوفمبر وأول ديسمبر ١٩٧٧ . وألقى البحث فى جلسة ٢٨ نوفمبر ١٩٧٧ .

مجال الثقافة والفكر والعمل والإنتاج ، على نحو ما ينبغى أن يشمله تعريف الأمية . أما التدريب فهو فى نهاية الأمر ليس أكثر من عملية تعليم مقصودة لإجادة مهنة معينة أو نشاط معين والتدريب عليه .

والفرد منذ بداية وعيه فى حاجة إلى التعليم والتدريب ، حتى يصبح عضواً منتجًا فى مجتمعه يسهم فى بنائه وتقدمه ونموه .

ونظراً لأهمية القراءة والكتاب ومعرفة المبادئ الأولية للحساب والعلوم، أصبحت المجتمعات تتبارى فى محو أمية القراءة والكتابة ومبادئ العلوم . ولهذا، أصبحت الدراسة الابتدائية تعليمًا إلزاميًا فى معظم المجتمعات ، والتزامًا مجانيًا من جانب معظم الدول حيال أفرادها .

ولاشك أن محو الأمية - بالمعنى الشائع- يعتبر من ألزم الأمور لتنفيذ برنامج تدريبى ناجح ، نظراً للاعتبارات التالية :

١- التدريب فى حاجة إلى إجادة القراءة والكتابة، ومعرفة بعض المبادئ العلمية الأولية التى تعتبر قاعدة ينطلق منها التدريب والوعى بالعمل الذى يتدرب عليه وبما يلزمه .

٢- التدريب فى حاجة إلى كتابة مذكرات ومراجعة دروس نظرية وعملية متعلقة بالموضوعات التى يتدرب عليها .

٣- محو الأمية ينمى الاتجاه المنهجى العلمى فى التفكير والعمل والوعى بأهمية الدقة والضبط والتحديد ، وهى جميعًا أمور لازمة لنجاح التدريب .

ولهذا ، فإن اشتراط كثير من المؤسسات محو الأمية للتعيين فيها، أو لاستمرار العمل بها، ليس تعسفًا إداريًا ، وليس من قبيل الترف الثقافى ، بل وعيًا بأهمية محو الأمية لإجادة استيعاب ما يتطلبه العمل من برامج تدريبية ، أو أوليات معرفية .

التعليم والتنمية :

ليس التدريب -فقط- هو الذى يتطلب محواً للأمية ومستوى تعليميًا مناسبًا ، بل إن التنمية -بصفة عامة- فى أى مجتمع تتطلب محواً للأمية، ويلزمها مستوى تعليميًا عاليًا بين أفراد المجتمع الذى ينشدها ويحققها . فلا تنمية بغير محو للأمية ، وبغير مستوى مناسب

من التعليم يسود أفراد المجتمع . فالأمية من أكبر معوقات التنمية فى أى مجتمع ، وتكفى النظرة العامة دون الحاجة الماسة إلى لغة الأرقام- على مجتمعات العالم ليتبين لنا الارتباط الوثيق بين مستوى التنمية واندحار الأمية . فمجتمعات العالم التى حققت أعلى مستويات التنمية والتقدم ؛ كأمريكا وروسيا والصين والدول الأوروبية تكاد تختفى فيها الأمية ، فى حين أن مجتمعات العالم التى تئن تحت وطأة التخلف ، ولاتكاد التنمية فيها تصل إلى درجة محسوسة ، تنتشر فيها الأمية حتى أنها تعم معظم سكانها ، كما هو الحال فى إفريقيا على سبيل المثال . ويتأكد نفس الأمر عندما نبحث العلاقة بين الأمية من جانب وبين مستوى التحضر والتصنيع ودخل الفرد من جانب آخر . حيث تتضح مباشرة تلك العلاقة السالبة . فالأمية أكثر انتشاراً فى الريف عنها فى المدن، وفى البدو عنها فى الحضر، وبين ذوى الدخول المنخفضة عنها بين ذوى الدخول المرتفعة . وهناك دراسات إحصائية لاحصر لها تؤكد هذه الحقائق .

وإذا أمعنّا النظر لكشف سر هذه العلاقة السالبة بين الأمية أو نقص التعليم من جانب وبين التنمية من الجانب الآخر ، لوجدنا أنها متركزة حول اعتبارات شديدة الشبه بالاعتبارات الثلاثة -التى سبق أن ذكرناها- عن علاقة التدريب بمحو الأمية . فالشخص المتعلم أقدر على فهم عمله وإجادته وابتكار الجديد لأدائه ، كما أنه أقدر على الاختراع والابتكار ، وأقدر على الإدارة والتنظيم ، علاوة على أنه أقدر على اكتساب الجديد والاستفادة منه لخدمة بلده . كما أنه أقدر على التفكير العلمى ، وعلى استخدام المنهج العلمى فى حل مشكلاته ومواجهة متطلبات عمله بصفة خاصة، ومجتمعه بصفة عامة . والمتعلم -فى نهاية الأمر- أوعى بظروف مجتمعه وواقع حضارته، مما يمكنه من تحقيق أكبر استفادة منهما، ليس فقط لصالحه الشخصى، بل -أيضًا- لصالح مجتمعه فى نفس الوقت .

الأمية فى الدول العربية :

إذا كان للأمية كل هذا التأثير السلبى على قضية التنمية فى أى مجتمع، فإنه لمن سوء حظ العالم العربى أن يكون لدوله نصيب كبير من انتشار الأمية هو -بلا شك- مرتبط أشد الارتباط بتخلف التنمية فيها حتى الآن . ففى وثيقة «استراتيچية محو الأمية فى البلاد العربية» التى قدمت لمؤتمر الإسكندرية الثالث لمحو الأمية الذى انعقد فى دبسمبر ببغداد من عام ١٩٧٦ ، نقرأ فى صفحة (٨) بها هذه الفقرة :

«وتشير معظم الوثائق المعنية بتقدير حجم مشكلة الأمية والجهود التى بذلت فى مواجهتها، إلى أن الموقف فيها قد وصل إلى مرحلة من الجمود، بل إنه فى تراجع فى بعض الأحيان . فخطر الأمية ما زال متفاقمًا رغم الجهود الطويلة المبذولة ، وهو بذلك يقتضى بالضرورة وقفة تاريخية للانطلاق إلى عمل حاسم وجاد فى إطار مسئولية قومية وتاريخية تقع على عاتق الأمة العربية حكومات وشعوبًا ، إن مشكلة الأمية قد أصبحت عبئًا ينوء به كل قطر عربى ، لقصور الإمكانات البشرية والمادية والفنية عن التصدى لمصادرها ومظاهرها وآثارها »[١].

ونظرة على ما هو متاح من إحصاءات عن واقع الأمية فى العالم العربى تؤكد هذه الحقائق. ففى دراسة تحليلية للدكتور سعد زغلول (خبير السكان بالمركز الديموجرافى بالقاهرة) عن السكان والأمية فى الوطن العربى ، يذكر «لازالت نسبة الأمية مرتفعة فى الوطن العربى رغم انخفاضها المستمر من ٨٠٪ إلى ٧٣٪ إلى ٦٣٪ فى الأعوام ١٩٦٢ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ على الترتيب »[٢].

كما نقتبس الجدول التالى من نفس الدراسة للمقارنة بين انتشار الأمية فى الأعمال المختلفة فى بعض الدول العربية :

١- الوثيقة المذكورة من منشورات الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار، مطبعة دار التأليف .

٢- الدكتور سعد زغلول . دراسة تحليلية للسكان والأمية فى الوطن العربى ، تعليم الجماهير، العدد التاسع، السنة الرابعة ، مايو ١٩٧٧ (تصدر عن الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار) ، ص٤٥ .

النسب المئوية للأمية حسب العمر والنوع فى بعض دول الوطن العربى[١]

فئات السن	مصر ١٩٦٠		اليمن الشمالى ١٩٧٥		الكويت ١٩٧٠		كويتيون فقط ١٩٧٠	
	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى
-١٠	٤٧	٦٦	٧٠	٩٤	٨	١٧	٧	٢٣
-١٥	٥٠	٧٣	٧١	٩٦	٢٢	٣٦	١٢	٤٣
-٢٠	٥١	٧٩	٧٠	٩٧	٣٣	٤٤	٢٣	٦٢
-٢٥	٥٥	٨٥	٧٢	٩٩	٣٣	٥٣	٣٣	٧٨
-٣٠	٥٦	٨٨	٧٧	٩٩	٣٣	٦٠	٣٨	٨٤
-٤٠	٦٢	٩١	٧٧	٩٩	٣٦	٦٩	٤٧	٨٨
-٤٥	٦٣	٩٣	٧٩	١٠٠	٤١	٧٦	٥٧	٩٢
-٥٠	٦٦	٩٤	٧٧	٩٩	٤٥	٨٢	٦٢	٩٤
-٥٥	٦٩	٩٥	٧٩	١٠٠	٥٦	٩٠	٦٩	٩٨
-٦٠	٦٨	٩٦	٨٤	٩٩	٥٧	٩١	٧١	٩٧
-٦٥	٧٢	٩٧	٨١	٩٩	٧٠	٩٤	٧٩	٩٨
-٧٠	٧٣	٩٧						
-٧٥	٧٩	٩٨	٨٢	٩٩	٨٢	٩٧	٨٧	٩٩
+٧٥	٧٣	٩٨						

١- المرجع السابق ، ص٤١ .

ويتضح من الجدول السابق أن الأمية أكثر انتشاراً بين الإناث عنها بين الذكور، وبين الأعمار الكبيرة عنها بين الأعمار الصغيرة . ولعل ذلك راجع فى أساسه إلى أوضاع المرأة العربية الخاصة، وإلى زيادة الوعى بأهمية التعليم فى وقتنا الحاضر عنه فى الماضى . مما يدفع بأولياء الأمور إلى الاهتمام بتعليم أبنائهم .

مستقبل جهود محو الأمية فى العالم العربى :

أما عن المستقبل القريب لمحاولات محو الأمية فى العالم العربى فإنه لايبشر بالخير حتى الآن. ففى التلخيص الذى قام به الدكتور سيد عبد العال لوثيقة : «أوضاع الأمية فى البلاد العربية، » التى عرضت على مؤتمر الإسكندرية الثالث لمحو الأمية -والذى سبقت الإشارة إليه- نقرأ التالى :

«باستعراض الوضع الحالى ، نجد أن عدد الأميين على مستوى الوطن العربى (سبع عشرة دولة) قد بلغ عام ٧٣ / ٧٤ حوالى خمسة وثلاثين مليونًا ونصف المليون ، بينما بلغت أعداد الدارسين المقيدين فى فصول محو الأمية لنفس العام ٧٠١,٦١٦ دارسًا فقط ، بنسبة لاتتعدى ١٩٨ لكل عشرة آلاف ؛ أى حوالى ٢ ٪ فقط من الأميين الموجودين .

«كما أن عدد الناجحين فى نفس العام قد بلغ ٢٢٠,٨٦٨ دارسًا مفروض أن أميتهم قد محيت ؛ ومعنى ذلك أن نسبة الناجحين إلى الأميين لاتتعدى ٦ فى الألف ؛ أى أقل بكثير من ١٪ ، ومعنى ذلك -أيضًا- أنه إذا كنا نمحو أمية حوالى ١٪ سنويًا ، فنحن نحتاج إلى مائة سنة كى نمحو أمية الأميين الحاليين مع افتراض ثبات جميع الظروف والمتغيرات بما فيها -بطبيعة الحال- ثبات حجم الأميين الحاليين على ما هو عليه دون زيادة جديدة ، وهو افتراض خاطئ فى ظل التسرب من التعليم الابتدائى ، وعدم الوصول إلى الاستيعاب الكامل للملزمين»[1].

ومن الواضح أن هذا النص فى غنى عن أى تعليق . ونظراً للأهمية الكبرى لمحو الأمية، ولفشل الجهود المبذولة فيها حتى الآن، فإن هذا يدعونا إلى إعادة النظر فى برامجنا لمحو الأمية ، واتخاذ إجراءات حاسمة فى هذا الشأن دون إبطاء حتى لايزداد تخلفنا عن ركب الحضارة الحالى . وأقترح لذلك ما يلى :

١- أوضاع الأمية فى البلاد العربية . تلخيص الدكتور سيد عبد العال ، تعليم الجماهير نفس العدد السابق الرجوع إليه، ص٥٦ .

١- القيام ببحوث علمية يعاد فيها تقييم برامجنا ووسائلنا وخططنا لمحو الأمية للبحث عن عوامل فشلها واكتشاف وسائل علاجها، وتطبيق هذه الوسائل . ولعل المجال هنا يكون مناسبًا لدراسة تجارب الدول التى سبقتنا فى القضاء على أمية مواطنيها ونقل الوسائل التى استخدمتها لذلك إلى بيئتنا ، طالما كانت ملائمة لها، أو تعديلها بما يتناسب وظروفنا .

٢- رفع حافز المواطنين لمحو أميتهم ، كربط برامج محو الأمية بتعلم مهنة رابحة تفيدهم فى تحسين أوضاعهم المالية وحياتهم المعيشية ، ومثل اشتراط محو الأمو للتعيين وللترقى داخل مؤسسات العمل .

٣- تخصيص جزء من الخدمة الإجبارية لكل من يتخرج من الجامعة أو غيرها من المؤسسات التعليمية من الجنسين لمحو أمية عدد معين من المواطنين، يتحدد بناءً على تخطيط معين يوضع لمحو الأمية فى الدولة فى زمن مناسب لايتعدى السنوات العشر، واعتبار ذلك شرطًا ضروريًا وواجبًا حتميًا ملزمًا لكل هؤلاء ، كالتجنيد العسكرى تمامًا .

٤- تحويل فائض العمالة التى تشكو منها معظم مؤسساتنا ومصالحنا من خريجى الجامعات ، وغيرها من المؤسسات التعليمية ، للخدمة فى مجال محو الأمية .

٥- هذا مع ضرورة مراعاة أمور عامة ، مثل تدريب معلمى محو الأمية وزيادة عددهم ، وصرف مكافآت تشجيعية مجزية ومغرية لمن ينجح منهم فى محو أمية عدد كبير من المواطنين، ورصد ميزانية مالية أكبر لمؤسسات محو الأمية . وتوجيه عناية أكبر نحوها .

٦- التوسع فى فصول المدارس الابتدائية حتى تتسع لكافة الأطفال فى سن الإلزام .

٧- ولايفوتنا -أخيراً- أن نسجل هنا أن محو الأمية فى الدول العربية هو تحد حضارى يواجهها فى مستقبلها القريب والبعيد معًا ، وأنه ما لم تخلص نوايا المسئولين فى ملاقاة هذا التحدى والانتصار عليه، فسوف تصبح كل خطط محو الأمية فى البلاد العربية وجهودها مظهراً -فقط- خاليًا من المضمون ، لايحقق أى تقدم ، ولايرجى منه أى نفع .

التعليم وتخطيط القوى العاملة :

إذا كانت الأمية تحديًا حضاريًا يعوق عمليات التنمية فى مجتمعاتنا التى تجاهد فى سبيل تقدمها ، فإن هناك تحديًا آخر أمام محاولاتنا للتنمية هو عدم اتساق نظمنا التعليمية وبرامجنا فى المؤسسات القائمة بالتعليم فى بلادنا مع احتياجاتنا الفعلية . وهذا يقتضى منا

أن نعيد النظر فى برامجنا التعليمية لتتوافق مع احتياجاتنا الفعلية من نوعيات القوى العاملة اللازمة لبرامج التنمية ونسب هذه النوعيات . ولانستطيع أن ننجح فى هذا إلا إذا قمنا بتخطيط للقوى العاملة اللازمة لبرامج التنمية فى السنوات المقبلة ، بحيث يصبح لنا سابق علم بنوعيات وأعداد المتخصصين فى كل مجال ، مما يلزم لكل عام أو فترة من فترات المستقبل تمشيًا مع طموحاتنا فى التنمية ، ثم -بناءً على علمنا هذا- نكيِّف أعداد الداخلين للدراسة أو التدريب فى كل نوع من هذه التخصصات ، بحيث يتناسب عدد الخريجين منه مع العدد المطلوب لبرامج التنمية فى كل سنة . وبعبارة أخرى، وعلى سبيل المثال ، إذا كانت الخطة الموضوعة للتنمية تقرر حاجتنا فى عام ١٩٨٣ إلى ألف مهندس ميكانيكى، وأن توقعاتنا أن يكون لدينا بالفعل منهم سبعمائة فى هذا العام، وجب علينا ألا نسمح بالدخول لأقسام الميكانيكا بكليات الهندسة فى عام ١٩٧٨ إلا لثلاثمائة طالب أو أكثر قليلاً . وهكذا، يكون تعليمنا موجهًا ليراكب احتياجاتنا الفعلية لعملية التنمية . أما ما يحدث الآن من ترك الأعداد الهائلة تدخل إلى كليات ، مثل الحقوق والآداب، دون حاجة التنمية فعلاً إلى تخريج كل هذه الأعداد الضخمة من هذه النوعية من التعليم ، فإنه يتسبب فى إهدار جزء كبير من الطاقة البشرية للمجتمع ، وعدم الاستفادة منها الاستفادة المثلى فى تنمية مجتمعها وتطويره .

وما يصدق على التعليم العالى يصدق -أيضًا- وبنفس الكيفية على التعليم فى مراحله المختلفة، وبأنواعه المختلفة سواء النظرية أو الفنية ، بل ويصدق -أيضًا- على مراكز ومعاهد التدريب المهنية المختلفة . فإذا كانت التنمية تحتاج فى فترة معينة إلى عمال مهرة ونصف مهرة، وإلى مساعدين فنيين من تخصصات معينة ، وإلى حاملى مؤهلات نظرية أو فنية متوسطة أو عالية ، وكل من هؤلاء بأعداد معينة ، وجب أن نخطط لتخريج وتهيئ كل هؤلاء ليكونوا متوافرين بنفس الأعداد تقريبًا، وفى الوقت المحدد للاحتياج لهم، ويقتضى هذا الأمر -بطبيعة الحال- التوسع فى إنشاء مراكز تدريب مهنى للعمال المهرة ولنصف المهرة ، ممن لايعانون من الأمية، ولايشترط بالضرورة حصولهم على أية مؤهلات علمية، كما يقتضى -أيضًا- التوسع فى إنشاء مراكز تدريب للمساعدين الفنيين ممن يحملون مؤهلات دون المتوسط أو متوسطة ، حيث نجد أن التنمية فى أمس الحاجة إلى توافر كل هؤلاء فى التخصصات المختلفة وبالأعداد المناسبة .

كما نقترح ضرورة إنشاء مراكز تدريب تقدم خدماتها مجانًا لكل من يريد الالتحاق بها

لإجادة حرفة أو مهنة معينة ، وذلك دون التقيد بأى شرط من حيث المؤهل أو السن أو الالتزام بالعمل بعد التخرج .. إلخ .

فإذا ما انتقلنا إلى تفاصيل البرامج والمواد والموضوعات التى تدرس -نظريًا وعمليًا- داخل مؤسساتنا التعليمية وجدناها فى حاجة إلى إعادة نظر . فالسيادة فى مرحلة الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية تكاد تكون تامة للمواد النظرية ، والتنظيرية مما يتسبب عنه أن يزرع فى نفوس النشء امتهان للعمل الحرفى اليدوى، واستصغار لشأنه وقيمته فى مقابل تعظيم لشأن العمل الذهنى والتنظيرى والإدارى. ويكون من نتيجة ذلك نقص اليد العاملة الفنية الماهرة ونصف الماهرة فى الحرف والمهن الضرورية لبناء المجتمع والانطلاق به فى مجال التنمية ، على نحو ما نعانيه فى مصر فى الوقت الحالى فى مهن البناء والتشييد والتأثيث والصيانة .. إلخ.

خلاصة القول أن عالمنا العربى اليوم -فيما يتعلق بأمر التعليم- يعانى معاناة شديدة من انتشار الأمية، ومن قصور تخطيط التعليم فى مراحله المختلفة، وتوجيه النسب الملائمة من طلبته إلى كل نوع منه حسب الاحتياج الفعلى للمجتمع فى الحاضر والمستقبل ، كما يعانى -أيضًا- من إهمال التعليم والتدريب الحرفى والمهنى والعملى واليدوى، واستصغار شأنه فى وقت نجد فيه حاجة الدول الهادفة للتنمية ماسة إلى مثل هذا النوع من التعليم والتدريب. ونحن هنا فى حاجة إلى تضافر العلوم والجهود المختلفة لتتكاتف لبحث وحل مشكلات التعليم والتدريب هذه .

الإنتاج والكفاية الإنتاجية :

يهم المجتمعات النامية -بصفة خاصة- أن يرتفع فيها الإنتاج فى مختلف صوره وأشكاله إلى أعلى حد ممكن من الناحيتين الكمية والكيفية ، بحيث تحقق وفرة فى الإنتاج ، وجودة فى نوعه معًا . وينبغى أن يتحقق ذلك مع مراعاة مبدأ الكفاية الإنتاجية ، الذى يعنى الإنتاج العالى من أجود نوع وبأقل قدر من التكلفة ، مع كفالة أكبر قدر من الراحة الجسمية والنفسية للعاملين .

إن التنمية فى أى مجتمع تعتمد على كفايته الإنتاجية. فما لم يحقق المجتمع درجة كبيرة من الكفاية الإنتاجية فلن يتحقق له معدل النمو الذى ينشده ويخطط له ؛ فالمجتمع ذو الكفاية

الإنتاجية العالية هو الذى يرتقى أسرع فى درجات التقدم . وبالمثل ، فإن مؤسسة العمل ذات الكفاية الإنتاجية العالية هى التى تتمكن من تحقيق أهدافها بشكل أسرع وبدرجة أكبر . ومن هنا كانت الكفاية الإنتاجية هدفًا يتطلع إليه كل مجتمع نام بمختلف مؤسساته وتنظيماته ، ولعل فى رفع المجتمعات النامية لشعار «مجتمع الكفاية» ما يؤيد هذه الحقيقة . وإذا كانت الكفاية الإنتاجية تصلح مقياسًا لتقدم المجتمع النامى خاصة، فإن النظرة العامة على مجتمعاتنا تؤيد الارتباط الكبير بين التخلف فيها ونقص كفايتها الإنتاجية ، سواء فى ذلك على مستوى المجتمع الواحد ككل، أو على مستوى مؤسسات العمل والإنتاج فيه كوحدات جزئية داخل المجتمع ، ومن هنا وجب الاهتمام برفع مستوى الكفاية الإنتاجية داخل كل دولة عربية ككل، وفى كل مؤسسة عمل وإنتاج بالدولة على حدة .

الكفاية الإنتاجية والتعليم :

سبق أن تحدثنا عن مشكلات الأمية والتدريب والتعليم فى بلادنا العربية. ونعود هنا لنؤكد أنه بغير الفرد المدرب والمتعلم لن نصل إلى مستوى الكفاية الإنتاجية الذى نطمح إليه لتحقيق المستوى المنشود من تنمية بلادنا ، ذلك المستوى الذى نعلّق عليه الأمل الأكبر للحاق بركب الدول المتقدمة ، وتضييق ما بيننا وبينها من هوة تبدو فى الوقت الحالى وكأنها تزداد اتساعًا على عكس أمانينا القومية المتركزة فى تضييقها . إن ما سبق أن أشرنا إليه، وما لم نشر إليه من دراسات عن الأمية والتنمية يؤيد الحقيقة القائلة بارتباط الأمية بالتخلف ، وبارتباط التعليم بالتقدم والتصنيع ، والتحضر والمستوى الاقتصادى الاجتماعى المرتفع . بل تؤيد هذه الدراسات الحقيقة القائلة بأن الأمية ونقص التدريب والتعليم فى الدول المتخلفة تعتبر حجر العثرة الذى يقف فى سبيل تنميتها ، و«يأكل» مجهودات التنمية فيها . إن اهتمامنا بمحو الأمية وبتخطيط التدريب والتعليم وتوجيههما وفق احتياجات التنمية- عل نحو ما سبق أن اقترحنا – سوف يساعدنا كل ذلك فى خلق المواطن ذى الكفاية الإنتاجية العالية ولاشك . فعلى سبيل المثال فقط ، نجد أننا لانتوقع من معلم لم يحصل العلم بدرجة مناسبة ، ولم يتدرب على كيفية التدريس التدريب اللازم أن يكون معلمًا ناجحًا لأبنائنا ، بل نتوقع أن تكون كفايته الإنتاجية فى عمله منخفضة . ولعل الشاعر معروف الرصافى أصاب بحسه المرهف قلب الحقيقة حين قال .

إذا ارتوت البلاد بفيض علم　　　فعاجز أهلها يمسى قديرا

الكفاية الإنتاجية ومشكلات العمالة :

تعانى البلاد العربية فى وقتنا الحالى مشكلات عمالة خطيرة ، تؤثر تأثيراً سيئًا على الكفاية الإنتاجية فى مؤسسات العمل ومنظماته بصفة خاصة، وفى المجتمع كحصيلة نهائية بصفة عامة .

وفيما يلى نناقش بعضًا من هذه المشكلات :

١- مشكلة العمالة الزائدة :

يلاحظ أن معظم مؤسساتنا ومصالحنا تشكو من تكدُّس أعداد هائلة من الموظفين والعاملين فيها اسمًا واللاعاملين فعلاً . ولقد بلغت هذه المشكلة حداً كبيراً فى مصر جعل صحافتنا كثيراً ما تتناولها بالنقد والشكوى .

ويلاحظ أنه لهذا التكدس أثراً سلبيًا خطيراً على الإنتاج ، فالموظف الذى لاعمل له يصبح مشكلة بين زملائه ، يشغلهم معه فى قتل وقت فراغه أثناء العمل ، فيصرفهم بذلك عن عملهم، كما أن يصبح أمامهم مثلاً يقتل فيهم طموحهم المهنى وحماسهم للعمل والإنتاج . هذا إلى جانب أن وجود موظف بلا عمل ولادور يؤديه فى مؤسسة عمله يبعث فى نفسه مزيجًا من أحاسيس انخفاض الروح المعنوية وفقدان الانتماء الفعلى لمؤسسة العمل، ونقص الأهمية واعتبار الذات. وكل هذه أحاسيس مدمرة لكيان الشخصية وبنائها. يضاف إلى كل هذا تحمل ميزانية الدولة مرتبات لموظفين بلا إنتاج مما يرهقها . هذا علاوة على حرمان المجتمع من طاقة بشرية كان من الممكن استغلالها لصالح بناء المجتمع وتنميته .

ويرجع تكدُّس العمالة وفائضها بين خريجى الجامعات المصرية إلى التزام الدولة بتشغيل خريجيها ، مع عدم تناسب نوعيات الخريجين وأعدادهم مع المتطلبات الفعلية للدولة، كما يحدث بالنسبة لخريجى الحقوق والآداب ، ولاشك أن التزام الدولة بتعيين خريجيها مبدأ لاغبار عليه، بل هو مطلب ينبغى أن يتمسك به الخريجون شريطة أن تلتزم الدولة بإيجاد الوظائف التى تحتاجهم فعلاً، وتفتح أمامهم الأعمال التى ينتجون فيها فعلاً . ولن تستطيع الدولة أن تحقق ذلك إلا بتخطيط التعليم وتخطيط القوى العاملة ، وإيجاد تنسيق جيد بين هذين التخطيطين ، على نحو ما سبق أن أشرنا .

على أن فائض العمالة (سواء فى مصر أو غيرها) يمكن أن يوجه إلى العمل فى برنامج قومى شامل لمحو الأمية فى الدولة ، فتحقق بذلك فائدة مزدوجة هى القضاء على الأمية من جانب ، وإيجاد عمل فعلى منتج للموظف الذى لاعمل له من جانب آخر .

٢- مشكلة العمالة الناقصة :

لعل من التناقض الصارخ فى ميدان العمالة بالدول العربية أن تعيش مشكلة العمالة الناقصة جنبًا إلى جنب مع مشكلة العمالة الزائدة . فبينما نجد فى مصر -على سبيل المثال- آلاف الموظفين المكتبيين الذين لاعمل لهم، لانكاد نجد العامل الماهر الفنى فى معظم الحرف اليدوية إلا بصعوبة . فما تكاد تلتقى بشخص ينشئ عمارة سكنية حتى يحدثك عن نقص البنائين والسباكين والنجارين والمبلطين والمبيضين . وعن الارتفاع الشديد لأجرهم ، وعن عدم انتظامهم فى العمل بسبب نقص عددهم وزيادة الطلب عليهم، ونفس النقص نجده فى معظم المهن والأعمال الفنية الأخرى.

وإذا كانت للعمالة الزائدة سلبياتها التى تحدثنا عنها، فإن للعمالة الناقصة -بالمثل- سلبيات خطيرة ، لعل أهمها توقف بعض ما نحن فى حاجة إلى إنتاجه أو انخفاض كميته ونوعيته ، مما يصعب معه تحقيق النجاح لبرامج التنمية والإنتاج.

ومشكلة العمالة الناقصة هنا لاتكاد تعالج إلا بما اقترحناه من علاج لمشكلة العمالة الزائدة، عن طريق التخطيط المتكامل بين التعليم والتدريب من جانب وبين القوى العاملة التى يحتاجها المجتمع بالفعل من جانب آخر.

٣- مشكلة سوء توزيع العمالة :

تعانى البلاد النامية عمومًا من سوء توزيع العمالة بها واختلال نسبها، حيث نجد النسب الكبيرة من العمالة فى مهن أقل أهمية ، وأقل عائداً، وأتفه إسهامًا فى الاقتصاد القومى، بينما نجد النسب الصغيرة من العمالة فى المهن الأكثر أهمية والأكبر عائداً والأضخم إسهامًا فى الاقتصاد القومى. وأنقل فيما يلى جدولين[١] عن الدكتور محمود عمر محمود (خبير القوى العاملة والأجور والإنتاج بمعهد التخطيط القومى بالقاهرة ومصدرهما هو : Ilo, Yearbook of Labour Statistics , Geneva, 1975 .

١- دكتور محمود عمر محمود . المعالم الأساسية لهيكل العمالة ونوعيتها فى الوطن العربى، منشورات الجهاز العربى لمحو وتعليم الكبار، ١٩٧٦، ص٩، ١٠ .

ويبدو واضحًا من هذين الجدولين مقدار الخلل فى هيكل القوى العاملة بالبلاد العربية ، ومدى انخفاض نسبة الفنيين والمهنيين فى المقارنة بما هى عليه فى الدول المتقدمة . فعلى الرغم من إيماننا بحاجة المجتمع إلى كافة أنواع العمل والعاملين إلا أنه فى بلادنا العربية تقل الأيدى العاملة الماهرة المدربة والخبراء الفنيين . ومما يزيد من تعقيد هذه المشكلة ما يلاحظ من عدم اكتراث المسؤولين بتشغيل الفرد فى العمل المؤهل له ، فهذا رئيس مخزن لقطع الغيار بينما هو من خريجى كلية الزراعة ، وهذا مدير جمعية تعاونية من خريجى كلية الحقوق ، وهذا مدير شؤون العاملين من خريجى كلية الآداب ... إلخ .

التوزيع النسبى لقوة العمل حسب المجموعات المهنية الرئيسية فى بعض الدول العربية

المجموعة المهنية	المهنيون والفنيون ومن إليهم	الإداريون والمديرون	الكتابيون ومن إليهم	عمال البيع	عمال الخدمات	الزراعة (*)	عمال الإنتاج (**)	عمال غير مصنفين	آخرون (***)	الجملة	السنة
البحرين	٨,٠	١,٧	٨,٦	٨,٦	١٦,٥	٧,٠	٤٦,٥	١,٩	١,٢	١٠٠,٠	١٩٧١
الجزائر	٣,٤	٠,٨	٣,٥	٤,٨	٨,٥	٤٩,٧	١٧,١	٠,٧	١١,٥	١٠٠,٠	١٩٦٦
سوريا	٤,٣	٠,٤	٣,٩	٦,٩	٤,٥	٤٩,٠	٢٧,٢	٣٨,٨	–	١٠٠,٠	١٩٧٠
الكويت	١٠,٥	٠,٧	١١,٦	٨,٧	٢٣,٧	١,٦	٣٩,٦	,٢	٣,٤	١٠٠,٠	١٩٧١
ليبيا	٣,١	١,٤	٤,٨	٦,٠	١٠,١	٣٧,٤	٢٥,٦	١١,٦	–	١٠٠,٠	١٩٦٤
مصر	٤,٤	١,٦	٥,٠	٥,٨	٦,٩	٤٥,٦	١٩,٥	١١,٢	–	١٠٠,٠	١٩٦٦
المغرب	٤,٠	٣,٠	–	٥,٦	٨,٢	٥١,٤	١٩,٢	٨,٦	–	١٠٠,٠	١٩٧١
تونس	٤,٠	٠,٧	٢,٧	٥,٤	٥,٩	٣٨,٩	٣٦,٥	٥,٩	–	١٠٠,٠	١٩٦٦
لبنان	٩,٢	١,٩	٧,٩	١١,٥	١١,٠	١٧,٨	٣٢,١	٢,٨	٥,٨	١٠٠,٠	١٩٧٠

المصدر : تم تجميع هذا الجدول من : Ilo , Yearbook of Labour Statistics, Geneva, 1975 .

* تشمل عمال الزراعة وتربية الحيوانات والنباتات وصائدى البر والبحر .

** تشمل عمال الإنتاج ووسائل النقل والمناجم والمحاجر .

*** تشمل الباحثين عن عمل لأول مرة والمتعطلين .

نسبة المهنيين والفنيين ببعض الدول

الصناعية إلى إجمالى قوة العمل

الدولـــــة	النسبة	السنة
كندا	١٤,٠	١٩٧٥
بلجيكا	١١,١	١٩٧٠
الولايات المتحدة	١٣,٨	١٩٧٠
النمسا	٨,٧	١٩٧١
تشيكوسلوفاكيا	١٩,٤	١٩٧٠
ألمانيا الاتحادية	٩,٨	١٩٧٠
المجر	١٠,٩	١٩٧٠
النرويج	١٤,٤	١٩٧٤
سويسرا	١٢,١	١٩٧٠
السويد	٢١,١	١٩٧٤
المملكة المتحدة	١١,١	١٩٧١

المصدر: تم تجميع الجدول من: Ilo, Yearbook of Labour Statistics. Geneva.1975

وهذه المشكلة بدورها هى حصيلة المشكلتين السابقتين وتعكسهما بوضوح ، مما يؤكد حاجة البلاد العربية إلى تخطيط سياسة التعليم والتدريب والتشغيل فيها ، لتتمشى والاحتياجات الفعلية لخطط التنمية والنهوض بها .

٤- مشكلة التسيب وانعدام القدوة الصالحة :

إن معظم البلاد النامية - ومنها بلادنا العربية- تعانى من مشكلة خطيرة فى ميدان العمل هى انعدام الإحساس بالمسئولية المتعلقة بواجبات الوظيفة . فنحن كثيراً ما نسمع أو نقرأ شكوى ؛ مثل أن تكون لك حاجة تريد قضاءها من مصلحة أو إدارة فتصدم بمعوقات كثيرة تستنفد وقتك وطاقتك حتى تنجح فى قضائها . فهذا الموظف يحيلك إلى ذاك، وذاك يحيلك إلى غيرهما ، وهذا لايهتم بحاجتك ولايريد إتعاب نفسه فى قضاء واجباته حيالها ، وذاك فى

حاجة إلى رشوة ... ، حتى إذا ما ضقت بكل هذا ، فذهبت إلى رئيسهم تطلب مساعدته غالبًا ما تجده أفسد منهم ، وأقل إحساسًا بالمسئولية ، وأقل اكتراثًا بواجبات وظيفته . وبعبارة أخرى ، فإن التسيب يعم كثيراً من العاملين فى البلاد النامية ، كما أن رؤساءهم -فى كثير من الحالات- لايقلون تسيبًا عنهم، وبهذا تنعدم أمام العاملين القدوة الصالحة لهم فى رؤسائهم، فيزداد فسادهم ويضطرب وفاؤهم بما عليهم من واجبات وظائفهم .

وخطورة هذه المشكلة ، علاوة على أنها تقلل الكفاية الإنتاجية، تتمثل فى تعطيل مصالح أفراد المجتمع وتبديد طاقاتهم ووقتهم الذى كان ينبغى استثماره فى عمل منتج يسهم فى تنمية بلدهم ، كما أنه -من جانب آخر- يهز ثقة المواطن فى مجتمعه، ويقلل من روحه المعنوية ومن اعتزازه بوطنيته، ويزيد إحساسه بالاغتراب وهو فى وطنه. ويضاف إلى كل السلبيات تردد البلاد الغنية التى تريد مساعدتنا عندما تفقد الثقة فى جديتنا وانضباطنا وضميرنا فى العمل.

ولاشك أن تلك المشكلة الخطيرة تحتاج إلى حل حتى نوقف أو نقلل من آثارها المدمرة على مجتمعنا . ولعل من أهم ما نقترحه من حلول لها هو رفع دافع الموظف نحو أداء واجبات وظيفته عن طريق المكافآت المالية وزيادة الراتب أو الأجر، الذى يكفل له حياة كريمة ، وكذلك عن طريق تقديم القدوة الحسنة فى رؤسائه . فرئيس المؤسسة أو المصلحة الذى تعرف عنه الرشوة، واستغلال النفوذ ، إنما هو يبرر لكافة من يعمل معه ويسوغ قبول الرشوة واستغلال النفوذ ولن يستطيع أن يحاسب أحدهم مخافة أن يقوموا بكشف أمره . فى حين أن الرئيس النزيه يعتبر قدوة صالحة يقتدى بها من هم دونه فى السلم الإدارى، وإذا ما سولت لهم أنفسهم العبث بواجبات وظيفتهم واستغلوها استطاع هو أن يحاسبهم دون خشية . ولهذا، فإن فساد هذا الرئيس يكون له من الآثار السلبية ما يفوق فساد مئات ممن هم أقل منه فى السلم الإدارى. ولعل هذا ما يدعو إلى ضرورة الاهتمام بالرؤساء في المصالح والمؤسسات، ومتابعة انحرافاتهم وتنحيتهم بمجرد ثبوتها .

عوامل رفع الكفاية الإنتاجية :

سبق أن أشرنا إلى أن البلاد النامية تعانى من نقص فى الكفاية الإنتاجية بشكل ملحوظ ، الأمر الذى ينعكس على معدل التنمية بها، حتى أنها فى بعض البلاد تكاد تتوقف أو تسير خطى بطيئة لاتكاد تحس . والآن نعرض بعض العوامل التى نرى أنها شديدة الفاعلية -إذا طبقناها- لرفع الكفاية الإنتاجية .

١- محو الأمية ورفع مستوى التعليم :

وذلك على نحو ما سبق أن ناقشنا فى هذا البحث ، وانطلاقًا من حقيقة ارتباط المجتمع بمستوى التعليم فيه ، على نحو ما سبق أن ذكرنا .

٢- علاج مشكلات العمالة :

على نحو ما سبق أن فرغنا منه الآن .

٣- استخدام الأساليب العلمية فى اختيار وتوجيه وتدريب المتدربين :

سبق أن ذكرنا أن البلاد النامية عمومًا تعانى من نقص الحرفيين المهرة والفنيين والخبراء ومساعديهم ، وذكرنا لعلاج هذا النقص أن نهتم بإنشاء مراكز مختلفة فى مستوياتها للتدريب. وحتى تؤدى هذه المراكز دورها بنجاح فى تدريب ورفع مهارة المتدربين على الحرف المختلفة، ينبغى أن يتم اختيار طلبة التدريب، أو توجيههم إلى أقسام التدريب، وفق خطة علمية للاختيار والتوجيه ، تقوم على أساسين :

أولهما : تحليل العمل أو الحرفة التى سيتدرب عليها طالب التدريب لمعرفة الاستعدادات الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية اللازمة للنجاح فيها .

وثانيهما : تحليل طالب التدريب نفسه للاطمئنان إلى أن الاستعدادات الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية اللازمة للنجاح فى العمل أو الحرفة تتوافر فيه. ويتم هذا التحليل باستخدام الأساليب المختلفة فى القياس النفسى ؛ كالاختبارات النفسية والمقابلة وغيرها .

فإذا ما تم اختيار طلبة التدريب فى الأقسام المختلفة وتوجيههم ، مع مراعاة هذين الأساسين ضمنًا أن يتدرب كل متدرب فى المهنة أو العمل الذى يناسبه ، مما سوف يرفع بالضرورة من كفايته عندما ينتهى من تدريبه عليه ويعمل بالفعل فيه .

كما ينبغى اتباع أساليب التدريب الحديثة وأسسه العلمية والفنية حتى ترتفع درجة استفادة المتدرب منه، وتحقق مراكز التدريب ومؤسساته الهدف منها. ويحدد لنا كل من الفنيين وخبراء التدريب والخبراء النفسيين أفضل أساليب التدريب ، ويزيدونا وعيًا بأسسه ، وبما ينبغى اتباعه لرفع كفاءته .

٤- استخدام الأساليب العلمية فى اختيار وتوجيه وتعليم تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات والدراسات العليا :

ونقصد بذلك أن يتم اختيار التلاميذ والطلبة وتصنيفهم وتوجيههم إلى أنواع وأقسام التعليم بمراحله المختلفة ، وفق استعدادات الطالب الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية، ومدى ملاءمتها لنوع الدراسة الذى سوف يتلقاه . ويتم هذا بنفس الكيفية التى شرحناها فى البند السابق عن المتدربين . ولاشك أن نجاحنا فى ذلك سوف يؤدى إلى رفع مستوى كفاءة مدارسنا ومعاهدنا العلمية ، وإلى تحقيق أعلى نسبة نجاح ممكنة بين طلبتها ، طالما كان كل منهم يدرس المادة التى تتفق واستعداداته المختلفة .

٥- استخدام الأساليب العلمية فى اختيار وتدريب العاملين :

إن العاملين على اختلاف مستوياتهم ونوعياتهم ينبغى أن يتم اختيارهم أو توجيههم إلى نوع العمل الذى يتناسب واستعداداتهم الجسمية والعقلية والمعرفية والشخصية . ولن ترتفع كفاية العامل أو الموظف الإنتاجية إلا إذا وضع فى العمل الذى يناسبه ، وهذا ما يعرف بمبدأ «وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب» .

أما كيف يتم ذلك ، فنقول إنه ينبغى أن يتم على أساس من تحليل العمل الذى نختار له العامل أو الموظف أو نوجهه إليه ، لنتبين ما يتطلبه هذا العمل من خصائص واستعدادات جسمية وعقلية ومعرفية وشخصية ، ثم يتم تحليل لطالب العمل لقياس وبيان مدى توافر هذه الخصائص المطلوبة فيه، لكى يختار أو يوجه إلى نوع العمل الذى يتناسب واستعداداته المختلفة. ولاتكاد الأساليب العلمية هنا تختلف عن مثيلاتها فى البندين السابقين [١].

وعلينا أن نلاحظ أن أساليب العمل فى تطور وتغير مستمرين ، ولهذا ينبغى أن نتنبه إلى أهمية التدريب المستمر للعامل والموظف ، كلما دعت الضرورة لذلك، حتى يلاحق أحدث تطورات أساليب العمل ووسائله وأدواته من جانب ، وحتى يكتسب مهارة أكبر فى مواجهة مشكلاته من جانب آخر . ولذا، فإن كثيراً من مؤسسات العمل تعقد دورات تدريبية بين الحين

١- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابنا . «علم النفس الصناعى والتنظيمى» ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ (الفصلان الثالث والرابع) .

والآخر للعاملين فيها على مختلف مستوياتهم ، على نحو ما يحدث فى القوات المسلحة للدول المتقدمة ، إذ تحتم قوانينها عدم الترقى إلا بناءً على النجاح فى الدورات التدريبية التى تعقدها لكل مستوى على حدة. وينبغى أن نستعين لزيادة كفاءة التدريب بالأسس والوسائل العلمية والفنية ، على نحو ما سبق أن ذكرنا فى البند الأسبق (البند الثالث) .

٦- وضع سياسة عادلة للأجور والحوافز والترقى :

يقول علم النفس إن كل سلوك وراءه دافع . ولذا ينبغى أن نعمل بكل ما نستطيع لزيادة دافع العامل أو الموظف نحو العمل والإنتاج . ولعل من أهم العوامل التى تزيد دافع العامل أو الموظف نحو أداء واجبات وظيفته على الوجه الأكمل هو وضع سياسة عادلة وموضوعية، يتحدد بناءً عليها أجره دون ظلم، ويمنح بناءً عليها حوافز إن أصاب دون محاباة، ويجازى على أساسها إن أخطأ أو أهمل دون تعسف أو تعنت ، ويرقى وفقها إن كان يستحق الترقية دون مجاملة أو واسطة .

إن المساواة والعدالة والموضوعية فى كل هذا سوف ترفع روح العاملين المعنوية، وتحفزهم على الاهتمام بالعمل والإنتاج ، وتفتح أمامهم باب الطموح لتحسين وضعهم وتحقيق أمانيهم، وتجعلهم مطمئنين على حاضرهم ومستقبلهم .

ويلاحظ أن البلاد النامية - نتيجة سيادة العلاقات والقيم القبلية المختلفة فيها - تتجاهل إلى حد كبير - العدالة والموضوعية فى هذه الأمور، مما يعود على الكفاية الإنتاجية بأضرار جسيمة .

٧- العناية باختيار الرؤساء وترشيد الإدارة :

سبق أن أشرنا عند مناقشة مشكلات العمالة (المشكلة الرابعة) إلى أهمية صلاحية رئيس المؤسسة . ونعود هنا لنؤيد أهمية اختيار الرؤساء والمديرين المناسبين لرفع الكفاية الإنتاجية لمؤسسة العمل . فمن المعروف أنه فى أحد تقارير الأمم المتحدة عن أسباب فشل المشروعات التى حاولت أن تعين بها بعض البلدان النامية ، ذكرت أن هذا الفشل يرجع -فى الجزء الأساسى منه- إلى عدم توافر الإدارة الناجحة لهذه المشروعات فى البلاد النامية .

فالمدير المرتشى أو المستغل لنفوذه أو الفاسد الضمير ، أو غير المؤهل من حيث كفاءته لإدارة مؤسسة ما أو مصلحة ما، أو قسمًا ما، سوف يتسبب -لامحالة- فى خفض الكفاية

الإنتاجية لما يديره . ومن هنا كانت ضرورة مراعاة الدقة فى اختيار الرؤساء والمديرين ، والاطمئنان إلى سلامة ضمائرهم، وإلى ارتفاع مستوى قدراتهم ومهاراتهم وخبراتهم وتأهيلهم فيما يتعلق بنوعية ما تسند إليهم من إدارة أو رئاسة . ومن الواضح أن هذا البند يتفق وما سبق أن ناقشناه فى البند الأسبق (البند الخامس) ويقوم على نفس أسسه وأسبابه .

وينبغى ألا نكتفى باختيار الصالح من الرؤساء والمديرين فقط، بل لابد وأن نضيف إلى ذلك ضرورة ترشيدهم أو توعيتهم بأساليب الإدارة والرئاسة المثلى، تلك الأساليب التى تعمل على خلق الجو الاجتماعى والنفسى الملائم للعمل، وترفع فى نفس الوقت الروح المعنوية للعاملين تحت رئاستهم وإدارتهم ، فترتفع تبعًا لذلك الكفاية الإنتاجية للمؤسسة . فلقد أثبتت الدراسات والبحوث أن هناك أساليب معينة ترفع الإنتاجية والروح المعنوية والراحة النفسية للعاملين فى نفس الوقت : مثل دراسات ليڤين وليبيت وهوايت عن ميزات الجو الإدارى الديمقراطى فى المقارنة بالجو الديكتاتورى والجو الفوضوى [١].

ولقد تنبّهت كثير من المجتمعات إلى أهمية ترشيد الرؤساء والإدارة ، وخصصت لهم مراكز ومعاهد ودورات لتدريبهم على أفضل أساليب الإدارة والرئاسة ، وأفضل الحلول والإجراءات لمواجهة مشكلات العاملين ورفع روحهم المعنوية ودوافعهم نحو العمل والإنتاج ، وتبصير هؤلاء الرؤساء والمديرين بأسس العلاقات الإنسانية وأهميتها داخل جماعات العمل، وآثارها على الكفاية الإنتاجية .

٨- تهيئة ظروف العمل الطبيعية المناسبة :

لكى يعمل الإنسان بكفاية إنتاجية عالية، لايلزمه -فقط- أن يكون العمل مناسبًا لاستعداداته ، وأن تكون الإدارة صالحة رشيدة ، بل لابد وأن تضاف إلى هذا وذاك ظروف طبيعية مناسبة فى مجال عمله. فعلى سبيل المثال، لانتوقع لفرد أن يعمل بكفاية إنتاجية عالية إذا كانت درجة الحرارة فى بيئة عمله مرتفعة أكثر من الحد المناسب ، أو منخفضة عن الحد المناسب ، أو كانت درجة الرطوبة أعلى من الحد المناسب ، أو كانت درجة التهوية أقل مما يجب، أو كانت الإضاءة غير مناسبة خفوتًا أو شدة ... إلخ .

١- لمزيد من التفاصيل عن أساليب الإدارة وأهميتها لرفع الكفاية الإنتاجية يمكن الرجوع إلى كتابنا -سابق الذكر- فى الفصلين الخامس عشر والسادس عشر .

وهناك الكثير من الدراسات والتجارب التى تؤيد تأثير الظروف الطبيعية المختلفة على الكفاية الإنتاجية للعاملين [١]. ولذا ينبغى أن نهيئ هذه الظروف المناسبة فى بيئة العمل بقدر استطاعتنا . كما ينبغى أن يصمم مكان العمل ومواضع الآلات والأدوات والخدمات على الشكل الملائم المدروس. ولاشك أن إمداد العامل بالآلات الجيدة والأدوات والخامات المناسبة، سوف يكون له -أيضًا- أثر كبير فى رفع كفايته الإنتاجية .

خاتمة :

أشرنا فى البداية إلى قيمة العنصر البشرى فى بناء المجتمع وتقدمه . وذكرنا أن إعداد العنصر البشرى الصالح لتحقيق هذه الغاية يتم أساسًا من خلال عمليات التعليم والتدريب الرشيدة.

وفى الصفحات السابقة ناقشنا بعض القضايا والحقائق المتعلقة بكل من الأمية والتعليم والتدريب والكفاية الإنتاجية . ولعل العلاقة الوثيقة بين كل من محو الأمية ورفع مستوى التعليم والتدريب من جانب، وبين الكفاية الإنتاجية من جانب آخر، قد اتضحت . ولاشك، أنه قد اتضح لنا الآن أن انتشار الأمية ، وانخفاض مستوى التعليم والتدريب مشاكل وعقبات تحول بين الدول النامية وبين نجاحها فى تحقيق تقدمها ، وتكاد تهدد جهودها التى تبذلها فى برامج التنمية ، لذا ينبغى أن تخلص نوايا المسئولين نحو الأمية ورفع مستوى التعليم والتدريب والكفاية الإنتاجية على نحو ما اقترحنا . وإذا كنا نهدف حقًا إلى اللحاق بالدول المتقدمة ، وإلى رفع مستويات شعوبنا ومواطنينا ، فعلينا أن نعلم أنه بدون تعليم وتدريب ، وبلا كفاية إنتاجية ، فلن تتم أية تنمية .

* * *

المراجع :

١- سعد زغلول : دراسة تحليلية للسكان والأمية فى الوطن العربى ، تعليم الجماهير ، عدد : ٩ ، مايو١٩٧٧ .

١- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى كتابنا -سابق الذكر- فى الفصل الرابع عشر منه .

٢- فرج عبد القادر طه : علم النفس الصناعى والتنظيمى، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٣- محمود عمر : المعالم الأساسية لهيكل العمالة ونوعيتها فى الوطن العربى، من منشورات الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار، ١٩٧٦ .

٤- الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار : أوضاع الأمية فى البلاد العربية ، تلخيص : سيد عبد العال ، تعليم الجماهير، عدد : ٩ ، مايو ١٩٧٧ .

٥- الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار : استراتيجية محو الأمية فى البلاد العربية ، ١٩٧٦ .

ترشيد سياسات الاختيار والتوجيه المهنى للتلاميذ الصناعيين *

«منظور سيكلوچى»

تمهيــــد :

نقدم فى الصفحات التالية اجتهاداً يمثل وجهة نظر سيكلوچية فى ترشيد سياسات الاختيار والتوجيه المهنى للتلاميذ الصناعيين، يتسع طموحها بقدر ثقتنا فى مجتمعنا المصرى النامى، وتضيق حدودها بقدر تخصصنا العلمى المحدد، بما يفسح مجالاً واسعًا للتخصصات العلمية الأخرى ، أن يقدم كل منها منظوراً آخر لنفس القضية- حسب مدى اهتمامه بها- لاشك يكمل ويتكامل مع المنظور السيكلوچى فى رسم سياسة ترشيدية أمثل للقضية التى نبحثها .

ومنذ البداية علينا أن نذكر بأن التحدى الحقيقى الذى يواجه المجتمع المصرى كمجتمع نامٍ هو قضية التنمية، والتى هى -فى نهاية الأمر- قضية العمل والإنتاج . إن الإنجاز الكفء لواجبات العمل الملقاة على عاتق أفراد المجتمع والكفاية الإنتاجية لهم (التلميذ فى مدرسته ، والطالب فى جامعته ، والمتدرب فى معهد تدريبه ، والعامل فى مصنعه ، والباحث فى معمله، والأستاذ فى معهده ، والمفكر فى مجاله ، والعالم فى ميدانه ، والرئيس فى مركز رئاسته ، والمشرف فى موقع إشرافه ، والطبيب فى مستشفاه ، والزارع فى حقله ... إلخ) هى التى تحدد فى النهاية مدى التنمية التى حققها المجتمع ، ومستوى التقدم الذى وصل إليه والرقى الذى حققه . ولقد كانت لعلم النفس فى كل ذلك إسهامات لاتنكر[1] كأحد فروع المعرفة الإنسانية، والتخصصات العلمية، التى خلقها المجتمع البشرى وطورها لخدمته .

---

* البحث الذى اشترك به المؤلف فى مؤتمر ، «تقويم مراكز التدريب المهنى فى مصر» الذى عقد بجامعة الإسكندرية فى أبريل عام ١٩٨١ . وقد عرض البحث ونوقش فى الجلسة الثانية من جلسات المؤتمر .

١- يرجع لمناقشة ذلك باستفاضة إلى :

أ- دكتور فرج عبد القادر طه . علم النفس وقضية التنمية ، مجلة «المناهل» المغربية، مجلد : ٣ ، عدد : ٦ ، يوليو ١٩٧٦ ، والوارد -أيضًا- بكتابنا : علم النفس وقضايا العصر ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩ .=

التدريب والإنتاجية :

التدريب -فى نهاية الأمر- ليس أكثر من عملية تعليم مقصودة ومنظمة ومقنَّنة لتعليم وإجادة مهنة معينة أو عملاً معينًا . فنحن نعلم الفرد القراءة والكتابة وندرِّبه عليهما ، كما نعلِّمه مهنة معينة أو عملاً وندرِّبه عليه . والفرد منذ بداية وعيه فى حاجة إلى التعليم والتدريب حتى يصبح عضواً منتجا فى مجتمعه ، يسهم فى بنائه وتقدمه وتنميته . وبهذا لايصبح عالة عليه يأخذ منه -فقط- ما هو فى حاجة إلى استهلاكه ، بل يعطيه -أيضًا- من طاقته وإنتاجه ما يفوق على ما يأخذه .

وتدريب الفرد من أكبر العوامل التى تؤدى إلى رفع مستوى إنتاجيته، وهذا ما جعل كافة المجتمعات تقريبًا تهتم بالتدريب وتوليه عناية خاصة . فعن طريق التدريب يتعلم الفرد سريعًا العمل المعين أو المهنة المعينة التى يتدرب عليها ، وعن طريقه -أيضًا- ترتفع مهارته بسرعة فى العمل المعين أو المهنة المعينة التى كان ضعيف المهارة فيها أو متوسطها . فبعد التدريب عليها تزداد كفاءته على أدائها ، ويرتفع مستوى مهارته فيها بسرعة تفوق ما يكتسبه عن طريق الخبرة العشوائية التى يتعرض لها إن مارس العمل دون تدريب منظم مبرمج، كما يحدث فى برامج التدريب الخاصة أو مراكزه المعينة . فعلى سبيل المثال ، تبين من إحدى الدراسات[١] أن الوقت اللازم لتغيير أسلحة مقص متحرك كان فى المتوسط ٢٩ دقيقة، حيث لم يطرأ عليه تحسن خلال ست سنوات ، وعندما تلقى العاملون برنامجًا تدريبيًا مناسبًا انخفض هذا الوقت حتى أصبح ١٨ دقيقة فى المتوسط ؛ أى انخفض بمقدار يزيد عن الثلث مما وفر للمؤسسة مبالغ طائلة . كما يعمل التدريب -أيضًا- على التقليل من كمية التلف فى الآلات والمواد المستخدمة فى عملية الإنتاج. ففى أحد البحوث[٢] قل استبدال عجلات التجليخ بالتدريج مع

= ب- فرج عبد القادر طه . علم النفس الصناعى والإدارة ، المؤتمر العربى الأول لتدريس العلوم الإدارية بالقاهرة ، ١٩٧١ ، والمنشور -أيضًا- بكتابنا السابق .

جـ- فرج عبد القادر طه . علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج، مجلة الفكر المعاصر مارس، ١٩٧٠ .

١- نورمان ماير . علم النفس فى الصناعة، ترجمة محمد عماد الدين إسماعيل وصبرى جرجس وأمين كمال محمد ، مؤسسة الحلبى ، القاهرة، ١٩٦٧ ، ٤١٤ .

٢- المرجع السابق ، ص٤١٥ .

ازدياد فترة التدريب، حتى بلغ معدل الاستبدال ، بالنسبة لمن تلقوا تدريبًا لمدة ١٢ أسبوعًا ، نصف معدله للعمال ذوى خبرة مدة ١٦ أسبوعًا ، مما يؤكد أن البرامج التدريبية المنظمة أفضل قيمة من الخبرة غير المنظمة ، والتى يحصل عليها العامل بشكل تلقائى وعشوائى .

لكن ... لنا أن نتساءل عن السبب وراء كل هذه الفائدة التى نحققها من التدريب . إن السبب وراء ذلك يرجع بصفة أساسية إلى أن برامج التدريب عادة ما توضع على أسس علمية، مستفيدة فى ذلك من نتائج دراسات تحليل العمل الذى يختص البرنامج فيه ونتائج دراسات الوقت والحركة ، لهذا العمل أيضًا . فمن تحليل العمل ، تتبين لنا مختلف المهارات والقدرات والخبرات والخصائص الشخصية اللازمة للنجاح فى هذا العمل والتوفيق فى أدائه ، فنستفيد من ذلك فى التعرف على المهارات والقدرات التى يلزم أن يستهدف برنامج التدريب رفعها ، ونضع فى برنامج التدريب على هذا العمل فقرات تدريبية نظرية وتطبيقية تساعد على تحقيق ذلك. ويضاف إلى ذلك نتائج دراسات الوقت والحركة (بالنسبة للأعمال التى يمكن أن تخضع لمثل هذه الدراسات ، وهى الأعمال الحركية والعضلية أساسًا) ، إذ توقفنا هذه الدراسات على الحركات التى يقوم بها العامل أثناء تأديته لعمله ، مما يمكننا من دراسة كل حركة دراسة شاملة لتبين ما إذا كانت لازمة ومسهمة فى عملية الإنتاج ، أم طائشة غير مسهمة فى الإنتاج، وعبئًا عليه تستغرق الوقت والجهد دون لزوم لذلك ، أم تحتاج إلى تعديل لتصبح أكثر راحة وأسرع أداءً وأكثر اقتصاداً لعملية الإنتاج . وبناءً على هذا، يمكننا فى وضع برنامج التدريب على هذا العمل أن نركز على تمرين العامل على الاحتفاظ بالحركات اللازمة لعملية الإنتاج أو تعلمها ، وعلى استحداث الحركات اللازمة، أو التى لم يكن يمارسها من قبل، وعلى التخلى عن الحركات الطائشة ، وعلى تعديل الحركات التى يلزم تعديلها لتصبح أكثر راحة للعامل وأكثر اقتصاداً لوقته وطاقته .

وبهذا يصان للعامل وقته وطاقته اللذان كانا يتبددان فى نشاط غير مسهم فى الإنتاج ، ويوجهان توجيهًا مركزاً لعملية الإنتاج . ولعل دراسات تيلور Taylor الشهيرة وجلبرت Gillberth من بعده خير مثال على ذلك ؛ إذ استطاع تيلور عن طريق التدريب على هذه الأسس العلمية أن يرفع إنتاجية عمال الشحن إلى حوالى أربعة أضعافها ، كما استطاع جلبرت أن يرفع إنتاجية عامل البناء إلى ثلاثة أضعافها تقريبًا [٢].

١- Fraser , J . Industrial Psychology , Pergamon Press, Oxford, 1968 , 28 .

٢- Argyle , M . Psychology and Social Problems, Associate Book Publishers, London, 1967 , 103 .

التلمذة الصناعية والتدريب :

التدريب -فى مفهومه العام- أمر يصلح ويصدق على أية برامج تدريبية على أية مهن أو أعمال، مهما كان نوعها أو مستواها ؛ فالتدريب أمر يحتاجه العمل اليدوى، كما يحتاجه العمل الذهنى، كما يحتاجه العمل الإدارى، كما يحتاجه العمل الفنى، كما يحتاجه العمل الإشرافى، يحتاجه العمل المدنى ، بمثل ما يحتاجه العمل العسكرى .. كما أن التدريب أمر تحتاجه الأفراد -أيضًا- فى ظروفها المختلفة ؛ فيحتاجه العامل الجديد ليعرف كيفية أداء عمله، ويحتاجه العامل القديم لرفع مستوى مهارته فى أدائه لعمله ، أو فى التعريف على أساليب العمل الجديدة وطرق أدائه ، ويحتاجه المرءوس عند ترقيته إلى وظيفة رئاسية أو إشرافية لمعرفة واجباتها وكيفية أدائها . ومن هنا ، كان انتشار التدريب فى كافة مؤسسات العمل ولكافة مستويات العاملين وتخصصاتهم .

والتلمذة الصناعية تمثل أحد أنواع التدريب، حيث «يهدف إلى تدريب الناشئين على المهارات فى المهن التى تظهر الحاجة إليها. وتزويدهم بالمعلومات النظرية إلى جانب رفع المستوى الثقافى العام لدى هؤلاء ليكونوا مواطنين صالحين، وتوجيههم لمتابعة التعليم بما يتلاءم مع تدريبهم العملى إلى أقصى حد»[1].

كما تؤيد ذلك مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة، فنقول عن الغرض من نظام التلمذة الصناعية «يهدف هذا النظام إلى إعداد العمال المهرة فى المهن والتخصصات الدقيقة التى تحتاج إليها قطاعات الصناعة المختلفة . وهو النظام الذى يمكن التلميذ من اكتساب المهارات العملية والخبرة والمعرفة من خلال التدريب العملى المكثف، والدراسات النظرية للمواد الثقافية والفنية التى تعطى له مرتبطة بالمهنة التى يتخصص فيها ؛ مثل مجموعة مهن المعادن - السيارات - الكهرباء- التبريد وتكييف الهواء- الآلات الدقيقة- الطباعة- الغزل والنسيج- التعدين»[2] . وتحدد مصلحة الكفاية الإنتاجية الشروط

١- المهندس عبد العزيز شعراوى . التلمذة الصناعية طريقنا لإعداد العمال المهرة فى الصناعة، الكفاية الإنتاجية ، وزارة الصناعة ، القاهرة ، العدد الرابع ، السنة الواحدة والعشرون ، ١٩٧٧ ، ٤٠ .

٢- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى (وزارة الصناعة بالقاهرة) . خطة البرامج التدريبية لعام ١٩٧٨ (الصفحات بالمرجع غير مرقمة) .

الواجب توافرها للالتحاق بهذا النوع من التدريب فى ثلاثة شروط ، هى : (١) الحصول على الشهادة الإعدادية العامة (الدراسة باللغة العربية) . (٢) تراوح السن بين ١٥ و١٩ سنة (٣) اجتياز الاختبارات النفسية والشخصية والطبية لمعرفة مستوى ذكاء التلميذ واستعداده الشخصى للمهنة وصلاحيته للعمل »[١]. كما تضيف المصلحة عن مدة برنامج التدريب فى نظام التلمذة الصناعية أنه «٣ سنوات : الأولى بمركز التدريب ، والثانية والثالثة بموقع العمل بالمصانع والشركات على أن يعود (التلميذ المتدرب) للمركز يومين فى السنة الثانية، ويومًا فى السنة الثالثة أسبوعيًا لتلقى دراساته النظرية»[٢].

هذا ، وينتشر بمصر ما يزيد عن ٤٠ مركزاً تدريبيًا بمختلف محافظاتها للتدريب المهنى بنظام التلمذة الصناعية . وهى تدرب على أعمال مختلفة فى مهن متنوعة ؛ مثل أعمال البرادة والخراطة والسباكة والحدادة واللحام فى مهن تشكيل المعادن ، ومثل ميكانيكا السيارات وكهربائى السيارات فى مهن السيارات ، ومثل كهربائى عام وكهربائى آلات فى مهن الكهرباء ، ومثل الإلكترونيات والراديو والتليفزيون فى مهن الآلات الدقيقة، ومثل درفلة الصلب والحدادة الميكانيكية فى مهن الفلزات ، ومثل الحفر الميكانيكى وتشغيل الأوناش فى مهن المناجم والتعدين ، ومثل الجمع اليدوى والجمع الآلى والمونوتيب والمونتاج والتجليد والتسطير فى مهن الطباعة والتجليد، ومثل الغزل وتحضيرات الغزل والنسيج وتحضيرات النسيج وميكانيكى غزل وميكانيكى نسيج وعامل صيانة وطباعة وتجهيز بمهن الغزل والنسيج، ومثل دباغ جلود بمهن دباغة الجلود»[٣] . ومن الجدير بالذكر أن نظام التلمذة الصناعية نظام معترف به دوليًا ومنتشر فى أنحاء كثيرة من العالم ؛ نظراً لأهميته وقيمته فى تخريج العمال المهرة فى المهن المختلفة . «فمثلاً تعرِّف منظمة العمل الدولية التلمذة الصناعية بأنها نظام يرتبط بمقتضاه صاحب عمل ما بعقد لاستخدام شخص فى سن الشباب ليدربه بنفسه، أو يعهد به لمن يقوم بتدريبه بطريقة منظمة، ليتعلم حرفة أو مهنة معروفة، على أن

١- المرجع السابق ذكره (الصفحات به غير مرقمة) .

٢- المرجع السابق .

٣- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى (وزارة الصناعة بالقاهرة) ، نظم التدريب المهنى (بدون تاريخ) ، ص١٣-١٩ .

يحدد مقدمًا فترة التدريب والتزام التلميذ نحو صاحب العمل أثناء التدريب [١]. هذا ، ويقدر عدد المسجلين على نظام التلمذة الصناعية بما يقرب من خمسة عشر مليون تلميذ[٢].

التلمذة الصناعية فى مصر :

منذ إنشاء وزارة الصناعة بمصر عام ١٩٥٦ ، وجهت اهتمامها إلى نظام التلمذة الصناعية، حتى تعد القوى العاملة الماهرة والمتعلمة التى تنهض بالصناعة والإنتاج . «وفى أكتوبر عام ١٩٥٧ افتتح أول مركز للتدريب المهنى. وتوالى إنشاء المراكز المختلفة ، والتى تضمنتها الخطط الخمسية الثلاث للتصنيع والتنمية ، وبلغت مشروعات هذه المراكز ٦٤ مشروعًا؛ بعضها يتبع نظام التلمذة الصناعية ، والبعض الآخر يعمل على نظام التدريب السريع ورفع مستوى المهارة. كما ألحقت بعض المراكز عام ١٩٦٧ بوزارات أخرى ومؤسسات نوعية . واطردت الأعداد الملتحقة بنظام التلمذة الصناعية من ٥٠ تلميذاً عام ١٩٥٧ إلى أكثر من ستة آلاف تلميذ عام ١٩٧٥ ، كما تخرج منه خلال هذه الحقبة أكثر من ٤٠ ألف خريج من العمال على مستوى من المهارة تقبلته وتسعى إليه مواقع متعددة بالصناعة والوحدات الإنتاجية والخدمات الأخرى وبالقطاع الخاص أيضًا . وقد مارست الغالبية العظمى منهم العمل المهنى فى فرق الصيانة وخطوط الإنتاج ، والقليل فى الأقسام الفنية والتخطيط والمتابعة ومراقبة الجودة»[٣]. وفى إحصائية أخرى عن عددالتلاميذ المهنيين الذين تخرجوا من مراكز التدريب المهنى حتى عام ١٩٧٨ نجد أنهم قد بلغوا ٤٢٤٠٩ خريجًا [٤]. ولقد تقدم للالتحاق بمراكز تدريب التلمذة الصناعية التابعة لمصلحة الكفاية الإنتاجية عام ١٩٨٠ حوالى اثنى عشر ألف تلميذ، التحق منهم بالمراكز -بعد نجاحهم فى اختبارات القبول- قرابة سبعة آلاف تلميذ[٤].

١- المرجع السابق للمهندس عبد العزيز شعراوى ، ص٣٩ .

٢- المرجع السابق بنفس الصفحة .

٣- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى (وزارة الصناعة بالقاهرة) . مؤتمر التدريب على نظام التلمذة الصناعية ، الإسكندرية ، مارس ١٩٧٦ ، ص ٥ ، ٦ .

٣- المهندس رضا محمود سليمان . التدريب المهنى: مصلحة الكفاية الإنتاجية ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص١٦ .

٤- إحصائيات بمصلحة الكفاية الإنتاجية لم تنشر بعد .

ويشير هذا بوضوح إلى أن نظام التلمذة الصناعية بمصر ، وقد أشرف على استكمال ربع قرن من الزمان ، يتزايد نمواً وتدعيماً ، مما يؤكد نجاحه وحاجة البلاد إليه .

الاختيار المهنى والتلمذة الصناعية :

من المبادئ العلمية المعروفة أن الأعمال تختلف فيما بينها من حيث طبيعتها وظروفها وصعوبتها وواجباتها . وبالتالى ، فإنها تختلف فيما تتطلبه من شروط وخصائص وصفات وقدرات ومهارات وسمات وخبرات ومؤهلات .. تتوافر للفرد حتى ينجح فى أدائها ويوفق فيها. وإذا كان هذا مبدأ علمياً معروفًا عن الأعمال، فإن المبدأ العلمى المقابل لذلك عند الأفراد يحظى بنفس التأييد والاعتراف ، وهو أن الأفراد تختلف فيما بينها -أيضًا- بالنسبة لذات الشروط والخصائص والصفات والقدرات والمهارات والسمات والخبرات والمؤهلات .. اللازمة للأعمال .

ومن هنا ، فإن القضية الهامة والملحة بالنسبة للنشاط الصناعى بوجه خاص، والعمل والإنتاج بشكل عام هى وضع الشخص المناسب فى المكان المناسب ؛ وبمعنى آخر ضرورة أن يتعلم كل طالب نوع التعليم الذى يناسب استعداداته وجوانب شخصيته المختلفة ، وأن يعمل كل فرد العمل الذى يناسب -أيضًا- استعداداته وجوانب شخصيته المختلفة . فلاينبغى أن يلتحق طالب بنوع من التعليم يتطلب- على سبيل المثال- ذكاءً عاليًا وهو ضعيف الذكاء، أو يتطلب ذاكرة قوية وهو ضعيف الذاكرة ، أو يتطلب ميل الشخصية للانبساط وهو يميل للانطواء . وبالمثل ، لاينبغى أن يلتحق شخص بعمل يتطلب قوة عضلية وهو ضعيفها ، أو يتطلب تآزراً حسيًا- حركيًا ينقصه ، أو يتطلب طلاقة لفظية هى قاصرة عنده ، أويتطلب تخصصًا علميًا يجهله، أو يتطلب اتزانًا نفسيًا لايتوافر له ...

ومن هنا ، وجب على برنامج اختيار تلاميذ التدريب المهنى لأحد مراكز التدريب بنظام التلمذة الصناعية أن يتضمن خطوتين أساسيتين :

الأولى : هى تحليل العمل الذى يدرب عليه المركز ويطلب التلميذ التدريب عليه . وفى هذا التحليل تجرى دراسة علمية تفصيلية على العمل بهدف تحديد ووصف واجباته ومسئولياته وظروف أدائه ومخاطره ومتطلباته من خصائص وقدرات واستعدادات وسمات فى الشخص حتى ينجح فى التدريب عليه تلميذاً ، واكتساب المهارات والمعارف اللازمة له ، وحتى ينجح

-أيضًا- فى العمل فيه بعد أن يتخرج من مركز التدريب المهنى ويلتحق به . وفى هذا التحليل يستعين القائم بالتحليل (والذى قد يكون أصلاً إخصائيًا نفسيًا) فى جمع البيانات اللازمة لهذا التحليل من مصادر عدة ، لعل من أهمها الدراسات السابقة عن هذا العمل، والتى تقدم معلومات عنه تساعدنا فى التعرف عليه وعلى متطلباته وشروطه . كما أن منها -أيضًا- ملاحظة عامل يقوم بالعمل، وتسجيل كل ما نلاحظه بدقة وتفصيل من واجبات يؤديها وكيف يؤديها ولماذا يؤديها، وما هى المهارات والصفات التى ينبغى أن تتوافر فى الفرد حتى يؤدى هذه الواجبات بكفاءة ونجاح ، ومن هذه المصادر -أيضًا- إجراء مقابلة للعامل الذى يؤدى العمل أو رئيسه، والاستفسار أثناء هذه المقابلة عن كل ما يريد القائم بتحليل العمل جمعه عن العمل من بيانات ومعلومات ، ومن هذه المصادر -أيضًا- ملء استبيان يقوم به العامل أو رئيسه يسأل فيه القائم بتحليل العمل عن البيانات التى يريد معرفتها وجمعها عن العمل مثل مسئولياته وواجباته وظروف أدائه وأخطاره ، وما يتطلبه من مهارات وقدرات واستعدادات وخبرات ومؤهلات .. ومنها -أيضًا- الإحاطة بمواصفات وخصائص وتركيب وعمل وطبيعة ونوعية الأدوات والأجهزة والخامات التى يستخدمها العامل فى هذا العمل موضع التحليل . كما أن منها قيام إخصائى تحليل العمل نفسه بممارسة العمل- إن كان ذلك ممكنًا بالنسبة له دون خطورة أو ضرر- فيخبر بنفسه مدى الجهد الذى يبذل فى هذا العمل وكيفية أداء واجباته، وظروف أدائها ، ومخاطر العمل، والاستعدادات الجسمية والعقلية والنفسية اللازمة لأدائه، كما يخبر بنفسه مختلف الأحاسيس والمشاعر التى يحسها العامل أثناء قيامه بعمله. وكلما كان فى إمكان القائم بتحليل العمل أن يستعين بأكثر من مصدر لجمع البيانات عن العمل الذى يقوم بتحليله كان ذلك أفضل ، حيث نجد أن لكل مصدر ميزة تكمل غيره من المصادر . كما تسد النقص فى المعلومات الذى يتخلف عن غيره من المصادر . لهذا ، حبذا لو استطاع القائم بتحليل العمل أن يستفيد من معظم ، أو من كل هذه المصادر، فى جمع المعلومات والبيانات اللازمة عن العمل أثناء قيامه بتحليله .

وبعد جمع البيانات المختلفة عن العمل على النحو السابق ، يقوم إخصائى تحليل العمل باستقراء كل هذه البيانات ومعالجتها والانتهاء منها إلى ملء نموذج عن هذا العمل يعرف باستمارة تحليل العمل، تلخص وتتضمن وتنظم المعلومات التى تريد أن تحصل عليها عن العمل والتى تمثل هدف التحليل، ومن أهمها -بطبيعة الحال- لعملية الاختيار لتلاميذ مراكز التدريب المهنى تلك الاستعدادات والقدرات العقلية والسمات والميول الشخصية المطلوبة فى

التلميذ حتى ينجح فى التدريب على هذا العمل فى مركز التدريب ، وحتى يوفق فى مزاولة هذا العمل بعد تخرجه فى المؤسسات التى يتوافر بها هذا العمل وتحتاج من يشغلونه .

أما الخطوة الثانية اللازم أن يشتمل عليها برنامج اختيار تلاميذ مراكز التدريب المهنى، بعد الخطوة الأساسية السابقة (تحليل العمل)، فهى الخطوة المقابلة لها ، والمعروفة بتحليل الفرد . فبعد انتهائنا من تحليل العمل ، ووقوفنا على ما يلزمه من مهارات وقدرات واستعدادات وسمات وميول ... ينبغى لنا أن نقيس كل هذه الأمور فى التلميذ المتقدم للتدريب على هذا العمل فى مركز التدريب، وذلك بهدف الاطمئنان إلى أن كل هذه الاستعدادات العقلية والنفسية والشروط الشخصية المختلفة اللازمة للنجاح فى التدريب ، وفى العمل بعد التخرج متوافرة فى التلميذ بالمستوى المناسب واللازم ؛ بمعنى أنها ليست أقل عما هو مطلوب للنجاح فى التدريب وفى العمل، وليست مرتفعة كثيراً عن هذا المستوى المطلوب ، ذلك أن الارتفاع كالانخفاض فى هذه الشروط ، يؤدى كل منهما إلى الفشل فى التدريب وعدم التوفيق فى العمل. .

ونستعين فى قياس خصائص التلميذ واستعداداته وميوله الشخصية بعدة وسائل لعل أهمها الاختبارات النفسية والمقابلة الشخصية ، إذا استثنينا -بطبيعة الحال- الاختبارات والفحوص الطبية التى تخرج عن حدود هذا البحث .

فبالنسبة للاختبارات النفسية، يوضع اختبار نفسى لقياس كل قدرة أو خاصية نفسية مطلوبة ، يراعى أن تتم عليه دراسات تقنينية تطمئن إلى صلاحيته للقياس، ويحسن أن يكون الاختبار جمعيًا اقتصاداً للوقت والجهد والنفقات . وتكون الاختبارات العديدة التى يلزم تطبيقها مجتمعة على المتقدمين طالبى التدريب فى مهنة معينة بطارية هذه المهنة . وعادة لاتكون كل اختبارات بطارية الاختبار لمهنة معينة من نوع الاختبارات الجمعية ، بل إن بعضها يكون فرديًا ، حيث تشتمل البطارية على اختبارات لفظية وأخرى عملية . ولهذا يحسن أن تطبق الاختبارات الجمعية أولاً ، ومن ينجح فيها تطبق عليه الاختبارات العملية، خاصة إذا كان الاختبار العملى كاختبار فردى يستغرق وقتًا طويلاً فى تطبيقه . وفى كافة الأحوال، يحسن أن يتم تطبيق الاختبارات النفسية أولاً ، ومن ينجح فيها يتقدم للمقابلة ، ذلك لأن الاختبارات النفسية لاتستغرق من الجهد والوقت والطاقة ما تستغرقه المقابلة ؛ نظراً لأن غالبية الاختبارات النفسية فى مثل هذه المواقف تتم بشكل جمعى . أما المقابلة الشخصية

فتتم كل جلسة منها مع فرد واحد ، وفى أحيان قليلة مع عدد قليل جداً لايتجاوز الثلاثة غالبًا. وبالتالى ، فإن تقدم الاختبارات النفسية فى تطبيق سوف يستبعد من يشير الاختبار النفسى إلى عدم صلاحيتهم ، فيقل العدد المتقدم للمقابلة ، ويتوافر تبعًا لذلك بعض الجهد والوقت .

وإذا كانت هناك شروط لابد من توافرها للاطمئنان إلى صلاحية الاختبارات النفسية للقياس ، الأمر الذى يوجب القيام بدراسات مستفيضة عليها ، تجريبية وإحصائية فى جوهرها، مع وجوب مراجعة هذه الاختبارات كلما مضى عليها الوقت ، نقول إذا كانت هناك هذه الشروط بالنسبة لصلاحية الاختبار النفسى ، فإن هناك شروطًا -أيضًا- لاتقل أهمية لصلاحية المقابلة لتقدير سمات شخصية التلميذ وصلاحيته للعمل المعين الذى يطلب التدريب عليه . إلا أن هذه الشروط تتعلق أساسًا بمدى كفاءة وصلاحية ومهارة إخصائى المقابلة فى إدارة المقابلة وفى تفسير محتواها * .

وتقوم مصلحة الكفاية الإنتاجية باتباع هذا الأسلوب العلمى فى اختيار تلاميذ التدريب الذين يقبلون بمراكز التدريب التابعة لها كل عام ، وذلك عن طريق القسم النفسى بالمصلحة،

---

* لمزيد من التفاصيل عن الاختيار المهنى وتحليل العمل وتحليل الفرد، يرجع إلى الفصول المتعلقة بها فى:

١- أحمد عزت راجح . علم النفس الصناعى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٦٥ .

٢- السيد محمد خيرى . علم النفس الصناعى، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣- فرج عبد القادر طه . علم النفس الصناعى والتنظيمى، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٤- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى (وزارة الصناعة- بالقاهرة) الاختيار السيكلوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى ، القاهرة ، ١٩٧٦ .

٥- Schultz., D. Psychology and Industry (Edited), The Macmillan Company , London, 1970 .

٦- Tiffin, J. and Mc Cormick , E. Industrial Psychology , George Allen and Unwin Ltd, London , 1968 .

٧- Ghiselli , E. and Brown , C. Personnel and Industrial Psychology. McGraw-Hill 1955 .

٨- Cilmer, B. Industrial and Organizational Psychology, McGraw-Hill, 1971 .

والذى يقوم بمهمة تحليل الأعمال ، وإعداد بطاريات الاختبارات النفسية الخاصة بكل مهنة، وإجراء الدراسات اللازمة لها ، وتطبيقها على المتقدمين للتلمذة الصناعية، مع استخدام المقابلة الشخصية -أيضًا- والتى يقوم بها الإخصائيون النفسيون المؤهلون لذلك بالمصلحة، وذلك منذ إنشاء المصلحة حتى الآن . ولقد تم حتى الآن للقسم النفسى بالمصلحة إعداد بطاريات اختبار لحرف المعادن ، ولحرف الجلود ، ولحرف الزجاج ، ولحرف النسيج، ولحرف الطباعة، ولحرف التعدين . ولقد نشرت دراسات البطاريات الثلاث للحرف الثلاث الأولى فى كتيب «الاختيار السيكلوجى لتلاميذ مراكز التدريب التدريب المهنى» والذى أصدرته مراقبة الاختبارات النفسية بالمصلحة عام ١٩٧٦، أما البطاريات الثلاث الخاصة بالحرف الثلاث الأخرى فلم تنشر دراساتها بعد . وفى هذا الكتيب، الذى نشرته مراقبة الاختبارات النفسية بالمصلحة، إشارة إلى أنها تجرى تجارب لاستكمال تقنين بطاريات جديدة لحرف البناء والنجارة ولحرف الآلات الدقيقة . كما أنها أعدت بطاريات خاصة لاختيار تلاميذ لمراكز التدريب المهنى التابع لمصلحة الطيران المدنى من بين الحاصلين على الثانوية العامة . ولايخفى على أحد الجهد المضنى والوقت الطويل والإمكانيات الضخمة اللازمة لإعداد مثل هذه البطاريات ، ومراجعاتها المستمرة على أساس علمى دقيق .

ومن الجدير بالذكر أن هناك مراكز تدريب على نظام التلمذة الصناعية بمصر تتبع مؤسسات وهيئات أخرى غير مصلحة الكفاية الإنتاجية . إلا أنها نادرة ، ولاتتوافر عنها بيانات مسجلة يسهل الحصول عليها ويمكن حصرها والاعتماد عليها .

التوجيه المهنى والتلمذة الصناعية :

يتم الاختيار المهنى للتلاميذ الصناعيين لانتقاء من يصلح للتدريب وللعمل فى مهنة معينة، أو فى مجموعة حرف متشابهة فى بعض الظروف أو الأمور؛ كالتعامل مع خامة واحدة مثل حرف المعادن ، والتى تشتمل على حرفة البرادة وحرفة الخراطة وحرفة السباكة وحرفة الحدادة. . وبالتالى ، فإن بطارية اختيار حرف المعادن تركز على قياس الاستعدادات الشخصية المشتركة اللازمة لهذه الحرف، مع أن كل حرفة لابد مختلفة بعض الشىء فى الاستعدادات الخاصة لها عن غيرها . ومن هنا ، ينبغى أن يتم توجيه مهنى، أو لنقل بمعنى أدق تصنيف مهنى لتلاميذ كل مركز تدريب بعد قبولهم به إلى أقسامه المختلفة، أو إلى حرفه، المتخصصة الموجودة به ، بحيث يتخرج التلميذ بعد ذلك متخصصًا فى البرادة، أو فى

الحدادة أو فى الخراطة ... وليس ممارسًا عامًا فى مختلف حرف المعادن . ويتطلب هذا، لكى يتم على أساس علمى سليم ، برنامجًا طموحًا لتوجيه أو تصنيف تلاميذ كل مركز تدريب عن طريق إعداد وتطبيق بطاريات اختبارات خاصة بكل حرفة ، تقيس استعداداتها الخاصة بها، تطبق على من يريد التخصص فى هذه الحرفة وتلحق من تثبت البطارية صلاحيته بالتدريب الخاص بتلك الحرفة . بل إن هذا التصنيف ، أو التوجيه المهنى، لتلاميذ مراكز التدريب المهنى ينبغى أن يتم عند بدء قبول التلميذ بالمركز ، وقبل تعاقد التلميذ مع الشركة أو المؤسسة التى سوف يعمل بها بعد تخريجه ، وذلك حتى تكون الشركة أو المؤسسة قبل التعاقد على بينة من تخصص التلميذ ، وفى حاجة فعلية إليه .

هذا بالنسبة لمن ينجح فى بطارية الحرفة التى يريد التخصص فيها ، أما من لاينجح فيها فيوجه إلى حرفة أخرى من الحرف التى يتخصص فيها المركز بعد أن يجتاز بطارية هذه الحرفة بنجاح ، أو تثبت الاختبارات النفسية ملاءمة استعداداته لحرفة معينة فيوجه إليها .

فالتوجيه المهنى اللازم للتلمذة الصناعية هنا هو شيء بين الاختيار المهنى والتوجيه المهنى والتصنيف المهنى ، على نحو ما هو معروف فى علم النفس الصناعى والتنظمى ، وليس توجيهًا مهنيًا بالمعنى الحرفى -فقط- لهذا الاصطلاح .

وواضح أن التوجيه المهنى بهذه الكيفية أمر يحتاج إلى جهود مضاعفة لإعداد بطاريات جديدة لكل حرفة على حدة بناءً على تحليل عمل جديد للحرفة الواحدة . فإذا علمنا أن عدد الحرف التى تدرَّب عليها مراكز التدريب يزيد عن الثمانين حرفة[1] ، لأدركنا مدى الجهد المطلوب من المراقبة النفسية للقيام بذلك على الأسس العلمية المناسبة ، إلا أن الطرق الطويلة يبدأ قطعها بخطوة ، وبالتالى فإن برنامج التوجيه هذا يمكن البدء فيه بإعداد بطاريات لعدد قليل من الحرف التى يشتد الطلب عليها فى الوقت الحالى، ثم يوضع ترتيب أوليات لإعداد بطاريات الحرف الأخرى بعد ذلك .

هيئة للتلمذة الصناعية :

إن عملية تنمية المجتمع التى تستهدفها مصر، ويزداد الحديث عنها هذه الأيام تستلزم مشروعات تنمية ضخمة، بما يصحبها من استخدام مكثف للتكنولوجيا الحديثة فى كافة

١- يرجع إلى حصر لها أورده المهندس رضا محمود سليمان فى مرجعه السابق ، ص١٧، ١٨ .

مجالات النشاط ، سواء ما تعلق منه بالصناعة ، أو الزراعة ، أو الثروة الحيوانية، أو الإنشاء والتعمير، أو الخدمات .. ومن شأن هذا أن يزيد طلب المجتمع على العمال المهرة الفنيين والمؤهلين ، فهم العمود الفقرى الذى يقع عليه العبء الأكبر فى استخدام الآلات والأجهزة والتكنولوجيا الحديثة التى تحتاج إلى المعرفة الفنية إلى جوار المعرفة العلمية والثقافية ؛ أى أن مصر فى أمس الحاجة الآن ، والسنوات المقبلة ، إلى أعداد هائلة من خريجى مراكز التدريب المهنى على نظام التلمذة الصناعية ، فهو النظام الذى يخرج هذه النوعية من العمال المهرة الفنيين المؤهلين .

ولعل هذا ما جعل مصر تتجه ، فى تخطيطها للسنوات القادمة ، إلى توجيه قرابة ثلثى خريجى المدارس الإعدادية للتعليم الفنى ، والسماح للثلث الآخر بالتعليم العام، بعد أن كان يدخل التعليم الفنى أقل من النصف . وإذا كانت الإحصائيات تشير إلى أن خريجى المدارس الإعدادية يقتربون من النصف مليون سنويًا ، فإننا نتوقع بناءً على كل هذا ، أن يوجه نحو ثلث مليون تلميذ سنويًا للتعليم الفنى ، والذى تمثل التلمذة الصناعية أحد روافده، إلى جانب التعليم الثانوى الصناعى، والتعليم الثانوى الزراعى، والتعليم الثانوى التجارى ... ومن بين كل هذه الأنواع من التعليم الفنى نجد أن التلمذة الصناعية أهمها جميعًا لنهضتنا الصناعية ولعمليات التنمية المختلفة فى المجتمع .

وبناءً على كل ذلك، فإنى أقترح أن تخصص الدولة للتلمذة الصناعية هيئة خاصة ، تتكون من ممثلين لوزارة الصناعة ولوزارة العمل ولوزارة التربية والتعليم ، تعطى من الميزانية المالية والصلاحيات الخاصة ما يمكنها من تنفيذ ما يلى :

١- مضاعفة مراكز التدريب المهنى على نظام التلمذة الصناعية عدة أضعاف حتى تستوعب نحو مائة ألف تلميذ جديد سنويًا أو أكثر .

٢- تجهيز هذه المراكز بأفضل وسائل وأدوات التدريب المناسبة على الحرف المطلوبة .

٣- إمداد هذه المراكز بإخصائيين فى التدريب على الحرف المهنية المختلفة ، وبالأساتذة فى المواد العلمية والفنية اللازمة للتلمذة الصناعية .

٤- مضاعفة عدد الإخصائيين النفسيين العاملين فى مجال التلمذة الصناعية عدة أضعاف، مما يمكنهم من سرعة إعداد بطاريات الاختبار والتوجيه والتصنيف للحرف المختلفة ، على نحو ما سبق أن أشرنا فى هذا البحث .

٥- إعداد بطاريات اختبارات نفسية تقيس القدرات والاستعدادات النفسية الأساسية لدى التلميذ، تطبق عليه مع امتحانات الإعدادية العامة ، وتتخذ أساسًا مبدئيًا يصنف بناءً عليه التلاميذ، ويوجهون تبعًا له بعد حصولهم على الإعدادية إلى التعليم الثانوى العام، أو التلمذة الصناعية، أو التعليم الثانوى الزراعى، أو الثانوى التجارى ... إلخ .ويتم إعداد هذه البطارية وفق نفس الأسس العلمية التى تتبع لإعداد بطاريات الحرف المختلفة التى تدرب عليها مراكز تدريب التلمذة الصناعية . ولعل إشراك ممثلى وزارة التربية فى هذه الهيئة التى نقترحها ييسر هذه العملية .

٦- القيام بدراسات مستمرة توضح الأعداد اللازمة التى يحتاجها المجتمع من العمالة الماهرة المثقفة من التخصصات الفنية المختلفة فى السنوات التالية، لتلائم بين أعداد الخريجين من التلمذة الصناعية فى كل تخصص، وبين مدى الحاجة إليهم فعلاً ، حتى تضمن اشتغال الخريج فى نفس تخصصه ، فلا تضيع تكلفة التدريب هباء .

٧- مجابهة كل مشاكل التلمذة الصناعية بالحلول الجذرية : مثل انخفاض دافع التلاميذ نحو الالتحاق بالتلمذة الصناعية ، بعمل ما من شأنه أن يحفزهم على ذلك : مثل إتاحة فرص الترقى لخريجى التلمذة الصناعية دون قيود بدرجة معينة تقف الترقية عندها ، ومثل إتاحة فرصة استكمال الدراسة الجامعية للمتقدمين منهم دون عراقيل تحبطهم ، أو مصاعب تحول دون تحقيق طموحهم للدراسة العليا، ومثل المتابعة والإشراف والإرشاد النفسى والاجتماعى المستمر للتلاميذ المتدربين ... حتى بعد تخريجهم .

٨- القيام ببحوث مستمرة عن القضايا المتعلقة بالتلمذة الصناعية والتطوير المستمر فى هذا النظام وعلاج مشكلاته ، بما يساعده أكثر على تحقيق الأهداف التى ينتظرها منه المجتمع، مثل مقدار دوران العمل بالنسبة لخريجيه، ومدى كفايتهم الإنتاجية وتوفيقهم ونجاحهم فى عملهم ، ومدى التحاق كلٍ منهم بالعمل الذى تدرب عليه ومزاولته له ... إلخ .

خاتمة :

أخيراً ، تبقى كلمة لابد منها ، تلك أننا كمجتمع نامٍ نشكو من نقص الإنتاج وزيادة السكان المستهلكة ، فلا حيلة لنا إلا زيادة الإنتاج . ولاتتأتى زيادة الإنتاج إلا باستخدام الأسلوب العلمى لعلاج نقصه . ولقد علّمتنا الدراسات فى تراث العلم أن الأسلوب العلمى

يرفع الإنتاج مع تقليل التكلفة والجهد . وبالتالى، إذا كانت المجتمعات المتقدمة تستعين بالأسلوب العلمى لرفع مستوى إنتاجها ، فإن المجتمعات النامية أولى بهذا ، وأشد حاجة لنقص إنتاجيتها .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن كثيراً من البلاد العربية تعتمد على العامل المصرى -الماهر خاصة- فيها ، وأننا نشكو مر الشكوى من ندرة العمال المهرة ، بما رفع من مستوى أجورهم رفعًا لايكاد يطاق . وربما جعل أغلب منشآتنا وصناعاتنا تقام بشكل غير مرضٍ تبينت لنا مدى الحاجة إلى العامل الفنى الماهر الذى تخرجه لنا التلمذة الصناعية ، عاملاً إختير بأسلوب علمى ودرب بأسلوب علمى مع تلقى معرفة علمية، وبالتالى يجمع فى عمله بين العلم والتدريب والعمل فترتفع بالضرورة كفايته الإنتاجية . لابد -إذن- من التخطيط العلمى المبنى على دراسة علمية لمشكلاتنا ، والعمل بأسلوب علمى حتى نرفع مستوى ألقوى العاملة فى مجتمعنا ، ونبنيها بما يحقق التنمية المنشودة فى وقت قصير .

* * *

المراجع :

١- أحمد عزت راجح : علم النفس الصناعى ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥ .

٢- السيد محمد خيرى : علم النفس الصناعى ، دار النهضة العربية ، القاهرة، ١٩٦٨ .

٣- رضا محمود سليمان : التدريب المهنى، مصلحة الكفاية الإنتاجية بوزارة الصناعة ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٤- المهندس عبد العزيز شعراوى : التلمذة الصناعية طريقنا لإعداد العمال المهرة فى الصناعة ، الكفاية الإنتاجية ، (وزارة الصناعة) ، القاهرة ، العدد الرابع، السنة الواحدة والعشرون ، ١٩٧٧ .

٥- فرج عبد القادر طه : علم النفس الصناعى والتنظيمى، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

٦- فرج عبد القادر طه : علم النفس وقضايا العصر . دار المعارف، القاهر، ١٩٧٩ .

٧- فرج عبد القادر طه : علم النفس بين خدمة العامل وخدمة الإنتاج : مجلة الفكر المعاصر ، مارس ١٩٧٠ .

٨- ماير، نورمان : علم النفس فى الصناعة ، ترجمة محمد عماد الدين إسماعيل وصبرى جرجس وأمين كمال محمد ، مؤسسة الحلبى، القاهرة، ١٩٦٧ .

٩- مصلحة المفاية الإنتاجية والتدريب المهنى : (وزارة الصناعة) ، الاختيار السيكلوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى. القاهرة ، ١٩٧٦ .

١٠- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى : نظم التدريب المهنى (بدون تاريخ) .

١١- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى : مؤتمر التدريب على نظام التلمذة الصناعية ١٩٧٦ .

١٢- مصلحة الكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى : خطة البرامج التدريبية لعام ١٩٧٨ .

١٣- Argyle, M . Psychology and Social Problems, Associate Book Publishers, London, 1967 .

١٤- Fraser , J . Industrial Psychology , Pergamon Press, Oxford, 1969 .

١٥- Ghiseli , E . and Brown , C . Personnel and Industrial Psychology, McGraw- Hill, 1955 .

١٦- Gilmer, B. Industrial and Organzational Psychology , McGraw Hill, 1971 .

١٧- Schultz, D. Psychology and Industry (Edited), The Macmillan Company, London 1970 .

١٨- Tiffin , J. and McCormick , E. Industrial Psychology, George Allen and Unwin Ltd, London , 1968 .

إطار معيارى للشخصية السوية *

فى هذا المقال أضع تصوراً لإطار معيارى للشخصية السوية ، والصالحة لمجتمعنا (فى ظروفه الراهنة على وجه الخصوص) . وفى نظرى ، أن الشخصية السوية هى الشخصية التى تصلح لدفع مجتمعنا نحو التقدم السريع ، والنهوض به حتى يلحق بالمجتمعات المتقدمة ، وهى - أيضًا - التى تعطى ولاءها وإخلاصها لوطنها ؛ مستعدة للتضحية بمصالحها الأنانية الضيقة من أجل الصالح العام للوطن الأم .

ويشتمل هذا الإطار على الأبعاد التالية :

١- قدرة الشخصية على الفهم الصائب لنفسها وللآخرين .

٢- إدراك الشخصية السليم للواقع ومعرفة عناصره .

٣- بُعْد الشخصية عن التخلف العقلى وقصور الإمكانيات والقدرات .

٤- قدرة الشخصية على ضبط النفس والتحكم فى انفعالاتها وأهوائها .

٥- قدرة الشخصية على الحب والتعاون والإيثار والولاء الوطنى.

٦- الطموح المناسب للشخصية والأهداف الواقعية فى الحياة .

٧- قدرة الشخصية على العمل المنتج البناء.

٨- جدية الشخصية وقدرتها على تحمل المسئولية .

٩- قدرة الشخصية على تحمل الإحباط والصدمات .

١٠- هدوء الشخصية واطمئنانها وإحساسها بالراحة النفسية .

١١- تبنى الشخصية للقيم الخيرة والبناءة .

١٢- استمتاع الشخصية بالصحة النفسية .

---

* نشر هذا البحث فى «مجلة دراسات نفسية» (رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية بالقاهرة) : مجلد ٥ : عدد : ٤ ، أكتوبر ١٩٩٥ ، ٦٧٧- ٦٩٢ .

تمهيد فى مدخل :

الشخصية السوية هدف أساسى للآباء ؛ يسعون إلى تحقيقها فى أبنائهم ، وللأساتذة ؛ يبغون تنميتها فى تلاميذهم ، وللمجتمع ككل ؛ يستهدف إشاعتها فى كل أعضائه ومواطنيه. وينفق الجميع فى سبيل تحقيق هذا الهدف ما يستطيعون من جهد ومال ، ووقت وطاقة ، وتضحيات بكل غالٍ وثمين لتحقيق هذا الهدف المنشود .

ولهذا ، فقد وضع بعض علماء النفس- قديمًا وحديثًا - تصورات للشخصية السوية، متأثرين فى ذلك بوجهة نظرهم العلمية ، وبما يحيطها من الظروف المجتمعية والتاريخية (٤،٣).

ويمر مجتمعنا المحلى - الآن- بظروف ومستجدات مستحدثة ؛ منها ما يرتبط بطبيعة تطوره الذاتى ، ومنها ما يرتبط بظروف خارجية تلقى بظلالها الكثيفة عليه ، فتكبل انطلاقته، وتعوق تقدمه ، مالم يتسلح أفراده ، وتشيع بينهم خصائص معينة فى الشخصية تمثل نموذج السواء المطلوب فى ظرفنا الحالى ، حتى يتوجه جميع المهتمين بتحقيق هذا النموذج وإشاعته فى مجتمعنا إلى العمل ما وسعتهم الطاقة والجهد ، وأسعفهم الإبداع والابتكار ، ومكنتهم الوسائل والحيلة فى اتجاه تحقيقه .

وفى هذه المقالة ، نضع تصوراً لإطار معيارى للشخصية السوية والصالحة لمجتمعنا فى ظروفه الراهنة .

الإطار المعيارى للشخصية السوية :

أقدم فيما يلى تصوراً للإطار المعيارى للشخصية السوية ، على اعتباره نموذجًا متعدد الأبعاد ، يتحدد فى ضوئه مدى السواء الذى تتمتع به الشخصية . وبطبيعة الحال، فإننا لانتوقع ، ولانستطيع أن ننجح فى تنشئة الشخصية وإكسابها كل أبعاد السواء، التى أقدمها فى هذا الإطار ، وإنما أضعه كنموذج مثالى، كلما ازددنا قربًا منه ، ازددنا سواءً ، وبعداً عن الانحراف والاضطراب . وكلما وجدناه متحققًا -إلى حد كبير- فى شخص معين ، كان حكمنا عليه بالسواء، وبقيمته كعضو نافع فى مجتمعه .

ويشتمل هذا الإطار على الأبعاد الأساسية التالية :

١- قدرة الشخصية على الفهم الصائب لنفسها وللآخرين :

لاشك أن فهم الفرد (أو الشخصية) لنفسه ولنفوس الآخرين يساعده على التقدير الصائب لقدراته وإمكانياته ، والمعرفة الدقيقة لرغباته ودوافعه ، وبالتالى يحسن استغلال قدراته ، والتخطيط الجيد لإشباع رغباته، فالشخص الذى يعرف أن مستوى ذكائه متوسط لايقحم نفسه فى عمل يعلم أنه يحتاج إلى مستوى ذكاء مرتفع فيفشل فيه، ولايجنى منه إلا الخيبة والندم. والفرد الذى يعلم أن إمكانياته وقدراته مرتفعة يضع لنفسه أهدافًا عالية يسعى للوصول إليها؛ حيث تساعده إمكانياته على النجاح فى تحقيقها . وبالمثل ، فإن معرفة نفوس الآخرين تمكن الفرد من معرفة «عدوه من حبيبه» ، فيعامل كلاً منهما المعاملة اللائقة به، وبذلك يتقى شر عدوه ، ويستفيد من حب حبيبه ... كما أن معرفة إمكانيات الآخرين وقدراتهم تجعلنا نُحْسن الاستفادة منهم ، ولانطالبهم إلا بما يستطيعون ، الأمر الذى يساعدنا فى تحقيق توافق أكبر معهم ، وتوفيق أكثر فى علاقتنا بهم .

٢- إدراك الشخصية السليم للواقع ومعرفة عناصره :

من حسن الحظ أن «حب المعرفة» يكاد يكون غريزة فطرية فى الإنسان ؛ نظراً لأهميته الشديدة فى نجاحه فى حياته وتوفيقه فيها . ومن هنا ، كان السباق على العلم والمعرفة والتحصيل والحصول على «الشهادات العلمية» . والقيام بالبحوث فى مختلف مجالات المعرفة، وعن مختلف ظواهر العالم الطبيعية والإنسانية وموضوعاته وعناصره . ومن هنا- أيضًا- كان التقدم المعرفى مصحوبًا بالتقدم التقنى ، وبازدهار المجتمع وتقدمه فى كافة مناحيه .

وفى هذا الإطار، يعتبر الإدراك السليم للواقع الذى تتحرك فيه الشخصية وتتفاعل عنصراً هامًا ، وبعداً أساسيًا من أبعاد سوائها. فإذا اضطرب هذا الإدراك واختل اضطربت تبعًا لذلك علاقة الشخصية بعناصر هذا الواقع ، وفشلت فى التعامل معه. فالذى لايعرف أن هذا الشىء سام ، ويدركه على أنه شىء مفيد ربما تناوله فيودى بحياته ، والذى لايعرف أن هذا عدوه فيأمنه ويصاحبه يُمكنه من نفسه، ويتعرض لشره ، والذى لايعرف أن هذا حبيبه ويعامله على أنه عدو يخسر وده ، وما كان يناله على يديه من خبرات . وقد يضطرب الإدراك إلى حد أن يدرك الشخص الآخرين على أنهم أعداء ألداء يحاولون دس السم له ، أو الإيقاع به ليتخلصوا

منه على نحو ما نجد فى مرضى جنون الاضطهاد . وقد يدرك الزوج على المستوى اللاشعورى زوجته على أنها أمه فلايقوى على مقاربتها . فتضطرب حياتهما الزوجية على نحو ما يحدث فى بعض حالات مرضى الهستيريا .

ومن الأقوال المأثورة «إذا عرفت استطعت » ، بما يعنى أن المعرفة والإدراك السليم للشىء يسهل لك السيطرة عليه وتوجيهه لصالحك من جانب ، واتقاء شره من جانب آخر .

٣- بُعْد الشخصية عن التخلف العقلى وقصور الإمكانيات والقدرات :

إن نجاح الفرد فيما يقوم به من أفعال، وتوفيقه فيما يقوم به من سلوك أو نشاط أو مهام ، يحتاج إلى حد أدنى من الذكاء يساعده على فهم الظروف والمواقف ، لتكييف سلوكه ونشاطه وفقًا لها . وبالتالى، فإن تصرف ضعاف العقول فى المواقف الاجتماعية والحياتية يكون - عادة- تصرفًا غير ناجح ، بل إنه قد يكون ضاراً بهم وبالآخرين ، إن تراخينا فى الإشراف عليهم وفى رعايتهم. وكذلك - أيضًا- نجد أن ضعف القدرات والإمكانيات المطلوبة لموقف ما يؤدى بالشخص إلى الفشل فى هذا الموقف . فلو كانت هناك مادة دراسية تحتاج إلى قوة ذاكرة (كحفظ النصوص مثلاً) فسوف يجد التلميذ المصاب بضعف فى الذاكرة صعوبة بالغة فى تحصيلها ، تمامًا كسائق الأوتوبيس الذى يصاب بالعمى، إذ لامفر له عند ذاك من أن يعتزل مهنة السواقة . كما أن نقص الطاقة الحيوية لدى الفرد ، وما يصيب أجهزته الجسمية من ضعف وأمراض وقصور وعجز ، يؤدى كله إلى نقص السواء فى الشخصية ، ويعوق توافقها مع بيئتها ، وتوفيقها فى حياتها .

٤- قدرة الشخصية على ضبط النفس والتحكم فى انفعالاتها وأهوائها :

من أهم خصائص الشخص السوى أن يكون قادراً على التحكم فى نفسه ، و«ضبط أعصابه» وانفعالاته وأهوائه ؛ وذلك حتى يُحْكِم حساباته قبل أن يقع فى تصرف طائش يضر به أو بغيره ، ويصعب علاجه ، فالحلم فى اللغة يعتبر صفة حسنة محمودة ؛ وتعنى الأناة وضبط النفس عند الغضب على الرغم من قدرة الفرد وقوته ، وليس عن ضعف أو هوان . ولذا، وصف الله بها نفسه فى القرآن الكريم .

فالفرد فى ثورة عضبه كثيراً ما يتفوه بألفاظ لاتليق ، ويقوم بأفعال وتصرفات رعناء تسئ إلى سمعته ، وتصدم الآخرين الذين ما كانوا يتوقعون منه ذلك ؛ نظراً لقدره ومكانته عندهم .

ومن هنا ، يصبح ضبط النفس والتحكم فيها وفى انفعالاتها وفى أهوائها شيئًا شديد الأهمية للشخص حتى يتحقق له السواء النفسى والتوافق الاجتماعى . كما أن الانفعال الشديد الذى يتجاوز حدود «المعقول» يهز أركان الشخصية بحيث يكاد يمزقها ، ويذهب بعقلانيتها ومنطقيتها، فيصبح تصرفها مضطربًا ، وسلوكها شاذاً وضاراً بها وبغيرها .

ولنا من المدرس فى فصله مثل على ما نقول . فهو يتعامل ويدرس لمجموعات مختلفة ومتباينة فى أخلاقياتها من التلاميذ؛ منهم الجاد والمستهتر ، الراغب فى التعليم وغير المكترث به ، الذكى والغبى، ذو الخلق الكرين وذو الخلق السيئ ... مما يستثير لديه عاصفة من الانفعالات ، ويفجر فيه شحنات من الضيق والاستياء ، لايعصمه من آثارها الضارة على سلوكه وشخصيته إلا هدوء أعصابه وقدرته على التحكم فى انفعالاته، وعلى ضبط نفسه حتى يواجه هؤلاء التلاميذ بسلوك رزين يحقق حُسْن التوافق ، ولايزيد المشكلات تعقيداً فيذهب بهيبة المدرس والمدرسة معًا . وبالمثل ، فإن رؤساء العمال والمشرفين عليهم ، وكل المسئولين فى مواقع أعمالهم ، يتعرضون من جانب مرءوسيهم إلى أمور مشابهة لما يتعرض له المدرس فى المثال السابق .

٥- قدرة الشخصية على الحب والتعاون والإيثار والولاء الوطنى :

يقال إن الإنسان كائن اجتماعى بطبعه ، ويقصد بذلك أن الإنسان ينزع إلى العيش وسط جماعة من البشر ؛ أى مع الآخرين ، ويكره العزلة عن الناس . ومن أهم ما يوثق العلاقات المتبادلة داخل الجماعات البشرية ويقويها وجود الحب المتبادل بين أعضائها ، والذى يؤدى بدوره إلى تزايد الثقة والتعاون بين الأعضاء . وهكذا، تنمو الجماعة وتزدهر وتنجح فى تحقيق أهدافها . ويَكْمُل هذا بظاهرة «الإيثار» . والإيثار فى اللغة يعنى «تفضيل المرء غيره على نفسه» ؛ بمعنى أن يؤثر غيره بالخيرات وبالأمور المفضلة حتى لو كان ذلك على حسابه ، وينتقص من نصيبه منها . فالشخص عندما يتصدق أو يتبرع بجزء من ماله (وربما بماله كله) لشخص آخر فى حاجة إليه يتصف «بالإيثار» ؛ لأنه آثر الشخص الآخر على نفسه وأعطاه المال وحرم نفسه منه .

فالجماعة البشرية لاتقوم ، ولاتزدهر، ولاتتقدم ، ولاتنهض إلا إذا توافر لأعضائها قدر كاف من الحب والتعاون والإيثار . فلو تصورنا أسرة لايهتم فيها الأب إلا بنفسه فقط.

ولاتهتم فيها الأم إلا بنفسها فقط، ولايهتم كل ابن فيها إلا بنفسه فقط ، فهل يمكن لمثل هذه الأسرة أن تنجح ؟ إننا فى هذه الحالة سوف نجد أن الأب ينفق كل دخله أو معظمه على إرضاء رغباته هو ؛ فمن أين لبقية الأسرة أن تجد المال الذى تتعيش منه ، وتنفق على تعليم أبنائها وبقية متطلباتهم ... لاشك، أن مثل هذه الأسرة سوف تفشل، ويتشرد أبناؤها ، وقد ينفصل الأب عنهم ... وإذا كانت الأم لاتهتم إلا بنفسها فقط ، فكيف - إذن- ترعى أبناءها ؟ وإذا كان الأخ لايهتم إلابنفسه ، فكيف يساعد كبيرهم صغيرهم ويؤازره ويدفع عنه ما يضره ؟ وإذا لم يكن الأب فى الأسرة محبًا لزوجته وأبنائه ؛ فَلِمَ يضحى من أجلهم ، ويحرم نفسه كثيراً من المتع ليوفر لهم أكبر نصيب منها ؟ ... وإذا لم يتعاون الأب مع الأم ومع الأبناء لإقامة أسرة سعيدة . يستمتع أفرادها بالنجاح والتوفيق فى حياتهم ؛ فكيف يتحقق ذلك ؟ يكد الأب ويجتهد ، وقد تساعده الأم فى ذلك لتوفير أكبر دخل يستطيعانه ، حتى يكفلا لأبنائهما متطلبات الحياة اللازمة ... وما ينطبق على الأسرة كجماعة بشرية صغيرة ينطبق مثله- تمامًا- على أى جماعة بشرية أخرى؛ كجماعة العمل، أو جماعة الحزب ، أو المجتمع المحلى أو المجتمع العالمى ؛ بصفته الجماعة الكبرى. حيث تتضح أهمية القدرة على الحب والتعاون والإيثار لازدهار الحياة البشرية واستمرارها .

وتَكمل هذه القدرة على الحب والتعاون والإيثار بولاء الفرد لوطنه ، حتى يفضله على ماعداه ، ويستعد لبذل مختلف التضحيات من أجل رفع شأنه، وإبعاد الضر عنه، والمبادرة للدفاع عنه ضد أى عدو داخلى أو خارجى بكل ما يستطيع .

وبلغة علم النفس . فإن الشخصية السوية لاتسيِّرها المصالح الأنانية الضيقة ، بحيث تكون أسيرة أنانيتها المفرطة ، متمركزة كلية حول الذات Egocentric ، بل يكون تمركزها واضحًا حول المجتمع Sociocentric (راجع المقصود بكلٍ من التمركز حول الذات والتمركز حول المجتمع فى (١ ، ٥ ، ٦) .

٦- الطموح المناسب للشخصية والأهداف الواقعية فى الحياة :

لكل منا أهداف معينة يحاول أن يبلغها، ومستوى طموح معين يسعى إلى تحقيقه، وتلك الأمور تختلف من فرد لآخر ، بل إنها تتغير عند الفرد من حين لآخر وفق مستوى وعيه ، وواقع ظروفه التى يعيشها . والأحداث التى يمر بها . وقد ينجح الفرد أو يفشل فى تحقيق

أهدافه وطموحاته . ولاشك ، أن هذا يعتمد على مدى كفاءته وقدراته ، وعلى مدى ملاءمة ظروفه وبيئته . كما أن لكل منا مستوى طموح معين بالنسبة لكل مجال من مجالات حياته ونشاطه . فالطالب الذى يطمح فى الحصول على درجة الدكتوراة قد يطمح فى نفس الوقت إلى أن يصبح أديبًا مشهوراً ، أو شخصًا غنيًا ، وإلى أن يمتلك كذا وكذا ... ، وإلى أن يكون أسرة سعيدة ، وأن يخلف أبناء ناجحين ... الخ .

ولاشك ، أن مستوى طموح الشخصية يعتبر دافعًا يدفع الفرد للكد والسعى حتى ينجح فى تحقيق هدفه المنشود أو أهدافه المنشودة التى يمثلها مستوى طموحه) . هذا ، ويدعم مستوى طموح الفرد ما يصادفه فى طريق تحقيقه من نجاح ، بينما قد يعمل ما يصيبه من فشل على تخفيض مستوى طموحه ، أو ربما التخلى كلية عنه ، علاوة على تأثيره فى مقدار ثقته بنفسه، واضطراب بعض جوانبها .

ومن هنا ، نجد أن الطموح المناسب لدى الشخصية ، وأهدافها الواقعية والمعقولة التى تريد تحقيقها فى حياتها أمر ضرورى لحسن توافقها وإضفاء مظاهر السواء عليها . فالطالب المتوسط فى ذكائه ، والذى يحدد مستوى طموحه فى أن يكون أول مدرسته فى نسبة النجاح ، سوف لاينجح فى تحقيق هذا الهدف ؛ أى هذا المستوى من الطموح . وبالتالى ، يصاب بخيبة الأمل واليأس، وربما بفقدان الثقة فى النفس ، مما يكابد معه مشاعر الضيق والاستياء ، وكراهية الحياة ، وهى أمور تبعده عن السواء . بينما لو أن هذا الطالب قد وضع لنفسه هدفًا أو مستوى طموح مناسبًا ومعقولاً متمثلاً فى النجاح دون اشتراط أن يكون أول مدرسته ؛ فأغلب الظن أنه سيحققه ، فيحس عند ذلك بالتوفيق فى دراسته وفى حياته . ويتجنب مشاعر الضيق والمرارة التى يتعرض لها فى الحالة الأولى .

وهكذا ، كلما كانت أهدافنا ومستويات طموحنا واقعية ومتناسبة مع قدراتنا وإمكانياتنا وظروفنا كنا أقرب للنجاح فى تحقيقها ، وبالتالى ازددنا قربًا من السواء وبعداً عن سوء التوافق والاضطراب . ولاشك أن الأهداف المغالى فيها ، والطموح البالغ الارتفاع فوق مستوى الإمكانيات والظروف ، سوف يسبب كل هذا إحباطات مستمرة للشخصية وإحساسًا مستمراً بالانهزام والفشل ، وبعداً – بالتالى – عن السواء المنشود . كما أن بساطة المطالب وتواضعها أمر ضرورى للتوافق السوى فى الحياة .

٧- قدرة الشخصية على العمل المنتج البناء :

تعتبر هذه القدرة من أهم خصائص الشخصية السوية، وربما كانت أهم معيار لتقدير مدى سوائها ؛ ذلك لأن العمل هو الذى يقوم عليه عمار الكون وازدهاره ، كما يقوم عليه بنيان أى مجتمع وتقدمه ، وما ينطبق على المجتمع ينطبق - أيضًا- على الفرد بالنسبة لأهمية العمل . فالفرد لايتقدم إلا بعمله وجده واجتهاده . فالتلميذ لايبنى نفسه ومستقبله إلا إذا جدَّ فى تحصيله ، واجتهد فى دراسته حتى يحصل على أعلى ما تؤهله له إمكانياته واستعداداته الشخصية ، وظروفه الاجتماعية . والموظف (أو العامل) لايخدم نفسه ومجتمعه إلا إذا أحسن القيام بأداء مهام وظيفته، وأدى واجباته على الوجه الأكمل، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . أما إذا تراخى وأهمل أداء واجبات وظيفته ، فسوف يضر هذا به نفسه ، وبمجتمعه ، أيضًا ؛ حيث تتعطل مصالح الناس التى عليه قضاؤها ؛ أو يضعف الإنتاج الذى ينتظره منه المجتمع . وبالمثل ، فإن النجار على سبيل المثال ، أو الصانع الذى يهمل صنعته ، ولايجتهد فى بذل ما يستطيع لحُسْن أدائها تخرج منتجاته مملوءة بالعيوب ، لاتجد من يقبل عليها ، فتبور بضاعته وتسوء سمعته ، مما يضر بشخصه ، وبأسرته (بصفتها مجتمعه الصغير) بل وبمجتمعه كله فى نهاية الأمر ؛ خاصة لو اتصف الكثيرون فيه بهذا الإهمال .

على أن هناك كثيراً من الناس فى مهن أو تخصصات علمية شتى على درجة عالية من القدرة على الإنتاج وإنجاز الأعمال الممتازة لو صدقوا العزم على ذلك ؛ ولكنهم - فى الواقع- لاينجزون شيئًا ذا بال ، وعملهم وإنتاجهم أقرب للعبث ، مما يدل على الاستهتار وعدم الرغبة فى العمل المنتج الجاد الذى يعلو بذكر صاحبه بين أقرانه خاصة، ومجتمعه عامة. مما يكسبه مكانة مرموقة بين الناس، ويعتبر دليلاً واضحًا على سوائه . فهذا تلميذ مرتفع الذكاء ، ويستمتع بالقدرات العقلية والظروف البيئية والاجتماعية التى تساعده على الدراسة والتفوق . لكنه مستهتر بالدراسة ، لايعيرها أى اهتمام ، ومنشغل بقضاء معظم وقته مع رفاق سوء يتعاطون المخدرات ويسرقون الناس لتدبير تكاليف ما يتعاطون . وهذا عالم كبير؛ بدلاً من أن ينشغل بأبحاثه ومؤلفاته وتكوين تلاميذه يقضى معظم وقته لاهيًا عابثًا ، أو مهرولاً وراء هذا المسئول الكبير أو ذاك عله يساعده فى الحصول على منصب كبير، أو وظيفة تحقق له كسبًا ماليًا ضخمًا ... وهذا صانع لايهمه إتقان عمله أو إجادته ؛ إنما يضع كل همه فى كيفية الحصول على أكبر عائد مادى منه، وفى كيفية «النصب على العميل» وخداعه . لاشك ،

أن مثل هذه الحالات كلها بعيدة عن السواء . حتى أن بعض علماء النفس يطلقون عليها مسمى خاصًا لاضطراب نفسي يميزها هو «الكف العصابى» قاصدين به «توقف نشاط أو إنتاج مبعثه دوافع الشخص الذاتية اللاشعورية ، بحيث يجعله يقصِّر فى أداء ما يطلب منه من عمل أو ما ينتظر منه من إنتاج أو إبداع ، رغم أن الظروف الواقعية قد تكون مهيأة لنشاطه وإنتاجه وإبداعه . وكأنه نوع من العقاب الذاتى، أو الخصاء الذاتى، يوقعه الفرد على نفسه بشكل لاشعورى ، متعللاً - على المستوى الشعورى- بأعذار واهية ليقنع بها نفسه والآخرين . بينما يكون دافعه الذاتى والحقيقى لذلك دافعًا لاشعوريًا مرضيًا ... (١ : ٦٥٠).

ولذلك ، فإن المحللين النفسيين يعرِّفون الصحة النفسية بأنها القدرة على الحب والعمل ؛ بمعنى أن أهم علامات الشخصية السليمة نفسيًا هى قدرتها على الحب (راجع البند الخامس) ، وقدرتها على العمل (البند الذى نتحدث عنه الآن) .

٨- جدية الشخصية وقدرتها على تحمل المسئولية :

لاشك ، أن من أهم علامات الشخصية السوية جديتها وقدرتها على تحمل المسئولية التى تلقى على عاتقها أو تلتزم بها . فالفرد لكى يحقق التوافق مع مجتمعه ، والتوفيق فى سلوكه وأفعاله ، ويستمتع بالنجاح فى حياته ، لابد أن يتصف بالجدية فى أعماله وأقواله ؛ إذا قال صدق ، وإذا أسند إليه عمل أو انتظر منه الناس عملاً أداه بكل ما يستطيع من جد واجتهاد وتفان، وإذا تحمل مسئولية عمل ما، أو أمر ما، وفاه حقه من الرعاية والاهتمام ، وبذل فى تنفيذه والوفاء به ما يستطيع من طاقة ، وما يسعه من جهد . حتى أن استهتار الشخصية واستهانتها بالمسئولية تعتبر من أخطر خصائص السيكوباتية . والأمر من الوضوح هنا بحيث لايحتاج إلى زيادة بيان (٢ : ١٧٨-١٧٩) .

٩- قدرة الشخصية على تحمل الإحباط والصدمات :

الحياة مملوءة بالمسرات والمبهجات ، كما هى مليئة بالإحباطات والصدمات والهموم والأحزان. فلايكاد فرد يخلو من همومها ومنغصاتها ، كما لاتكاد تخلو الحياة بالنسبة له من مصادر لذة وسعادة . لكن الإنسان يسعى دائما ويرحب بما يبعث على السعادة، ويضيق دائما ويشقى بما يسبب له الضيق والألم، فيحاول أن يتجنبه . ويعرف هذا فى علم النفس بمبدأ اللذة- والألم Pleasure-Pain Principle ، وهو المبدأ السيكلوجى القائل بأن الإنسان ينزع فى سلوكه إلى الحصول على أكبر قدر من اللذة وتفادى أكبر قدر من الألم» (١:٦٧٦) .

ولهذا ، يكون من أهم علامات السواء النفسى ومعاييره قدرة الشخصية على تحمل الإحباط، والصدمات ، والصبر على المكاره، والحرمان من إشباع الرغبات لفترات طويلة ؛ دون أن يزعزع هذا كيان الشخصية أو يفقدها توازنها ، فيؤدى بها إلى الانهيار والاضطراب؛ ومن هنا ، كانت قدرة الفرد على الصبر من الصفات الشخصية المرغوبة ، واللازمة لتوازنه النفسى وتوافقه الاجتماعى .

١٠- هدوء الشخصية واطمئنانها وإحساسها بالراحة النفسية :

هذه مجموعة من الأحاسيس والمشاعر الإيجابية المترابطة والمحببة إلى النفس ، بحيث تتذوق فيها طعم السعادة وهدوء البال . ويشعر بها الفرد عندما يتحقق له التوافق الناجح مع نفسه ومع مجتمعه ، ويحرم منها أو تنقص عنده فى حالات تكاثر المشكلات التى تتهدده ، والمخاطر التى تخيفه ، والظروف التى تحول بينه وبين إشباع مطالبه الضرورية أو تنتقص من كرامته كإنسان ، أو تحط من قدره أمام نفسه ، أو ذويه ، أو مجتمعه ...

وما من شك ، أننا نعيش فى عصر يتسم بانتشار القلق والخوف من كل شىء وعلى كل شىء؛ حتى أن بعض المفكرين يطلقون على عصرنا هذا «عصر القلق . فنسبة كبيرة من الناس تعصف بهم حالة من القلق والخوف، تشتد أحيانًا ببعضهم فيستعصى عليهم النوم الهادئ ، ويحرمون طعم الراحة والأمان اللاذ ، ولايحسون متعة السعادة ، وتشقى نفوسهم بالحياة التى يجد فيها المطمئنون من الناس لذة واستمتاعًا ، وما لايعد ولايحصى من الطيبات ، هذا بغض النظر عن غنى الفرد أو علو منزلته أو ارتفاع مستوى تعليمه أو معيشته . وهذه الحالة من القلق المنتشر والمخاوف الشديدة التى تعصف بكثير من الناس إنما تدل على سوء التوافق النفسى، وتتناقض مع حالة الهدوء والاطمئنان والراحة النفسية التى يتصف بها المتوافقون ، وبالتالى نتخذها معياراً للشخصية السوية .

ولاشك . أن اتصاف الفرد بما سبق أن ذكرناه فى البند السادس عن الطموح المناسب والأهداف الواقعية فى الحياة ، وفى البند الثانى عن الإدراك السليم للواقع وعناصره ، وفى البند الرابع عن ضبط النفس والتحكم فى انفعالاتها وأهوائها ، علاوة على تبنى الفرد لقيم البساطة وتحقيقها فى مظهره وطريقة معيشته ؛ كل هذا يساعد الشخصية على هدوئها واطمئنانها وراحتها النفسية ، وينأى بها عن القلق والمقلقات .

١١- تبنى الشخصية للقيم الخيرة والبناءة :

لاتزدهر الحياة ، ولاتتقدم المجتمعات إلا بانتشار القيم الإنسانية النبيلة ؛ كقيم الحق، والعدالة ، والرحمة ، والأمانة ، والصدق ، والوفاء ، والبساطة ، والتواضع ، والتعاون ، واحترام حرية الآخر ومصلحته ، والبُعد عن الأنانية المفرطة .. وحفظ كرامة الآخرين والمعاملة الإنسانية لهم ، وتحقيق روح الديمقراطية فى العلاقات المتبادلة بينهم ... والسعى الجاد لصالح المجموع ، حتى لو كان على حساب الصالح الشخصى ؛ وصولاً - فى النهاية- إلى كل ما من شأنه تقدم المجتمع ورفعة شأنه وازدهاره .

إن القيم النبيلة تدعو إلى كل ما هو مفيد للحياة وللناس وللمجتمع ككل . ولذا ، فإن من يلتزم بها فى سلوكه وفى طريقته فى الحياة يتصف بالتوافق والسواء النفسى، وكل من يخالفها يتصف بسوء التوافق والاضطراب ، فالأب الذى يضرب ابنه الصغير بلا رحمة حتى يودى بحياته ، لايمكن وصفه بالسواء . والقاضى الذى لايعدل فى حكمه بين المتقاضين لايوصف بالسواء . والمدرس الذى ينحاز لتلميذ أثناء الامتحان لقرابة معه ، أو لرشوة تعاطاها من ولى أمره ، أو لدرس خاص كان يعطيه له (والدرس الخاص هنا رشوة مقنعة) ... لايمكن أن نصفه بالسواء. والفرد الذى تعطيه أمانة لك لكى يحفظها لحين طلبها ، ثم تطلبها منه فينكر أنك أعطيته شيئًا لانستطيع وصفه بالسواء . والإنسان الذى يكذب فيما يقول ، أو يشهد الزور لانصفه بالسواء . والشخص الذى يتكبر على البشر ويتعالى عليهم فلا يجالسهم ولايحادثهم ولايهتم بأمورهم لايمكن أن يعد سويًا .

إن عمران الكون ، وازدهار المجتمع رهن بمدى تبنى أفراده مختلف القيم الإنسانية النبيلة ، وتحقيقها فى تعاملهم بعضهم مع بعض، وفى تعاملهم - أيضًا- مع مجتمعهم ومختلف مؤسساته ومنظماته . وبالمثل ، فإن خراب الكون وتدمير المجتمع متوقف على تنكر أفراده وجماعاته لتلك القيم . فالقيم النبيلة كلها خيرة وبناءة ، وتؤدى للنجاح والتقدم ، والتوفيق والتوافق ، ولذا كان التزام الفرد بها فى سلوكه وأسلوب حياته دليلاً على حسن توافقه . ولعل النصيحة المعروفة «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» تستحثنا- صراحة- على تبنى هذه القيم ، وتحقيقها الفعلى فى سلوكنا وحياتنا .

١٢- استمتاع الشخصية بالصحة النفسية :

نقصد بالصحة النفسية للفرد خلوّ شخصيته من الانحرافات والاضطرابات والأمراض النفسية الواضحة ، علاوة على قدرته على التوافق والنجاح فى علاقاته مع غيره من الناس ، والتحقيق الإيجابى البناء لذاته فى عمله وإنتاجه ونشاطه ، مع قدرته على مواجهة الأزمات والشدائد والصمود فى مواجهتها ، وتحمل أوجه الإحباطات التى يتعرض لها فى حياته ، دون أن يختل اتزانه فينهار ، أو تضعف نفسيته فيضطرب أو ينحرف .

وعلى ذلك ، فنحن لانستطيع أن نصف مدمن المخدرات أو مروجها أو مهربها أو المتجر فيها بالصحة النفسية ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنحرفين ، ومعتادى الإجرام ، والمرتشين والنصابين والمختلسين ، والخونة ، وفاقدى الولاء للوطن ، والفاسدين المفسدين فيه ، والذين يقفون عقبة فى سبيل زيادة إنتاجيته ورفعته وتقدمه . فهؤلاء جميعًا يعانون من اضطراب فى الصحة النفسية ، بمثل ما يعانى مرضى المستشفيات العقلية ، ونزلاء المصحات العصبية ، وطالبو العلاج النفسى، وإن اختلفت نوعية المعاناة وشدتها .

وليس من شك فى أن الصحة النفسية مسألة نسبية ، شأنها شأن بقية جوانب الشخصية ؛ كالصحة ، أو الجمال ، أو الذكاء ؛ بمعنى أن الصحة النفسية التامة أمر لايكاد يتحقق لفرد ما ، وأن مقدار الصحة النفسية يختلف من فرد لآخر ، بحيث نجد فرداً أكثر صحة نفسية من غيره ، لكننا لانكاد نجد فرداً كامل الصحة النفسية . كما أننا سوف نجد لدى أشد الناس جنونًا بعض المظاهر- وإن قلت- تدل على سلامة بعض جوانبه النفسية . فكما لانستطيع أن نقول إن فلانًا كامل الذكاء وفلانًا منعدمه ، كذلك لانستطيع أن نقول إن فلانًا كامل الصحة النفسية وفلانًا منعدمها . هذا من الناحية العلمية البحتة ؛ لكننا فى الواقع ، ومع شىء من التجاوز، نصطلح على وصف الشخصية بالصحة النفسية ، إن كانت تكاد تخلو من مظاهر الانحراف أو الاضطراب أو المرض النفسى الواضحة ، وأن نصفها بالمرض النفسى (أو الاضطراب النفسى) إن بدت هذه المظاهر منها . ولعل حديثنا هذا عن الصحة النفسية يبرر نظرتنا إليها كمعيار للشخصية السوية التى ننشدها فى أبنائنا ، ونسعى إلى إشاعتها وتدعيمها بين مواطنينا . كما أنها من جانب آخر تستوعب الكثير من المعايير ، التى سبق أن تحدثنا عنها، وتشملها ، أو تؤثر فيها وتتأثر بها فى أغلب الأحوال .

خاتمــة :

فى هذا المقال، قمت بوضع إطار معيارى يستهدف تحديد الشخصية السوية للفرد ، كما تتطلبها المرحلة الراهنة التى يمر بها المجتمع المصرى؛ حيث يسعى إلى فك قيوده التى تكبل انطلاقته نحو النمو والازدهار . ويرشدنى فى نظرتى لوضع هذا الإطار أمران أساسيان : أولهما سرعة نهوض المجتمع بإنتاجيته وبمعدلات تنميته ، أسوة بما حدث فى نموذج البلاد المعروفة بالنمور الأسيوية ، والتى كان معظمها أشد منا تخلفًا فى الماضى القريب . أما ثانيهما ، فهو تقوية الولاء لهذا الوطن ونصرته وتقديم صالحه على ماعداه . وعلى هذا، حددت هذا الإطار باثنى عشر محوراً أو معياراً ؛ يمكن فى ضوئها تقدير مدى سواء الشخصية، باعتبار أن السواء مسألة نسبية ، وأن الشخصية تزداد سواءً كلما اقتربت من الحالة المثالية فى كلٍ من هذه المعايير (أو المحاور) الاثنى عشر ، وتزداد بعداً عن السواء كلما ابتعدت عن المثالية فى أى منها .

ولاشك ، أن كل من يقوم بدور فى تنشئة الأفراد فى مجتمعنا وتربيتهم ورعايتهم ، وتعليمهم وتثقيفهم وتوعيتهم ؛ كالآباء والمدرسين والإعلاميين ورجال الدين والمفكرين والمصلحين ، والقادة والرؤساء وكبار المسئولين ؛ مطالب ببذل كل ما يستطيع لمحاولة تحقيق هذه المعايير الاثنى عشر ، التى تكون الإطار المعيارى للشخصية السوية فى نظرنا، وإشاعتها وتدعيمها فى كل أفراد المجتمع .

* * *

المراجع :

١- طلعت منصور:. الشخصية السوية ، عالم الفكر ، سبتمبر ١٩٨٢ ، ٦٣-١٠٨ .

٢- فرج عبد القادر طه (إشراف) : موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، القاهرة - الكويت، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ .

٣- فرج عبد القادر طه : تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات ، دراسات نفسية ، أبريل ١٩٩٤ ، ١٧١-١٨٨ .

٤- فروم . إ : الإنسان بين الجوهر والمظهر ، ترجمة سعد زهران ، مراجعة لطفى فطيم . عالم المعرفة ، أغسطس ١٩٨٩ .

5- Goldenson , R. (Editor). Longman Dictionary of Psychology and Psychiatry . Longman , New York & London : 1984 .

6- Reber , A. The Penguin Dictionary of Psychology , Pengiun Reference Book . Pengiun Books , 1987 .

تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات *

نحاول فى هذا البحث أن نعرض بعضًا من أهم الظواهر أو السمات أو الصفات التى بدأت تشيع فى الشخصية المصرية فى الآونة الأخيرة ، والتى تعتبر صفات مذمومة ومدانة وهدامة ، تضر بالمجتمع المصرى، وتعرقل انطلاقته نحو النمو والازدهار والتقدم .

وهكذا ، فإننا نشير إلى ضعف التوجه العلمى، ووجهة الضبط الخارجى (ونظرية التآمر) ، والبيرقراطية (وتبديد الطاقة دون إنتاج) ، والانتهازية ، واللامسئولية (أو عدم تقدير المسئولية) ، وتبلد العواطف الأسرية وعنف العدوان داخلها ، وافتقاد القدوة . كما أننا نطرح هنا مصطلحًا -لأول مرة- هو تليف الضمير قياسًا على ما هو معروف من كثرة انتشار تليف الكبد بين المصريين ، إذا ما قورن بانتشاره فى بلاد أخرى. ونقصد به ما أصاب الضمير لدى كثير من المصريين – فى وقتنا الحالى- من فساد وتحلل ؛ بحيث يمكن تشبيهه فى هذه الحالة بالليفة المملوءة بالثقوب التى تمرِّر السوائل والأشياء ولاتمنعها ولاتوقفها عند حدها . فهذا الضمير المتليف لم يعد صالحًا لمنع صاحبه من ارتكاب المفاسد والجرائم والموبقات التى تضر بالبلد ومواطنيه . ونوصى -فى نهاية البحث- بضرورة دراسة مثل هذه السلبيات بمنهج تكاملى تشترك فيه تخصصات علمية مختلفة تتكامل معًا لإعطاء صورة شاملة عن عوامل ومسببات هذه السلبيات ، وتقترح أنجع السبل لعلاجها .

تمهيد فى المدخل :

تذكرنا حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وما كتبه عنها العرب والأجانب من مؤلفات ودراسات ، وتقارير وآراء ، بانتصارنا العظيم فى هذه الحرب التى أعادت إلينا كرامتنا، واستردت لنا ثقتنا فى أنفسنا بعد انهيارها فى يونيو عام ١٩٦٧ . فقد عبر الجندى المصرى قناة السويس ، وكانت تعتبر من أقوى الموانع المائية ، واقتحم خط بارليف، وكان يعتبر من أقوى الحصون العسكرية .

وما من شك فى أن هذا الانتصار يؤكد لنا- بشكل عملى وواقعى – إمكانية أن يتخطى المصرى عجزه بسرعة، وقدرة الشخصية المصرية على أن تنفض عنها سلبياتها وعيوبها محوِّلة

---

* نشر هذا المقال فى «مجلة دراسات نفسية» (رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية بالقاهرة) مجلد:٤ ، عدد :٢ ، أبريل ١٩٩٤ ، ١٧١-١٨٦ .

إياها إلى إيجابيات تدعو للفخر والاعتزاز . فقد تم ذلك فى وقت قصير ، لم يتجاوز السنوات الست إلا بالقليل ، مما يدفعنا إلى أمل يملأ نفوسنا جميعًا بإمكانيات الشخصية المصرية الهائلة على أن تتجاوز سلبياتها بأسرع مما نتصور، لتحقق لنا الأمل المنشود فى تخطى أزماتنا الاجتماعية والاقتصادية ، ومشكلاتنا التربوية والتنموية ، بل وعلى تجسيد حلمنا فى استعادة مكانتنا الحضارية والثقافية التى سبقنا بها العالم كله، وانفردنا بذلك عشرات القرون، فكان المثل السائر «مصر أم الدنيا» أوضح تعبير عن هذه الحقيقة ، وأصدق إقرار بها.

ولكى ننجح فى ذلك ، علينا أولاً أن نتعرُف على الشخصية المصرية، وما طرأ عليها من تغيرات ، حتى ندعم الإيجابى منها والمفيد، ونعالج السلبى منها والضار . ذلك أن معرفة حقيقة الشىء (أو الظاهرة بلغة العلم) أولى خطوات التحكم فيه واستغلاله لصالحك . ومن هنا كان قول الحكماء ، منذ القديم «اعرف نفسك» ، ثم أضيفت إلى ذلك حكمة أخرى تقول : «إذا عرفت استطعت» . بما يعنى أنك إذا عرفت حقيقة الشئ أمكنك أن تشكّله وفق ماتريد ، علاوة على أن هذه المعرفة تعطيك الفرصة لجلب أكبر قدر ممكن من خبراته ، ودرء أكبر قدر ممكن من شروره وأضراره . ولهذا، يعترف الأطباء ، والمعالجون البدنيون ، والنفسيون بأن التشخيص الصحيح نصف الطريق إلى العلاج ؛ بمعنى أن معرفة الداء خطوة لابد منها لوصف الدواء .

ولاشك أن الشخصية المصرية المعاصرة بها من الجوانب والخصائص الإيجابية المفيدة الكثير والكثير. لكن المصارحة تقتضى أن نذكر -أيضا- أن بعض السلبيات الضارة بدأت تظهر أخيراً على سطحها . مما أزعج كثيراً من المهمومين بتقدم مصر وانطلاقها نحو التنمية والازدهار ؛ حيث تقف هذه الجوانب السلبية كعقبة كؤود ، أمام ما يبذل من جهود ، فتقلل من عائدها التنموى، وتذهب بالكثير من خيرها المرجو . ولذا ، أرى من الأمانة والأهمية ، بل والأولية، أن أركز حديثى ، فى هذا المقال ، على هذه الجوانب السلبية التى أرى أنها بدأت تطفو على سطح الشخصية المصرية ، وهى فى أمس الحاجة منا إلى البحث والدراسة والعلاج :

١- ضعف التوجه العلمى : Lack of Scientific Attitude

مع زيادة نسبة التعليم فى مصر ، كنا نتوقع أن يزداد التوجه العلمى بحيث يعم معظم مناشط حياتنا ، إلا أننا نلحظ -مع الأسف- غير ذلك . فكثيرا ما نجد معلمى الأطفال

والتلاميذ يشيعون فى دروسهم وبين تلاميذهم أفكاراً ممعنة فى الغيبة والخرافية ، ومحاربة للاتجاهات العلمية البناءة . فهذه معلمة تنصح تلاميذها بأن يقرأوا شيئًا من القرآن فى الحجرة التى ينامون فيها ، حتى لاتأتى إليهم الشياطين فى المساء توسوس لهم بسوء الأفعال ، وتصيبهم ببالغ الأضرار . ومعلم آخر يوزع شرائط على تلاميذه تدعو للفتنة الطائفية . وإمام مسجد مشهور يصب بأعلى صوته اللعنات على المخالفين لدينه ، ناسيًا أن الدين لله وأن الوطن للجميع ، وأن الدين والمصلحة معًا يحضان على الوحدة بين المواطنين لا الفرقة ، وعلى التماسك لا التنابذ؛ فالاتحاد قوة، والفرقة اندحار ودمار .

ولنضرب مثلاً آخر على ضعف التوجه العلمى حتى بين كثير من علمائنا الكبار، ذلك ما رواه لنا الدكتور مصطفى فهمى، الأستاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية ، فى مقال له بأهرام ١٩ / ١١ / ١٩٩٣ ، بعنوان «الهندسة الوراثية .. عندهم ... وعندنا»، فمن بين ما يقول فيه «قرأت إعلانات عن محاضرة سيلقيها أحد كبار العلماء عن الهندسة الوراثية فى واحدة من أكبر مؤسساتنا العلمية ، وهرولت - فى الوقت المحدد- إلى قاعة المحاضرات الفخيمة . وكانت أولى المفاجآت أن عدد الحاضرين لايتجاوز بضعة عشر فرداً ، على أنهم جميعا كانوا من كبار الأساتذة فى الطب، والكيمياء ، والفيزياء، بل والكمبيوتر . وانطلق المحاضر يفيض بعلمه موضحًا- بأسلوب شيق- أحدث الأبحاث فى هذا الاتجاه العلمى الجديد الذى تعنى به كل الدول المتقدمة . ثم قال : إنه يجرى الآن مشروع دولى لرسم خريطة لكل الطاقم الوراثى فى الإنسان من چينات وكروموسومات ، وقد رصد لهذا المشروع بلايين، وليس ملايين الدولارات... ووقف أستاذ كبير ليسأل : وما فائدة مثل هذا المشروع الذى تنفق فيه البلايين ؟ هل سيساعدنا على تنشئة أولادنا نشأة قومية ؟ ورغم أن السؤال بعيد بعض الشىء عن أن يكون نقاشًا علميًا للمحاضرة ، إلا أن الأستاذ المحاضر أجاب بلباقة أن الأبحاث العلمية قد لايبدو لها فى أول الأمر تطبيقات مباشرة، ولكن عندما ترسخ النظريات ، وتثبت صحتها ، لاتلبث أن تظهر التطبيقات متسارعة ... وهب أحد الأساتذة المستمعين منتفضًا ، وقال : عندك ، تقصد التدخل فى الأجنة، قد رأيت فى التلفاز، داعية كبيراً يقرر أن هذا التدخل فى المصائر يعد حرامًا ، وكذلك اللعب بالأجنة فيما يسمى بأطفال الأنابيب ، ومحاولة تغيير الصفات الوراثية ، إن هندستك الوراثية هذه حرام فى حرام. تماسك المحاضر وأجاب هادئا أن أى علم لايوصف بأنه حلال أو حرام ؛ لأن العلم - بالمعنى الحديث- هو بحث عن الحقائق بمنهج علمى معروف. أما ما يصح الاختلاف فى تقييمه ، فهو بعض تطبيقات العلم، ولايصح أن نمنع

أو نحرم أحد العلوم لوجود بعض تطبيقات خاطئة له، وإذا كان هناك كيميائى يصنع المخدرات فى معمله ليروجها بين المدمنين، فإن هذا لايعنى تحريم ممارسة علم الكيمياء ، وإنما يقبض على الكيميائى المنحرف ، وكل علم له تطبيقاته المفيدة والضارة. والهندسة الوراثية لها فوائدها التى بدأت تظهر فى الطب، والزراعة ، وتربية الحيوان ، وغير ذلك ... ويستمر الدكتور مصطفى فهمى فى وصف ما دار فى المحاضرة إلى أن يقول «وإذا بمدرس جامعى شاب يسأل : ألا ترى أن سيدنا عيسى، إذ تكلم فى المهد صبيًا ، فإن ذلك قد يكون بفعل نوع من البرمجة الوراثية، لم أستطع مواصلة الاستماع ، وخرجت مذهولاً من هذا الخلط الشديد فى رؤوس المتعلمين ، بل والعلماء ، فما البال بالجهلاء ... ؟».

وعلى عكس ما كنا نتوقع من زيادة التوجه العلمى فى مؤسسات الدولة ومصالحها نجد تدهوراً وانتكاسة فى تبنى الاتجاهات العلمية وتدعيم الأخذ بها فى كثير من أنشطة الدولة ومؤسساتها ؛ فنسبة الميزانيات التى كانت مخصصة للبحث العلمى، ولتدعيم المعامل العلمية، قد تقلصت ، وتقلصت -أيضًا- بعثات الدولة إلى الخارج للحصول على درجات الدكتوراة، والتى كانت تعود حاملة معها آخر ما وصل إليه العلم فى الخارج ، وكذلك الأمر بالنسبة للعلماء المصريين الذين كانوا يشاركون فى المؤتمرات العلمية بالخارج ؛ حيث قلت النسبة التى كانت تتحملها الدولة إسهامًا فى تكلفة السفر والإقامة . كما أن الأنشطة التى كانت تمارسها بعض مؤسسات الدولة- بشكل علمى- قد حوربت ، وألغى بعضها ، أو تقلص ، كديوان الموظفين ، الذى كان نشطًا من أوائل الخمسينيات وبدايات الستينيات فى التعيين للوظائف الحكومية عن طريق الاختبار المهنى ، والتصنيف المهنى على أسس علمية . وكذلك الأمر بالنسبة لاختيار وتصنيف التلاميذ الصناعيين بوزارة الصناعة على أسس علمية رفيعة المستوى حتى وقت قريب .. حيث بدأ هذا الاتجاه يحارب ويتراجع الأخذ به مع أوائل التسعينيات ، بينما كان فى قمته منذ نشأة وزارة الصناعة فى الخمسينيات وحتى نهاية الثمانينيات .. وهكذا، نعمل -دون وعى منا- على تهيئة تربة تنمى التطرف والإرهاب ، وتعمل على تدعيمه .

ويشير هذا إلى أن مجتمعنا يمر- هذه الأيام- بموجة من التراجع عن تبنى الاتجاهات العلمية البناءة لصالح الاتجاهات الغيبية والتخريفية المدمرة ، مما يؤكد أننا لازلنا فى حاجة ماسة إلى جهود مكثفة ومخططة لإشاعة التنوير العقلى بين فئات مجتمعنا المختلفة : أطفاله وراشديه ، متعلميه وأمييه .

٢- وجهة الضبط الخارجى (ونظرية التآمر) : External Locus of Control

«وجهة الضبط» مصطلح سيكلوجى «يشير إلى وجهة نظر الفرد فى العوامل المؤثرة على سلوكه ، أو على مستقبله ، أو المسئولة عنهما ، وما إذا كان الفرد يرجع هذه العوامل إلى شخصه هو (وبالتالى فهو مسئول عنها) ، أم إلى الظروف الخارجية (وبالتالى يكون هذا قدره الذى لامفر منه، ولامسئولية شخصية عليه) . فهناك من يعزو فشله إلى قصور فى قدراته واستعداداته وسماته الشخصية ، فى مقابل من يعزو فشله إلى سوء حظه فيما يقابله أو يحيط به من ظروف وملابسات لاذنب له فيها، ولا إسهام لشخصه فى إيجادها . وهناك درجات بين هذين النموذجين» (٤ : ٨٤٠) . ونصف وجهة الضبط لدى الفرد بأنها خارجية فى حالة اقتناعه بعدم مسئوليته الشخصية عما يقع له من أحداث ، أو يقم به من سلوك ؛ حيث يرجعهما إلى ظروف وملابسات وعوامل خارجة عنه . ولاشك أن ما ينطبق من هذا الوصف على الفرد ينطبق -أيضًا- على الجماعة أو المجتمع .

ويلاحظ أن الفرد (أو المجتمع) تزيد لديه وجهة الضبط الخارجى بمقدار ضعف وجهة الضبط الداخلى (بمعنى مسئوليته الذاتية عما يقع له أو منه) ، والعكس بالعكس. ولاشك أن وجهة الضبط الخارجى تزيد مع بُعد الشخص أو المجموعة عن التوجه العلمى ؛ حيث ينفض الفرد أو المجتمع مسئوليته عما يقع له أو منه ، ويرى الآخرين والظروف الخارجية وكأنها تتآمر عليه ، ولاقبل له بها . وينتج عن ذلك يأسه عن النضال ، وقعوده عن السعى لتحقيق الهدف ، طالما كان مقتنعًا أن تحقيق الهدف ليس راجعًا إليه ، وإنما إلى ظروف خارجة عنه . ومن هنا ، يتبنى الفرد أو المجتمع نظرية التآمر التى تشير إلى أن خيبة الرجاء فى مسعاه إنما ترجع إلى ظروف خارجية، أو قوى خارجية تتآمر ضده . ولعلنا نتذكر كيف ادعت القيادة المصرية فى نكسة ١٩٦٧ أن الأمريكيين هم الذين حاربونا بجنودهم وعتادهم على الجبهة العربية ، وهو أمر لاقبل للعرب به . وهكذا ، دافعت القيادة المصرية عن نكستها فى هذه الحرب ، وحاولت علاج الجرح النرجسى الذى أصابها بنفى القصور عنها ، وإسناد النكسة إلى قوى خارجية ، لاقدرة لقيادة عربية على دفعها .

هذه النغمة تبعد عن التحليل العلمى للأحداث ، مما يزيف وعينا بالحقائق ، وبالتالى يحبط مسعانا لحل مشكلاتنا انتظاراً لحلها من قوى خارجية ، وليس بفضل تخطيطنا وجهدنا ومسعانا الفعلى. ومن أسف ، أنها تشيع فى تبرير سلوكنا كأفراد بمثل شيوعها فى تبرير مشكلاتنا كمجتمع .

٣- البيروقراطية (وتبديد الطاقة دون إنتاج) : Bureaucracy

فى واحدة من أروع إبداعات الدكتور/ حسين مؤنس القصصية بعنوان «إدارة عموم الزير»، والتى نشرها بجريدة الأهرام فى ٤ / ٢ / ١٩٧٢ ، وأعاد نشرها عام ١٩٧٥ بدار المعارف فى سلسلة «اقرأ» ، ضمن مجموعة قصصية بعنوان «إدارة عموم الزير وقصص أخرى» ، نجد نصًا أدبيًا (من قصص المواقف) يجسم البيروقراطية ، ويصف سرعة استشرائها ، ويعرى سوءاتها. ولعل أديبنا- فى هذا - كان يدق ناقوس الخطر منذ أوائل السبعينيات ، لينبهنا إلى سرعة استشراء البيروقراطية فى أجهزة الدولة ومؤسساتها، وما سوف تحدثه من أثر تدميرى فى بنية المجتمع ؛ حيث تبدد طاقة أفراده وميزانية مؤسساته دون عائد إنتاجى مفيد. أما محور القصة ، فهو : «أمر الوالى بوضع زير على النهر ليشرب منه الناس، ولكنه عندما عاد إليه بعد سنة وجده قد تحول إلى (وزارة) ، ولم يجد الزير»؛ بمعنى أنه وجد وزارة بمنشآتها ومبانيها، ومصالحها وموظفيها ، وموازنتها المالية.. دون أن يجد إنتاجًا لهذه الوزارة ، أو قيامًا بواجبها المتمثل فى سقاية الناس، وإشباع حاجتهم ، كما يرمز إلى ذلك الزير» .

ومما يؤسف له، أن تلك الصيحة التى أطلقها أديبنا ، منذ أكثر من عشرين عامًا، لاتزال فى حاجة إلى إحيائها اليوم. فهذه جريدة الأهرام تنشر فى ٢ / ٣ / ١٩٩٣ ، تحت عنوان «نموذج للبيروقراطية من مرفق المياه» للدكتور عبد المعطى شعراوى ، الأستاذ بجامعة القاهرة، ما يرويه لنا عن خبرة شخصية تعرض لها عندما اضطر إلى تركيب عداد مياه خاص لشقته فى «العجوزة» ، فكان عليه أن يقوم بعشر خطوات لشراء العداد وتركيبه ، بضع منها يقتضى التنقل بين أحياء مختلفة من القاهرة ، توجد بها أماكن تقديم الطلبات ، والحصول على التأشيرات ، وكتابة الخطابات اللازمة لذلك ؛ مثل الذهاب إلى إدارة مرفق مياه امبابة بالقرب من ميدان الكيت كات ... ثم الذهاب إلى المقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى فى ميدان رمسيس .. والذهاب إلى محطة مياه الأميرية فى منطقة الأميرية .. بل كان عليه التردد -أكثر من مرة - على بعض هذه الأمكنة .. وأنهى ما كتبه بسؤال بديهى «لماذا لاتشترى إدارة المرفق عدادات ، وتقوم بتحصيل أثمانها من المشتركين، بدلاً من تعذيبهم هذا العذاب الأليم ؟؟؟».

ومع أن مثل هذا النموذج لما نعايشه من البيروقراطية المصرية- فى وقتنا الحالى- غنى عن التعليق ، إلا أننى أطرح هنا تساؤلاً هامًا : «هل هانت طاقة المصرى وجهده ووقته وأعصابه حتى تمارس الإدارات الحكومية عليه مثل هذا التعذيب دون مبرر منطقى ، أم هى هواية تعذيب

الذات ، وقد وصلت هذا الحد من تسلط بعضنا على بعض بهذه الكيفية ، مما نخشى معه أن يتحول اللابيروقراطيون إلى بيروقراطيين ، اقتصاصًا لأنفسهم مما يقع عليهم من البيروقراطيين باستخدام نفس سلاحهم ؛ وهكذا ، يتبادل المواطنون عدوانًا مقصوداً لتعطيل مصالحهم وتدمير أعصابهم .

٤- الانتهازية : Opportunism

هذه صفة يقصد بها تحين الفرد لأية فرصة أو ظروف لكى يحقق لنفسه مصلحة أو منفعة دون اعتبار لأية مثل ، أو قيم ، أو أعراف ؛ فالانتهازى لايهمه إلا استغلال الظروف لصالحه ، حتى لو أضرت بغيره أو بمجتمعه . ومن أسف ، أن هذه الصفة بدأت تطفو على سطح الشخصية المصرية ، حتى أنها تصدق الآن فى وصف كثير من المصريين ؛ فانتهاز المصرى لأية فرصة تسنح له للهجرة من وطنه إلى أى بلد آخر يحقق فيه نفعًا أكبر كانت من الندرة فيما مضى ، عكس ما هو عليه الآن . وانتهاز المسئولين لتحقيق القدر الأكبر من المكاسب الشخصية عن طريق تحكمهم فى مصالح الناس ، أو مصالح الدولة ، أمر شائع اليوم عن أى وقت مضى. بل إن الأمر وصل ببعض الانتهازيين إلى اعتبار انتهازيتهم تلك حقًا لاينبغى لأحد أن يجادلهم فيه ، أو يسائلهم عنه .

فها هى- على سبيل المثال- جريدة الأهرام فى ٢ / ٧ / ١٩٨٨ ، تنشر خبراً يقول : «رفضت محكمة استئناف طنطا دعوى تعويض أقامها مدير مدرسة ... ضد مؤسسة صحفية، يطالبها فيه بمبلغ ٥٠ ألف جنيه لنشرها صوراً لطلبة مدرسته أثناء استخدامه لهم فى بناء عمارة يملكها ... وقال : إن ما نشرته الصحيفة قد أضر بسمعته ... ورفضت محكمة أول درجة ، فاستأنف مدير المدرسة أمام محكمة استئناف طنطا ... وترى المحكمة ... أن المستأنف على قمة إحدى دور التعليم المسئولة عن شباب وأجيال المستقبل، وأن جميع تصرفاته وأعماله يجب أن تكون مثالاً يقتدى ...».

ولايحتاج منا مثل هذا الخبر إلى تعليق ، فهو مكتف الدلالة بذاته .

٥- اللامسئولية (أو عدم تقدير المسئولية) : Iresponsibility

هذه خاصية أخرى بدأت تستشرى بيننا ؛ حيث يستهين الفرد بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وينقص إحساسه بها ، ويضعف سعيه للوفاء بها على خير وجه يستطيعه . فالمصرى القديم ، الذى كلف ببناء الأهرامات وأبى الهول والمعابد الفرعونية ... ، والمصرى الحديث الذى كلف

بعبور القناة ، واقتحام خط بارليف وتدميره في أكتوبر من عام ١٩٧٣ ، كان مثلاً لتحمل المسئولية . وفي هذا المعنى ، نشرت الأهرام للأستاذ أحمد بهجت ، يوم ٤ / ١٠ / ١٩٩٣ ، مقالاً بعنوان «روح أكتوبر» ، في بابه «صندوق الدنيا» جاء فيه : «... حدثني ضابط شرطة صديق عن حرب أكتوبر .. قال لي إن المطاريد في الصعيد (المجرمين ، الصادر ضدهم أحكام، والمطلوبين للسجون) ، نما إلى علمهم أن هناك منشآت تحتاج إلى حراسة أثناء الحرب ، وحراستها تستنزف طاقة بشرية من رجال الشرطة، ولايمكن ضمان تأمينها . وجاءه المطاريد ، سلموا أنفسهم ، وقالوا له : نحن سنحرس هذه المنشآت أثناء الحرب، ولك علينا عهد أن نضمن تأمينها طوال فترة الحرب ، فإذا انتهت الحرب سنعود إلى الجبال ، وتعودون إلى مطاردتنا ، وقد التزم هؤلاء المطاريد بكلمتهم ...» .

ولنا أن نقارن إحساس هؤلاء «المطاريد» بالمسئولية نحو بلدهم (وولائهم لها) بما فعله مدير المدرسة ، الذي -سبق أن تحدثنا عنه- وغيره -للأسف- كثير من المسئولين ، والموظفين ، والعاملين الذين ائتمنهم المجتمع على مسئوليات ألقاها على عواتقهم لتسيير أموره، وتحقيق تنميته وازدهاره ؛ فإذا بهم يصبحون عوامل تدمير وتخريب له ، وليسوا عوامل بناء له وتقوية. ويكفي - في هذا الصدد أيضًا - أن نقارن بين مدى جدية قيام مدرس اليوم، والتزامه بواجباته التعليمية والتربوية ، بما كان عليه مدرس الأمس ، وأن نقارن بين مدى جدية قيام مسئولي الإنشاءات والتنظيم والنظافة بمسئولياتهم وواجباتهم بين اليوم والأمس ، لنرى مدى سرعة وخطورة تفشي اللامسئولية ، مما يصيب المجتمع بالأضرار ، ويهدد تنفيذ خططه التنموية الطموحة بالبطء والهزال .

٦- تبلد العواطف الأسرية وعنف العدوان داخلها : Familial Apathy

يرى علماء التحليل النفسي أن هناك دافعين نفسيين أساسيين يحكمان سلوك البشر وانفعالاتهم ، وأن بقية الدوافع الأخرى يمكن أن تندرج تحت أيهما . هذان الدافعان هما دافع الحب، ودافع العدوان ؛ فالحب يحوي كل الصفات ، والدوافع ، والرغبات الإيجابية البناءة اللازمة لنمو الفرد وتقويته وتحقيق صالحه ، واللازمة -أيضًا- لازدهار المجتمع وتحقيق تقدمه. أما العدوان ، فعلى النقيض تمامًا من ذلك ، حيث يحوي كل الصفات ، والدوافع ، والرغبات السلبية الهدامة ، التي تضر بالفرد ، وتضر بالمجتمع . ولما كانت الأسرة- بطبيعتها- تسعى لصالح أعضائها ، فإن دافع الحب يسود علاقاتها ، مما يبدو في دفء العواطف المتبادلة بينهم،

والاستمتاع والتلذذ من التواجد معًا، والإصابة بالوحشة والضيق عندما تحتم الظروف أن يبتعد بعضهم عن بعض . وما يصدق على أعضاء الأسرة الصغيرة يصدق -أيضًا- على الوطن ككل باعتباره الأسرة الأكبر. ويكمن هنا سر الولاء للوطن والتضحية من أجله حبًا لجلب الخير له ، وإبعاد الضر عنه .

هذا، وقد عرف عن الشخصية المصرية - منذ القدم- استمتاعها الشديد بالدفء العاطفى الذى يسود بين أعضائها ، والذى أدى بالمصريين ، وحتى وقت قريب جداً ، إلى تمسكهم بوطنهم : حيث الأسرة الصغيرة والكبيرة ، ورفض الهجرة منه . ولكن ، من الملاحظ أن الأمر قد اختلف مؤخراً وبشكل واضح . فكثيراً ما تلتقى بشخص تسأله عن أخيه فيرد عليك بأنه لم يره منذ سنوات ، رغم أنهما قد يسكنان نفس المدينة. وأصبح كثير من الأبناء يرسلون آباءهم إلى دور المسنين بنفس المدينة التى قد يقيمون بها- تخلصًا منهم- ودون ضرورة ملجئة، بل ودون زيارتهم إلا نادراً ...

بل وصل الأمر إلى حد القتل ، يرتكبه عضو الأسرة مع أقرب المقربين إليه من أب، أو أم، أو جد، أو جدة، أو أخ، أو أخت، أو زوج، أو زوجة ... مما يدل على تبلد أصاب العواطف الأسرية، وعلى نمو للعدوان المتبادل بين أعضائها ، والذى يصل إلى حد التدمير، على نحو ما طالعتنا به جريدة الأهرام، فى ٣ / ٧ / ١٩٨٨ ، فى صفحتها الأولى ؛ حيث نشرت خبراً يقول : «معركة عائلية بالسواطير تنتهى بمصرع الأب والابن والابنة : لقى ثلاثة أفراد من أسرة واحدة مصرعهم فى مشاجرة بالسواطير ... بسبب خلاف جزار مع ابنه على المصروف، وتدخل الابنة الصغرى لفض الخلاف ... فأسفرت المشاجرة عن مصرع الثلاثة ». وكثيراً ، ما تطالعنا صفحات الجرائد اليومية بأخبار تشير إلى نفس الدلالة مما يفزعنا ويفجعنا !!

ولعل ما تتعرض له مصر - فى أيامنا الحالية- من حوادث إرهاب ، تودى بحياة الكثيرين من الأبرياء ، أو تضر بمصالحهم ، لمظهر واضح لتبلد عواطف مرتكبيها ، وعنف ما يوجهونه من عدوان وتدمير لأسرتهم الكبيرة (مصر) .

٧- افتقاد القدوة : Lack of Good Examples

هناك عاملان نفسيان شديدا التأثير على نمو شخصية الفرد ، بل وشخصية الجماعة فى نفس الوقت؛ هما عامل التقليد Imitation وعامل التوحد Identification ؛ ونعنى بالتقليد (أو المحاكاة) ، أن يقوم الفرد ، أو تقوم الجماعة -مع وعيها وقصدها- بتقليد شخص ،

ومحاكاته فى طريقة سلوكه وعاداته وتفكيره ؛ بمعنى أن يصبح الشخص- الذى نقوم بتقليده- قدوة لنا، نقتدى به فيما نفعل، أو نسلك، أو نفكر. وبالتالى، فكلما كان هذا المثل -الذى نقتدى به- يجسم صفات المواطن الصالح الساعى بكل جهده إلى رفعة وطنه وبنائه، وإشاعة الخير والعدل بين أبنائه، كلما كان ذلك قمة ما نبغيه لصالح وطننا ومجتمعنا ؛ حيث ينشأ أفراده مقلدين لنماذج طيبة صالحة .

أما التوحد، وهو العامل الثانى الذى ذكرنا أهميته، فنقصد به تلك العملية التى «تلجأ إليها الشخصية، بشكل لاشعورى، (ودون وعى منها)، فتتمثل .. وتستدمج اتجاهات ودوافع وسمات شخص آخر. بحيث تصبح اتجاهات ودوافع وسمات أصيلة لها تضرب جذورها فى أعماق بنائها الأساسى. وهكذا، فإن التغير الذى يحدث فى الشخصية، نتيجة عملية التوحد، لايكون مقصوداً كالذى يحدث فى عملية المحاكاة، بل يكون غير مقصود، وعميقًا فى تأثيره، ومستمراً إلى حد بعيد» (فرج عبد القادر طه : ١٩٨٩) . ومن هنا نجد أن الابن يتوحد بأبيه، والبنت بأمها، والتلميذ بأستاذه والمرءوس برئيسه، والصغير بالكبير ... والمجتمع بالبارزين من أبنائه وأبطاله وقواده.

إن ما نحاكيهم، أو من نتوحد بهم هم - إذن- قدوتنا فى السلوك والاتجاهات والأفكار والقيم .. ومن هنا، كان من الأهمية بمكان أن تتوافر وتكثر وتشيع بين المجتمع تلك الشخصيات الجادة القويمة البناءة، التى تتحلى- فى سلوكها وقيمها- بكل ما هو طيب وصالح، وأن تختفى تلك الشخصيات الفاسدة المفسدة، وأن يحاربها المجتمع حتى تصبح عبرة لمن يفكر فى محاكاتها، أو التوحد بها .

ومن أسف، أن نلاحظ، فى هذه الأيام، كثرة الفاسدين المفسدين، وبعضهم يطفون على سطح المجتمع، ويمثلون نجومه فى الثروة والمركز والجاه، مما يخطف أبصار المقلدين والباحثين عن التوحد، فإذا بهم يقلدون الفساد، ويتوحدون بمن يشيعون السوء والدمار، ويعيثون فساداً فى المجتمع، لاتحذهم قيم أو أخلاقيات .

٨- تليف الضمير : Conscience Cirrhosis

يعتبر الضمير مكونًا أساسيًا من مكونات الشخصية الإنسانية، أو عنصراً من عناصرها الهامة ؛ فإذا كان علم النفس يقسم الشخصية إلى ثلاثة مكونات رئيسية، هى : «الهو Id، والأنا Ego، والأنا الأعلى Super Ego (Freud, S. : 1962)، فإن الضمير يعتبر عنصراً رئيسيًا من عناصر الأنا الأعلى، أو مكونًا أساسيًا من مكوناته . والضمير«كنسق يمثل المبادئ

الخلقية، ويدعو لانضباط السلوك وفق معاييرها ، وعدم الخروج على القواعد والأعراف والقيم الأخلاقية التى تواضع المجتمع عليها ، مُمثلاً فى الوالدين ، أو من يقوم مقامهما . والضمير يثيب الشخصية بالراحة النفسية إن تصرفت وفق القواعد الأخلاقية ، ويعاقبها بوخز الضمير وتأنيبه إن خرقت تلك القواعد وتجاهلتها . وفى بعض الأحيان ، يبلغ تأنيب الضمير حداً تستحيل معه متعة الحياة، ويفضل عليها الموت ؛ فيلجأ الفرد إلى الانتحار ، أو يحاوله تخلصًا من آلام تأنيب الضمير ، وإنزالاً لعقاب قاسٍ على نفسه ، يكفر به عما ارتكبه من آثام. والضمير يمارس نشاطه داخل الشخصية على المستويين : الشعورى واللاشعوى» (فرج عبد القادر :١٩٩٣)) . ويعطى لنا فرويد مثلاً لوظيفة الضمير؛ حيث يقول فى المحاضرة الحادية والثلاثين عن تشريح الشخصية النفسية : «فأنا أشعر بإغراء يدفعنى إلى فعل شيء أستشف من ورائه اللذة ، لكنى أمسك نفسى عن فعله لأن (ضميرى لايسمح به) . أو آذن لنفسى فى الإتيان بفعل يتنافى مع ما يقوله ضميرى، طمعًا فى ضخامة اللذة المنتظرة ، فإذا ما فعلته فلن أسلم من تبكيت الضمير ووخزه الأليم ؛ إذ يجعلنى نادمًا أسفًا على ما فعلت...» (فرويد سيجموند : د.ت) .

أما تليف الضمير ، فإنى أطرحه هنا كمصطلح ، يقابل المرض (أو العرض) ، الذى يصيب الكبد، ويطلق عليه الأطباء تليف الكبد . فهذا التليف الكبدى يدمر خلايا الكبد ويعطبها ؛ بحيث تضمر وتتحلل ، وتفقد قدرتها على أداء وظائفها الحيوية . وبالمثل ، فإنى أرى أن ضمير الإنسان ، عندما يفسد ، فإنه يتحلل ويصبح كالليفة المملوءة بالثقوب ، يمر منها كل سلوك تهوى نفس الفرد الخبيثة أن تأتيه وأن «تمرره» ، فيتم ذلك دون رقيب من شخصية الفرد يقاومه ويمنعه، ويرشده إلى ما ينبغى من مكارم وفضائل ؛ وما لاينبغى من مفاسد ورذائل .

إن وقفة متأملة فيما نعايشه من أحداث يومية ، وفيما نقرأه فى الصحف والمجلات ، وفيما يرويه لنا الأهل والمعارف ، تؤدى بنا إلى الخروج بانطباع لانكاد نجد منه مفراً ، هو أن الشخصية المصرية- فى قطاع كبير منها- قد أصيبت بتليف الضمير، ولابد من أن ندق ناقوس الخطر لكافة المسئولين عن التربية فى بلادنا ، وعن حماية القيم الخيرة البناءة فى مجتمعنا ، لتهب باحثة عن الأسباب، باذلة جهدها للعلاج قبل استفحال الداء .

فبينما لايزال كثير من المواطنين المصريين يعانون من النهب والنصب المنظم الذى عرفناه أخيراً فى مأساة شركات توظيف الأموال، تطالعنا جريدة الأهرام ، فى صفحتها الأولى، فى يوم

١٧ / ١١ / ١٩٩٣ ، بخبر يقول : «إحالة رئيس مدينة (.....) ، الأسبق للجنايات : ثروته ٦٠ (ستون) مليون جنيه ، ومرتبه ١٩٥ جنيهًا». وبطبيعة الحال، فإن مثل هذه الثروة لم تتضخم ، إلى هذا الحد ، بين يوم وليلة ، ولكنها بدأت تتزايد من سنين طويلة، تحت بصر وسمع كثير من المسئولين ، بل وربما بمباركتهم وتشجيعهم . وها هي الأهرام -أيضًا- تطالعنا في صدر صفحة «حوادث .. قضايا» يوم ١٣ / ١ / ١٩٩٤م (أي بعد حوالى شهرين من نشرها للخبر السابق)، بخبر يقول «الرقابة الإدارية تشترك مع النيابة فى التحفظ على ممتلكات ملياردير مدينة (....) ، وقد تم - حتى مساء أمس- التحفظ على مقرين ... فى شارع عباس العقاد بمدينة نصر، ومستشفى ... بنفس الشارع ، و١٢٠ عقاراً يمتلكها الملياردير فى مدينة نصر والزيتون والمنصورة والإسكندرية ، وعزبة تزيد مساحتها عن ١٠٠ فدان بمدينة الإسماعيلية، ومقر إقامته فى كلٍ من مدينة نصر والزيتون، كما تم التحفظ على ٤٠ (أربعين) قطعة أرض فضاء فى مدينة نصر والإسماعيلية والمنصورة والمطرية والزيتون...». وبطبيعة الحال، فلاشك فى أن هناك مسئولين كباراً يسهلون للمياردير كل مخالفاته ويتسترون عليها، بل ويحمونه ، ما استطاعوا ، إذا أشارت إليه أصابع الاتهام . ومن هنا، كان إيقاف بعض المسئولين عن الإسكان بمدينة (...) ، وتحويلهم للتحقيق ، على نحو ما أشارت إليه الصحف ، ومن قبيل ما نشرته جريدة الأهرام ، فى صدر صفحتها الأولى، يوم ٣٠ / ١ / ١٩٩٤، حيث قالت : «القبض على رئيس حى مدينة (...) السابق : ألقت الرقابة الإدارية ، فى ساعة متأخرة من مساء أمس ، القبض على ... رئيس حى مدينة (...) السابق ، بعد أن تبين أنه كان يحصل على مبالغ كبيرة ، على سبيل الرشوة . وكان المستشار مرزوق مراد ، المحامى العام لنيابة الأموال العامة العليا، قد أمر بالقبض على المتهم بعد تحقيقات النيابة ، وتحريات هيئة الرقابة الإدارية ...». وهذا ما جعل الأستاذ عزت القمحاوى يعلق فى مقاله، بجريدة أخبار الأدب، فى عدد ١٦ / ١ / ١٩٩٤ ، فى بابه، قائلا: «وقد حيرنى ، ولابد أنه حير العضو الموقر وغيره من الأعضاء الموقرين، لماذ سقط هذا الملياردير اليوم وليس أمس. وأعتقد أنه من مسئولية العضو الموقر ، وغيره من الأعضاء الموقرين ، البحث عن الأسباب التى انتهت بالقانون لأن يتحول من سيف المجتمع إلى شيء يشبه أبو رجل مسلوخة الذى يخيف الصغار عندما يضيق بلعبهم الكبار».

ولعل مأساة تليف الضمير تصل حداً مخيفًا عندما يتبادل وزير أسبق مع وزير سابق الاتهامات بالفساد ، والكسب غير المشروع ، وخيانة أمانة المسئولية ، على هذا المستوى

الوظيفى الرفيع ، على نحو ما قرأنا فى مجلة روز اليوسف ، وغيرها من الصحف والمجلات الصادرة فى شهرى يناير وفبراير من عام ١٩٩٤ (وأنا لازلت أكتب هذه السطور) .

وهكذا ، يبدو لنا أن كثيراً من المصريين، الذين يفترض أن يكونوا قدوة لغيرهم، قد فسدت قيمهم ، ولم يعودوا يفرقون بين الكسب الحلال وبين النهب الحرام . ولم يعد يهمهم التزام السلوك القويم ، الذى تدعو إليه الشرائع والأعراف والأخلاق والمثل العليا ، والذى يؤدى إلى تقدم المجتمع وازدهاره ، وإذا كان هذا لايساعدهم على الكسب السريع والثراء الفاحش ، ويستبدلون به سلوكًا منحرفًا معوجًا غير مشروع ، تكون نتيجته إلحاق الضرر البليغ بالمجتمع وإعطابه ، مما زاد من نسبة الإصابة بتليف الضمير . وليس من شك أن أغلب السمات السلبية السابق ذكرها -(الانتهازية- اللامسئولية - البيروقراطية- تبلد العواطف الأسرية- افتقاد القدوة) يمكن اعتبارها - بشكل أو بآخر - مظاهر لتليف الضمير.

لعل ما سبق من سمات سلبية ثمان -ناقشناها فى هذا المقال- يوافقنى كثيرون على اعتبارها من أبرز ما طرأ على الشخصية المصرية- فى وقتنا الحالى- من سلبيات ، نرجو أن تكون على السطح، لم تصل بعد إلى عمق الشخصية ، حتى يكون تغييرها إلى الأفضل أسهل وأيسر ، عند بدء المحاولات الجادة لذلك .

ولنا - عند هذا الحد- أن نتساءل عن العوامل المختلفة والمتجادلة ، المتشابكة والمتفاعلة ، سواء أكانت اجتماعية ، أم تربوية ، أم تاريخية ، أم اقتصادية ، أم سياسية، أم نفسية .. وأدت إلى ابتلاء الشخصية المصرية- فى وقتنا الحالى - بالسمات السلبية ، التى سبق أن ناقشناها فى هذا المقال، وبغيرها ، مما يضيق المقام هنا عن ذكره (مثل ضعف الولاء الوطنى ، ومراعاة الخواطر والمصالح الذاتية ، والأنانية الضيقة ، والاهتمام بالمظاهر دون مراعاة الجوهر ، وضعف الإنتاجية وتعجلها دون بذل جهد حقيقى وجاد فيها ، والذى تطلق العامة عليه لفظى «الكروتة» أو «الكلفتة» ...) .

ولاشك ، أن الإجابة الدقيقة عن هذا التساؤل تحتاج إلى تعاون باحثين من تخصصات علمية مختلفة من المهمومين - حقيقة- بمشكلات البلد وأزماته، ومن البعيدين عن التعصب لزاوية معينة من الرؤى ، أو توجه أيديولوچى منغلق ، يحيل الأسود إلى أبيض ، كما يحيل الأبيض إلى أسود ، وفق ما يقوله الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدى المساويا

وتلخصه الحكمة الشعبية القائلة «بصلة المحب خروف» . مما يؤدى بنا إلى أن نفقد طريقنا ونحن نبحث عن الحقيقة وراء الظواهر التى نقوم بدراستها ، ويبعدنا عن السبيل العلمى السليم الذى ينبغى علينا اتباعه للوصول إلى المعرفة الحقة ، ثم العلاج الناجح .

اعتذار فى خاتمة

لاشك أننى سوف أتعرض إلى استنكار كثير من المفكرين ، والناقدين ، والزملاء ، الذين يرون فى كتابتى هذا المقال نوعًا من التشاؤم ، ويعتقدون أن الحصافة إنما تكون فى إبراز الإيجابيات ، وإخفاء السلبيات ، والعمل على رفع الروح المعنوية ، حتى لو اضطررنا إلى تزييف الواقع، وتغييب وعى الناس . وقناعتى كانت- ولازالت- أن كشف الحقيقة - حتى ولو كانت مُرة ، والمصارحة بالعيوب - حتى ولو كانت قاسية - أفضل كثيراً للمجتمع، كى نستحثه على البحث عن دواء لعلاج الداء الذى نتصارح حوله. هذا علاوة على رفع وعى الناس بحقيقة الواقع، مما يجعلهم يشاركون بفاعلية فى تغيير السلبيات وتدعيم الإيجابيات .

والله الموفق

* * *

المراجع :

١- حسين مؤنس : إدارة عموم الزير ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٢- عبد المعطى الشعراوى : نموذج للبيروقراطية من مرفق المياه ، جريدة الأهرام فى ٢ / ٣ / ١٩٩٣ .

٣- عزت القمحاوى : بكل أدب ، جريدة أخبار الأدب فى ١٦ / ١ / ١٩٩٤ .

٤- فرج عبد القادر طه : موسوعة علم النفس والتحليل النفسى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، الكويت، ١٩٩٣ .

٥- فرج عبد القادر طه : أصول علم النفس الحديث ، دار المعارف : القاهرة ، ١٩٨٩ .

٦- فرويد ، سيجموند : محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى، ترجمة أحمد عزت راجح ، مكتبة مصر ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٧- مصطفى فهمى : الهندسة الوراثية عندهم وعندنا ، جريدة الأهرام فى ١٩ / ١١ / ١٩٩٣ .

٨- Freud , S . The Ego and the Id, London , Hogarth Press, 1962 .

فى قبضة البيروقراطية *
(رؤية نفسية)

تمهيد فى مدخل :

فى مقال بعنوان «تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات» والذى نُشر بعدد أبريل من عام ١٩٩٤ بهذه المجلة ؛ تعرضت لثمان سلبيات برزت- أخيراً- فى الشخصية المصرية ، هى :

١- ضعف التوجه العلمى .
٢- وجهة الضبط الخارجى ونظرية التآمر.
٣- البيروقراطية .
٤- الانتهازية .
٥- اللامسئولية (أو عدم تقدير المسئولية) .
٦- تبلد العواطف الأسرية وعنف العدوان داخلها.
٧- افتقاد القدوة (فرج عبد القادر طه ، ١٧١-١٨٨).
٨- تليف الضمير .

وهكذا ، وضعنا البيروقراطية كإحدى السلبيات الرئيسية فى الشخصية المصرية الراهنة ، إلا أن ضيق المجال لم يمكننا من التركيز عليها- فى مقالنا السابق- مما يستوجب العودة إليها فى حديث مستقل ومفصل فى هذا المقال ؛ نظراً لشدة خطورتها ، وجسامة تأثيرها على المجتمع وتنميته وتقدمه .

ماهية البيروقراطية : Bureaucracy

البيروقراطية لفظ أجنبى انتقل إلى العربية عن طريق تعريبه . ويعرِّفها «المعجم العربى الأساسى- لاروس» بقوله :

١- الحكم بواسطة كبار الموظفين .

٢- روتين حكومى مغالى فيه» (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ؛ ١٩٨٩) .

---

* نشر هذا المقال فى «مجلة دراسات نفسية» (رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية بالقاهرة) مجلد : ٧ عدد :١ يناير ١٩٩٧ ، ٣-١٦ .

ولانكاد نلمس فارقًا فى معنى مفهوم البيروقراطية اللغوى ، عن معناه الاصطلاحى فى المعاجم والموسوعات العلمية . ففى «معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية» - على سبيل المثال- يكتب أحمد زكى بدوى تحت مصطلح «البيروقراطية» أنها «عبارة عن تنظيم يقوم على السلطة الرسمية، وعلى تقسيم العمل الإدارى وظيفيًا بين مستويات مختلفة ، وعلى الأوامر الرسمية التى تصدر من رئاسات إلى مرءوسين . ويعتبر التنظيم البيروقراطى ترشيداً للعمل الإدارى . وقد يدل المصطلح على الأداة الحكومية أو التنظيم الحكومى ، كما قد يستخدم للتعبير عن سيطرة الموظفين دون مبالاة بمصالح الجماهير، ودون مسئولية أمامهم (أحمد زكى بدوى : ١٩٨٢) . وكما يقول مختار حمزة فى شرحه للمصطلح فى «المعجم العربى للعلوم الاجتماعية» - على سبيل المثال أيضًا- «البيروقراطية قد تعنى ما يأتى» :

أ- حكومة تتركز السلطة فيها بأيدى جماعات من الموظفين .

ب- أصحاب السلطة من الموظفين .

جـ- تركز السلطة فى أيدى جماعات من الموظفين .

د- روتين مبالغ فيه .

ومن الناحية اللغوية سلطة لمكتب ، فتشير البيروقراطية إلى مهام وإجراءات الإدارة التى تتبعها جماعة من الموظفين الإداريين ، وهى كثيراً ما تشير إلى عدم الكفاءة ، وعدم اللياقة فى ممارسة السلطة من جانب الموظفين . ومن ثم ، أصبحت مصطلحًا للسباب ...» (مختار حمزة : ١٩٩٤) .

ومن الواضح أن لفظ «بيروقراطية» مشتق من اللفظ الأجنبى "Bureau" والذى يعنى فى العربية «مكتب» . ومن هنا ، يمكن ترجمة المصطلح بـ «تحكم موظفى المكاتب» فى إدارة مصالح الناس وشئون المجتمع والإنتاج ... وتوجيه كل ذلك بطريقة تسلطية ، وفق ما يرتئيه الموظف المختص ، وهكذا تتركز السلطة فى أيدى جماعة من الموظفين والإداريين .

ومع أن البيروقراطية - فى أصلها- نشأت لحسن تنظيم العمل الإدارى وانضباطه ، إلا أن المسئولين قد انحرفوا بهدفها وقلبوا وظيفتها حتى أصبحت تحكمًا وتعسفًا من جانبهم فى مصالح الناس ، وفى الإجراءات الإدارية والتنظيمية المتعلقة بالعمل والإنتاج وإدارة دفة المجتمع . حتى شاع بين الناس المعنى السلبى للفظ البيروقراطية ، فصار «سبة» إن وصفت به موظفًا ، أو مديراً ، أو مسئولاً أيًا كان .

البيروقراطية والإدارة المصرية :

تحتل البيروقراطية عند المصرى مكانة كبيرة وخطيرة للأسف الشديد . وربما كان ذلك راجعًا إلى كونها أقدم بيروقراطية نشأت فى العالم ؛ إذ يرجع تاريخها إلى بضعة آلاف سنة قبل الميلاد. ولاشك ، فى أن نجاح المصريين فى بناء الأهرامات والمعابد لأكبر دليل على ذلك ، حيث يستلزم هذا تنظيمًا إداريًا وفنيًا قويًا ، يتميز بالكفاءة والانضباط ، وفق المعنى الأصلى للبيروقراطية ، ومفهومها الإيجابى الصحيح، قبل أن يحرِّفه الموظفون والإداريون فى العصور الحديثة ، ويتحولوا به من وظيفة التيسير والانضباط إلى نكبة التعطيل والتعقيد فى قضاء المصالح وإنجاز الأعمال والمهام . ولم يفت شاعرنا الشعبى الكبير- بيرم التونسى (١٨٩٣-١٩٦١؛ والذى كان شعره مرآة صادقة لأحلام الشعب المصرى وآلامه) أن يجسم مأساة البيروقراطية ؛ إذ يرى فيها أسباب مشاكلنا وتعاستنا ؛ حيث يقول فى قصيدة بعنوان «دوسيهات الدواوين» :

«فى دى الدوسيهات أشغالك وأشغالى
بقى لها خمسين سنة فى وضعها الحالى
فيها معاش أرملة قالت يابو عيالى
وعرضحال شاب بائس م العمل خالى
ومشكلة وقف فاتها خورشيد الوالى
حاططها صاحبك ويقول لك ونا مالى
دا (رشدى) بك المدير العام باعتها لى
ولسه عايزالها إمضة مستشار عالى
ولأحتنزل على الأرشيف طوالى؟
أدى النظام اللى خارب كل بيت مالى
ومركب الفقر أمثالك وأمثالى» (محمود بيرم التونسى : ١٩٨٧) .

كما ينبهنا حسين مؤنس فى واحدة من أروع إبداعاته القصصية بعنوان «إدارة عموم الزير» والتى نشرها بجريدة الأهرام فى ٤ / ٢ / ١٩٧٢ ، وأعاد نشرها عام ١٩٧٥ بدار المعارف . فى سلسلة «اقرأ» ضمن مجموعة قصصية بعنوان «إدارة عموم الزير وقصص أخرى» ، وهى قصة من قصص المؤلف التى تجسم «البيروقراطية» ، وتصف سرعة استشرائها وخطورة آثارها السلبية على المجتمع (حسين مؤنس : ١٩٧٥) . أما محور القصة فهو : «أمر الوالى (وزيره

الأول) بوضع «زير» على النهر ليشرب منه الناس . ولكنه عندما عاد إليه بعد سنة وجده قد تحول إلى (وزارة) ، ولم يجد الزير» ؛ بمعنى أنه وجد وزارة بمنشآتها ومبانيها ، ومصالحها وموظفيها ، وموازنتها المالية ... دون أن يجد إنتاجًا لهذه الوزارة ، أو قيامًا بواجبها المتمثل فى سقاية الناس ، وإشباع حاجتهم ، كما يرمز إلى ذلك «الزير» ، مما يشير - بوضوح - إلى أن الفن يلتقى مع العلم، وربما يسبقه فى اكتشاف الحقيقة وإبرازها، ولفت الأنظار إلى آثارها.

هذا ، ويحدد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، فى بيانه الذى ألقاه فى افتتاح «مجلس الأمة» يوم ٢٥ / ٣ / ١٩٦٤ ، سبع مشكلات أمام مرحلة انطلاق المجتمع المصرى نحو التقدم والتنمية ، هى :

١- مشكلة الصناعة وضرورة تطويرها ..

٢- مشكلة الصناعة الثقيلة ..

٣- مشكلة ثلاثة ملايين من العمال الزراعيين فى الريف، ليس هناك ضمان للأجر المنظم المستقر يحمى يومهم ، وليس هناك قدر من التأمين الاجتماعى يحمى مستقبلهم ..

٤- مشكلة الإدارة الحكومية ، وينبغى أن نعترف بأن كل ما وجهناه إليها من جهود لم يطور حالها ، بحيث تستطيع أن تخدم المجتمع الجديد . ما زالت تظن نفسها فوق الجماهير .. تحكم ، ولاتريد أن تدرك أن مكانها فى المجتمع الجديد أن تكون تحت الجماهير ... تخدم .

٥- مشكلة الأسعار ، وينبغى أن نبذل أقصى الجهود لكى نبقى دائمًا بعيدين عن دوامة التضخم .

٦- مشكلة تنظيم الأسرة ..

٧- مسألة أن نتعود جميعًا على النقد، والنقد الذاتى الشجاع ... (جمال عبد الناصر: ١٩٩٤) .

وهكذا ، يضع عبد الناصر مشكلة البيروقراطية باعتبارها من أضخم ما يواجه تقدم المجتمع ونموه من مشكلات ؛ فهى إحدى المشكلات السبع الكبرى التى تواجه مصر. وتشير مقولة عبد الناصر- هذه - إلى أن البيروقراطية بلغت من الشيوع والقوة والصلابة حداً جعل حاكم مصر يعترف بفشل الجهود التى وجهتها الدولة لعلاجها ، منذ قيام الثورة فى عام ١٩٥٢ ، وحتى وقت إلقاء الخطاب ؛ وهى فترة تزيد عن إحدى عشرة سنة، بذلت فيها الثورة جهداً كبيراً لتطوير المجتمع وتحديثه .

الآثار الضارة على المجتمع من البيروقراطية :

يؤدى تفشى البيروقراطية وتمكنها من أجهزة الدولة ومؤسساتها وإداراتها إلى آثار سلبية بالغة الخطورة على المجتمع كله، وعلى شل حركته نحو التقدم والتنمية وإضعافها . ولعل من أوضح وأخطر أضرار البيروقراطية على المجتمع ، ما يلى :

١- إهدار الطاقات البشرية التى ينبغى تعبئتها للعمل الإيجابى المنتج والمفيد للمجتمع.

فى باب قضايا وآراء بجريدة «الأهرام» الصادرة فى يوم ٢ / ٣ / ١٩٩٣ ، كتب عبد المعطى شعراوى ، الأستاذ بجامعة القاهرة ، تحت عنوان «نموذج للبيروقراطية من مرفق المياه» فقال : «اضطررت إلى تركب عداد مياه خاص لشقتى المتواضعة فى العجوزة (بالقاهرة الكبرى) ، وأعتقد أن عداد مياه شىء ضرورى، وليس كماليًا .. فكان على أن أقوم بما يلى :

١- الذهاب إلى إدارة مرفق مياه امبابه ، بالقرب من ميدان الكيت كات ، وتقديم طلب مقايسة .

٢- تمت الموافقة .. ولكن ليس لدى إدارة مرفق المياه عدادات ، ولامانع من شراء عداد مياه وتقديمه إلى مرفق المياه لتركيبه .. لكن كيف ؟؟؟؟

٣- الذهاب إلى المقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى، الواقع فى ميدان رمسيس، والصعود إلى الدور السابع ، لتقديم طلب باسم السيد المهندس رئيس مجلس الإدارة ، لكى يوافق سيادته على شراء عداد ، وهناك يتم تقديم الطلب، بعد استيفاء رسم التمغة .

٤- العودة إلى المقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى، بعد ثلاثة أيام، والصعود إلى الدور السابع، وتسلم الطلب الذى سبق تقديمه وعليه تأشيرة بالموافقة على شراء عداد .

٥- الذهاب إلى شارع يبعد بضع خطوات من المقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى، حيث يوجد محل قطاع خاص معروف لدى كل العاملين فى إدارة مرفق مياه القاهرة الكبرى ، وشراء عداد ، دون إبراز موافقة إدارة المرفق .

٦- العودة إلى مرفق مياه امبابه - للمرة الثالثة- ومقابلة السيد المهندس رئيس جهاز العدادات ، للحصول منه- شخصيًا- على خطاب موجه إلى إدارة الصرف والتسويات ، بالمقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى، الواقع فى ميدان رمسيس ، برجاء تحرير إذن دفع لسداد مبلغ عشرين جنيهًا مصريًا، رسم فحص ومعايرة عداد .

٧- العودة - للمرة الثالثة- إلى المقر الرئيسى لمرفق مياه القاهرة الكبرى فى ميدان رمسيس ، للصعود إلى الدور الرابع، للحصول على إذن الدفع المطلوب ، ثم الهبوط إلى الدور الأول ، حيث توجد الخزينة لدفع قيمة رسوم الفحص والمعايرة .

٨- الذهاب إلى محطة الأميرية ، فى منطقة الأميرية ، ومعى العداد وفاتورة الشراء وصورة الإيصال الدال على دفع رسوم المعايرة والفحص ، والمرور بإجراءات لاحصر لها ، لكى يتم فحص ومعايرة العداد .

٩- العودة إلى إدارة مرفق مياه امبابه ، لتسليم الموافقة على شراء عداد ، وعليها تأشيرة تفيد بأن العداد قد تمت معايرته ، وأنه من نوع العدادات المستخدمة فى مرفق المياه .

١٠- الاحتفاظ بالعداد، وانتظار مندوب مرفق مياه امبابة حتى يحضر ، وتسليمه العداد لتركيبه .

١١- والشىء الذى يبعث على الدهشة هو أن العداد صناعة مصرية تنتجه شركة «قها» للصناعات الكيماوية (مصنع ٢٧٠ حربى سابقا) وموجود بوفرة ، ويباع -بلا قيد ولاشرط- فى محلات القطاع الخاص .

١٢- والسؤال الذى أريد أن أوجهه إلى السيد المهندس رئيس مجلس إدارة مرفق مياه القاهرة الكبرى :

لماذا لاتشترى إدارة المرفق عدادات ، وتقوم بتحصيل أثمانها من المشتركين ، بدلاً من تعذيبهم هذا العذاب الأليم ؟؟؟

إلى هنا ، وينتهى ما نشرته جريدة الأهرام ، وهى- كما نعلم- جريدة قومية ، لايمكن اتهامها بالتحامل لتشويه صورة الإدارة فى الدولة ، وإنما هو من قبيل النقد الذاتى، الذى يستهدف كشف العيوب وإثارة الدافع ، وتوجيه الانتباه إلى إصلاحها . ففى هذه الواقعة مثل حى لما تقوم به البيروقراطية من إهدار لطاقات المواطنين دون فائدة تعود على المجتمع .

٢- إهدار مجهودات الدولة والعاملين بها فى توافه الأمور :

طالعتنا مجلة «روز اليوسف» فى عددها الصادر فى ١٦ / ١٢ / ١٩٩٦، فى بورصة الأخبار ، بالصفحة رقم (٣١) . بخبر يقول : «مجلس الدولة أنهى النزاع القائم بين الهيئة القومية للاتصالات السلكية واللاسلكية، وهيئة كهرباء الريف .. النزاع انتهى لصالح الهيئة الأولى». الطريف ، أن النزاع الذى ذهب إلى مجلس الدولة كان حول ٥٨ جنيهًا و٦٠قرشًا ،

وهى قيمة التلفيات التى لحقت بكابلات التليفونات ، أثناء قيام مديرية كهرباء أسوان بالحفر بأحد شوارع مدينة أسوان . ولنا أن نتخيل - هنا- المجهودات التى بذلها كبار مستشارى مجلس الدولة وموظفيه ، وكبار المحامين الذين ترافعوا عن كل هيئة ضد الأخرى، والمجهودات التى بذلها هؤلاء وغيرهم فى إعداد المذكرات ونسخها وقراءتها واستنباط الأدلة واستقراء القوانين .. حتى تم إصدار هذا الحكم فى قضية رفعتها هيئة حكومية مصرية ، ضد هيئة حكومية مصرية أخرى على أمر شديد التفاهة بالنسبة لميزانية أى من الهيئتين . مما يجعل الواقعة كلها أقرب إلى العبث ، وأعصى على التبرير ، وأبعد عن العقلانية ، إلا أن هذا هو منطق البيروقراطية الأعمى، وتحكمها السليط، وفهمها المنغلق للأمور .

٣- النيل من كرامة الإنسان والاستهتار براحته النفسية :

فى جريدة «الأهرام» بعددها الصادر فى ٢٢ / ١٢ / ١٩٩٣ ، وفى باب «صندوق الدنيا» نشر أحمد بهجت ، تحت عنوان «البيروقراطية والفساد» خطابًا ورد إليه من السفير أحمد الملا. ومن بين ما جاء فيه : منذ سنوات بعيدة رفعت الحكومة شعار القضاء على البيروقراطية ، وإزالة الصعوبات التى تواجه المواطنين فى المصالح والهيئات العامة والحكومية ... ولكن ، بدلاً من القضاء على البيروقراطية ، إذا بها تستشرى ، وتكاد توقف عجلة الحياة أمام جماهير الشعب الذى أنهكته المتاعب .

لقد شاهدت وعانيت ، مع ملايين غيرى، من تحجر عقلية المسئولين ، وبدلاً من تيسيرهم على المواطنين إذا بهم ينغصون عليهم معيشتهم . ومثال ذلك، ما أصدرته هيئة التأمين والمعاشات من ضرورة مثول أصحاب المعاشات أمام موظفى الهيئة لإثبات وجودهم على قيد الحياة .. وكان المتبع أن يرسل صاحب المعاش شهادة من جهة عمله، أو من البنك الذى يتعامل معه بوجوده على قيد الحياة . ولكن الهيئة- سامحها الله- أصدرت تعليمات بجرجرة أصحاب المعاشات، وأغلبهم من المرضى والعجزة والطاعنين فى السن، لكى يقفوا أمامها ملتمسين منها الاعتراف بوجودهم على قيد الحياة ... وأقترح أن يذهب كل وزير وكل كبير إلى موقع العمل- بلا هيلمان ولازفة- حتى يرى كيف يُعامل المواطنون من قبل صغار الموظفين ، وكيف يعانون من البهدلة . وما لم يتم القضاء على البيروقراطية ، وهى أم الفساد ، فسوف يتم القضاء على ما تبقى لدى عامة الشعب من صبر على الرزايا والمكاره ، وعلى النكبات والزلازل والإرهاب ، وسيكون الحصاد مراً » .

وفى هذا- الذى نشرته الأهرام- مثل صارخ على اعتداء البيروقراطية على كرامة المواطن ، واستهتارها بما تسببه له من متاعب وآلام ومضايقات ؛ دون مبرر مقبول ، أو سبب معقول .

٤- إشاعة الفساد والظواهر السلبية المدمرة فى المجتمع من قبيل الرشوة ، والوساطة والانتهازية ، وتبادل المصالح الخاصة ، وتيسير إمكانيات الدولة لخدمة أفراد معينين :

يتعمد بعض المسئولين من موظفى الدولة اللجوء إلى البيروقراطية لتعطيل مصالح الناس، حتى يلجئهم ويكرههم على تقديم الرشاوى أو الهدايا أو الخدمات غير المشروعة كمقابل لقضاء مصالحهم ، التى تمكنه البيروقراطية من تيسيرها ، أو تعطيلها ، وفق هواه . وفى كلتا الحالتين ، سوف يجد المبرر والقوانين واللوائح ، التى لاتعد ولاتحصى ، تسنده فيما يريد اتخاذه من إجراء أو نقيضه فى نفس الوقت . ولنضرب مثلاً على ذلك حق الموظف فى الإجازة، حيث يرى قانون العاملين أن الإجازة منحة للموظف وليست حقًا ، يمنحه رئيس العمل إن رأى حالة العمل تسمح . وهكذا ، إذا رغب رئيس العمل فى مضايقة عامل طلب إجازة يمكن أن يؤشر عليها بأن حالة العمل لاتسمح ، بينما يمكنه إذا رغب فى مجاملته أن يعطيه الإجازة، حتى لو كانت حالة العمل لاتسمح، تحت أي مبرر يراه ، وليكن أنه يرى أن حالة العمل تسمح، أو يرى أن الموظف يحتاج الإجازة لضرورة إنسانية ... إلخ . وفى كل الأحوال ، يستطيع أن يبرر قراره ، وأن يثبت أنه يتفق مع اللوائح والقواعد ، والنظم الواجب اتباعها أو مراعاتها .

وهكذا ، تفتح البيروقراطية أبوابًا واسعة أمام الموظف الحكومى لفساد لاحدود له . ينتهز فيه الفرص للكسب غير المشروع من موقعه الوظيفى، الذى يتحكم منه فى مصالح الناس أو يقايض عليها. ولاتكاد تخلو الجرائد اليومية من وقائع وقضايا فساد من هذا النوع ، لعل من أهمها ما يتعلق بمخالفات الإسكان وبالاختلاسات وباستغلال النفوذ وبالرشاوى، وقد يتورط فيها كبار موظفى الدولة، مما يصعب معه إقامة الدليل عليهم ؛ لسلطانهم القوى، ونفوذهم الكبير ، وقدرتهم على المناورة وتوكيل المحامين المتمرسين ، فإذا ما شكوتهم برأهم رؤساؤهم، أو برأتهم المحاكم .

٥- التهرب من تحمل المسئولية :

إذا كانت البيروقراطية قد نشأت- فى الأساس- لانضباط العمل والأداء ، وتوزيع الأدوار فى الإدارات والمصالح والمؤسسات والدواوين ؛ إلا أنها انقلبت على أهدافها بفعل ألاعيب الموظفين ، لتحميهم من تحمل المسئوليات ، وتجيز لهم الإهمال والتسيب . والمقولة التى تتكرر كل يوم فى وسائل الإعلام ، وعلى ألسنة الناس «فوت علينا بكرة» ، و«يوم الحكومة بسنة»

أصبحت قاعدة بيروقراطية ، حيث يحمى الموظفون بعضهم البعض ، ويتسترون ويبررون تسيبهم وإهمالهم ، حتى أنه ليصعب أن تشكو مرءوسًا إلى رئيسه فينصفك فى حقك . كما تمكن البيروقراطية - فى نفس الوقت - هذا الموظف من عدم البت فى الأمور وتحويلها إلى غيره ، تحت أية حجة وما أكثرها ؛ تهربًا من مسئولية قرار يتخذه خشية عاقبته ، فتتعطل الأمور وتهمل المصالح ، فيضطر المضار إلى تقديم الرشوة، أو الهدايا ، أو البحث عن واسطة ، أو وسيلة غير مشروعة حتى ينجز مصالحه ، وفق قاعدة «الضرورات تبيح المحظورات» .

٦- تبادل العدوان بين المواطنين :

لاشك أن تفشى البيروقراطية يسبب ضيقًا لدى المواطن الذى يضار منها ، فترتفع بذلك شحنات العداء داخله مستهدفة الموظف البيروقراطى الذى يعطل مصالحه . ولما كان من الصعب عليه- غالبًا- أن يصب عدوانه على هذا الموظف ، فإنه قد يحوله إلى غيره ، أو قد يقمعه فى داخله مما يضر بصحته ، أو يلتمس لنفسه تبريراً يعطل به مصالح الآخرين انتقامًا منهم لتعطيلهم مصالحه ؛ وكل منا - لاشك- له مصلحة عند الآخر ، فيتبادل المواطنون تعطيل مصالح بعضهم البعض . فإذا ما سألت مدرسًا : لماذا لاتؤدى واجبك فى حصة المدرسة الرسمية ، فقد يرد عليك بأن الموظف الذى عطل مصلحته هو والد تلميذ مما تطالبنى بالإخلاص فى تعليمه ، أو قريب له ، أو ... مما يجعل المواطنين يتبادلون العدوان فيما بينهم، ويعطل بعضهم - متعمداً- مصالح بعض ، مما يترك - فى النهاية- تأثيراً سلبيًا على المجتمع .

٧- حرمان المجتمع من كثير من الاستثمارات المحلية والأجنبية اللازمة لنموه وتطوره :

ذلك أن كثيراً من المستثمرين - سواء أكانوا مصريين أم أجانب - يواجهون بعقبات بيروقراطية ، تضعها أمامهم جهات إدارية كثيرة ، وموظفون صغار وكبار أكثر، لا يصبر عليها المستثمرون ولايطيقونها ، فيفضلون الانصراف عن الاستثمار فى مصر بحثًا عنه فى بلد آخر، أقل بيروقراطية وأيسر فى إجراءات تنفيذ المشاريع وأسرع ، حتى أن رؤوس أموال مصرية ، تقدر بمئات المليارات من الدولارات ، يستثمرها مصريون خارج مصر، وكان الأولى استثمارها داخل بلدهم ، إلا أن البيروقراطية فى مصر تعتبر من أخطر العقبات ، وأشد المخاوف المسئولة عن ذلك .

٨- ضعف الثقة فى كفاءة الإدارة المصرية وقدرتها :

إن الثقة فى كفاءة الأنظمة الإدارية، وقدرات المسئولين المصريين على تصريف الأمور، وتحمل مسئولياتهم ، وأداء واجباتهم بمهارة ونزاهة ؛ لهو أمر شديد الأهمية والقيمة للمواطنين: يقوى ولاءهم لمصر . واطمئنانهم على حرصها على مصالحهم ، ورعايتهم لشئونهم ، وحفظها لكرامتهم وإنسانيتهم . وكلها أمور لازمة لراحة المواطنين ، ولرفع مستوى ولائهم لبلدهم فى نهاية الأمر ؛ حتى يتفرغوا للإنتاج والبناء .

توصيات وحلول مقترحة للتخفيف من مشكلة البيروقراطية وقبضتها القوية :

على الرغم من قناعتنا بأن البيروقراطية لاتمثل مشكلة لمصر وحدها ، بل إنها كذلك بالنسبة لبلدان كثيرة غيرها ، إلا أن حاجة مجتمعنا الماسة إلى التقدم والنمو وإلى علاج مشكلاتنا المتكاثرة ، حتى يمكننا اللحاق بما سبقنا من مجتمعات ، تجعلنا أكثر إحساسًا بوطأة البيروقراطية ، وأشد رغبة فى محاربتها ؛ حتى نفك الأغلال التى تكبدنا بها عائقة تقدمنا ، وحتى نتجنب السلبيات المدمرة الناتجة عنها ، فننفلت من قبضتها القوية على رقابنا ، والتى كادت أن تخنقنا ومجتمعنا فى نفس الوقت . ولهذا ، أقترح التوصيات والإجراءات التالية :

١- التحديد الواضح والصريح لواجبات واختصاصات ومسئوليات كل وظيفة (أو موظف):

ففى هذه الحالة ، يعرف كل موظف أو مسئول ما عليه من واجبات ومسئوليات بحكم شغله للوظيفة المعينة ، حتى يمكن محاسبته إن تهرب منها، أو مكافأته وإثابته إن أحسن القيام بها، وهكذا ، لاتتضارب الاختصاصات ، ولايزيح موظف مسئولياته على آخر فيتعطل الإنجاز أو الإنتاج ، ونفتح للبيروقراطية بابًا لايغلق .

٢- اختصار الإجراءات والخطوات وبساطة ووضوح التعليمات :

فلو أننا رجعنا إلى حالة تركيب عداد المياه، التى عرضناها فى بند إهدار الطاقات البشرية عندما بدأنا نتحدث عن سلبيات البيروقراطية ، لوجدنا مثلاً صارخًا على تعقيدات مؤسسات الدولة لإجراءات وخطوات تركيب عداد مياه لأحد المواطنين ، وهو حق طبيعى له . وكان يمكن - ببساطة شديدة- أن يأمر رئيس مرفق مياه القاهرة الموظف المسئول بشراء عدادات مياه صالحة . كلما نفدت الكمية الموجودة بالمرفق أو كادت ؛ بحيث يجد المواطن حاجته منها . وفى

حالة نفادها المفاجئ يدبر المرفق له عداداً فى حدود أيام قليلة ، أو يطالبه بشرائه وتركيبه بإجراءات سهلة بسيطة وسريعة .

ومن الجدير بالذكر أن كثرة الخطوات وتعقيد الإجراءات الإدارية البيروقراطية التى عرفت عن مصر ، يعللها المسئولون برغبتهم فى انضباط الأمور وانتظام العمل وصلاحه ، إلا أنها- للأسف- لم تمنع ذلك ؛ فالفساد والآثار السلبية الناجمة عن البيروقراطية تزداد فى واقع الأمر، كما تنشر الصحافة ، وينطق واقع الحال ، وتتناقله الناس .

٣- جدية المحاسبة والمؤاخذة والعقاب والثواب بعيداً عن المحاباة والمحسوبية أو تسوية الحسابات :

مع قناعتى بأن الإنسان يحب أن يعمل للعمل والإنتاج فى حد ذاته كخاصية فى طبيعته البشرية، والتى تميزه عن الحيوان ، إلا أن الدوافع النفسية تقوم - مع ذلك- بدور جوهرى فى دفع الإنسان إلى إجادة عمله، وتحسين إنجازه . ومن أهم الدوافع النفسية لذلك رغبة الإنسان فى الحصول على مكافأة حسن الإنجاز ، أو الإثابة الناتجة عنه (سواء أكانت مادية أم معنوية) ، وتجنب المؤاخذة أو العقاب الناتج عن ضعف الإنتاج (وسوء العمل سواء أكان ماديًا أم معنويًا أيضًا) . ومن أوضح أمثلة الإثابة مكافآت الإنتاج أو الترقيات ، ومن أوضح أمثلة العقاب التخطى فى الترقية ، أو الخصم من المرتب ، أو الرفت من العمل . ويجب أن يستخدم كل ذلك مع المسئولين بكل الجدية والحزم والنزاهة ، والبُعد عن المحسوبيات والمجاملات ، حتى يكون فعالاً فى تحقيق الهدف منه ، ويقلّل تهرب الموظفين من مسئولياتهم ، ويغلق عليهم كثيراً من أبواب الفساد وظواهره .

٤- إعادة النظر فى القواعد المختلة للعلاقات بين أجهزة الدولة المختلفة :

لاشك أن ما ذكرناه- سابقًا - عن حكم مجلس الدولة ، الذى أنهى به النزاع بين هيئة الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وهيئة كهرباء الريف ، حول مبلغ ٥٨ جنيهًا و٦٠ قرشًا ، عندما تحدثنا عن السلبية الثانية للبيروقراطية ، يشير إلى خلل واضح فى العلاقات بين مؤسسات الدولة، وإلى استهتار واضح- أيضًا- فى التمييز بين عظائم الأمور التى يجب أن توجه الدولة جهودها إليها، وبين توافهها التى تبدد فيها الدولة طاقتها وطاقات مواطنيها وتشغلهم بها .

٥- تفويض السلطة وتدعيم لامركزيتها :

إن تركيز السلطة فى جهة عليا ، وعدم تفويض الجهات الأقل فى اتخاذ القرارات وتسيير دفة الأمور من معوقات العمل والإنجاز فى الدولة، وبالتالى من عوامل تمكن البيروقراطية فى نظمنا الإدارية . فهذا القرار يحتاج إلى الاعتماد من جهة عالية ، وبعد ذلك لابد من اعتماده من جهة أعلى ، ثم تأتى خطوة أخرى هى ضرورة اعتماده من جهة أعلى ، ثم تأتى خطوة أخرى هى ضرورة اعتماده من جهة أعلى وأعلى ... وفى النهاية ، لابد من اعتماده من الجهة العليا . وتكون نتيجة ذلك إمكانية تعطيل القرار فى أية مرحلة من هذه المراحل ، لو أن المسئول عنها رأى ذلك لأى سبب قد يكون تافهًا ، أو ضغطًا على المستفيد من القرار حتى يرشوه ، أو يساومه على مصلحة معينة ... وهكذا ، تتعدد مراحل اتخاذ القرار ، ويضيع الوقت ، وتفتح الثغرات - على أوسع أبوابها- لفساد المسئولين الكثيرين عن إصدار القرار الواحد ، وتتعدد التوقيعات والاعتمادات والأختام الموضوعة على القرار الواحد. ويئن المواطن الذى يحتاج إلى هذا القرار من الجهد والانتظار ، وربما أقعده اليأس عن مواصلة السعى لاستصداره ، مفضلاً ضياع حقه عن الجهد والعناء اللازمين للوصول إليه ...

٦- إسناد المناصب الرئاسية لمن عرفت عنهم الأمانة والنزاهة والكفاءة والجدية وتحمل المسئولية:

يشير التمسك بالبيروقراطية والاحتماء خلفها إلى ضعف المسئول وعدم كفاءته غالبًا ، فيلجأ إلى البيروقراطية ، وإلى حرفية التعليمات- فى جمود واضح- خشية أن يتحمل مسئولية قرار يتخذه ، أو إجراء يوصى به ؛ مما يعرقل الإنتاج ، أو يعطل مصالح الناس، هذا علاوة على أن ضعاف النفوس من المسئولين يجدون فى تمسكهم بالبيروقراطية دعمًا لقدرتهم على التحكم فى الناس ، وفى مصالحهم ، مما يعوض مشاعر النقص لديهم ، ويشبع دوافعهم التدميرية والعدوانية نحو الآخرين، ويرضى غرورهم وحبهم للظهور والتسلط .

ولاشك ، فى أن إسناد المناصب الرئاسية والهامة والمتحكمة فى إنتاجية الدولة وتسيير أمور مؤسساتها، وفى قضاء مصالح مواطنيها ، إلى الأفراد الذين يتمتعون بالكفاءة العالية ، وتعرف عنهم الأمانة والنزاهة والجدية ، وتقدير المسئولية والوفاء بها، دون محسوبية أو واسطة أو مصالح خاصة وراء التعيينات والترقيات ، لهو أمر فى غاية الأهمية لمحاصرة البيروقراطية خاصة، ولمحاربة الفساد عامة . ويذكرنا هذا بالقضية التى أثيرت فى مصر، منذ بضعة عقود،

ولازالت حتى الآن، والمعروفة بأهل الثقة (المحسوبية) أم أهل الخبرة (الكفاءة والقدرة) . حيث يميل كبار المسئولين فى مصر - أحيانًا - إلى تفضيل إسناد المناصب الرئاسية إلى من يثقون فى ولائهم ، بغض النظر عن كفاءتهم وقدرتهم على أداء واجبات المنصب والقيام بمسئولياته .

٧- الإدارة بالأهداف :

والمقصود بها أن يترك للمسئول (أو المدير) أن يدير العمل بمعرفته وبطريقته ، بحيث لايُسأل إلا عن مدى تحقيق أهداف العمل من حيث الإنتاجية وراحة العاملين النفسية والجسمية، وازدهار العمل . ونجاحه ، وحسن سمعته بين الناس . ولاشك ، أن هذه الطريقة فى إدارة العمل تعتمد -اعتماداً شبه كامل- على الثقة فى (المدير) أو المسئول، وفى استقامته وأمانته ونزاهته وترفعه عن المحسوبيات والمفاسد ، علاوة على كفاءته وقدرته على القيام بهذه الإدارة والنجاح فيها . وهكذا ، يستمر المدير أو المسئول فى موقعه ، ويرقى فيه طالما نجح فى تحقيق أهداف العمل (أو المؤسسة أو القسم ...) ، ويفصل منه أو يعاقب إن فشل فى ذلك . ومثال ذلك، ما تأخذ به سوق العمل الحر أو الاستثمار ، على نحو ما يوجد بالولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية . ومن الواضح -هنا- أن هذا النوع من الإدارة يكاد يغلق أبواب البيروقراطية تمامًا .

٨- تربية المواطن منذ طفولته على الثقة فيه، وعلى افتراض حسن النية، حتى يثبت العكس:

إننا نقول : إن المتهم برئ حتى يثبت العكس، فى القاعدة القانونية الشائعة (حتى لدى العامة) . ويتحقق الاقتناع بذلك عندما نحسن الظن بالنوايا، ونثق فى أنفسنا أولاً ، حتى نثق فى الناس بالتالى ، ويثقوا بدورهم فينا. ويحتاج منا هذا إلى الاهتمام ، أثناء تنشئة أبنائنا ، بأن نكون قدوة حسنة لهم فى استقامة السلوك وبراءة أهدافه ومراميه وأغراضه ، وأثناء تعليمهم بأن نغرس فيهم الثقة بأنفسهم وبغيرهم ، والنزاهة والاستقامة فى سلوكهم عن طريق إعطائهم الدروس النظرية فى ذلك، والمثل العملى فى سلوكنا وتصرفاتنا ؛ كآباء ومدرسين ، ولنا فى سلوك الإنجليز بعضهم مع بعض مثل واضح لذلك . ومما لاشك فيه أن اللجوء إلى البيروقراطية وتعقيداتها من جانب المسئولين إنما يستهدف الحد من أنواع الغش والخداع المتوقعة من الآخرين ومحاصرتها ، بحيث يصبح هذا هدفًا فى حد ذاته ، يستهدفه

المسئول على حساب العمل أو مصلحة المواطن . ومما لاشك فيه - أيضًا- أن الاحتماء بالبيروقراطية يشير إلى ضعف ثقة الموظف المسئول فى أمانة ونزاهة المواطن صاحب المصلحة ، أو فى زملاء المسئول من موظفين ، أو مرءوسين، أو رؤساء .

٩- تدخل الدولة بتعديل قوانينها وتشريعاتها لمحاربة البيروقراطية :

على الدولة (أو الحكومة بمعنى أدق) أن تتدخل بتعديل قوانينها التى تدعم البيروقراطية، وبإصدارها لتشريعات جديدة، تحاربها وترفع أذاها عن المواطنين ، وتجنب المجتمع آثارها السلبية العديدة ، وتنطلق بالتنمية فيه إلى الآفاق المأمولة . والدولة تقوم - فعلاً- بذلك ، إلا أننا لازلنا ننتظر منها أكثر. ويكفى أن نقارن بين الإجراءات والجهد والوقت الذى كان يحتاجه المواطن لاستخراج جواز سفره ، ثم تأشيرات خروجه من بلده أو دخوله إليه فى الستينيات مقارنة باليوم ، بل إن كثيراً منها قد ألغى ؛ كتأشيرات الخروج والدخول ، كما امتدت مدة صلاحية الجواز ، فلايحتاج المواطن إلى تكرار الإجراءات والجهد كل مدة قصيرة ، مما كان يضايقه ويبدد جهده ووقته ... كما نضيف إلى ذلك ما هو معروف اليوم من بساطة إجراءات إقامة المشاريع الاستثمارية دون انتظار إجراءات الموافقة وتصريحاتها الرسمية ، التى كانت - أحيانًا- تستغرق سنوات، علاوة على اضطرار بعض المستثمرين لدفع رشاوى لبعض الموظفين (فاسدى الضمير) لتعجيل بعض الإجراءات اللازمة، واستصدار الموافقات الضرورية قبل بدء تنفيذ المشروعات ، مما كان يعطل الاستثمار ، فيهرب المستثمرون من مصر ، وينصرفون أو لايفكرون فى الاستثمار فيها ، حتى المصريون أنفسهم ، مما يعرقل التنمية ويقف عقبة فى طريقها .

ومن الواضح أن مصر قد أولت ، فى الأيام الأخيرة ، اهتمامًا كبيراً بحل مشكلة البيروقراطية ، حيث وجدت فيه دفعًا لمزيد من التقدم الاجتماعى والاقتصادى فى مصر . فلقد شهدنا - مؤخراً- مزيداً من القوانين والتشريعات والتعديلات التى تصدرها الدولة وجهات الاختصاص لمحاربة البيروقراطية ، وتقليص آثارها السلبية ، إيمانًا منها وتنبهًا إلى جسامة خطورتها . وأضرب مثلاً واحداً على ذلك ؛ ما نشرته جريدة «الأسبوع» فى عددها الخامس الصادر فى ١٧ / ٣ / ١٩٩٧ ، وفى صدر صفحتها الأولى تحت عنوان «٧ وزراء على قائمة الاستبعاد فى التشكيل الجديد» حيث جاء فى هذا الخبر : «وأشارت المعلومات إلى ... مذكرة تضمنت مبررات التعديل الوزارى فى الوزارة المقترحة، ومدى ملاءمة السيرة الذاتية للمرشحين

الجدد مع متطلبات المرحلة المقبلة ... إن الوزارة الجديدة سوف ترفع شعار «تهيئة البلاد للقرن الحادى والعشرين» والقضاء على بيروقراطية العمل فى الوزارات المختلفة ... وأن الغاية النهائية من التعديل ترتبط بإحداث حالة من الانسجام الكامل والارتباط بمسيرة الاقتصاد والاستثمار » . واضح من هذا الخبر إدراك المسئولين فى الدولة لخطورة البيروقراطية ، حتى أن الخبر ، فى ذكره لشعار تهيئة البلاد للقرن الحادى والعشرين لم يشر إلى أية وسيلة لذلك غير «القضاء على بيروقراطية العمل فى الوزارات المختلفة»، وكأنها السبيل الأهم لتحقيق هذا الشعار . وفى هذا الخبر ما يوحى - أيضًا- بأن القضاء على البيروقراطية «يرتبط بمسيرة الاقتصاد والاستثمار». ونلحظ فى هذا الخبر- أيضًا- ما يؤكد وعى الدولة بأهمية إسناد المناصب الرئاسية لمن يتمتعون بالسمعة الحسنة ، والكفاءة التى ذكرناها فى البند السادس من هذه التوصيات ، حيث يشير الخبر إلى مدى ملاءمة السيرة الذاتية (أو الشخصية بمعنى أصح) للمرشحين الجدد مع متطلبات العمل فى المرحلة المقبلة» .

وبدورى ، أدعو الله أن تنجح الدولة فى هدفها الذى أعلن فى هذا الخبر : فالأمر يحتاج إلى جهود كبيرة ؛ مستمرة مخلصة ، لعلاج البيروقراطية وتقليصها. وعلى الله قصد السبيل.

تعليق :

بعد كتابة هذا المقال ونشره بأكثر من عام، وفى جريدة الأهرام الصادرة فى ٢٤ / ٥ / ١٩٩٨ فى باب بريد الأهرام، نقرأ لمحمود مهنى التعليق التالى بعنوان :

انسوا حكاية ماء النيل !

«ما نشكو منه فى الداخل يصل إلى الخارج وينفّر الزوار منا وهذا معناه أن ما نجتهد فى توصيله وتأصيله قد يدمره مجرد بند فى لائحة عفنة .. ولقد لفت نظرى ما نشر فى جريدة الأهرام ، عن معاناة الرحالة الألمانى الذى احتجزت دراجته البخارية فى قرية البضائع بمطار القاهرة واحتاج إلى خمسة أيام من اللف والدوران فى ١٧ مكتبًا للإفراج عنها مما دفع الرجل لإلغاء رحلته إلى أبى سمبل طالبًا سرعة مغادرته مصر .. لقد أحزننى تعليق الرحالة برغم أنه لم يقل غير الحق وهو أن أحسن ما فى مصر شعبها لكنهم محكومون بلوائح عقيمة أما ما أسعدنى حقا فهو شجاعة نشر الموضوع بإيجابياته وسلبياته .. مهم جداً سلبياته هذه ويا حبذا لو طلقنا حكاية من يشرب من مياه النيل يرجع إليه مرة أخرى وحكاية الشمس الدافئة والنسيم الندى فالمسألة أبعد من ذلك ولابد من صرف النظر عن اللوائح المعرقلة والمقيدة والمشوهة دائمًا » .

الأمر الذى يشير إلى مدى التدمير الذى يعود علينا من تمسكنا بالبيروقراطية ومن تكريسها.

المراجع :

١- الأسبوع ، جريدة أسبوعية : عدد :٥ ، القاهرة ، ١٧ / ٣ / ١٩٩٧ .

٢- أحمد زكى بدوى . معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٢ .

٣- محمود بيرم التونسى . المجموعة الكاملة لشاعر الشعب بيرم التونسى ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٨٧ .

٤- مختار حمزة . بيروقراطية ، فى: المعجم العربى للعلوم الاجتماعية ، منظمة الأمم المتحدة (يونسكو)، والمركز الإقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية ، القاهرة ، ٩٢ ، ١٩٩٤ .

٥- روز اليوسف . مجلة أسبوعية ، بورصة الأخبار ، القاهرة ، ١٦ / ١٢ / ١٩٩٦ .

٦- عبد المعطى شعراوى. نموذج للبيروقراطية من مرفق مياه القاهرة، جريدة الأهرام الصادرة فى ٢ / ٣ / ١٩٩٣ .

٧- فرج عبد القادر طه . تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات ، مجلة دراسات نفسية ، عدد :٢ ، مجلد : ٤ أكتوبر ١٩٩٤ ، ١٧١-١٨٨ .

٨- جمال عبد الناصر . بيان الرئيس فى افتتاح الأمة بتاريخ ٢٥ / ٣ / ١٩٩٤ ، فى : مجموعة خطب وتصريحات الرئيس بالقسم الرابع ، فبراير ١٩٦٢ إلى يونية ١٩٦٤ ، وزارة الإرشاد القومى، القاهرة، ١٩٦٥ ، ٥٣١-٥٦٠ .

٩- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، المعجم العربى الأساسى ، ١٩٨٩ .

١٠- أحمد الملا . خطاب منشور فى باب «صندوق الدنيا» ، جريدة الأهرام ، عدد ٢٢ / ١٢ / ١٩٩٣ .

١١- حسين مؤنس . إدارة عموم الزير ، فى : إدارة عموم الزير وقصص أخرى، سلسلة اقرأ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٥ .

المثقف ... وتجسيد القدوة *

«نظرة نفسية»

يمثل المثقف فى كل أمة عقلها الواعى ورأسها المدبر وقائدها المسئول . ولذلك، فإن الأمم -عندما تصادفها الأزمات وتخنقها المشكلات وتجثم على صدورها الهموم- تتطلع دومًا إلى مثقفيها تلتمس منهم الرأى ، وتلقى على عاتقهم مسئولية الخلاص والإنقاذ .

وفى الفترة الأخيرة، تعرضت صحفنا لبعض الندوات التى عقدت والآراء التى طرحت محاولة تحديد دور المثقف ، وواجبه إزاء مجتمعه الذى تكاد تخنقه المشكلات، وتتهدد وحدته الأزمات والسلبيات . وفى ضوء هذا ، فإننا نرى أن أهم واجبات المثقف -فى وقتنا الراهن- وأولاها بالتأكيد والتركيز هو أن يجسد بسلوكه الفعلى القدوة الصالحة لمواطنيه (دون الاكتفاء بزخرف القول الذى يجيده بحكم ثقافته) ، وأن يكون مثلاً يحتذى وقدوة مجسدة لكل الفضائل والأخلاق الحميدة التى حثت عليها القيم السامية والمثاليات الراقية ، والتى بدونها تنهار الحضارات وتتخلف الأمم وتستعبد الشعوب، مثل قيم الحق والعدل والمساواة ، وقيم الإخلاص فى العمل والولاء لتراب هذا الوطن وصالح شعبه، والسعى -ما وسعنا الجهد- لكل ما من شأنه رفعتهما وتقدمهما والدفاع عن مصالحهما . وأيضًا ؛ مثل قيم البساطة فى المظهر ورفض (البهرجة) التى تؤدى إلى سباق بين الناس فى الاستهلاك والتبذير ... ومع أننا نطلب من كل فرد أن يلتزم هذه المثاليات الفاضلة، إلا أننا نوجبها على المثقف بصفة خاصة، ذلك لأنه- علاوة على موقعه فى المجتمع وتأثيره القوى عليه- يعتبر إطاراً مرجعيًا لبقية فئات الشعب تضرب به المثل وتسير على هداه وتقتدى بسلوكه ، سواء أكان كل ذلك بوعى وقصد أم بشكل تلقائى لا واعى، مثلما يقوم الجسد باتباع الرأس ويأتمر بأوامره . فنحن نقلد المثقفين فى طرائق معيشتهم ونقتدى بهم فى سلوكهم وأخلاقياتهم ، حتى نصبح مثلهم فى المكانة الاجتماعية والسمعة الشخصية . ويمكن أن نجد تجسيداً لهذه الحقيقة فى المثل المشهور (الناس على دين ملوكهم)؛ أى أن الناس تقلد وتحاكى وتسلك كما يفعل رؤساؤهم قوادهم ومديروهم ومدبرو

---

* كتبت هذه الكلمة فى أوائل عام ١٩٨٧ .

أمرهم. ولهذا يرتضى العامة ما يرتضيه المثقفون من أساليب السلوك ، ويعتنقون ما يعتنقه المثقفون من مثل وقيم وفضائل ، أو عكس ذلك من فساد وسوءات ؛ فالفرد يحب -عادة- أن يتشبه بمن يعلوه ويفضله قوة أو حكمة أو مكانة . وهذه الحقيقة ، سواء أطلقنا عليها بلغة علم النفس سيكلوچية المحاكاة (والتى تتم بشكل واعٍ مقصود) ، أو سيكلوچية التوحد (والذى يتم بشكل لا واعٍ وتلقائى) ، أو سيكلوچية القدوة والاقتداء، فإنها تظل صادقة عندما ننظر بعين فاحصة إلى تأثير المثقف على بقية مواطنيه ومحاولاتهم التشبه به . وهكذا، يكون صلاح الأمة فى صلاح مثقفيها بالدرجة الأولى .

وعلى هذا ، فنحن نريد مدرسًا يجسد القدوة الصالحة لتلاميذه ، فيخلص فى تعليم تلاميذه وتربيتهم على السلوك القويم، ويعطى القدوة من نفسه ، فلايستغل تلاميذه وأولياء أمورهم فى عملية نهب مستمرة عن طريق إجبارهم على اللجوء إلى (الدروس الخصوصية) حيث لايعلم فى المدرسة ، وإنما يعلم فى البيت، بل قد لايعلم فى البيت -أيضًا- وينقل «الدرس الخاص» إلى رشوة مقنعة للنجاح فى الامتحانات لاغير ، «ولعن الله الراشى والمرتشى» . ولاشك، أن تلك ظاهرة منتشرة الآن، يئن من هولها أولياء الأمور، ويتندر بها التلاميذ، وتصيب كل ذى ضمير بالأرق. وفى ضوء هذا -أيضًا- فنحن فى حاجة إلى الأستاذ الجامعى الذى يضع ضميره الخلقى والمهنى فوق أى اعتبار ، فيثبت بذلك للمجتمع الذى ائتمنه على التعليم العالى فيه أنه أهل لهذه الثقة ، فيخلص ما وسعته قدراته فى تعليم طلابه وتلاميذه والأخذ بيدهم وتنمية مداركهم واستعداداتهم ، حتى يستطيعوا خدمة تخصصاتهم العلمية، والإسهام فى حل مشكلات مجتمعهم الاقتصادية والاجتماعية بكل ما أوتوا من طاقة، وما حصّلوه من علم ، وما تربوا عليه من خلق ومثاليات . وينبغى على أستاذ الجامعة- فوق كل هذا- أن يعطى القدوة الصالحة من نفسه فلايجامل طالبًا إلا فى الحق ، وأن تقوده نزاهته وموضوعيته إلى إعطاء كل ذى حق حقه من طلابه وتلاميذه ، فلا يظلم هذا ، ولايحابى ذاك لعلاقات شخصية ، أو لنزوة نفسية، أو لخوف من هذا، أو لمجاملة لذاك . وهكذا، لاييسر لذوى قربى أو صداقة أو علاقة خاصة أن يكون أول فرقته ، أو أن يحصل على درجة علمية عليا لايستحقها ، فيحتل بذلك منصبًا من حق غيره ، أو مكانة فوق ما يستحق فيفشل فيها ، وبهذا يسيئ إلى نفسه ويضر بمجتمعه .

وبالمثل ، فإننا نريد ناقداً أديبًا نزيهًا وموضوعيًا يتناول العمل الأدبى بالنقد الموضوعى البناء ، سواء عرج على سلبياته، أو أبرز إيجابياته، فبغير هذا لايزدهر الأدب، ولاتتطور فنونه . كما نريد صحفيًا نزيهًا وموضوعيًا لايحجب الحقيقة أو يشوهها مجاملة لهذا، أو خوفًا من ذاك ، فبغير هذا لن تتطور صحافتنا ، أو تكتسب ما نرجوه لها من ثقة قرائها ومواطنينا ... ونريد ... ونريد ... حتى نجسد لجيلنا الحالى وللأجيال القادمة قدوة صالحة يقتدون بها ، ويسيرون على هداها .

وفى النهاية ، ينبغى علينا أن نعلم أن كلامنا ليس بمنأى عن الإصابة بأضرار الفساد الذى ينتشر فى المجتمع ومساوئه ، مهما علت مستوياتنا الاقتصادية ، أو ارتفعت مكانتنا الاجتماعية والثقافية ؛ فمهندس الصيانة الذى لايؤدى واجباته كما ينبغى، فيسمح لأوتوبيس أو سيارة نقل بالعمل دون توافر وسائل الأمان لها ، قد ينجم عن تسيبه هذا أن تصيب تلك السيارة أحد المارة أو المركبات الأخرى بالطريق ، وقد يكون بينهم هو نفسه ، أو أحد أقربائه ، أو زملائه . فالحادثة لاتنتقى فئة دون غيرها من المجتمع . وبالمثل ، يمكن أن نقول عن المهندس أو المقاول الذى يجرى وراء الكسب الفاحش دون مراعاة لأصول المبانى وشروط الأمان... ذلك أن المجتمع وحدة واحدة متكاملة ، إن فسد جزء منه تداعت له سائر الأجزاء بالتأثر والتضرر .

ولهذا ، فإن القدوة الصالحة تجب حمايتها وتشجيعها ولايجوز التكتل لضرب من يجسدها ، كما يحلو لبعض مروجى الفساد ومدعميه ، وأحيانًا -للأسف- ينجحون ، وكأنهم يريدون أن يقولوا : «إذا كنت تؤثر السلامة والعافية ، فعليك بترك هذه المثاليات (الفارغة) » وهم يزينون سوء أفعالهم ، ويبررون إفسادهم فى الأرض بأن يقولوا : «الدنيا كلها هكذا، أفأنت ستصلح الكون؟ » لكن – والحق يقال– إن هناك الكثيرين الذين يجسدون للناس أمثلة جيدة للقدوة الطيبة، وهؤلاء هم الذين يمثلون أملنا فى إصلاح المجتمع وصلاحه ، ويملؤوننا بالتفاؤل والثقة فى مستقبل أيامه .

* * *

حول المؤتمر الدولى الثانى والعشرين لعلم النفس بليبزج*

تمهيد :

فى صيف عام ١٩٨٠ ، وعلى وجه التحديد بين السادس من شهر يوليو والثانى عشر منه، عقد المؤتمر الدولى الثانى والعشرون لعلم النفس بمدينة ليبزج ، وفى مقر جامعتها فى ألمانيا الشرقية. ويعقد المؤتمر الدولى لعلم النفس كل أربعة أعوام فى إحدى الدول التى تشترك جمعية علم النفس بها فى الاتحاد الدولى لعلم النفس . وفى هذه الحالة ، فإن الاتحاد الدولى لعلم النفس هو الذى ينظم المؤتمر ويعدُّ له ، بالاشتراك مع جمعية علم النفس بالدولة المضيفة للمؤتمر. ويعتبر المؤتمر الدولى لعلم النفس أكبر المؤتمرات الدولية التى تعقد لعلم النفس فى العالم كله وأهمها ، حيث يمثل -بحق- مهرجانًا عالميًا لعلم النفس، كما يغطى كافة فروع علم النفس واهتماماته.

ولقد كان لاختيار الاتحاد الدولى لعلم النفس مدينة ليبزج -ومقر جامعتها بالذات- مكانًا لعقد المؤتمر الثانى والعشرين مغزى عميق . ذلك أن جامعة ليبزج بالذات لها مكانة خاصة فى قلوب علماء النفس ومتخصصيه . ففى قسم الفلسفة بها ، أنشأ ڤونت (Wundt) أول معمل لعلم النفس فى العالم كله عام ١٨٧٩ ، حيث كان أستاذاً للفلسفة بهذه الجامعة. ومنذ ذلك الحين ، تتلمذ على يديه -بمعمله- كثير من علماء النفس فى أنحاء كثيرة من العالم ؛ شرقه وغربه، وعندما عادوا إلى بلادهم تولوا نشر معامل علم النفس بجامعاتها . وإذا كان هذا هو المغزى العميق لاختيار مكان انعقاد المؤتمر ، فإن هناك مغزى آخر للربط بين توقيت المؤتمر ومكانه، ذلك أن مجئ عام ١٩٨٠ يعتبر اكتمالاً لقرن كامل على نشأة معمل علم النفس، وفاتحة لقرن جديد. ومما يزيد الأمر أهمية أن كثيرين من علماء النفس يعتبرون أن تاريخ فتح

---

* اشترك المؤلف فى المؤتمر الدولى الثانى والعشرين لعلم النفس، والذى عقد بمدينة ليبزج (فى جامعتها) بألمانيا الشرقية ، فى المدة بين ٦ و ١٢ من يوليو عام ١٩٨٠ .

وهذه محاضرة ألقيناها عن هذا المؤتمر بدعوة من المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة يوم ١٦ / ٥ / ١٩٨١ ، وذلك ضمن الموسم العلمى الثقافى الذى نظمه المركز بمقره .

معمل ليبزج هو تاريخ ميلاد علم النفس وتبلوره كعلم مستقل له كيانه الخاص، بعد أن كان مجرد فرع من فروع الفلسفة، أو موضوع من موضوعاتها، وذلك بعد أن اصطنع لنفسه منهجًا جديداً لدراساته هو المنهج التجريبي، مخالفًا بذلك المنهج الفلسفي الذي يعتمد -أساسًا- على التأملات النظرية . ومن هنا ، فقد كان التجمع العالمي لعلماء النفس بليبزج في صيف عام ١٩٨٠ بمثابة تجديد لذكرى ڤونت ومعمله، وبمثابة احتفال بانقضاء قرن كامل على ميلاد علم النفس ومطلع قرن جديد .

ولعل هذا ما جعل نسبة كبيرة من علماء النفس في العالم تحرص على المشاركة في هذا المؤتمر ، فقد اشترك فيه حوالي ثلاثة آلاف ونصف الألف من الأعضاء من قرابة خمسين دولة من دول العالم المختلفة المواقع والاتجاهات والنظم . فكان من ألمانيا الشرقية وحدها حوالي ثلث الأعضاء (وذلك نظراً لسهولة الاشتراك في المؤتمر بالنسبة لهم وسهولة تدبير الإقامة) ، ومن الولايات المتحدة الأمريكية حوالي ٢١٥، ومن اليابان حوالي ١٧٥ ، ومن الاتحاد السوڤيتي حوالي ١٦٠ ، ومن تشيكوسلوفاكيا حوالي ١٣٠ ، ومن بولندا حوالي ١١٥ ، ومن المجر حوالي ١١٥، ومن كندا حوالي ٦٠ ، ومن بلجيكا حوالي ٣٠ ، ومن استراليا حوالي ٣٠ ، ومن أسبانيا حوالي ٣٠، ومن السويد حوالي ٣٠ ، ومن يوغسلافيا حوالي ٢٠ ، ومن الصين حوالي خمسة أعضاء. ونكتفي بذكر ذلك على سبيل المثال لا الحصر.

ولقد قدم في المؤتمر حوالي ألف بحث ودراسة ، وكانت ندواته ومناقشاته ومحاضراته وأفلامه تعقد وفق برنامج زمني على مدى خمسة أيام (باستثناء جلسة الافتتاح وحفل استقباله) تبدأ من الساعة التاسعة صباحًا حتى السابعة إلا الربع مساء كل يوم ، باستثناء نصف ساعة يتوقف فيها نشاط المؤتمر ما بين الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر إلى الثانية ، وكانت جلسات المؤتمر وحلقاته تصل إلى قرابة العشرين في نفس الوقت صباحًا ومساءً، وينتقي العضو ما يهمه منها لحضوره .

وبالنسبة لنا، فقد كان حضور هذا المؤتمر في غاية الأهمية ؛ حيث صحح لنا الكثير من آرائنا وتصوراتنا عن قضايا هامة مثار خلاف وجدل بين المشتغلين بعلم النفس ، والمهتمين به في مصر والبلاد العربية، خاصة تلك الآراء والتصورات التي تبنتها وروّجت لها الثورة الروسية الاشتراكية في أوائل عهدها ، ثم حذت حذوها ، الثورات الاشتراكية الأخرى ؛ كالثورة الصينية على سبيل المثال . وسوف يكون هذا الموضوع هو محور هذا الفصل .

أولاً : موقف الكتلة الشرقية من ڤونت :

اتخذت الثورة الروسية الاشتراكية بعد قيامها موقفًا مناهضًا لمعظم التيارات والاتجاهات السائدة وقتذاك فى علم النفس؛ كالقياس النفسى، وعلم النفس الصناعى، والتحليل النفسى. كما تبنت الثورة الروسية -على وجه خاص- موقفًا عدائيًا من ڤونت ومعمله، وأدانتهما بشدة. ويبدو الأمر منطقيًا هنا فى أن تجمع الثورة الروسية فى هجومها بين ڤونت وبين علم النفس، لما هو واضح من الدور الهام، والأثر الكبير لڤونت فى علم النفس، كما سبق أن أشرنا.

وربما ترجع بدايات إدانة ڤونت والهجوم عليه فى روسيا إلى لينين فى كتابه «المادية ونقد التجريبية Materialism and Empirio- Criticism » والذى ظهر فى عام ١٩٠٩ ؛ حيث هاجم ڤونت ونقده بعنف، متهمًا إياه بالمثالية والترويج لها وتدعيمها (ارجع إلى الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب والصادرة عن دار التقدم بموسكو عام ١٩٦٧ ، حيث توجد بها صفحات كثيرة متفرقة ، تبدأ من صفحة ٤٨ إلى ما بعد منتصف الكتاب توضح رأى لينين فى ڤونت) .

لكن، إذا كان هذا هو موقف الاتحاد السوڤيتى من ڤونت ومعمله وسيكلوچيته فى بداية ثورته الاشتراكية ، فهل لازلنا نجد لهذا الموقف استمراراً حتى الآن، أم أن الروس قد عدلوا من موقفهم ؟ .

لاشك ، أن موقف الروس والكتلة الشرقية عمومًا (على اعتبار الروس طليعتها وقادتها) قد عدلوا من موقفهم إزاء ڤونت ومعمله، كما تدلل على ذلك اتجاهات علمائهم فى هذا المؤتمر، وضخامة نسبة أعضائهم فيه، مما يبين عن مشاركتهم علماء العالم احتفاءهم بذكرى ڤونت ومعمله. بل إن علماء من الكتلة الشرقية، شأنهم شأن غيرهم، قد أسهموا فى ندوات وجلسات عقدت خصيصًا لتخليد ذكرى ڤونت فى هذا المؤتمر .

١- بحث هوڤسب :

ونشر بهذا الصدد البحث الذى اشترك به هوفسب Hovsep الروسى ، فى إحدى الندوات التى عقدت تخليداً لذكرى ڤونت فى هذا المؤتمر بعنوان : «ڤونت فى التاريخ العالمى لعلم النفس» (Hovsep, 12) . ففى هذا البحث، يرى هوفسب أننا ينبغى أن نعتبر ڤونت -بدون شك- واحداً من أعظم علماء النفس أثراً فى توجيه البحث نحو علم نفس جديد ، ليس فقط

فى ألمانيا ، بل فى كثير من البلدان . كما أنه لعب دوراً تاريخياً تقدمياً خلال الخطوات الأولى من الصراع ضد علم النفس الروحانى والجامد . كما يورد فى بحثه، نقلاً عن بورنج Boring، وصفه لفونت بأنه أكبر سيكلوچى فى تاريخ علم النفس ، وأنه رجل يمكن -بدون أى تحفظ- أن نسميه سيكلوچيًا بحق . فقبله كان يوجد علم نفس بكثرة، لكن لم يكن يوجد سيكلوچيون . وعندما نسميه منشئ علم النفس التجريبى . فنحن نعنى بذلك أنه طوّر فكرة علم النفس كعلم مستقل ، وأنه أكبر علماء النفس معًا . وعندما يورد هوفسب هذه الأفكار عن بورنج دون تعليق فإنه بهذا يتبناها عن قناعة شخصية يشترك فيها مع بورنج . ولاشك - أن هذا البحث لهوفسب يدل بشكل واضح- على مدى التعديل فى الموقف السوفيتى من فونت، بحيث قلبه من موقف مدين ومناهض إلى موقف محبذ ومؤيد .

٢- بحث شن ولى :

هذا ، وفى نفس الندوة قدّم بحث آخر لعالمين صينيين هما شن ولى Shun and Li ، بعنوان «فونت وعلم النفس الصينى». وفى هذا البحث، يشير شن ولى إلى أنه باستثناء يون پاى Yan- Pai ، الذى ربما كان التلميذ الصينى الوحيد الذى حضر محاضرات فونت فى ليبزج ، فإن علم النفس الفونتى أتى إلى الصين عن طريق اليابان وأمريكا وأوروبا. وأنه قد أثر فى الصين كثيراً قبل الثورة . لكن، بعد الثورة الصينية تعرض فونت لنقد شديد من علماء النفس الصينيين تحت تأثير الثوزة الاجتماعية ، والثوار الذين رأوا وجوب بحث علم النفس العلمى فى ضوء المادية الجدلية. كما يضيفان أنه بعد تحطيم عصابة الأربعة أعيد تقييم سيكلوچيا فونت ، فتبين أنها تشتمل على قدر من المادية والعوامل الديالكتيكية . ويزيدان على ذلك أن فكرة فونت الأساسية ، والتى تؤكد بشدة على النظر إلى علم النفس باعتباره علمًا مستقلاً أصبحت واسعة القبول فى الصين. وأن ذلك سوف يكون له أثر إيجابى على تطوير علم النفس الصينى، بمثل ما أثر فى علم النفس فى العالم كله. ويوضح هذا مدى احتذاء الصين بالنموذج السوفيتى فى موقفه من فونت، الذى بدأ بالهجوم والإدانة، وانتهى أخيراً إلى القبول والإشادة.

ومن الجدير بالذكر أن عالمًا كنديًا (خارج الكتلة الشرقية) هو فروست Frost ، قدّم فى نفس الندوة بحثًا بعنوان «النظرية والمنهج وفيلهم فونت» أشار فيه إلى أن فكر فونت كان ديالكتيكيًا بشكل واضح فى طبيعته، كما كان معارضًا بشدة للنظرة الترابطية الجامدة . وأنه فى نهاية حياته كان شديد النقد للقيم والحضارة البريطانية والأمريكية . كما أوضح فروست أن فونت نفسه يعتبر المنهج التجريبى محدوداً فى صلاحيته، وذلك منذ كتاباته الأولى ، واعتبره

غير مناسب على وجه الخصوص لبحث علم النفس الثقافى ؛ إذ اعتبر أن أفضل صلاحية له هى مناهج الأنثروبولوچيا .

وإذا ما جاز لنا أن نتخذ من اهتمام كلية علم النفس بجامعة موسكو بمعامل علم النفس دليلاً على تعديل موقف الروس من فونت وعلم النفس التجريبى ، فإن ما كتبه عالم النفس السوفيتى لوريا Luria عن تعليم علم النفس فى جامعة موسكو يوضح ذلك بجلاء . وفى هذا الصدد ، يذكر لوريا أن كلية علم النفس بجامعة موسكو بها العديد من معامل علم النفس المخصصة للبحث. ويورد لوريا خمسة معامل علم نفس متخصصة بالكلية، هى (١١ ، ٦٥):

١- معمل علم النفس العصبى .

٢- معمل علم النفس الفسيولوچى .

٣- معمل علم نفس العمل (أى علم النفس الصناعى) .

٤- معمل التعليم المبرمج .

٥- معمل علم النفس الارتقائى .

ثانيًا : الموقف من القياس النفسى :

كثيراً ما يهاجم القياس النفسى وتدان اختباراته ، خاصة من ذوى الاتجاهات الأيديولوچية التقدمية ، بحجة أن القياس (الاختبارات النفسية) يعمل على تقسيم الناس إلى فئات أو طبقات ، وأن الإيديولوچيات التقدمية تستهدف تذويب الفوارق بين الطبقات والفئات، وإلغاء ما بين الناس من فروق، بما فيها الفروق السيكلوچية . ويذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك، فيرون أن الفروق بين الناس فى الذكاء والقدرات العقلية المختلفة والاستعدادات والخصائص الشخصية ، تختفى إذا ما اختفت الفروق الطبقية أو الفئوية المادية بين الناس، وأن الفروق السيكلوچية ما هى إلا انعكاس مباشر للفروق الطبقية . ويتوهمون بذلك أن الوضع الطبقى أو الفئوى الواحد سوف يؤدى إلى خصائص سيكلوچية واحدة تسود الأفراد ، فتختفى الفروق بين الأفراد فى الجوانب السيكلوچية المختلفة ، بحيث يصبحون جميعًا فى مستوى ذكاء واحد ، ومستوى ذاكرة واحدة، ومستوى تحصيل دراسى واحد، ومستوى فنى واحد ، ومستوى صحة نفسية واحدة ... ولقد بلغ الأمر بأصحاب هذا الرأى إلى إنكار وإدانة نتائج علمية واكتشافات أدت إليها البحوث الميدانية الواقعية ، بل والملاحظات والمشاهدات العادية؛ مثل

التوزيع الاعتدالي لكثير من الاستعدادات والخصائص السيكلوچية للأفراد ، والذى يوضح أن قلة من الأفراد تمتلك هذه الخصائص بدرجات عالية، تقابلها قلة -مماثلة تقريبًا فى نسبتها- تمتلكها بدرجات مرتفعة ، بينما تمتلك الغالبية هذه الخصائص بدرجات متوسطة ؛ ومثل -أيضًا- ما يعرف بالتباين داخل الفرد الواحد فى الاستعدادات النفسية والقدرات العقلية ، بمعنى أن الفرد نادراً ما يكون فى مستوى واحد بالنسبة للاستعدادات النفسية والقدرات العقلية ، بل غالبًا ما يكون مرتفعًا فى بعضها، ومنخفضًا فى غيرها بالنسبة لنفسه ، فنجده مثلاً مرتفعًا فى الذكاء، منخفضًا فى الذاكرة متوسطًا فى القدرة الفنية بالقياس إلى نفسه هو.

وترجع أصول هذا الموقف المدين للقياس السيكلوچى إلى إدانة الاتحاد السوڤيتى له بعد ثورته الاشتراكية . وكان ذلك موقفًا مماثلاً . أو فلنقل مقابلا أو مكملاً لموقفه من فونت ومن سيكلوچيته . وقد كان هذا من وجهة نظرنا موقفًا ميتافيزيقيًا ممعنًا فى الغرابة ومجافيًا للحقيقة ، التى ينبغى على العلم أن يسعى دائمًا لاكتشافها وتعليلها ، وليس لإنكارها ومجافاتها .

ولما كان القياس النفسى مرتبطًا -إلى حد كبير- بالإحصاء ، فقد لحقت المبادئ الإحصائية ومعاملات الإحصاء ، واستخدامه فى البحوث النفسية بعض الإدانة كتعميم للموقف من القياس الذى تبناه ذوو الاتجاهات التقدمية .

لكننا لاحظنا من البحوث التى قدمت فى المؤتمر من جانب علماء النفس السوڤييت وعلماء نفس الكتلة الشرقية عمومًا تعديلاً واضحًا فى موقفهم من القياس النفسى ، والاختبارات النفسية ، والاستخدامات الإحصائية فى البحوث النفسية . ونكتفى هنا بذكر نموذجين للتدليل على ذلك :

١- بحث بنج :

فها هو بنج Pung (٦ ، ٥٨١) ، من جامعة ولاية تارتو بالاتحاد السوڤيتى ، يقدم بحثًا عن آثار العمل والنشاط الزائد عن الحد المناسب لطاقة الإنسان . وفى هذا البحث درس ٢٥ نوعًا مختلفًا من الوظائف الذهنية والحركية والحسية ، واستخدم فى ذلك مقاييس لقياس : النبض، وضغط الدم، والاهتزاز ، واتساع الرئة ، وسرعة الحركات البسيطة ودقتها ، ومعدل النقر ، وزمن الرجع ، وإدراك المسافات الزمنية ، والقدرة على الانتباه ، والذاكرة القريبة ،

والقدرة المكانية ، وأداء واجبات ذهنية مختلفة ، والقدرة على تصحيح أخطاء . وقد عولجت البيانات كلها بمعاملات إحصائية خاصة بتحليل التباين وبالارتباطات وبالتحليل العاملي .

ولقد تبين من هذا البحث التجريبي أن كمية النشاط الواجب على الفرد ممارستها -سواء ذهنيًا أو عضليًا أو حسيًا- ينبغي أن تكون معتدلة في حجمها ومناسبة له ، حتى يصل الفرد لأقصى كفاية له . ففي حالة عبء النشاط المناسب، تكون الوظائف النفسية ، كالإحساس والإدراك والتذكر والانتباه في أقصى اتزان لها ، وتآزر بينها .

ونلاحظ في هذا البحث تعديلاً واضحًا في موقف السوفييت من القياس والاختبارات النفسية؛ حيث يلجأ الباحث إلى الاستعانة بالقياس في دراسته ، كما نلاحظ -أيضًا- اعترافًا بأهمية الإحصاء ومعاملاته ، فيلجأ الباحث إلى التحليلات الإحصائية المعروفة عالميًا ؛ كتحليل التباين والتحليل العاملي وتحليل الارتباطات . وعلاوة على ذلك ، فإن الباحث الروسي هنا يستخدم التجريب على نفس النحو والطريقة التي استخدمها فونت في معمله بليبزج، بل وفي موضوعات قياس تكاد تتطابق وموضوعات قياس فونت، وفي دراسة ظواهر تذكرنا بما درج فونت وتلاميذه على دراستها في ليبزج .

٢- بحث ستانكاك وزميليه :

ومن تشيكوسلوفاكيا ، قدم لنا ستانكاك وفرانك وجازوفا Stancak Fraenke and Ja-sova (٩، ٥٤١) في هذا المؤتمر بحثًا بعنوان : «أنماط ذوي الميول الانتحارية وفقًا لطريقة الـ MMPI» . والـ MMPI -كما نعلم- مقياس أمريكي الأصل لقياس جوانب السواء والمرض في الشخصية، مبني على أسلوب التقرير الذاتي والاستبيانات في قياس سمات الشخصية (وهو بذلك وسيلة من وسائل جمع البيانات في الدراسات السيكلوجية، وليس طريقة أو منهجًا في البحث ، كما يوحي عنوان هذا البحث) . وكان الهدف من البحث هو التعرف على نمط بروفيل الشخصية التي تميل للانتحار ، كما يوضحه مقياس الـ MMPI ؛ فطبق الباحثون مقياس الـ MMPI على مجموعتين ؛ إحداهما تميل للانتحار ، أو لديها استعداد كبير للإقدام على الانتحار ، والمجموعة الثانية لاتميل للانتحار . وكانت كل مجموعة مكونة من مائة فرد نصفهم من الذكور والنصف الآخر من الإناث . كما راعى الباحثون -أيضًا- أن تكون المجموعتان متعادلتين في مستوى الذكاء حسب نسب الذكاء التي تستخرج من تطبيق مقياس وكسلر- بلفيو للذكاء ، وهو مقياس أمريكي الأصل أيضًا . ولقد عالج الباحثون نتائج بحثهم باستخدام التحليل العاملي والارتباطات . وتبين من البحث نمطان متمايزان في الصفحة

النفسية للذكور الميالين للانتحار أحدهما ارتفع فيه مقياس الانقباض بينما الثانى ارتفع فيه مقياس الانحراف السيكوباتى. أما بالنسبة للإناث، فقد وجد -أيضًا- نمطان متمايزان بالصفحة النفسية لذوات الميول الانتحارية ، بحيث ساد أحد النمطين ارتفاع فى مقياس الانحراف السيكوباتى، بينما ساد النمط الثانى ارتفاع مقياس البرانويا .

ولهذا البحث الذى قام به التشيكيون الثلاثة وقدموه للمؤتمر أهمية كبيرة للموضوع الذى نناقشه الآن. فتشيكوسلوفاكيا دولة من أهم أقطاب الكتلة الشرقية ، هذا إلى جانب أن البحث كان لأكثر من باحث، مما يدل على مدى قبول وانتشار الاتجاهات الواردة بين علماء النفس فى تشيكوسلوفاكيا . هذا علاوة على استخدامه لمقياسين نفسيين لهما شهرة واسعة لدى المشتغلين بعلم النفس (وبالمناسبة فهما مترجمان إلى العربية فى مصر، ويستخدمان بها بكثرة الآن ومنذ الخمسينيات)، وهما مقياس الـ MMPI (مقياس مينيسوتا المتعدد الأوجه للشخصية) ومقياس وكسلر- - بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين. هذا علاوة على استخدام الإحصاء وتحليلاتها، واستخدام فكرة المجموعة التجريبية (ومجموعة الميالين للانتحار) والمجموعة الضابطة (مجموعة غير الميالين للانتحار) والتى تتعادل معها من حيث الخصائص الهامة، باستثناء العامل المدروس وهو الميل للانتحار . ومن الملاحظ أن استخدام المجموعتين هنا، كما هو للإحصاء ، كما هو للقياس النفسى ، قد تم فى هذا البحث بنفس الكيفية التى يتم بها فى البحوث التى تتم فى البلاد الغربية .

فإذا أضفنا إلى هذا وذاك أن جانبًا من النقد الذى يوجه إلى القياس النفسى ينصب على استحالة نقل أو ترجمة أو تقنين مقياس نفسى، أعد أصلاً لبيئة معينة، بحيث يعاد إعداده واستخدامه فى بيئة أخرى، لأدركنا مدى أهمية دلالة هذا البحث على دحض هذه الفكرة الفجة، والتى لازال البعض يرددها حتى الآن : فها هم ثلاثة من العلماء التشيكيين يقدمون دراسة سيكلوچية باستخدام مقياسين من أصل أمريكى إلى أكبر مؤتمر عالمى لعلم النفس . ويدل هذا بشكل واضح على تغير هام فى موقف الكتلة الشرقية من القياس النفسى، بحيث قلبه من الإدانة والاستنكار والرفض إلى القبول والترحاب ، مما يذكرنا بالتغير المقابل من فونت ومعمل، والذى ناقشناه فى البند السابق.

ثالثًا : العلم والأيديولوچيا :

العلاقة بين العلم والأيديولوچيا علاقة شديدة التعقيد ، ومثار كثير من الجدل بين العلماء . ويرجع ذلك -أساسًا- إلى أن الأيديولوچيين يريدون استغلال العلم وتوجيه نتائجه وتطبيقاته

نحو خدمة أهداف محددة . وهم فى غمرة حماسهم لتحقيق ذلك يخلطون بين العلم ونتائجه من جانب، وبين استغلالهما وتطبيقهما من جانب آخر، وهو خلط -فى رأينا- غير مشروع، ويؤدى إلى الكثير من البلبلة . بل ويؤدى -أيضًا- إلى إدانة العلم ورفض نتائجه فى كثير من الأحيان . وفى رأينا أن العلم ونتائجه (طالما كانت مستمدة من منهج علمى) فإنه لاغبار عليهما، وينبغى أن يكونا مقبولين على طول الخط . بل ينبغى على العلماء -بصرف النظر عن اتجاهاتهم الأيديولوچية الخاصة- أن يسعوا دون تحيز إلى دراسة الظواهر، سواء طبيعية أو إنسانية، بهدف اكتشاف قوانينها وتفسيرها، والإحاطة بأكبر قدر من المعلومات عنها. أما مسألة استغلال النتائج العلمية وتطبيقاتها ، فهى أمر يخضع -بالفعل- لأهداف مستغليه ومطبقيه، وهو استغلال وتطبيق يمكن -بالفعل- أن نباركه أو أن ندينه ، وذلك بناءً على ما يحققه من أهداف بناءة للمجتمع القومى أو الدولى، أو أهداف مدمرة لواحد منهما أو كليهما. ولنأخذ مثلاً على ذلك الطائرة كإنجاز علمى بنى على تراث من التقدم العلمى الذى حققته البشرية حتى الآن. فاختراع الطائرة ، وتمكين الإنسان بواسطة الإنجازات العلمية من الطيران فى الجو أمر طيب محبذ فى حد ذاته ، يكسب الإنسان قدرة أكبر على مجابهة الطبيعة والانتصار عليها وتحقيق رغباته فى يسر وسرعة . فهو يستطيع أن يكون فى نصف الكرة الشمالية ينجز عملاً بالصباح، وفى نصفها الجنوبى ينجز عملاً بالمساء، تقطع بينهما بضعة آلاف من الأميال ، وذلك دون إرهاق كبير. إلا أن الإنسان يمكن أن يستغل الطائرة نفسها فى غزو بلد مسالم ، وقتل أهله ظلمًا ، وتدمير دياره ومنشآته ، والاعتداء عليه واحتلاله ، كما أنه بالمثل يمكن أن يستغل الطائرة فى عملية إبادة الحشرات التى تقضى على الإنسان أو المحاصيل الزراعية ... إذن ، يمكن استغلال العلم لصالح المجتمع فى نشر الخير وتدعيم التقدم والبناء، كما يمكن -أيضًا- استغلاله فى فرض الظلم ونشر الشرور والدمار، كما يمكن- ثالثًا- استغلاله فى رد الظلم والدفاع عن النفس والمجتمع ضد ما يتهددهما . ومن هنا، كان رأينا فى أن العلم -فى حد ذاته- لاغبار عليه ولانوافق أية أيديولوچية فى موقفها عندما تدينه . وإنما نوافق -فقط- على إدانة استغلاله الاستغلال الشرير الظالم والمدمر .

ولعل هذا ما أدركته الأيديولوچية الاشتراكية أخيراً ، فبدأت تفصل بين الأيديولوچية والعلم، وتتخلى -بشكل واضح- عن مواقف الإدانة الشديدة التى كانت تواجه بها فونت والقياس النفسى وعلم النفس عامة، وتقر الواقع الموضوعى المؤيد للعلم والمتقبل له، على نحو ما عرضنا فى البندين السابقين .

وهنا اعتقاد شائع حتى الآن ، وهو أن المجتمعات التى تقوم على عقائد أيديولوچية لاتهتم إلا بالظواهر والموضوعات ذات الدلالة لأيديولوچيتها ، ولا تضفى الشرعية العلمية إلا على النتائج التى تتفق مع أيديولوچيتها وتؤيدها . وإن صدق هذا بالنسبة لبعض المجتمعات المتخلفة ، فإنه لايعود بصدق الآن على المجتمعات الأيديولوچية المتقدمة ؛ كمجتمعات الكتلة الشرقية عمومًا .

فمن الطريف -حقًا- أن نجد علماء النفس من الكتلة الشرقية قد اشتركوا -تقريبًا- فى كل الموضوعات التى دار حولها نشاط المؤتمر ، وكانت بحوثهم لا تختلف - من حيث موضوعاتها أو مناهجها أو أدواتها أو نتائجها- عن تلك التى قدمها علماء النفس بالكتلة الغربية . حتى أن مجرد قراءة البحث دون معرفة صاحبه لاتمكن القارئ من التخمين الصحيح لما إذا كان صاحبه من الكتلة الشرقية أو الغربية . ونكتفى هنا بإيراد أربعة نماذج لتأييد رأينا هذا :

١- بحث تاتيزاروف وموبرويان :

فها هو تاتيزاروف وزميله موبرويان Taytsarov and Moiroyan (١٠ ، ٥٠٨) الروسيان يقدمان بحثًا ، بعنوان «تعديل مفهوم الذات فى مرضى الكحول خلال العلاج الجمعى». وفى هذا البحث، درس الباحثان تعديل مفهوم الذات فى ٣٤ مدمنًا كحوليًا تعاطوا أربع جلسات علاج نفسى جمعى. وقد طبقا على هذه العينة مقياسًا نفسيًا لمفهوم الذات هو مقياس (Tscs) ، وذلك قبل جلسات العلاج وبعدها ، فتبين لهما أن العلاج النفسى الجمعى له تأثير إيجابى على تعديل مفهوم الذات . وقد عللا هذا التأثير بأنه ناجم عن التفاعل بين المرضى ، وتأثر المريض واستفادته من خبرات زملائه ، والتوحدات المختلفة بهم . وكل هذا يعمل على تقوية دور الضبط الواعى لسلوك المريض . ولاشك، أن هذا البحث الروسى يمكن أن يكون بموضوعه ومنهجه وأدواته- بحثًا أمريكيًا ، أو فرنسيًا ، أو بريطانيًا ، أو مصريًا .

٢- بحث ماريك :

كما قدم ماريك Marek (٥ ، ٥٣٩) العالم البولندى بحثًا عن الانغلاق على الذات (Autism) كميكانيزم دفاعى فى الشخصية . وكانت عينة البحث عبارة عن ١٢٠ حالة فصامية خضعت للملاحظة والدراسة الإكلينكية على مدى عشر سنوات . وانتهى الباحث إلى أن تحليل بياناته يبين أن الفصامى يستخدم الانغلاق على الذات كدفاع ضد مثيرات قوية

تأتيه من العالم الخارجى تفوق القدرة البسيطة له على التحمل . ويوصى الباحث -بناءً على ذلك- بتقبل المريض وتقديم مشاعر متعاطفة معه، حتى نقلّل من مخاوفه ونقوى من قدرته على التحمل . وواضح أن هذا البحث -مثل سابقه- يمكن أن يكون -بموضوعه ومنهجه وأدواته ونتائجه وتوصياته- بحثًا مصريًا ، أو فرنسيًا ، أو أمريكيًا ، بمثل ما هو بحث لعالم من الكتلة الشرقية .

٣- بحث شميت :

أما البحث الثالث، والذى نريد أن نقدمه كنموذج للتدليل على رأينا، فهو بحث شميت Schmid (٧ ، ٥٤١) من المجر ، وقد قدم بحثه تحت عنوان «طريقة الحياة البناءة على أساس من بحث الصراع» . وفى مدخله لبحثه ، يشير الباحث إلى أن الإحصائيات العالمية التى ظهرت من بضع سنين ، تبين أن المجر أعلى مجتمع فى معدل الانتحار، والثانى فى معدل الطلاق ، وأن هذا هو السبب الذى جعل علماء المجر يهتمون ببحث الصراع . ويضيف الباحث أننا نوضع فى مواقف صراعية كثيرة أثناء حياتنا اليومية مما يتسبب عنه توتر . ويعتبر هذا التوتر بمثابة طاقة كامنة ، تقوم اتجاهاتنا بتحديد ما إذا كنا نستخدمها فى تحقيق تنمية للشخصية أو فى أشكال تدميرية لها. وفى رأى الباحث ، أنه يمكن ترشيد هذه الاتجاهات وغرس الاتجاهات البناءة فى الحياة بين الأفراد . أما طريقة الباحث فى دراسته، فكانت عبارة عن سؤاله لـ ٧٠٠ طالب أن يقدم كل منهم ذكرياته عن المواقف الصراعية التى مر بها فى حياته ، كما طبق على ٣٥٠ طالبًا اختباراً للتشخيص النفسى . ومن البيانات التى تجمعت لديه ، قام الباحث بتحليل المضامين الصراعية وتصنيفها إلى ثلاثة أنواع: صراعات «أنا- هم» ، وصراعات (أنا - أنت»، وصراعات شخصية ذاتية داخلية «أنا- أنا» . ويرى الباحث أنه بعد أن يتم تحديد مواقف الصراع المختلفة والنمطية، يمكن -بناءً على ذلك- القيام بترشيد الاتجاهات لتصبح مناسبة لمواجهة الصراع مواجهة بناءة، كما يمكن تعليم هذه الاتجاهات وغرسها بشكل مقصود ومنظم منذ مرحلة المدرسة الابتدائية . وبذلك يمكن تحقيق تكامل الذات، تنظيم الصراع، والوصول إلى الطريقة البناءة فى الحياة . ويرى الباحث إمكانية تحقيق كل هذا بواسطة التدريس الخاص أو التدريب أو المحاضرة أو الإشراف والمتابعة من جانب الأساتذة والمربين . ونلاحظ أن هذا البحث - كسابقيه- يمكن أن يكون -بموضوعه ومنهجه وأدواته ونتائجه وتوصياته- بحثًا مصريًا ، أو فرنسيًا أو بريطانيًا أو أمريكيًا، بمثل ما هو بحث لعالم من علماء الكتلة الشرقية ، وإن كان قد فاجأنا فى مقدمته باحتلال المجر المكانة

الأولى فى معدل الانتحار والثانية فى معدل الطلاق فى الإحصائيات العالمية ، وهو أمر كنا نستبعده من قبل تمامًا بالنسبة لمجتمعات الكتلة الشرقية عامة، والمجر خاصة .

٤- بحث آسييف :

أما البحث الرابع والأخير من الأبحاث التى نريد أن نشير إليها -تدعيمًا لرأينا- فهو بحث آسييف Aseyev (٢ ، ٥٥٧) العالم الروسى . فقد قدم بحثًا فى هذا المؤتمر بعنوان «عن العوامل النفسية الاجتماعية التى تستثير نشاط الأفراد فى العمل». وفى هذا البحث، يرى آسييف أنه تقع على إدارة العمل من الناحية النفسية الاجتماعية مسئولية خلق الظروف التى تحفز العامل وتقوى دافعه للعمل . وأنه عادة ما نعمل على رفع الدافع للعمل باستخدام حوافز مادية ومعنوية، إلا أنها -فى حقيقة الأمر- لاتلعب الدور الحاسم ؛ إذ أن الحوافز المادية والمعنوية لاتتحول إلى دوافع حقيقية إلا فى حالة ارتباطها باتجاه واعٍ للفرد نحو عمله، وبإدراكه للمعنى الاجتماعى للعمل الذى يؤديه ، ولمسئوليته الشخصية عنه وعن إنتاجيته . ويقترح الباحث ثلاثة «مبادئ» لرفع الدافع السيكلوچى للعامل نحو عمله : أولها هو استخدام الأساليب السيكلوچية الخاصة والتى تستثير الدافع نحو العمل المنتج برفع مستوى وعى العامل بأهمية عمله، وثانيها هو خلق ظروف مهيئة ومشجعة لتعبير العامل عن ذاته وإبراز إمكانياته الكامنة على العمل والإنتاج، مما يتيح للعامل إشباع دافع سيكلوچى هام عنده هو دافع تأكيد ذاته مهنيًا ، أما ثالثها فهو إعطاء الأفراد فرصة متكافئة لضبط عملهم ولزيادة نشاطهم المهنى بدرجة أكبر من الحرية، مع الأخذ فى الاعتبار الخصائص المتفردة لكل عامل، وإعطائه الفرصة لضبط كمية عمله وتنظيمه خلال نوبة العمل أو خلال فترات محددة . ومن الواضح أن موضوع هذا البحث ونتائجه وتوصياته يمكن أن تكون مصرية أو فرنسية أو أمريكية ، وليست روسية فقط، كما أنها تذكرنا بدراسة ألتون مايو Mayo وزملائه فى أمريكا على مصنع الهاوثورن عن أهمية الدوافع النفسية الاجتماعية فى العمل، وتلتقى مع نتائجها .

ولعله قد بدا الآن واضحًا - من النماذج الأربعة التى اكتفينا بذكرها - أن علم النفس فى البلاد الأيديولوچية المتقدمة قد انفصل عن الأيديولوچيا ، واستقل عنها أخيرًا ، تمامًا كما سبق وانفصل بفضل فونت عن الفلسفة منذ قرن من الزمان. وبذلك يكون علم النفس قد صحح مساره ، أو بمعنى أدق تكون المجتمعات الأيديولوچية المتقدمة قد تجاوزت موقفها القديم من علم النفس ، ودعمت موضوعيته العلمية .

رابعًا - دولية علم النفس وقومية علمائه :

«دولية العلم وقومية العلماء» عنوان مقال ترجمه الدكتور محمد عبد الفتاح القصاص عن نرومان ستورر (١ ، ٦ -٢٥) . ونحن نستعيره هنا ؛ إذ نعتقد أن هذه العبارة بالغة الدقة فى انطباقها على علم النفس ، على نحو ما برز فى مؤتمره الدولى بليبزج . فلقد صُنِّف كل عالم اشترك فى هذا المؤتمر حسب الدولة التى يحمل جنسيتها، لكن عند تصنيف البحوث التى قدمت للمؤتمر ، تم تصنيفها حسب موضوعاتها واهتماماتها دون أدنى اعتبار لقومية العلماء. وهذا ما كان متوقعًا بطبيعة الحال، حتى إننا ما كدنا نجد موضوعًا معينًا أو اهتمامًا معينًا انفرد به فقط علماء دولة واحدة ، أو حتى كتلة واحدة . فكنا نجد، على اتساع الاهتمامات وتعدد الموضوعات التى شملها النشاط العالمى للمؤتمر، علماء من دول تمثل الكتلة الشرقية، ومن دول تمثل الكتلة الغربية ومن دول تمثل العالم الثالث، جنبًا إلى جنب يلقون بحوثًا ويتناقشون حول موضوعات تشد اهتمامهم جميعًا ، ويتطلعون إلى تعميق فهمهم لها ومعرفتهم بها والاستزادة من الجديد عنها فى العلم. لقد استطاعت «دولية علم النفس»، أن تتخطى «قومية العلماء» ؛ فإذا هم يتكلمون لغة مشتركة هى لغة علم النفس ويهتمون اهتمامًا مشتركًا هو معرفة المزيد عن الظواهر النفسية. ويكونون جماعة دولية واحدة هى جماعة مؤتمر علم النفس .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك وحدة منهج البحث فى علم النفس بين دول العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه ، متخطية بذلك الخلافات الأيديولوچية والقومية ، أدركنا مدى اتصاف علم النفس بالدولية والعالمية ، مما يدل على مستوى عالٍ من النضج والاستقلال عن القوميات الضيقة قد وصل إليه -أخيراً- هذا العلم، فها هم العلماء السوڤييت ، شأنهم شأن العلماء الأمريكيين وغيرهم، يستخدمون الملاحظة والتجريب والضبط المنهجى والقياس النفسى والتحليل الإحصائى بكيفيات متشابهة فى دراسة ظواهر نفسية وموضوعات مشتركة ، بحيث يصلون إلى نتائج يقبلونها ويعرضونها دون حساسيات قومية أو أيديولوچية تقاوم العلم، وتبعده عن موضوعيته .

خاتمة :

عرضنا فى هذا المقال، وناقشنا بعض الأفكار والقضايا الخاصة بعلم النفس، والتى نرى ضرورة تصحيحها وتعديلها ، خاصة وأن بعض المناقشات والكتابات لازالت تتخذ منها نفس الموقف القديم الذى تجاوزه أصحابه أنفسهم ، كما اتضح لنا من أعمال المؤتمر الدولى الثانى والعشرين لعلم النفس بليبزج، والإسهامات التى قدمت فيه . وركزنا -بصفة خاصة- على

الموقف من فونت ومعمله، والموقف من القياس النفسى، وعلاقة العلم بالأيديولوجية ، ودولية علم النفس وقومية علمائه . ولقد عرضنا نماذج لبحوث قدمت للمؤتمر تقيم الدليل على ما نقول، وتثبت أن علم النفس وصل من النضج إلى مرحلة جعلته يتجاوز القوميات الضيقة إلى عالمية رحبة، تحقق له موضوعيته المنشودة وكيانه المستقل ، مع حريته فى خدمة قضايا قومية وأخرى دولي، دونما هدف غير خدمة الحقيقة، وتحرى الموضوعية ، وتحقيق الرفاهية للبشرية .

* * *

المراجع :

١- ستورر، نورمان . دولية العلم وقومية العلماء ، ترجمة محمد عبد الفتاح القصاص، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، العدد الثانى، السنة الأولى، يناير ١٩٧١ .

٢- Aseyev, V. G; On Socio- Psychological Factors Stimulating Individuals, Labour Activity , In : XXIInd International Congress of Psychology, Leipzig , C D R, July 6-12 , 1980, Abstract Giude, 557 .

٣- Frost, B. Theory , Method and Wilhelm Wundt, The Previous Reference, P. 3 .

٤- Hovsep, T. W. Wundt in World Psychological Historio- Graphy, The Previous Reference, P. 12 .

٥- Marek , J. Autism as a Syntono - Autistic Proportion and as a Defence Mechanism of Personality, The Previous Reference, P. 539 .

٦- Pung E. About Defence Mechanisms under Mental Overload , The Previous Reference P. 581 .

٧- Schmidt , I. On The Constructive Way of Living on the Basis of Conflict Research , The Previous Reference , P. 541 .

٨- Shun , P. and Li C. Wilhelm Wundt and The Chinese Psychology , The Previous Reference, P. 9.

٩- Stancak, A. and Others; Suicidal Types According to the method MMPI , The Previous Reference , P. 541 .

١٠- Taytsarov, S. and Moiroyan , A. Modification of Self- Concept in Alcoholic Patients during Group Psychotherapy, The Previous Reference, p. 50 .

١١- Luria , A . L'enseignement de la Psychologie a L'Université de Moscou, Bulleten de Psychologic, No 294 , Tome XXV . UNESCO ; Paris, 1971 - 1972 - 1 .

قضايا المصطلح النفسى فى الوطن العربى*

تمهيد فى مدخل :

إن تحديد مصطلحات أى علم ، والاتفاق حول ما تعنيه ، أمران بالغا الأهمية للعلم ، حيث يتيحان فرصة اللغة المشتركة التى يتفاهم بها المختصون ، وتحديد المعانى فيما يقولون أو يكتبون . كما أنهما (تحديد المصطلح والاتفاق حول ما يعنيه) ، علاوة على ذلك، يتيحان نقل العلم من جيل إلى جيل ، وإشاعة مبادئه بين غير ذوى الاختصاص، بما يسمح من تعميم لفوائده ، ونشر لاتجاهاته ، وانتفاع للعامة والخاصة بثماره .

ولهذا ، كان الاهتمام -منذ القديم- بالمعاجم والموسوعات اللغوية والعلمية التى تحدد الكلمات اللغوية والمصطلحات العلمية، وتشرح ما تعنيه كل منها . ولهذا -أيضًا- بدأت تنشط فى الوطن العربى أخيراً حركة تأليف المعاجم والموسوعات مع رجائنا لها الاستمرار والنمو حتى نلحق بمن سبقونا فى اللغات الأجنبية .

وأخصص حديثى فى هذا البحث للقضايا والمشكلات البارزة ، والتى تواجهنا فى الوطن العربى ، عندما نقوم بتأليف ونشر موسوعات ، أو معاجم المصطلحات النفسية ، والتى نرى من أهمها :

١- الترجمة والتعريب :

لابد لنا من الاعتراف بأن المصطلحات نشأت فى مجملها وتبلورت فى بيئات ولغات غير عربية (كالألمانية ، والفرنسية ، والإنجليزية ، والأمريكية) مما اقتضى من علماء النفس فى الوطن العربى أن يقوموا بنقلها من بيئاتها ولغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، حتى يستفيدوا

---

* بحث مقدم فى المؤتمر الثانى للثقافة النفسية تحت شعار «مدخل إلى علم نفس عربى» الذى نظمه مركز البحوث النفسية فى طرابلس ، لبنان ، ٧-٩ أكتوبر ١٩٩٤ . ونشر فى «مجلة الثقافة النفسية» التى يصدرها المركز : مجلد : ٦ ، عدد : ٢١ ، يناير ١٩٩٥ ، ٢٠-٢٨ .

من علم النفس وتطوراته خارج البيئة العربية . ولقد أمكنهم -مع شيء من الجهد والتأصيل- أن ينجحوا فى ترجمة معظم مصطلحات العلم ترجمة عربية سليمة تؤدى المعنى بدقة كبيرة. ولاشك، أن الترجمة العربية للمصطلح النفسى الأجنبى هى ما نفضله جميعًا فى وطننا العربى، حفاظًا وتنمية وتدعيمًا للغتنا العربية ، باعتبارها أحد المقومات الأساسية لقوميتنا العربية . ولاشك -أيضًا- أن عبقرية لغتنا العربية وثراءها ومرونتها قد مكنتنا من نجاحنا فى هذه الترجمة ، إلا أننا وقفنا أمام قلة من المصطلحات النفسية الأجنبية ، دون النجاح فى ترجمتها ترجمة مقبولة عربيًا ، وهنا يسعفنا التعريب (أى كتابة المنطوق الأجنبى بحروف عربية، وتشكيله وتصريفه حسب موقعه فى الجملة ، وكأنه لفظ عربى أصيل) . وذلك مثل تعريبنا لمصطلح "Libido" بـ «ليبيدو» ولمصطلح "Hysteria" بـ «هيستريا» ولمصطلح "Clinical" بـ«إكلينيكى» . ولاشك ، أن اللغة العربية تقبل الإضافة والجديد شأن أى كائن حى يتأثر بما حوله من ظروف ومستجدات ، ولنا- نحن العرب خاصة- أسوة مثلى فى استخدام القرآن الكريم- كتاب العربية المقدس- لألفاظ كثيرة معرَّبة مثل «سندس» و«استبرق» الواردتين فى الآية الكريمة : « **أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابًا خضراً من سندس واستبرق** » **متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** » (سورة الكهف : آية رقم : ٣١) . ولفظا «سندس» و«استبرق» معرَّبان عن الفارسية ، فـ «سندس» تعنى رقيق الديباج أو الحرير، و«استبرق» تعنى غليظ الديباج . وفى العصور السابقة ، سبقنا كبار العلماء العرب والمسلمين إلى الأخذ بالتعريب على نحو الكلمة العربية «ملنخوليا» أو «مالينخوليا»، فهى تعريب للكلمة اليونانية الأصل"Melancholy" والتى نترجمها بالعربية حديثا بـ «الاكتئاب»، بينما ظلت فى الإنجليزية على أصلها اليونانى.

لكن علينا أن نسلم بأن اللفظ إذا ما عرب وتداول فى العربية أصبح عربيًا، ولم يعد غريبًا على اللغة العربية ، بل ينطبق عليه هذا مقولة : «الألفاظ أعجمية بحسب الأصل، ولكنها لما عربت صارت من اللسان العربى، فهى أعجمية أصلاً ، عربية حالاً » (١ : ٢٤) .

بل إن هناك كثيراً من اللغويين العرب يناصرون التعريب فى كثير من الحالات ؛ حيث إنه يمنح اللفظ مفهومية أكثر انتشاراً بين كثير من البيئات واللغات المختلفة . فألفاظ مثل : «تليفون» و«راديو» و«تليفزيون» و«تاكسى» إذا ما نطقها الفرد فى بلاد كثيرة مختلفة اللغات فُهم مقصودها ، وحققت التواصل المطلوب بين ناطقها ومستمعها، مما يزيد من قدرة-

اللغة على أداء وظيفتها فى التعبير والإفهام . ونلاحظ أن اللغات الأخرى ترتضى هذا المبدأ ، فعلى سبيل المثال «فرنست» اللغة الفرنسية مصطلح "Acting Out" (بمعنى تفعيل) بنفس نطقه وهجائه ومعناه فى أصله الإنجليزى .

٢- اختلاف مفهوم المصطلح بين المتخصصين والعامة :

يلاحظ أن المصطلحات النفسية من أكثر مصطلحات العلوم تداولاً بين غير المتخصصين ، والذين نطلق عليهم العامة ، حيث يصبح كل منا فى عداد العامة عندما يخرج عن تخصصه العلمى. فالمصطلحات النفسية -بطبيعتها- مرتبطة بهمومنا ومشكلاتنا ومناحى أنشطتنا اليومية والمعيشية ، وهكذا يشيع بين غير المتخصصين فى علم النفس «كالقانونيين والأدباء والفنانين والصحفيين وعامة المثقفين ... إلخ» كثير من المصطلحات النفسية ؛ مثل «الهيستريا » و«المنخوليا » والشيزوفرينيا » .. إلا أنها كثيراً ما تستخدم للدلالة على غير مفهومها العلمى. وفى مثل هذه الحالات، تختلط المعانى ويغمض المقصود ويضطرب التفاهم بين المتخصص وغير المتخصص . وهذا أمر يقلق المتخصصين الذين يهمهم أن يفهمهم الآخرون، حتى يمكنهم أن يفيدوا المجتمع بعلمهم ، وأن يكتسبوا ثقته وحماسه وتدعيمه وتشجيعه لأداء رسالتهم . ومن هنا ، فإن علماء النفس- لاينبغى أن يألوا جهدا- شأن العلماء الآخرين- فى شرح المقصود بمصطلحاتهم وإشاعة الفهم الصائب لمدلولاتها بين غير المتخصصين .

٣- اختلاف ترجمة المصطلح بين المتخصصين أنفسهم :

إذا كنا ننظر إلى الاختلاف بين مفوم المتخصصين عن المصطلح المعين وبين مفهوم العامة على أنه قضية هامة ، فإن اختلاف ترجمة المصطلح بين المتخصصين أنفسهم قضية أهم . ذلك أننا إذا كنا نهتم بتوحيد مفهوم المصطلحات بين العامة وذوى الاختصاص ؛ فالأولى أن نهتم بتوحيد مادة المصطلح نفسه بين أنفسهم ، حتى يسهل فهمهم بعضهم لبعض، وتكبر استفادتهم بعضهم من بعض ، وتتواصل بحوثهم ، وينمو علمهم، فتعم فائدته وتطبيقاته على المجتمع . وبدون هذا ، يفقد العلم كثيراً من أهميته للمجتمع ، فتقل تبعًا لذلك قيمته، ويتضائل الحماس له.

ففى حين نجد مصطلحًا نفسيًا واحداً دون أن تتغير حروف كتابته فى اللغة الإنجليزية: مثل مصطلح Identification ، نجد علماء النفس العرب يستخدمون ألفاظًا عربية مختلفة للدلالة عليه؛ مثل : « توحد » و« تقمص » و« تعيين ذاتى » و« تماهى » ويختلفون فيما بينهم فى تفضيل

ترجمة له على غيرها . بل ربما خرج علينا فى المستقبل بعض منهم بتراجم أخرى يرون أنها أفضل من هذه . ولايشترط بالضرورة أن يعرف كل متخصص كل هذه الألفاظ باعتبارها ترجمة للمصطلح الإنجليزى . وهكذا، قد يغمض عليه فهم ما يقرأ أو يسمع من زميله فى التخصص، إذا كان يستخدم ترجمة للمصطلح لايعرفها .

ولعل قضية اختلاف ترجمات المصطلح الأجنبى الواحد فى اللغة العربية راجعة إلى نظرة البعض إلى ترجمة معينة على أنها أكثر صحة . وإذا كانت هناك قاعدة تقول «الخطأ الشائع أفضل من الصواب المهجور»، فإن الأولى بنا أن نفضل الاتفاق على استخدام الترجمة الأكثر شيوعًا ، طالما كانت مقبولة لغويًا ، ونترك الأصح لغويًا لعدم شيوعها ، وذلك حتى يفهم بعضنا بعضًا فتتحقق الوظيفة الاجتماعية للغة باعتبارها وسيلة للتعبير ونقل الأفكار وإفهام الآخرين المقصود أو فهم الآخرين . وبهذا، نبعد عن علمنا ما يشوبه من بلبلة المصطلحات التى تؤدى إلى بلبلة التعبير واضطراب الفهم المتبادل .

ولنا فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية مثل واضح وأسوة فى اعتماد الخطأ الشائع والتمسك به فى مثل مصطلح "Hysteria" حيث اعتمدته اللغة الإنجليزية والفرنسية "Hystérie" عن اليونانية ، للدلالة على المرض النفسى المعروف فى العربية بالهيستريا . فلقد اشتق هذا المصطلح من الأصل اليونانى Hystera (بمعنى رحم) ، وذلك لأن الهستريا كانت فى بداية اكتشافها يظن أنها مرض أنثوى، ينشأ عن إصابة فى الرحم . ومع أنه قد ثبت خطأ ذلك، وأنه مرض ينتشر -أيضًا- بين الذكور ، إلا أن اللغتين الإنجليزية والفرنسية أبقتا على المصطلح حتى يومنا هذا، منعًا للبلبلة ، وتواصلاً لمفهوم المصطلح والكتابات عنه .

٤- دقة المعلومة وصواب المادة مضمونًا وشكلاً :

إذا كانت دقة المعلومة أو المادة العلمية وصوابها، من حيث مضمونها وطباعتها، أمرين لازمين للكتب العلمية بصفة عامة ، فهما من ألزم ما يكون للمعاجم والموسوعات التى تتناول المصطلحات العلمية خاصة . وذلك بسبب كثرة الرجوع إليها من جانب ، وللاحتكام إليها عند الشك فى طريقة كتابة مصطلح، أو استجلاء معناه من جانب آخر ، ولذا وجب التزام الدقة فى صواب المعنى ، وشرح المفاهيم ، وهجاء المصطلح إلى أقصى ما نستطيع من ذلك .

ومما يؤسف له أن هذه الدقة المطلوبة تنقصنا هذه الأيام فى مطبوعاتنا بالعربية إلى حد

كبير، فقلما نقرأ صفحة مطبوعة باللغة العربية دون وجود أخطاء طباعية ، أو ربما علمية أيضًا. ومن الطبيعى أن نجد فى العمل البشرى أخطاء ، ولذا فإننا لانطلب اختفاء الأخطاء ، بل كل أملنا هو أن تقل إلى أقل حد ممكن . وللحق نقول : إن الكتب والمعاجم والموسوعات العلمية الأجنبية يوجد فيها نفس هذا المأخذ ، وإن كانت بتكرار أقل كثيراً عما هو موجود فى العربية . وإذا كان هذا أمراً مسلمًا به فيما تخرجه مطابعنا العربية ، بحيث لا أحتاج معه إلى بيان دليل ، فإنى أحتاج إلى دليل بالنسبة لما تخرجه المطابع الأجنبية . ولذا، فإنى أعطى مثلاً عليه بعض ما وقعت عليه عيناى -بالصدفة- وأنا أقلب بعض صفحات هذه المعاجم والموسوعات، فيما يلى :

(أ) أشرف كورزينى A. Corsini على تأليف موسوعة علم النفس Encyclopedia of Psychology وهى تعد من أهم وأشمل وأدق موسوعات علم النفس ، وقد صدرت طبعتها الأولى فى أربعة مجلدات عن دار نشر John Wiley & Sons Inc عام ١٩٨٤ . وفى الصفحة رقم ٢٤١ من مجلدها الثانى ، وعند حديثها عن المؤتمر الدولى لعلم النفس : The International Congress of Psychology تذكر أنه يعقد الآن كل ثلاث سنوات "three years" كاتبة إياها بالحروف (وليس بمجرد الرقم) وهذا خطأ فى دقة المعلومة ذاتها ، حيث أنه يعقد كل أربع سنوات . كما نجد بنفس الصفحة خطأ آخر- أغلب الظن أنه خطأ فى الطباعة- حيث تذكر الموسوعة أن الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى The International Association of Applied Psychology قد أنشئت عام ١٩٧٠، وهذا خطأ ؛ حيث إنها أنشئت عام ١٩٢٠، وربما ساعد على الوقوع فى هذا الخطأ أن رقم "7" يقترب فى شكل كتابته من رقم "2" بالإنجليزية .

(ب) ألف برونو F. Bruno معجمًا للمصطلحات الأساسية فى علم النفس أسماه "Dictionary Key Words in Psychology" ، نشره فى جزء واحد صغير عام ١٩٨٦ عن دار نشر Routledge & Kegan Paul ، وهو يعد فى بابه من أهم وأدق المعاجم ، وفى صفحة ١١٩ عندما يترجم ليونج C. Jung ، باعتباره أحد أعلام التحليل النفسى، يشير إلى أنه انشق عن فرويد مكونًا مدرسة خاصة به هى مدرسة «علم النفس الفردى» "Individual Psychology" . وهذا خطأ علمى ؛ حيث إن مدرسة «علم النفس الفردى» قد أسسها محلل نفسى آخر هو أدلر A. Adler انشق -أيضًا- على فرويد . أما المدرسة التى أسسها يونج بعد

انشقاقه على فرويد فتسمى مدرسة علم النفس التحليلى Analytic (al) Psychology .
ومن الطريف- بل ومن الأمانة- أن نذكر هنا أن برونو عند حديثه عن أدلر فى صفحة ٤ من معجمه يشير إلى أنه انشق على فرويد مكونًا مدرسته العلاجية الخاصة به، والمسماة «علم النفس الفردى Individual Psychology" الأمر الذى يؤكد أن هذه المعلومة لاتخفى على برونو، وإن كنا نحتار فى فهم كيفية وقوع الخطأ فى صفحة ١١٩ ، على نحو ما ذكرنا .

وفى الصفحة التالية مباشرة (أى فى ص١٢٠) يقع برونو فى خطأ آخر ، أغلب الظن أنه خطأ مطبعى، حيث يشير إلى تاريخ وفاة كوهلو Kohler على أنه « ١٩٥٧ » بينما صحته «١٩٦٧» وربما سهل الانزلاق إلى هذا الخطأ التشابه الكبير بين شكل رقم "5" ورقم "6" فى الكتابة الإنجليزية .

(جـ) أشرف جولدنسون R. Goldenson على تأليف معجم لونجمان لعلم النفس والطب النفسى Longman Dictionary of Psychology and Psychiatry فى جزء واحد كبير . وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٤ عن دار نشر Longman Inc ويعتبر هذا -أيضًا- واحداً من أهم وأشمل وأدق ما نشر فى مجاله، وفى ص٢٤٧ يورد مصطلح Efficient Cause بعد مصطلح Effort Syndrome والأصح أن يعكس الترتيب . ومع أن هذا الخطأ بسيط للغاية ، إلا أنى فضلت إيراده هنا ؛ لأنه مثل على ما يحدث من أخطاء ترتيب إيراد المصطلحات ، وهو أمر نوليه عناية كبيرة فى المعاجم والموسوعات ، على الرغم من كونه أمراً شكليًا تمامًا .

علمًا أنى لم استهدف من إيراد النماذج السابقة إلا تأكيد أن العمل الإنسانى عرضة للأخطاء . وأن الخطأ ، سواء أكان فى صواب المعلومة أم فى دقة الطباعة ، وسواء أكان فى المضمون أم فى الشكل، وارد فى المطبوعات الأجنبية بمثل ما هو متواتر فى المطبوعات العربية، وإن اختلفت النسبة ؛ نظراً لاختلاف الدقة والإتقان كقيمة فى مجتمع عن آخر، ومن بيئة لأخرى . وذلك بغض النظر عن الأسباب والمبررات وراء الوقوع فى مثل هذه الأخطاء .

٥- سلامة اللغة وسلاستها ووضوحها :

الموسوعات والمعاجم العلمية تكتب للقارئ ، أو الباحث غير المتخصص (لكى يعرف ما يقصد بمصطلح معين فى علم معين، أو يدقق ويوسع معرفته حول المصطلح) ، بمثل ما تكتب للمتخصص، تحقيقًا لنفس الأهداف (حيث إن انفجار المعرفة فى كل علم لم يعد يمكن المتخصص

من معرفة كافة مصطلحات علمه، أو يلاحق كل ما يستجد منها . هذا إلى جانب أن التخصص فى -حد ذاته- مستويات متصاعدة. ولتيسير الاستفادة لغير المتخصص، وجب على من يؤلفون الموسوعات والمعاجم العلمية أن يلتزموا -ما استطاعوا- الأسلوب السلس ، سهل الفهم ، واضح المقصود ، صحيح اللغة ، حتى يعينوا المثقف العام (أو القارئ غير المتخصص) على فهم مقصودهم بالمصطلح فهمًا دقيقًا ، مع ضرورة التزامهم فى نفس الوقت بالمادة العلمية الرصينة والدقيقة . وبذلك ، يحقق هؤلاء المؤلفون أهدافهم بالنسبة لغير المتخصصين من عامة المثقفين ، علاوة على تحقيقهم لهدفهم من إفادة المتخصصين الذين ينشدون المزيد من المصطلحات أو عنها .

٦- ترجمة الأعلام :

يعتبر تاريخ أى علم ، وأيضًا تاريخ كل عالم أسهم فى تأصيله وتطويره إسهامًا قيمًا ، مدخلاً أساسيًا لفهم العلم وتأصيل نظرياته ومكتشفاته . ومن هنا ، تمثل الإحاطه بسير وإسهامات كبار العلماء مادة هامة للمثقف العام، فما بالنا بالنسبة للمتخصص الذى تقترن كينونته بعلم ما ، وتتركز هويته فى تخصص بعينه .

هذا، ويلاحظ أن المؤلفات الخاصة بمصطلحات علم ما تعطى أحد عنوانين : إما عنوان موسوعة (أو دائرة معارف) Encyclopedia أو عنوان معجم (أو قاموس) Dictionary . وقد لايفرق البعض فى استخدام كل منهما ، وإن كنا نفضل هذه التفرقة ونعتمدها عندما أصدرنا «معجم علم النفس والتحليل النفسى» عام ١٩٨٧ عن دار النهضة العربية ببيروت ، وعندما أصدرنا بعد ذلك بحوالى ستة أعوام «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى» عن دار سعاد الصباح بالقاهرة- الكويت عام ١٩٩٣ . فالحس اللغوى يؤيد هذه التفرقة ويميز بينهما ، حيث يشتق لفظ المعجم من «العُجْمة» التى تتضمن معنى الاختصار ، ونقص الإفصاح ، والإقلال فى الشرح، بعكس لفظ «الموسوعة» والذى يشتق من التوسعة، ويتضمن معنى الإفاضة والشمول . ففى تعريف الموسوعة العربية الميسرة لمصطلح الموسوعة : «يقصد بكلمة موسوعة أو دائرة معارف كل مؤلف بين دفتيه من الحقائق جميع ما يدخل فى دائرة العلم الإنسانى. وهى إما أن تكون معلومات عامة مختصرة فى جميع ميادين المعرفة ، أو تشتمل على فرع من فروع المعرفة . وتختلف عن القاموس (المعجم) من حيث أنها لاتقتصر على تقديم التعريف فقط ، بل تقدم تاريخًا للموضوع (قد يكون موجزا) وتوضيحًا لعلله، وتبيانًا

لعلاقاته بالموضوعات المشابهة » (٦ : ١٧٨٠) . ونجد تأييداً لنفس المعنى فى قاموس موسوعة كوليير Collier's Dictionary ، عندما يعرِّف الموسوعة "Encyclopedia" بأنها «عمل مرجعى موسع وشامل» Comprehensive فى جزء واحد أو أكثر، يقدم المعلومات فى كل فرع من فروع المعرفة ، أو فى ميدان متخصص ، عادة على هيئة مقالات مرتبة ترتيبًا أبجديًا » (٨ : ٣٣٦) .

ومن هنا ، فإن موسوعات علم النفس الأجنبية فى المقارنة بمعاجمه أكثر اهتمامًا بإيراد سير كبار علماء النفس وتاريخ حياتهم وإسهاماتهم وكتابة تراجم لهم، سواء أكانوا من القدامى أم من المحدثين ، أو كانوا من أهل الوطن الذى تصدر فيه الموسوعة أم أجانب عنه ، وإن كان التركيز -بطبيعة الحال- نجده على العلماء الوطنيين ، بحكم المعرفة الأكثر عنهم، إلى جانب التعصب القومى الذى يصعب على المؤلفين الإفلات التام منه .

ومن هنا -أيضًا- فقد عرضنا تراجم عشرات من العلماء العرب القدامى والمحدثين على هيئة سيرة حياتهم وإنجازاتهم ، وإسهاماتهم فى علم النفس، إلى جانب غيرهم من العلماء الأجانب فى موسوعتنا عن علم النفس والتحليل النفسى، فيما نظن أنه إنجاز غير مسبوق، مع تركيزنا عليهم أكثر من تركيزنا على العلماء الأجانب ، حتى نوفيهم بعض حقهم المفهوم فى الموسوعات النفسية الأجنبية ، وحتى نعوض نقص الكتابات عن سيرهم فى المقارنة بنظرائهم من الأجانب ، وحتى -أيضًا- نوثق مادة علمية عنهم لمن يريد أن يكتب عنهم من بعدنا ، أو يرجع إليها .

ولعل ما يجب الانتباه إليه والتمسك الشديد به فى مثل هذه الحالة ضرورة تبنى معايير موضوعية واضحة ومحددة، نختار على أساسها العلماء الذين ندخلهم فى الموسوعة، وأن نلتزم بالضمير الخلقى، والحياد الموضوعى ، والنزاهة العلمية الواجب توافرها هنا ، وألا ننساق وراء أوهام تبيعها لنا وسائلنا الإعلامية ، وجوائزنا التشجيعية والتقديرية ، عن متخصصين يجيدون الترويج لأنفسهم ، ويعرفون مداخل الدعايات المضللة ، ويجيدون وسائل الإيهام الكاذب، أكثر من إجادتهم للعلم فى حد ذاته ، وأكثر من التزامهم بالضمير الخلقى والمهنى، حتى ليصبح الواحد منهم عائقًا فى سبيل تقدم العلم، مقيداً لانطلاقه الاجتماعى .

ولعل مما يجدر ذكره هنا أن أهم المشكلات التى واجهتنا فى ذلك (أعنى إيراد التراجم فى موسوعتنا) كان عدم استجابة بعض علماء النفس العرب الأحياء ، المقيمين داخل العالم العربى أو خارجه، والذين أرسلنا إليهم، أو اتصلنا بهم، ليمدونا بمعلومات عن تاريخهم

وسيرهم الذاتية وإسهاماتهم ، فالمعلومات عنهم غير منشورة غالبًا ، حتى أصبح استيفاؤها منهم شيئًا بالغ الضرورة . مما جعل موسوعتنا تقصر عن شمول بعض أساتذتنا وزملائنا على الرغم منا .

٧- مستوى الإفاضة والاختصار :

إذا كان مؤلفو المعاجم يميلون للاختصار فى عدد المصطلحات وفى شرحها، فإن مؤلفى الموسوعات يميلون إلى الإفاضة فى ذلك ، على نحو ما سبق أن ألمحنا . إلا أن مستوى الإفاضة ومستوى الاختصار يحددهما -أيضًا- الهدف الذى يتغيَّاه من يصنف الموسوعة أو المعجم. ومن هنا، تتفاوت أحجام الموسوعات أو المعاجم المؤلفة فى ميدان معين ، بل وبلغة واحدة ، وربما كانت صادرة عن دار نشر واحدة ، تبعًا لاختلاف المؤلفين ، وتباين أهدافهم من التأليف . فها هى دار نشر بنجوين Penguin Books المشهورة بانجلترا تنشر تحت عنوان معجم Dictionary مؤلفين هما : A Dictionary of Psychology لدريفر J. Drever، وThe Penguin Dictionary of Psychology لريبر A. Reber ، حيث يفوق قاموس ريبر ثلاثة أضعاف حجم قاموس دريفر .

ولاشك أن إمكانيات النشر وتقنياته وفنياته، وإمكانيات التوزيع والتسويق ومتطلباته ، وحجم القوة الشرائية فى المجتمع، تتداخل كلها مع أهداف مؤلفى الموسوعات والمعاجم ، لتؤدى بنا -فى النهاية- إلى ظهور معجم أو موسوعة بحجم معين ، وشكل محدد .

وفى كل الأحوال، فإن على مؤلفى الموسوعات والمعاجم أن يراعو فى إيراد مصطلحاتهم وتراجم أعلامهم ومستوى الإفاضة فى كل ذلك الأهم فالمهم ، والأكثر استخدامًا وانتشاراً فالأقل ، والخاص بمجال التأليف فالمشترك مع مجالات أخرى... وهكذا، فيما أعتقد أنه الأجدر بالاتباع ، قدر الإمكان .

٨- مشكلة الفهرسة أو مسرد المصطلحات :

يعتبر فهرس الكتاب أو محتوياته Contents مفتاحه للوصول إلى ما نريد فيه من مادة أو موضوع ، ويقابله مسرد المصطلحات Glossary فى المعجم أو الموسوعة المنشورة بالعربية . أما المعجم أو الموسوعة المنشورة بلغة أجنبية فليست فى حاجة إلى مسرد ولا فهرس للوصول إلى ما نريده منها. ويرجع ذلك إلى أمرين أساسيين خاصين بالمعاجم والموسوعات العربية فى العلوم عامة ، وعلم النفس خاصة ، هما : -

(أ) أن أصل المصطلحات فى علم النفس أجنبى ومتفق عليه، فى حين أن ترجماتها إلى العربية غير متفق عليها، كما سبق أن ألمحنا .

(ب) أننا قد نقرأ فى علم النفس مصطلحًا بلغة أجنبية فنريد أن نعرف مقابله ومفهومه بالعربية .

فعلى سبيل المثال ، لو أنى كنت أقرأ فى مرجع نفسى بالإنجليزية وصادفتنى كلمة Frus-tration وأردت أن أعرف المقصود بها ، وكان أمامى موسوعة علم نفس عربية مرتبة حسب الأبجدية العربية ، فلن أستطيع الوصول إلى ذلك، على الرغم من وجود المقابلات الإنجليزية للمصطلحات العربية فى الموسوعة . وفى مثل هذه الحالة، فإننا نحتاج إلى مسرد يرتب المصطلحات العربية وفق ترتيب حروف مقابلاتها الإنجليزية . وعند ذلك، نستطيع أن نكشف فى هذا المسرد تحت حرف "F" حتى نجد كلمة "Frustration" فتقرأ مقابلها العربى الذى تعتمده الموسوعة ، فنعرف أنه «إحباط» على سبيل المثال. فنعود - عندئذن- للمتن إلى حرف الألف والحاء ... حتى نصل لمصطلح إحباط . أما إذا كان متن الموسوعة باللغة العربية ، لكنه مرتب حسب مقابل المصطلح بالحروف الإنجليزية ، وقرأت فى مرجع علم نفس مطبوع بالعربية لفظ «إحباط» وأردت أن أعرف المقصود العلمى به ، فلن أتمكن من ذلك إلا إذا كانت هذه الموسوعة تتضمن مسرداً لمصطلحاتها مرتبًا حسب الأبجدية العربية ، فأكشف فى المسرد تحت الألف والحاء ... حتى أجد مصطلح «إحباط» وأعرف الأصل الإنجليزى الذى اعتمدت الموسوعة مصطلح «الإحباط» مقابلاً له، فأعرف أنه "Frustration" عندئذ يمكننى تحديد مكان المصطلح فى متن الوسوعة بالكشف عنه تحت حرف "F" .. للتزود بما أريد .

ويختلف هذا الأمر تمامًا مع الشخص الذى يستخدم الموسوعة المنشورة بالإنجليزية . فإذا صادف كلمة "Frustration" فى مؤلف نفسى يقوم بقراءته، وأراد أن يعرف المقصود بالمصطلح فما عليه إلا أن يرجع فى متن الموسوعة تحت حرف "F" حتى يعثر على الكلمة ويقرأ ما تحتها من شرح ، وواضح هنا أنه لن يكون فى حاجة إلى أى مسرد ؛ حيث إن الموسوعات والمعاجم ترتب تلقائيًا تبعا للأبجدية المنشورة بها .

٩- إدخال مصطلحات عربية المنشأ ، حديثة الصك والاستخدام :

نحن نعترف أن المصطلحات النفسية أجنبية المنشأ ، متعددة الأصول فى لغات منشئها ، فهذا أصله ألمانى، وهذا فرنسى، وهذا إنجليزى... إلخ. ومن النادر جداً أن نعثر على مصطلح

نفسى حديث صكه علماء عرب. وإذا حدث ذلك، فمن النادر جداً أن يكتب له الانتشار ؛ نظراً لقلة قراء علم النفس العربى وإصداراته ، وندرة النقل عنهم عالميًا .

ومع هذا الاستدراك ، فإنى قد قمت بصك ثلاثة مصطلحات نفسية جديدة فى مناسبات مختلفة ، لأصف بها حالات نفسية لاحظتها ، أو عمليات نفسية اكتشفت أن الشخصية تلجأ إليها فى التعامل مع واقعها ، وهى :

(أ) تليف الضمير Conscience Cirrhosis

فلقد طرحت تليف الضمير «كمصطلح» يقابل المرض (أو العَرَض) الذى يصيب الكبد ، ويطلق عليه الأطباء، تليف الكبد. فهذا التليف الكبدى يدمر خلايا الكبد ويعطبها ، بحيث تضمر وتتحلل وتفقد قدرتها على أداء وظائفها الحيوية . وبالمثل ، فإنى أرى أن ضمير الإنسان عندما يفسد، فإنه يتدرن ويتحجر أو يتحلل ويصبح كالليفة المملوءة بالثقوب ، يمر منه كل سلوك تهوى نفس الفرد الخبيثة أن تأتيه وأن «تُمرِّرَ» فيتم ذلك دون رقيب من شخصية الفرد يقاومه ويمنعه ، ويرشده إلى ما ينبغى من مكارم وفضائل ، وما لا ينبغى من مفاسد ورذائل» (٥ :١٨٢) .

(ب) البطر النفسى Psychological Arrogance

«كلمة بطر معروفة فى العربية، بل إنها أكثر شيوعًا واستخدامًا فى العامية ، ونقصد بها- كمصطلح نطرحه هنا- تلك الحالة التى يسلك فيها صاحبها سلوكًا يشير إلى مزيج من الغطرسة والتعالى والتمرد ، دون مراعاة لحرمة النعمة التى أنعم الله بها عليه ، ولاتقدير لها ، ولامحاولة لصيانتها «ولقد أشار القرآن الكريم ذامًا للبطر ، ومحذراً منه لسوء عاقبته . فقد قال الله عز وجل فى سورة الأنفال : الآية رقم ٤٧ **(ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئآء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)** . كما قال فى سورة القصص : الآية رقم ٥٨ **(وكم أهلكنا من قرية بَطِرَتْ معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين)** .

«وهكذا ، يبدو البطر ظاهرة غاية فى السوء والسلبية ، ووصمة تحط من قدر الشخصية، وتمثل خطورة شديدة عليها ... فكثيراً ما تجد هذا يقود سيارته الفخمة الثمينة بسرعة جنونية فى شوارع المدينة ، بحيث تحدث هلعًا للمارة والسائقين على السواء ، وقد يودى هذا بحياة

البعض أو يؤذيه ، كما أنك قد تجد هذه المجموعة (خاصة من الشباب) يتسابقون فى حركاتهم البهلوانية بسياراتهم ، لايهمهم ما يصيب سياراتهم من ضرر بسبب هذا ، أو ما قد يصيبهم أنفسهم، مما يجسد بحق ظاهرة «البطر النفسى» ...

«ولعل من أخطر مظاهر «البطر النفسى» أيضًا أنه يؤدى بصاحبه إلى الاستهتار بالنعمة والاطمئنان إلى بقائها، مما يدفعه إلى التكاسل فى سعيه للعمل، أو كده للتحصيل مع الإنفاق بتبذير شديد، مما يتنافى جميعه مع السلوك الاجتماعى البناء والقويم» (٣ : ٣٨٤-٣٨٥) .

(جـ) التصوير السمعى Auditization

قمت بصك هذا المصطلح وعرضه فى المؤتمر الدولى الثالث والعشرين لعلم النفس، والذى عقد بأكابولكو فى المكسيك عام ١٩٨٤، حيث كان مدار البحث الذى ألقيته فيه (١١).

ولكى يسهل فهم المقصود بهذا المصطلح، نرجع لمصطلح يقابله فى الإبصار ، وهو مصطلح التصوير البصرى Visualization ، والذى نعرفه على أنه تكوين صور بصرية فى الذهن عن شىء معين ، أو ترجمة فكرة مجردة معينة إلى صور بصرية تعبر عنها ، على نحو ما يفعل رسام الكاريكاتير الذى يرسم رسمًا تراه العين ، ليعبر عن فكرة معينة يراها العقل. أو مثل الرسام الذى يكلف بعمل رسوم لرواية أدبية أو قصة معينة يعبر بها عن أفكارها الهامة . ونلتقى بهذه العملية كثيراً فى أحلام المبصرين عند إخراجهم أحلامهم الكامنة إلى أحلام ظاهرة.

وعندما كنت فى أوائل السبعينيات أقوم بدراسة ميدانية عن أحلام المكفوفين (٤: ١-٢٨) كفًا كاملاً مبكراً جداً (منذ الميلاد أو الستة أشهر الأولى منه) فوجئت بظاهرة فى إخراج الحلم عندهم ، حيث يترجمون الفكرة الذهنية المجردة إلى صوت عيانى يسمعه المكفوف أثناء حلمه (حيث إنه لايعرف الصور البصرية، وليست له بها أية خبرة يتذكرها) من ذلك أن أحد هؤلاء المكفوفين روى لى حلمًا ظهرت له فيه ضحكات وقهقهات عالية الصوت ، عرفها الحالم بأنها الشيطان . ولما سألته «إيش عرفك إن ده الشيطان؟» أجاب «مافيش حاجة ممكن تضحك على الإنسان إلا الشيطان». وهكذا، فإن عملية إخراج الحلم الكامن لدى المكفوفين قد ترجمت وسوسة الشيطان وغوايته للإنسان حتى يرتكب المعصية إلى صوت ضحك عالٍ يظهر فى الحلم الظاهر . ولاشك، أن ما أوحى بهذه الترجمة وساندها هو التعبير الشائع فى الشرق العربى، والذى يقول «الشيطان ضحك عليه» عند الحديث عن غواية الشيطان، وإيقاعه للإنسان فى ارتكاب المحرمات والمعاصى. وهكذا، يبدو لنا أن المكفوف مبكراً يلجأ إلى حاسة السمع

ليصور بها أفكاراً مجردة ، وهو يقوم بإخراج حلمه الكامن إلى حلم ظاهر . مما جعلنى أصك مصطلح «التصوير السمعى» لأعبر عن هذه الظاهرة .

١٠- قضية نشر المعاجم والموسوعات :

تمثل قضية نشر الكتب فى العالم العربى مشكلة عامة ، معروفة الجوانب ومثارة على كافة الأصعدة ، ولعل أهم جوانب هذه المشكلة ما يتعرض له المؤلفون من جانب بعض أصحاب دور النشر ، التى تحاول هدر حقوقهم أو الالتفاف حولها ، لتجنب الوفاء بها ، أو للإجحاف بهم ... فمشكلة تزوير الكتب والتهرب من دفع حقوق المؤلفين مشكلتان منتشرتان كثيراً فى العالم العربى، لايكاد يستثنى من ممارستهما سوى قلة من دور النشر التى تحافظ على سمعتها وسمعة أصحابها . وإن الإنسان ليتعجب من هذا الناشر الذى يكسب الملايين من جهد المؤلفين، ومع ذلك نجده يضيق ذرعًا بدفع حقوقهم من «ملاليم» .

وعلى الرغم من أن الموسوعات والمعاجم تعتبر من أوسع أنواع الكتب انتشاراً ورواجًا ، ولايقبل على التأليف فيها من ذوى المكانة العلمية الرفيعة إلا القلة النادرة ؛ نظراً لضخامة ما تحتاجه من جهد يبذل فيها ، ومن طول وقت ينفق فى تأليفها ومراجعتها ، نقول على الرغم من كل هذا ، فإن كثيراً من الناشرين العرب يتحايلون على حقوق مؤلفيها فيأكلونها بالباطل ، مما يعوق حركة التأليف الجاد فيها داخل عالمنا العربى، الذى يفتقر إلى الكثير منها .

وأخيراً :

فإنى أرجو أن أكون فى هذا البحث قد أوضحت أهم قضايا المصطلح النفسى فى الوطن العربى ، وعرضت أهم مشكلاته وهمومه ، وشخصت أخطر أدوائه ، بما يفيد المهتمين بتطويره وتحسين حاله، ونشره ، فى وطننا العربى العزيز .

المراجع :

١- الخفاجى المصرى، شهاب الدين أحمد : شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، تصحيح وتعليق ومراجعة محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة القاهرة ، القاهرة، ١٩٥٢ .

٢- فرج عبد القادر طه (إشراف) : موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، دار سعاد الصباح ، القاهرة - الكويت ، ١٩٩٣ .

٣- فرج عبد القادر طه : حول العوامل النفسية لاتجاهات الشارع العربى والإسلامى نحو تحرير الكويت، فى كتابه المجمع : علم النفس وقضايا العصر، دار المعارف، الطبعة السادسة ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ٣٢٧-٣٨٩ .

٤- فرج عبد القادر طه : دراسة مقارنة بين إدراك المحتوى الظاهر للأحلام لدى المبصرين والمكفوفين ، المجلة الاجتماعية القومية ، م : ٩ ، ع : ٣ ، ١٩٧٢ ، ١-٢٨ (وقد أعيد نشر هذه الدراسة فى الكتاب المجمع السابق) .

٥- فرج عبد القادر طه : تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات ، مجلة دراسات نفسية،م: ٤ ، ع : ٢ ، ١٩٩٤ ، ١٧١-١٨٨ .

٦- محمد شفيق غربال (إشراف) : الموسوعة العربية الميسرة ، دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٧- Bruno, F . Dictionary of Key Words in Psychology, Routledge & Kegan Paul, London and New York, 1986 .

٨- Collier's Dictionary, MacMillan Educational Corporation , New York 1977

٩- Corsini, R. (editor). Encyclopedia of Psychology (vol . 2) , John Wiley & Sons, Inc,m New York , 1984 .

١٠- Goldenson , R. (editor) . Longman Dictionary of Psychology and Psychiatry , New York and London 1984 .

١١- Thah, F . "Auditization" in Dream- work of the Early Blind Persons , Paper Read in the XXIII International Congress of Psychology, Acapulco, Mexico, September, 1984 .

حول المصطلحات النفسية حديثة الصك ، عربية المنشأ *

تمهيد فى مدخل :

فى كتابه «نحو سيكلوچيا عربية» يذكرنا محمد النابلسى بأن «المصطلحات العلمية ليست مجرد كلمات تضاف إلى اللغة أو تشتق منها ، بل هى الدماء التى تغذى النظام الرمزى الأساسى للأمة، والمتمثل فى اللغة. كما أن مصطلحات كل علم من العلوم هى- بحد ذاتها- عماد هذا العلم ، الذى يشكل - بدوره- نظامًا رمزيًا جديداً ، أو مطوراً للإرهاصات الأولى لهذا العلم . على أن هذا الأمر يختلف باختلاف طبيعة العلوم ؛ فنقل العلوم البحتة ، وكذلك العلوم القابلة للتعميم ، يتم بالترجمة ، وذلك على خلاف العلوم غير القابلة للتعميم ، وخصوصًا العلوم الإنسانية ». (محمد أحمد النابلسى : ١٩٩٥) .

وإضافة إلى هذا ، فنحن لانشك فى «أن تحديد مصطلحات أى علم ، والاتفاق حول ما تعنيه أمران بالغا الأهمية للعلم ؛ حيث يتيحان فرصة اللغة المشتركة، التى يتفاهم بها المختصون ، وتحديد المعانى فيما يقولون أو يكتبون . علاوة على ذلك ، فإنهما (تحديد المصطلح والاتفاق حول ما يعنيه) يتيجان نقل العلم من جيل إلى جيل . وإشاعة مبادئه بين غير ذوى الاختصاص، بما يسمح من تعميم لفوائده ، ونشر لاتجاهاته . وانتفاع للعامة والخاصة بثماره . ولهذا ، كان الاهتمام منذ القديم بالقواميس ،والمعاجم ، والموسوعات اللغوية والمصطلحات العلمية، التى تحدد الكلمات اللغوية ، والمصطلحات العلمية ، وتشرح ما تعنيه كل منها ، ولهذا - أيضًا- بدأت تنشط فى الوطن العربى- أخيراً- حركة تأليف المعاجم والموسوعات . مع رجائنا لها الاستمرار والنمو ، حتى نلحق بمن سبقونا فى اللغات الأجنبية » (فرج عبد القادر طه : ١٩٩٤) .

ومنذ بضعة عشر عامًا ، انشغلت انشغالاً زائداً بميدان المصطلحات النفسية، سواء فى الإشراف على إصدار «معجم علم النفس والتحليل النفسى» . الصادر عام ١٩٨٧ (٢). أو فى

* نشر هذا المقال فى «مجلة دراسات نفسية» التى تصدرها رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية، فى المجلد : ٦ ، عدد :٤ أكتوبر سنة١٩٩٦ ، ٤٣٧-٤٤٢ .

الإشراف على إصدار «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى». الصادرة عام (١٩٩٣) (فرج عبد القادر طه :١٩٩٣) أو فى مشاركتى تأليف «المعجم العربى للعلوم الاجتماعية» ، الذى أصدرته منظمة الأمم المتحدة «اليونسكو» ، والمنشور- فى طبعته الأولية- عام ١٩٩٤ (فرويد، سيجمون) أو فى عضويتى للجنة علم النفس بمجمع اللغة العربية، منذ عام ١٩٨٦ . وقد أدى كل هذا بى إلى مزيد من الإحساس بغياب المصطلح النفسى، عربى المنشأ ، فى الكتابات العلمية الحديثة ، وباعتمادنا- شبه الكامل- على المصطلحات النفسية الأجنبية ، مما يشير إلى فقرنا الشديد فى هذا الجانب كبير الأهمية، كما سبق أن ذكرنا .

ولاشك فى أن علماء النفس العرب المعاصرين قد قاموا بصك مصطلحات نفسية عربية حديثة ، حتى وإن كانت قليلة فى عددها ، إلا أنها غير شائعة أو متداولة ، بل وربما غير معروفة لنا نحن المتخصصين أو المهتمين بالتأليف المعجمى والموسوعى فى علم النفس، مما يجعل مؤلفاتنا- عن غير قصد - خلواً من مثل هذه المصطلحات . لهذا ، بدأت دعوة منذ أكثر من عامين ، فى بعض المحافل والندوات العلمية فى مصر والوطن العربى، إلى زملائنا المؤلفين والباحثين النفسيين العرب لإمدادى بما قد صكوه من مصطلحات نفسية، أبدعتها قرائحهم بعيداً عن الترجمة والإعراب ، مع مقابلها باللغة الإنجليزية ، والذى اختاروه لها، لكى أضمنها- بمشيئة الله وعونه- الطبعات التالية لموسوعة علم النفس والتحليل النفسى ، التى سبق أن أشرت إليها .

وفى هذا المقال ، أعطى نموذجًا لذلك ثلاثة مصطلحات ، قمت بصكها للدلالة على ظواهر وعمليات نفسية، استنتجتها من بحوثى ؛ حيث لم تسعفنى المصطلحات النفسية ، ذات المنشأ الأجنبى ، للتعبير عنها . ولاشك ، فى أن العلماء العرب يتطلعون إلى استعادة بعض مجدهم الغابر فى العصور الوسطى ؛ حيث كانت مؤلفاتهم وعلومهم تفيض بالإبداع ، وكانت عواصمهم الرئيسية تنشر نور المعرفة فى أنحاء العالم أجمع . وفيما يلى، نقدم عرضًا لهذه المصطلحات الثلاثة :

١- تليف الضمير :Conscience Cirrhosis

طرحتُ هذا المصطلح عام ١٩٩٤ ، لأعبر به عن اضطراب يصيب الشخصية ، ويقابل هذا العرض أو المرض الذى يصيب الكبد، ويطلق الأطباء عليه «تليف الكبد» ، ومصر - للأسف- من أكثر مواطنه انتشاراً . فهذا التليف الكبدى يدمر خلايا الكبد ويعطبها ، بحيث تفسد ،

وتتدون ، وتفقد قدرتها على أداء وظائفها الحيوية للفرد . وبالمثل . فإننى أرى أن ضمير الإنسان عندما يفسد ، فإنه يعطب ويتحلل ، ويصبح كالكبد المتليف ، أو كالليفة المملوءة بالثقوب الواسعة ، يمر منه كل سلوك تهوى نفس الفرد الخبيثة أن تأتيه ، وأن «تُمرِّره» ، فيتم ذلك دون رقيب من شخصية الفرد يقاومه ويمنعه ، ويرشده إلى ما ينبغى من مكارم وفضائل ، وما لايجوز من مفاسد ورذائل .

لقد هالنى ، وأنا أتأمل ما طرأ حديثًا على الشخصية المصرية من سلبيات مدى الفساد بين كثير من المصريين ، واستشرائه فى وقتنا الحالى، فقدمت هذا المصطلح لأصف به هذه الحالة وأجسمها، وأدق ناقوس الخطر لمواجهتها ، وأستحث ذوى الضمائر الحية لمحاربتها وتحجيمها (فرج عبد القادر طه : ١٩٩٣) .

٢- البطر النفسى : Psychological Arrogance

كلمة «بطر» معروفة جيداً فى اللغة العربية، وهى - إلى جانب ذلك- أكثر شيوعًا واستخدامًا فى العامية . وقد طرحت مصطلح «البطر النفسى» عام ١٩٩٣ فى بحثى : «حول العوامل النفسية لاتجاهات الشارع العربى والإسلامى نحو تحرير الكويت» (فرج عبد القادر طه :١٩٩٣)) . وأقصد بهذا المصطلح تلك الحالة النفسية ، التى يسلك فيها صاحبها سلوكًا يشير إلى مزيج من الغطرسة والتعالى والتمرد ، دون مراعاة لحرمة النعمة ، التى أنعم الله بها عليه ، ولاتقدير لها ، ولا محاولة لصيانتها .

ولقد أشار القرآن الكريم ، ذامًا للبطر ، ومحذراً منه لسوء عاقبته . فقال الله عز وجل، فى الآية رقم «٤٧» من سورة الأنفال: «**ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**» . كما قال سبحانه فى الآية رقم «٥٨» من سورة القصص : «**وكم أهلكنا من قرية بَطِرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين** ».

وهكذا ، يبدو البطر ظاهرة غاية فى السوء والسلبية ، ووصمة تحط من قدر الشخصية ، وتشير إلى ضعف اتزانها، ووضوح اضطرابها، كما تمثل خطورة شديدة عليها ... فكثيراً ما تجد هذا يقود سيارته الفخمة الثمينة بسرعة «جنونية» فى شوارع المدينة ، بحيث تحدث هلعًا للمارة وقائدى السيارات ، وركابها على السواء، وقد يودى هذا بحياة البعض ، أو يصيبه إصابات خطيرة. كما أنك قد تجد هذه المجموعة (خاصة من الشباب) يتسابقون فى حركاتهم

«البهلوانية» الاستعراضية ، وسط شوارع مملوءة بالسيارات والمارة ، لايهمهم ما يصيبهم ، أو غيرهم ، أو سياراتهم من ضرر ، مما يجسد - بوضوح- ظاهرة «البطر النفسى» ويجسمها.

ولعل من أخطر آثار «البطر النفسى» وعواقبه- أيضًا- أنه يؤدى بصاحبه إلى الاستهتار بالنعمة ، والاطمئنان إلى بقائها وديمومتها ، مما يؤدى به إلى الكسل فى سعيه للعمل، أو فى كده للتحصيل ، مع الإنفاق بتبذير شديد ؛ مما يتنافى جميعه مع السلوك الاجتماعى البناء والقويم، ويؤدى إلى سوء العاقبة والمآل .

٣- التصوير السمعى : Auditization

طرحتُ مصطلح «التصوير السمعى» لأول مرة عام ١٩٧٢ ، عندما قمتُ بنشر بحث ميدانى عن كيفية إدراك المكفوف The Blind لحلمه وإخراجه له (فرج عبد القادر طه : ١٩٧٢) . وقد نشرت المجلة الأمريكية الشهيرة «الملخصات السيكلوچية Psychological Abstracts ملخصًا له، فى عددها الصادر فى مايو ١٩٧٨ (Taha , Farag A: 1978) . كما أنى اتخذت المصطلح عنوانًا لبحث، قمت بإلقائه فى المؤتمر الدولى الثالث والعشرين لعلم النفس، والذى عقد بأكابولكو فى المكسيك ، فى سبتمبر من عام ١٩٨٤، بعنوان : «التصوير السمعى كعملية فى إخراج أحلام مكفوفى البصر مبكرًا» (Taha, Farag A: 1984) .

ولكى يسهل فهم ما أقصده بهذا المصطلح ، ينبغى أن نرجع إلى مصطلح يقابله فى الإبصار، وهو مصطلح التصوير البصرىVisualization، والذى نعرفه على أنه تكوين صور بصرية فى الذهن عن شىء معين ، أو ترجمة فكرة مجردة معينة إلى صور بصرية تعبر عنها، على نحو ما يفعل رسام الكاريكاتير ، الذى يرسم رسمًا تراه العين، ليعبر عن فكرة معينة يراها العقل ، أو مثل الرسام الذى يقوم بعمل رسوم لرواية أدبية معينة (أو قصة) يعبر بها عن أفكارها الهامة . ونلتقى بهذه العملية (التصوير البصرى) - عادة- فى أحلام المبصرين ، عند إخراجهم أحلامهم الكامنة إلى أحلام ظاهرة (كما تبدو للحالم فى نومه ، ويقصها علينا فى يقظته) .

فعندما كنت أقوم بالدراسة الميدانية- التى أشرت إليها سابقًا - عن أحلام المكفوفين كفًا بصريًا كاملاً ومبكراً جداً (بحيث ولدوا مكفوفين ، أو كف بصرهم فى الأشهر الستة الأولى من ميلادهم ، حسب معيار اختيارى لعينة البحث ، حتى أطمئن إلى أنهم لم يمروا بخبرة الإبصار أصلاً ، أو تم لهم نسيانها ، لو كانوا قد مروا بها ، بسبب حداثة ميلادهم) . أقول : عندما

كنت أقوم بهذه الدراسة ، فوجئت بظاهرة خاصة فى إخراج الحلم عندهم، حيث يترجمون فيها الفكرة الذهنية المجردة إلى صوت عيانى محسوس ، يسمعه المكفوف أثناء حلمه (حيث إنه لايعرف الصور البصرية ، وليست له بها أية خبرة يتذكرها) . من ذلك ، أن أحد هؤلاء المكفوفين روى لى حلمًا ، ظهرت له فيه ضحكات وقهقهات عالية الصوت ، عرفها الحالم بأنها «الشيطان» . وعندما سألته «إيش عرفك إن ده الشيطان ؟ أجاب : «ما فيش حاجة ممكن تضحك على الإنسان إلا الشيطان» . وهكذا، فإن عملية إخراج الحلم لدى المكفوفين قد ترجمت الشيطان ووسوسته ، وغوايته للإنسان حتى يرتكب المعصية ، إلى صوت ضحك عالٍ ، يظهر فى الحلم الظاهر . ولاشك فى أن ما أوحى بهذه الترجمة إلى عملية إخراج الحلم وساندها هو التعبير الشائع فى الوطن العربى، والذى يقول «الشيطان ضحك عليه» عند الحديث عن غواية الشيطان ، ونجاحه فى إيقاع الإنسان فى المحرمات وارتكاب المعاصى . وهكذا، يبدو لنا أن المكفوف كفًا مبكرًا يلجأ إلى حاسة السمع ليصور بها أفكارًا ذهنية مجردة ، وهو يقوم بإخراج حلمه الكامن ، وترجمته إلى حلم ظاهر محسوس ، مما جعلنى أصك مصطلح «التصوير السمعى» لأعبر به عن هذه الظاهرة (أو العملية) التى يستخدمها المكفوف كفًا مبكرًا فى صناعة حلمه . وهنا ، ينبغى أن نشير إلى أن دراستنا تلك قد أثبتت أن مكفوفى البصر فى مرحلة متأخرة ، وبحيث لايزالون يتذكرون الإبصار والألوان، تسود فى أحلامهم وتنتشر عملية التصوير البصرى، وتقوم بدور رئيسى فى إخراج أحلامهم على نحو ما بين فرويد "Freud" فى كتابه «تفسير الأحلام » (فرويد سيجموند) . بل إنى قد وجدت أن هؤلاء يركزون على الإبصار والرؤية فى أحلامهم بشكل أوضح ، ويؤكدون فى وصفهم لما شاهدوه فى الحلم على وضوح الرؤية البصرية لعناصر الحلم ومفرداته ، وكأنهم بذلك يعوضون القصور الذى يحسونه فى حرمانهم من حاسة الإبصار ، وينفونه فى الوقت نفسه ، إشباعًا لرغبة نفسية عارمة فى استرداد الإبصار ، حتى لو كان على مستوى التخيل . ولنا أن نتوقع- بطبيعة الحال- أن من كف بصرهم متأخرًا ، بسبب التدمير أو العطب الذى أصاب مراكز الإبصار فى المخ، لا يلجؤون إلى التصوير البصرى فى أحلامهم ؛ لأن تدمير مراكز الإبصار فى المخ يحرمهم من إمكانية ذلك .

خلاصة فى خاتمة :

لاشك فى أن العلماء العرب قادرون على صك مصطلحات علمية جديدة ، تضاف إلى مايقوم به زملاؤهم من العلماء الأجانب، بحيث يقومون بإثراء اللغة العلمية بين أهل

الاختصاص، بما يضيف جديداً إلى العلم ، وإلى قواميسه وموسوعاته . وهكذا ، فإنهم يسهمون فى إنتاج العلم، ولايصبحون مجرد عالة يستوردونه ويستهلكونه . وتاريخنا فى العصور الوسطى- حيث ازدهرت الحضارة العربية وسادت- خير دليل على ذلك . ولهذا، فإنى قد كتبت هذا المقال كدعوة للمتخصصين النفسيين العرب كى يمدونى بأية مصطلحات علمية. قاموا بإضافتها إلى العلم ، على نحو الأمثلة الثلاثة التى عرضتها هنا ، حتى أضمها إلى «موسوعة علم النفس والتحليل النفسى» بمشيئة الله، عند إعادة طبعها .

المراجع :

١- فرج عبد القادر طه : دراسة مقارنة بين إدراك المحتوى الظاهر للأحلام لدى المبصرين والمكفوفين ، المجلة الاجتماعية القومية ، مجلد :٩ ، عدد:٣ ، سبتمبر ١٩٧٢ ، ١-٢٨ .

٢- فرج عبد القادر طه (إشراف) : معجم علم النفس والتحليل النفسى، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٧ .

٣- فرج عبد القادر طه (إشراف) : موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، القاهرة - الكويت ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ .

٤- فرج عبد القادر طه : حول العوامل النفسية لاتجاهات الشارع العربى والإسلامى نحو تحرير الكويت، فى كتابه المجمع : علم وقضايا العصر، القاهرة ، دار المعارف، الطبعة السادسة، ٣٢٧-٣٨٩ ، ١٩٩٣ .

٥- فرج عبد القادر طه : تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات ، مجلة دراسات نفسية،٤ (٢) ، ١٧١-١٨٨ ، ١٩٩٤ .

٦- فرج عبد القادر طه : قضايا المصطلح النفسى فى الوطن العربى، مجلة الثقافة النفسية ، ٦، (٢١)، ٢٠-٢٨ ، ١٩٩٥ .

٧- فرويد سيجموند : تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ، مراجعة مصطفى زيور ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الأولى.

٨- منظمة الأمم المتحدة (اليونسكو) المعجم العربى للعلوم الاجتماعية ، تصدير أحمد خليفة، القاهرة، طبعة أولية . ١٩٩٤ .

٩- محمد أحمد النابلسى : نحو سيكلوچيا عربية ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٩٥ .

١٠- Taha, Farag A. (1978) . A comparative study on how sighted and blind perceive the manifest content of dreams , Psychological Abstracts, 59 , May, p. 1078 .

١١- Taha, Farag A. (1984) . "Auditization" in dream- work of the early blind persons , . In: International Union of Psychological Science Abstracts II, p. 234 .

التحليل النفسى والمنهج العلمى*

تمهيد :

نكاد نجزم بأنه لم تتعرض مدرسة من مدارس علم النفس المعاصرة للهجوم الشديد مثلما تعرضت مدرسة التحليل النفسى، وعلى رأسها منشئها الطبيب النمسوى سيجموند فرويد . ولاضرر فى ذلك بطبيعة الحال، إذا كان هذا الهجوم متسمًا بالنقد الموضوعى ، بعيداً عن الأهواء الذاتية ، إذ من صالح كل من الفكر والعلم أن يظلاً منفتحين قابلين للجدل، والاتفاق والاختلاف ، والأخذ والرد ، حتى يندفعا خطوات نحو النضج والاقتراب من الحقيقة. لكن الضرر كل الضرر فى أن يعمد المعارضون إلى المغالطة لإثبات وجهة نظرهم . وقريب من هذا أن يكونوا على جهل بما يقوله التحليل النفسى ، فيعرضون أفكاره عرضًا مشوها ناقصًا يتضح منه سوء القصد ، أو قلة الفهم .

ويمكن أن نرجع المآخذ الرئيسية التى يأخذها معارضو التحليل النفسى عليه إلى جانبين :

أولهما : خاص بمنهج التحليل النفسى فى البحث والخروج بمكتشفاته ، بحجة عدم اتصاف هذا المنهج بالعلمية والموضوعية .

ثانيهما : الاعتقاد ببطلان ما جاء به التحليل النفسى من مكتشفات .

ولاشك فى أن هذا الاعتقاد مبنى أساسًا على رأيهم فى منهج التحليل النفسى، إذ من الصعب الوصول إلى الحقيقة بمنهج غير علمى أو غير موضوعى .

وفى هذا المقال، نناقش أهم هذه المآخذ فى هذين الجانبين المتداخلين بشىء من الإفاضة، حسب ما يسمح به المجال . ويحسن أن نقدم لهذه المناقشة بتعريف للمفهومين اللذين يضمهما عنوان المقال، وهما التحليل النفسى والمنهج العلمى .

---

* كتب هذا المقال بعد أن ألقى كمحاضرة ثقافية بدعوة من جمعية الفلسفة بالمغرب فى برنامج محاضراتها بكلية آداب الرباط فى ١٤ / ٤ / ١٩٧٧، ثم نشر بمجلة «دراسات فلسفية وأدبية» المغربية : العدد الثانى ، ١٩٩٧ ، ٧١-٩٥ .

التحليل النفسى :

«يدل اصطلاح التحليل النفسى -وفقًا لتحديد فرويد- على ثلاثة أشياء»:

أولاً : منهج للبحث فى العمليات النفسية التى تكاد تستعصى على أى منهج آخر .

ثانيًا : فن علاج الاضطرابات العصابية (النفسية) ، يقوم على منهج البحث المذكور .

ثالثًا : مجموعة من المعارف النفسية يتألف منها نظام علمى جديد (٣-ص٥) .

هذا ، ويشير برنال Bernal فى كتابه الموسوعى «تاريخ العلم» فى جزئه الذى خصَّصه للعلوم الاجتماعية (٢١-ص١٠٩٤) ، إلى أن الإسهام الثانى العظيم لمدرسة فيينا كان الثورة الواضحة فى علم النفس والتى جاء بها التحليل النفسى بتركيزه على العقل اللاشعورى غير المنطقى ، وإثباته خواء الشعور ، حيث كانت نهاية القرن الماضى توحى بإفلاس مدارس علم النفس حينذاك ، والحاجة إلى علم نفس «علمى» جديد ، وهو الذى قدَّمه سيجموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩) فى السنوات التالية لعام ١٨٩٠ .

إن التحليل النفسى هو ، فى نهاية الأمر ، ذلك العلم الخاص بتعمُّق البحث فى الحياة النفسية فى أعماقها السحيقة ، سواء فى تاريخها القريب أو البعيد ، بغية فهم وتفسير الظواهر السلوكية التى تصدر عنها ، واكتشاف ما تخضع له من قوانين. أما منهجه فى البحث، فهو -أساسًا- عملية التداعى بإزاء هفوات الفرد وأحلامه وأعراضه وسلوكه وتحويله الذى يقوم به إزاء المحلل وتفسير كل ذلك . ولقد مكَّن هذا المنهج الفريد فى دراسة الظاهرة النفسية من اكتشاف اللاشعور ولغته، والكبت وآثاره : والمقاومة ووظيفتها ، والصراع الدائر داخل النفس بين دوافعها المتناقضة ، وكيفية حلِّه عن طريق ما يعرف بالحلول الودية Com-promises التى ترضى كافة الأطراف الداخلة فى الصراع ، كل بحسب قوَّته .

المنهج العلمى :

عن المنطق الحديث ، يذكر الدكتور محمود قاسم : «هو منطق خاص لأنه لايدرس القواعد الشكلية العامة ، كما كان يزعم أنصار المنطق القديم ، لكنه يدرس الطرق الخاصة التى تتبع بالفعل فى كل علم من العلوم . ومن البديهى أن مناهج العلوم تختلف باختلاف الظواهر التى تعالجها» (١٤-ص٤٦) .

ويشير الدكتور عابد الجابرى إلى شىء قريب من هذا، حيث يقول :

«والمنهاج العلمى هو جملة العمليات العقلية ، والخطوات العملية، التى يقوم بها العالم ، من بداية بحثه حتى نهايته ، من أجل الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها. وبما أن العلوم تتمايز بموضوعاتها ، فهى تختلف كذلك بمناهجها . ولذلك، لايمكن الحديث عن منهاج عام للعلوم، للكشف عن الحقيقة فى كل ميدان، بل فقط عن مناهج علمية . إن لكل علم منهاجه الخاص . تفرضه طبيعة موضوعه». (١٢-ص١٩-٢٠) .

ويمكن - بل وينبغى- أن نضيف إلى هذا أن العلم الواحد غالبًا ما يكون له أكثر من منهج، طالما اختلفت طبيعة ظواهره معينة من ظواهر فيما بينها بحيث يصبح منهج معين أصلح من غيره لدراسة ظاهرة معينة من ظواهر هذا العلم، كما هو الشأن فى علم النفس . فعلم النفس- على سبيل المثال- يستخدم المنهج التجريبى بصورة قريبة من استخدامه فى العلوم الطبيعية ، منذ أن أنشأ فونت Wundt أول معمل لعلم النفس بجامعة ليبزج عام ١٨٧٩، إلا أنه لايكاد ينجح فى استخدام هذا المنهج إلا مع الظواهر النفسية البسيطة ؛ كزمن الرجع ، وظواهر الانتباه والإدراك الحسى، أما الظواهر النفسية الأكثر تعقيداً فيستعين علم النفس على دراستها بمناهج أخرى ؛ كالملاحظة ، والتأمل الذاتى، ودراسة الحالة. ولاشك أنه كلما كان فى إمكان الباحث أن يكرر دراسته لنفس الظاهرة النفسية بأكثر من منهج كان ذلك أفضل له وأدعى للوثوق بنتائجه ، بشرط أن يكون كل من المناهج المستخدمة مناسبًا للظاهرة التى يقوم بدراستها، فعندما تتأيد النتيجة بأكثر من منهج يرتفع مستوى تصديقها .

منهج التحليل النفسى :

يقول نيل فى حديثه عن التحليل النفسى «لقد طور فرويد -تدريجيًا- تكنيكًا لمساعدة المريض على استعادة الخبرات «المنسية» هو التداعى الحر. فهذا التكنيك، بالإضافة إلى ملاحظات المحلل وتفسيراته لسلوك المريض، يمثل منهج التحليل النفسى» (٢٣-ص٢٠٧) .

ولنرجع إلى فرويد نفسه يصف لنا طريقته فى التداعى الحر، إذ يقول :

« ... فبعد أن كنت أحفز المريض إلى أن يذكر شيئًا عن موضوع بعينه ، أصبحت أطلب منه أن يستسلم لعملية تداعٍ حر ؛ أعنى أن يذكر كل ما يخطر بذهنه ، على أن يتجنب أى توجيه شعورى لخواطره . ولم يكن بدٌ ، مع ذلك، أن يلتزم المريض بذكر كل شىء يخطر بباله حرفيًا معرضًا عن الاعتراضات النقدية التى من شأنها أن تستبعد بعض الخواطر بحجة عدم أهميتها، أو عدم مناسبتها ، أو بحجة ألا معنى لها. ولاحاجة بنا أن نلح فى مطالبة المريض صراحة بضرورة توخى الصدق فى تسجيل خواطره ، طالما قد أوضحنا له أن ذلك هو الشرط الأساسى

فى العلاج التحليلى بأسره . قد يبدو عجيبًا أن طريقة التداعى الحر هذه ، التى هى تطبيق للقاعدة الأساسية فى التحليل النفسى، قد حققت ما كان ينتظر منها ؛ أى نقل الأمور المكبوتة التى كانت تحتجزها المقاومات إلى الشعور ...» (٨ ، ٤٧) .

أولاً : انتقادات التحليل النفسى من حيث المنهج :

ذكرنا فى مستهل هذا المقال إمكانية تركيز أهم الانتقادات الموجهة إلى التحليل النفسى فى جانبين ؛ أولهما المتعلق بمنهجه ، وثانيهما المتعلق باستنتاجاته . ومع إيماننا بأن العلاقة بين المنهج ونتائجه علاقة جدلية من غير المأمون فصل كل منهما عن الآخر إلا من حيث التركيز فقط ، فإننا -لسهولة العرض فقط- سوف نضطر للقيام بمعالجة كل منهما على حدة، مكتفين بهذه الملاحظة التى لاتغيب عن فطنة القارئ . وفيما يلى أهم الانتقادات، يتلو كلاً منها مناقشة له .

تكاد تتركز أهم المآخذ الموجهة إلى التحليل النفسى ، من حيث منهجه ، فى التالى :

١- أن فرويد أجرى ملاحظاته وتحليلاته فى ظروف تفتقر إلى الضبط العلمى، وتنقصها إمكانية تأكيدها بالمنهج التجريبى ، الذى يتيح المعالجة الإحصائية للمادة التى تلاحظ ، وهكذا يستحيل وزن الدلالة الإحصائية للاستنتاجات واختبار مدى ثباتها. ولانستبعد أن نجد من بين من ذاعت شهرتهم من المفكرين وعلماء النفس، ومن يسيرون فى ركابهم، من يتعصب لهذا الانتقاد؛ مثل عالم النفس البريطانى المشهور إيزنك Eysenk الذى يقول : «إنه (أى فرويد) كان يفتقر كلية للقدرة على القيام بتصميم التجارب التى يمكن أن تضع هذه الفروض فى اختبارات حاسمة، ومن المؤكد أنه كان يتعالى علانية على البحث التجريبى» (٢- ص١٣٠-١٣١) .

وقد يكون من الأفضل أن نقدم لمناقشة هذا الانتقاد بإلقاء بعض الضوء على التكوين العلمى لفرويد نفسه ، لنؤكد أن الوعى بالمنهج التجريبى لم يكن لينقصه ، بل إنه قد مارسه فى بحوثه لفترة طويلة، إلا أنه اكتشف حدود صلاحية هذا المنهج ، فلم ير فيه أنه صالح لدراسة كل ظاهرة مهما كانت نوعيتها .

لقد تخرج فرويد فى الطب ، ومارس البحث العلمى لفترة طويلة فى مجال طب الجهاز العصبى ومجال الفسيولوجيا ، وله مكتشفات هامة لازالت -حتى الآن- دليلاً على أنه كان من كبار الباحثين فى هذين المجالين، ولايخفى على أحد أن المنهج التجريبى الصارم هو عماد

البحث فيهما . «فقد ظل (فرويد) يبحث فى تشريح النخاع الشوكى بمعهد الفسيولوچيا فى فيينا زهاء ست سنوات أسفرت عن نتائج علمية من الدرجة الأولى، ثم قضى بضع سنوات أخرى يبحث فى تشريح المخ وأمراضه فاكتشف مرض (الشلل الشبيه بالرقاص) ، وأفرد له مكانًا فى المصنفات الإكلينيكية . وقام بدراسته من النواحى التشخيصية والتشريحية والعلاجية- فضلاً عن اكتشافاته فى النخاع المستطيل ، ثم اكتشافه الإكلينيكى لما يعرف فى الطب العصبى (بالأجنوزيا) . وقد أصبحت هذه الاكتشافات جميعًا جزءًا من التراث الطبى خلدت اسم (فرويد) فى ميدان الأمراض العصبية العضوية» (١٦-ص٧) . ولهذا ، فقد كان فرويد «أحد أقطاب الطب ، الذين وجهت إليهم الدعوة ليكتبوا سيرهم العلمية، لكى تجمع فى كتاب يمثل غاية ما أحرزه الطب من تقدم . وقد نشرت سيرة (فرويد) بقلمه فى الجزء الرابع من هذا الكتاب وعنوانه (الطب فى الوقت الحاضر، ممثلاً فى السير العلمية بأقلام أصحابها)- ليبزج ١٩٢٥» (١٦، ٥) . وفى كتاب فرويد «حياتى والتحليل النفسى» الكثير من التفاصيل التى تؤيد ذلك .

إلا أننا ينبغى أن نؤكد أن التثبيت على فكرة أن المنهج التجريبى هو المنهج العلمى الوحيد إنما يعتبر ضربًا من التفكير الجامد ، الذى لايوافق عليه علماء المناهج أنفسهم، فضلاً عن علماء التخصصات العلمية المختلفة وغيرهم من الباحثين والمفكرين الذين يتصفون بالمرونة والواقعية. إذ يرى كل هؤلاء- على نحو ما سبق أن ذكرنا فى تعريفنا للمنهج العلمى- أن المنهج العلمى يختلف باختلاف العلوم، وأن لكل علم منهجه الخاص الذى تفرضه طبيعة موضوعه .

فعلماء الفلك - على سبيل المثال- لم يستطيعوا -حتى الآن- تطويع ظواهرهم للمنهج التجريبى. ومع ذلك، فإن ما توصلوا إلى اكتشافه من حقائق وقوانين خاصة بظواهرهم تصل إلى حد كبير من الدقة والصدق ، وليس بيننا من يصف حقائقهم بالزيف لأنها لاتخضع للتجريب . بل إن التجريب كثيراً ما يفشل فى تجنيب الباحث تأثيراته الذاتية وتشويهها للاستنتاجات والمعلومات المتعلقة بالظاهرة التى يبحثها . ويكفينا مثل واحد لذلك- شديد الوضوح والدلالة- هو الخاص بما زعمه البروفسور بلوندلوت M. Blondlot ، وقد كان فيزيائيًا شهيراً فى جامعة نانسى ، وعضواً فى أكاديمية العلوم الفرنسية . وفى عام ١٩٠٢ ، زعم أنه اكتشف أشعة «ن» ، وقد كان زعمه هذا بعد كشف رويننتجين Roentgen الألمانى لأشعة × بستة أعوام .

وما أن أعلن بلوندلوت اكتشافه أشعة «ن» حتى سارع كثير من الباحثين الفيزيائيين البارزين فى فرنسا بإعلان أنهم استطاعوا فى معاملهم تأكيد هذا الاكتشاف . وقد كان من مظهر هذه الأشعة تزايد استضاءة الأسطح الفسفورية وتزايد الوهج فى السلوك البلاتينية . وسرعان ما بدأ الباحثون فى محاولة الاستفادة التطبيقية لهذه الأشعة. وهكذا ، درس بروكا Broca إخصائى المخ علاقة أشعة «ن» بالمخ، كما تبين لشاربنيتر Charpentier أن الضغط الواقع على أحد أعضاء الجسم يصحبه إطلاق أشعة «ن» ، وبحث لامبرت وماير Lambert and Mayer أثر هذه الأشعة على النباتات . وتقديراً لهذا الكشف، قامت الأكاديمية الفرنسية بمنحه جائزة لالاند، وقيمتها عشرون ألف فرنك وميداليتها الذهبية . لكن من سوء حظ بلوندلوت أن بعض الفيزيائيين خارج فرنسا حاولوا فى معاملهم أن يحصلوا على أشعة «ن» فحصلوا على نتائج سلبية . وقد أثار ذلك نقاشًا وجدلاً حاداً بين العلماء مما دفع فيزيائيًا شهيراً من جامعة جونز هوبكنز هو وود R. H Wood للذهاب بشخصه إلى معامل بلوندلوت، للتأكد من حقيقة الأمر، وهناك تأكد له -بما لايدع مجالاً للشك- أن أشعة «ن» مزعومة ، وليس لها أى وجود واقعى موضوعى، وأن الأمر لم يكن أكثر من انحياز قومى شوّه قدرة العلماء الفرنسيين على ضبط تجاربهم ومشاهداتهم ، فإذا بهم يدركون ما لا وجود له . وبعد أن نشر وود تقريره فى مقال، استمرت الأكاديمية فى جائزتها، إلا أنها اضطرت لمواجهة الموقف إلى تغيير السبب المعلن عنه لاستحقاق الجائزة ، فعزته إلى إسهامات أخرى سبق أن قام بها بلوندلوت. وقد كان لذلك بالغ التأثير على بلوندلوت، فأصيب بالجنون، ثم مات بعد ذلك متأثراً بما لحقه من هذا العار (٢- ص١٢٧-١٢٩) . وشبيه بهذه الأحداث فى تاريخ العلوم -لاشك- كثير .

قد يتصور البعض أن ذكرنا لهذه الحادثة بشىء من التفصيل إنما يشير إلى رفضنا للمنهج التجريبى ، لكن ليست هذه هى الحقيقة . فلاشك أن أى منصف يرى أن المنهج التجريبى من أدق المناهج حتى الآن فى بحث الظاهرة، بشرط قبول الظاهرة لهذا النوع من مناهج البحث . بل إننا نؤمن بأن العلوم الطبيعية والكيميائية والبيولوجية - وهى التى تقبل أغلب ظواهرها للبحث بالمنهج التجريبى- ما كانت لتحقق هذه الطفرة الهائلة فى القرون الثلاثة المتأخرة، لولا اصطناعها لهذا المنهج. لكن ما أردناه بسرد هذه الحادثة هو إقامة الدليل على أن المنهج التجريبى لايخلو -هو الآخر- من بعض الذاتية ، وأن الاستنتاجات التى تستنتج عن طريقه ليست بالضرورة حقائق ثابتة ثباتًا مطلقًا، وبالتالى، فإن من ينادون باعتباره الفيصل فى قبول المكتشفات أو رفضها هم بعيدون عن الموضوعية ، متصفون بالجمود الذى يجعلهم يسقطون

المشروعية العلمية عن كل منهج فى البحث ما عداه . إن هؤلاء ينسون ، أو يتناسون ، البديهة التى ترجع الحكم بصلاحية منهج من مناهج البحث إلى نوعية الظاهرة التى تبحث به .

يقول أستاذنا الدكتور مصطفى زيور « ... كل فتح علمى كبير يقتضى ابتكار منهج جديد ملائم لموضوع البحث. فما كان يمكن الكشف عن عالم الجراثيم وخصائصه دون ابتكار الميكروسكوب ، ثم ابتكارات باستير المشهورة فى البكتريولوچيا . وما كان يمكن لعلوم اللغويات والأنثروبولوچيا ، وغيرها من علوم الإنسان، أن تخطو خطواتها الحاسمة وإرساء قواعدها فى نظم علمية مكينة دون اكتشافات التحليل النفسى أولاً ، ثم اكتشاف المنهج البنيانى ثانيًا . وما كان للتحليل النفسى أن يصل إلى ما وصل إليه من اكتشافات حاسمة فى ميدان الأمراض النفسية والعقلية دون ابتكار منهج التداعى الحر وهو منهج لغوى . وقد أقام الفيلسوف الفرنسى دالبيز فى رسالته المعروفة منهج التحليل النفسى ومذهب فرويد ، الدليل الحاسم- من وجهة نظر فلسفة العلوم ومناهج البحث- على صدق منهج التداعى الحر واتصافه بكل مقتضيات البحث المنهجى العلمى .

«أما إقحام منهج ثبت جدواه فى ميدان بعينه على ميدان يختلف عنه اختلافًا جذريًا بدعوى أنه المنهج العلمى الوحيد، من حيث إنه يمكننا من القياس المضبوط والحصول على نتائج كمية، فهو مغالطة أخطر ما فيها أنها تجهل نفسها ، تجهل أنها تصدر عن موقف ميتافيزيقى ترفضه الإبستمولوجيا المعاصرة، بل يرفضه منطق تاريخ المعرفة العلمية . فالقول بوجود نمط واحد من الموضوعية هو نمط الموضوعية فى العلوم الفيزيائية ، والإصرار على نقل هذا النمط إلى ميدان علوم الإنسان ، إنما هو قول يفترض تطابق عالم الفيزياء وعالم الإنسان وهو افتراض ميتافيزيقى يحل وحدة النظام الفيزيائى محل كثرة التجربة وتنوعها، على حين أنه ينبغى القيام فى كل ميدان باختيار الكيان النوعى. وفى اصطلاح «هوسر ل» إقامة الأنطولوچيات الإقليمية .

«إن الموضوعية المطلقة لاوجود لها فى نطاق المعرفة العلمية، وإنما الأمر أمر موضعه - Objectivation - لاموضوعية Objectivity - يسعى الباحث العلمى إلى تحقيق أكبر قدر متاح منها تدريجيًا بصقل أساليب بحثه النوعية، بحيث تزداد الموضوعية بقدر نقصان العوامل الذاتية تدريجيًا ،كلود لفى شتروس، مقدمة كتاب علم الاجتماع والأنثروبولوچيا لمارسيل موسى ... (١٨ ص-ع-ف) .

خلاصة القول -إذن- أن التطرف فى التعصب للمنهج التجريبى ليس مبنيًا على أساس من الفهم السليم لطبيعة المنهج العلمى ووظيفته .

ومن ثم ، فإن من يسقطون الشرعية العلمية عن منهج التحليل النفسى لعدم اصطناعه التجريب واهمون بعيدون عن أى موضوعية علمية .

ومع كل هذا ، فلا بدَّ من الإشارة إلى أنه عندما نتمكن من إخضاع بعض كشوف التحليل النفسى للمنهج التجريبى يثبت صدقها . فسهولة استعادة الاستجابة المنطفئة ، على نحو ما تبدو من تجارب علماء النفس السلوكيين ، ليست إلا تعبيراً واضحًا عن ظاهرة التثبيت التى اكتشفها التحليل النفسى، وفى إحدى التجارب ، نوَّم برنهايم رجلاً نومًا مغناطيسيًا، ثم أمره أن يفتح مظلة فى قاعة العرض بعد أن يصحو بخمس دقائق . ففعل الشخص ما أمر به دون أن يعرف شيئًا مما حمله على فعله هذا » . (٥-ص٣٠٨) . مما يؤكد لنا موضوعية وجود عمليات نفسية لاشعورية، على نحو ما أكدته كشوف التحليل النفسى . ولقد قضى كاتب هذا المقال زهاء تسع سنوات فى بحثين عن سيكلوچيا الحوادث وسيكلوچيا العامل المشكل فى الصناعة ، مستخدمًا أساليب المنهج التجريبى الإحصائى وضوابطه ، فإذا به يلتقى فى نتائج هذين البحثين النهائية مع ما انتهى إليه التحليل النفسى بمنهجه الخاص من كشوف وتفسيرات لديناميات الحياة النفسية (١٠ و١١) .

٢- هذا، ويوجه إلى منهج التحليل النفسى مأخذ ثانٍ هو أنه لايمكن لمشاهد آخر -بخلاف المحلل- أن يلاحظ كيف تجرى عملية التحليل داخل جلسات العلاج، ويستتبع ذلك صعوبة الاطمئنان والتأكد من موضوعية استنتاجات المحلل واكتشافاته .

والواقع ، أن هذا الانتقاد لمنهج التحليل النفسى لايرجع لضعف لصيق بالتحليل النفسى كمنهج للبحث أو العلاج، بل إن طبيعة الجلسة التحليلية هى التى تحتم ذلك. فهذه الجلسة تفقد طابعها الخاص، بل وتكاد تمتنع لمجرد وجود مشاهد مع المحلل. فالمريض - فى مثل هذه الحالة - سوف يتردد فى البوح بمكنونات نفسه، نظراً لعوامل الخجل والخوف والشك التى ينجح المحلل فى استبعادها أثناء حضوره ، ولكن يصعب عليه ذلك فى حالة حضور شخص آخر فى جلسة التحليل : والحقيقة أن المحللين يأسفون أشد الأسف لهذا القيد الذى تحتمه طبيعة جلسة التحليل النفسى ولايجدون مفراً منه، فهو يحرمهم من إثبات بعض حقائق التحليل النفسى ومكتشفاته الهامة أمام الغير، لكن ما يجب أن نؤكده هو أن هذا الموقف لاينفى موضوعية مايصل إليه التحليل النفسى من كشوف ، نتيجة لما يدور فى هذه الجلسات . إن الذين ينكرون الموضوعية هنا ، إنما يفهمون الموضوعية بمعنى ضيق، لايتفق والموضوعية نفسها . فليست

الموضوعية فى العلم قاصرة -فقط- على معنى ما يمكن إثباته أمام الغير، بل هى تشمل -أيضًا- تلك الحقائق الصادقة التى لايمكن إثباتها إلا من جانب شخص واحد هو المعنى فقط . ونحن ما لم نسلم بذلك، فسوف نعجز عن الدراسة العلمية لكثير من الظواهر وننصرف عنها ، فإذا أردت أن تعرف حقيقة ما يفكر فيه الشخص «أ» فلاسبيل أمامك إلا أن تسأله عن ذلك فيجيبك . ومهما أوتيت من أساليب فلن تستطيع أن تنظر به إلى رأس الشخص فترى به ما يجول فيه من تفكير، ويمكنك به أن تدع غيرك ليتأكد هو الآخر ؛ معنى ذلك أنك لن تستطيع معرفة ذلك إلا بهذه الوسيلة، فلم يوجد- حتى الآن- ذلك المنظار الذى تستطيع التأكد من أنه صادق أو غير صادق . ولذا فلاسبيل أمامك إلا اصطناع بعض الأساليب غير المباشرة لتجعلك أكثر اطمئنانًا إلى موضوعية الشخص فيما أخبرك به؛ مثل معرفتك السابقة عن مدى اتصافه بالصدق أو الكذب ، ومعرفتك بما لديه من دوافع وحوافز للصدق أو الكذب فى إجابته لهذا السؤال بالذات ... إلخ . ومن الجدير بالذكر، أن قسمًا كبيراً من الاختبارات النفسية توضع على هذا الأساس المنهجى (كاستبيانات وقوائم الشخصية) ، بالإضافة إلى أن كثيراً من البحوث الميدانية فى علم النفس وعلم الاجتماع تعتمد على هذا الأسلوب أيضًا ، دون أن تلقى كل هذه المقاومة وذلك الاعتراض .

ولكن مما يجدر ذكره- بهذا الصدد- أن التحليل النفسى وصل إلى أهم كشوفه ، أو دلل عليها خارج جلسات التحليل النفسى من المرضى والأسوياء على حد سواء، ثم طبقها ولاحظها سافرة ومضخمة داخل هذه الجلسات ؛ ففرويد لم يكف عن مطالبة الناس بالخلو إلى أنفسهم بمثل ما كان يفعل هو ، محاولين مكاشفة أنفسهم وتحليل هفواتهم وأحلامهم وسلوكهم ، ليتأكدوا من صدق ما وصل إليه . كما أقام الدلائل الكثيرة من حالات سوية ومرضية فى العالم البدائى وفى العالم المتحضر على صدق ما جاء به من كشوف واستنتاجات . ونجد ذلك شائعًا فى معظم كتاباته ، وخاصة فى كتبه الثلاثة «تفسير الأحلام» و«علم النفس المرضى للحياة اليومية» و «محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى» .

٣- هناك انتقاد ثالث يوجه إلى منهج التحليل بدعوى أنه أتى بكشوفه واستنتاجاته من دراساته للمرضى النفسيين ، وقام بتعميمها على الأسوياء ، مما أوقعه فى خطأ منهجى كبير.

إن الذين يزعمون هذا الزعم ليسوا على وعى كاف بتطور نشأة التحليل النفسى وتاريخ مكتشفاته ، وأغلب الظن أنهم لم يقرؤوا الكتابات الأساسية التى قدمها فرويد وتلاميذه ، ولعل الفقرة الأخيرة الواردة فى مناقشتنا للانتقاد الثانى تدلل على ذلك. وبالإضافة إلى هذا،

فإن القوانين التى تحكم الحياة النفسية فى سوائها هى نفسها التى تحكمها فى مرضها تمامًا كما نجد أن ديناميات القلب وقوانين تشغيله هى نفسها فى صحته ومرضه . وعلاوة على كل ذلك ، فإن الخط الفاصل بين سواء النفس ومرضها ليس بالوضوح الذى يتصوره البعض ، وإنما سواء النفس ومرضها أمر نسبى فى حقيقته ، فإلى أى حد هذا الشخص مريض نفسيًا ، وإلى أى حد هو سوى.

٤- كثيراً ما يوجه انتقاد رابع إلى منهج التحليل النفسى بدعوى أن المحلل النفسى يوحى إلى مريضه بالأفكار التى يبحث عنها المحلل، فيلجأ المريض -إرضاءً لمحلله- إلى الانسياق وراء إيحاءات المحلل والاستجابة لها.

لاشك أن هذا الانتقاد افتراء واضح على التحليل النفسى. ويعلم دارسو التحليل النفسى أن القاعدة الأساسية لعملية التحليل هى عدم الإيحاء للمريض بأى شىء سوى أن يذكر المريض كل ما يرد على باله أثناء الجلسة، دون انتقاء أو استبعاد أو خوف أو خجل . ويزداد المحلل حيطة ، فلايشير إلى مريضه بتفسير ما وصل إليه لعرض أو حلم أو أى سلوك، حتى تكشف متداعيات المريض نفسه للمريض نفسه حقيقة الأمر، فإذا بالمريض نفسه يقوم بالاعتراف بها والوصول إلى تفسيرها . وقد يقتضى الأمر من المحلل، الذى غالبًا ما يصل إلى التفسير والفهم قبل المريض، أن ينتظر لعدة جلسات حتى يصل المريض نفسه إلى التفسير والفهم، بل إن سرعة المحلل فى تقديم التفسير قبل أن يصل إليه المريض بنفسه، أو قبل الوقت المناسب، والذى يكون فيه المريض على وشك الوصول إلى التفسير، نقول: إن سرعة المحلل فى تقديم التفسير فى هذه الحالة مضر بسير عملية التحليل ، بل إنه يهدد بإفسادها وقطعها تمامًا .

ويمكننا أن نزيد على ذلك ما هو معروف من أن المحللين النفسيين، إذا تبين لهم أن مرضاهم يقرؤون فى التحليل النفسى، فإنهم ينصحونهم بتأجيل ذلك حتى ينتهون من عملية تحليلهم تمامًا . والسبب الأساسى لموقف المحللين هذا خشيتهم أن يقوم ما هو مكتوب فى التحليل النفسى بالإيحاء -ولو غير المباشر- إلى المرضى ، بما ينبغى عليهم أن يذكروه أثناء جلسات التحليل فيبدؤوا فى انتقاء ما يدلون به من متداعيات ، فتنكسر القاعدة الأساسية فى التحليل النفسى، والتى تقتضى إطلاق العنان للتداعى .

٥- هناك انتقاد خامس يدَّعى أن العلاج بطريقة التحليل النفسى لايؤدى إلا إلى شفاء نسبة ضئيلة فى المقارنة بنسبة الشفاء فى الحالات التى تعالج جسميًا .

ولاشك أن المقارنة الواردة فى هذا الانتقاد مقارنة ظالمة ؛ أولاً لاختلاف نوعية المرض الذى يعالج بالتحليل النفسى عن نوعية هذا الذى يعالج بالعلاج الجسمى ، وثانيًا لأننا نجد كثيراً من الأمراض يفشل فيها العلاج الجسمى فشلاً كبيراً فى المقارنة بالفشل فى حالات العلاج التحليلى ، كما هو الحادث فى بعض أمراض السرطان وضغط الدم والدرن الرئوى والأمراض المزمنة عمومًا ، ومع ذلك ، فإن أساليب علاج هذه الأمراض لاتعارض، بل إنها تلقى القبول؛ لأن نسبة نجاح العلاج، مهما كانت ضئيلة، فهى مكسب تحصله البشرية ينبغى لها التمسك به لا التخلى عنه طلبًا لنجاح أكبر، قد لاتصل إليه البشرية قبل أحقاب طويلة ، وثالثًا لأن المريض لايلجأ إلى العلاج بالتحليل النفسى إلا بعد أن يفشل فى مختلف الأساليب الجسمية والنفسية الأخرى ؛ أى عندما يكون مرضه أكثر مقاومة للشفاء وأكثر إزمانًا . ويضاف إلى كل هذا ، أنه ليست بين أيدينا فى الوقت الحالى بيانات إحصائية يمكن الوقوف فيها على مقارنة نسبة نجاح العلاج بالتحليل النفسى بالنسبة المقابلة للنجاح فى العلاج الجسمى للأمراض المختلفة .

ولعل من الجدير بالذكر ما نلاحظه هذه الأيام من تزايد نسبة حالات الأمراض الجسمية التى أصبحت تستعصى على أساليب العلاج الجسمى ، مما أجبر الطب أخيراً (منذ ثلاثينيات هذا القرن فقط)، أن يتلمس لبعضها أساسًا نفسيًا فعثر عليه لدى المحللين النفسيين ، وأفرد له تصنيفًا خاصًا بين الأمراض هو المعروف بالأمراض السيكوسوماتية (أى الأمراض الجسمية ذات السبب النفسى) ؛ مثل كثير من أمراض الجهاز الهضمى وأمراض الحساسية والسكر وضغط الدم ، وما إليها . «وإن التأمل ... يعود بالذاكرة إلى قول أفلاطون : (وما ينبغى لك أن تحاول شفاء الجسم دون شفاء للروح ، وأن ذلك لهو السبب فى أن شفاء الكثير من الأمراض يمتنع على أطباء اليونان ؛ لأنهم يغفلون الكائن بوصفه كلاً، ذلك أن الجزء لايمكن أن يكون سليمًا إلا إذا كان الكل سليمًا ، وأن أكثر الخطأ فى أيامنا هذه فى علاج الجسم أن الأطباء يفصلون بين الجسم والنفس) ... لقد اقتضى الأمر أكثر من ألفى سنة حتى يقوم الدليل العلمى على صحة هذه الحقائق الإنسانية » (١٥ - ص٣٨-٣٩) .

ثانيًا : انتقادات التحليل النفسى من حيث قضاياه ومكتشفاته :

فإذا ما انتقلنا إلى الانتقادات التى توجه إلى قضايا التحليل النفسى ومكتشفاته وجدنا أن أغلبها قائم على التسليم بعدم علمية منهج التحليل النفسى، هذا التسليم لابد وأن يتبعه رفض للاستنتاجات والقضايا والحقائق ، التى تم له اكتشافها، أو إقامة الدليل عليها . وفى

نفس الوقت لنا أن نتوقع أن يحدث العكس؛ بمعنى أن قناعة الفرد ببطلان استنتاج من استنتاجات التحليل النفسى قد تؤدى به إلى التشكك فى منهج التحليل النفسى ذاته بحجة أن هذا المنهج أدى إلى استنتاجات باطلة .

هذا ، ويمكن أن نستعرض فيما يلى أهم ما يوجه إلى التحليل النفسى من انتقادات تتعلق بقضاياه ومكتشفاته ، مع مناقشة تتلو كلاً منها :

١- اكتشاف التحليل النفسى للاشعور، وإعطاؤه أهمية كبيرة فى الحياة النفسية للإنسان. وهذا شئ ضد المنطق .

وإذا أردنا الدقة ، فإن التحليل النفسى لم يكن هو الذى اكتشف اللاشعور ، بل هو الذى أقره ، وأقام الدليل الحاسم على وجوده ، ونبَّه إلى أهميته ودوره الأساسى فى الحياة النفسية ، ودافع عن كل ذلك فى جرأة شديدة . ذلك أن كثيراً من قضايا التحليل النفسى قد سبق إلى اكتشافها هؤلاء الذين أوتوا موهبة النفاذ إلى أعماق الحياة النفسية عن طريق الحدس السليم والحس المباشر الصحيح ، وإن كانوا لم يستطيعوا ، أو لم يهتموا ، بإقامة الدليل المقنع على صدق حسهم وحدسهم ؛ مثل الشعراء ، والفلاسفة ، وأصحاب الحكمة الشعبية ، وذوى الفكر الصافى من العلماء .

لقد سبق أن نبَّه الفيلسوف الألمانى شوبنهور -من قبل فرويد بأكثر من نصف قرن- إلى أهمية اللاشعور وسطحية الشعور . ومن آرائه : «أن الشعور هو مجرد السطح بالنسبة لعقولنا ، التى لانعرف ما بداخلها ؛ كالكرة الأرضية لا نعرف منها إلا ما هو على سطحها» (٢٢- ص٣١٢) .

ومما يدلل على وجود اللاشعور أبلغ تدليل ما يلاحظ من التزام بعض المرضى النفسيين القيام بأعمال حوازية متكررة ، ليس لها من معنى منطقى مقبول حتى من جانبهم أنفسهم . مع أنهم يضيقون بهذه الأفعال إلا أن ضيقهم يبلغ مداه إن حيل بينهم وبين إنجازها ، مما يشير إلى وجود عمليات نفسية لايفهمونها ، تقهرهم على إتيان هذه الأفعال. وبلغة التحليل النفسى ، توجد عمليات نفسية لاشعورية ، ودوافع نفسية لاشعورية تجبرهم على ذلك. ولاسبيل إلى فهم هذا كله إلا بالكشف عن مكنونات لاشعورهم ، وما تجرى به من عمليات نفسية بعيدة عن إدراكهم ووعيهم .

ويعلق الدكتور سامى محمود على، على قضية اللاشعور يقوله : «ولايتخيلن امرؤ أن التحليل النفسى موضوعه دراسة اللاشعور ، وأن الشعور موضوع علم نفس آخر . فالواقع، أن

التحليل النفسى، وإن قام على معارضة التيارات السيكلوچية السائدة فى القرن التاسع عشر، إلا أنه يدخل الشعور فى دراسته ، بل ويدرسه فى علاقته باللاشعور . ويمكن القول -عامة- إن موضوع التحليل النفسى ليس هو الشعور واللاشعور . بل هو الإنسان فى شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوچية اجتماعية ذات تاريخ» (٤-ص٩٨) .

٢- هناك مآخذ ثانٍ على التحليل النفسى هو المتعلق بإقراره بوجود دوافع جنسية فى الطفولة ، بعكس ما هو معروف عن الطفولة البريئة .

وليس التحليل النفسى أوّل من كشف عن هذه الحقيقة ، فقد كان دوره بالنسبة لها كدوره بالنسبة للاشعور، كما سبق أن ذكرنا . ومن الإنصاف لفرويد أن نعلم أنه كان من التواضع والموضوعية بحيث لم يدَّعِ لنفسه كشفًا علم أن غيره سبقه إليه، بل كان يبين -بكل تواضع- أن دوره فى مثل هذه الحالات لم يكن أكثر من دور من يقرر شيئًا سبق اكتشافه ، ويقيم الدليل عليه ، ويعمقه ببحوثه ودراساته . وفى هذا الصدد، يقول فرويد : «وسأحدثكم الآن عن أوضح ما يبدو من أوجه النشاط الجنسى عند الطفل .. إن أوجه النشاط الجنسى عند الرضيع تفتح للتأويلات ميدانًا لا حد له ، كما سترون فى غير عناء. ولاشك فى أنها ستكون مثاراً لاعتراضات منكم ... إن المظاهر الأولى التى تبدو بها الجنسية عند الرضيع ، تتصل بوظائف أخرى حيوية هامة . فالرضيع -كما تعرفون- ينصب اهتمامه الرئيسى على الرضاعة، حتى إذا نال حظًا موفوراً منها فأخذه النوم على صدر أمه ، بدت عليه من أمارات الرضا والارتياح ما سوف تبدو لديه فيما بعد من حياته، حين يقضى لبانته من الإشباع الجنسى، على أن هذه الظاهرة لاتكفى أن تكون أساسًا تبنى عليه نتيجة . لكن المشاهد المعروف أن الرضيع ينزع دائمًا إلى أن يكرر الحركات التى تقترن عادة بعملية الرضع، لا لأنه فى حاجة إلى التغذية بالفعل، بل لمجرد القيام بهذه الحركات ، فنقول عنه فى هذه الحالة إنه «يتمصمص» . وأنه ليمضى فى فعله هذا حتى يحتويه النوم مرة أخرى هانئًا مغتبطًا ، مما يحملنا على أن نرى أنه يجد فى هذا التمصمص ، فى ذاته ، لذة وسروراً وسرعان ما ينتهى به الأمر ألا يستطيع النوم دون أن يتمصمص . لقد كان الدكتور لندنر Lindner ، طبيب الأطفال ببودابست، أول من أكد الطبيعة الجنسية لهذه العملية» (٥- ص٣٤٥-٣٤٦) .

٣- كثيراً ما يؤخذ على التحليل النفسى أنه يعزو كل سلوك الإنسان إلى الدافع الجنسى وحده، حتى أحلام الإنسان ومرضه النفسى .

وهذا الانتقاد يتضح فيه الافتراء على التحليل النفسى أو الجهل بما قال به . ففرويد -كما نعلم- أبرز دور الجنس ، لكنه لم يقل بأنه الدافع الوحيد عند الإنسان بل أضاف إليه دافعًا -فى مثل قوته- هو دافع العدوان . وفى كتابه «ما وراء مبدأ اللذة» أوضح فرويد نظريته فى الغرائز وأقر بوجود غريزتين أساسيتين؛ هما غريزة الجنس وغريزة العدوان . ومن الضرورى أن نعلم أن فرويد لم يقصد بغريزة الجنس أو الحب ذلك الجنس أو الحب بمعناه الضيق الشائع بين غير ذوى الاختصاص ، بل قصده بمفهومه الواسع الذى يشمل كافة نزعات الحب والبناء والرغبة فى المحافظة على الذات وعلى الآخرين ، وإسداء المعونة والمساعدة لهم : فى حين أن غريزة العدوان تشمل كافة النزعات التى تهدف إلى الإضرار بالذات وبالآخرين والاعتداء عليهم والكراهية لهم . هذا علاوة على أن التحليل النفسى قد أكد على أن السلوك الواحد نادراً ما يكون صادراً عن غريزة الحب وحدها ، أو العدوان وحدها ، بل غالبًا ما يكون صادراً عن مزيج من الدافعين معًا وإن تفاوت وزن كل منهما فى كل حالة عن الأخرى .

وهكذا ، فإن التحليل النفسى لم يقل بوجود دافع واحد أو غريزة واحدة ، بل قال بعدد غير محدود من النزعات الغريزية التى يمكن -فى نهاية الأمر- تجميعها فى غريزة الجنس (أو الحب أو الحياة) وغريزة العدوان (أو التدمير أو الموت) . والنظرة الفاحصة المتأنية ستثبت لنا إمكانية إدخال أى نزعة إنسانية تحت واحدة من هاتين الغريزتين. كما أن نظرة شاملة لما يحدث فى عالمنا اليوم -وحدث فيه بالأمس- من انتشار للتوتر والحروب بين الجيران وغير الجيران من الدول، وتعرض العالم لحربين طاحنتين خلال ربع قرن من الزمان، وفشل محادثات نزع السلاح، واستنزاف الدول الغنية المستمر لاقتصاديات الدول الفقيرة ، كل ذلك -ولاشك- يؤكد أن التحليل النفسى على حق فى نظرياته الخاصة بما تنطوى عليه النفس البشرية من نزعات ودوافع عدوانية ، إلى جانب نزعات الحب والبناء فيها. والتحليل النفسى عندما يكشف الغطاء عن حقيقة ما يعتمل داخل النفس البشرية من نزعات ، لايدعو بذلك- كما قد يفهم البعض- إلى الاستهتار بالقيم الخلقية ، بل هو يمد هذه القيم بأساسها العلمى، وينير لها الطريق نحو فهم أفضل ، وبالتالى نحو سياسة أفضل لهذه النزعات وتلك الدوافع .

أما ما ورد فى هذا الانتقاد عن الأحلام- فيقول عنه فرويد : «إلا أننى مع ذلك لم أقرر قط ما نسب إلى من أن تفسير الأحلام يبيّن أن لجميعها مضمونًا جنسيًا أو أنها جميعًا صادرة عن قوى دافعة جنسية . فمن اليسير أن نتبين أن الجوع ، أو العطش ، أو الحاجة إلى الإفراز ، قد تنتج أحلام إشباع شأن أى دافع .. جنسى أو أنانى». (٨- ص٥٣) .

٤- يعيب البعض على التحليل النفسى أنه يهمل دور العوامل البيئية ، فى حين يعيب عليه آخرون أنه يهمل دور العوامل الوراثية .

ومن الطريف أن هذين النقدين ، اللذين جمعنا بينهما الآن على تناقضهما، يثبتان مغالاة نقّاد فرويد والتحليل النفسى بما يذهبون إليه من نقد، حتى أنه عندما يثبت دور العامل البيئى فى موقف سارعوا إلى اتهامه بإهمال العامل الوراثى ، وعندما يثبت دور العامل الوراثى فى موقف آخر سارعوا إلى اتهامه بإهمال العامل البيئى. والواقع ، أن فرويد والتحليل النفسى، بل وأى نظرية أخرى، إذا ما أثبتت شيئًا ، فليس معنى ذلك أنها لابد وأن تنفى الشىء الآخر ما لم تقل النظرية صراحة بذلك ، وإلا كنا نتقول عليها . وفى محاضرته الثالثة والعشرين بعنوان «كيف تتكون الأعراض» يوضح فرويد -بما لايدع مجالاً للشك- إيمانه بتأثير كلٍ من العامل الوراثى والعامل البيئى فى الشخصية . ويشرح ذلك فيما يعرف بسلاسل التتام (بمعنى حدوث تتام بين العامل الوراثى والعامل البيئى فى إحداث المرض النفسى، فإن كان أحدهما ذا تأثير كبير فإن الآخر يؤثر حتى لو كان تأثيره ضعيفًا نسبيًا) . وفى هذه المحاضرة يقول فرويد : «وعلى هذا فتثبيت الليبدو لدى الراشد الكبير- وقد أشرنا إلى أنه يمثل العامل الجبلى فى نشأة الأمراض النفسية- يمكن أن نرده الآن إلى عاملين آخرين . الاستعداد الموروث من جهة ، والاستعداد المكتسب فى الطفولة المبكرة من جهة أخرى ..» (٥- ص٤٠٠) . وفيما سبق أن ذكرناه من تعليق للدكتور سامى محمود على عن اللاشعور توضيح جيد لرأى التحليل النفسى فى أهمية كلٍ من دور الوراثة ودور البيئة معًا ، حيث يقول : «ويمكن القول عامة بأن موضوع التحليل النفسى ليس هو الشعور واللاشعور، بل هو الإنسان فى شمول إنسانيته من حيث هو وحدة بيولوچية اجتماعية ذات تاريخ» . ومن الواضح أن التحليل النفسى فى هذا يتفق وأدق النظريات العلمية السائدة الآن عن تعليل الفروق بين الأفراد بإرجاعها إلى تفاعل تأثير كلٍ من الوراثة والبيئة معًا على الفرد الواحد .

٥- يعترض البعض على كشوف التحليل النفسى التى يرى فيها الشخصية متضمنة لدوافع متناقضة وجوانب متصارعة هى دوافع وجوانب الهو- والأنا - والأنا الأعلى، بينما فكرة التناقض داخل الكيان الواحد لاتتفق مع المنطق.

إن فكرة الصراع والتناقض داخل الكيان الواحد أصبحت واسعة القبول والانتشار بعد أن استطاع الفكر الهيجلى وأصحاب المادية الجدلية التدليل على صدقها ، هذا علاوة على أن كل

من أتيحت له فرصة لتحليل بعض جوانب نفسه ونفوس الآخرين، يتبين بوضوح انطواء النفس على هذا التناقض ، حتى على المستوى الشعورى نفسه، تمامًا كما تنطوى دينامية الإنسان البيولوچية على العمليتين المتناقضتين الشهيرتين ؛ أعنى بهما عملية الهدم وعملية البناء . إذن ، ففكرة التناقض داخل النفس الواحدة واحتوائها على دوافع وجوانب متصارعة فكرة مقبولة فى حد ذاتها، مؤيدة من الخبرة المباشرة بما لايدع مجالاً للشك. أما فكرة عدد هذه الدوافع المتناقضة ومسمياتها ، وعدد جوانب النفس المتصارعة ومسمياتها، وما إلى ذلك من أمور تفصيلية تتعلق بالصراع والتناقض، فيمكن أن يختلف عليها من شاء ، فهى فروض أقرب للفروض الفلسفية التى تعين على الفهم دون أن تفيده . وبهذا الصدد، يقول فرويد: «وفى المؤلفات التى تمت فى الأعوام التالية (وما فوق مبدأ اللذة، نفسية الجماعة وتحليل الأنا، الأنا والهو)، أطلقت العنان للميل إلى التفلسف الذى كبحته زمنًا طويلاً ، وأعملت فكرى فى حل لمشكلة الغرائز ..» (٨ ، ٦٨) كما قال : «ويكفى أن نذكر أنه بدا لى أمراً مشروعًا أن ألحق بالنظريات التى كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة ، فروضًا غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع . فروضًا متعلقة بأمور لايمكن أن تخضع للملاحظة والمباشرة . وليس هذا بدعًا فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج . إن تقسيم اللاشعور بدوره يرتبط بمحاولة تصوير الجهاز النفسى بوصفه يأتلف من عدد من النظم الوظيفية تعبر عن علاقاتها المتبادلة بعبارات مكانية، دون أن يعنى ذلك -بطبيعة الحال- أنه تقسيم يستند إلى التشريح الفعلى للمخ . (أطلقت على هذه الطريقة- فى تناول الموضوع - الطريقة الطبوغرافية) . هذه الأفكار بمثابة بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى، يمكن لأى جانب منه أن يترك أو يعدل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته ». (٨- ص٣٨-٣٩) .

٦- هناك انتقاد آخر يشيع بين كثير من المفكرين والمثقفين، بدعوى أن التحليل النفسى علم مثالى، يهمل شأن المادية الجدلية فى الحياة النفسية .

إن الافتراء على التحليل النفسى، ووصمه بالمثالية لإهماله تأثير العامل الاقتصادى على البناء النفسى للإنسان مرده إلى عدم استقامة فهم كلٍ من المادية والمثالية . فليس صحيحًا أن النظرية المادية تهمل كل عامل إلا العامل الاقتصادى ، وإن كانت تعطيه -بلا شك- أهمية أكبر من غيره ، لكن ليس بمعنى إهمال كل شيء ما عداه وإنكاره . ففى مقال الدكتور عابد الجابرى (أحد أتباع المادية الجدلية بالمغرب) عن «التاريخ والفلسفة» يقول : «فالشيء المادى

لم يعد جسمًا صغيراً كحبة الرمل، بل أصبح نشاطًا وطاقة ... إن التصنيف المشهور الذى ألح عليه أنجلز ، والذى يقسم الآراء والنظريات إلى مثالية ومادية صحيح، إذا أخذناه كأداة منهجية . ولكن إعطاء مضمون ما للمثالية أو للمادية يجب أن نعتمد فيه على المرحلة التاريخية والأهداف الأيديولوچية ، فما نسميه بالنزعة المثالية قد تكون تقدمية تخدم أهداف المستقبل والطبقات المحرومة وقد تكون رجعية تخدم الأيديولوچية الاستغلالية، وذلك حسب اختلاف الظروف والملابسات التاريخية والاجتماعية، وكذلك الشأن بالنسبة للنزعة المادية ، (١٣-٢١ ، ٢٤،٢٣) . ويقول بعد ذلك فى نفس المقال- . «وفى هذا المجال يجب أن نعطى للدين كعقيدة تغلغلت فى صفوف الجماهير حتى أصبحت قوة مادية مكتسحة الدور الذى يستحقه فى أحداث التاريخ الإسلامى ومسلسل تطوره . ويجب ألاّ نغفل دور الدين بدعوى تجنب السقوط فى المثالية فهذا كلام فارغ وشعار أجوف» (١٣- ص٢٦) .

ولكى نستكمل مناقشة هذا النقد للتحليل النفسى، يحسن أن نلجأ إلى ما قاله فرويد نفسه عن المادية الجدلية (الماركسية) فى محاضرته الخامسة والثلاثين التى عنوانها «النظرة إلى الكون» . بعد أن يعترف فرويد صراحة بأسفه لقصور معرفته بالماركسية يقول : «إن بحوث (كارل ماركس) فى البناء الاقتصادى للمجتمع، وفى تأثير الأشكال المختلفة للتنظيم الاقتصادى فى كل أقطار الحياة الإنسانية ، قد أصبح لها اليوم نفوذ لايمكن أن يجحد ... من الجلى أن قوة المذهب الماركسى لاتقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلية التى يبينها على هذه النظرة ، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية، وتأثيرها الحاسم فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان . وهكذا، أميط اللثام عن طائفة بأثرها من الصلات والتتابعات العلية التى كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد . غير أنه لايمكن التسليم بأن الدوافع الاقتصادية هى الدوافع الوحيدة التى تحتم سلوك الناس فى المجتمع . فمما لا مراء فيه أن مختلف الأفراد والشعوب والسلالات لايكون سلوكها واحداً فى نفس الظروف الاقتصادية. وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أن العامل الاقتصادى لايمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد ، بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية حين يتعلّق الأمر باستجابات كائنات بشرية حية ؛ لأن العوامل لاتساهم فى إقامة الظروف الاقتصادية فحسب، بل تحدد كذلك أفعال الناس ، فالإنسان لايستطيع أن يعمل ، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف ، إلا بدافع من نزعاته الغريزية : كغريزة المحافظة على النفس، وحب العدوان ، والحاجة إلى الحب، هذا إلى جانب ما لديه من دافع إلى التماس للذة وتفادى الألم..» (٦-ص١٦٧،١٦٩).

ومن أقوال فرويد هذه وتعليقاته على الماركسية ، يتبين بوضوح تقدير فرويد واعترافه بأهمية العامل الاقتصادى فى توجيه السلوك وتشكيل سمات الشخصية ، لكنه ينكر أن يكون هو العامل الوحيد . «ومن الإنصاف لماركس أن نقرر أن ما يأخذه فرويد عليه من إغفال دوافع الإنسان الغريزية يمكن الإجابة عنه بقول ماركس : (إننى لست ماركسيًا) وهو يعنى بذلك -من غير شك- أن باب الاجتهاد لم يقفل ، ولاينبغى له أن يقفل . ومن الإنصاف للماركسيين أن نذكر أن بعض فلاسفتهم المعاصرين فطنوا لذلك وأخص بالذكر هربارت ماركيوز ، وبخاصة فى كتابه (إيروس والحضارة)» (١٧- ص١٠) . وفيما نقلناه سابقًا عن الدكتور عابد الجابرى ما يدعم نفس الرأى .

وإذا كانت الأقدار قد شاءت أن تكون النظرية الماركسية سابقة على فرويد، مما أتاح له فرصة إبداء رأيه فيها- على نحو ما سبق- فماذا يا ترى كان رأى ماركس فى نظرية التحليل النفسى ، فيما لو شاءت الأقدار عكس ذلك ، فكان فرويد بنظريته فى التحليل النفسى أسبق تاريخيًا أو معاصراً لماركس !

ومع كل هذا ، فإنه «من الطريف أن نذكر أن فرويد كان ماديًا جدليًا بمعنى خاص عندما سجل فى حقل كشوفه الصراع بين الرغبة والدفاع ، (وهما طاقات بيولوجية أى مادية) والتسوية الموفقة بينهما (جماع الأطروحة) فتكون الصحة أو التسوية غير الموفقة فيكون المرض» . (١٧- ص٩-١٠) . ولمزيد من التفاصيل حول هذا الأمر ، نحيل القارئ إلى أوسبورن فى كتابه «الماركسية والتحليل النفسى» ، وإلى الدكتور أحمد فائق فى كتابه «التحليل النفسى بين العلم والفلسفة» (١) .

٧- هناك انتقاد آخر يوجه إلى شخصية فرويد بشكل مباشر، وإن قصدت به -أيضًا- مكتشفاته وآراؤه بشكل غير مباشر ، هذا الانتقاد هو ادعاء البعض أن فرويد كان مولعًا بابتداع الأفكار الغريبة وترويجها حبًا للظهور ، كما كان مستبداً برأيه جامداً عليه ، يضيق بمن يعارضه أشد الضيق ، حتى أنه لم يبق له فى النهاية من تلاميذه وزملائه إلا من ارتضوا السير وفق هواه وتبنى أفكاره .

ومن الإنصاف لفرويد أن نقرر أن تاريخه مع اكتشاف التحليل النفسى، وما عرض له من قضايا، وما كتبه فى مؤلفاته يقوم دليلاً واضحًا على بطلان هذا النقد . فلقد كان فرويد من التواضع العلمى الذى جعله يرجع الكثير من مكتشفاته الهامة إلى غيره، ويصحح اعتقاد

الناس الخاطئ بأنه أول من اكتشفها . واكتفى بإيراد مثلين -فقط- على ما أقول : أما أولهما فيتعلق بحديث فرويد عن وجود معنى فى أعراض الأمراض النفسية، حيث يقول : «لقد كان بروير Breuer أول من كشف عن معنى الأعراض العصابية فى دراسته وعلاجه الناجح لحالة هستريا، أصبحت من الحالات الشهيرة التى يشار إليها منذ ذلك الحين (عام١٨٨٠-١٨٨٢)، والحق ، أن جانيه Janet قد ظفر بهذا الكشف نفسه مستقلاً عن بروير ، بل لقد كان لهذا العالم الفرنسى أسبقية النشر ؛ لأن بروير لم ينشر ملاحظته إلا بعد أكثر من عشر سنوات (عام ١٨٩٣-٩٥). يوم كنّا نعمل معًا ، ولايعنينا كثيراً أن نعرف إلى من ينتمى هذا الكشف. فكل كشف يصنع أكثر من مرة ، وليس ثمّة كشف صيغ كله دفعة واحدة ، والنجاح لايعزى دائمًا إلى من يستحقه ؛ فأمريكا لم تسم باسم مكتشفها كولومبس . وقبل بروير وجانيه ، صرّح لوريه Leuret الطبيب العقلى العظيم بأنه من الممكن أن نقع على معنى حتى فى أهجسة المجانين ، إذا عرفنا كيف نترجمها . (٥ - ص٢٨٥) . وأما المثل الثانى، فنقتطفه من أقوال فرويد عندما يتعرض للحديث عن الرمزية التى يستخدمها الحلم فى التعبير حيث يقول : «الرمزية ليست وقفًا على الأحلام وحدها، وليست خاصة مقصورة عليها دون غيرها ... الرمزية فى الأحلام ليست من كشوف التحليل النفسى ، ولو أن هذا العلم لم يقصر ، فى الحق، عن الإتيان بكشوف رائعة . فإذا أردنا أن ننسب هذا الكشف إلى صاحبه فى العصر الحديث فإن صاحبه هو الفيلسوف شرنر Scherner (١٨٦١) . وقد جاء التحليل فعزز هذا الكشف وأيده». (٥-ص١٥٨) .

هذان مثالان من أمثلة كثيرة تنتشر فى كتابات فرويد، ينفى فيها عن التحليل النفسى سبقه إلى اكتشاف كثير من القضايا الهامة التى يظن أنها من اكتشافه ويذكر -بكل تواضع- أنه لو كان له من فضل فهو مجرد تعزيزها ، وإقامة الدلائل على صدقها من واقع خبراته الإكلينيكية والتحليلية . وما سبق أن ذكرناه عن القول باللاشعور وبالجنسية الطفلية يؤيد ذلك؛ إذ يرجع اكتشاف اللاشعور والحديث عنه إلى الفلاسفة السابقين على فرويد ، ويرجع أول كشف للجنسية الطفلية إلى الدكتور لندنر . فلو كان فرويد يسعى إلى شهرة أو ظهور لأيدّ سبق التحليل النفسى إلى اكتشاف كل ذلك ، أو على الأقل تغاضى عن تصحيح أفكار الناس عن حقيقة مكتشفيها . إن من يسعى للظهور والشهرة غالبًا ما يفضل أن تكون شهرة طيبة تجلب له الكسب ورفعة الشأن ، لكن تاريخ فرويد فى بدء إقامته للتحليل النفسى يثبت أن نتيجة تمسكه بما آمن بصدقه من قضايا أدت إليها بحوثه قد جلب على نفسه الاستهزاء

والسخرية وسوء السمعة بين زملائه ، ووسط مجتمعه لفترة طويلة . لكن صلابته وجرأته جعلتاه يواصل طريقه، غير عابئ بأية مضايقات أو خسائر فى طريقه لاستكمال كشف خبايا النفس الإنسانية ، فتحقق له ذلك .

أما تمسكه برأيه وجموده عليه، فلم يكن إلا تمسك الشخص الذى يعتقد بصدق ما يتمسك به، حتى إذا تبين له زيفه تخلى عنه إلى الحق. وقصة اكتشاف التحليل النفسى وإقامة قضاياه وتطويرها يثبت ذلك بشكل واضح . فما كان فرويد يكابر بالمعنى فى رأى سبق أن نادى به ثبت له من بعد عدم استقامته . ولذلك، كان فرويد يراجع قضاياه فى ضوء ما تؤدى إليه خبرته الجديدة من إضافات وتعديلات . والتعديلات التى أدخلها فى نظريته عن الجهاز النفسى وعن الغرائز (حوالى ١٩٢٠) تثبت ذلك، مع أنه كان يعى أن خصومه قد يستخدمون تعديلاته سلاحًا لنقده، إلا أنه ما كان يأبه إلا بالسعى وراء اكتشاف الحقيقة وتقريرها . ويبدو أن جرأة فرويد فى هتك ستار النفس، وكشف زيف الشعور وسوءات ما يختفى من ورائه جعلته كمن يأتى العامة بخبر سيئ فإذا بهم يغضبون من الخبر، ثم يزيحون هذا الغضب (وفق ميكانيزم الإزاحة فى التحليل النفسى) دون وعى إلى الشخص الذى لم يكن له من ذنب سوى حمل الخبر. وبهذا الصدد، يقول فرويد : «عيب دائمًا على التحليل النفسى نقصه وعدم اكتماله، مع أنه من الواضح أن علمًا يقوم على أساس الملاحظة ليس أمامه إلا أن ينجز كشوفه جزءًا جزءًا ، ويحل مشاكله خطوة خطوة وكذلك عندما سعيتُ كى نُعنى بالوظيفة الجنسية ، تلك العناية التى مَنعت عنها زمنًا طويلاً ، اتهمت نظرة التحليل النفسى بأنها (ترى الجنسية فى كل شىء) . وعندما أكّدت أمراً طال إغفاله، هو أهمية الدور الذى تلعبه المشاعر التى تعرض فى الطفولة الباكرة ، قيل لى إن التحليل النفسى ينكر العوامل الخلقية والوراثية- الأمر الذى لم يخطر ببالى قط . لقد كان الأمر مجرّد معارضة بأى ثمن وبأى طريقة». (٨- ص٦٨) .

هذا، ولعلّ من المناسب -قبل أن نختم هذا المقال- أن نورد فقرة كتبها هول ولندزى فى كتابهما القيم «نظريات الشخصية» عندما تعرضا لفرويد، محاولين تقييم منهجه ومكتشفاته، فقالا: «غير أنه من الخطأ الجسيم القول بأن أقوال المرضى تحت العلاج كانت هى المقومات الوحيدة التى صاغ منها فرويد نظرياته. إذ مما لاشك فيه أنه لايقل أهمية عن هذه المعطيات الخام، الاتجاه النقدى الصارم الذى اصطنعه فرويد فى تحليل التداعى الطليق لمرضاه ويمكننا

اليوم أن نقول إنه حلل مادته الخام باستخدام منهج الثبات الداخلى. فالاستنتاجات التى يستخلصها من جزء من المادة يقارنها بالدلائل المؤيدة التى تظهر فى الأجزاء الأخرى ، بحيث تكون الاستنتاجات النهائية المستخلصة من حالة ما مبينة على شبكة متداخلة من الوقائع والاستنتاجات . إن فرويد كان يواصل عمله بنفس طريقة المخبر السرى الذى يجمع الشواهد أو المحامى الذى يعرض الحالة على المحلفين . فلا بد من أن يأتلف كل شىء بعضه مع البعض الآخر بصورة متماسكة قبل أن يرضى عنه فرويد ويحس بأنه قد وضع إصبعه على التفسير الصحيح . وعلينا أن نتذكر بالإضافة إلى هذا أن المادة التى تنتجها حالة واحدة تشاهد خمس ساعات فى الأسبوع لفترة قد تطول إلى عامين أو ثلاثة هى على قدر هائل من الضخامة وأن فرويد كانت تتاح له فرصة ضخمة ليتيقن ويعاود التيقن من صحة استنتاجاته عشرات المرات قبل أن يقرر التفسير النهائى . وعلى العكس من ذلك نجد أن المفحوص فى التجربة السيكولوچية التقليدية التى تتم فى ظروف مضبوطة يفحص أو يختبر لفترة لاتزيد فى المتوسط عن ساعة أو ساعتين . ومما لاشك فيه أن إسهامين من أهم إسهامات فرويد فى استراتيچية البحث هما الدراسة المتعمقة لحالة واحدة واستخدام طريقة الثبات الداخلى لاختبار الفروض» . (١٩ - ص٨١) .

خاتمة :

خصَّصنا هذا المقال لمناقشة أبرز الانتقادات والافتراءات التى وجهت - ولاتزال- إلى التحليل النفسى ، ورائد مدرسته سيجموند فرويد ، سواء كانت من ناحية المنهج أم من ناحية الاستنتاجات والقضايا التى أثبتها التحليل النفسى. وكما عرضنا ، يتبين أن هذه الانتقادات وتلك الافتراءات لم تقم على أساس سليم من الموضوعية . لقد قامت ، فى جانب منها - على فهم خاطئ لكثير من المفاهيم التى انطلقت منها ؛ كمفهوم المنهج العلمى (كمنهج واحد جامد لايتنوع باختلاف طبيعية الظواهر المدروسة) . وكمفهوم المادية فى مقابل المثالية . كما قامت هذه الانتقادات وتلك الافتراءات ، فى جانب ثانٍ منها ، على جهل أو عدم فهم لما قال به وكتبه فرويد والمحللون النفسيون . والأخطر من ذلك أنها قامت ، فى جانب ثالث منها ، على مكابرة عنيدة ، أو سوء نية واعية أو غير واعية ، وإيثاراً للسلامة ، وحفاظًا على فكرة الكمال والسمو التى يلذ للإنسان أن يظل متصفًا بها .

وفى رأينا ، أن الهجوم والافتراء على التحليل النفسى بهذه الكيفية لا يخدم قضية العلم الإنسانى فى شىء، بل يهدف إلى تقويض الشرعية العلمية التى اكتسبها التحليل النفسى،

وبالتالى حرمان المعرفة الإنسانية من فرع علمى جرئ اخترق النفس البشرية اختراقًا جرئيًا فكشف عن أعماقها، وحرَّرها من جهالتها ، ووضعها فى مواجهة صريحة مع حقيقتها . وليس تقبل الحقيقة بالأمر السهل على الإنسان . ويكفى أن نقرأ فى تاريخ العلم والعلماء لنعرف كيف كانت مجتمعاتهم تجابههم بنوع من الغضب العنيف، الذى وصل إلى حد إعدام بعضهم حرقًا ، ونفى ، أو سجن ، أو عقاب الكثيرين منهم ، مع الاستهزاء والسخرية بمكتشفاتهم ونتائجهم، بمثل ما حدث فى العصور الوسطى.

وكيفما كان الأمر، فقد أثبت التحليل النفسى فاعليته وتأثيره ، فهو يطبع الثقافة الإنسانية فى عالم اليوم- على اتساعها- شئنا أم أبينا، وما كان ليتاح له ذلك لولا أن الاختبار المستمر لقضاياه الأساسية يثبت صدقها وواقعيتها وموضوعيتها، يومًا بعد الآخر .

* * *

المراجع :

١- أحمد فائق : التحليل النفسى بين العلم والفلسفة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٢- أيزنك: الحقيقة والوهم فى علم النفس ، ترجمة قدرى حفنى ورؤوف نظمى ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

٣- دانييل لاجاش : المجمل فى التحليل النفسى، ترجمة مصطفى زيور وعبد السلام القفاش، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٤- سامى محمود على : ثبت المصطلحات الواردة فى نهاية ترجمة «الموجز فى التحليل النفسى»، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٥- فرويد ، سيجموند : محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، ترجمة أحمد عزت راجح ، مراجعة محمد فتحى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

٦- فرويد ، سيجموند : محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى، ترجمة أحمد عزت راجح ، مراجعة محمد فتحى، مكتبة مصر، القاهرة .

٧- فرويد سيجموند : الموجز فى التحليل النفسى، ترجمة سامى محمود على وعبد السلام القفاش، مراجعة مصطفى زيور، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٨- فرويد ، سيجموند : حياتى والتحليل النفسى، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجى ، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧ .

٩- فرج عبد القادر طه : تحليل الفرد باستخدام المقابلة ، فى : قراءات فى علم النفس الصناعى والتنظيمى، القاهرة ، الجهاز المركزى للكتب الجامعية ، ١٩٧٨ .

١٠- فرج عبد القادر طه : العلاقة بين الإصابات فى الصناعة والصفحة النفسية للذكاء ، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد : ٦ عدد : ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

١١- فرج عبد القادر طه : سيكلوچية العامل المشكل فى الصناعة ، المجلة الاجتماعية القومية ، مجلد: ٩ ، عدد : ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

١٢- محمد عابد الجابرى : التاريخ والفلسفة ، السلسلة الجديدة من : أقلام ، عدد : ٣ ، الدار البيضاء ، ١٩٧٢ .

١٣- محمد عابد الجابرى : التاريخ والفلسفة ، السلسلة الجديدة من : أقلام ، عدد : ٣ ، الدار البيضاء ، ١٩٧٦ .

١٤- محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

١٥- مصطفى زيور : فى التحليل النفسى، محاضرات إذاعية، القاهرة .

١٦- مصطفى زيور : تصدير ترجمة «حياتى والتحليل النفسى» دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٧- مصطفى زيور : تصدير ترجمة «الماركسية والتحليل النفسى» ، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٢ .

١٨- مصطفى زيور : تقديم «انحراف الأحداث» ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧١ .

١٩- هول ولندزى : نظريات الشخصية ، ترجمة فرج أحمد فرج وقدرى محمود حنفى ولطفى محمد فطيم، مراجعة لويس كامل مليكة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢٠- Barratt, P. Bases of Psychological Methods , John Wiley and Sons, 1971 .

٢١- Bernal , J. Science in History (Vol. 4) , A Pelican Book , (Penguin Books), 1969 .

٢٢- Durant, W, The History of Philosophy, Boek et Books, New York, 1976 .

٢٣- Nell, A. Theories of Psychology, University of London Press Ltd 11971 .

أضواء على سيكلوچية الشخصية العربية *

تمهيـد :

«اعرف نفسك» شعار فلسفى رفعه فيلسوف اليونان العظيم سقراط منذ ما قبل الميلاد بأكثر من أربعة قرون. ولقد بقى هذا الشعار -بما ينطوى عليه من حكمة بالغة- يتردد حتى يومنا هذا، ذلك أن فهم الشىء ومعرفته هو الخطوة الأولى فى سبيل التحكم فيه وتطويعه وفق ما نريد أن يكون عليه. ولعل هذا هو أهم الأسباب التى تدعونا الآن إلى إلقاء بعض الضوء على سيكلوچية الشخصية العربية .

هل توجد شخصية عربية ؟

من المتفق عليه فى الاصطلاحات العلمية للعلوم الإنسانية وجود مصطلح شخصية Per-sonality ، ويقصد به التنظيم الدينامى لسمات وخصائص ودوافع الفرد النفسية والفسيولوچية والجسمية، ذلك التنظيم الذى يكفل للفرد توافقه وحياته فى المجتمع، ولكل شخص تنظيمه هذا الذى يميزه عن غيره؛ وبمعنى آخر فإن لكل فرد فى المجتمع شخصيته الفريدة .

ويمكن ، بالقياس على تعريف الشخصية هذا، أن نقر بوجود ما يعرف بالشخصية القومية؛ أى الخصائص والملامح التى تميز شعبًا عن غيره ، أو أمة عن غيرها . ويطلق على الشخصية القومية اصطلاح «الطابع القومى National Character » فى المصطلحات العلمية لعلم النفس . وفى هذا الصدد، يعرف إنجلش وإنجلش الطابع القومى بأنه «الخصائص الشخصية الثابتة نسبيًا ، والأكثر وجوداً وانتشاراً فى أمة معينة»[1] .

---

* دراسة أعدها المؤلف فى أواسط عام ١٩٧٨ ، وأعادت نشرها مجلة الثقافة النفسية ، التى يصدرها مركز الدراسات النفسية بلبنان (طرابلس) فى المجلد :٣ ، عدد : ٩ ، يناير ١٩٩٢ ، ٥٠-٦٢ .

١- English H. B. and A. C. English . A Comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical Terms, Longmans, 1958 .

وبما أن العرب تضمهم جميعًا قومية واحدة، لم يعد وجودها الواقعى محل جدل، حيث اللغة المشتركة ، والتاريخ الواحد، والامتداد الجغرافى المتصل، والأمانى المشتركة ، فإن الشخصية العربية تفرض عندئذٍ وجودها حقيقة قائمة، وواقعًا ملموسًا لاسبيل إلى نكرانه ، وإن اختلف الناس بين مؤيد يريد تقوية هوية الأمة العربية، أو معارض يريد تقويضها وهدمها .

والآن ، حيث انتهينا إلى الإقرار بوجود شخصية عربية - على نحو ما عرضنا- ننتقل إلى بحث علمى نلتزم فيه موضوعية الرأى والعلم قدر استطاعتنا ، ونبتعد فيه- ما وسعنا الجهد- عن الانحيازات القومية والذاتية ، علنًا نستطيع العثور على بعض الخصائص السيكلوچية التى تميز الشخصية العربية . وليكن بدؤنا بالخصائص ذات الطابع الانفعالى الأوضح، وانتهاؤنا بالخصائص ذات الطابع الفكرى الأوضح .

أولاً : الخصائص ذات الطابع الانفعالى :

نقصد بالخصائص ذات الطابع الانفعالى تلك الخصائص والسمات التى يسود فيها الجانب العاطفى والوجدانى ، وما يترتب على ذلك من أساليب الشخصية فى التعامل مع هذا الجانب وتوجيهه وسياسته ، ونرى بهذا الصدد أن من أهم ما يميز الشخصية العربية :

١- الحدة الانفعالية وسهولة تقلبها :

من الملاحظ على الشخصية العربية سهولة استثارتها الانفعالية ، فمن السهولة بمكان أن ينقلب التأييد إلى معارضة ، أو تنقلب المعارضة إلى تأييد فى أيٍ من البلاد العربية بسبب حدث سطحى تافه . وهذه الخاصية النفسية تناقض ما هو معروف بالبرود الانفعالى، والذى تتميز به بعض الشخصيات القومية؛ كالشخصية الإنجليزية على سبيل المثال [١].

ونلمس -مصداقًا لهذا- كثيرًا من الظواهر الاجتماعية فى مختلف البلاد العربية ؛ من أمثلة التعصب الشديد لأندية كرة القدم وانتشاره الأشد بين نسبة كبيرة من مواطنى البلاد العربية . ومن أمثلة ذلك -أيضًا- التقلب الوجدانى السريع والمتكرر فى العلاقات بين كل بلد عربى وآخر . فإذا ما نظرت إلى خلاف بين بلد عربى وآخر وجدت من حدة الانفعال ما يجعلك

١- Argyle, M. Psychology and Social Problems, Social Science Paperbacks. London, 1967 , p.31 .

تعتقد أنه خلاف سوف يدوم أبداً ، ثم يحدث حدث ما فإذا بهذا الخلاف يدفن ليحل محله اتفاق ووفاق ، يخيل إليك -أيضًا- أنه أبدى لشدة ما يصاحبه من ترحاب وانفراج وتهليل . وإنك لواجد نفس الأمر بين البلد العربى والبلد الأجنبى بكيفية مشابهة ، فإذا بالعدو ينقلب بين يوم وليلة إلى صديق حميم، وإذا بالصديق الودود ينقلب بين يوم وليلة إلى عدو لدود .

وليس الأمر منتهيًا عند مجرد الحدة الانفعالية وسهولة تقلبها ، مما يفقد فينا ثقة الصديق ويطمئن العدو، بل إن هذه الخاصية من طبيعتها أنها توقف فى الإنسان منطق العقل، وتعميه عن رؤية الواقع رؤية واضحة، فيكون من نتيجة ذلك ألا يكون رد الفعل متأنيًا مدروسًا بروية، ومن وجوهه المختلفة ، مما يوقعنا فى الكثير من المشاكل ، ويجلب علينا الكثير من الأضرار .

إن الأعداء الذين يتربصون بالأمة العربية فى محاولة لتبديدها وقبرها يعرفون عنا هذه الخاصية ، ويستثمرونها لتحقيق أهدافهم أبشع استخدام فيكفى- على سبيل المثال- أن يؤجر عدو لنا مواطنًا لإحدى البلاد العربية ، ويكلفه بالإساءة لمواطن من بلد عربى آخر، ثم تقوم أجهزة الإعلام بتضخيم هذا الحدث ، حتى يسبب هذا أزمة بين البلدين الشقيقين ، أو على أقل تقدير، تتأثر اتجاهات مواطنى بلد المساء إليه نحو مواطنى بلد من أساء . وبمعنى آخر، فإن الحادث الفردى ، الذى ينبغى أن يظل محصوراً فى صفته الفردية ، ينقلب -بسهولة وبغير منطق عقلانى مقبول- إلى حدث عام يؤثر فى وجدان بلد بأسره تجاه بلد شقيق بأسره أيضًا . إن هذا الموقف اللامنطقى -فى هذا المثال الذى ضربناه الآن- يشبه فى منطقه المرفوض أن نحكم على أفراد شعب معين بأنهم خونة وجواسيس على بلادهم لصالح عدوهم، لمجرد اكتشاف شبكة تجسس من أعضائها فرد أو اثنان من هذا الشعب المعين .

هذا، وسوف نرجئ -مؤقتًا- محاولة الإشارة إلى العوامل الأساسية التى أكسبت الشخصية العربية هذه الخاصية الانفعالية ، على أن نعود إليها فى أماكن أخرى من هذا البحث فى الحين المناسب .

٢- التوحد بالمعتدى :

فى كتابها «الأنا وميكانيزمات الدفاع» خصصت أنا فرويد الفصل التاسع منه للحديث عن ميكانيزم «التوحد بالمعتدى» . وميكانيزم التوحد بالمعتدى هو وسيلة نفسية تلجأ إليها الشخصية ؛ إذ تتشبه -فى بعض جوانبها الانفعالية والسلوكية- بالشخص الذى تخشى

عدوانه . وبهذا لاتعود الشخصية مهددة خائفة بل تصبح مهددة مخيفة . وهكذا، يعالج الفرد مخاوفه ويتخلص منها إذ يحس القوة والاقتدار . وتلخص أنا فرويد هذا فى عبارتها : «فبمحاكاته شخصية المعتدى، يتبنى خصائصه، وبمحاكاته عدوان المعتدى يحيل نفسه من الشخص موضع التهديد إلى الشخص مصدر التهديد»[١].

لقد مرّت الأمة العربية فى الفترة الأخيرة من تاريخها بعدة قرون تعرض فيها الشعب العربى للعدوان والهوان، من جانب استعمار طال بقاؤه ، وتعددت أجناسه واتجاهاته، وإن اتحدت أهدافه فى إذلال الأمة العربية ، واستنزاف مواردها الاقتصادية ، وتبديد قوميتها العربية ، وتفتيت وحدتها التاريخية . وكان من جراء ذلك أن ضعفت الشخصية العربية، وأحست بالقصور إزاء مستعمريها ، مما مكّن المستعمر من مضاعفة عدوانه عليها، واستنزافه لقواها المختلفة، خاصة إمكانياتها الاقتصادية . وهكذا، هيّأ هذا الظرف التاريخى، الذى طالت مدته وزادت وطأته على الشخصية العربية ، أن تلجأ إلى وسيلة التوحد بالمعتدى لتجد فيه إحساسًا ذاتيًا بالقوة ، ينفى إحساسها بالقصور إزاء المستعمر، ودرءًا للخوف من التهديد المستمر بالعدوان.

وإذا تأملنا نتائج توحد الأمة العربية بالمعتدى (وهو هنا المستعمر) لوجدنا أن بعضها كان ذا فائدة للشخصية العربية ، فى حين كان بعضها الآخر ضاراً بها. فمن أمثلة النتائج الإيجابية امتصاص الشخصية العربية ، واستدماجها لعلوم وتقنيات وأساليب الإنتاج التى يتميز بها المستعمر ، وليست البعثات التدريبية والتعليمية ، التى خرجت من الوطن العربى إلى أوروبا فى عهد محمد على وما قبله وما بعده، بما حققته من نتائج إيجابية ، إلا مثلاً واضحًا على ما نقول . وما محاولاتنا -حتى الآن- الاستفادة من أقصى ما وصل إليه العلم الأوروبى والأمريكى وتطبيقاته ونقلها إلى الوطن العربى للاستفادة منها إلا مثلاً آخر على ما نقول .

لكن التوحد بالمعتدى جلب مع ذلك للشخصية العربية الكثير من الأضرار الخطيرة لعل أهمها :

(أ) فى قطاع من الشخصية العربية -لابأس بحجمه- استدمجت فيه الشخصية العربية لغة المعتدى حتى كادت تنسى لغتها القومية (كما حدث لعرب الشمال الإفريقى والصومال)،

١- أنا فرويد . الأنا وميكانيزمات الدفاع ، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق، مراجعة مصطفى زيور ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢ ، ص١١٩ .

بل إن الأمر تعدَّى ذلك، حتى أصبح هذا القطاع يزهو باللغة الدخيلة ويحتقر اللغة القومية، وكأن مجرد التشبه اللغوى بالمستعمر- حتى بعد أن رحل- هو الدليل الوحيد على القوة والتقدم والعصرية . والخطورة فى هذا الأمر تتمثل، أكثر ما تتمثل، فى أهمية اللغة للوحدة العربية، ولنقل التراث الحضارى العربى العظيم عبر أجيال الأمة. ومع إيماننا بأنه قد جرت من جانب المستعمر محاولات مقصودة ومدروسة لتغيير لغة قطاعات عريضة من الشعب العربى، سواء استخدم فيها الترغيب أو الترهيب، إلا أن المقاومة التى يلقاها التعريب الآن، والتمسك التلقائى بلغة المستعمر فى هذه القطاعات - حتى بعد أن رحل المستعمر وانكسرت شوكته- يقوم دليلاً على رأينا .

(ب) لقد وصل التوحد بالمعتدى، فى قطاع هام ومؤثر من الشخصية العربية، إلى حد التوحد بأهداف الاستعمار ذاتها، فيما يتعلق بتقويض الوحدة العربية، وتبديد القوة الذاتية للعالم العربى، حتى يتم القضاء نهائيًا على الأمة العربية . لقد نجح الاستعمار فى تفتيت الأمة العربية إلى كيانات صغيرة يضعف كل منها وحده عن مقاومة الاستعمار والتصدى لأهدافه . فقسم المغرب العربى إلى تونس والجزائر والمغرب وليبيا ، وقسم الشام إلى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، وهكذا ... ثم بذر الاستعمار بذور الشقاق بين هذه الكيانات العربية بعضها البعض ونفخ فيها، واستغل تفككها وضعفها ليزرع فيها ويدعم الكيان الإسرائيلى، هذا الكيان الذى رأى فيه المستعمر خير ضمان لاستمرار استنزاف طاقات الأمة العربية وتجزئتها وضعفها . ولاشك أن الاستعمار كان شديد الذكاء فى تحقيق أهدافه هذه، فهى مصلحته الأكيدة، لكن الغريب حقًا أن يتوحد قطاع هام ومؤثر -كما قلنا- من الشخصية العربية بأهداف المستعمر ، ويقيمها داخل نفسه هدفًا ذاتيًا له .

إن نظرة على ما دار ويدور خلال الحقبة التاريخية الحالية بين كل دولة عربية وشقيقتها (والتى تكون أحيانًا جارتها المباشرة) من كثرة الخلافات وتبادل الاتهامات ، والحذر والتربص، والتوجيه المتبادل لمظاهر العدوان المختلفة ، نقول إن نظرة على كل هذا ، وغيره كثير، تؤكد رأينا فى أن قطاعًا هامًا مؤثراً من الشخصية العربية قد توحد بأهداف المعتدى المستعمر، وتمثلها ، وأصبح حريصًا على تحقيقها حرص المستعمر ذاته على تحقيقها ، تلك الأهداف التى ترمى إلى ضعضعة الكيان العربى وتمزيقه ، وتبديد قوته فى صراعات جانبيه ، يتلهى بها عن صراعه الأساسى ضد المستعمر والعدو الحقيقى، ويتأخر بها قيام الوحدة العربية الشاملة .

وهنا ، قد يقول قائل إننا نمعن بهذا فى تفسير حركة التاريخ تفسيراً نفسيًا يقربه من التفسير المثالى، وهذا ما لم نقصده . إن هذا التفسير النفسى -لاشك- له أساسه المادى المتمثل أصلاً فى الاستفادة النفعية المباشرة والسريعة التى يجنيها ، أو يحلم بجنيها هذا القطاع المقصود من الشخصية العربية . لكن هذه الاستفادة النفعية - والمادية فى أساسها- لاتبدأ فعلها إلا بعد وصولها إلى البطانة النفسية الشخصية وعيًا بمصلحتها ، ورغبة فى الحفاظ على بقائها ، وتلذذاً بتحقيق إشباعاتها ورغباتها . ومن الجدير بالذكر أن هذا الوعى قد يبلغ من الوضوح حد وعى شخصية أى منا بمصالحه ودوافعه الذاتية الشعورية . كما أن هذا الوعى قد يكون وعيًا غامضًا يتردد صداه داخل الشخصية دون أن يصل بالشخصية إلى مستوى وعيها الشعورى ، وبلغة التحليل النفسى، يكون الوعى هنا «وعيًا لا شعوريًا» بالرغم مما يحمله هذا المصطلح من تناقض فى الظاهر .

(جـ) إن المعتدى المستعمر كان ينظر- وفى الغالب ظل ينظر حتى يومنا هذا- إلى العرب نظرة يغلب عليها الاستخفاف بشخصيتهم ، والاستهانة بكرامتهم وآدميتهم ، وكأن المستعمر من طينة والعرب من طينة مخالفة أقل فى القيمة والتقدير، وأدعى للازدراء والاحتقار . وكما ذكرنا ، فقد توحد قطاع هام ومؤثر من الشخصية العربية بالمعتدى، وكان من نتيجة هذا التوحد أن توحد بنظرة المستعمر تلك إلى الشخصية العربية ، وليس بغريب اليوم أن نلتقى ببعض العرب الذين هم أشد احتقاراً لزملائهم العرب عن أشد القوميات عنصرية ضدهم .وليس من شك فى أن هذه السلبيات، التى نتجت عن توحد الشخصية العربية بالمعتدى، تمارس فعلها الآن بقوة داخل التفاعلات والتناقضات الحالية التى تعتمل فى الشخصية العربية .

ومن الجدير بالذكر أن ميكانيزم التوحد بالمعتدى هو أظهر الأساليب التى لجأت وتلجأ إليها الشخصية الإسرائيلية -حتى يومنا هذا- لإقامة إسرائيل وتقويتها . فالاعتداءات والعداوة الشديدة ، التى لقيها اليهود من المجتمع الأوروبى، والتى وصلت إلى قمتها من ألمانيا النازية، أدت إلى توحد الشخصية الإسرائيلية بالنازية الألمانية (على شاكلة التوحد بالمعتدى وبنفس الدينامية والهدف) فإذا بالشخصية الإسرائيلية تنقلب من شخصي تلقى العدوان النازى، وتحس القصور إزاءه ، إلى شخصية معتدية تهدد بالتدمير فلسطين بأكملها ، وبقية الأمة العربية . ويعينها الاستعمار بمختلف اتجاهاته ومواقعه ، ويكسبها قوة تنجح بها فى تحقيق المراحل الأولى من أهدافها ، فتحسن القوة الطاغية المفاجئة . حقًا، لقد نجحت وسيلة

التوحد بالمعتدى فى دفع الشخصية الإسرائيلية نحو تحقيق حلمها فى إقامة إسرائيل ، لكن ماذا يحدث إذا ظلت الشخصية الإسرائيلية متمسكة بهذه الوسيلة فى المستقبل ؟! لاشك، أن هذه الوسيلة -التى كانت من أكبر ما ساعد على قيام إسرائيل وتقويتها- سوف تنقلب، من حيث أثرها، إلى النقيض تمامًا، فتصبح من أكبر أسباب انهيار إسرائيل وتقويضها . والأمر هنا ليس بمستغرب على الإطلاق . تمامًا كما قصد الألمان النازيون إلى إفناء اليهود ، فإذا بالنتيجة تكون على العكس تمامًا ، حيث تقوم إسرائيل قوية ، يدعمها العالم شرقه وغربه، كرد فعل معاكس للاضطهاد النازى، وتكفير من جانب المجتمع العالمى عما لاقاه اليهود من اضطهاد، سواء فى أوروبا عامة، أو على أيدى النازى خاصة. فاستمرار توحد إسرائيل بالمعتدى وتوجيه عدوانها عنيفًا نحو العرب، سوف يؤدى إلى استفزاز رد فعل عدوانى مقابل من جانب العرب تجاه إسرائيل ، علاوة على أنه سوف يؤدى- وقد بدأ يؤدى بالفعل- إلى انصراف الأنصار والمؤيدين لها من دول العالم ، عندما تتكشف لها حقائق التعنُّت الإسرائيلى واضحة. عند ذاك سوف يتكرر أكتوبر آخر أشد وأعنف، تعانى منه إسرائيل أشد المعاناة وأقساها ، حيث أثبت أكتوبر أن كفاءة المقاتل العربى وشجاعته وسلامة خططه القتالية لاتقل عن مثيلاتها لدى الإسرائيلى. ومما لاشك فيه أن استمرار إسرائيل فى القيام بدور المعتدى المتغطرس ، الذى يدوس على كرامة العربى، سوف يدفع العربى، إلى مزيد من القناعة بعدالة قضيته، وحاجتها للتضحية، حتى يمنع عن نفسه العدوان الموجه إليها من إسرائيل .

٣- سمات الشخصية القبلية :

الشخصية العربية تشيع فيها خصائص الشخصية القبلية إلى حد كبير؛ فمعظم العرب يعيشون على الرعى والزراعة ذات الطابع البدائى حتى عهد قريب. ومن شأن هذا النمط من العمل أن ينمِّى فى أفراد المجتمع الانتماء والولاء للقبيلة والتعصب لها. وتصبح علاقات القرابة فى ظل هذا النظام ، أقوى العلاقات الاجتماعية وأوثق الروابط الانفعالية، وأكثرها حرارة وقيمة . فإذا بالأخ ينصر أخاه ولو على ظلم، ويعادى من عادى فرداً من قبيلته ولو على حق. ويلخص هذا المثل الشعبى القائل : «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب» ظاهرة العلاقات القبلية أبلغ تلخيص .. وسمات الشخصية القبلية فيها إيجابياتها، كما أن لها سلبياتها على المجتمع العربى .

ولعل من أبرز إيجابيات سمات الشخصية القبلية :

(أ) وحدة المشاعر العربية فى مواجهة العدوان والخطر : فالخطر -عادة- يوحد الأمة كعامل يقويها فى مواجهته والتغلب عليه . فالاعتداء الذى تقوم به إسرائيل على أى جبهة عربية يكون له رد فعل من الغضب النفسى يعم كافة البلاد العربية ، ويدفع هذه البلاد نحو التنسيق لملاقاة هذا الاعتداء والانتصار عليه : ويكفى أن نعود بالذاكرة إلى الجو النفسى المشحون، والذى عم أفراد الأمة العربية وقت معركة الكرامة ، وقبلها وقت العدوان الثلاثى على مصر، ووقت كارثة يونيو، وبعدها وقت معركة أكتوبر . إن الأمة العربية -فى مثل هذه الظروف- ينبض قلبها ويتأثر وجدانها ، ويتوحد انفعالها، وكأنها أسرة كبيرة ، أو قبيلة واحدة منتشرة تسود أفرادها قرابة دموية، هى فى حقيقتها وحدة سيكلوچية قبلية .

(ب) تقوية روابط القومية العربية : إن سمات الشخصية القبلية المنتشرة بين العرب هى التى تعمل على تغذية وتقوية ظاهرة الوحدة العربية ، وكأن الأمة العربية قبيلة واحدة ممتدة على مساحة جغرافية متصلة ، وفترة تاريخية مستمرة ، تتكلم لغة واحدة ، وتشيع بين أعضائها روابط مختلفة الدرجة ، وتصبح البلاد العربية وكأن كلاً منها يمثل أسرة صغيرة نسبيًا من أسر هذه القبيلة الكبيرة . وهكذا، نجد للمواطن العربى عضويتين فى نفس الوقت ؛ عضوية محلية ، وعضوية عربية ، تقوم العضوية الأولى مقام الأخوة، بينما تقوم العضوية الثانية مقام أبناء العم فى المثل الشعبى سابق الذكر .

أما أبرز سلبيات سمات الشخصية القبلية ، فإننا نرى من أهمها :

(أ) الذاتية (ونقص الموضوعية) فى تقدير الأمور : ويعتبر هذا من أكبر عيوب الشخصية التى تحمل الملامح القبلية . فكل ما يفعله الإخوة والأقرباء هو الصواب بعينه ، وكل ما يفعله الغرباء هو الخطأ الذى ينبغى أن يقاوم ، فينبغى على كل عضو فى القبيلة أن يتبنى وجهة نظرها، بغض النظر عما تحمل من مضمون ، وإلا عد منشقًا عن القبيلة خارجًا عليها، يطارده غضبها ولعنتها . وهكذا ، يسكت العقل، فلايعود ينظر للأمور يفحصها بموضوعية وتجرد ، ويسلم قياده للأهواء الذاتية التى تتبناها القبيلة ، فيرى صائبًا ما تراه هى صائبًا ، ويرى مدانًا ما تراه هى مدانًا ، وهكذا ...

ويمتد الأمر حتى يشمل الصديق ، ومحل الثقة الشخصية من الزملاء أو الحزب، ليصبح فى منزلة القريب والأخ . عندئذٍ ، يصبح كل ما يفعله صحيحًا يستحق التدعيم ، وكل ما لايرضاه

جريمة تستحق العقاب. وتهدر الموضوعية فى تقدير الأمور وفى تقييم الرجال. ولايعطى منصبًا ذا شأن إلا من كان قريبًا أو صديقًا محل ثقة ، بغض النظر عن كفاءته لشغل هذا المنصب ، وأمانته فى تحمل مسئولياته . ويصبح هذا -بالتالى- مطمئنًا تمامًا إلى نمط العلاقة القبلية الذى يربطه برئيسه ، أو من عينه ، والذى سوف يؤدى إلى حمايته من كل سوء. إن القضية التى طرحت للنقاش فى بعض أرجاء الوطن العربى بالأمس القريب ، والتى عرفت «بأهل الثقة أم أهل الخبرة»، والتى لازالت -حتى الآن- تروى قصصها ووقائعها فى صحفنا ووسائل إعلامنا ، تمثل مدى التأثير السلبى الذى يعانيه الوطن العربى من جراء نمط العلاقات القبلية هذا .

(ب) نقص التحديد وقصور الضبط ، وقلة الدقة : لاتحتاج وسائل الإنتاج وممارسات العمل فى الرعى والزراعة البدائية إلى التحديد القاطع، والضبط الشديد ، والدقة العالية ، التى تحتاجها وسائل الإنتاج الصناعى الزراعى المتقدم . فالعمل فى المصانع الحديثة والمزارع المتقدمة يلتزم بخطوات تفصيلية محددة ، وبتوقيتات مضبوطة ، وبدقة عالية حتى يخرج المنتج خاليًا من العيوب وبالكم المطلوب ، وما لم يتحقق ذلك اختل العمل، وتعرض المصنع أو المزرعة للأضرار والخسارة . فعلى سبيل المثال، إذا تأخر عامل من إحدى الجماعات التى تشتغل على خط إنتاج معين خمس دقائق عن موعده تعطل العمل كله على خط الإنتاج هذا . وإذا لم يلتزم العامل على الآلة بتوجيه دقيق لحركاته وخطوات عمله قد تحدث له إصابة يضار منها، أو تتلف منه الآلة أو المنتج ، مما يعرضه للمسئولية والمجازاة . وما لم يلتزم العامل بالدقة الشديدة فى عمله، فإن منتجاته سوف تخرج وبها الكثير من العيوب التى تجعل السوق ينصرف عنها إلى غيرها، مما يضر بصالح المؤسسة التى يعمل بها ... إذن، فالمجتمع الصناعى يتطلب التحديد والضبط والدقة ، وتعتبر هذه السمات من ألزم ما يحتاجه، وبالتالى تتطبع الشخصية بها .

وفى المقابل، فإن مهنة الرعى والزراعة البدائية لاتتطلب كل هذا التحديد والضبط والدقة ، فيمكن للراعى أو المزارع التقليدى أن يتقدم أو يتأخر بعض الوقت فى عمله دون تأثير على إنتاجيته . كما يمكن أن يعمل اليوم هنا أو هناك ، ويمكن أن يخط بالمحراث خطًا غير مستقيم هنا ومستقيمًا هناك ، ويعود ليستكمل اليوم ما تركه بالأمس... دون أن يضطرب عمله أو عمل غيره ، أو يتأثر ، أو يتوقف . كما أن العمل الذى يقوم به ابنه الأكبر يمكن أن يقوم به ابنه الذى يليه دون ما تأثير .. إلخ . وينتج عن هذا نمط للشخصية لايهتم كثيراً بالتحديد والضبط والدقة الشديدة ، طالما كان التجاوز عنها لايسبب عرقلة لعملية الإنتاج ، أو لسير العمل.

ولنتأمل مظاهر هذه السمة فى الشخصية العربية، فنجد الكثير الذى يدل على توفرها . فالمواعيد قل أن تحترم ، فيأتى الفرد -غالبًا- متأخراً عن موعده ، وإذا ما تصفحت برنامجًا للإذاعة وقابلته بالبث الفعلى فسوف تجد فارقًا كثيراً ، وإذا ما قرأت كتابًا أو مقالة مطبوعة ببلد عربى وجدت الكثير من الأخطاء المطبعية ، التى يصل بعضها إلى حد الذهاب بالمعنى الذى قصده المؤلف أو الكاتب ، وإذا ما قارنت بين منتج أجنبى وآخر عربى من نفس الصنف وجدت فارقًا فى دقة الصناعة (وتشطيبها) لصالح المنتج الأجنبى، وإذا ما وضعت خطة لإنجاز عمل معين ، أو القيام بمشروع معين فى بلد عربى ، قل أن تجده نفَّذها حسب الخطة ، فى حين نجد الأمر على العكس فى البلاد الصناعية ... وهكذا . بل إن ما يمكن أن نطلق عليه اللامبالاة والتسيب والإهمال يرتبط بهذه السمة -أيضًا- ويعتبر مظهراً سلبيًا وضاراً بأمتنا العربية إلى حد كبير.

ومن الجدير بالذكر أن سمات الشخصية القبلية الشائعة فى الشخصية العربية تؤثر بدورها، بل وتعتبر من العوامل المسببة للوحدة الانفعالية وتقلبها- التى سبق أن ناقشناها فى البند الأول من هذا البحث- حيث تمتاز الشخصية القبلية بحرارة الانفعال وتدفق العواطف، وتحولها حسب درجة القرابة ، دون حاجة إلى مبرر عقلانى هادئ متزن .

ثانيًا - الخصائص ذات الطابع الفكرى :

والآن ، لننتقل إلى الخصائص ذات الطابع الذى يغلب عليه الجانب الفكرى -أو العقلى- أو المعرفى. وسوف نكتفى بذكر ثلاث من أهم ما نعتقد أنه يميز الشخصية العربية فى هذا المجال، كما فعلنا عند الحديث عن الخصائص ذات الطابع الانفعالى .

١- سيادة التفكير الغيبى :

يقصد بالتفكير الغيبى ذلك النوع من التفكير الذى يرجع الأمور والأحداث وظواهر الكون إلى علل ومسببات ، وعوامل سحرية، وغيبية، وقوى فوق طبيعية . فالأمطار تنزل بسبب رضا إله المطر فى موعدها، وبالقدر المناسب والمفيد ، وتمتنع أو تنزل بكميات كبيرة تجلب للناس الخطر بسبب غضب إله المطر . وهذا الشخص قد أصيب بكارثة، لأنه رأى بومة فى الصباح ، وهذا قد شفى من مرضه ؛ لأنه علّق على صدره تعويذة هذا العرّاف الطيب... إن الأمور فى هذا النوع من التفكير تتجاهل الأسباب العلمية والطبيعية والحقيقية للأشياء

والظواهر . فلا المطر متسبب عن السحب والرياح ودرجات الحرارة، ولا المرض متسبب عن ميكروبات أو اضطرابات تصيب الإنسان، بل إن هذا وغيره راجع إلى قوى غيبية يستعصى علينا إدراك كنهها والسيطرة عليها إلا بالعرافين والمشعوذين والسحرة والكهنة، الذين يلجؤون بدورهم إلى أساليب تخصصوا فيها وأجادوها ، لاسترضاء تلك القوى وتسخيرها لتحقيق مطالبهم ورغباتهم ؛ حسب ما يوهمون به السذج من الناس.

ومن أخطار انتشار التفكير الغيبى ، واختفاء التفكير العلمى، أن تركن الشخصية إلى الكسل والخمول، وعدم السعى إلى تحقيق منفعتها ودرء الضرر عنها بالأساليب العلمية وبالتماس الأسباب الحقيقية والطبيعية التى تؤدى بها إلى ذلك . فالمريض فى التفكير الغيبى لايلجأ إلى الطبيب بل إلى المشعوذ والساحر، والقائد الذى يقود جيشًا لمعركة لايلتمس الانتصار فى وضع خطة هجوم رشيدة ، وتدريب أفراد قواته تدريبًا كافيًا ، وإمدادهم بالمعدات الحربية الممتازة واللازمة ، وتقوية روحهم المعنوية للمعركة ، بل يتجاهل كل هذا ذاهبًا إلى الساحر يقرأ له تعويذة ، ويكتب له تميمة ، ويستحضر له بعض الأرواح الموهومة، ويستعطفها لتكون بجانبه ، معينة له على النصر ، مفتتة له فى عضد خصمه ، وهكذا ...

والتفكير الغيبى هذا سمة للشخصية البدائية وللشخصية الطفلية. ومع تقدم المجتمع فى سلم المدنية والحضارة ، يقل التفكير الغيبى وينحسر ، تاركًا المجال للتفكير العلمى السببى. فالتفكير الغيبى كان ضرورة للبدائى ليجيب عن تساؤلاته عن ظواهر الكون والأحداث، التى لم يكن علمه ولامنهجه فى البحث يسعفاه لمعرفتها المعرفة الصحيحة . لكن الآن ، حيث تقدم العلم هذا التقدم المذهل ، وسارت قدم الإنسان على سطح القمر، لايعود للتفكير الغيبى مجال فى عالمنا المعاصر إلا فى أضيق نطاق . ففى مصر ، قامت ليلى كرم الدين ببحث عن العلية عند الأطفال ، تبين منه بوضوح نتيجة مقابلاتها للأطفال وتجاربها عليهم ، ومقارنة ذلك بنتائج بحوث مشابهة فى سويسرا وكندا، أن الأطفال المصريين -بصفة عامة- متأخرون ، من حيث التفكير العلى العلمى عن أقرانهم السويسريين والكنديين فى نفس مستوى السن، ولايصل الأطفال المصريون إلى مراحل التفكير السببى الأكثر تقدمًا إلا فى سن متأخرة عن الأطفال السويسريين والكنديين [1].

١- ليلى كرم الدين . تطور فكرة العلية عند الطفل، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم علم النفس، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٧٦ .

وما من شك أننا فى حاجة إلى بحث مماثل فى كل بلد من بلاد الوطن العربى ، حتى تتأكد ملاحظتنا هذه عن سيادة التفكير الغيبى فى الشخصية العربية .

ومن مضار التفكير الغيبى أنه يؤدى بالشخصية إلى الاعتماد على تحقيق أهدافها بوسائل سحرية خرافية ، وليس بالوسائل الموضوعية التى تلزم -فعلاً- لتحقيق الهدف، كما سبق أن أشرنا. فالعمل الجاد المبنى على التخطيط ، وربط المقدمات بالنتائج ، والأشياء بمسبباتها ، هو الذى يوصل إلى الهدف ، أما الاستكانة إلى الأفكار الغيبية عن النصيب والقسمة ورضا إله الحرب أو سخطه ، دون السعى والاجتهاد الجادين لتحقيق الهدف بالوسائل الطبيعية ، فهو التخلف بعينه ، ودمار المجتمع بأكمله، والحكمة تقول لكل مجتهد نصيب ، ومن هنا نرى أن أهم الظواهر الإيجابية فى الوطن العربى الآن هو إيمان مواطنيه بأن التحدى الأساسى الذى يواجه الأمة العربية إنما هو التحدى الحضارى بكافة أبعاده .

وإذا ما تأملنا السبب الجوهرى وراء سيادة التفكير الغيبى فى الشخصية العربية لوجدناه كامنًا وراء أسلوبنا فى تنشئة أبنائنا وتربيتهم وتعليمهم ، سواء فى ذلك عن طريق الأسرة ، أو المدرسة ، أو الوسائل المختلفة للإعلام . فكلها تغرس فى نفوس الأبناء الإيمان بالغيبيات والخرافات، سواء بوعى أو عن غير وعى، وكأننا بلغنا من المازوخية النفسية ما جعلنا نستهدف تدمير الشخصية العربية بيدنا لابيد غيرنا .

٢- سيادة الأمية وتخلف التعليم :

لازال يمثل تخلف التعليم وانتشار الأمية سمة أساسية من سمات الشخصية العربية حتى الآن ؛ إذ «لازالت نسبة الأمية مرتفعة فى الوطن العربى رغم انخفاضها المستمر من ٨٠٪ إلى ٧٣٪ إلى ٦٣٪ فى الأعوام ١٩٦٢، ١٩٧٠، ١٩٧٥ على الترتيب» [١].

كما أن مستوى التعليم فى مدارسنا وجامعاتنا متخلف إلى حد كبير وبصفة عامة، على الرغم من أن هذا المستوى كان فى العصور الوسطى أعلى مستوى فى العالم كله؛ إذ كان -ولايزال- يوجد بالوطن العربى أقدم وأشهر جامعات العالم؛ كالأزهر فى القاهرة، وكالقرويين فى فاس، حيث جاوز كل منهما الألف عام ، منارة للعلم ومركزاً لطالبيه من أنحاء العالم قاطبة .

١- الدكتور سعد زغلول . دراسة تحليلية للسكان والأمية فى الوطن العربى- تعليم الجماهير، العدد التاسع ، السنة الرابعة، مايو ١٩٧٧، ص٤٥، تصدر عن الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار.

ومن أخطر الآثار السلبية لسيادة الأمية وتخلف التعليم على الشخصية العربية، أنها تيسر إنتشار التفكير الغيبى، وتعمل على مقاومة التفكير العلمى ؛ حيث إن انتشار التعليم وارتفاع مستواه يدعمان الاتجاه العلمى فى التفكير والعمل معًا. كما يضاف إلى هذا الأثر السلبى ما نلاحظه الآن من أن كل تقدم تحرزه المجتمعات يكاد يعتمد -بالدرجة الأولى- على التقدم العلمى بها ، واستعانتها بالتكنولوچيا الحديثة فى مختلف نواحى النشاط والحياة . والأمة العربية تنشد التنمية بمختلف جوانبها حتى تقوى على مجابهة هذا التحدى الاستعمارى الصهيونى الرهيب، والذى يستهدف القضاء على كيانها وهويتها . والتنمية -بصفة عامة- فى أى مجتمع تتطلب محواً للأمية ، ويلزمها مستوى تعليمى عالٍ بين أفراد المجتمع الذى ينشدها ويحققها ، على نحو ما بينًا فى الفصل السابق عن «التعليم والتدريب والإنتاجية».

وفى اعتقادنا ، أن سيادة الأمية وتخلف التعليم فى الوطن العربى يرجعان إلى تخاذل المسئولين عن التعليم فى القضاء على الأمية ورفع مستوى التعليم ، وإلى انعدام النوايا المخلصة لعلاج هذه المشكلة من جانبهم ، بمثل ما يرجعان إلى عدم توافر الظروف المادية والاجتماعية والتاريخية المناسبة ؛ إذ أن تجارب البلاد التى تشابه ظروفنا قد أثبتت إمكانية محو الأمية فى وقت قصير ، عندما تهيأت لها الظروف المناسبة ، أو هيأت هى لنفسها هذه الظروف .

٣- توافر الطاقات الأساسية العقلية والعملية :

يلاحظ على الشخصية العربية أنها تتمتع - بما يتمتع به غيرها من الشخصيات القومية الأخرى- بطاقات وإمكانيات عقلية ومهارات عملية مختلفة ؛ كالذكاء ، والقدرات العقلية الخاصة، كالقدرة الميكانيكية، والقدرة المكانية، والقدرة الحسابية، والقدرات الفنية، والمهارات الخاصة باستخدام الأصابع واليدين والقدمين والحواس.. ولايكاد الأمر يختلف فى الشخصية العربية عنه فى أى شخصية قومية أخرى، إلا فيما يتعلق بمدى توافر الظروف البيئية المختلفة التى تلزم لإظهار هذه الطاقات وتنميتها وتهيئة أفضل الأجواء للاستفادة منها، وعدم إهدارها. وفى مجال المقارنة بين شخصية قومية وشخصية قومية أخرى، لجانب الصواب إن قلنا إن هذه ترث وراثة بيولوچية أفضل من حيث الذكاء، أو القدرة الحسابية، أو الذاكرة .. إلخ . إنما نكون أقرب إلى الصواب إن قلنا بتعادل الميراث البيولوچى، واختلاف ظروف التنشئة وعوامل الثقافة الطبيعية الخاصة ببيئة كل منهما ، مما يتسبب عنه تهيئة جو أفضل لإبراز

طاقات هذه الشخصية القومية ، وإهدار طاقات تلك الشخصية القومية الأخرى. فالعبقرى ما لم تتح له الظروف المناسبة لإظهار عبقريته ، سوف يظل مغموراً لايتميز عن بقية الناس. ولتأييد هذا الرأى، نرجع إلى ما كتبته آن أنستازى - وهى من أشهر وأدق علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الفروق الفردية والفروق بين الجماعات . ففى الفصل الذى كتبته عن «الفروق الكبرى بين الجماعات» تشير إلى بحث أجرى على أطفال بين العاشرة والثانية عشرة من جماعات مختلفة من القوقازيين ، كانوا يعيشون فى المناطق القروية بألمانيا وفرنسا وإيطاليا . فمن ألمانيا ، أخذت عينات من النورديين والألبيين ، ومن فرنسا أخذت عينات من النورديين والألبيين وسكان البحر الأبيض، ومن إيطاليا أخذت عينات من الألبيين وسكان البحر الأبيض، واختبر كل هؤلاء الأطفال بستة اختبارات من مقاييس الذكاء العلمى لبنتز وبارسون ، «وكانت تعطى التعليمات شفهيًا وباختصار بنفس لغة الطفل. وحينما قسم الأطفال حسب سلالتهم ، لوحظ أن هناك فروقًا ذات دلالة فى متوسط الدرجات ... أضف إلى هذا، أنه وجدت فوارق واضحة بين أبناء السلالة الواحدة الذين ينتمون إلى الأوطان الثلاثة . وعلى سبيل المثال، نذكر أن الفرق بين جماعة من النورديين وجماعة غيرهم من النورديين -أيضًا- ممن ينتمون إلى وطن آخر، كان أكبر كثيراً من الفرق بين النورديين جميعًا كسلالة ، وسكان البحر الأبيض كسلالة أخرى. مثل هذه النتائج تجعلنا نقترح أنه لاأساس لترتيب السلالات فى النواحى العقلية، وأن المرجع الأكبر للفروق بين الجماعات هو العوامل الحضارية فى مختلف البيئات»[1].

وإذا استعرضنا أوجه النشاط العلمى والفنى والتطبيقى والعملى المختلفة ، وجدنا فيها جميعًا أسماء عربية تنال الاحترام والتقدير على أعلى المستويات العالمية ، سواء منها من هجر وطنه العربى إلى بلد آخر هيأ له إمكانيات التفوق ووفر له ظروفه ، أو من ظل بوطنه العربى يكرس له طاقته وجهده . وإذا رجعنا إلى الماضى القريب والبعيد، وجدنا الكثير من العبقريات العربية فى مختلف المجالات على امتداد الماضى واتصال التاريخ . فمن العبقريات العسكرية نجد- على سبيل المثال- خالد بن الوليد وعبد الكريم الخطابى، ومن العبقريات العلمية نجد- على سبيل المثال أيضًا- الرازى وابن خلدون ، ومن العبقريات الفلسفية نجد- على سبيل المثال

١- آن أنستازى . الفروق الكبرى بين الجماعات ، ترجمة مختار حمزة ، فى ميادين علم النفس، المجلد الثانى، ترجمة بإشراف يوسف مراد . دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦ ، ص٦١٢ .

كذلك - ابن رشد والفارابى ، ومن رجال الدولة العباقرة نجد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز .. إلخ . وبصفة عامة، فإن الحضارة الحديثة مدينة -إلى حد بعيد- للحضارة العربية التى سادت العالم فى العصور الوسطى، ولايستطيع، حتى غلاة المتعصبين ضد العرب، إنكار هذه الحقيقة المؤكدة .

إلا أن الظروف التى يمر بها المجتمع العربى فى الفترة التاريخية الراهنة ، وواقعه الاجتماعى والثقافى الحاضر لايساعد الشخصية العربية على أن تتضح طاقاتها، وتنمى إمكانياتها العقلية والفكرية والعملية إلى الحد اللائق بها وبتاريخها . فالأطماع تحيط بها من كل جانب تستنفد اهتماماتها ، وتبدد طاقاتها ، وتشتت تركيزها عن تنمية إمكانياتها وتعبئتها، بما يحقق للشخصية العربية قوتها ونبوغها وتكاملها ، ويعيد لها إسهامها الفعال فى الحضارة العالمية وتقدم الإنسانية .

مستقبل الشخصية العربية :

ناقشنا -حتى الآن- بعض الخصائص السيكلوجية للشخصية العربية الحالية من وجهة نظرنا، وينبغى علينا أن ننتقل إلى تأمل ما نرجح أن تكون عليه الشخصية العربية فى مستقبلها القريب .

إن الشخصية العربية، والتى تبدو حاليًا غارقة فى متناقضاتها وسلبياتها وصراعاتها وأزماتها ، والتى يتربص بها أعداء أقوياء فى الوقت الحالى يريدون تدميرها والقضاء عليها، نقول : إن هذه الشخصية العربية -بظروفها الحالية- تدعونا إلى التفاؤل بدرجة كبيرة . فأغلب سلبيات الشخصية العربية يمكن محاصرتها وعلاجها، أو على الأقل تلافى مضارها ، وفى حالات كثيرة يمكن الاستفادة منها لصالح القضية العربية . فإذا بدأنا بخاصية «حدة الانفعال» فإنه يمكننا أن نستفيد منها فى تعبئة الأمة العربية ضد أعدائها لمقاومتهم ، واستثارة التعاطف الوجدانى بين مواطنى الدول العربية لزيادة التماسك القومى العربى. كما يمكن تلافى التأثير الضار لهذه الخاصية عن طريق إرشاد أجهزة الإعلام إلى عدم الترويج والتضخيم للقضايا والأحداث التى قد تؤلب جزءًا من الوطن العربى ضد جزء آخر ... وهكذا . وإذا انتقلنا إلى خاصية «التوحد بالمعتدى» نرى أن تأثيرها الإيجابى واضح ، حيث التوحد بما فى هذا المعتدى من مزايا ؛ كصفات الدقة والضبط والموضوعية والتفكير العلمى الرزين ...

كما أن التوحد بالمعتدى شيء لازم لنا حتى نحس القوة والثقة بالنفس والرغبة فى قهر المعتدى والتغلب عليه ، فنتبع ما يتبع من سبل لنصل إلى تحقيق أغراضنا ، كما نجحنا فى ذلك فى حرب أكتوبر . أما سلبيات التوحد بالمعتدى ، فإن مجرد وعينا بها ، وحذرنا من الوقوع فيها ، سوف يجنبنا معظم أخطارها . وبالنسبة «لسمات الشخصية القبلية» نستطيع أن نقول إن إيجابياتها على الشخصية العربية تفوق كثيراً سلبياتها ، فهى الأصل فى تماسك العرب فى وحدة تجمع مشاعرهم ، وتقوى تعاطفهم ، وتوحد مصالحهم ، حتى وإن ظهر على السطح أحيانًا ما يخالف ذلك . أما سلبياتها من حيث الذاتية ونقص الموضوعية، فإنها فى بداية طريقها نحو الزوال ؛ نظراً لبدء دخول أجزاء هامة من الوطن العربى مرحلة التصنيع والميكنة الزراعية . والتى من طبيعتها أن تقضى على مثل هذه السلبيات ، كما سبق أن أوضحنا عند مناقشتنا هذه الخاصية . فإذا ما انتقلنا إلى خاصية «التفكير الغيبى» وجدنا أن وعينا بها وبسلبياتها سوف يدفعنا -بالضرورة- إلى محاصرتها والقضاء عليها. كما أن الأمل كبير فى أن ننجح فى القضاء على الأمية ، وفى رفع مستوى التعليم فى القريب العاجل، عن طريق الاهتمام الجدى بهذه المشكلة، وعند ذاك سوف يعمل هذا ، بالإضافة إلى دخول الأمة العربية مرحلة التصنيع ، على اندحار التفكير الغيبى، وحلول التفكير العلمى مكانه، على نحو ما حدث الآن فى بلاد العالم المتحضرة والمتقدمة . وإذا أضفنا إلى ذلك خاصية «توافر الطاقات الأساسية العقلية والعملية» فى الشخصية العربية أصبحت ثقتنا أكبر فى أن الشخصية العربية ، سوف تتجاوز بسرعة سلبياتها ، وتتغلب على نقاط الضعف فيها ، بما لديها من طاقات تمكنها من ذلك عندما تحسن استخدامها ، ولامفر لها من أن تحسن ذلك .

ومما يزيدنا تفاؤلاً بالنسبة لمستقبل الشخصية العربية أن معظم العرب بدأوا يدركون أننا نعيش فى عالم الكيانات العظمى (حيث يمكن للكبير -إن شاء- أن يفترس الصغير) ، وليس هناك مجال للكيانات الصغيرة ، حتى إن الكيانات الصغيرة بدأت تبحث عن وحدة مصطنعة لتحقيق المنفعة المتبادلة وضمانًا لمستقبل أفضل ، فهناك مجموعة السوق الأوروبية ، ومجموعة الكومنويلث ، ومجموعة حلف الأطلنطى ، ومجموعة حلف وارسو، ومنظمة الوحدة الإفريقية ... إلخ . وفى إدراك العرب لهذه الحقيقة إقناع أكبر لهم بأهمية الوحدة حتى تصبح مطلبهم المخلص شعبيًا ورسميًا . فالوحدة العربية ليست لصالح جزء من الأمة العربية على حساب غيره، بل هى لصالح تقوية وتنمية الجميع . فالتكامل بين البلاد العربية شديد

الوضوح، بحيث لاتقوى بلد واحد -لو انغلقت على نفسها- أن تحقق تنمية حقيقية، تصمد أمام كيد الاستعمار قديمه عسكريًا ، وحديثه اقتصاديًا . فالبلد العربى المكتظ بالرجال والخبرة ينقصه المال الذى يتوافر فى البلد العربى الآخر، الذى تنقصه الخبرة ويقل مواطنوه . والمال المكدس فى البنوك لاتزيد قيمته عن قيمة الورق والصكوك البنكية الدالة عليه ، ما لم يحول من أرقام صماء إلى مصانع تعمل، وأرض تستزرع ، وثروات حيوانية تنمى وتكثر ... والبلد العربى الذى يضيق عن هذا الاستثمار يجاوره البلد العربى الذى يحتاج إلى أضعافه ... وهكذا ، يبدو تبادل المنفعة فى الوحدة العربية واضحًا لأغلب أبناء الأمة .

وربما كان من حسن حظ الشخصية العربية ، أن ازدادت قناعة أغلب العرب (خاصة فى اللحظة التاريخية الحالية) بسعى إسرائيل لابتلاع أكثر ما تستطيع من البلاد العربية ، مستندة فى ذلك إلى أوهى الأسباب . ولما كان فى تفرق العرب ضعفهم ، مما يسهل على إسرائيل ابتلاع البلاد العربية واحدة تلو أخرى، وفى وحدتهم قوتهم ، مما يجعل الأمر صعبًا على إسرائيل، نقول من حسن حظ الشخصية العربية أن تأكد لها سعى إسرائيل لتدميرها ، وإزاء هذا الخطر لابد للشخصية العربية من أن تتقوى، وتنفض عنها سلبياتها، وتعالج أمراضها . وربما يصبح تمسك إسرائيل بعدوانها السافر واستفزازها المتكرر للعرب من حسن حظ العرب، بمثل ما كان اضطهاد الأوروبيين ثم النازية لليهود من أهم العوامل التى ساعدت على قيام إسرائيل وتدعيمها . فإذا أضفنا إلى كل ذلك جانبين هامين من جوانب الشخصية العربية؛ أولهما هو ثروتها واقتصادها القوى، وثانيهما هو كثافتها البشرية الضخمة (حيث يبلغ العرب الآن ما يزيد عن المائة مليون)، أدركنا مدى موضوعية تفاؤلنا بمستقبل الشخصية العربية فى المدى القريب، حيث تصبح شخصية قوية متكاملة متماسكة ، تتمتع بالكثير من الإيجابيات التى تمكنها من تحقيق آمالها، وتختفى منها سلبياتها وأمراضها، التى تبدو الآن على السطح معرقلة لها، ومقيدة لإمكانياتها ومهددة لطموحاتها وآمالها .

خاتمة :

حاولنا فى هذا البحث أن نتأمل سيكلوجية الشخصية العربية- كما تبدو لنا- فى الوقت الحالى ثم فى المستقبل القريب. كما حاولنا التزام الموضوعية قدر المستطاع ، والتجرد قدر المستطاع ، إيمانًا منًا بأن الحقيقة- حتى لو كانت مرة- هى الأجدر بالظهور ، وهى الأولى بالنشر، والأحق بالوعى. فالمعرفة بحقيقة الشىء من ألزم الأمور لإصلاحه وتقويمه ، ومعرفة

كيفية الاستفادة منه والتعامل معه، جلبًا لفوائده ، ودرءاً لأضراره . إننا إذا أحسنا معرفة الشيء سهل علينا التحكم فيه وفي آثاره . ومن هنا تتضح أهمية الحكمة التي وجدها سقراط مكتوبة على معبد دلفي «اعرف نفسك» فرفعها شعاراً له .

لقد أثبت مصطفى زيور في مقالة عن المعرفة والشفاء[1]، العلاقة الجدلية بين معرفة المريض بحقيقة نفسه ، وشفائه من أمراضها في تجربة التحليل النفسي.

ولسنا نشك في أن ما يصدق على الشخصية الفردية يصدق -إلى حد لابأس به - على الشخصية القومية (كالشخصية العربية) . ومن هنا ، كان إيماننا بأهمية الشعار الذي رفعه سقراط ، ودعوتنا إلى المفكرين والعلماء العرب للقيام بدراسات- كل في مجال تخصصه واهتمامه- عن العرب وأعدائهم، وعن العدوان الاستعماري والتحدي الحضاري الذي يجابههم

* * *

المراجع :

١- آن أنستازي : الفروق الكبرى بين الجماعات ، ترجمة مختار حمزة ، في ميادين علم النفس ، المجلد الثاني ترجمة بإشراف يوسف مراد. دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٦ .

٢- أنا فرويد : الأنا وميكانيزمات الدفاع ، ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق ، مراجعة مصطفى زيور . الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣- سعد زغلول : دراسة تحليلة للسكان والأمية في الوطن العربي، تعليم الجماهير، عدد ٩ ، مايو ١٩٧٧ .

٤- ليلى كرم الدين : تطور فكرة العلية عند الطفل ، رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت لآداب عين شمس ، ١٩٧٦ .

٥- مصطفى زيور : المعرفة والشفاء ، مجلة الصحة النفسية، مجلد :١ ، عدد :١ - ١٩٥٨ .

٦- Argyle, M. Psychology and Social Problems, Social Science Paper Backs. London, 1967 .

٧- English , H . B, and A. C. English. A Comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical Terms. Longmans, 1958 .

١- دكتور مصطفى زيور : المعرفة والشفاء، مجلة الصحة النفسية ، المجلد الأول، العدد الأول، ١٩٥٨ ص٧-٣٩ .

ملامح من الشخصية العربية *

(عود على بدء)

تتعرض الشخصية العربية ، فى عصرنا الحالى ، لأزمات وصدمات عديدة ، تجعلها فى بؤرة اهتمام كثير من المنشغلين بالعلوم الإنسانية . ولقد تصاعدت الأزمات والصدمات فى الفترة الأخيرة بشكل لافت للنظر، بحيث جذب اهتمام بعض المفكرين والعلماء إلى تأمل ودراسة ملامح هذه الشخصية ، محاولين فهمها . علهم - انطلاقًا من هذا الفهم- يسهمون فى تشخيص أدوائها ، وعلاج أوجه قصورها، ومساعدتها على استعادة توازنها وصحتها . من منطلق أن المعرفة هى الأساس والمدخل للعلاج ؛ حيث إن التشخيص نصف الطريق إلى العلاج. ولقد تمت محاولات فى هذا الطريق ، لعل من أهمها محاولة الدكتور على زيور فى كتابه عن التحليل النفسى للذات العربية ، دار الطليعة بلبنان ، وكتابه عن الدراسات النفسية الاجتماعية بالعينة للذات العربية ، بنفس الدار. كما سبق لنا أن كتبنا فصلاً فى كتابنا «علم النفس وقضايا العصر» عن «أضواء على سيكلوچية الشخصية العربية» . عرضنا فيه لأوضح ما يظهر لنا فيها من خصائص الحدة الانفعالية وسهولة تقلبها، علاوة على التوحد بالمعتدى، وعلى سمات الشخصية القبلية من سيادة الذاتية، ونقص الموضوعية، وقلة الدقة، ونقص التحديد، مع سيادة التفكير الغيبى، وضعف التفكير السببى والعلمى. (وراجع كتابنا سواء فى طبعة دار المعارف بالقاهرة ، أو دار النهضة العربية ببيروت) .

ومع مزيد من تأملاتنا فى الشخصية العربية ، يمكننا أن نضيف إلى ما سبق :

١- الهوس بالخاص على حساب العام :

يتضح هذا من ميل كثير من الشخصيات العربية، سواء الشخصيات العامة أم الشخصيات الفردية ، إلى تغليب المصلحة الخاصة الضيقة على حساب المصلحة العامة

كلمة ألقيت بالمؤتمر الثانى الذى عقده مركز الدراسات النفسية فى طرابلس بلبنان فى أكتوبر من عام ١٩٩٤ ، تحت عنوان «مدخل إلى علم نفس عربى» وقد نشرتها مجلة الثقافة النفسية » التى يصدرها المركز فى المجلد : ٦ ، عدد : ٢٢ ، أبريل ١٩٩٥ ، ٩٤-٩٥ .

الشاملة، وسعى الكثيرين فى أنانية مفرطة إلى تحقيق أكبر المكاسب الذاتية أو الخاصة على حساب مكاسب المجموع ، أو المصلحة العامة. فالتهرب من الضرائب، وضرب مصالح الزملاء والوقوف فى وجهها ، ما لم تكن هناك استفادة شخصية منها ، والتعصب للطائفية الضيقة، سواء كانت دينية أم حزبية أم إقليمية ... كل هذا وأمثاله يشيع بين أفراد الشعب العربى بشكل لاتخطئه العين .

٢- التمركز فى الذات Egocentricity على حساب التمركز فى المجتمع So- ciocentricity :

يمثل التمركز فى الذات أنانية ضيقة تسعى نحو تحقيق الشخصية فى كل سلوكها لصالحها هى ، وضرب مصالح الآخرين عرض الحائط . بينما يمثل التمركز فى المجتمع سعى الشخصية فى سلوكها إلى إفادة المجتمع والاهتمام بصالحه بشكل متوازن، مع الاهتمام بصالحها هى، بل وتغليب مصالح المجتمع، إن هى تعارضت مع مصالح الشخصية المباشرة .

ولاشك أن المجتمع فى حاجة لنهضته أن يسعى أفراده نحو صالحه، وأن يحققوا التوازن بين الصالح الشخصى والصالح العام، فيستفيدون ويفيدون المجتمع فى نفس الوقت . ولنا أن نتصور الموظف الذى لايهمه إلا الحصول على راتبه دون الاهتمام بأداء ما ينتظره المجتمع من خدماته المتمثلة فى أداء واجباته الوظيفية على أكمل ما يستطيع ، والطبيب الذى لايهمه سوى ما يدفعه له المريض من أجر نظير الكشف أو الجراحة ... دون أن يهتم بدقة الكشف أو بإجراء الجراحة على أفضل ما يستطيع – كما لنا أن نتصور أنانية التاجر الذى لايهمه إلا الكسب حتى لو كان نتيجة التجارة فى البضائع الفاسدة، أو السموم والمخدرات المدمرة ...

لاشك أن مثل هؤلاء يكونون عوامل تدمير فى أى مجتمع ، حيث يبدو تمركزهم فى الذات واضحًا على حساب تمركزهم فى المجتمع، ولاشك أن التمركز فى الذات على حساب التمركز فى المجتمع يرتبط، بل وينتج عن الملمح السابق مباشرة عن الهوس، بالخاص على حساب العام، ويغذى كل منهما الآخر . ومن المؤسف أن التمركز فى الذات سمة شائعة الآن فى الشخصية العربية .

٣- الاضطهادية التدميرية والنظرية التآمرية فى تفسير التاريخ :

نقصد بالاضطهادية التدميرية الاضطراب الذى يجعل صاحبه يحس، أو يعتقد، أن الآخرين يكيدون، ويدبرون للإيقاع به وإضراره، وذلك -عادة- لتوهمه بأنه شخص عظيم، يغارون منه،

ويتجمعون على ضربه وتدميره لإزاحته من طريقهم . وهكذا، يفسر كل ما يقع له من أضرار أو نكسات أو مصائب بأنها نتيجة تآمر الآخرين عليه. وبهذا، يبرر قصوره وضعفه وهزائمه فى تحقيق أهدافه ، فيحفظ لذاته نرجسيتها ، ويصون كرامتها أمام نفسه وأمام الآخرين .

وهكذا ، لايعود مسئولاً عما يقع له أو منه . فهل يطلب منه أى عاقل أن ينتصر على كل هذا العالم الذى يكيد له ويتآمر عليه ؟!

ومن يحلل أغانينا وخطابنا الإعلامى فى العالم العربى تصدمه هذه السمة المتفشية . ومن خطورتها على مسار تاريخنا - على المستوى الشخصى والعام على السواء - أنها تجعل الشخصية فى حالة استرخاء ، وتقلل من استنفارها للبناء والتقدم ، وتحمل المسئولية التاريخية، والبحث عن إزالة مسببات الفشل، وتدعيم عوامل النجاح والتقدم، طالما أنها غير مسئولة عما يقع لها ، أو تتورط فيه بسبب تآمر الآخرين (سواء دول أم أفراد، أم قدر) لاقبل لها بهم. أما فى حالة اعتقاد الشخصية بمسئوليتها عما يقع لها ، فإن هذا سوف يدفعها إلى تصحيح أخطائها وعلاج أوجه ضعفها ، وبذل قصارى جهدها لتحقيق طموحاتها، باعتبارها المسئول الأول عن النجاح أو الفشل فى ذلك .

ومعذرة لتركيزى فى هذا الحديث على السلبيات ، دون إبراز الإيجابيات ؛ لاعتقادى أنه أجدى فى ظرفنا الراهن ، وأجدر بالتأمل ومحاولة العلاج .

حول العوامل النفسية
لاتجاهات الشارع العربى والإسلامى نحو تحرير الكويت *

تمهيد فى مدخل :

فى صبيحة يوم الخميس الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ ؛ استيقظ العالم على حدث مروع- بكل المقاييس- ذلك هو الاحتلال العسكرى المفاجئ من جانب العراق العربى المسلم لجاره وشقيقه الكويت العربى المسلم كذلك .

وهكذا ؛ بدأت – ودون سابق إنذار ، أو تبرير منطقى- سلسلة من المآسى الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية تعصف بمنطقة الشرق الأوسط ومواطنيه – أفراداً وجماعات ومجتمعات – لم تكد تخف حدتها إلا مع نهايات شهر فبراير من عام ١٩٩١ عندما حررت الكويت من الاحتلال العراقى، وأعلن العراق قبوله لكل ما ارتآه مجلس الأمن من قرارات الشرعية الدولية ، فأوقفت الحرب.

ومع ذلك، فإن آثار هذه الأزمة وتلك الحرب لازالت حية حتى اليوم، بما خلفته من جراح- سواء على مستوى الأفراد أو الشعوب أو الحكومات العربية- لم تندمل حتى يومنا هذا ، وأغلب الظن أنها ستمتد حية مؤثرة تأثيراً سلبيًا شديداً فى اتجاهات شعوب المنطقة وحكوماتها ومواطنيها ، نحو بعضهم البعض لفترة طويلة قادمة . وذلك نتيجة لانحياز كل حكومة، بمعظم أفراد شعبها ، نحو أحد أطراف الصراع (الكويت أو العراق) .

ولكن الشىء المثير للدهشة والاستغراب ، والذى يحتاج إلى استجلاء عوامله ومسبباته ، هو ما لوحظ من هبات جماهيرية فى الشارع العربى والإسلامى ، قامت تعبر عن رأيها فى ضرورة مناصرة العراق (المعتدى الظالم) ضد الكويت ودول مجلس التعاون الخليجى (المعتدى عليها دون وجه حق) . وكان المتوقع عكس ذلك تمامًا ؛ أى أن تهب هذه الجماهير منذ بداية

---

* دراسة أعدها المؤلف ؛ وكان الفراغ منها فى أواخر أبريل من عام ١٩٩٢ ، ونشرت فى الطبعة السابقة من هذا الكتاب بدار المعارف عام ١٩٩٣ ، ص٣٢٩-٣٨٩ .

الاحتلال العراقى للكويت، معبرة بشدة عن رفضها لما قام به العراق من اجتياح عسكرى للكويت، ومن تعريض المنطقة لخطر التدخل الخارجى، مطالبة إياه بالانسحاب الفورى غير المشروط ، ومؤيدة فى نفس الوقت المقاومة الكويتية والعالمية ضد هذا الاحتلال .

على أن الأمر الأكثر إثارة للدهشة والاستغراب ما لوحظ خاصة من أن أشد الدول تأييداً للموقف العراقى، وأكثرها وأقواها فى هبات جماهيرها مناصرة للعراق ضد الكويت ودول الخليج فى هذه الأزمة، إنما كانت تلك الدول والمجتمعات العربية والإسلامية صاحبة الأعداد الكبيرة، التى تعمل وتتكسب وتعيش فى الكويت، أو غيرها من دول الخليج، كالمملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة؛ والتى -أيضًا- تتلقى معونات اقتصادية مهمة، وشبه منتظمة ، من دول الخليج على النحو الذى كان عليه الفلسطينيون واليمنيون والسودانيون والأردنيون ، بما يعنى أن حماسهم وتأييدهم لموقف العراق البين فى ظلمه، وغير المبرر فى منطقه ؛ قد تخطى فى قوته مصالحهم الذاتية الحيوية وظهر عليها. بل إن حماسهم هذا وتأييدهم قد أعماهم حتى كانت هتافات الشارع عندهم تعلو ضد الدول العربية التى وقفت ضد الظلم ، وأعلنت موقفها الرسمى الصريح بشجب العدوان العسكرى العراقى على الكويت ومطالبته بالانسحاب ، كما كانت جماهيرهم هذه الهائجة ترشق سفارات هذه الدول العربية التى وقفت فى صف الحق بالحجارة ، وكانت تعتدى بأساليب مختلفة مادية أو معنوية على مواطنى هذه الدول .

لقد كان لموقف هذه الجماهير أسوأ الأثر الذى بدا جليًا فى جانبين خطيرين :

أولهما : أنه ساعد فى شد أزر موقف العراق ، وزاد فى تصلبه وعناده ، ورفضه لكل مساعى السلام التى بذلها الزعماء العرب والمسلمون والدوليون ، مما أجبر العالم على الدخول فى حرب ضروس مع العراق أتت على أخضره ويابسه ، لكى يجبره بدوره على الخروج من الكويت، يجر معه أزيال الخيبة، ويحصد الدمار لشعبه وجيشه ووطنه .

وثانيهما : أنه ساعد على رسم صورة ذهنية عن العربى المسلم، تتلخص فى تعطشه للدماء، وعدم فهمه إلا للغة القوة ، وميله إلى الخيانة والغدر حتى بأقرب الناس إليه، بدليل تأييد كثير فى الشارع العربى المسلم لموقف العراق من الكويت ودول الخليج الذى جسم كل ذلك . ومما لاشك فيه أن هذه الصورة الذهنية تساوى بين الهمجى المتوحش البعيد عن التحضر وبين العربى والمسلم . مما تستغله الدعايات الصهيونية ضدنا، فتكسب تعاطف المجتمع العالمى معها وضد قضايانا الحيوية . وهذه الصورة تحتاج لسنين طويلة لمحوها أو تعديلها .

ولسنا ندرى هل أدرك المؤيدون لموقف العراق هذين الأثرين المأساويين لموقفهم ، أم لم يدركوه بعد .

ويشير هذا الموقف إلى أن الدوافع النفسية لهذه الجماهير العربية والإسلامية التى أيدت العراق وناصرته (مع ظلمه) ضد الكويت ودول مجلس التعاون الخليجى كانت من القوة حتى أعمت هذه الجماهير، حتى عن مصالحها الذاتية، وعن التقدير السليم لقوانين العصر وظروفه ، ولمحركات التاريخ ومحددات مساره ومنعطفاته؛ بل وغيبت عقلها عن الإدراك السليم للغة العصر السياسية ومتطلباته الدبلوماسية .

ونظراً لكل هذا، فإن هذه الأزمة وآثارها ، وعواملها ومسبباتها، وما فجرته من صراعات ، وما بلورته من اتجاهات وقناعات سوف يظل كله لسنوات عدة قادمة هدفًا لدراسات وبحوث وكتابات ، لاستجلائها وتسجيلها وطرحها ، واستخلاص العبر منها .

الهدف من الدراسة :

سبق أن أشرنا فى التمهيد إلى أهمية العوامل النفسية فى تكوين الاتجاهات المضادة للكويت ودول الخليج فى أزمتها مع العراق ، والتى حركت بعض جماهير الشارع فى بعض الدول العربية والإسلامية ، وذلك على عكس ما كان متوقعًا تمامًا ، مما يثير استغرابًا شديداً ، بحيث يدفعنا هذا الموقف لبحث الأمر واستجلائه . ومن هنا ، فقد ركزنا هدفنا فى هذه الدراسة فى تحقيق غرضين أساسيين، هما :

١- إلقاء الضوء وتسليطه لكشف العوامل النفسية والاجتماعية التى تكمن وراء تكوين واستثارة الاتجاهات المضادة للكويت ودول التعاون الخليجى فى أزمتها مع العراق ، مع توضيح وتفسير الأسس السيكلوجية الاجتماعية وراء تفجر هذا العداء نحو دول الخليج فى الشارع العربى والإسلامى، وإظهار التأييد والمناصرة للرئيس صدام حسين ونظامه العراقى، على الرغم من وضوح الحق إلى جانب دول الخليج .

٢- اقتراح بعض التوصيات من واقع الدروس المستفادة من هذه الأزمة ، وعلى أسس ومبادئ علم النفس لتحسين الصورة الذهنية عن دول الخليج لدى الشارع العربى الإسلامى لكسب تأييده ، إذا ما تكررت أزمة مماثلة فى المستقبل ، وهو أمر محتمل لاشك ، وإن كنا ندعو الله ألا يحدث ؛ وكفى ما عاناه العرب والمسلمون من هذه الأزمة ، وما لاقوه فيها من خسائر بشرية ومادية ومعنوية جسيمة بكل المعايير .

منهج الدراسة :

اعتمدت هذه الدراسة لتحقيق هدفها ، على دعامتين منهجيتين أساسيتين :

تمثلت أولاهما : فى تحليل المضمون Content Analysis وهو منهج علمى معروف فى كثير من بحوث ودراسات العلوم الإنسانية ؛ كعلم النفس والاجتماع والإعلام .. فلقد لجأنا هنا إلى تحليل المضامين البارزة والهامة ذات الإيحاءات القوية والدلالات الشديدة ، الظاهرة أو الكامنة ، وذلك فى كثير من الكتابات والدراسات والنشرات والتحليلات والتعليقات والخطب والنداءات والأحاديث .. والتى ألفت ونشرت فى الكتب ، أو الصحف، أو المنشورات، أو وكالات الأنباء ، أو تلك التى ظهرت على هيئة قرارات لمؤتمرات أو منظمات ، أو هذه التى أعلنت فى خطابات، أو نداءات، أو أحاديث، ولقاءات، والتى تعلقت بأزمة الخليج .. وقد أتيح لنا الاطلاع على كثير منها . ونحن فى تحليلنا للمضمون بهذه الطريقة إنما نستخدم طريقة علماء النفس، خاصة فى تحليل مضمون البيانات التى تتجمع لديهم عندما يستخدمون المقابلة السيكلوجية Psychological Interview ، أو عندما يطبقون اختباراتهم الإسقاطية Projective Techniques ؛ مثل اختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception Test، والمعروف اختصاراً باختبار الـ "TAT" .

أما الثانية : فقد تمثلت فى خلاصة ما ترسب فى أذهاننا مما دار معنا، أو اشتركنا فيه ، أو حدث فى حضورنا ، من مناقشات وجدال أو تبادل للآراء ووجهات النظر، مع تيارات مختلفة فى توجهاتها وقناعاتها، أو مع طوائف متباينة فى جنسياتها ومواطنها ومستوياتها ، وسواء أكان هؤلاء من أقرباء أو أصدقاء ، أم كانوا من معارف أو زملاء .. وسواء -أيضًا- أكان ذلك أثناء أزمة الخليج أم بعدها . إذ لاشك أن خطورة الأزمة وجسامتها قد طغت بثقلها على الأحاديث والمناقشات فى الجلسات الخاصة بين عامة الناس، فما بالنا بمثقفيهم وصفوتهم . ولقد لجأنا بهذا الخصوص إلى منهج التأمل الذهنى الصرف وتقليب النظر العقلى فى الأمور والملابسات، لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من عوامل ومسببات للاتجاهات المضادة فى الشارع العربى والإسلامى لدول الخليج . ولقد تمثلنا فى موقفنا المنهجى هذا بموقف المحلل النفسى Psychoanalyst فى تحليله للمادة التى تتجمع لديه عن الفرد الذى يقوم بتحليله ، سواء أكانت من تداعياته الطليقة، أم من غيرها من جوانب سلوكه ، فيربط بينها فى نسق متكامل يشف عن البناء النفسى الأساسى لمن يقوم بتحليله، حتى لو كان يجاهد فى إخفائه وتمويهه ، كما فعل أصحاب الاتجاهات المضادة فى أزمة الخليج .

هذا ؛ مع ملاحظة أن موضوع الدراسة، وطبيعة المادة التى أخضعت للتحليل، قد فرضا علينا أن نمزج بين المنهجين أحيانًا لاستخلاص نتائج معينة، وأن نستعين بواحد منهما أو بالآخر لاستخلاص نتائج أخرى. ولسنا فى حاجة إلى التنبيه إلى ذلك حتى لايضطرب السياق ، حيث إن القارئ لهذه الدراسة يستشف ذلك تلقائيًا ودون عناء .

نتائج الدراسة :

أولاً : العوامل النفسية الاجتماعية وراء الاتجاهات المضادة للكويت ولدول مجلس التعاون الخليجى والتى ظهرت فى الشارع العربى والإسلامى

لعل من أهم العوامل النفسية الاجتماعية، التى نخرج بها من دراستنا، والتى أسهمت فى تكوين اتجاه مضاد للكويت ولدول مجلس التعاون الخليجى، والتى تفجرت فى الشارع العربى والإسلامى مؤيدة للرئيس صدام حسين ونظامه العراقى فى موقفه من أزمة الخليج، ما يلى :

١- استثارة العاطفة الدينية :

من المعروف عن الشرق عمومًا ، والشرق العربى خصوصًا ، تقديسه الشديد للدين، ولكل ما يمس معتقداته أو نصوصه وأصوله . ولاغرابة فى ذلك ، فإن الشرق العربى مهبط الأديان السماوية ومبتداها. ومنه انطلقت دعواتها حتى بلغت أقصى الآفاق، يصدق هذا على الإسلام بمثل ما يصدق على النصرانية واليهودية .

ولهذا ، فمن المعروف جيداً أن المدخل الدينى (أو التسويغ الدينى) هو أفضل المداخل إذا أردنا إقناع العربى بفكرة ما. فإذا نجحنا بربطها بالدين ، وبيان أن الدين يؤيدها أو يوجبها، فقد ضمنا لها الانتشار والتأييد، خاصة فى الشارع العربى وبين الجماهير الإسلامية عامة. بل وضمنا -أيضًا- الدفاع عن هذه الفكرة بكل غالٍ ثمين، حتى بالأرواح والأنفس ، حيث تكون هناك قناعة بأن الموت دونها إنما هو استشهاد مطلوب ، طوبى لمن ناله ، واختاره الله له .

لقد تلقف الإعلام العراقى هذه الحقيقة ، فجعلها محور خطابه إلى الجماهير العربية والإسلامية ، فكان الرئيس صدام حسين ونظامه وإعلامه ينتهزون كل فرصة لإظهار أن مايقومون به إنما هو دفاع عن شرع الله المنتهك فى دول الخليج ، ومحاولة لتطبيق التوجهات والحلول وقواعد السلوك والتصرف الإسلامى السديد فى الحكم والاقتصاد، ومناحى الحياة

المختلفة، تقوية لشوكة الإسلام والمسلمين ، حتى يتبوءوا فى هذا العالم مكانتهم اللائقة بهم، والتى كانت لهم أيام ازدهار حضارتهم ، وقوة سلطانهم ..

ولنأخذ نموذجًا على ذلك بعض فقرات مما ورد فى حديث الرئيس صدام حسين مع وفد الأمانة العامة للاتحاد الدولى لنقابات العمال المشاركة فى المؤتمر العام التاسع للاتحاد العام لنقابات العمال فى العراق إبان أزمة الخليج :

- «وعندما ضربت هذا المثل .. فإنما لأقول إن البترول تحول حتى فى الاعتبارات الفنية إلى نقمة بدلاً من أن يكون نعمة .. فحولوا عدداً من الناس الأكثر تخلفًا فى المجتمع وجاءوا بهم ليكونوا حكامًا مسيطرين على بترول العرب ويحولوا حالة الفساد والسلوك الفاسد والتصرف الفاسد المريض إلى نماذج إغراء فى جانبها المادى أمام العرب . وفى جانبها الآخر ليحولوها سبة على العرب بسبب هذا النموذج السيئ الذى يظهرونه فى المجتمعات الغربية كدليل على أن العرب ضعفاء عقليًا وليس سلوكيًا فقط من خلال النماذج الشوهاء التى يقدمونها إلى المجتمع الغربى. فحولوا ثروة العرب التى يفترض أن تكون فى خدمتهم إلى ما يسيئ إلى سمعتهم الاجتماعية والفكرية والسياسية، وفى كل الميادين».

- «ليس أمامنا خيار نختاره ؛ فإما العزة والشرف والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والإسلام ، وإما النقيض لكل هذا . ليس أمامنا إلا أن نختار هذا الطريق .. ولابد أن نختار هذا الطريق ، لابد أن نختار طريق العزة والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والشرف ومبادئ الإسلام الصحيح الذى وضع خلال مئات السنين فى إطار الروتين والبيروقراطية .. وتعرفون أن أى دولة توضع مجريات حركتها فى إطار الروتين والبيروقراطية ، فإن الحياة أو الجانب الاعتيادى الأساسى يتوقف فيها . لقد حول الإسلام الذى هو روح الله وقدرات العرب فى الأرض إلى حالة روتينية وإلى حالة بيروقراطية يمارس من قبل قلة بالنصيحة الفنية للكثرة . والقلة عندما تمارس عملية النصيحة الفنية للكثرة فإنها تمارسها من غير عناء كبير، وبصيغة نظرية لاتترافق معها دائمًا الصيغة الجهادية . والكثرة عندما تتلقى النصيحة الفنية تتلقاها كذلك بطريقة روتينية يومية لأداء نوع من الشعائر المجردة عن روحها الأساسية وعن الأسباب التى نزلت من أجلها الرسالة الإسلامية» .

- «لقد أصبح العرب أمام حتمية إعادة دورهم التاريخى الذى أراده الله لهم والذى يستحقونه كأمة عريقة لها دورها فى الحياة الإنسانية وفى مسارها القومى. وعندما يبلغ

الضغط أقصاه ، وعندما تبلغ المهانة أعلى مراحلها لابد من (عمل) يضع الأمور فى نصابها الصحيح .. فمن أصل ثلاثة أماكن مقدسة يجمع عليها المسلمون والعرب صارت الثلاثة محتلة .. القدس المحتلة ، ومكة محتلة ، وقبر الرسول محمد ﷺ محتل .. فهل هناك من يحرك طاقات العرب والمسلمين بعد هذا أعلى من هذه المهانة ، ومن هذا الجور، ومن هذا الظلم والتعدى».

- «وعلى الجميع أن يتذكروا أن الله هو الأكبر والأعلى..».

ولقد ظل الخطاب الإعلامى العراقى يلعب على هذا الوتر الحساس لدى كل مسلم، حتى نجح فى شق الصف الإسلامى، سواء أكان عربيًا أم غير عربى، حتى وجدنا كثيراً من ذوى النزعات الإسلامية المتعصبة ينحاز إلى وجهة نظر العراق فى الأزمة، ويندفع طالبًا التطوع للدفاع العسكرى عنه، على الرغم من أن المنطلقات الإسلامية الصحيحة والصريحة تدين العدوان العراقى على الكويت ، بل وتحض على مقاتلة العراق، حتى يرجع عن غيه ويعود إلى جادة الصواب ، ما لم يرجع عن غيه بالنصيحة والحسنى أولا. وهذا ما حاوله كثير من رؤساء وملوك العرب والمسلمين وبقية دول العالم ومؤسساته المهتمة بالسلام (قبل بدء حرب التحالف له) وفشلوا فيه. وفى هذا تقول الآية القرآنية الكريمة بغاية الوضوح والصراحة : (**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**) - سورة الحجرات : آية (٩) . كما أن نصوص القرآن والسنة قد قضت بأن «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»، كما تؤكد على أن من قتل نفسًا بغير حق فكأنما قتل الناس جميعًا. ومما تناقلته الصحف ، ونشرته وسائل الإعلام ، وتحدث به ووصفه مشاهدو العيان، مما حدث دون وجه حق من العسكريين العراقيين من قتل واغتصاب ونهب لممتلكات الكويتيين والمقيمين بالكويت من عرب ومسلمين الشىء الكثير والكثير. الأمر الذى كان أجدى أن يدعو العرب والمسلمين فى أنحاء العالم من منطلق إسلامى صرف أن يدينوا العراق، لا أن يناصروه، كما حدث من بعض الجماهير العربية والإسلامية، إبان الأزمة فى تظاهراتهم وهباتهم المؤيدة لموقف الرئس صدام حسين ونظامه العراقى. حتى أن بعض المؤتمرات الإسلامية قد عقدت تحت شعارات الإسلام وعباءته حضرها بعض فقهاء الإسلام ودعاته لمناصرة الموقف العراقى؛ كذلك الذى عقد بليبيا تحت اسم (المؤتمر العام للقيادة الشعبية الإسلامية العالمية) فى ٣٠ أكتوبر من عام ١٩٩٠ ، وقال عنه الأستاذ عصام دراز فى كتابه (لماذا اختلفنا ؟ الإسلاميون وحرب

الخليج، المنار الجديد ، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص٩٢) «وكان هذا المؤتمر نموذجًا للكارثة التى حلت بالأمة الإسلامية، فهو يكرس للفرقة، ولايدعو للوحدة ، يؤدى إلى الانشقاق بالمزايدة فى قضايا المصير فى وقت فى غاية الخطورة .. وقت لانحتاج فيه لشىء سوى للوحدة ..» ، ومثل هذا مؤتمرات أخرى عقدت فى العراق والأردن وغيرهما مناصرة للعراق، ومضادة للمؤتمر العالمى الذى دعت إليه رابطة العالم الإسلامى، والذى انعقد بمكة المكرمة بين العاشر والثانى عشر من سبتمبر ١٩٩٠ ، والذى أدان الغزو العراقى للكويت، وطالب بسحب قواته فوراً دون قيد أو شرط، وأجاز الاستعانة بغير المسلمين لطرد المعتدى العراقى من الكويت .

ولقد ركز الخطاب الإعلامى العراقى على أن الإسلام لايجيز أن يستعين المسلم بغير المسلم على قتال أخيه المسلم، قاصداً بذلك أن الكويت والسعودية ودول التعاون الخليجى قد خرجت على الإسلام، عندما طلبت العون من القوات الأجنبية للاستعانة بها فى طرد العراق من الكويت، وكف أذاه عن دول الخليج . وفى هذه الدعاية مغالطة كبرى ومناقضة صريحة لأصول الإسلام وتوجهاته البناءة . ولازالت الكثير من العناصر الإسلامية حتى اليوم تؤيد تلك المغالطة العراقية، وتعتقد فى صحتها ، على الرغم من أن كثيراً من فقهاء الإسلام ودعاته المشهورين المعدودين- حتى من هم من غير منطقة الخليج - قد أفتوا وأفاضوا فى جواز الاستعانة بغير المسلمين لحرب الباغين من المسلمين . فعلى سبيل المثال، أفتى بذلك الشيخ متولى الشعراوى، والشيخ جاد الحق على جاد الحق، والشيخ محمد الغزالى، والدكتور محمد سيد طنطاوى ، كما ناصرهم فى رأيهم كثير من الفكرين ذوى المكانة الممتازة ، مثل الدكتور حامد الغابد رئيس رابطة العالم الإسلامى، والأستاذ خالد محمد خالد، والأستاذ أحمد بهجت وغيرهم كثير. هذا علاوة على أن المؤتمر الإسلامى العالمى الذى عقد بمكة المكرمة ، وسبق أن أشرنا إليه، قد كان القرار الخامس فيه : «فيما يتعلق بالاستعانة بالقوات الأجنبية، فإن المؤتمر بعد الاطلاع على بحوث العلماء، يقرر أن ما حدث من استعانة المملكة العربية السعودية بقوات أجنبية لمساندة قواتها فى الدفاع عن النفس إنما اقتضته الضرورة الشرعية ، والشريعة الإسلامية تجيز ذلك بشروط الضرورة المقررة شرعًا» .

فإذا أضفنا إلى كل هذا ما هو معروف عن أن تاريخ الحكم البعثى فى العراق لايوحى بأنه يحكم بشريعة الإسلام، أو يتخذه منهاجًا له، وأن طرحه الأخير للإسلام جاء من منطلق تملق الشارع العربى والإسلامى فى انتهازية واضحة لإثارته ضد دول الخليج فى أزمتها ، واستنفاراً

لتأييده ؛ لأدركنا أنه قد حدث تحريف شديد فى إدراك العقل العربى والإسلامى للحق والعدالة ومبادئ الشرعية الدينية والدولية ، بحيث أصبح العقل العربى والإسلامى يدرك ما يريد إدراكه فقط، وليس الحقيقة كما هو مفترض . ويشير علم النفس بوضوح فى نتائجه عن الدراسات التجريبية لموضوع الإدراك إلى أن الإدراك يتلون كثيراً بالميول والمصالح والمعتقدات الخاصة بكل منا، فإذا بنا نختلف حول الموضوع الواحد والحقيقة الواحدة، فلاندرك إلا ما نريد إدراكه ، كما يقول علماء النفس. لكن المصيبة فى العالم العربى والإسلامى أن يصل الاختلاف فى الإدراك إلى هذا الحد من التناقض الصارخ حول الموضوع الواحد (أزمة الخليج) وأن يكون التناقض مبنيًا على أساس واحد (الأصل والشريعة الإسلامية) . فيصدق بهذا علينا حرفيًا المثل العامى القائل بسخرية شديدة «بصلة المحب خروف» ، بما يرمز إلى العمى الشديد الذى يصيب المحب فى إدراكه وتزييفه للحقيقة ، حتى ليدرك فيها ما يتفق فقط مع هواه ومعتقده .
وهكذا، أدرك كثير من الإسلاميين أن حرب الخليج لم تكن إلا حربًا بين الإسلام (ممثلاً فى العراق) وبين الكفر (ممثلاً فى قوى التحالف) ، وكأنها حرب صليبية أخرى، لكنها بمباركة الحكام العرب هذه المرة .

٢- استثارة العاطفة القومية (العربية) :

إذا كانت العاطفة الدينية - والتى ناقشناها فى البند السابق- شديدة التأثير فى تكوين اتجاهات الجماهير العربية والإسلامية، وتهييجها واستثارتها، مما تنبه إليه الخطاب الإعلامى العراقى واستغله ، فإن العاطفة القومية (العربية) مما يلى تلك مباشرة فى أهميتها وقوة تأثيرها. ولازلنا نتذكر كيف كان الشارع العربى من الخليج إلى المحيط يتجمع لسماع خطب الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، ويلتهب حماسًا لحديثه عن القومية العربية والوحدة العربية كأمل ينبغى السعى إلى تحقيقه، مهما كلفنا ذلك من تضحيات .

ولاشك أن الوحدة العربية حلم يراود معظم مواطنى الدول العربية، حيث تحقق لهم ما تحققه الوحدة -عادة- من قوة وحجم تأثير ونفوذ وتفوق. وليس هناك من مواطن عربى مخلص إلا ويحب القوة للعرب فى كافة جوانبها وأشكالها، نستعيد بها ما كان للعرب من تأثير حضارى ونفوذ قوى ومكانة كبيرة بين دول العالم أيام صدر الإسلام وخلفائه الراشدين، ودولتيه الأموية والعباسية ، وحتى تكون الدولة العربية بعد ذلك نواة للدولة الإسلامية الأكبر .

ولقد استغل الخطاب الإعلامى العراقى هذه العاطفة القومية العربية أكبر استغلال ممكن،

للتأثير على الجماهير العربية وكسب تأييدها ، فكما خاطب الإسلاميين فى الشارع الإسلامى- على نحو ما بينا فى البند السابق- نجده -أيضًا- خاطب القوميين العرب، بما يتملق عواطفهم ويستثير مشاعرهم . ولنأخذ نموذجًا لذلك بعض فقرات من خطاب حديث الرئيس العراقى صدام حسين (والذى سبق أن أشرنا إليه) .

- «إذن فى ثروة العرب الذى نريده هو أن يكون كل العرب أقوياء ؛ مالكو البترول والذين لايملكونه أيضًا . ولايمكن أن يكونوا أقوياء إلا عندما نتصرف تجاه ثروة العرب فى أى مكان على أساس الواقع التاريخى بأننا أمة واحدة بغض النظر عن التقسيمات الإدارية ووجود دول عربية منتشرة على الوطن الواحد وفى الأمة الواحدة. وإذا ما تمت هذه النظرة بتصرف عملى فإننا سنصبح مع الزمن وكأننا حالة واحدة فى التفكير وفى التصرف وسنكون عند ذلك أقرب إلى الله سواء الأغنياء منا أو الفقراء . ولكن الحرمان المستزيد مع الدور الخبيث فى سحق المحرومين قد يجعل بعضهم بعيداً عن الله بسبب الحاجة . ومن المؤكد أن الأغنياء الذين يملكون من غير تعب ومن غير عمل يكونوا هم الأبعد عن الله دائمًا . وعلى أساس هذا التفسير استهدف نظام عبد الناصر فى مصر» . (لاحظ هنا المحاولة الذكية للمزج بين استثارة العاطفة الدينية والعاطفة القومية والاستفادة من الرصيد الكبير من تقدير المواطن العربى وحبه لعبد الناصر) .

- «وعندما أكتشف الأجانب البترول فى أرض العرب ؛ فبدلاً من أن يجعل البترول عنصراً ماديًا يغذى الاعتبارات الروحية والمعنوية ويقويها ويخلق قاعدة مادية لاتغطس فى الرذيلة وإنما ترفع باتجاه الفضيلة ، عمد الأجنبى إلى تحويل هذه النعمة التى أرادها الله للعرب إلى نقمة على مالكيها وعلى كل العرب . ونحن نرى - ولاأظننا نختلف لأننا أبناء أمة واحدة وفى توجه عام مشترك- بأن الذى يملك أكثر مما يجب يضعف ، وأن الذى لايملك أى شىء مما يجعله فى حالة اعتبارية معقولة يضعف .. فأرادوا إضعاف أبناء الأمة من الذين يملكون والذين لايملكون .. فوضعوا البترول فى أيدى القلة فأفسدوها ، وحرموا الكثرة من مصدر القوة ليضعفوها. ولو جلنا النظر فى هذا المبدأ من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق لوجدنا مفردات يومية فى حياتنا تشير إليه . فالمواطن البسيط فى مراكش يتحمل وزراً إضافيًا فى رزقه اليومى وفى قوته الشرائية جراء بترول السعودية أو جراء بترول دولة الإمارات لأن السلعة التى كانت تصدر إلى المنطقة بقيمة «س» أصبحت بعد البترول تصدر بـ «س» زائداً مبلغ من المال على أساس الاعتبار الظاهر للعيان بأن المنطقة غنية بسبب وجود البترول فيها ...» .

- «لقد أصبح العرب أمام حتمية إعادة دورهم التاريخى الذى أراده الله لهم والذى يستحقونه كأمة عريقة لها دورها فى الحياة الإنسانية وفى مسارها القومى ..».

- «إن هذه هى عادتنا ، وهذا هو منهجنا ، وهذا هو إيماننا. والذى يحاول أن يتآمر على الأمة علينا أن نضرب رأسه بدلاً من أن ننحنى له ونتساوم معه على مقدسات الأمة. وهذا هو الذى حصل . والكويت جزء من أرض العراق. وتعرفون كعرب أن عمر حضارته ستة آلاف سنة. فهل من المعقول أن حضارة عمرها ستة آلاف سنة كانت معزولة عن البحر .. إنها جزء من أرض العراق اقتطع بالمقص الإنجليزى. ورغم ذلك كنا نتعامل معهم تعاملاً طبيعيًا آملين أن يعوضنا الله فى أخوة كنا ننتظرها منهم ، ولكن ظهر أننا كنا على خطأ .. فأراد الله سبحانه وتعالى الذى أراده وخلص الأمة من هذه البؤرة المتآمرة القذرة وأعاد الجزء الذى أضعف ليكون جزءاً من الحالة القوية فيتقوى بها. ثم جاءت أساطيل الغزاة وكانت ستأتى حتمًا ولكن كان من الممكن أن تأتى داخل الكويت لتقول إن العراق يهدد الكويت. ولكن لأن الكويت عادت إلى أهلها هذه المرة ، فقد راحوا إلى أرض مقدسات العرب والمسلمين حيث احتلوا شبه الجزيرة العربية ؛ احتلوا السعودية . ليس أمامنا خيار نختاره ؛ فإما العزة والشرف والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والإسلام ، وإما النقيض لكل هذا . ليس أمامنا إلا أن نختار هذا الطريق .. ولابد أن نختار هذا الطريق ، لابد أن نختار طريق العزة والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والشرف ومبادئ الإسلام الصحيح.. ».

إن النصوص السابقة، التى اقتطفناها من حديث الرئيس صدام حسين، تمثل المحاور الأساسية التى قام عليها الخطاب الإعلامى العراقى فى استثارة العاطفة القومية لدى الجماهير العربية وفى استمالتها إلى موقفه من احتلال الكويت، وضمها بالقوة العسكرية تحقيقًا لنواة وحدة عربية، توسع لضم دول الخليج طواعية أو كرهًا، لتتطور بعد ذلك بنفس الأسلوب لضم بقية الدول العربية. ولقد نسى الرئيس صدام حسين أن الزعيم جمال عبد الناصر- والذى كان يشير إلى الاقتداء به- كان يطلب الوحدة عن طريق الاقتناع والرضا، وليس عن طريق الحرب والسيف والاغتصاب ، وله فى تجربة الوحدة المصرية السورية أوضح دليل على قناعة عبد الناصر، حتى أن السوريين عندما رغبوا فى إنهاء الوحدة لم يلجأ عبد الناصر إلى القوة للإبقاء عليها واستمرارها. ولاشك أن الرئيس صدام حسين يتذكر جيداً كيف كان حماس الشعب السورى وقيادته لإتمام الوحدة مع مصر. وكم نتمنى أن يأتى اليوم الذى تطلب فيه شعوب الدول العربية وأنظمتها بقناعة وبشكل اختيارى حر وحدة عربية طواعية راسخة الجذور، مبنية

على مشاعر الحب المتبادل ، والمصالح المشتركة ، والأخوة التاريخية على نحو ما يقوم الآن بين اليمن الشمالى والجنوبى، وألمانيا الغربية والشرقية ، ودول السوق الأوروبية المشتركة ، فتلك لغة العصر الحديث ، المحبذة سياسيًا ، والمقبولة دبلوماسيًا .

٣- استثارة عاطفة تحرير القدس والأراضى الفلسطينية المحتلة :

تمثل القدس إحدى المدن المقدسة الثلاث بالنسبة للجماهير الإسلامية والعربية إلى جانب مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ففيها المسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ . هذا إضافة إلى أنها عاصمة الأراضى الفلسطينية ، التى فيها ولد المسيح عليه السلام، ومنها انطلقت دعوته، فزادها هذا تقديسًا فى نظر المسلمين الذين يعترفون بالأديان السماوية المقدسة ويرعون حرماتها كما يحض على ذلك دينهم . كما أنها كذلك أرض مقدسة بالنسبة لكافة النصارى، علاوة على اليهود. وفى هزيمة عام ١٩٦٧ الشهيرة، والتى لحقت بالعرب استكمل الإسرائيليون احتلال الأراضى الفلسطينية ، بل واحتلوا أجزاء أخرى شاسعة من دول عربية مجاورة ، جرى عليها التفاوض السلمى سابقًا ، ويتابع الآن لتحريرها وتسليمها لأصحابها ، بعد أن عجز العرب- حتى الآن- عن تحريرها بالقوة وحدها .

وفى هذا الظرف النفسى الباعث على الإحباط لدى الجماهير العربية والإسلامية، بعث الرئيس العراقى صدام حسين الأمل لديها فى اقتراب تحرير القدس والأراضى الفلسطينية المحتلة بالقوة العسكرية الرهيبة ، التى زعم امتلاكه لها من طيران وصواريخ وقنابل ومواد كيماوية حارقة وسامة ، وخرج بتهديده الشهير قبل شهور قليلة من احتلاله للكويت (فى شهر أبريل من عام ١٩٩٠) بتدمير نصف إسرائيل بأسلحته الفتاكة، إن هى فكرت فى قصف منشآته ، أو التطاول على أى بلد عربى. كما زعم بعد ذلك أن الاستيلاء على الكويت وضمه هو طريقه إلى تحرير القدس فى محاولته لتبرير ذلك. وبعد أن أسقط فى يده ووقع فى فخ أزمة الخليج أكد نفس الفكرة فى مبادرته التى طرحها بخروجه من الكويت فى مقابل خروج إسرائيل من القدس والأراضى العربية المحتلة، وإقامة الدولة الفلسطينية .

لقد لعب على الوتر الحساس فى البنية السيكلوچية للشخصية العربية والإسلامية ، فمن من العرب أو المسلمين لايؤيد تحرير القدس وإقامة الدولة الفلسطينية ؟؟ !! خاصة وأن لهجة الخطاب الإعلامى العراقى فى هذا الخصوص كانت تتسم بالقوة والثقة الزائدة فى النفس، والاعتداد الكامل بالذات ، وهى أمور حرمتها العرب من مدة طويلة مع نكسة ١٩٦٧ مباشرة.

لذا ، لم يكن غريبًا أن يستميل العراق إلى جانبه شرائح كثيرة من الجماهير العربية والإسلامية تنخدع بخطابه الإعلامى، وتبارك تصرفاته ضد دول الخليج، وترى فيه صلاح الدين الجديد الذى بعثته العناية الإلهية لتحرير القدس وفلسطين وتوحيد العرب. وقد عاشت هذه الشرائح وقت أزمة الخليج ناعمة بحلم أو وهم تحقيق الرغبة Wish- fulfilment الذى يقول به علماء النفس، حيث يعيش الفرد فى وهم مؤداه أن رغبته قد تحققت، أو هى على وشك التحقق بما يصاحب ذلك من نشوة وسعادة ، أشبه ما تكون بنشوة من يتعاطون بعض أنواع المخدرات، ثم يفيقون بعد ذلك على واقع أليم يدركون فيه مدى خروج حلمهم عن الواقع، ومدى التدمير الذى أصابهم إن كانوا قد رتبوا سلوكًا فعليًا بناءً عليه (كما حدث - فى الواقع- من تدمير للعراق، ومن إخراجه أصلاً من معادلة القوة العربية والإسلامية المنشودة، والتى كانت مدخرة لأى صراع عربى - أجنبى، وليس عربيًا - عربيًا كما حدث فى أزمة الخليج، للأسف الشديد) .

وهكذا ، امتلأ الخطاب الإعلامى العراقى، إبان الأزمة، بكل ما يساعد على شحن وتفجير الاتجاهات العدائية نحو الكويت ودول الخليج، وبكل ما يستثير الحماس والمناصرة للموقف العراقى، على نحو ما نقتطفه فى السطور التالية من فقرات وردت فى الحديث السابق الإشارة إليه للرئيس العراقى صدام حسين .

- «إن الإنسانية الحقيقية يا ساسة العرب- الذين لايعرف من يكون فى السلطة منكم إلا القليل معنى الإنسانية الحقيقية - تكمن الآن فى أن نخلص النساء الفلسطينيات والأطفال الفلسطينيين من الظلم والقتل .. الذى ترتكبه العصابة الصهيونية فى أرض فلسطين، وليس الإنسانية فى أن نعود بالمجموعة الفاسدة إلى الحكم مثلما تتمنون ، والذى تتمنونه بعيداً جداً ولن يتحقق بعون الله. والذى يتحدث عن الإنسانية إذن عليه أن يبحث قضية فلسطين ، فقد مرت عشرات السنين وشعبنا المظلوم المضطهد الذى اغتصبت أرضه وأهينت كرامته يعيش فى أسوأ حال من حالات البؤس الاجتماعى ينتظر .. وهذا هو الاختبار لإنسانية من يقول إنه إنسانى .. إن عليه أن يناقش بسرعة قضية فلسطين وأن يحلها . والمقياس هو الإجراءات التى اتخذوها ضد العراق ، فليطبقوها على الصهاينة من مقاطعة وحرمان وأساطيل وتفتيش ... إلخ . وعند ذلك نعتقد أنهم سينسحبون خلال شهر من أرض فلسطين المحتلة والأراضى العربية الأخرى المحتلة فى الجولان وغيرها ».

- «إننا لن نقبل التلاعب بالألفاظ فى أننا نحل هذه القضية أو تلك ثم نؤجل قضية فلسطين على وعد بحلها . فنحن لانقبل وعداً لأننا لم نر من يكون شريفًا عندما يعتلى موقع

السلطة فى بعض الدول الغربية .. والشرف يكون فى تطبيق الكلام . ومن يطلب منا أن ننتظر على كلمة شرف فعليهم أن ينتظروا هم أيضًا . كفى .. كم سنة مرت وشعب فلسطين ينتظر .. لقد انتهى نصف شعب فلسطين من القتل والذبح بسبب فلسطين .. بل إن المعركة بيننا وبين إيران والذين واجهوا مصيرهم أو الذين استشهدوا إنما كان حالهم كله بسبب فلسطين . وكل هذه الفتن التى تحصل فى الوطن العربى وفى المنطقة كلها بين العرب وبين المسلمين إنما هى بسبب قضية فلسطين، لأنهم لايريدون أن يكون العرب فى وضع يقدرون فيه على أن يتوجهوا توجهًا جاداً لتحرير فلسطين . وقد غاب هذا الأمر عن الدبلوماسية منذ سنين طويلة .. حيث بقى العرب يلومون بعضهم بعضًا على عبارتى استرجاع حقوق فلسطين واسترجاع حقوق العرب فى فلسطين فى مؤتمراتهم أيامًا وسنين وهم لايملكون شيئًا .. لماذا لاتقولون تحرير فلسطين حتى تأتى الصهيونية وتجلس أمامكم قائلة إنها مستعدة ، ولكن تعالوا نتناقش ، وعندها اختلفوا على الكلمات .. ولكنه قبل أن يظهر لهم أى شيء بدأوا يختلفون على الكلمات فى بيانات يصدرونها هم وحدهم كعرب .. وياله من ضعف ومذلة وإحساس بالصغر».

- «وفى مؤتمر قمة بغداد .. كنا كمن يستجديهم ليقدموا مساعدة بسيطة إلى الأردن لكى يصمد فى وجه الإضعاف الذى يقصد منه انهيار الأردن ليجلبوا موقفا سياسيًا خاصًا يخططون إليه فى الأردن، ولكى ندعم منظمة التحرير الفلسطينية وأهلنا الذين تسيل دماؤهم يوميًا على فلسطين .. وقد تحدثت مع بعضهم بالهاتف بعد انفضاض المؤتمر .. وقلت له يا أخى فلان أرجوك أن تساعد أبا عمار والملك حسين ، أن تساعد الأردن والفلسطينيين . وقد والله طلبت من أحدهم عند باب الطائرة وأنا أودعه وقلت له : أخى أرجوك أن تساعد الأردن والفلسطينيين وكأنه استجداء على مئات من الدولارات التى لم يقدموا منها إلا الشىء البسيط القليل، ولكن المعلن الذى قدموه لجيوش الاحتلال ١١ أو ١٤ مليار دولار، وملياران منها تجعل شعبنا فى فلسطين يقاتل إلى عشر سنوات أخرى دون أن يحمل هم . ومثل هؤلاء الناس يجب أن لانتحدث معهم بدبلوماسية وسياسة مرتاحة، فقد نزعت الغيرة من عقولهم وتبخرت الإنسانية من ضمائرهم فتحجروا . وعندما كنا نتكلم مع بعضهم كنا كأننا نتكلم مع حجر لايعرق جبينه من الخجل، ولاتلتمع عيناه نخوة تجاه أى قضية من القضايا الشريفة».

ولاشك أن مثل هذا الأسلوب الملتهب فى الخطاب الإعلامى هو الذى ينجح فى تهييج الجماهير وعامة الناس فى الشارع العربى والإسلامى، حيث يمس قضية غالية عليهم . كما أن

الجماهير وعامة الناس لاتنظر إلى الأمور بالمنطق العقلانى المتأنى؛ الذى يمحص ، ويأخذ فى اعتباره الظروف الموضوعية ، والشرعية القانونية والدولية . فليس هناك من شرع دينى أو وضعى يجيز الاستيلاء على ما للغير بالقوة ؛ وإلا لأبيح النهب والسلب والسرقة والنصب والاغتصاب وقطع الطريق . وكلها -كما نعلم- مما تحرمه كافة الشرائع والقوانين المتحضرة .

ولعل هذا الخطاب الإعلامى العراقى، وبهذا الأسلوب المثير، يفسر لنا كيف نجح فى استثارة مشاعر الجماهير العربية والإسلامية واستمالتها ، خاصة الجماهير الفلسطينية والشارع الأردنى، حيث كانا أشد التجمعات هياجًا وتأييداً للرئيس صدام حسين وللنظام العراقى، ومعاداة ومناقضة للموقف الخليجى، والدول المؤيدة له .

إلا أن الإنصاف يقتضينا أن ننبه إلى أن هناك بعض المفكرين والكتاب قد خالفوا جماهيرهم فيما ذهبوا إليه، حيث امتازوا بوضوح الرؤية وسداد الرأى، وموضوعية الحكم ونزاهته . من أمثلة ذلك المفكر والكاتب الفلسطينى الأستاذ إدوارد سعيد، والذى كتب مقالا بعد غزو العراق للكويت بما يزيد قليلاً عن الشهر، وقبل بدء حرب التحالف بما يزيد قليلا عن الشهور الأربعة (فى ١١ / ٩ / ١٩٩٠)، وذلك فى مجلة «المجلة» موضحًا أن الرئيس العرقى «صدام حسين وحده سدد ضربة مروعة إلى الانتفاضة الفلسطينية» جاء فيه :

- «من السابق لأوانه جداً أن نحيط الآن بأبعاد التمزق الهائل الذى بدأ يعترى نسيج الحياة والعلاقات السياسية فى الشرق الأوسط نتيجة غزو العراق الطائش للكويت فى مطلع أغسطس (آب) الفائت .. فنحن لانعرف سوى أن الأمور لن تعود إلى طبيعتها السابقة .. والأهم من ذلك أن هذا العمل المتهور سوف يترتب عليه قدر مروع من المعاناة الإنسانية والخراب .. وفوق هذا وذاك ، فإن الواقع القاسى الناتج عن غزو دولة عربية لأخرى، ومحاولة محوها من الوجود يثير فى نفوسنا نحن المغتربين العرب حزنًا وغضبًا لايقلان مرارة عما أصابنا عامى ١٩٦٧ و١٩٨٢ .. بل إنه من بعض الوجوه أشد وطأة حتى من شعورنا بالألم فى تلك الأوقات العصيبة . كانت الكويت دولة صغيرة ديمقراطية نسبيًا وفيها مجتمع مركب له مشكلاته النوعية مثل أى بلد عربى آخر .. لكن ازدهارها الاقتصادى، ومؤسساتها استفاد منها العالم العربى بصفة عامة ، وأبناء الكويت بوجه خاص.. وكانت أعداد كبيرة من غير الكويتيين كالفلسطينيين واللبنانيين ، والإيرانيين ، والمصريين ، والهنود، وغيرهم تعيش هناك، وتحقق النجاح فى أغلب الأحوال ، وبالجهد والعرق كان أبناء هذه الجاليات يسهمون فى

إنعاش مجتمعاتهم الخاصة أيضًا ، بفضل التحويلات التى يرسلونها إلى أوطانهم . وعلينا ألا ننسى أن الجالية الفلسطينية الضخمة فى الكويت كانت على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى دعم الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة .. والآن انقطعت عنهم مصادر الرزق ، وانتهى الرخاء .. أما أبناء الكويت الذين صاروا اليوم إما سجناء فى ديارهم ، أو مشردين فى المنافى.. فقد انضموا إلى طوابير اللاجئين الطويلة ... » .

- «إن أى عربى سليم التفكير لايسعه إلا أن يمد يد التعاطف العميق والصداقة إلى أولئك الكويتيين الذين تلقوا صدمة عنيفة ، وانتابهم السخط والغضب الشديدان وهم يرون ما حل ببلادهم .. فأيًا كانت المثل العليا التى تنطوى عليها دعوة الوحدة العربية، فلا يمكن تطبيقها عن طريق العنف ، أو فرضها بالقوة الغاشمة .. ومهما كانت الخصومات بين الدول العربية فيجب أن تسوى من خلال النقاش والتفاوض والتحكيم وليس باستعمال قوة السلاح من جانب واحد...» .

- «وعلى كل حال، فإن الكويت كانت مجتمعًا مزدهراً ، وشعبها جزء حيوى من الأمة العربية، ومؤسساتها ناجحة متحررة .. فأى نفع من مهاجمة كل ذلك ؟ وكيف أمكن اعتبار استخدام العنف ضد الكويت له ما يبرره بأى حال ؟ إن قصور الرؤية ، وخرق المثل الأخلاقية والمبادئ على هذا النحو أمران مقلقان لنا جميعًا .. خاصة وأن هذا «الانتصار» الذى أعلنه صدام يبدو مشكوكًا فيه إلى الآن . وثمة خسارة محزنة ومؤسفة ، وإساءة بالغة إلى سمعة العرب والمسلمين بلا استثناء» . (راجع هذه المقالة كاملة فى : د. حلمى محمد القاعود ، هتلر الشرق، القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٩٠ ، ص٢٤٣-٢٤٧).

٤- الإحباط النفسى وتوزيع الثروة :

للإنسان دوافع نفسية Motives كثيرة يحتاج إلى إشباعها حتى يتمكن من البقاء حيًا ، فيحافظ على بقائه وبقاء نوعه ، وحتى يحقق قدراً من المتعة والسعادة؛ مثل دافع الغذاء والشراب والملبس والمسكن والزواج وعواطف الحب والكره والعدوان، والرغبة فى السيطرة والتفوق وتأكيد الذات وتملك الأشياء الثمينة والمحافظة على الصحة والقوة ، والبعد عن الأذى والألم .. إلخ .

ويلاحظ أن المال أو الثروة هى الوسيلة الأولى والأساسية التى تمكننا من إشباع كل هذه

الدوافع والحاجات (ولانقول الوسيلة الوحيدة) . وفى حالة إشباعنا لها نحس بالارتياح والطمأنينة والمتعة والسعادة . أما فى حالة عدم إشباعنا لهذه الحاجات وعدم إرضائنا لهذه الدوافع ، فإننا نحس بحالة الإحباط النفسى Frustration ، وهى حالة من القلق والضيق والاستياء تتزايد مع تزايد إلحاح الدافع ، ومع تزايد صعوبة أو استحالة الإشباع والإرضاء . وهنا يكون الشخص مملوءاً بالسخط والرغبة فى العدوان، الذى يصبه أساسًا على العوائق التى تحول دون الإشباع المطلوب، وعلى من كان السبب فى هذا الإحباط ، فإن لم يتمكن من ذلك وجههما إلى أى شىء فى طريقه حتى يتخلص منهما ويفرغهما من داخل نفسه، وإلا قام بقمعهما أو كبتهما فيضران بصحته .

إن الخطاب الإعلامى العراقى قد استغل هذه الحقيقة السيكلوچية فى إثارة الجماهير العربية والإسلامية العريضة ، والمعروف عنها معاناتها وإحباطاتها فى إشباع دوافعها الأساسية التى أشرنا إلى بعضها ، وذلك بسبب الفقر وقلة الموارد، اللذين يميزان معظم البلاد العربية والإسلامية باستثناء دول الخليج . فخدعهم بفكرة الاستيلاء على ثروة الكويت الغنى (وبالطبع يفهم من هذا ضمنًا أن هذه هى البداية) ليوزعها على فقراء الدول العربية (فيتمكنون عند ذلك من إمكانية إشباع حاجاتهم المحبطة) باعتبار وحدة الوطن العربى، وعلى فقراء المسلمين عامة، باعتبار وحدة العالم الإسلامى، وكون الإسلام رحمًا بين أهله. وعلى ما فى هذه الفكرة من ادعاء واضح ، وتبرير مصطنع لنهب ثروات الكويت لصالح العراق وحده (كما يقول بذلك الاستقراء التاريخى لنظام الحكم الحالى فيه) ، إلا أن الجماهير العربية والإسلامية المحبطة- ووفق المبادئ السيكلوچية لكل من ظاهرة الإدراك وظاهرة وهم تحقيق الرغبة والتى سبق أن أشرنا إليهما- سارعت إلى تصديق الخطاب الإعلامى العراقى، واستجابت بالهتاف للرئيس صدام حسين ونظامه، وضد الكويت، ودول التعاون الخليجى وحلفائهما .

ولعل أول فقرة -سبق أن نقلناها- من حديث الرئيس صدام حسين عند حديثنا فى البند الثانى والبادئة بـ «إذن فى ثروة العرب الذى نريده هو أن يكون كل العرب أقوياء..» تعطى صورة واضحة عن كيفية لجوء الخطاب الإعلامى العراقى إلى استثارة الجماهير الشعبية العربية والإسلامية ضد دول الخليج ، بدغدغة مشاعرهم واستغلال دوافعهم ، فمن يكره أن يتساوى مع الأغنياء فى إشباع دوافعه وحاجاته ؟؟!! ومن يرفض أملاً مثل هذا يقدم إليه ؟؟!!

كما أن فى الفقرة الأخيرة -التى نقلناها من نفس الخطاب عند حديثنا السابق- فى البند

الثالث والتى تبدأ بـ : «وفى مؤتمر قمة بغداد .. كنا كمن يستجديهم ليقدموا مساعدة بسيطة إلى الأردن لكى يصمد... » مثل آخر على الكيفية التى يستثير بها الخطاب الإعلامى العراقى المشاعر النفسية والاتجاهات العدائية ضد دول الخليج من منطلق فكرة «توزيع ثروة الأغنياء المسكين على الفقراء المعوزين» .

٥- شراء بعض الذمم المؤثرة فى الرأى العام وتشكيله :

لقد توسع النظام العراقى -ما أمكنه ذلك- فى استقطاب شخصيات العالم العربى والإسلامى ذات التأثير فى تشكيل الرأى العام فيه، منذ بدأ حربه مع إيران خاصة، ثم زاد فى ذلك تمهيداً لكسبهم فى صفه، عندما ينفذ مخططه لاحتلال الكويت ، حتى يضمن تأييدهم له، ودفاعهم عن نواياه وتسويغ تصرفاته حتى لو كانت فى حقيقتها ضارة بالعرب والمسلمين، وهكذا، تصبح إيران هى البادئة بحرب العراق، ويصبح العراق فى حربه لإيران إنما يدفع عن أرض المسلمين ما يريده بهم المجوس الإيرانيون عبدة النار، والراغبون فى استعادة ملك فارس وقوتها قبل الإسلام، ثأراً من الإسلام الذى أبادها . ولهذا، فإن على العرب جميعًا أن يساعدوا العراق الذى يحارب معركتهم ضد إيران ويحمى (البوابة الشرقية للعرب) .. ولاشك، أنه نجح فى ذلك ، إلى حد بعيد، فقد انخدع قطاع كبير من الجماهير العربية ومن نظم الحكم فيها بذلك ، وتبنت وجهة النظر العراقية فى تلك الحرب واقتنعت بها وأيدتها .

لكن، كيف استطاع الإعلام العراقى أن يقلب الحقائق حتى هذه الدرجة ؟!! لقد لجأ إلى رشوة الذمم . فهو يعقد المؤتمرات والندوات والمهرجانات العربية والإسلامية مرات عديدة فى بغداد فى كل عام . وهو فى هذه المؤتمرات والندوات والمهرجانات يدعو الأعداد الكبيرة من الصحفيين والكتاب والأدباء والشعراء والفنانين وذوى المكانة والمراكز من أنحاء الوطن العربى، ويستضيفهم ، فيكرمهم، ويهديهم ؛ فيغدق عليهم، وكل هدية إنما تتناسب مع مدى تأثير المهدى إليه فى تشكيل الرأى العام فى بلده وتأثيره فى مجاله. فهؤلاء هداياهم سيارات «مرسيدس» ، وهؤلاء هداياهم أقل أو أكثر .. وهؤلاء هداياهم جوائز صدام العلمية .. وهذه الجريدة العربية التى تمتدح الرئيس العراقى لها كذا .. الكاتب الذى كتب مؤيداً النظام العراقى له كذا .. إلخ .

وفى هذا المجال نشرت الأهرام خبراً وتعليقًا قالت فيهما :

«كتب أحمد الهونى- ليبى الجنسية- فى جريدة العرب، التى تصدر فى لندن يقول : بالأمس وقف رؤساء تحرير الصحف المصرية صفًا أمام صدام حسين يتسلمون هداياه من سيارات المرسيدس بمناسبة إعادة تعمير الفاو . وامتلأت الصحف بتوقيعاتهم تمجيداً لصدام حسين . واليوم نفس الأسماء تحاول الإساءة لصدام كذبًا ودون أدلة ، وتجند أقلامها للإمبريالية، وتؤيد الغزو الأجنبى لأرضنا العربية. وأول ما يجهله الهونى أن سيارات المرسيدس أهديت فى مناسبة مؤتمر القمة الرباعى الذى عقد فى بغداد فى فبراير ١٩٨٩ ، وأعلن فيه قيام مجلس التعاون العربى. ولم تقتصر الهدية على المصريين فقط .. وإنما شملت كل رؤساء الوزارات والوزراء ورؤساء تحرير الصحف بدول مجلس التعاون (مصر والأردن واليمن) ولم يشمل -بطبيعة الحال- رؤساء تحرير صحف العراق .. فكلهم موظفون بالدولة . والمؤكد أننا لانعرف ماذا فعل الآخرون بهدايا الرئيس العراقى.. ولكننا نعرف ماذا فعلت مصر بها . فما لايعرفه الهونى أن الرئيس العراقى أبدى رغبة فى إهداء ٣٢ سيارة لمصر، منها ٢٦ سيارة مرسيدس و٦ سيارات تويوتا، ولم يوافق الرئيس مبارك فى بداية الأمر على هذه الهدية .. ولكن أمام إلحاح الرئيس صدام، فقد أمر الرئيس مبارك بألا تكون هذه السيارات لأشخاص بعينهم ، وأن تدخل كعهدة للجهات أو المؤسسات التى تهدى إليها، وتقوم بدفع الجمارك المستحقة عليها.. ويستطيع الهونى أن يسأل نفسه بعد ذلك من الذى يمول صحيفته التى تصدر فى لندن ولحساب من .. وكلها حقائق معروفة لاسبيل إلى إنكارها». (للمزيد، يرجع إلى كتاب الدكتور حلمى محمد القاعود الذى سبقت إشارتنا إليه ص١٦٢-١٦٣) .

وفى نفس المجال ،يقول الأستاذ مصطفى أمين فى عموده اليومى «فكرة» فقرة قال فيها : «ولقد حرص الرئيس حسنى مبارك على ألا يقول الأسرار التى يعرفها .. فلم يقل مثلاً إنه قبل الغزو بيومين حوّل الرئيس صدام إلى حسنى مبارك مبلغ خمسين مليون دولار لمعاونة الاقتصاد المصرى على متاعبه .. وقد رفض حسنى مبارك أن يدخل هذا المبلغ ميزانية الدولة، ووضعه فى حساب تسديد الديون التى على العراق لمصر . توهم صدام حسين أنه اشترى مصر بالخمسين مليون دولار ، وبعد ٤٨ ساعة غزا الكويت، واستولى عليها مطمئنًا أنه أقفل فم مصر إلى الأبد وأن الخمسين مليونًا هى دفعة على الحساب، وبعد ذلك تتوالى الملايين والبلايين.. وجاء الرسل من بغداد تلوح بملايين الدولارات ، وبلايين الدولارات وبكميات ضخمة مجانًا من البترول .. وقد رفضت مصر كل هذه العروض باحتقار ..» (للمزيد، يرجع إلى المرجع السابق ص١٦٨-١٦٩) .

ولاشك ، أن أسلوب العراق هذا فى شراء الذمم قد امتد ليشمل -أيضًا- كثيراً من الأجهزة والتنظيمات الفاعلة على الساحتين العربية والإسلامية . وأن الكثير منها استجاب (لما هو معروف فى الضعف الإنسانى) وباع نفسه لمن يدفع له. فأثاروا الرأى العام فى الشارع العربى والإسلامى بدعاياتهم المؤيدة للنظام العراقى والمعادية لدول الخليج .

٦- رسم صورة ذهنية سيئة عن المواطن الخليجى وحكامه :

من الطريف أن الإعلام العراقى ظل طوال حرب العراق مع إيران يشيد بدول الخليج والعالم العربى، حيث كانت تمد له يد العون الذى يساعده فى صموده فى هذه الحرب ، فدول الخليج أمدته بعشرات المليارات من الدولارات ؛ خاصة الكويت والمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية ، ومصر التى أمدته بالعتاد والمعدات العسكرية التى كان فى حاجة ماسة إليها. لكن بعد أن انتهت الحرب العراقية الإيرانية بدأ العراق يخطط لغزو الكويت وضمها ، ويبحث عن أسباب لتبرير ذلك، فانقلب على الكويت والإمارات العربية يكيل لهما الاتهامات وبعد أن وقفت السعودية ومصر ضد رغباته فى ضم الكويت، وطالبتاه بالانسحاب الفورى منها انقلب عليها وأخذ يكيل لهما الاتهامات أيضًا . وهكذا، فكل من أيده -فى نظره- بطل قومى عربى إسلامى، وكل من عارضه خائن لقوميته ودينه . وسلط على هذه الدول الأربع خاصة وسائل دعايته المسمومة- وهى التى كان يكيل لها المديح فى السابق عندما كانت تمد له يد العون الذى يحتاجه فى حرب إيران. وهكذا، كانت مصالح العراق الخاصة والذاتية والآنية هى الموجه الوحيد لوسائل إعلامه ، فمن أعطاه مدحه، ومن وقف ضد مطامعه هجاه وشوه صورته أمام الرأى العام الداخلى والخارجى على حد سواء. وكان من الطبيعى بالنسبة لهذا الوضع أن تستأثر الدول الأربع، التى كانت أكثر الدول مساعدة للعراق، بأقبح الهجاء وأشد محاولات التشويه لصورتها فى أذهان مواطنيها وأذهان الأجانب .

وركز الخطاب الإعلامى العراقى على رسم صورة ذهنية عن الخليجى خاصة، وحكامه عامة، على أنهم مجموعة من الأغنياء الفاسدين قصار النظر، الذين يخونون وطنهم ومواطنيهم، والذين يحترفون العمالة للأمريكيين والمستعمرين، والذين يتاجرون بالإسلام ولايرعون له حرمة، ولايطبقون له شرعًا ولايحترمون له توجيهًا ، والذين يتميزون بالسفه فى إنفاقهم على شهواتهم ، وبالبخل فيما يقدمونه من معاونات للدول والمنظمات والمجتمعات العربية والإسلامية المحتاجة ، وبكثرة المن على من يقدمون له هذا العون الضئيل؛ وبهذا تنطبق عليهم

حالة الحسنة التى يتبعها أذى . ولنا فى الفقرات - التى سبق أن نقلناها- من حديث الرئيس العراقى صدام حسين فى البنود الثلاثة الأولى ما يؤيد تركيز الخطاب الإعلامى على رسم هذه الصورة السيئة عن الخليج، ومحاولات إقناع الناس بها ..

ولابد أن يترك كل هذا أثراً فى شحن الجماهير العربية والإسلامية باتجاهات سلبية عدائية نحو الخليج، تستثير هياجها ضده، فى نفس الوقت الذى يظهر فيه النظام العراقى فى صورة النظام المثالى المدافع عن الجماهير العربية والإسلامية المنهوبة حقوقها ، المهددة مصلحتها ، المهانة كرامتها من أنظمة حكمها . كما يظهر العراق فى هذه الصورة باحتلاله للكويت ، تمهيداً لما بعدها ، وكأنه المخلص الذى أرسلته العناية الإلهية لتصحيح أوضاع العالم العربى وتوحيده، ووضع الأمور فى نصابها الطبيعى . ومع عقلية القطيع التى تفتقر إلى النقد والوعى العقلانى وتقدير عواقب الأمور، ومع شدة الإحباطات التى تعانيها الجماهير العربية والإسلامية عامة يزداد تأثرها وتسهل استثارتها ، كما حدث فى هباتها لتأييد النظام العراقى، وتشجيع موقفه، وإدانة الكويت والدول الخليجية، ودول التحالف المؤيدة لهما .

٧- تمييز عقود توظيف الغربيين فى الخليج عن العرب من نفس المستوى :

فى دول الخليج يعمل مواطنون غربيون (أمريكيون وإنجليزيون وفرنسيون..) مع زملاء لهم من المواطنين العرب (فلسطينيين ومصريين وسودانيين وأردنيين ...) ويزاولون نفس الأعمال وبنفس درجة المهارة . ويرى المواطن العربى المقيم فى دول الخليج أن هناك تفرقة شديدة بين مرتب المواطن الغربى عن مرتب زميله العربى قد يزيد عن الضعف ، علاوة على امتيازات أخرى يستمتع بها المواطن الغربى . وهذا أمر لايستسيغه العربى ولايرى مبرراً منطقيًا له، حيث تقضى العدالة- كما يفهمها- أن يكون الأجر على قدر الجهد والمشقة والمهارة، وليس على أساس التفرقة فى الأصل أو اللون أو الجنس .

يضاف إلى هذا نظام الكفالة المعمول به فى دول الخليج، والذى يتشدد فى عدم دخول أى مواطن عربى أو مسلم دول الخليج إلا بكفالة من مواطن هذه الدول الخليجية ، مع كثير من الحكايات والقصص، التى تروى على مسامع الكثيرين، من تلاعب واستغلال بعض الكافلين لهؤلاء المواطنين العرب والمسلمين الذين يخدمون فى الخليج ، أو يريدون القدوم للخدمة فيه، وتجسيم ما يتعرضون له ، فى ظل نظام الكفالة هذا، من استذلال واستعباد ومهانة ، بحيث

تصبح مادة دسمة لتشويه صورة الخليجى (والتى تعرضنا لها فى البند السابق) تستغلها وسائل الإعلام المغرضة ، وأيضًا تصبح مادة يبرر بها الناس اختلافهم وجدلهم وتقييمهم لموقف كلٍ من العراق والخليج من الأزمة .

إن الإنسان يحب أن يشعر بإعزاز الآخر له وتقديره لقيمته . فمن هذا يستمد الإنسان إحساسه بقيمة ذاته Self-appraisal الذى يستتبعه بالضرورة احترامه لهذه الذات Self-esteem ، وهما أمران يؤكد علم النفس على أهميتهما للإنسان ، بما هو إنسان متعه الله بالكرامة على الحيوان .

ولاشك أن كلاً من التمييز بين الغربى والعربى فى عقود العمل وامتيازاته ، ونظام الكفيل، يجعلان العربى المقيم وأهله ومعارفه فى الموطن الأصلى أقل حماسًا للدفاع عن وجهة النظر الخليجية ضد العراق الذى يفتح صدره، دون نظام كفالة، لكل من يريد دخوله من المواطنين العرب، حتى دون تأشيرات دخول أو خروج منذ مدة طويلة، على نحو ما هو معروف . حيث تركز عليهما الدعاية العراقية ضد الخليج .

٨- ظاهرة التوحد بالقوى :

استفاد الرئيس صدام حسين ونظام حكمه أثناء أزمة الخليج استفادة ضخمة فى كسب التعاطف والتأييد فى العالم العربى والإسلامى من الظاهرة المعروفة فى علم النفس بالتوحد بالقوى Identification. ولكى نفهم المقصود بعملية التوحد، لابد لنا من أن نحدد المقصود بعملية المحاكاة Imitation (أو التقليد) . فهذه العملية الأخيرة يقوم فيها الشخص بوعى ويقصد منه بتقليد ومحاكاة شخص آخر فى حركاته وتفكيره ونشاطه عمومًا . وعملية المحاكاة هذه مؤقتة ، بحيث يعود المقلد إلى شخصيته الأصلية بعد انتهاء عملية المحاكاة ، تمامًا كما يقوم الممثل بتقليد نابليون فى حركاته وتفكيره وعاداته السلوكية طوال اعتلائه خشبة المسرح، حتى إذا انتهى من روايته عاد الممثل سيرته الحقيقية، وفى موسم مسرحى تال يمثل شخصية أخرى.. إذن، فهو يضع نفسه بشكل شعورى Conscious وضعًا مؤقتًا مكان الشخصية التى يمثلها ويقلدها على خشبة المسرح. أما التوحد فهو عملية تلجأ إليها الشخصية بشكل لاشعورى Unconscious ، فتتمثل بهذه العملية وتستدمج اتجاهات ودوافع وسمات شخص آخر، بحيث تصبح اتجاهات ودوافع وسمات أصيلة لها، تضرب جذورها فى أعماق بنائها

الأساسى، وبحيث نجد أن الشخصية تهتز وتنفعل بما يهتز به وينفعل الشخص الذى تقوم هى بالتوحد معه، كما يحدث لنا جميعًا ونحن نشاهد رواية تمثل أمامنا أو مسلسلاً يعرض علينا، حيث نستثار وننفعل بما يثير أبطاله من مآسى ، أو ما يحققونه من نجاح ، وكأنها مآسينا نحن، أو نجاحاتنا نحن. وهكذا، فإن التغير الذى يحدث لنا نتيجة عملية التوحد لايكون مؤقتًا ، ولايكون مفتعلاً ، ولانكون متعمدينه، كالذى يحدث فى عملية المحاكاة . وعلى هذا، فالإبن يتوحد بأبيه ولايقلده ، والبنت تتوحد بأمها ولاتقلدها، كما أن الفرد يتوحد بالشخصيات التى يرى فيها مثله العليا .

ولاشك أن القوة من ضمن المثل العليا التى يتمنى الناس تحقيقها، خاصة الضعفاء منهم، ليستمتعوا بنشوة القوة التى حرموا منها. ولقد كانت تصرفات الرئيس العراقى صدام حسين وتصريحاته وبياناته وأحاديثه طوال أزمة الخليج ، بل وطوال فترة حرب التحالف معه مملوءة بنغمة الغطرسة ، وحماس الثقة ، ولغة القوة، ودعم ذلك بضرب تل أبيب بالصواريخ، وأذاع الذعر والخوف بين الإسرائيليين، فكان بذلك أول زعيم عربى يدخل الحرب إلى قلب تل أبيب، وأنعش أمل العرب والمسلمين فى إمكانية تحرير الأرض المحتلة . فإذا أضفنا إلى ذلك مذلة إحساس العرب بهوان شأنهم وضعفهم ، استطعنا أن نعرف كيف توحدت الجماهير العربية والإسلامية بصدام حسين، وتبنت اتجاهاته العدائية نحو الخليج ، وفق ما شرحناه من مبادئ سيكلوجية عن ظاهرة التوحد. وهكذا، أصبح ضرب التحالف وحربه للعراق هو ضرب وحرب خاصة لكل من توحدوا به، وكأن القنابل التى كانت تتساقط على العراق إنما تتساقط على رؤسهم (من توحدوا به) . فعمل هذا على زيادة اشتغال غضبهم وهياجهم ضد التحالف، كما رأينا .

٩- ظاهرة التوحد بالمعتدى :

شرحنا فى البند السابق المقصود بظاهرة التوحد فى علم النفس، ونتحدث الآن عن ظاهرة التوحد بالمعتدى Identification with the Aggressor خاصة. فالتوحد بالمعتدى هو وسيلة نفسية تلجأ إليها الشخصية ؛ إذ تتشكل فى بعض جوانبها النفسية الانفعالية والسلوكية على شاكلة من يقوم بالعدوان والتعدى ، وهكذا لاتعود الشخصية المتوحدة بالمعتدى خائفة مهددة ، بل بالعكس تمامًا ؛ إذ تصبح مهددة مخيفة . وبهذا، يعالج الفرد مخاوفه ويتخلص منها إذ يحس القوة والاقتدار ، فعن طريق تبنيه خصائص المعتدى واستدماجه لها ولاتجاهاتها النفسية يحيل نفسه إلى شخص قوى يهدد ولايتهدد ، ويخيف ولايخاف .

ونلاحظ أن الخطاب الإعلامى العراقى قد تبنى نغمة القوة والشجاعة وعدم الخوف والتحرق شوقًا إلى ملاقاة الأمريكيين وقوات التحالف، ليجعل دماءهم تسيل أنهاراً لتروى الصحراء المتعطشة، وتحيلها إلى لون الدم الأحمر، مما سهل عملية التوحد باتجاهات الرئيس العراقى صدام حسين (المعتدى على الكويت والقوى الجاسر) من جانب قطاعات فى الشارع العربى والإسلامى، المملوء إحساسًا بالضعف والهوان والذلة ، ومختلف صنوف الخوف والقلق. وهكذا، اجتمعت ظاهرة التوحد بالمعتدى (التى نتحدث عنها الآن) مع ظاهرة التوحد بالقوى (التى سبق أن تحدثنا عنها فى البند اسابق) لتدعم إحداهما الأخرى فى تبنى اتجاهات الرئيس العراقى صدام حسين فى أزمة الخليج والتوحد به .

١٠- سيادة الشخصية القبلية :

«الشخصية العربية تشيع فيها خصائص الشخصية القبلية إلى حد كبير، فمعظم العرب يعيشون على الرعى والزراعة ذات الطابع البدائى حتى عهد قريب، ومن شأن هذا النمط من العمل أن ينمى فى أفراد المجتمع الانتماء والولاء للقبيلة والتعصب لها. وتصبح علاقات القرابة -فى ظل هذا النظام- أقوى العلاقات الاجتماعية ، وأوثق الروابط الانفعالية ، وأكثرها حرارة وقيمة . فإذا بالأخ ينصر أخاه ولو على ظلم، ويعادى من عادى فرداً من قبيلته ولو على حق. ويلخص هذا المثل الشعبى القائل : (أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب) ظاهرة العلاقات القبلية أبلغ تلخيص .. وسمات الشخصية القبلية فيها إيجابياتها، كما أن لها سلبياتها على المجتمع العربى. ولعل من أبرز إيجابيات سمات الشخصية القبلية :

أ- وحدة المشاعر العربية فى مواجهة العدوان والخطر : «فالخطر -عادة- يوحد الأمة كعامل يقويها فى مواجهته والتغلب عليه ؛ فالاعتداء الذى تقوم به إسرائيل على أي جبهة عربية يكون له رد فعل من الغضب النفسى يعم كافة البلاد العربية، ويدفع هذه البلاد نحو التنسيق لملاقاة هذا الاعتداء والانتصار عليه . ويكفى أن نعود بالذاكرة إلى الجو النفسى المشحون، والذى عم أفراد الأمة العربية وقت معركة الكرامة ، وقبلها وقت العدوان الثلاثى على مصر (عام ١٩٥٦) ووقت كارثة يونيو (١٩٦٧) ، وبعدها وقت معركة أكتوبر (١٩٧٣) . إن الأمة العربية -فى مثل هذه الظروف- ينبض قلبها ويتأثر وجدانها ويتوحد انفعالها- وكأنها أسرة واحدة كبيرة، أو قبيلة واحدة منتشرة تسود أفرادها قرابة دموية، هى فى حقيقتها وحدة سيكلوچية قبلية» .

ب) تقوية روابط القومية العربية : « إن سمات الشخصية القبلية المنتشرة بين العرب هى التى تعمل على تغذية وتقوية ظاهرة الوحدة العربية، وكأن الأمة العربية قبيلة واحدة ممتدة على مساحة جغرافية متصلة ، وفترة تاريخية مستمرة ، تتكلم لغة واحدة، وتشيع بين أعضائها روابط مختلفة الدرجة. وتصبح البلاد العربية وكأن كلاً منها يمثل أسرة صغيرة نسبيًا من أسر هذه القبيلة الكبيرة . وهكذا، نجد للمواطن العربى عضويتين فى نفس الوقت ؛ عضوية محلية، وعضوية عربية ، تقوم العضوية الأولى مقام الأخوة، بينما تقوم العضوية الثانية مقام أبناء العم فى المثل، الشعبى سابق الذكر».

أما أبرز سلبيات الشخصية القبلية فإننا نرى من أهمها :

الذاتية (ونقص الموضوعية) فى تقدير الأمور : «ويعتبر هذا من أكبر عيوب الشخصية التى تحمل الملامح القبلية . فكل ما يفعله الإخوة والأقرباء هو الصواب بعينه، وكل ما يفعله الغرباء هو الخطأ الذى ينبغى أن يقاوم . فينبغى على كل عضو فى القبيلة أن يتبنى وجهة نظرها ، بغض النظر عما تحمل من مضمون، وإلا عد منشقًا عن القبيلة خارجًا عليها، يطارده غضبها ولعنتها . وهكذا، يسكت العقل، فلايعود ينظر للأمور يفحصها بموضوعية وتجرد، ويسلم قياده للأهواء الذاتية التى تتبناها القبيلة، فيرى صائبًا ما تراه هى صائبًا ، ويرى مدانًا ما تراه هى مدانًا ، وهكذا .. » (لمزيد من التفاصيل راجع : د. فرج عبد القادر طه ، أضواء على سيكلوجية الشخصية العربية، فى كتابه : علم النفس وقضايا العصر، بيروت ، دار النهضة العربية، ١٩٨٦ ، ص٢٢٧-٢٥١) .

ومن هنا كان الضغط الذى مارسته الولايات المتحدة الأمريكية على إسرائيل، حتى لاترد بالمثل على الصواريخ التى وجهها العراق إلى تل أبيب، فتثير الجماهير العربية تعاطفًا مع العراق، ومن هنا -أيضًا- كانت استجابة إسرائيل بالسكوت عن الرد، وما كان أسهله على إسرائيل فى هذا الظرف بالذات، علاوة على مبرره القوى أمام الرأى العام العالمى .

لقد ظهر أثر الشخصية القبلية جليًا عندما انتصرت بعض الجماهير العربية للعراق، لمجرد أنه يضرب من جانب التحالف الدولى بقيادة أمريكا البلد الغربى الأجنبى؛ عملاً بقاعدة مناصرة الأخ، حتى لو كان ظالمًا ضد الأجنبى حتى لو كان محقًا . لكن، لنا أن نتساءل لماذا غابت هذه القاعدة عندما اجتاح العراق الكويت عسكريًا . هنا تعمل العلاقات القبلية وفق مبدأ آخر، خلاصته أن الخلاف بين العربى والعربى (أى بين الأخ وأخيه) مسألة داخلية صرفة

لاينبغى أن يتدخل فيها الأجنبى باعتباره غريبًا، بل تترك لهما. ففى مثل هذه المواقف، تسمع العربى دائمًا يقول للإخوة المختلفين «أنتم إخوة، لايصح أن تدخلوا الغريب بينكم ، حلوا أنتم خلافاتكم داخلكم وبأنفسكم». وكأن هذه قيمة عربية اجتماعية لايجوز الخروج عنها، بل يعد فى نظر الشخصية القبلية مروقًا، لايجوز السكوت عليه، فما بالنا لو استعان الأخ (الضعيف المظلوم) على أخيه (القوى الظالم) ليرد ظلمه بالأجنبى (القادر على القيام بهذه المهمة التى عجز الإخوة عن إنجازها) ، فتطلب الأمر حربًا لهذا الأخ .

١١- الجمود الفكرى والتعميم الجامد :

الفكر العربى -عمومًا- يمتاز بقدر كبير من الجمود يؤدى به إلى صفة سلبية فى الفكر، هى المعروفة فى علم النفس بالتعميم الجامد Stereotypy . ويشير هذا إلى حالة من ضعف التفكير الناقد والجمود على فكرة واحدة ، يصعب التحول عنها أو تعديلها حتى لو دعت الظروف إلى ذلك ، وحتى لو قام الدليل على بطلانها . حيث يعمل الجمود الفكرى على تعطيل التأمل العقلى الحر، ويكبل الذهن باعتبارات لايفكر إلا فى حدودها على نحو فكر الشخصية القبلية التى تحدثنا عنها فى السابق . فينغلق الفكر ، ويضيق العقل، ويسقط المنطق عند ذاك ويرفض ، كنتيجة حتمية، حتى لو أيدته الشواهد الواقعية .

فنظرة العرب- جماهيرهم ومثقفيهم عامة- إلى أمريكا على أنها رأس الاستعمار ووريثته وحاميته، والمعادية لكل فضيلة ، والعاملة على استغلال كل الشعوب، خاصة الشعب العربى مع نهبه وإضعافه، وأنها بلد لايهمها إلا مصلحتها ، وإسرائيل حارسة مصالحها فى المنطقة، ومن هنا فلايهمها إلا تحطيم أى قوة تظهر فى العرب، تأمينًا لبقاء مصالحها، وخوفًا على إسرائيل منها. وهى لهذا قد حركت العالم، وعبأته (بما فيه الاتحاد السوفيتى السابق، والذى أصبح ذيلا هو الآخر لها) كما جندت مجلس الأمن؛ ضمانًا لتدفق البترول العربى إليها، وتدميراً لقوة العراق النامية خوفًا على إسرائيل منها، وحماية للنظم الخليجية المتعاونة معها. وعلى هذا ، فأمريكا هى العدو رقم (١) للعالم العربى. ولهذا ، فقد انتهزت أزمة الخليج واستيلاء العراق على الكويت لتدمير العراق، وبالتالى رفع بعض المناهضين للاستعانة بالأمريكيين ودول التحالف شعاراً يقول بأنهم لم يجيئوا إلى الخليج «لتحرير الكويت وإنما لتدمير العراق». وذهب البعض منهم -أيضًا- إلى ما هو أبعد من هذا فقالوا بأن الأمريكيين قد اتفقوا سراً مع الرئيس صدام- باعتباره عميلا لهم- ليقوم بغزو الكويت، حتى يعطيهم مبرراً أمام الرأى العام العربى والعالمى لتدمير العراق، وأن الرئيس صدام قد رضى بتدمير

العراق نظير وعد من جانب الأمريكيين بجائزة كبيرة أفضل له وأهم ؛ ودليلهم فى ذلك أنه كان بإمكانهم إسقاطه بسهولة ، لكنهم لم يفعلوا، لأنه أفضل لهم من سواه. وأن التاريخ سوف يزيح الستار عن كل ذلك مستقبلا .

تلك مجمل الصورة الذهنية الغالبة عند العرب عن الأمريكيين . ولاشك، أن التاريخ العدائى لمواقف الأمريكيين من القضايا العربية يبرر -إلى حد كبير- هذه الصورة . فالعرب لم ينسوا بعد حماية الأمريكيين لإسرائيل، ودورهم معها فى تحقيق الهزيمة المنكرة لهم عام ١٩٦٧، وتكرار أمريكا لنفس الدور المساند لإسرائيل ضد العرب فى حرب ١٩٧٣ ، ومواقفها المساندة لإسرائيل فى مجلس الأمن والأمم المتحدة ضد العرب، ولو بالباطل .

لكن هذا شيء ، وإمكانية تغيير مواقفها من العرب وتعديلها شيء آخر . وكما يقال فى المثل: «لاشيء يبقى على حاله» . أما أن نجمد عند هذه الصورة الذهنية الكريهة عن أمريكا ، ونفسر من خلالها كل مواقفها ، فهذا ظلم لأمريكا بمثل ما هو ظلم لنا أنفسنا ؛ إذ أن أمريكا- أو أى بلد فى العالم- لاشك تحب أن تكون صورتها فى ذهن العرب وغيرهم صورة طيبة حسنة، مما يدفعها إلى اتخاذ مواقف مفيدة للعرب حتى تغير صورتها للأحسن ، فإن اتخذت هذه المواقف ، ومع ذلك لم يغير العرب تصورهم عنها ، وظلوا يعتبرونها عدوهم رقم (١) فقد ييأس الأمريكيون من ذلك، ويقابلون العداء العربى بالمثل، وذلك أمر لايستهتر به إلا المغيبون عن الوعى، أصحاب النظر غير الواقعى، الواهمون بقوة زائفة لديهم توردهم موارد التهلكة ، كما فعل العراق حديثًا، ومن قبله مصر وسوريا (عام ١٩٦٧) ، فكان من ذلك ما كان، وما ظل كائنًا حتى اليوم للأسف الشديد. ألا ليتنا نتعلم من أخطائنا !!

ولقد أيد العالم كله تقريبًا - بدليل قراراته فى مجلس الأمن- ومعظم العالم العربى والإسلامى موقف الخليج والكويت ، وأدان بشدة وصراحة موقف العراق، إلا أن أصحاب الفكر الجامد لايهمهم من هذا كله شيء، ولايغير هذا من صورتهم الذهنية عن الأمريكيين ، خاصة فى موقفهم من أزمة الخليج .

إن الجمود الفكرى يؤدى إلى عدم تأثر الرأى، أو الحكم السابق، بتغير الظروف التى أدت إليه، فإذا بالرأى يصبح غريبًا شاذاً مستعصيًا على التبرير فى نظر الآخرين. كما أنه يؤدى -أيضًا- إلى لوى الحقائق والمشاهدات، حتى تتفق مع الفكرة الجامدة ولاتحيد عنها. ونتيجة لشيوع الجمود الفكرى فى قطاع كبير من العالم العربى لايعود العالم الخارجى يقر منطقه، أو حتى يعرف توجهاته ؛ إذ تغيب الموضوعية، وتسود الذاتية ، وتختلط الأمور. ويسهل على المفكر النزيه أن يكتشف مصداق هذا.

ففى مقال للأستاذ تركى الحمد، نشرته جريدة الشرق الأوسط، بعددها الصادر فى ٢ / ٤ / ١٩٩٢، تحت عنوان : «عجيب أمر هذه الأمة» يقول: «عجيب أمر هذه الأمة، باختلاف طبقاتها وفئاتها وأفرادها ، إذ يبدو أنها لاتعرف ماذا تريد، أو أنها لاتريد أن تعرف ماذا تريد. والنتيجة واحدة فى خاتمة المطاف، سببها سرابية الهدف وزئبقية المنهج، وفوق هذا وذاك ضبابية العقل والذهن . فى كل يوم وفى كل حادثة تتبدى هذه المأساة العربية، مما يعطى الانطباع أن العرب، بالإضافة إلى الملاحظات السابقة، أمة لاتستفيد من دروس التاريخ، أو أنها فى حالة انتحارية معينة لاتريد أن تستفيد من هذه الدروس، ولامن وتيرة الأحداث وتسلسل الوقائع .. هنا يظهر أثر العقلية العربية على التعامل مع الأحداث؛ إذ تفصح عن نفسها من كونها عقلية عاطفية عشوائية سريعة التأثر ومندفعة .. ومن ناحية أخرى، فإن ذات القرار ٢٤٢ ، عندما صدر عام ١٩٦٧م، رفض من ذات الأفراد والهيئات التى ترفض اليوم تصريحات الدكتور غالى، والتى ؛ أى هذه التصريحات ؛ تصب فى ذات المصب ، وتنهل من ذات المنهل الذى كان يستقى منه هؤلاء رفضهم تلك الأيام من حيث إنه مجرد توصية ، وبالتالى غير ملزم من حيث مسئولية الهيئة الدولية على فرضه (فالقرار ٢٤٢ يستند إلى الفصل السادس من الميثاق فعلاً، والذى يركز على تسوية المشكلات الدولية بالطرق السلمية، دون استخدام القوة من قبل الأمم المتحدة ، أما القرارات الصادرة بشأن العراق -مثلاً- فهى تستند إلى الفصل السابع من الميثاق، والذى يخول الهيئة الدولية استخدام آليات معينة لتطبيق القرارات . وبالتالى، فإن الدكتور غالى غير ملوم عندما يوضح هذه النقطة) .. إنهم (أي العرب) يقبلون اليوم، وبخنوع ، ما رفضوه بالأمس، ويتهمون اليوم القائلين بعدم إلزامية القرار بنفس التهم التى كالوها بالأمس لمن قبل القرار، وقال بإلزاميته . تغيرت المواقع ، وتغيرت معها صفات الخيانة والوطنية التى هى دائمًا -وفق العقلية العربية- مع طرف دون طرف .. كل ذلك يذكرنا بأزمة نيل نجيب محفوظ جائزة نوبل للأدب ؛ إذ قبل ذلك كان العرب يتهمون مانحى الجائزة بالانحياز وعدم الاعتراف بهم. أما وقد أعطيت لنجيب محفوظ، فإن ذلك ليس اعترافًا بهم وبأدبهم ، بقدر ما هو مكافأة محفوظ على مواقفه السياسية ، وخاصة الموقف من كامب ديفيد . لقد بدأت اقتنع أننا أمة لايرضيها شئ . وعندما تقبل شيئًا -فى خاتمة المطاف- فإنه يكون أقل بمراحل مما كنا نرفضه ولانقبله فى الماضى. ونظرة بسيطة إلى تاريخ القضية الفلسطينية توضح هذه النقطة . بل انظروا إلى حال العراق اليوم الذى كان رافضًا لكل شىء قبل الحرب، وهو اليوم يقبل أى شئ أليس فى كل ذلك نوع من الكوميديا والتراجيديا فى ذات الوقت...».

فهل نستغرب بعد هذا أن تؤيد بعض الأنظمة العربية، وأن تهب بعض هيئات ومنظمات وأحزاب وجماهير عربية تأييداً لموقف العراق فى الأزمة، وتشجيعًا لما فعله الرئيس صدام حسين ونظامه بالكويت والخليج ، ومناداة بسحق أمريكا والدول المتحالفة لرد العراق عن غيه وإعادة الكويت إلى أهلها ، دفاعًا عن الشرعية الدولية والقيم الإنسانية التى انتهكها العراقيون عند اجتياحهم للكويت وقتلهم واغتصابهم ونهبهم للمقيمين فيه من أبرياء لم يرتكبوا ذنبًا يبرر ما وقع عليهم .

١٢- الدوافع العدوانية والميول السادية والمازوخية :

«تعتبر الدوافع النفسية التدميرية Destructive Motives (أو الدوافع العدوانية) من بين العوامل السيكلوجية التى تمهد للحرب، وتيسر الانزلاق إليها وتزينه، وتستبعد فى نفس الوقت الحل السلمى لما يجابهنا من مشكلات . وينظر إلى هذه الدوافع أحيانًا- كما هو الحال عند معظم المحللين النفسيين- على أنها دوافع فطرية غريزية فى الإنسان، تدفعه للقيام بسلوك مدمر، سواء له أو لغيره، وهذه الدوافع التدميرية يمكن أن تكون مكشوفة محسوسة وشعورية، كما يمكن أن تكون متخفية ولاشعورية . فإذا ما قمنا بتحليل موضوعى وأمين للعوامل المتخفية وراء حرب كالعالمية الثانية ، أو الفيتنامية الأمريكية ، فسوف نقتنع مباشرة بدور هذه الدوافع التدميرية ؛ أعنى غريزة العدوان . ومن الملاحظ أن هذه الدوافع التدميرية تلعب نفس الدور فى كل الحروب التى تنشأ فى أرجاء الدنيا. فعلى سبيل المثال، لايستطيع الفرد أن يقبل - إذا كانت نظرته موضوعية نزيهة - تلك التبريرات التى تقدمها إيران ولا العراق لحربهما المجنونة ؛ خاصة وأننا نعلم أن كلاً منهما تدعى أنها بحربها هذه إنما تدافع عن الإسلام. فمما لاشك فيه أن الحروب تستطيع أن تشبع بشكل كبير الدوافع الإنسانية التدميرية عن طريق التدمير، الشديد الذى تحدثه فى كل من البشر والاقتصاد على السواء . لقد كتب أنتونى ستور Anthony Storr على غلاف كتابه المعنون : العدوان البشرى Human Aggression (الذى طبعته سلسلة Pelican عام ١٩٨٥) هذه العبارة : «إن الحقيقة الكئيبة هى أننا أقسى المخلوقات على الأرض وحشية وأبعدها عن الرحمة». (للمزيد راجع: البحث الذى ألقيناه فى المؤتمر الدولى الثامن لعلم النفس عبر الحضارى، والذى عقد باستانبول بتركيا فى يوليو من عام ١٩٨٦ ، ثم نشرت ترجمة له فى مجلة علم النفس ، عدد (٢) عام ١٩٨٧ بالقاهرة ، بعنوان : «هل حقًا الإنسان يبحث عن السلام؟ «نظرة نفسية») .

هذا ، وترتبط بالدوافع العدوانية ما تعرف بالميول السادية Sadistic Tendencies والميول المازوخية Masochistic Tendencies . ونحن نعتقد أن هذه الميول هى أيضًا :

«عامل نفسى آخر متخفى من العوامل التى تيسر التورط فى الحروب، وتقاوم تحقيق السلام. وتعتبر هذه الميول عرضًا مرضيًا نفسيًا يمكن ملاحظته فى بناء الشخصية عند بعض الأفراد، حيث تدفعهم هذه الميول إلى اشتقاق لذة شديدة من إيقاع الأذى بالآخرين ، ومن ارتكابهم للأفعال العدوانية والوحشية (فى حالة اشتداد السادية عند الفرد) ، وفى نفس الوقت -أيضًا- من وضع أنفسهم موضع الإهانة والتحقير والإيذاء والعقاب (فى حالة اشتداد المازوخية عند الفرد) .. ففى مثل هذه الحالات، تصبح الحرب إشباعًا مثاليًا لمثل هذه الشخصيات المضطربة؛ حيث إنها تؤدى إلى ضرر مفزع لكل من يتورط فيها من كلا الجانبين» على نحو ما ورد فى المصدر السابق.

ومن هذا المنطلق ويشكل لاشعورى Unconscious غالبًا هللت وسعدت بعض الجماهير العربية والإسلامية باحتلال العراق للكويت، وعدوانه عليها، وتدميره لها. (إشباعًا للدوافع العدوانية والتدميرية، وإرضاء للسادية)، كما شجعت العراق لاستمراره فى هذا النهج ضمانًا لاستمرار هذا الإشباع بتدمير العراق أيضًا، وهو ما حدث بالفعل . أما العراقيون أنفسهم، والذين شجعوا نظامهم وساندوه، فكان من منطلق إشباع ساديتهم نحو الآخرين (الكويت) وفى نفس الوقت مازوخيتهم دون وعى شعورى، حيث أدى تشجيعهم ومساندتهم لنظامهم واستمرارهم فى غيهم إلى كل ما أصابهم الآن من أضرار وتدمير ترثى له قلوب العرب والمسلمين فى كل مكان.

١٣- التعاطف الوجدانى :

التعاطف الوجدانى Sympathy ظاهرة سيكلوچية تبدو فى ميل الناس إلى المشاركة الوجدانية فى مشاعر الآخرين وانفعالاتهم ، حتى دون وجود رابطة قرابة أو معرفة بهم، فإذا بنا نتألم لآلامهم ونفرح لمسراتهم . فما بالنا لو كان هؤلاء الآخرون إخوة لنا فى العروبة والإسلام . وما بالنا -أيضًا- لو كان ما يصيبهم تدميراً شديداً وضرراً بالغًا ، ومابالنا ثالثًا لو كان أكثر الضرر يصيب أناسًا مدنيين لاذنب لهم ، إلا أن نظام حكمهم قام باعتداء ظالم لايد لهم فيه، وهم أصلاً الذين يتلقون العقاب ويكتوون به، بينما المسئولون أصلاً لايد تطالهم ، بدليل بقائهم -حتى الآن- مستمتعين بسلطانهم ونفوذهم .

نضرب ملجأ العامرية فى بغداد ، وقتل مئات الأطفال والنساء والمدنيين العراقيين، الذين احتموا فيه من قصف قوات التحالف ، وعرض هذه الجثث فى التليفزيون أمام ملايين المشاهدين ، قد أثار موجة من السخط العارم عمت العالم أجمع، فما بالنا بتأثيرها على الجماهير والشارع العربى والإسلامى من منطلق التعاطف والمشاركة الوجدانية .

هذا ، إلى جانب اتهام الكثيرين من أنحاء العالم- وليس من العرب فقط- الأمريكيين خاصة بضربهم أهدافًا عراقية ليست عسكرية، بل تحمل قيمة حضارية كبرى . فالقيم الحضارية تستأثر بالاهتمام العالمى، فما بالنا باهتمام أصحابها . وفى مقال لعبد الرحمن منيف بعنوان «أى عالم سيكون؟ المثقفون العرب والنظام الدولى الجديد» . يقول فى هذا الموضوع : «الآن، الطائرات الأمريكية الحاملة لآلاف الأطنان من المتفجرات والتى تريد أن تلقى حمولتها ، أن تتخلص من هذه الحمولة ، لكى تعود إلى قواعدها بسلام، هذه الطائرات تقوم الآن بما عجزت عنه آلاف السنين والمليئة بالقسوة والحروب، إنها تدمر الحضارة والآثار والنصب التاريخية . جسر الشهداء الذى قصف ، أقدم جسر فى بغداد ، يسمى الجسر القديم، وهو باتجاه واحد؛ لأنه لايحتمل سيارتين. وعلى هذا الجسر سقط شهداء بورتسموث عام ١٩٤٧ ، وضمنهم شقيق الشاعر محمد مهدى الجواهرى. لماذا يقصف هذا الجسر الآن ؟ وأهم نصب فى المنطقة العربية، وربما فى مساحة أوسع ، نصب الحرية ، الذى أبدعه جواد سليم، ويطيب لى أن تقول زوجته الإنجليزية كلمة للدفاع عن نصب زوجها ، والذى يقابل أحد الجسور فى بغداد ، يحتمل أن يكون قد قصف ، أو أنه موضوع على القائمة ؛ وكذلك الحال بالنسبة للآثار التاريخية التى عمرها آلاف السنين. إن شعبًا متحضراً يمتلك نظرة تاريخية لايمكن أن يتعامل مع الآثار والفن بهذه الطريقة، ولايمكن أن تبلغ به القسوة أن يضع على قائمة أهدافه ما يعنى تاريخًا وحضارة وشيئًا عزيزاً يهم الكثيرين ، يهم الجميع . قد أكون مدفوعًا بنوازعى الأدبية والفنية وأنا أتحدث عن الحرب ..»، (مقال منيف، فى كتاب : «عودة الاستعمار من الغزو الثقافى إلى حرب الخليج» ، إشراف رياض نجيب الريس، سلسلة كتاب الناقد ، رياض الريس للكتب والنشر، لندن- قبرص، ١٩٩١ ، ص٣٣-٤٤) .

ولاشك أن الخطاب الإعلامى العراقى قد استغل بشاعة الخطأ الجسيم الذى وقعت فيه أمريكا وقوى التحالف بضربها أهدافًا حضارية ومدنية- ليست طرفًا فى الحرب- فقام بتأليب العالم عامة، والجماهير العربية الإسلامية خاصة، مكونًا اتجاهًا مضاداً لأمريكا وقوى التحالف

والدول الخليجية . وعمل هذا على سهولة طرح وتبرير قناعة مضادة للأمريكيين بأنهم إنما جاءوا إلى الشرق الأوسط «لتدمير العراق ، وليس لتحرير الكويت» . وفى مثل هذه الكوارث الكبرى تتفجر النفس تعاطفًا وجدانيًا ، دون أن تتيح للعقل فرصة للتوقف فاحصًا الأسباب التى دعت إلى ذلك ، حتى يبطل العجب ، كما يقول المثل العربى المشهور .

١٤- الاستعانة بغير المسلمين :

لعل من أهم ما عمل على شق الصف العربى والإسلامى فى اتجاهه إزاء حرب تحرير الكويت (رغم وضوح الحق والعدل وقوانين الشرعية) وأعطى مبرراً قويًا لأنصار العراق أن يؤلبوا الجماهير ضد الكويت والخليج ؛ هو استعانة الخليج بقوات التحالف الأجنبية غير المسلمة. فعلى الرغم من إفتاء كبار علماء الإسلام بجواز ذلك- على نحو ما سبق أن أشرنا فى البند الأول من حديثنا هذا- إلا أن بعض الإسلاميين قد ظل جامداً عند تحريم ذلك شرعًا . استناداً إلى أن ظاهر بعض آيات القرآن الكريم قد حض على عدم اتخاذ المؤمنين للكافرين أو اليهود أو النصارى أولياء . ولعل من أوضح الآيات التى استندوا بها على ذلك الآية الكريمة رقم ٥١ من سورة المائدة : (**يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين**) .

وقناعتنا أن مثل هذه الآيات نزلت كتوجيه إلهى فى مواقف خاصة كان يتعرض لها الرسولﷺ ، ومرتبطة ومشيرة إلى أفراد معينين، وبالتالى فإن الأمر هنا ليس توجيهًا عامًا . إذ لايعقل أن الدين الإسلامى، الذى شهر بالتسامح وبالحض على الحسنى فى السلوك والدعوة أن يأمر بمقاطعة من يختلف عنه فى العقيدة، خاصة فى أيامنا هذه ، حيث يعيش المسلمون والمسيحيون واليهود جيرانًا ومواطنين ، جنبًا إلى جنب فى معظم مجتمعات العالم، تتشابك مصالحهم ويتعاونون على خير البشرية، ودفع الظلم ، وإعمار الكون وبناء الحضارة، حتى أننا نجدهم يحاربون ويقاتلون فى الجيش الواحد فى الدولة الواحدة ضد عدوها الذى قد يكون من نفس دينهم . ففى المقاومة الفلسطينية ، يقاتل الفدائى المسلم مع الفدائى النصرانى جنبًا إلى جنب ضد المعتدى الإسرائيلى ، كما يقاتل المصرى النصرانى جنبًا إلى جنب مع المصرى المسلم، كما حدث فى معارك التاريخ الحديث أعوام ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ .

ولاشك، أن الاستعانة بغير المسلمين فى الدفاع عن المسلمين وعن بلادهم وحمايتها من كيد الأعداء أمر جائز شرعًا .. بل واجب متحتم عند الضرورة إلى ذلك .. لما فى ذلك من إعانة

المسلمين وحمايتهم من كيد أعدائهم ، وصد العدوان المتوقع عنهم .. وقد استعان النبى ﷺ بدروع استعارها من صفوان بن أمية يوم حنين.. وكان كافراً لم يسلم ذلك الوقت .. وكانت خزاعة ، مسلمها وكافرها، فى جيش النبى ﷺ فى غزوة الفتح ضد كفار أهل مكة .. وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : «إنكم تصالحون الروم صلحًا آمنًا ، وتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم فتنفرون وتغنمون» أخرجه الإمام أحمد وأبو داوود بإسناد صحيح. (راجع بيان الشيخ عبد العزيز بن باز الذى نشره د. حلمى محمد القاعود فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه ص٢٦٣-٢٦٩). كما أن كبار فقهاء المسلمين ومفتييهم، مثل الشيخ متولى الشعراوى، والشيخ محمد الغزالى والدكتور محمد سيد طنطاوى وغيرهم كثير، قد حبذوا ، بل أوجبوا شرعًا ضرورة الاستعانة بغير المسلمين لدفع بلاء وقع بالمسلمين ، وفق قاعدة الضرورة ؛ على نحو ما أشرنا فى حديثنا فى البند الأول. وكل هؤلاء لايشك فى سعة علمهم، ولافى نزاهة رأيهم إلا من أعمتهم أهواؤهم عن إدراك الحق والاعتراف به .

لقد لعب الخطاب الإعلامى العراقى (مستعينًا بعجز الفكر العربى وجموده) بقضية تحريم استعانة المسلم بغير المسلم، مستشهداً بنصوص حرف تأويلاتها وفق أهوائه ، وغطى على ملابساتها ، ونزعها من سياقها . ولما كانت الجماهير العربية والإسلامية شديدة التقديس لكل ما يتعلق بالإسلام ونصوصه ، حتى دون نقاش عقلانى يبين مغزاها الحقيقى وتوجيهاتها الأصيلة الخيرة، فقد زاد هذا من هياجها واتجاهاتها السلبية نحو الكويت والخليج الذى استعان بالأجنبى .

وإلى هنا ننتهى من عرض ومناقشة أهم العوامل النفسية والاجتماعية التى أسهمت فى تكوين اتجاهات عدائية نحو دول الخليج أثناء حرب تحرير الكويت، وفجرتها فى الشارع العربى والإسلامى فى تجمعات هوجاء ترفع شعار التأييد للنظام العراقى، وتطالبه باستمرار الاتجاه الذى انتهجه وعدم العدول عنه أو التراجع ، وتعده بالمناصرة والتأييد ، وتدعو ضد الحكام العرب الذين يؤيدون التحالف، وتطالب شعوبهم بالانقلاب عليهم .

ولابد أن نؤكد هنا أن العوامل النفسية ليست الوحيدة وراء أزمة الخليج ، أو تكوين الاتجاهات المضادة للخليج فى الشارع العربى والإسلامى، بل هناك عوامل أخرى كثيرة اقتصادية وتاريخية وجغرافية وسياسية .. ربما كانت أسبق أو أشد تأثيراً . لكن كل ما نحاوله ونجتهد فيه هنا إنما هو إبراز دور العوامل النفسية ، دون ادعاء أنها الوحيدة (حتى لانتهم

ظلمًا بأننا نفسر التاريخ تفسيراً سيكلوچيًا خالصًا) ، تلك العوامل التى درجنا على إهمال النظر إليها فى مثل هذه الدراسات ، بينما هى فاعلة ، لها حضورها ، شئنا أم أبينا .

لكن ، يحسن هنا أن نوجه نظر القارئ إلى ثلاث ملاحظات ضرورية ، وإن كنا نعدها من نافلة القول :

أولاً : أن هذه العوامل كان يتضافر بعضها ، أو أكثرها ، أو كلها فى وحدات دينامية متآزرة فى تأثيرها فى تكوين الاتجاه السلبى من دول الخليج وتفجيره ، ولم تكن تعمل منعزلة بعضها عن بعض .

ثانيًا : من المتوقع أن تكون هناك عوامل معينة قد قامت بدور أكبر لدى جماهير شعب معين أو بلد معين، أو لدى تجمهر بالذات نظمته هيئة معينة ، أو حزب معين، أو جماعة معينة فى منطقة معينة، فى حين كان تأثير عوامل أخرى أقل أو شبه منعدم ، وفق كل حالة على حدة.

ثالثًا : لقد كشفت حرب تحرير الكويت ، بما تم من استقطاب حاد وشق للصف العربى والإسلامى ، مدى تخبط العالم العربى والإسلامى، ومدى ضبابية الرؤية فيه، ومدى مهارته فى التلاعب بالنصوص الدينية ، وتحميلها كل ما يريده من مضامين ومعانى وفق هواه الخاص ونزعاته الذاتية ، حتى لو كانت شديدة التناقض ، ومدى ابتعاده عن لغة العصر ومنطقه وفهمه لواقعه ، بما يؤدى به إلى التصادم مع العالم، حيث كان العالم كله فى كفة يقابلها كثير من جماهير العالم العربى والإسلامى فى الكفة المعادية ، والمناصرة للظلم رغم وضوح الحق ؛ سواء احتكمنا إلى النصوص الدينية ، أم إلى النصوص الوضعية ، فى نزاهة وعدم تحيز .

ثانيًا : توصيات لعلاج الاتجاهات المضادة لدول مجلس التعاون الخليجى

ركزنا فى الجزء الأول من نتائج هذه الدراسة على العوامل النفسية والاجتماعية، التى ساعدت على تكوين اتجاهات مضادة للكويت ولدول مجلس التعاون الخليجى فى الشارع العربى والإسلامى، وتفجيرها على هيئة هياج ومظاهرات طوال أزمة احتلال وتحرير الكويت. ونخصص هذا الجزء الثانى لاقتراح بعض التوصيات لتغيير هذه الاتجاهات المضادة وعلاجها ، وتنمية اتجاهات إيجابية محلها، مستعينين فى ذلك بما توحى به نتائج الجزء الأول من دراستنا هذه، وبما ترسب فى أذهاننا من مناقشات وتعليقات -قرأناها أو سمعناها- عن احتلال

الكويت وحرب تحريره ، وأيضًا بما هو معروف فى علم النفس الاجتماعى عن وسائل تغيير الاتجاهات وتعديلها .

ويحسن أن نقرر منذ البداية- حتى لايتوهم أحد- أن اتجاهات الأنظمة والجماهير والشعوب العربية والإسلامية ، كانت -فى غالبها- مؤيدة للكويت ودول الخليج ، وكانت -فى أقلها- معارضة ، بدليل أن معظم البلاد العربية والإسلامية ذات الوزن كانت مؤيدة للكويت ودول الخليج، ولم تخرج فيها مظاهرات مضادة إلا قليلة وبأعداد مشاركة قليلة أيضًا. فالكويت ودول الخليج هى -أولاً وأخيرًا- دول عربية وإسلامية تمثل احتياطيًا يحرص عليه كل عربى ومسلم غيور على وطنه ودينه ، علاوة على أنها مصدر رزق وإعاشة لقطاعات عريضة من بعض مواطنى البلاد العربية والإسلامية ، ومصدر عون مادى ومعنوى لمعظم الدول العربية والإسلامية ، إلى جانب أن الحق كان فى جانبها بشكل واضح . إلا أن ما نهدف إليه الآن إنما هو توصيات لإزادة الاتجاهات الإيجابية نحو دول الخليج، وتقليص الاتجاهات السلبية حتى أدنى حد لها، إذ لايعقل أن تلغى تمامًا ؛ لأن هذا لايتفق مع طبيعة البشر، حيث يستحيل اجتماع الجميع على قلب رجل واحد، كما يقول المثل «إرضاء الناس غاية لاتدرك» والقصد هنا- بطبيعة الحال- إرضاء كل الناس .

ومن هذا المنطلق ، نوصى دول الخليج لتقليص الاتجاهات السلبية أكثر وأكثر، ولإزادة الاتجاهات الإيجابية نحوها أكثر وأكثر، بما يلى :

١- تكوين هيئة شرعية تمثل الوطن العربى والإسلامى لتحديد حكم الإسلام فى زكاة البترول العربى :

بنى الخطاب الإعلامى العراقى فى استثارة الشارع العربى والإسلامى (والذى يعانى أغلبه من أزمات اقتصادية خانقة تجعله سهل الاستثارة) على أن الإسلام لايقر أن تكون هناك بلاد بترولية شديدة الثراء ، يعيش مواطنوها وحكامهم فى رفاهية شديدة ، وبلاد أخرى فقيرة يعيش مواطنوها فى ضنك شديد. وأن الرفاهية الشديدة كالضنك الشديد تؤدى إلى الفساد والإفساد. وأن العالم الغربى بقيادة أمريكا يكرس هذا الوضع ، حتى لاتقوم للعرب أو للمسلمين قائمة فيفسد البعض من الترف، ويفسد الآخر من الفقر . ولاشك أن دعاية كهذه بين جماهير تشكو الفقر ستجد تصديقًا سهلاً لها (راجع البنود الأولى التى كتبناها فى الجزء السابق من هذه الدراسة) .

ولهذا ، ننصح ببيان حكم الشرع الإسلامى فى هذه الثروة البترولية ، باعتبارها ملكًا

لأصحابها ، فهل أوجب الله عليها زكاة ؟ وما مقدارها ؟ وما أوجه صرفها ؟ وما وجه الشبه بين الثروة البترولية والثروة الشخصية التى يملكها الأفراد، وتجب عليها الزكاة فرضًا من الله.. فالإسلام -كما نعلم- لايقر الاستيلاء على مال الثرى، حيث يقول الله فى كتابه العزيز : (**يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولاتقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا . ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا وكان ذلك على الله يسيرا**) «سورة النساء الآيتان رقما (٢٩ و٣٠)»، لكنه يوجب عليه دفع نصيب منه كزكاة لمستحقيها . بل إن الإسلام قد جعل الزكاة حقًا لمستحقها واجبة الأداء ، وليست صدقة اختيارية؛ والحق معناه المطالبة به والدفاع عنه بحق الله . فالله جل شأنه يقول فى سورة المعارج، الآيتين رقمى ٢٤ ، ٢٥ (**والذين فى أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم**) فهنا وصف الزكاة بأنها حق فرضه الله على الغنى للفقير حتى يمكن أن يعيش كريمًا.

إذن- فى نظر الإسلام- ليس من حق للفقير على الغنى إلا ما أوجبه الله وفرضه وحدده ، وإذا ما أدى الغنى هذا الحق للفقير، فلن تعود هناك للفقير من حقوق يحق له أن يطالب بها. ويصبح مال الغنى محميًا بشرع الله لاتجوز استباحته، كما فعل النظام العراقى، أو أراد، بالكويت. فإذا قسنا ما يجب على الدول الغنية نحو الدول الفقيرة ، بما يجب على الأغنياء حيال الفقراء ، فما هو حق الدول الفقيرة ؟ لن يستطيع الإجابة الشرعية على هذا إلا متخصصو الفقه الإسلامى، وذوو الأهلية للفتوى فيه. لذا، نوصى بتكوين لجنة أو هيئة من هؤلاء (يمثل فيها فقهاء من الدول البترولية والدول الفقيرة) لبيان حكم الشرع فى هذه القضية. وكما سبق أن أشرنا، فإن البلاد العربية والإسلامية تقدس أحكام الشرع- كما هو الحادث فى المواريث وتقبل بها دون نقاش ، وهكذا لايعود يزايد المزايدون فى هذه القضية .

أما ما تتطوع به الدول البترولية فوق أنصبة الزكاة التى فرضها الله ، فهذا أمر اختيارى ليس لأحد فرضه أو المطالبة به، كما فعل العراق فى أزمة الكويت .

٢- الإعلام الخليجى والمن بمساعدات الخليج للدول العربية المحتاجة :

بالخطاب الإعلامى الخليجى ضعف عام تسهل ملاحظته ، يتسبب فى استثارة الاتجاهات السلبية نحو الخليج . من أمثلة الفخر الزائد ، والعجب الشديد، والترديد الممل لأخبار معروفة، قد تمس مشاعر بعض الدول العربية أو الإسلامية وشعوبها ؛ مثلما يحدث عند تقديم بعض هذه الدول مساعدات لبلد عربى أو إسلامى . فإذا بصحافتها وإذاعتها ومختلف وسائل

إعلامها تردد ذلك ، مع ما فى هذا من مناقضة صريحة للتوجيه القرآنى الكريم فى مثل هذه الحالات، حيث يقول الله تعالى (**الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منًا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم . يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لايقدرون على شىء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين**) سورة البقرة، الآيام أرقام : ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ . (والمن هو التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك الآخذ فيؤذيه ، والمن من الكبائر ، والأذى : السب والتطاول.. روى مسلم عن أبى ذر أن النبى ﷺ قال : «ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم ولايزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب..» الإبطال للصدقات : إذهاب أثرها وإفساد ثوابها ، فالمن يبطلها والأذى والرياء (كالذى) أى لاتبطلوا مشابهين للذى (ينفق ماله رئاء الناس) أى ينفق مرائيًا لايقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة ، بل يفعل ذلك لمجرد أن يراه الناس، استجلابًا لثنائهم عليه ومدحهم له». (راجع: محمد سليمان عبدالله الأشقر : زبدة التفسير من فتح القدير، دولة الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م، ص٥٥-٥٦) .

فإذا أضفنا إلى ذلك أنفة العربى وكبرياءه الشديدين المعروف بهما سيكلوچيا ، حتى أنه -فى كثير من الحالات- يتحرج عن المطالبة بحق سبق له أن أعطاه ، فما بالنا بوقع الأذى عليه من كثرة المن من أخ ساعده فى شىء . ونعتقد أن إعلان من أخذ شيئًا فى وسائل إعلامه كافٍ لتحقيق مراد من أعطى، وبشكل كريم لائق بعيد عن المن ؛ إذ هو فى هذه الحالة يكون اعترافًا وشكراً لمن أعطى ، كما أنه لايتناقض مع توجيهات الإسلام كحالة المن تلك.

٣- إلغاء شرط الكفيل :

يلاحظ أن دول الخليج هى أكثر الدول حديثًا عن التزامها شرائع الإسلام وتوجيهاته ، وهى فى نفس الوقت أكثر دول العالم فرضًا للقيود على العرب والمسلمين المقيمين فيها. ولعل أشد هذه القيود على نفسية المقيم وأعصاها على التبرير شرط الكفيل . خاصة وأن بعض المواطنين الخليجيين قد ابتكروا أساليب لتحويل نظام الكفالة إلى إذلال وامتهان لكرامة العربى والمسلم المقيم، وإلى وسائل استغلال بشعة ولا إنسانية (تحت سمع وبصر المسئولين) لكلٍ من المقيم أو

من يود القدوم للعمل. وفى هذا الموضوع نسمع الكثير من القصص اللاإنسانية ، التى لايرضى عنها شرع دينى أو وضعى ، لاتنشر حتى لايضار أصحابها أكثر وأكثر، ولكنها تروى من أصحابها شفاهة ويتناقلها الناس .

المعروف أن الإسلام رحم بين أهله، وكذا العروبة ؛ بمعنى أن الإسلام يربط بين المسلمين بعضهم البعض برباط الأخوة ويتخطى الحدود. فكيف يوفق الخليجيون بين حمايتهم وحديثهم عن توجهاتهم الإسلامية واستبقائهم نظام الكفالة ؟

قد يقول قائل إن نظام الكفالة يؤمن حق الدولة الخليجية قبل المقيم. وليس هذا بقول مقنع، فكل الدول تؤمن حقها قبل الأغراب المقيمين فيها دون لجوئها لنظام الكفيل .. إننا ننصح دول الخليج بإلغاء نظام الكفيل، والبحث عن وسائل إنسانية لائقة تحفظ لها حقها بعيداً عن هذا النظام ، الذى تفنن بعض الخليجيين فى تحويله إلى استغلال بشع، يعمل على إشاعة الاتجاهات السلبية نحو دول الخليج التى تستخدمه . من قبيل ذلك متاجرة بعض الخليجيين بمنح كفالاتهم نظير ألوف تدفع لهم من قبل محتاجين للعمل، ثم يحضرون دول الخليج على حسابهم ولايجدون عملاً ، فيعودون إلى أوطانهم مزادين فقراً على فقر ، وحاجة على حاجة، فيشيعون بين مواطنيهم ما يشيعونه من اتجاهات سلبية نحو دول الخليج .

٤- إلغاء التمييز فى الالتحاق الجامعى بين المواطن الخليجى والمقيم العربى :

تقيم للعمل بالخليج أعداد كبيرة من مواطنى البلاد العربية والإسلامية ، كان أبناؤهم يتلقون التعليم الجامعى وما دونه مع أبناء الخليج جنبًا إلى جنب حتى عهد قريب . وربما من مدة تقل عن عشر سنوات، بدأت دول الخليج فى عدم قبول أبناء المقيمين فى جامعاتها ، مما اضطر بعض الأسر المقيمة إلى إرسال أبنائها للتعليم الجامعى ببلادهم الأصلية مع استمرار إقامتها فى الخليج ، أو إلى ترك مصدر الرزق والعمل فى الخليج والعودة إلى بلادها ، لتكون إلى جوار أبنائها فى مقار تعليمهم، وكلا الأمرين غير مريح لمثل هذه الأسر.

والمبرر الذى يرد على الذهن وراء إقدام دول الخليج على مثل هذه التفرقة بين الخليجى الذى يفتح الخليج له جامعاته، والمقيم الذى يغلقها الخليج فى وجهه ، هو التكلفة العالية للتعليم الجامعى ، وضن الخليج بها على العربى والمسْلم غير الخليجى . لكن دول الخليج الغنية ، التى تعيش الوفرة ، هل تنوء عبءاً بهذه التكلفة ؟ وهل يمكن لذى الاتجاهات الإيجابية نحو الخليج

فى مقابل العراق أن يدافع باقتناع عن رفع الخليج شعار الإسلام والعروبة، إذا ما هوجم من هذه الزاوية . خاصة وأن أمامهم النموذج المصرى الذى كان يقبل كل أبناء العروبة فى جامعاته بكل أقسامها، سواء المقيمين منهم ، أو الذين يأتون خصيصًا للتعليم ، ولم يكن يفرض عليهم لقاء تعليمهم إلا أخيراً عندما واجه أزماته الاقتصادية ، وتضخمت ديونه الخارجية . بل إنه كان يعين ماليًا برواتب شهرية لأبناء العرب والمسلمين الدارسين بجامعاته .

٥- إلغاء التمييز بين الأجانب وبين العرب والمسلمين فى عقود العمل :

لاشك أن التمييز بين أجور من يؤدون عملاً واحداً ، وبنفس الكفاءة شىء غير مريح نفسيًا ، ويعمل على تكوين اتجاهات سالبة نحو صاحب العمل، خاصة وإن كان هذا التمييز قائمًا على أساس من الجنس أو الموطن. وقد حث الإسلام على عدم التمييز هذا، فرفع شعار «لافرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى» . فالتمييز هنا يناقض مبدأ العدالة . ومن الصعب تبريره أو الدفاع عنه .

وتلجأ معظم الدول الخليجية إلى هذه التفرقة فى المعاملة ليس فقط فى الأجور ، بل فى بقية الامتيازات الأخرى المصاحبة ؛ كالسكن وتذاكر السفر .. إلخ (وما سبق لنا أن كتبناه فى البند السابع من الجزء الأول من نتائج دراستنا هذه يمكن إعادته هنا، لذا نحيل القارئ إليه) .

فإذا أضفنا إلى هذا ما كتبناه فى البنود الثلاثة السابقة مباشرة (المن بالمساعدات ، ونظام الكفيل، وعدم قبول المقيمين بالجامعات) أدركنا نماذج للثغرات الواسعة التى يمكن أن يدخل منها ذوو النوايا السيئة نحو الخليج لتشويه الصورة الذهنية عنه فى نظر الجماهير العربية والإسلامية ، وكان لنا بالتالى- - إن كنا مخلصين فى عمل ما يحسن صورة الخليج- أن ننصح -صراحة- بسد هذه الذرائع، وإصلاح هذه الحالات بجدية وسرعة .

٦- ضرورة احترام المسئول الخليجى لعقلية المواطن العربى والمسلم فى خطابه الإعلامى :

كثيراً ما لايقيم الخطاب الإعلامى الخليجى وزنًا لعقلية مواطن العالم العربى والإسلامى، ويستهتر بها وكأنه يخاطب طفلاً صغيراً غريراً ، يحاول إقناعه أو إيهامه بغير الواقع . فإبان أزمة الاحتلال العراقى للكويت، كثيراً ما كان يطالعنا مسئول كبير من هذه الدولة الخليجية أو تلك، والتى تكون التفرقة فيها من أوضح ما يكون بين المواطن والمقيم ، فيشير -بشكل صريح ومباشر- إلى أن دولته لاتفرق أبداً بين المقيم (العربى المسلم) وبين أخيه المواطن ؛ فكلاهما يتقاضى نفس المرتب، وله نفس الامتيازات الوظيفية.. ويعاملون على قدم المساواة فى كل شىء.

ويعلم هذا المسئول الكبير أن كل ما قاله، أو على الأقل معظمه ، إنما كان مخالفًا للحقيقة. بل ربما لم يكن مطلوبًا منه أن يقوله . فليس متوقعًا -بطبيعة الحال - أن يعامل المقيم معاملة المواطن فى وظيفته، من حيث المساواة فى المرتب والامتيازات الوظيفية ، باعتبار أن المواطن له حق طبيعى فى ثروة بلده، لاينبغى أن يزاحمه فيها المقيم، قياسًا على ما يقرره الشرع من وراثة الأبناء لما فى حوزة الأسرة، دون أن يشاركهم فى هذا الأغراب الذين توظفهم الأسرة، أو يقدمون لها خدمات .

ولقد ضربنا هذا مثلاً، باعتباره واضح الدلالة على مغالطة الخطاب الإعلامى الخليجى أحيانًا فى أمور لاتحتمل هذا، ومن السهل كشفها، عند ذاك يرد على الذهن سؤال: إذا كان هذا كذلك، فما بالنا بالأمور التى يصعب كشفها ويسهل تزييفها ؟؟!!

وغالبًا ما يؤثر مثل هذا الخطاب الإعلامى سلبًا من زوايا أربع أساسية :

أ- إحداها : هى استفزاز العقل المتلقى لهذا الخطاب ، حيث يوحى بالاستهتار به، وبعدم احترامه، وبمعاملته كما يعامل الكبير طفلاً صغيراً يريد أن «يضحك عليه» قناعة منه بسذاجته وسرعة تصديقه (ولاشك أن هذا يستثير الاستياء والاحتجاج لدى المتلقى) .

ب- أما الثانية : فهى أن يفقد المتلقى الثقة فى صدق الخطاب الإعلامى الخليجى، ويستتبع ذلك أن يقوم بعملية تعميم Generalization ذلك على كل ما يقول به المسئولون الخليجيون بما فيه حقهم وعدالة قضيتهم .

جـ- يزيد هذا فى تشويه الصورة الذهنية عن شخصية الخليجى بدمغها بالنفاق الاجتماعى البغيض .

د- تلقف الدعايات المضادة لمثل هذه التصريحات كمادة تدل على لجوء الدول الخليجية للتضليل فى كل ما تقول به .

ومن هنا، فإننا نوصى المسئول الخليجى أن يتحرى الصدق والدقة والواقع، فى كل ما يدلى به أو يتحدث فيه؛ فكما يقال : «الحق يعلو ولايعلو عليه».

٧- سرعة تنفيذ خطوات التكامل الاقتصادى العربى :

يعلم الاقتصاديون أن إمكانيات التكامل الاقتصادى العربى متوافرة إلى أبعد الحدود . وأن تنفيذه بكل سرعة وجدية سوف يفيد جميع البلاد والشعوب العربية- دون استثناء- فائدة

الاجتماعية واقتصادية محققة . كما يعلم المفكرون والاجتماعيون أن الرخاء الاقتصادى (والذى نتوقعه من تنفيذ التكامل) إنما يقلل من التوترات السياسية والاجتماعية، كما يؤدى بالشخصية إلى الطمأنينة والهدوء ولايجعلها سهلة الاستثارة متحفزة للهياج والتدمير، مستهدفة للدعايات المضادة والمضللة . وعلى الرغم من أن التكامل قضية اقتصادية صرفة ، إلا أن الرخاء الذى يجلبه سيكون شديد التأثير فى نفوس الجماهير العربية . بل إنه سيكون سداً منيعًا ضد تكرار ما حدث من مأساة الاجتياح العسكرى العراقى للكويت، ويحول دون تكرار هذا من العراق، أو غيره من البلاد العربية، ضد الكويت أو غيرها . ولابد أن نعترف أنه فى ظروف العرب الحالية، فإن إمكانية تكرار نفس المأساة، أو ما يشبهها، قائمة، بل هى مرجحة تمامًا .

ويأمل المفكرون العرب فى نوع من الوحدة العربية والتكامل الاقتصادى يقضى على الصراعات الجانبية العربية- ، كما يؤدى إلى رفاهية اقتصادية للعرب جميعًا، وإلى قوة للعرب ، نقف حائلاً دون أن ينال منهم عدوهم ، أو يعبث بهم سفهاؤهم .

ولاشك أن الإسراع بالتكامل الاقتصادى العربى الحقيقى ، يتوقف -أساسًا- على مدى حماس الدول العربية الغنية، ومدى استعدادها للبدء بالعطاء . إلا أن عائده عليها -لاشك- أفضل كثيراً من تقاعسها عنه. ولنا أن نتصور ما كان يمكن أن يكون عليه العالم العربى اليوم فيما لو أنفقت دول الخليج االثة وخمسين مليار دولار ، التى قدر البعض أن الخليج أنفقها فى حرب الكويت ، على مشاريع التكامل الاقتصادى العربى (مع ملاحظة أن تكرار نفس المأساة أمر محتمل كما أشرنا) ، هذا فضلاً عن اتقاء نتائج هذه المأساة من خسائر بشرية ومعنوية جسيمة حقًا .

لقد دفعت الحرب العالمية الثانية أوروبا إلى شىء من الوحدة السياسية والاقتصادية، تقوم الآن وتقوى يومًا بعد يوم ، ألا نستفيد من عبر التاريخ، فنأمل شكلاً من الوحدة الاقتصادية والسياسية تقوم بين الشعوب العربية كنتيجة لحرب الكويت، التى أقامت الدليل على مدى حاجتنا كعرب إلى الوحدة والتكامل .

٨- توصية الخليجى بضرورة الالتزام بالسلوك الاجتماعى القويم :

إن المواطن سفير بلده وعنوانه فى أى مكان ، سواء فى داخل بلده أم خارجه، فإن كان سلوكه قويمًا حسنًا طيبًا داخل بلده، أعطى انطباعًا طيبًا عن بلده كلها أمام السائح فيها ، أو

الغريب، أو المقيم . وإن كان كذلك خارج بلده أعطى نفس الانطباع الطيب عن بلده عند مواطنى البلدان الأخرى التى يتواجد فيها. ومن هذه الملاحظات وتلك لسلوك مواطنى بلد معين تتكون فى الذهن عن هذا البلد صورة عن شخصيته، يسميها علماء النفس الاجتماعى بالطابع القومى National Character ، باعتبار البلد (أو المجتمع المعين) كشخصية الإنسان الفرد، تتميز بالكرم أو بالبخل ، بالجرأة أو بالخجل ، بالمسالمة أو بالعدوان ، بانفتاح العقل أو بإنغلاقه، بالأنانية أو بالغيرية ، بمنهجية الفكر العلمى الموضوعى أم الخرافى السحرى، بالأخلاق الكريمة أم بالأخلاق الذميمة ، بالنشاط أم بالكسل ... إلخ .

ولاشك أن ديننا الإسلامى قد حض على الخلق القويم الكريم، بل إنه أمر به ، وقرنه بالعمل الصالح الذى ينفع الفرد والآخرين . وطالب كل مسلم بأن يكون سلوكه حسنًا طيبًا خيراً بعيداً عن الرذيلة والفساد . قال الله تعالى : (**... وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب**) (سورة المائدة ، آية رقم٢) . ومثل هذه الآيات الكريمة التى تحض على فعل الخير والتزام السلوك الحسن القويم كثير فى القرآن الكريم. كما أن السنة وأحاديث الرسول فى هذا الشأن كثيرة يصعب حصرها . ولقد كان هذا أحد المنطلقات التى أدين منها العدوان العراقى على الكويت، واستقطب كثير من العرب والمسلمين ضده .

لقد كان المسلمون الأوائل- ولازال المسلمون الحقيقيون المخلصون - يحببون الناس فى الإسلام بسلوكهم القويم باعتبار أن هذا هو سلوك المسلم الحقيقى، وأن الإسلام إنما يحض على كريم الفعال والخصال . وهكذا، تحول كثير من الناس إلى الإسلام واعتنقوه .

وللحق، فإن السلوك الاجتماعى القويم شىء تحض عليه كل الشرائع الدينية والوضعية ، بل تحض عليه الفطرة السليمة . فيه تزدهر المجتمعات، ويعمر الكون .

ومن أسف ، أن سلوك بعض مواطنى الخليج، خاصة خارج بلادهم لايراعى أصول السلوك الاجتماعى القويم. ويبدو منحرفًا بشدة عنه، بما يناقض صورة المسلم الحق، بل صورة الإنسان السوى أيًا كان دينه . فقد ترى هذا يسرف ببذخ يقترب به من صورة السفيه، وهذا يتخطى فى سلوكه حدود المواضعات الاجتماعية المحيطة، بما يقترب به من المجون .

ولاشك، أن مثل هذه التصرفات تفجع الملاحظ لها أو القارئ عنها. كما أنها مادة ثمينة لمن يريد تشويه صورة الخليجى فى ذهن الشارع العربى، أو الإسلامى، أو الأجنبى ، وهم -لاشك- كثيرون . (راجع ما كتبناه فى البند السادس من الجزء الأول من نتائج هذه الدراسة

لارتباطه بهذه النقطة) . بل إن مثل هذه التصرفات يحلو لأعداء الأمة العربية والإسلامية أن يضخموها ويروجوا الحديث عنها، باعتبارها نماذج شائعة لسلوك العربى والمسلم، تميز أبرز خصائصه وسماته الشخصية .

٩- ترشيد «البطر النفسى» :

لعلها فرصة الآن لنطرح مصطلحًا جديداً فى علم النفس هو «البطر النفسى Psycho-logical Arrogance» وكلمة «بطر» معروفة فى العربية ، بل إنها أكثر شيوعًا واستخدامًا فى العامية . ونقصد بها- كمصطلح نطرحه هنا- تلك الحالة التى يسلك فيها صاحبها سلوكًا يشير إلى مزيج من الغطرسة والتعالى والتمرد، دون مراعاة لحرمة النعمة التى أنعم الله بها عليه، ولاتقدير لها، ولامحاولة لصيانتها .

ولقد أشار القرآن الكريم ذامًا للبطر، ومحذراً منه لسوء عاقبته. فقد قال الله عز وجل فى سورة الأنفال: الآية رقم ٤٧ **(ولاتكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئآء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)** . كما قال فى سورة القصص : الآية رقم ٥٨ **(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين)** .

وهكذا، يبدو البطر ظاهرة غاية فى السوء والسلبية، ووصمة تحط من قدر الشخصية، وتمثل خطورة شديدة عليها. وتتعلق فى نفس الوقت بموضوع حديثنا فى البند السابق عن ضرورة الالتزام بالسلوك الاجتماعى القويم. ولقد أفردنا لها هذا البند الخاص للتأكيد على أهميتها وشدة خطورتها . وهى ظاهرة- شأن أى ظاهرة نفسية اجتماعية- توجد فى كل مجتمعات العالم، لكنها - للأسف الشديد- أوضح فى بعض دول الخليج . فكثيراً ما تجد هذا يقود سيارته الفخمة الثمينة بسرعة جنونية فى شوارع المدينة، بحيث تحدث هلعًا للمارة والسائقين على السواء، وقد يودى هذا بحياة البعض أو يؤذيه . كما أنك قد تجد هذه المجموعة (خاصة من الشباب) يتسابقون فى حركاتهم «البهلوانية» بسياراتهم ، لايهمهم ما يصيب سياراتهم من ضرر بسبب هذا، أو ما قد يصيبهم أنفسهم ، مما يجسد بحق ظاهرة «البطر السيكلوچى» التى نطرحها الآن .

ولعل من أخطر مظاهر «البطر السيكلوچى» أيضًا أنه يؤدى بصاحبه إلى الاستهتار بالنعمة والاطمئنان إلى بقائها ، مما يدفعه إلى التكاسل فى سعيه للعمل ، أو كده للتحصيل ،

مع الإنفاق بتبذير، بما يتنافى جميعه مع السلوك الاجتماعى البناء والقويم .

ونوصى، لترشيد هذا البطر السيكلوجى، وأيضًا نواحى الاعوجاج فى السلوك الاجتماعى (الذى تحدثنا عنه فى البند السابق مباشرة) بأمثلة مما يلى :

١- الاهتمام بتعليم الأطفال والشباب (فى المدارس والمعاهد بمختلف مستوياتها) قيمة العلم والعمل، وأسبقيتهما على ما عداهما فى تقدير قيمة الإنسان فى المجتمع، وضرورتهما لازدهار المجتمع ورقيه .

٢- إبراز مظاهر البطر وأشكاله، ومظاهر السلوك الاجتماعى السيئ ، وعواقبهما على كلٍ من الفرد والمجتمع، أثناء تعليمنا للأطفال والشباب فى المدارس والمعاهد التعليمية .

٣- المصارحة الإعلامية بما يشيع فى المجتمع الخليجى من هذه السلبيات، وضرورة مقاومتها فى كل وسائل الإعلام المتاحة .

٤- أن يعطى الكبار (كالآباء والمعلمين وكبار القوم) مثلاً طيبًا فى السلوك القويم، كقدوة عملية فعلية لأبنائهم وشبابهم ، دون الاكتفاء بالوعظ اللفظى الذى يناقضه السلوك الفعلى.

٥- التزام الجدية والعدالة فى تطبيق القانون ، والعقاب الفورى بأشكاله المختلفة لمن ينحرف فى سلوكه عن جادة الصواب .

١٠- تحقيق قدر أكبر من الديمقراطية فى دول الخليج :

تستخدم قضية الديمقراطية -هذه الأيام- بشكل حاد فى توجيه الدعايات المضادة بين الدول بعضها البعض، وفى تفاخر كل دولة بنفسها . فكل دولة من دول العالم تدعى أنها قمة الديمقراطية ، وأن نظامها فى الحكم أفضل أنظمة- الديمقراطية على الإطلاق . بينما النظام فى الدولة المعادية لها هو أسوأ أنظمة الديكتاتورية فى العالم . حتى أننا نجد الدول التى تجمع دول العالم على ديكتاتوريتها تصف نفسها بأنها المدافعة عن الديمقراطية فى العالم، بل قد تضيف إلى اسمها الرسمى الذى تعرف به لفظ «الديمقراطية» . وهذا يضع الجميع فى حيرة من حيث تعريف الديمقراطية ومظاهرها، وهل هى شكل يمكن أن يفرغ من محتواه بسهولة ؟ ، أم أن شكلها - بما هى كذلك- يحفظ جوهرها ويحافظ عليه ؟ ، أم هى مضمون بغض النظر عن الشكل ؟ .. فكم من دولة لها برلماناتها ومجالسها الشعبية ، ومع ذلك فإنها -فى الواقع- فى قمة الديكتاتورية ؛ لأن أنظمة الحكم فيها قد أقامت البرلمانات والمجالس الشعبية كواجهة

فقط، والتفت حولها فأفرغتها من مضمونها، بل إن مثل هذه البرلمانات والمجالس الشعبية تعتبر -فى الحقيقة- كارثة على هذه المجتمعات ، لأن أنظمتها تمرر فيها ما تريد القيام به ، ثم بعد ذلك تدعى أن هذه إرادة الأمة، وإرادة الشعب الذى لاتستطيع الحكومة أن تعصيه . ولنا فى قرارات النظام العراقى فى عدم انسحابه من الكويت، وفى رفضه لمساعى السلام، ودخوله حرب الكويت ، دليل واضح على ذلك ؛ إذ أنها جميعًا صدرت بموافقة المجالس الشعبية والنيابية فى العراق. وهكذا ، فإنه من الناحية الشكلية يهرب المسئولون الحقيقيون عن هذه الكارثة من تحمل مسئوليتها ، بحجة أنهم لم يكونوا أكثر من موظفين ينفذون إرادة ممثلى الشعب الذى استأمنهم على تنفيذ إرادته .

وفى ضوء هذا ، فإننا نوصى دول الخليج بالبحث عن صيغ تتفق وظروفها ، تحقق قدراً أكبر من الديمقراطية فى مواجهة العالم الخارجي، والأعداء الذين يركزون -بصفة خاصة- على نقص الديمقراطية فيها. خاصة وأن الديمقراطية أصبحت فى الأيام الأخيرة أهم قضية تشغل دول العالم كافة، وبخاصة الدول الكبرى التى تقود هذا العصر وتوجه سياسته . وبهذا، يمكن لدول الخليج أن تسد ثغرة هامة ينتهزها خصومها لتشويه صورتها فى أذهان الآخرين .

وإلى هنا ، نكتفى بذكر هذه التوصيات التى نرى أن نجاح دول الخليج فى تطبيقها يؤثر تأثيراً كبيراً فى تحسين صورة دول التعاون الخليجى فى أذهان العالم العربى، والعالم الإسلامى، بل العالم بأجمعه . كما أنه يؤدى إلى إضعاف الاتجاهات السلبية نحو دول الخليج، ويصححها إلى اتجاهات إيجابية مؤيدة . ننصح بهذا - خاصة- من منطلق الرغبة المخلصة فى تقوية الروابط النفسية الاجتماعية الإيجابية بين مواطنى مختلف الدول العربي، كقاعدة صلبة لابد منها لتحقيق وحدة عربية مأمولة .

ملاحظة فى خاتمة :

حاولنا فى هذه الدراسة أن نقترب من الموضوعية قدر الإمكان ، وأن نتبنى ونعرض خواطر علم النفس ومنظوره بشكل صريح دون مواربة، وبغض النظر عن اتفاقها أو اختلافها مع خواطرنا أو اتجاهنا الشخصية أو الذاتية . ذلك أن خواطر الباحث الذاتية وتوجهاته الشخصية إن تدخلت فى العلم أفسدته، وذهبت بالجزء الأكبر من فائدته . ولذا ، فقد قلنا هنا كثيراً مما كنا نود ألا نقوله ، بل كثيراً مما كرهنا أن نقوله ، لولا أن أمانة الكلمة، وموضوعية الباحث، وخطورة الموضوع كلها قد ألزمتنا ذلك، وفرضته طوعًا أو كرهًا ... والله الموفق أولاً وأخيراً .

* * *

المراجع :

١- تركى الحمد . عجيب أمر هذه الأمة، مقال بجريدة الشرق الأوسط، عدد : ١٢ / ٤ / ١٩٩٢ .

٢- حلمى محمد القاعود . هتلر الشرق . القاهرة ، دار الاعتصام ، ١٩٩٠ .

٣- رياض نجيب الريس (إشراف) . عودة الاستعمار . لندن- قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١ (مجموعة مقالات لكتاب مختلفين) .

٤- صدام حسين . خطاب فى وفد الأمانة العامة للاتحاد الدولى لنقابات العمال المشاركة فى المؤتمر العام التاسع للاتحاد العام لنقابات العمال فى العراق، ١٩٩٠ .

٥- عصام دراز . لماذا اختلفنا ؟ الإسلاميون وحرب الخليج . القاهرة ، المنار الجديد، ١٩٩١ .

٦- فرج عبد القادر طه . أضواء على سيكلوجية الشخصية العربية، فى كتابه : علم النفس وقضايا العصر ، بيروت ، دار النهضة العربية، ١٩٨٦ . (وأعيد نشره فى هذا الكتاب) .

٧- فرج عبد القادر طه . هل حقًا الإنسان يبحث عن السلام- نظرة نفسية، ترجمة بحثه الذى ألقاه فى المؤتمر الدولى الثامن لعلم النفس عبر الحضارى باستانبول - تركيا، والذى نشر بمجلة علم النفس . القاهرة ، عدد :٢ ، ١٩٨٧ . (وأعيد نشره فى هذا الكتاب) .

٨- محمد سليمان بن عبدالله الأشقر . زبدة التفسير من فتح القدير . دولة الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ، الكويت ، شركة ذات السلاسل ، ١٩٩٨ .

هل حقًا الإنسان يبحث عن السلام ؟!! *

« نظرة نفسية »

تمهيد :

بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبح الجنس البشرى مهدداً بالأسلحة الذرية ذات التدمير المرعب. وعلاوة على ذلك، فإن توقع الحرب الذرية يؤثر تأثيراً هائلاً على الاقتصاد العالمى. فالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى يزيدان سنويًا من ميزانية تسليحهما حتى وصلت إلى بضع مئات من ملايير الدولارات سنويًا فى ميزانية كل منهما على حدة . وأتوقع أن هذه المئات من الملايير سوف تتزايد سريعًا حتى تصبح آلافًا ، حيث انخفض سعر البترول انخفاضًا حاداً، الأمر الذى سوف يوفر مزيداً من المال تنفقه الدولتان على معدات الحرب والدفاع، واستعداداتهما . وهذا الإنفاق المجنون للمال على الأسلحة القتالية إنما يقود العالم إلى كارثة مدمرة ؛ لكلٍ من البلاد المتقدمة ، إذا بدأت الحرب، ولكلٍ من البلاد المتخلفة أيضًا ، بسبب نقص المال الذى تحتاجه تلك البلاد لتنميتها ؛ إذ تنفقه البلاد المتقدمة على تسليحها .

وقريبًا من هذا المعنى ، يقول لينوس بولنج Linus Pauling فى تقديمه لكتاب روجر ولش Roger Walsh المعنون «البقاء أحياء Staying Alive» (١٩٨٤) : «مادامت السياسة الحالية للمواجهة مستمرة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وما دامت نسبة ضخمة من ثروات العالم تبدد على الاستعدادات العسكرية، فلن توجد عندئذٍ فرصة لعلاج مشكلاتنا ».

وفى ظرف كهذا (تعيشه البشرية الآن) فإن كل العلوم الإنسانية ، خاصة علم النفس، عليها أن تقوم بدور متميز لمنع الحرب وتحقيق السلام . وأولى خطوات ذلك يجب أن تكون

---

* ترجمة البحث الذى ألقاه المؤلف فى المؤتمر الدولى الثامن لعلم النفس عبر الثقافى، الذى عقد باستانبول (تركيا) فى يوليو ١٩٨٦ . وقد نشرت هذه الترجمة بمجلة علم النفس ، المجلد الأول، العدد الثانى، أبريل ١٩٨٧ ، ١٦-٢٠ . والنص موجود بالقسم الإنجليزى من الكتاب .

استكشاف الدوافع التى تحفز الناس للحرب، وتلك التى تقودهم إلى السلام . فهذه الخطوة سوف تكون المبدأ الأساسى الذى يقودنا إلى الخطوة الثانية ؛ وأعنى بها هزيمة نوازع الحرب وتقوية إجراءات السلام فى مواجهة المشكلات . وما من شك فى صدق ما قاله السيناتور وليام فولبرايت : «إنه - فقط - على أساس من فهم سلوكنا، فإننا نأمل أن نتحكم فيه بطريقة تضمن البقاء للجنس البشرى» (٧- الصفحات التمهيدية) . ولست هنا أتجاهل أو أنكر الأدوار الرئيسية التى تلعبها العوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية والجغرافية ....، بل كل ما هنا لك أنى أعتقد أن العوامل السيكلوچية فى موضوع الحرب والسلام لم تحظ من الباحثين بالاهتمام الجدير بها .

ولذا ، ففى هذا البحث أحاول إبراز بعض العوامل السيكلوچية التى تلعب دوراً هامًا فى موضوع الحرب والسلام، وألقى مزيداً من الضوء عليها، كما أقترح فى نهاية البحث بعض المقترحات بشأنها :

الدوافع التدميرية :

تعتبر الدوافع النفسية التدميرية Destructive Motives من بين العوامل السيكلوچية التى تمهد للحرب ، وتيسر الانزلاق إليها وتزينه، وتستبعد فى نفس الوقت الحل السلمى لما يجابهنا من مشكلات. وينظر إلى هذه الدوافع أحيانًا- كما هو الحال عند معظم المحللين النفسيين- على أنها دوافع فطرية غريزية فى الإنسان ، تدفعه للقيام بسلوك مدمر، سواء له أم لغيره . وهذه الدوافع التدميرية يمكن أن تكون مكشوفة محسوسة وشعورية ، كما يمكن أن تكون متخفية ولاشعورية . فإذا ما قمنا بتحليل موضوعى وأمين للعوامل المتخفية وراء حرب كالعالمية الثانية، أو الڤيتنامية الأمريكية ، فسوف نقتنع مباشرة بدور هذه الدوافع التدميرية ؛ أعنى غريزة العدوان .

ومن الملاحظ أن هذه الدوافع التدميرية تلعب نفس الدور فى كل الحروب التى تنشأ فى أرجاء الدنيا. فعلى سبيل المثال، لايستطيع الفرد أن يقبل- إذا كانت نظرته موضوعية نزيهة- تلك التبريرات التى تقدمها إيران ولا العراق لحربهما «المجنونة» ؛ خاصة وأننا نعلم أن كلاً منهما تدعى أنها بحربها هذه إنما تدافع عن الإسلام . فمما لاشك فيه أن الحروب تستطيع أن تشبع -بشكل كبير- دوافع الإنسان التدميرية عن طريق التدمير الشديد الذى تحدثه فى كل

من البشر والاقتصاد على السواء، لقد كتب أنتونى ستور Anthony Storr على غلاف كتابه المعنون «العدوان البشرى Human Aggression » (الذى طبعته سلسلة Pelican عام ١٩٨٥) هذه العبارة : «إن الحقيقة الكئيبة هى أننا أقسى المخلوقات على الأرض وحشية وأبعدها عن الرحمة».

الميول السادومازوخية :

الميول السادومازوخية Sado-Masochistic Tendencies عامل نفسى آخر متخفٍّ من العوامل التى تيسر التورط فى الحروب، وتقاوم تحقيق السلام ، وتعتبر هذه الميول عرضًا مرضيًا نفسيًا يمكن ملاحظته فى بناء الشخصية عند بعض الأفراد، حيث تدفعهم هذه الميول إلى اشتقاق لذة شديدة من إيقاع الأذى بالآخرين، ومن ارتكابهم للأفعال العدوانية والوحشية، وفى نفس الوقت -أيضًا- من وضع أنفسهم فى موضع الإهانة والتحقير والإيذاء والعقاب وتفضيل «البحث عن السلاح أكثر من البحث عن الطعام» . ففى مثل هذه الحالات، تصبح الحرب إشباعًا مثاليًا لمثل هذه الشخصيات المضطربة ؛ حيث إنها تؤدى إلى ضرر مفزع لكل من يتورط فيها من كلا الجانبين .

ولعله يبدو واضحًا أن الميول السادومازوخية تلقى تدعيمًا من العامل السيكلوچى السابق الحديث عنه ؛ أعنى الدوافع التدميرية أو الغريزة العدوانية .

الميول السيكوباتية :

إن الميول السيكوباتية Psychopathic Tendencies يمكن هى الأخرى أن تكون مسئولة عن التورط فى حرب. فالسيكوباتية اضطراب فى الشخصية لايحترم فيه الفرد معايير المجتمع ، ويكرر فيه تصرفاته اللاأخلاقية ، وأفعاله المضادة للمجتمع، دون إحساس بالذنب، أو تعلم من خبرات سابقة . وبالتالى، فإن السيكوباتية يمكن أن تؤدى إلى القيام باعتداءات مرضية شاذة، أو إلى القيام بتصرفات خطيرة تتصف بعدم تقدير المسئولية . فإذا كان هناك قائد (أو رئيس) من هذا النوع على قمة السلطة، فسوف يصبح الأمر مأساة ليس فقط لمجتمعه ، بل وأيضًا لغيره من المجتمعات . ولازال كثير منا يذكر ما فعله أدولف هتلر فى الحرب العالمية الثانية، حيث تسبب فى قتل أعداد هائلة من البشر وتدمير عدد كبير من المدن .

هذاءات العظمة :

تعتبر هذاءات العظمة Delusions of Grandeur عاملاً نفسيًا آخر، يمكن أن ييسر التورط فى حرب مدمرة، ويؤدى إليها. فهذاء العظمة هو عرض مرضى عقلى، ويعنى اعتقاداً يسود فكر المريض بأنه شخص عظيم، دون أن يسند هذا الاعتقاد واقع أو يدعمه منطق. ففى مثل هذه الحالة، يقدر القائد (أو الرئيس) قوة بلده وكفايته الشخصية فى إدارة الحرب ضد عدوه وكسبها تقديراً يفوق حقيقتهما. ولقد كان أدولف هتلر مثلاً واضحًا لهذه الشخصية . فلقد غالى فى تقدير قوة جيشه غلواً كبيراً ، كما غالى -أيضًا- فى تقدير كفايته فى إدارة دفة الحرب، لدرجة أنه ورط نفسه فى محاربة كل من الاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وفرنسا فى وقت واحد، فكان من نتيجة هذا التصرف الجنونى أن تسبب فى فقدان حياته الشخصية، وفى تدمير بلده . وفوق كل هذا ، فإن تصرفه هذا أدى إلى تقسيم ألمانيا إلى بلدين منفصلين ؛ أعنى ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، ولقد أصبحت هاتان الألمانيتان متضادتين فى توجهاتهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ويمكن الآن أن تتورط كل منهما فى حرب ضد الأخرى . ولايمكن لأحد أن يتصور حدوث مأساة أكثر من هذه.

هذاءات الاضطهاد :

هذاءات الاضطهاد Delusions of Persecution هى -أيضًا- عرض مرضى عقلى، يمكن أن يحفز القائد (أو الرئيس) المضطرب إلى بدء حرب، أو إلى تفضيلها . ففى هذاء الاضطهاد، يعتقد القائد فى دعاوى زائفة بأن الآخرين يكيدون للإضرار به، أو تدميره هو، أو بلده الذى يحكمه ويقوده ، ولذا ، فإنه يصبح متشككًا ويفضل أن يأخذ موقف الهجوم ويبدأ خطواته عن أن يأخذ موقف الدفاع . ففى مثل هذه الحالة، قد نجد بلده يتورط بسهولة فى حرب. ويلاحظ أن هذاءات الاضطهاد هذه قد تكون مصحوبة بهذاءات عظمة (والتى تحدثنا عنها فى البند السابق)، أو لاتكون . فإذا كانت مصحوبة بهذاء عظمة يكون الأمر أيسر وأيسر على هذا البلد الذى يقوده هذا القائد المريض بالاضطهاد أن يتورط فى حروب كثيرة .

الشخصيات المتبلدة أو الفصامية :

الشخصية المتبلدة أو الفصامية Apathetic or Schizoid Personality هى العامل السيكلوجى الهام والأخير فى هذه العوامل، التى عرضنا لبعضها كعوامل نفسية تكمن وراء

الحرب والسلام . وهذه الشخصية تمثل حالة مرضية تجعل صاحبها منفصلاً عن الواقع ، مخطئًا في تقدير ظروفه ، خلواً من المشاعر، وغير مكترث بشيء (أي لامبالي) Indifferent ، فإذا كان قائد البلد (أو رئيسه) له هذا النمط من الشخصية ، فإنه سوف يسيء تقدير العوامل السياسية وغيرها من ظروف الواقع وملابساته ، والتي تعتبر ذات أهمية قصوى (في تقدير المواقف واتخاذ القرارات المصيرية خاصة) . كما أنه سيكون -أيضًا- غير مكترث بالتدمير الذي سيقود بلده إليه، أو سيلحقه بعدوه .

الإنسان والسلام :

الإنسان في حاجة ماسة إلى السلام . فهو يحتاج إلى السلام لبقائه حيًا ، ولرفاهيته ، ولاستمتاعه بكثير من مباهج الحياة. وعلى الرغم من ذلك ، ومما يدعو للأسف، أن الإنسان- فيما يبدو- لايبحث حقيقة وبأمانة عن السلام . فمباحث السلام ونزع السلاح بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي لم تنجح حتى الآن ولم تحقق السلام. وما تكاد في كل مرة تحقق هذه المباحثات خطوة نحو السلام حتى تتراجع بسرعة خطوتين إلى الوراء .. وهما يتقدمان نحو السلام ونزع السلاح ببطء شديد، بينما يخطوان نحو العداء والحرب بسرعة كبيرة، فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى الآن انشغل الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية -ولازالا- في مباحثات كثيرة متعلقة بالسلام، بدون تحقيق نتائج حاسمة نحو السلام الحقيقي. فكل منهما تساند الحروب المندلعة في كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . وفي نفس الوقت تدعي كل منهما أنها تساند السلام وتجتهد من أجل منع الحرب ومقاومتها.

وإنه ليبدو أن المحللين النفسيين، خاصة سيجموند فرويد Sigmund Frued وميلاني كلاين Melanie Klien على حق فيما أبرزناه من الدوافع النفسية التدميرية في الإنسان وأكداه. فافتراضاتهما المتعلقة بغريزة الموت Death Instinct تبدو، لسوء الحظ، أنها حقائق . حيث إن هناك الكثير من الشواهد، سواء المأخوذة من الحياة أو من الأساطير ، تؤيد الفرض الخاص بتواجد غريزة الموت ومظاهرها . فالكتب السماوية (القرآن عند المسلمين والإنجيل عند النصارى ، والعهد القديم عند اليهود) تحكي لنا كلها نفس القصة عن القاتل البشري الأول، ، قابيل ، الابن الأكبر لآدم وحواء، والذي قتل أخاه هابيل ، ابنهما الثاني . وهذه القصة ترمز إلى أن الميل التدميري (العدواني) إنما هو ميل متأصل ضارب الجذور في تكوين البشر منذ خلقه . الأمر الذي يدلل بقوة -أيضًا- على حقيقة العوامل النفسية -التي سبق لنا ذكرها- على أنها تيسر التورط في الحروب، وتعمل على استبعاد السلام ومقاومته .

السلام والدين :

ولما كانت الميول التدميرية تتحكم فى البناء السيكلوچى للإنسان - على نحو ما سبق أن ذكرنا- هبت الأديان تدعو للسلام وتحبذه ، وتحث كل الناس على أن يحيوا معًا فى سلام (حتى تقاومها) . ففى الإسلام- على سبيل المثال- نجد أسماء كثيرة لله من بينها «السلام». كما أن المسلم -أيضًا- عليه- إذا كان حسن الإسلام- أن يحيى غيره -فرداً كان أم جماعة- عندما يلقاه، أو عندما يفارقه بقوله «السلام عليكم» . وفى النصرانية يقال إن «الله محبة» . كما نجد فى اليهودية أن أعظم ملوكها ونبييها «سليمان» قد حمل هذا الاسم عندما اعتلى العرش من كلمة السلام العبرية «Shlomoh». بل إننا نجد -أيضًا- أن مدينة بيت المقدس قد اشتقت اسمها وهو Jerusalem من إله السلام، وهى -أيضًا- تسمى «مدينة السلام».

هذا ، إضافة إلى أن الأديان تحرم -بشكل قاطع- على أى مؤمن بها أن يرتكب تصرفات عدوانية ، أو يقوم بسلوك يتسبب فى تدمير أو إلحاق أذى أو ضرر بأى فرد أو جماعة ، إلا إذا كان دفاعًا عن نفس، أو مقاومة لشر، أو منعًا لضرر أكبر .

اقتراحات :

من عرضنا السابق، يتضح أن هناك «شهية» قوية فى البشر لأن يكونوا عدوانيين ومدمرين. وهذا الاشتهاء ييسر التورط فى الحروب وينتزع الإنسان بعيداً بعيدا عن العيش فى سلام، ويحرمه من نشر السلام من حوله . ولذا، فإنه يبدو حقًا أن إشعال الحرب أسهل من صناعة السلام ؛ فحروب مثل الحرب العالمية الثانية، وحرب الأيام الستة اشتعلت خلال أيام قليلة ، بينهما خطوات السلام فى مشكلة الشرق الأوسط- على سبيل المثال- بطيئة للغاية منذ عام ١٩٧٣ حتى الآن، ويرجع هذا إلى عوامل كثيرة، من بينها العوامل السيكلوچية ، التى سبق أن أشرنا إليها ، والتى تجعل من الأسهل على البشر التورط فى حرب عن اكتساب السلام وتحقيقه .

إن التحدى الضخم الذى يواجه البشرية الآن- من وجهة نظرى- هو الانتصار على تلك العوامل السيكلوچية التى تغرى الإنسان بالتورط فى الحروب والعدوان ، وكل أنواع التدمير لنفسه أو للآخرين . وأعتقد أننا يمكننا الانتصار جزئيًا فى هذا التحدى إذا حققنا بنجاح الاقتراحات التالية :

١- يجب أن يوجد بين مجالس الدفاع والحرب فى الحكومات محللون نفسيون وأطباء نفسيون وعلماء نفس كأعضاء أساسيين . ففى هذه الحالة ، سوف يقومون ببحث الدوافع الحقيقية للحرب وكشفها وتفسيرها لأعضاء المجلس الآخرين، بحيث يجعلونهم على وعى أكبر بها. وعند ذاك، فإن تبريرات إعلان الحرب أو الاستمرار فيها تنكشف . وعلى هذا، يصبح قرار بدء الحرب، أو تحاشيها، قراراً أكثر حكمة ، وأفضل سلامة .

٢- يجب أن تكون هناك الكثير من الأفلام التليفزيونية التى تصور التدمير المرعب الذى ينتج عن الحروب، والذى يقع على أرواح البشر والاقتصاد معًا، مثل فيلم «اليوم التالى The day after». ففى مثل هذه الحالة ، سوف يدرك معظم الناس مقدار الآلام والمآسى ومختلف أنواع التدمير، التى يمكن أن تؤدى إليها الحرب لكلا الجانبين المشتركين فى الحرب ، يتساوى فى ذلك المنتصر والمهزوم . وسوف يخلق هذا خوفًا شديداً من الحروب، ويقوى الرأى العام ، المناهض للحرب ؛ الأمر الذى يؤدى -بالتالى- إلى الضغط على القيادات حتى لاتتبنى قرارات الحرب ، وتصبح من أنصار السلام .

٣- يجب القيام بتنظيم أحزاب وجماعات وحركات ومؤتمرات ، وإصدار نشرات، وتنظيم أسبوع سنوى.. كل ذلك للدعاية للسلام ونبذ الحرب كاتجاه فى حل المشكلات ، وأعتقد أن الأسبوع السنوى -الذى نقترحه- للسلام يكون من الأنسب لو بدأ فى السادس من أغسطس، لأنه فى مثل هذا اليوم حدث -لأول مرة فى العالم- أن ضربت مدينة بقنبلة ذرية، وكان ذلك فى الحرب العالمية الثانية (هيروشيما باليابان فى ٦ أغسطس ١٩٤٥) .

ففى حالة تنفيذ هذا الاقتراح، سوف تكون هناك فرصة طيبة لمعظم المفكرين من مختلف الأيديولوچيات ، ومن مختلف البلاد فى العالم لأن يروجوا للسلام ويساندوه ، ولأن يقوموا بضغوط هائلة فى جانب السلام ضد الحرب، وسوف يعمل هذا -أيضًا- على تكوين رأى عام وتقويته فى نفس الاتجاه .

٤- يجب على كل المفكرين فى أنحاء العالم أن يساندوا بقوة كل الاتجاهات الإنسانية الخيرة، والقيم السياسية والاجتماعية الطيبة ؛ مثل المطالب العادلة لأن يحيا كل الناس فى سلام ، وأن تستعيد الشعوب عن طريق السلام ترابها الوطنى المحتل، وأن تكون لكل الناس إرادتها الحرة فى اتخاذ قراراتها السياسية والاجتماعية ، وأن تكون لها كل الحقوق الإنسانية التى تستمتع بها شعوب البلاد المتقدمة .

كما يجب على كل المفكرين -أيضًا- أن يقوموا بالدعاية لمباحثات السلام ومساندتها عند محاولة علاج المشكلات وحلولها، مع تحاشى الترويج للحلول العدوانية أو تدعيمها .

وعليهم -أيضًا- أن يستنكروا وأن يقفوا ضد أى بلد له رغبة غير مشروعة فى تدمير الآخرين، أو الاستيلاء على ترابهم الوطنى بالقوة، أو إحداث إضرار غير مشروع بالآخرين .

ولاشك أن تنفيذ هذه الاقتراحات -إذا نجح- سوف يقلل كثيراً من العوامل التى تدفع إلى الحروب، وإلى مختلف أنواع الاعتداءات .

خاتمة :

لقد استعرضت فى هذا البحث بعض العوامل النفسية التى يمكن أن تسهم فى تيسير التورط فى الحروب، كما تسهم فى استبعاد السلام : مثل الدوافع التدميرية ، والميول السادومازوخية، والخصائص السيكوباتية ، وهذاءات العظمة، وهذاءات الاضطهاد، وسمات التبلد الانفعالى . كما أوضحت «شهوة» الإنسان للحروب وكراهيته للسلام ، سواء أكان ذلك على المستوى الشعورى أم اللاشعورى . وأتبعت ذلك باقتراحات أربعة يمكن أن تقوم كأساس ضد إغراءات العدوان، كما يمكن- فى نفس الوقت- أن تقلّل من شغف الإنسان بالحرب، وأن تزيد من فرص الحلول السلمية للمشكلات . فإذا كنا حقيقة نبحث عن السلام، وجب علينا جميعًا أن نؤيد مثل هذه الاقتراحات، وأن نتخذ كل الإجراءات والخطوات التى تدعم السلام وتستبعد الحروب والتصرفات العدائية .

وإنه لمن المعروف عامة أن كل الجنس البشرى سوف يعانى ويلات التدمير والضرر إذا ما نشبت حرب ذرية . فنحن ، على الأرض، شديدو الشبه بأولئك الموجودين فى سفينة واحدة وسط البحر، إن تحطمت غرق الجميع وماتوا . لهذا ، يجب علينا جميعًا أن نقاوم بكل مانستطيع ضد الحرب ، وأن نذهب إلى أبعد مدى فى تأييد السلام فوق ربوع العالم كله ؛ وإلا فسوف يتهدد وجودنا كله كجنس بشرى، بسبب ميولنا التدميرية المقيتة .

* * *

المراجع :

١- بطرس عبد الملك وآخرون . قاموس الكتاب المقدس ، الصادر عن مجمع الكنائس فى الشرق الأدنى. بيروت ، ١٩٧١ .

Freud, S . Beyond the Pleasure Principle, The International Psycho - analytical -٢
Press, London , 1922 .

Halsey . W & E. Friedman (Editors) . Collier's Encyclopedia . New York , Collier, -٣
Inc., 1980 .

Klein, M . The Psycho-analysis of Children . London . The Hogarth Press, 1975 . -٤

Storr A., Human Aggression, Pelican Books, 1985 . -٥

Taha , Farag A . Does Mankind Really Search for Peace? A Psychological View, -٦
APaper Read in 8th International Congress of Cross- cultural Psychology . Istanbul, Turkey
, July 6-10 1986 .

Walsh, R . Staying Alive, New Science Library. London , 1984 . -٧

الامتحان الموضوعى الهام
فى مادة (سيكلوچيا الإرهاب والسلام) *

أجب عن كل سؤال مما يلى بـ «نعم» إذا كنت توافق على ما جاء به ، أو بـ «لا» إذا كنت لاتوافق . أما إذا كنت توافق على أجزاء منه فقط، ولاتوافق على أجزاء أخرى، فأشر على ما توافق بعلامة « ✓ » ، وعلى مالاتوافق بعلامة «×» ، أو بشطبه بقلمك :

١- مع قناعتنا التامة بشدة تأثير عوامل : انتشار العطالة، وانخفاض الدخول، والتخلف الاقتصادى، والجمود الدينى، وضعف التوجه العلمى فى النظر إلى مشكلاتنا وعلاجها ، وعيوب التربية والتعليم فى مدارسنا من حشو مواد الدراسة فيها- بمثل ما عليه الحال فى وسائل إعلامنا- بالخرافات ، وبما يجمد الفكر ويسطحه ، وبما بقتل ملكات النقد ، وبما يقلل من أهمية المنهج العلمى فى النظر إلى الأمور ، وبما يستهين بأهمية الحوار الفكرى مع الآخر .. فى تغذية ودعم ظاهرتى الإرهاب Terrorism والعنف Violence ، إلا أن حوادث الإرهاب والعنف تعود بدورها فتُقَوِّى ، وتُزيد من العوامل المشار إليها كمسببات للإرهاب والعنف، حتى أن الأمر كله يدور فى حلقة مفرغة . نقول مع قناعتنا بكل ما سبق ؛ إلا أننا يجب أن نضيف إلى كل عوامل الإرهاب والعنف- السابق ذكرها- عاملاً نفسيًا هامًا فى تغذية الإرهاب والعنف، هو وظيفتهما فى تصريف طاقة دافع العدوان ، وإشباع الرغبة فى التدمير كطبيعة بشرية **«وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم»** (سورة يوسف : ٥٢) . فقد كانت شحنات دافع العدوان والرغبة فى التدمير- سواء الموجهة إلى الذات أو إلى الآخر تجد منصرفًا وإشباعًا مثاليًا فى مقاومتنا للاحتلال الإنجليزى، ثم فى حروبنا مع إسرائيل ، فلما سُد- الآن- أمامها هذان السبيلان انصرفت إلى مسارب أخرى ضارة بالمجتمع ، أوضحها وأخطرها ظاهرة الإرهاب والعنف التى لاتخطئها الآن عين .

نعم :   لا :

---

* نشر هذا المقال فى «مجلة دراسات نفسية » التى تصدرها رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية ، مجلد: ٨ ، عدد : ١ يناير ١٩٩٨ ، ٣-١١ .

٢- إذا كانت إجابتك عن السؤال السابق بـ «نعم» ، أو بالموافقة على بعض ما جاء فيه : فأجب عن السؤال التالى :

يرى البعض أن إشراك العامل النفسى فى تفسير الظواهر التاريخية (ويمثله فى مقالنا هذا العدوان كطبيعة نفسية بشرية تدفع إلى التورط فى جرائم الإرهاب) إنما هو إمعان فى البعد عن الحقيقة، وفى تزييف الوعى بالمسببات الجوهرية ، ومن باب تأكيد أهمية تخصصنا العلمى لاغير . لذا ، ينبغى علينا أن ندعم صدق رؤيتنا لأهمية هذا العامل النفسى، ودوره فى ظاهرة الإرهاب والعنف، بما يلى :

أ- ما كتبه مفكر كبير هو محمد حسنين هيكل ، وهو يتحدث عن «أهم سبب للانهيار السوفيتى المهين!» ؛ حيث يقول : إن البعض ينزعون إلى التقليل من تأثير الفاعل الإنسانى العادى فى التاريخ، بينما تجارب التاريخ تشير إلى العكس . ومع أن الحركة الأظهر الغالبة هى دائمًا للحقائق الاقتصادية والثقافية والسياسية- لكن الحاصل أن العنصر الإنسانى يفعل فعله غير المرئى كحركة الميكروبات .. تبدو ضعيفة وغير مرئية ، لكنها تحت السطح كفيلة بجعل جسد قوى وضخم يمرض ويذوى ويموت فى بطء (محمد حسنين هيكل : ١٩٩٧ ، ٥٨).

ب- إن تأمل الأحداث التاريخية الهامة التى تحدث فى وقتنا الراهن ، أو حدثت فى تاريخ قريب ، وربطها بعضها بالبعض يؤدى إلى اكتشاف مدى الدور الفاعل للدافع العدوانى والرغبات التدميرية فى الطبيعة البشرية ، وتخفِّى هذا الدور وراء أمور اقتصادية ، أو أيديولوجية ، أو سياسية .. من ذلك- على سبيل المثال :

(١) تعثر عملية السلام بين العرب وإسرائيل ، استنفاراً لحرب تقتل الآلاف ، كما تدمر الاقتصاد والبنية التحتية للمجتمعات المتورطة فيها. فلاتكاد تتقدم عملية السلام خطوة حتى تتراجع خطوتين .

(٢) بروز أمواج الإرهاب واشتدادها بشكل واضح مع محادثات السلام وإجراءات تحقيقه بين إسرائيل ومصر والبلاد العربية . وكأن دافع العدوان والتدمير بدأ يبحث عن مسارب أخرى له عندما تهددت منافذه بالغلق ، وروافده بالنضوب . وهكذا ، تعمد الإرهاب قتل رموز السلام ؛ أنور السادات فى مصر، وإسحق رابين فى إسرائيل ، ويوسف السباعى فى قبرص .

(٣) تحوُّل صدام حسين - بعد انتهاء حربه مع إيران- إلى القيام بمحاولة انتحارية واضحة بغزوه للكويت ؛ مما أدى به إلى إيقاع العراق تحت طائلة حرب مع تحالف عالمى (لاقبل له به) بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، قتل فيها آلاف العراقيين من عسكريين ومدنيين ، كما دُمِّر فيها فى كلٍ من العراق والكويت ما دمر ؛ ولازال حتى الآن- ولسنوات قادمة- يعانى صدام والعراق والكويت والعرب جميعهم من عواقب أكبر كارثة حلت بهم فى تاريخهم الحديث.

(٤) دخول فصائل «المجاهدين الأفغان» فى حرب متبادلة، استكمالاً لقتل أنفسهم وتدمير بلدهم بأيديهم ، بعد أن تخلى السوفييت عن القيام بهذا الدور . ويلاحظ أنهم كلهم مسلمون يزعمون «الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الحق» .

(٥) بعد انسحاب السوفييت من أفغانستان وتوقف عمليات الحرب التى تشبع دافع العدوان والتدمير أكبر إشباع (سواء المتجه نحو الذات أو نحو الآخر) ، والتى استمرأها المجاهدون العرب فى أفغانستان . عادوا إلى بلادهم باحثين عن بديل لإشباع هذا الدافع العدوانى التدميرى وتصريف شحناته التخريبية ، وذلك بالاشتراك فى أحداث الإرهاب ، أو التخطيط له ، أو قيادة أنشطته وتوجيهها .

(٦) قيام حربين عالميتين فى مدى ربع قرن فقط (فى النصف الأول من القرن العشرين) قامت فيهما ألمانيا ، وخاصة فى الحرب الثانية (حيث كان هتلر يقود ألمانيا) بالدور الرئيسى فى إشعالهما واستمرارهما ؛ حيث قتل فيهما عشرات الملايين من البشر فى أنحاء العالم ، بخلاف ما أحدثتاه من تدمير للاقتصاد والبنية التحتية للأطراف المشاركة فيهما ، بل وتدمير هتلر نفسه بالانتحار، وتحطيم ألمانيا ذاتها وتقسيمها إلى ألمانيتين ؛ عرفت إحداهما بألمانيا الشرقية ، بينما عرفت الأخرى بألمانيا الغربية ، حيث دخلتا معًا - لما يقترب من نصف قرن- فى عداء وتهديد متبادل قبل توحيدهما معًا من جديد مع مطلع التسعينيات (Taha , Farag . A: 1986, 30)

هذا ، وعندما ندعم رؤيتنا السابقة فى فاعلية الدافع العدوانى التدميرى كعامل نفسى فى ظاهرة الإرهاب والعنف بضرب الأمثلة السابقة ؛ فنحن لاننفى عوامل هامة أخرى كثيرة شديدة التأثير على ظاهرة الإرهاب والعنف إلى جانب العامل النفسى الذى يحلو للكثيرين تجاهله أو الاستخفاف به. مما يدعونا هنا إلى إبرازه وتأكيده .

نعم :　　　　لا :

٣- إذا كانت إجابتك عن السؤال السابق بـ «نعم» ، أو بالموافقة على بعض ما جاء فيه، فأجب عن السؤال التالى :

إن السلام يعنى - فى مضمونه وجوهره - نفى كلٍ من الإرهاب والعنف والاعتداء على حقوق الغير فى الحياة الكريمة ، والمتعة البريئة ، والتقدم المنشود ، والنمو الشامل . وبالتالى ، فإنه يعنى التوجُّه نحو كل ما هو خير وفيه فائدة للذات وللآخر وللمجتمع ، ونبذ كل ما يضر بهم (الذات والآخر والمجتمع) . ومن هنا ، فإن القيم الإنسانية كلها تدعو إلى السلام وتستهدف نشره وتحقيقه ، سواء فى ذلك قيم الحق والعدل والرحمة والجمال والكرم والمروءة والإيثار .. وواضح أن الإرهاب والعنف والعدوان إنما يتنافى مع هذا كله ويتناقض ، ولذا ينبغى أن نتمسك جميعًا بالسلام . لكن ، كيف يمكننا ذلك، وقد قلنا -من قليل- إن العدوان طبيعة فى النفس البشرية ، فكيف لنا - إذن- أن نهرب من إضراره بنا أفراداً ومجتمعًا . إنى أقترح هنا إمكانية مفيدة لإشباع هذا الدافع ، وتصريف طاقته وشحناته ، وذلك بتوجيهه إلى ما ينفع مجتمعاتنا، ويؤدى بها إلى التنمية الشاملة والازدهار المنشود . وهنا لن نجد أفضل من توجيه العدوان (الذى يستهدف الإضرار بالذات وبالآخر وتدمير المجتمع) إلى محاربة السلبيات بعنف وبلا هوادة ؛ هذه السلبيات التى بدأت تشيع فى مجتمعنا كالسرطان ؛ والتى تمثل- فى نفس الوقت- معينًا لاينضب لتغذية الإرهاب والعنف ، وتوسيع دائرة مسانديه ومروجيه . وبهذا ، يمكن اجتثاث جذوع الإرهاب ، واقتلاع جذوره ، وتجفيف منابعه، وسد منافذه ، ولعل من أخطر السلبيات التى ينبغى محاربتها بلاهوادة ، وبكل عنف مستطاع ، ماسبق أن كتبت عنه فى مقالات سابقه ؛ مثل ضعف التوجه العلمى، ووجهة الضبط الخارجى، ونظرية التآمر ، وفى قبضة البيروقراطية ، والانتهازية ، وعدم تقدير المسئولية والاستهتار بها، وافتقاد القدوة ، وتليف الضمير ؛ راجع : فرج عبد القادر طه «تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات » : ١٩٩٤ ، وفى «قبضة البيروقراطية » : ١٩٩٧ ، و«المثقف وتجسيد القدوة» : ١٩٩٣ . بالإضافة - وبطبيعة الحال- إلى محاربة الإرهاب ذاته والعنف «والبلطجة» بكل صورها ، حربًا نعبئ لها كل ما أوتينا من قوة ، كأنما نعبئها للدخول فى حرب مع أشرس الأعداء . ونظرة إلى أخطر حادثى إرهاب فى العام الأخير ١٩٩٧ : حادث متحف الآثار المصرية بميدان التحرير ، وحادث الدير البحرى بالأقصر) تثبت صدق ما نقول حيث سبق اعتقال معظم الإرهابيين الذين قاموا بالحادثين ومحاكمتهم، أو التحقيق معهم ،

كما أن تهم الرشاوى والفساد وعدم النزاهة والتسيب حامت بقوة حول حادث ميدان التحرير، واتضح الإهمال وعدم تقدير المسئولية وضعف الوفاء ، بها- بشكل لافت للنظر- فى حادث الأقصر، حتى أن احتياطات الأمن هناك وصفت بـ - «التهريج» . مما يؤكد أن السلبيات يؤدى بعضها إلى بعض، ويقوى بعضها بعضًا ، ويغذى كل منها الآخر، حتى أن الأمر جميعه يدخل فى حلقة مفرغة ، تحتاج إلى شجاعة القرار وقوة المقاومة، التى لن تكون فى مثل هذا الظرف إلا بتوجيه النزعات العدوانية لتدمير الفساد واقتلاعه ، قبل أن ينجح فى تدمير المجتمع وانهياره ، فما تركه حادثا الأقصر وميدان التحرير من آثار تدميرية ؛ معنوية ومادية على مجتمعنا يعادل ما يمكن أن يحيق بمجتمع من هزيمة فى حرب مع عدو لدود، كان يحق له -عندئذٍ- أن يحاربه بكل قوة (وعدوانية) دون هوادة أو استهانة .

نعم : لا :

٤- إذا كانت إجابتك عن السؤال السابق بـ «نعم» أو بالموافقة على بعض ما جاء فيه ؛ فأجب عن السؤال التالى :

إن تحقيق السلام الاجتماعى ، بما يشمله من توقف الإرهاب والعنف وتجفيف منابعهما يعتمد أيضًا- وإلى حد كبير- على تحقيق العدالة الاجتماعية ، وكرامة المواطن بما هو إنسان، وتحقيق المسئولين وتجسيدهم للقدوة المثلى فى تبنى القيم الخيِّرة ومراعاتها فى تصرفاتهم ، وفى قيامهم بمسئولياتهم ، وفى تنفيذهم لواجباتهم ؛ ومن أهمها الدراسة الجادة لمشكلات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية المختلفة ، واتخاذ الإجراءات والخطوات الحاسمة لعلاجها ، حتى يرتفع ولاء Loyalty المواطن لبلده ، ويكون مستعداً للفداء- فى سبيل سلامها وازدهارها- بمصالحه ودمه .

نعم : لا :

٥- إذا كانت إجابتك عن السؤال السابق بـ «نعم» ، أو بالموافقة على بعض ما جاء فيه ؛ فأجب عن السؤال التالى :

إن ولع كثير من المسئولين ، وانسياق كثير من المثقفين وراءهم ، بتفسير التاريخ ، والأحداث الخطيرة- على نحو حادثى الأقصر وميدان التحرير وغيرهما من حوادث الإرهاب- على أنه تآمر من عناصر وقوى خارجية تبغى قهر مصر وتتغيى انهيارها - ومع قناعتنا ببعض ما فيه من صحة- يعود علينا بالضرر البالغ ، فهو مَهْرب سهل لكل مسئول يقصِّر فى

تحمل مسئوليته ، ويستهتر بها ، ويتهاون فيها ، إضافة إلى أن تصديقنا لتبرير هذه الأحداث الجسام بأنها نتيجة تآمر خارجى، يجعلنا نوقن بأن أمرنا ليس بأيدينا ، بل هو بيد القوى الخارجية (العاتية عادة) ؛ بما يجبرنا على استرضائها ، حتى بما يضر بمصالحنا ويذهب بهويتنا ، وينتهى بنا إلى الاعتماد التام على الغير، وليس على قوتنا وجهدنا الذاتى. فتشيع فينا روح الانهزامية، والاتكالية ، وفقدان الثقة بالنفس ، وقلة الاعتماد عليها.. وليس هناك ما هو أضر على شعب وأخطر ، من شيوع هذه الروح السلبية فيه. ثم إن قراءة التاريخ ، وتأمل الأحداث الجسام فيه ؛ تؤكد أن القوى الخارجية تتآمر كلها على بعضها البعض، بمثل ماتتحالف فى نفس الآن ، وتتنافس بمثل ما تتعاون ؛ فكأن مسألة التآمر والتحالف أمر مشترك وراء الأحداث المختلفة فى العالم، حتى أنه يجب أن نحيد مسألة التآمر من حساباتنا، وأن نَتَّحوط بوعينا الذاتى واحتياطاتنا الخاصة، وحساباتنا الدقيقة، وتحملنا الجاد لمسئولية مجتمعنا التى ألقاها علينا وقبلناها مختارين ؛ فنعتمد- عندئذٍ - على أنفسنا فى الحفاظ على أمننا وأماننا، مهما كانت نوايا الغير ضدنا. وبغير هذا كله ؛ فلاسبيل إلى استقرار أمننا وازدهار مجتمعنا . هكذا ، علّمنا التاريخ ، أن ضعف المجتمعات، وانهيار الدول يكون -أساسًا- بسبب عوامل من داخلها ؛ حتى أن العوامل الخارجية ليست أكثر من عوامل فرعية مساعدة ، لاتنجح فاعليتها إلا إذا كانت التربة فى داخل المجتمع صالحة - وقتها- لتلقى البذرة ، وإنماء ، نبتها، وإنضاج ثمرها . وصدق الله العظيم فى قوله الكريم (**ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم**) (سورة الأنفال:٥٣) و «**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (سورة الرعد: ١١) .

نعم :   لا :

٦- إذا كانت إجابتك عن السؤال السابق بـ «نعم» ، أو الموافقة على بعض ما جاء فيه ، فأجب عن السؤال التالى :

إن الدين الإسلامى الذى يوظفه الإرهابيون فى تبرير جرائمهم يدعو- فى نصوص واضحة لا لبس فيها ولا غموض - إلى السلام، ونبذ العدوان والتدمير وترويع الآمنين . فنحن نقرأ فى القرآن الكريم : «**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**» (سورة النحل: ١٢٥) . و« **لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن**

تبوأ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين .. من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون . إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» . (سورة المائدة : ٢٨،٢٩، ٣٠ و٣٢ و ٣٣) .

كما أننا نقرأ فى «صحيح البخارى» أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (صحيح البخارى، الجزء الأول: ١٩٩٠ . ٢٠-٢١) وأن رجلاً سأل النبى -صلى الله عليه وسلم- أى الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف» (صحيح البخارى ، الجزء الأول: ١٩٩٠ ، ٢٢) . وفى «أحاديث الصادقة نقرأ أيضًا : «قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «اعبدوا الرحمن، وأطعموا الطعام ، وأفشوا السلام، تدخلوا الجنة بسلام» (أحاديث الصادقة ، تحقيق محمد يوسف الدين عليش : ١٩٩٥ ، ٣). وهكذا ، يحرِّم الإسلام قتل النفس البشرية بغير ذنب جنته ؛ أى نفس بشرية كانت دون اشتراط أن تكون مسلمة . حتى أن الإسلام يساوى بين قتل نفس واحدة دون حق وبين قتل الناس جميعًا ، كما أنه يساوى بين الإحسان بإحياء نفس واحدة وبين إحياء الناس جميعًا . وهنا نجد عظمة الإسلام فى تحريمه القاطع لقتل النفس دون ذنب، وفى تكريمه النفس وإعزازها بالحث على المحافظة على حياتها .
كما يدعو الإسلام- بشكل واضح فى النصوص السابقة- إلى إفشاء السلام والطمأنينة ونشرهما بين الناس- دون اشتراط أن يكونوا مسلمين- وعدم ترويعهم ، حتى أنه يكاد يعادل بين الإسلام وبين نشر السلام والطمأنينة بين الناس ، وعبادة الرحمن . فمَن يروع الناس ، ويهدد أمنهم يعتبره الإسلام كمن يحارب الله ورسوله، ويسعى فى الأرض فساداً وتدميراً ، فجزاؤه هو القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف .. حتى يكون هذا بمثابة خزى له فى الدنيا ، كما ينتظره فى الآخرة عذاب عظيم ، ولاشك ، أن هذا أقصى عقاب يمكن توقيعه على بشر كجزاء عادل على أبشع جريمة يمكن أن ترتكب . ومن هنا، يسقط احتجاج الإرهابيين بأن الإسلام يحثهم على هذا الجرم المدمر للأنفس وللاقتصاد ، على نحو ما هو واضح

من آثار حادثى الأقصر وميدان التحرير. فالنصوص الإسلامية صريحة وواضحة فى تحريم مثل هذه الحوادث الإرهابية وفى تحريمها وإدانتها ، كما أنها- أيضًا- تحث على أن تكون الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، مما يتناقض - صراحة ومباشرة- مع ما يزعمه الإرهابيون ويروجون له .

نعم :   لا :

٧- إذا كانت إجابتك عن السؤال السابق بـ «نعم» ، أو بالموافقة على بعض ما جاء فيه، فأجب عن السؤال التالى :

وختامًا ، فإن محاربة الإرهاب، والعمل على إفشاء الأمن، ونشر الطمأنينة والسلام، ليس شأنًا أمنيًا خالصًا (بمعنى ذلك الأمن المنوط برجال الشرطة ومسئولى وزارة الداخلية ومساعدة المواطنين فيه) . فمع إيماننا بضرورة اتخاذ التدابير الأمنية الصارمة (بهذا المعنى المشار إليه)، ووجوب يقظة المسئولين عن هذا الأمن وتحوُّطهم واستعدادهم إلى أقصى حد مستطاع ، والاهتمام الشديد باختيارهم من أنسب المواطنين كفاءة ، ومن أصلحهم خلقًا، ومن أقواهم ولاءً للوطن (قبل ولائهم لذواتهم ومحاسيبهم) إلى جانب تسليحهم بأفضل الوسائل العلمية ، والمعدات التقنية ، والبرامج التدريبية التى ترفع مستوى كفاءتهم فى اكتشاف الإهاربيين ، وإفساد مخططاتهم ، ومقاومة عناصرهم ، ومتابعة فلولهم ؛ نقول : مع إيماننا بضرورة مراعاة هذا كله بجدية تامة وصبر لاينفذ ، إلا أننا يجب ألا ننسى أن تقليم أظافر الإرهاب ، وقطع دابره ، وتجفيف منابعه ، وطمس روافده يكون -أساسًا- بإشاعة التنوير فى أذهان المواطنين ، وتشجيع العقلانية فى تفكيرهم ، ونبذ الخرافات من قناعاتهم ، وتشجيع الحوار بينهم عند الاختلاف فى الرأى ، وتدريبهم عليه صغاراً ، وتعويدهم عليه كباراً ، ونبذ التعصب الدينى والتطرف بكافة أشكالهما وصورهما ، ولن ننجح فى هذا الشأن إلا إذا وضعنا هذا كله نصب أعيننا ، ونحن نضع مواد البرامج الدراسية وموضوعاتها لأطفالنا منذ الصغر ، ولتلاميذنا وطلابنا فى الكبر، مع الاهتمام باستثارتها للتفكير والإبداع ، وبُعدها عن الحشو واللغو الذى يسطِّح فكر الفرد، ويعوِّده تصديق كل ما يسمع والتسليم به دون نقاش أو تمحيص عقلانى، ووضعناه نصب أعيننا- أيضًا- ونحن نخطط لإعلامنا بوسائله المختلفة ، من كلمة وصوت وصورة، ووضعناه نصب أعيننا - ثالثًا- ونحن نوجه الآباء والأمهات والمدرسين إلى ضرورة الاهتمام بأساليب التربية والتعليم التى تركز على غرس التسامح والعقلانية ، وتحارب

الخرافات ، وتشيع التفكير العلمى والرؤية الناقدة للأمور، وتساعد على تنمية شخصية الأبناء، مدعومة بالاستقلالية والتفرد ، والحرية فى الاختلاف، مع تحبيذ الحوار مع الآخر واحترام حقه فى الخلاف، هذا إلى جانب تدريب النشء، وتعويدهم على الموضوعية فى الأحكام، والاتزان فى الرأى ، وعلى تبنى القيم الإنسانية الخيِّرة البناءة : كالصدق فى القول، والإخلاص فى العمل، والولاء لتراب الوطن ، والإيثار للغير، وتحرى الكسب الحلال، والبساطة فى المظهر ، والاستمتاع البرئ والمعتدل بمباهج الحياة ، وبما أحله الله، وارتضاه الناس، وحبذه المجتمع .. ولاننسى- فى هذا المقام- ضرورة الاهتمام باختيار وعاظ المساجد والكنائس من ذوى العلم والخلق والتسامح والولاء للوطن، مع تأهيلهم وتدريبهم المستمر ومتابعتهم وإرشادهم بما يُرقِّى فيهم حسن أداء واجبهم ويفيده . يضاف إلى كل هذا ضرورة التنبيه إلى سلبياتنا، وإلى الوسائل المثلى لمقاومتها وعلاجها درءاً لأضرارها. واستبعاداً لأخطارها ، عملاً بالقول المأثور «رحم الله من أهدى إلى عيوبى » .

نعم :   لا :

* * *

المراجع :

١- القرآن الكريم .

٢- صحيح البخارى ، الجزء الأول . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة ، ١٩٩٠ .

٣- أحاديث الصادقة . تحقيق وتوثيق محمد سيف الدين عليش . القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥ .

٤- فرج عبد القادر طه . المثقف وتجسيد القدوة ، فى : كتابه المجمع : علم النفس وقضايا العصر . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٣ .

٥- فرج عبد القادر طه . تأملات فيما طرأ على الشخصية المصرية من سلبيات ، مجلة دراسات نفسية ، المجلد الرابع، العدد الثانى ، أبريل، ١٩٩٤ .

٦- فرج عبد القادر طه . فى قبضة البيروقراطية ، مجلة دراسات نفسية ، المجلد السابع، العدد الأول، يناير ، ١٩٩٧ .

٧- محمد حسنين هيكل . أهم سبب للانهيار السوفيتى المهين، فى : كتابه المجمع : المقالات اليابانية . القاهرة، دار الشروق ، ١٩٩٧ .

8- Taha , Farag A . Does Mankind Really Search for Peace? 18th International Congress of Cross- cultural Psychology . Abstracts, Istanbul, Turkey. 1986 , 30 .

التصوير السمعى كعملية
فى إخراج أحلام المكفوفين *

تمهيد :

الأحلام هى نشاط نفسى يقوم به النائم، حيث يعيش فيها فى مجموعات من الهلاوس[1] «المترابطة أو المنفصلة» الحاصلة على معنى ، أو غير الحاصلة على معنى. وهى نشاط نفسى لابد منه لكى تخفِّف النائم من بعض ما يؤرقه من رغبات تتطلب الإشباع، أو دوافع تبحث لها عن تنفيس .

الأحلام والصور البصرية :

ولقد درست أحلام المبصرين، وانتهى دارسوها إلى أن الصور البصرية Visual Images تعتبر المكونات الأساسية للحلم، حتى إن الحلم يلجأ فى إخراجه إلى محاولة جاهدة لترجمة معظم ما يحويه إلى صور بصرية ، لدرجة أن الفكرة المجردة ، التى تصعب ترجمتها إلى صور بصرية ، نجد الحلم وقد ظل يبحث لها عن صورة بصرية تترجمها حتى يعثر عليها فى أغلب الأحوال. وفى الأحلام التى درسها العلماء ما يؤيد ذلك. ونذكر - كمثال لذلك فقط- حلم حقنة إرما ، والذى رأت فيه المريضة تفتح فمها بأوسعه «وكانت هذه الصورة تترجم فكرة أن تفيض فى الحديث » (فرويد : ترجمة مصطفى صفوان بدون تاريخ، ٣٤٩) وكذلك ، حلم

---

* هذا عرض أكثر تفصيلاً للبحث الذى ألقاه المؤلف فى المؤتمر الدولى الثالث والعشرين لعلم النفس، والذى عقد بالمكسيك (أكابولكو- سبتمبر ١٩٨٤) . ونص البحث الذى ألقى بالمؤتمر موجود بالقسم الإنجليزى من الكتاب . وقد سبق لمجلة علم النفس، التى تصدرها جمعية علم النفس الأمريكية (APA) والمعروفة بـ الـ (Psychological Abstracts) أن نشرت ملخصًا للبحث فى عدد مايو ١٩٧٨ ، بعد أن نشر لأول مرة بسنوات قليلة .

١- الهلاوس Hallucinations مدركات حسِّية بدون منبهات حسية واقعية موجودة بالعالم الخارجى ؛ كالمجنون الذى يصرخ مستغيثًا من كائن يطارده ، بينما فى الواقع لايوجد هذا الكائن الذى يطارده ، إنما هلاوسه الذاتية التى هيأت له هذا الإدراك .

سيلبرير ، الذى رأى فيه نفسه يسوِّى قطعة من الخشب ، كترجمة لفكرة أن عليه أن يراجع فقرة ناشزة فى إحدى مقالاته. هذا ، ويرى المحللون النفسيون أن عملية تحويل الأفكار فى الحلم إلى صور بصرية تعتبر أهم العمليات التى يمر بها إخراج مضمون الحلم الكامن إلى محتوى ظاهر . وفى هذا يقرر فرويد :

«والحيلة الثالثة من حيل إخراج الحلم ، هى أهم الحيل جميعًا وأكثرها طرافة من الناحية السيكلوجية ؛ وتتلخص فى تحويل الأفكار إلى صور ذهنية بصرية. على أن هذا لايعنى أن كل ما ينطوى عليه الحلم من أفكار مصيره أن يتحول على هذا النحو، فكثير من هذه الأفكار يحتفظ بشكله الأصلى ، ويبدو فى الحلم الظاهر كما هو ، أو فى شكل معلومات أو أفكار تتصل بصاحب الحلم. ومن جهة أخرى، فالصور البصرية ليست الشكل الوحيد الذى يمكن أن تتخذه الأفكار ، ولو أنها تقوم بالدور الأساسى فى صياغة الأحلام . وتعرفون أن هذا الجانب من إخراج الحلم هو أكثر جوانبه ثباتًا، وأقلُّها عرضة للتغيير ... ومن البداثة أن هذا الأسلوب من أساليب إخراج الحلم ليس عملاً سهلاً بأية حال. فإن شئتم أن تكونوا لأنفسكم فكرة عن صعوبتها فحسبكم أن تتصوروا أنكم تقومون بإبدال مقالة سياسية رئيسية فى صحيفة ما، بطائفة من الرسوم الإيضاحية ؛ أى تستعيضوا عن الحروف الأبجدية بعلامات تصويرية..» (فرويد : ترجمة أحمد عزت راجح، بدون تاريخ :١٨٨).

ولعل من أهم الأسباب التى تجعل للإدراك البصرى فى الحلم كل هذا الوزن فى المقارنة بغيره من بقية الحواس (كالسمع - واللمس- والشم- والتذوق) أن الإبصار -سواء فى اليقظة أو الحلم- يمتاز عليها جميعًا بالتالى :

١- إمكانية إدراك عدد هائل من المدركات البصرية إلى جوار بعضها فى نفس الوقت، ودون أن تختلط معًا مسببة ربكة فى التفرقة بينها . فمثلاً ، تستطيع أن ترى الشارع وما به من عربات قادمة وذاهبة ، وأشخاص واقفة أو سائرة ، وما يقع عليه من مبانٍ ومنشآت ، دون أن تختلط هذه المدركات معًا . لكن، لو تكلم ثلاثة أفراد فى نفس اللحظة، فلن تستطيع أن تستمع إلى كلٍ منهم، بل سوف تختلط المدركات السمعية ، فلا يمكنك تمييز ما يقوله الأول عن الثانى عن الثالث، على نحو ما يمكن بالنسبة للإدراك البصرى. ونفس هذه المقارنة بين الإدراك البصرى والسمعى تصدق على المقارنة بين الإدراك البصرى وغيره من المدركات الحسية الأخرى .

٢- اتساع دائرة المدركات البصرية عن غيرها من بقية المدركات . فمثلاً ، يمكنك رؤية منزل على بعد عدة كيلو مترات من مكانك ، لكن لايمكنك أن تسمع صوتًا ، أو تشم رائحة، على بعد نفس المسافة ، ناهيك بحاستى اللمس والتذوق اللتين تتطلبان انعدام المسافة بينك وبين الموضوع الذى تدركه ، وإلا استحال إدراكك اللمسى أو التذوقى له .

٣- سرعة الإدراك البصرى ومرونة انتقاله من موضوع إلى آخر يعطى ميزة كبيرة للإدراك البصرى ؛ فأنت فى دقيقة واحدة يمكنك أن تدرك عدداً هائلاً من المدركات البصرية بدقة كافية، فى حين لاتستطيع ذلك فى بقية المدركات الحسية الأخرى.

٤- الإدراك البصرى أشد أنواع الإدراك دقة ووضوحًا وتفصيلاً . ومن هنا ما هو ملحوظ من إمكانية الشخص أن يستطرد فى وصف ما تراه عيناه عن موضوع ما بدقة ووضوح وتفصيل ، بعكس الأمر إن طلب منه أن يصف مدركًا سمعيًا، أو لمسيًا، أو شميًا، أو تذوقيًا.

٥- دقة إدراك الكل أو الجشتلط فى الإدراك البصرى، وعجز بقية الحواس عن ذلك : وهذا راجع إلى البنود الأربعة السابقة التى تميز الإدراك البصرى فى المقارنة بغيره من بقية الحواس . ذلك أن إدراك الكل يتم عن طريق إدراك الجزء دفعة واحدة ، بحيث لو لم يتحقق هذا الشرط، أصبح إدراكنا للكل مشوهًا . فأنت تدرك أن المبنى الذى أمامك عمارة عن طريق رؤيتك لمكوناته الخارجية دفعة واحدة. فأنت لاتدرك الشباك أ أولاً ثم الشباك ب ثانيًا.. ثم الباب .. ثم الحائط ... ثم الدور الأول .. ثم اللون .. إلخ . فى ترتيب من هذا النوع ، ثم تخرج من ضمك لهذه الأجزاء معًا إلى أنها تكون كلاً أو جشتلطًا هو العمارة .. ولو أنك اضطررت إلى إدراك كل جزء من أجزاء هذه العمارة على حدة لما استطعت أن تؤلف بين هذه الأجزاء المتناثرة فى إدراكها ، بحيث تدرك منها جشتلطًا صحيحًا يطابق الحقيقة ، إنما سوف تدرك -على أقصى حد- جشتلطًا عبارة عن عمارة مختلفة عن حقيقتها ، ومشوهة إلى حد بعيد .

ولو تخيلنا إنسانًا معصوب العينين وممتطيًا لشىء يأتمر بأمره فيطير ويجول به حيث يريد، واستخدم يده فى لمس أجزاء هذه العمارة من أسفلها إلى أعلاها ومن يمينها إلى يسارها ، ومن أمامها إلى خلفها، فإن إدراكه لها على أنها عمارة ذات أبعاد معينة سوف يكون مشوهًا، وبعيداً بدرجة كبيرة عن الحقيقة .. ولعل هذا هو السبب فى أن الفنون التشكيلية تعتبر الجانب الوحيد من الفنون الذى يفشل فيه المكفوفون ، بعكس بقية الجوانب الفنية الأخرى ، كالأدب والموسيقى .

٦- الإدراك البصرى يمتاز على غيره من بقية الإدراكات بأنه يتم بسرعة فائقة وبجهد قليل من جانب الشخص ؛ فالإدراك اللمسى أو التذوقى أو السمعى يتطلب وقتًا أطول من الإدراك البصرى ، وجهداً أكثر يبذل من جانب القائم بعملية الإدراك : والمثال السابق فى البند (٥) يوضح ذلك بجلاء .

٧- يحتل الإدراك البصرى ، دون غيره من أنواع الإدراكات الحسية ، المكانة الأكبر والأهم فى إدراك المبصر لعالمه الخارجى. فلو قارنا بين نسبة مدركاتنا البصرية وبين نسبة أى نوع آخر من المدركات الحسية لوجدنا الفارق شاسعًا ، حتى إننا فى يقظتنا لانكاد نكف عن استثمار أبصارنا لإدراك العالم المحيط بنا ، اللّهم إلا فى اللحظات القليلة جداً جداً التى نتعمد فيها ذلك ؛ مثل اللحظات التى تسبق النوم، وحتى أثناء ذلك تتزاحم على مخيلتنا صور بصرية هلوسية على نحو ما يحدث فى التخييلات أو الأحلام .

خلاصة القول إذن ، أن الإدراك البصرى يعتبر أكفأ وأوضح وأيسر وسيد أنواع الإدراكات جميعًا وأكثرها مرونة . وأغلب الظن أن هذا هو السبب الذى يجعل الحلم يلجأ إلى التصوير البصرى لأفكاره .

هدف البحث :

إذا كان الأمر كذلك بالنسبة لأحلام المبصرين من حيث إن الإدراك البصرى يأخذ مكان الصدارة فى إدراك المحتوى الظاهر ، فكيف يكون الأمر بالنسبة لأحلام المكفوفين ؟ هذا هو السؤال الذى نحاول الإجابة عنه فى هذا البحث .

عينة البحث :

ينبغى أن نذكر أن هناك ما يعرف بكف البصر الكلى، وهو الذى لاتكون فيه لدى المكفوف أية قدرة على الإبصار ، وما يعرف بكف البصر الجزئى ، وفيه تكون لدى المكفوف قدرة على الإبصار ، لكنها ضئيلة إلى حد كبير ؛ إذ لايكاد يبصر أمامه إلا لبضعة أمتار، كما تكون الرؤية غير واضحة .

ولما كان المصابون بالكف الجزئى لديهم درجة إبصار -إلا أنها ضئيلة نسبيًا- فإنهم يخرجون عن دائرة هدف البحث : إذ يعتبرون امتداداً للمبصرين، لكن بدرجة أضعف . ومن حديثى مع بعضهم ، تبين أنهم يرون صوراً بصرية فى أحلامهم كغيرهم من المبصرين ، بحيث

لاتختلف كيفية إدراك المحتوى الظاهر لأحلامهم عنها لدى المبصرين . وهكذا، يتبقى أمامنا كف البصر الكلى. وهذا بدوره يمكن أن نقسمه على أساس هدف هذا البحث -فقط- إلى فئتين:

١- كف بصر كلى منذ الطفولة المبكرة جداً؛ أى قبل الشهور الستة الأولى من العمر بحيث نضمن -إلى درجة كبيرة- أن المكفوف لايتذكر الصور البصرية أو الألوان .

٢- كف بصر كلى متأخر نسبيًا ، بحيث نضمن أن يكون المكفوف متذكراً جيداً للصور البصرية والألوان .

وكف البصر الكلى ، سواء منه ما يندرج فى الفئة الأولى أو الثانية ، يعتبر نادراً نسبيًا فى المقارنة بكف البصر الجزئى .

وتتكون عينة هذا البحث من ثلاث حالات ؛ كف بصر كلى مبكر جداً (اثنين من الذكور وأنثى واحدة)، ومن حالتين من كف البصر الكلى المتأخر (من الذكور)، وكانت حالات كف البصر الكلى المبكر الثلاث مصرية ، أما إحدى حالات الكف المتأخرة فكانت سودانية والثانية فلسطينية (من الضفة الغربية) .

مادة البحث :

أما مادة البحث فكانت عبارة عن أحلام رواها لى أفراد عينة البحث، حيث قمت بمقابلة، أو أكثر لكل منهم على حدة ، طلبت منهم فيها أن يذكروا لى أهم أحلامهم وأوضحها . وكنت أستتبع كل حلم يروى لى- بعد تسجيله كتابة- ببعض الاستفسارات عنه، وعن كيفية إدراك محتواه الظاهر، وعن المتداعيات التى يستثيرها ، والتى رأيت أن تفيد فى تحقيق هدف هذا البحث .

وبطبيعة الحال، فإن ظروف البحث الخاصة من ضيق وقت المقابلات وصعوبة تكرارها ، مع تطوع أفراد العينة وعدم انتظارهم لفائدة تعود عليهم من سرد أحلامهم ومتداعياتها (على عكس الموقف فى جلسات العلاج بالتحليل النفسى) كل ذلك لم يمكن الباحث من الحصول على المتداعيات الكافية عن الأحلام التى اتخذت مادة لهذا البحث . كما لايخفى على فطنة القارئ أن إمكانية التعرف على أشخاص الحالمين قيد الباحث بعض الشىء ، سواء فى تسجيل المتداعيات كاملة أو التعليق بحرية على هذه الأحلام .

أولاً - حالات كف البصر الكلى المبكر

الحالة الأولى

بيانات عامة :

الإبصار : كف كلّى منذ الشهور الأولى للميلاد .

المؤهل : ليسانس آداب (لغة عربية) .

النوع : ذكر .

السن : ٢٦ سنة تقريبًا .

العمل : موجه ثقافى بوزارة الشؤون الاجتماعية .

الجنسية : مصرى .

الحلم الأول :

شفت نفسى زى ما أكون موجود فى القصر كده (قصر النور وهو مركز لتوجيه وتدريب المكفوفين) . وبعدين لقيت نفسى دخلت السويتش : وبعدين سلمت على واحدة، وبعدين افتكرت انى عرفتها . وبعدين أخذتها وسحبتها وطلعنا وقفنا كده عند الأودة بتاعتنا دى بتاع محو الأمية (حجرة بالقصر يدرب فيها ويعلم المكفوفون على كتابة وقراءة البرايل) واحنا بنتكلم ازيك أو عاملة إيه ؟ وكده فطلعت مش هى اللى كنت بافتكرها . من صوتها طبعًا عرفت ان مش هى اللى أنا واخد عليها وقاصدها . فسلمنا على بعض ومشينا وانتيهنا على كده طبعًا زعلت لأنها ما طلعتشى الإنسانة اللى أنا عاوزها .

س١ : ايش عرفك ان اللى دخلته كان السويتش ؟

جـ١ : المكان : كل تهيئات المكان ، نفس الدوشة بتاع المنطقة اللى على باب القصر . والطلبة اللى بيتدربوا على السويتش ، والباب اللى مفتوح مش قوى، يعنى نص فتحة ، واللى ما بيجى الواحد يفتحه يزيق ، يعنى نفس الشغلانة . والأودة طبعًا أضيق من أى أودة ثانية . ونفس ترتيب الأشياء اللى محطوطة فيها مش زى ترتيب الأودة التانية مثلاً .

س٢ : يا ترى الحلم ده بيفكرك بإيه ؟

جـ٢ : الواحد لما يفكر فى حد ، وبعدين بيفكر فيه، يبقى عايز يلاقيه فى أى مكان يروحه. فلما أمسك إيديه وبعدين ما يطلعش هوه يبقى حاجة تضايق.

تعليق :

واضح فى هذا الحلم أن الحالم اعتمد -أساسًا- فى إدراكاته على حاستى اللمس والسمع، وعلى قدرته على الإدراك المكانى، أو ما يسمى بالتوجه المكانى Spatial Orientation ، فاللمس قد ساهم فى تحديد إدراكه أنه قد سلم على إنسان، وأن الذى دخله هو حجرة السويتش ببابها المفتوح نصف فتحة، وضيق الحجرة، ونفس ترتيب الأشياء الموضوعة فيها .. كما أن السمع -أيضًا- قد ساهم فى تحديد إدراكه أنه فى حجرة السويتش، بما يرتبط بها من «دوشة» ومن باب «يزيق» عند فتحه . كما أن السمع هو الذى يرجع إليه الفضل فى تصحيح إدراكه للشخص الذى سلَّم عليه . فبينما ظل يدرك أن هذا الشخص هو الإنسان «اللى واخد عليها وقاصدها» أتى صوتها ليفضح الحقيقة، ويصحِّح إدراكه، فيتبين أن هذا الشخص لم يكن من يقصده . إذن ، فقد خدعته حاسة اللمس، بينما صحَّحت حاسة السمع إدراكه ، أما قدرته على الإدراك المكانى (أو التوجه المكانى) فهى التى أرشدته إلى حجرة غرفة السويتش كما أنها عرَّفته عليها فهى «أضيق من أى أودة ثانية. ونفس ترتيب الأشياء اللى فيها مش زى ترتيب الأودة الثانية»، كما أنها أرشدته -أيضًا- إلى طريق الخروج من غرفة السويتش والوقوف عند الأودة بتاع محو الأمية ، وجعلته يدرك ذلك .

هذا ، ويمكن اعتبار التوجه المكانى حاسة مركبة غامضة ، تجعل الشخص يدرك المكان الذى يوجد فيه ، وخصائصه ، ومنافذه ، والطرق المؤدية إليه، أو الموصلة منه إلى أماكن أخرى، وكيفيتها وخصائصها . هذا وتلعب ذاكرة الفرد وحواسه المختلفة دوراً أساسيًا فى تحديد قدرته على التوجه المكانى، وتتجلى هذه القدرة لدى المبصر فى إمكانه الانتقال من غرفة إلى أخرى فى منزله أثناء الإظلام التام .

الحلم الثانى :

حسيت فى الحلم ان بقية قزاز درفة الشباك اللى كان سبق انكسر من أودتى وقع، لكن حاجة غريبة أنى ما سمعتش للقزاز صوت . وبعدين بدأت أنا ألم القزاز ، برضه فجأة لقيت والدتى معايا وأنا فى الحقيقة قاعد لوحدى فلقيتها موجودة ، وبعدين دخلت الست اللى هى مأجرة لى، اللى أنا ساكن عندها ، وهى هتبتدى تتكلم عن كسر القزاز ، يعنى مثلاً الباقى انكسر وحاجة زى كده، فأمى بأه بدأت تلم القزاز ، وبدأت ترد عليها وقالت لها : أنتم مش مفروض أن تعملوا حسابكم أن واحد كفيف هو اللى ساكن تؤجروا له حاجة متصلحة ما تعوروش . هنا أنا بأه ما تكلمتش خالص والست ما تكلمتش . وخلاص كده رمينا القزاز وسكتنا، وانتهى الحلم كده ، وما اتضحتش بعد كده إذا كانت أمى تنتها معايا أو صلحنا القزاز .

س١ : ايش عرّفك أن القزاز وقع ؟

جـ١ : لقيت حتت قزاز كبيرة على الأرض، وبعدين بافتح الدرفة فمالقيتش القزاز اللى كان فيها . لكن ما وقعشى وأنا مش موجود. وقع وأنا موجود برضه لكن الغريبة انى ما سمعتلوش صوت .

س٢ : إيه عرّفك إن أمك هى اللى موجودة معاك ؟

جـ٢ صوتها ، وهى ماقليتليش ازيك ويتاع، يعنى زى ما تكون موجودة طبيعى، وقالت لى أوعى انت بس لاحسن تعور نفسك، وقعدت هى تلم القزاز .

س٣ : ايش عرّفك ان صاحبة البيت هى اللى دخلت :

جـ٣ : باب الأودة اتفتح وصوتها معروف لى، واضح يعنى. يعنى صوتها هى .

س٤ : يا ترى الحلم ده يفكرك بأيه ؟

جـ٤ : أصل البيت عندنا اللى هو أنا ساكن فيه يعنى مليان مشاكل كده، تقريبًا زى ما تقول أن هم بيزعقوا على طول، دا من الخوف ليزعقوا لى مرة لأن مأجر من الباطن ، لاعقد ولابتاع . وبعدين كونى قاعد لواحدى فإحساسى بلزوم وجود أمى معايا هو اللى خلاّنى أتصور أن أمى موجودة معايا فى الموقف ده بالذات وخصوصًا أنها قالت لى أنها هاتجينى قريب (فى الواقع) .

س٥ : طيب القزاز اللى انكسر يفكرك بإيه ؟

جـ٥ : يعنى بيتهيأ لى أنى واحد متوقع أن يختلف مع الناس اللى هو ساكن وياهم وفى نفس الوقت يحتاج أنه ما يكونش لواحده . يعنى القزاز مش إلا مسألة سطحية يمكن كانت تكون أى حاجة . الحقيقة الشباك اللى انكسر منه القزاز ده كان مشروخ أصلاً وبعدين جيت أنا مرة بفتح الدرفة راح واقع من عند الشرخ، يعنى تقريبًا وقعت نص الدرفة كده، وبدأت أنا- فى الحقيقة- لميت القزاز اللى اتنطور فى الأودة ، فمالمتوش كله، دخلت بأه صاحبة البيت- فى الحقيقة- وجابت هى المقشة ولمت القزاز وما قالتش حاجة . بعديها بأه بييجى شهر، لما قلت لها هادور على سكن فقالت لى طيب مفيش مانع بس الفكرة أن قزاز الشباك انكسر وعايزين نصلحه ، فقلت لها : لا هو كان مشروخ من الأول، وفى أى قفلة أو فتحة كان ممكن ينكسر منك أو منى ، ففى الحلم حلمت بأه أن نص القزاز اللى كان فاضل هو اللى وقع .

س٦ : والدك عايش ووالدتك ؟

جـ٦ : أيوه الحمد لله الاثنين موجودين .

تعليق :

فى هذا الحلم يتضح اعتماد الحالم على نفس الحاستين اللتين اعتمد عليهما فى إدراك محتوى الحلم السابق ؛ وهما حاستا السمع واللمس . فلقد أدرك كسر الزجاج عن طريق ملامسته لقطع الزجاج فى أرض الحجرة ، وعدم ملامسته للزجاج الذى كان موجوداً بالشباك أثناء قيامه بفتح الشباك . كما أنه أدرك أمه وصاحبة البيت عن طريق سماعه لصوت كلٍ منهما . ولو قارنا بين أهمية كلٍ من حاستى اللمس والسمع فى إدراك محتوى الحلم لتبين لنا تعادلهما تقريبًا ، إلا أن دهشة الحالم ، التى عبر عنها تلقائيًا نتيجة إحساسه بكسر الزجاج دون أن يسمع له صوتًا ، توحى لنا بأنه كان يتوقع الإحساس بكسر الزجاج عن طريق صوت كسره أساسًا ، بحيث تصبح لحاسة السمع هنا الدور الأساسى فى إدراك كسر الزجاج . وأغلب الظن أن لاختفاء صوت الزجاج فى هذا الحلم دلالة تعمدها الحلم، وأن هذا قلب لما كان ينبغى أن يكون عليه الموقف حقيقة من إحساس بكسر الزجاج عن طريق صوت الكسر نفسه، بدليل مبادرة الحالم التلقائية إلى تسجيل دهشته لذلك. وهذا يؤكد -أيضًا- سيادة الدور الذى يقوم به السمع فى إدراك الكفيف لمحتوى الحلم عامة .

الحلم الثالث :

أنا واقف أنا ومشرف معانا شوية عيال من اللى بترعاهم المؤسسة . فالمشرف طلع ولد اللى هو كان متهم فى سرقة جنيه، وحاول يقرره ، فالولد ما قالش إن هو سرق الجنيه وخباه فين، فالمشرف شاور له يطلع بره، يعنى خلاص اطلع بره . بعته يملا حاجة تقريبًا ، فيه ولد ملازمنى على طول، يعنى بأخليه أنا ماشى معايا على طول . قلت له روح وراه بحيث ما تخليهش يشوفك ، وبص شوفه هايبص على أماكن إيه وهو ماشى وبعدين تعالى قول لى. راح فعلاً الولد ورجع قال إن هو بص تحت السلم بتاع المطبخ وعند سلم الإدارة ، وكده فقلت له طيب روح فى الأماكن دى من غير ما تخليه يشوفك . هو الولد اللى أنا بقول له روح دور ده لسه ما مشيش ، فأنا قلت له : استنى أنا جاى معاك . وبعدين رحت معاه . دور هو وأنا واقف معاه وهو بيدور نبيقول لى : مش لاقى حاجة ، فأنا بنفسى اللى رحت تحت السلم وشلت حاجة كده كانت مغطية زبالة محطوطة تحت السلم، والحاجة اللى كانت مغطية الزبالة دى زى ما تقول باب عشة فراخ فيه السلك وحاجات زى كده، وقلت للولد بص هنا فبص فعلاً لقى الجنيه .

س١ : ايش عرّفك انك واقف مع مشرف المؤسسة ؟

جـ١ : الراجل ده دايمًا باروح أقعد معاه فى الأودة ، وباعتبارى الرائد الدينى فبنحل مع بعض مشاكل العيال وحاجات زى كده . فأودته صورتها فى دماغى معروفة لما بأدخلها . وصوته هو، وبرضه لمة عيال معينين فى الأودة كده . ده اللى خلانى أحس بأن ده فلان المشرف.

س٢ : ايش عرّفك بأنه طلع الولد اللى متهم فى سرقة الجنيه ؟

جـ٢ هو ماشورلوش ، لكنه قال له اطلع يابنى بره، املأ الحاجة دى ماء، والولد هو النبتشى بتاع الأودة بتاعته .

س٣ : ايش عرّفك إن الحتة اللى دورت فيها كانت تحت السلم ؟

جـ٣ : دا معروف من أنى متعود عليه ودايس المكان . وبعدين الولد معايا المبصر اللى هو ملازمنى ده قال لى تعال نشوف سلم المطبخ .

س٤ : يا ترى الحلم ده يفكرك بإيه ؟

جـ٤ : من انعكاسات الشغل ومشاكله اللى الواحد يبقى عايش فيها طوال اليوم. وبعدين إحساس المشرفين أنى أن قريب جداً من الأولاد، فده بيخلينى نحط عندى هدف معين هو أنى أنا الوحيد اللى أقدر أخلى الولد يعترف ويجيب الجنيه، عشان كده أول ما لقيت الجنيه، خلاص الحلم خلص، فهو هدفى كان إن الواحد باعتباره مسئول عن الأخلاق وحاجة زى كده، يبقى السرقة أنا اللى أبطلها ، وكده يعنى.

س٥ : هو فيه فى الحقيقة سرقة جنيه دى الوقتى عندكم فى المؤسسة ؟

جـ٥ : أيوه : حصلت قبل الحلم ده بأسبوع أو كده . الحكيمة كانت سابت الشنطة بتاعتها فى العيادة ، وبعدين دخل الولد ده وولد تانى، فاتهمتهم فى أن الجنيه اتسرق منها . وحاولوا كتير يقرروهم وكده ، وما جابوش نتيجة يعنى والجنيه ماظهرش .

س٦ : هل هم فى واقع الأمر طلبوا مساعدتك ؟

جـ٦ : لا لكن أنا من نفسى حسيت بمسئوليتى كرائد دينى فى المؤسسة ، وحاولت طبعًا انى أعرف من العيال فما جبتش نتيجة طبعًا .

س٧ : هل دورت بالطريقة اللى بانت لك فى الحلم ؟

جـ٧ : لأ .

تعليق :

واضح من هذا الحلم أن الحالم اعتمد فى إدراكه لمحتوى الحلم على ثلاث حواس هى السمع واللمس والإبصار، بالإضافة إلى قدرته على التوجه المكانى. فالسمع قد ساهم فى إدراكه أن الذى يقف معه هو مشرف المؤسسة ، كما أنه قد جعله يدرك أن المشرف «طلع الولد اللى متهم فى سرقة الجنيه بره» أما اللمس فقد جعله يدرك أن «الزبالة كانت مغطاة بباب عشة فراخ» عن طريق ما يميز الباب من «سلك وحاجات زى كده» لمسها الحالم. أما الإبصار، فقد استعاره الحالم (حيث إنه لايملكه) من الشخص المبصر الذى يرافقه دائمًا فى المؤسسة التى يعمل بها . فنظر الشخص المبصر -كما طلب منه الحالم- إلى المكان الذى حدده له فوجد الجنيه . ومن الجدير بالذكر أن هذا الاستخدام لإبصار الغير فى إدراك ما بالعالم الخارجى، والذى بدا فى الحلم واضحًا ، ما هو إلا صورة -طبق الأصل- لما يحدث مع المكفوفين فى حياة اليقظة، حيث يلجؤون إلى المبصرين للاستعانة بهم على دقة الإدراك لما يحيط بهم، كما أن إبصار الغير هنا لايؤدى إلى إدراك بصرى بالمعنى الحرفى لدى الحالم ؛ أى بمعنى تأثر مراكز الإبصار لديه من انفعال عضو الإبصار ثم تفسير هذا التأثير وإضفاء معنى عليه متمثلاً فى معرفة الجنيه .

على أن هذه النقطة فى الحلم تستثير شيئًا من التساؤل عن الدافع الذى أجبر الحالم على الاستعانة فى تحقيق هدفه فى العثور على الجنيه بإبصار المبصر المرافق؛ إذ كان يمكن للحالم أن يعثر على الجنيه عن طريق اللمس (كأن يمد يده فى المكان الذى به الجنيه صدفة، فتقع يده على الجنيه مباشرة) . وقد يكون دافع الحالم إلى استخدام إبصار الغير هنا التعبير عن إحساسه القوى بأهمية الإبصار ، وتمنيه لو كان مبصراً .

أما قدرته على التوجيه المكانى، فقد جعله يدرك «الحتة اللى دور فيها كانت تحت السلم» فهذا معروف لديه من تعوده عليه وكونه «دايس المكان». كما أنه -مستعينًا بهذه القدرة- ذهب بنفسه إلى تحت السلم ، ورفع غطاءً كان على «الزبالة» وطلب من الولد المرافق له أن ينظر فيما كان تحت الغطاء .

الحالة الثانية

بيانات عامة :

الإبصار : كف بصر كلّى منذ الشهور الأولى للميلاد .

المؤهل : راسب ثانوية عامة .

النوع : ذكر .

السنة : ٢٤ سنة تقريبًا .

العمل : يعمل فى مطبعة .

الجنسية : مصرى .

الحلم الرابع :

حلمت أنى نائم فى وسط البيت اللى فى البلد. وأن فيه مارد فوقى برجليه رجلين الناحية دى، ورجلين الناحية دى . له أربع رجلين . فأنا ما اعرفنشى إنه مارد إلا بعد ما حسست على رجليه لغاية فوق، فلقيتها بتعلى لفوق ، وكنت طلعت عليها شوية (بإيديه طبعًا) فخفت ، وقمت صاحى.

س١ : انت عرفت ازاى إن ده مارد ؟

جـ١ : لما مسكت رجليه لقيتها بتطول . وده كان كلام الناس على العفاريت . يعنى كونت موضوع من كلام الناس المحيطين بى.

س٢ : فيه حاجة ثانية حسستك ان ده مارد ؟

جـ٢ : أيوه ، سمعت له صوت كان غريب على ودانى . صوت نهيق زى الحمار، لكن مختلف عنه، وإلا كانت أدركت أنه حمار .

س٣ : فيه حاجة ثانية خلتك تحس أنه مارد ؟

جـ٣ : لأ ، ما اعتقدش .

تعليق :

هذا حلم - على عكس الأحلام الثلاثة للحالة السابقة ، والتى كانت حديثة لايزيد تاريخ رؤيتها عن شهر من روايتها للباحث - رآه الراوى قبل حوالى خمس عشرة سنة ، حيث مهّد له

بأنه حلم أثر فيه منذ الصغر ، وظل عالقًا بذاكرته حتى الآن. كما ذكر فى متداعياته عنه أن أهله كانوا يتحدثون أمامه فى تلك الليلة عن العفاريت ونوادرهم معها، وفكرتهم عنها .

وواضح من هذا الحلم أن الحالم اعتمد -فى إدراكه لمحتواه- على حاستى اللمس والسمع ، حيث تحسّس رجليه بيديه فوجدها مرتفعة ، وترتفع باستمرار دون أن يبلغ نهايتها (وهذه خاصية للعفريت كما وصفها الآخرون أمامه) . كما أن الصوت الذى سمعه «والذى يشبه نهيق الحمير، لكنه مختلف عنه» أكد له أن الذى فوقه ما هو إلا مارد .

الحلم الخامس :

حلمت انى ماشى وبعدين صدمتنى عربية إسعاف . وطبعًا حسيت ان الناس اتلمّت حواليه. وكان فيه حواليه ضجة كبيرة جداً . وبعدين قمت كده لقيت ناس بيخبطوا على ظهرى، يعنى تقريبًا بيجسوا جسمى كده، وفضل السواق يعنفنى بكلام كده كان تقريبًا بيشتم، وبيكلمنى كلام فيه غيظ كده .

س١ : ايش عرفك انها عربية اسعاف ؟

جـ١ : أولاً : ساعة ما ضربتنى كانت سريعة، يعنى ضربة واحدة . وفيه جرس كان بيضرب مع صوت العربية اللى جاية. ولمست العجل اللى كان فيها لقيته كوتش، وقت ما وقعت والعربية جت فوقى فإيدى جت فى عجلة من العجل فلقيته كوتش ناعم الملمس، بس ، قمت مفزوع ، لأن طبعًا اتعورت زى أى حد ما بيتعور .

س٢ : ايش عرفك انها كانت سريعة ؟

جـ٢ : من دفعة الخبطة لأنى لما انخبطت جامد وقعت . فلو حاجة كانت ماشية ببطء ما كانتش تخبطنى جامد .

س٣ : وايش عرفك ان فيه حواليك ضجة كبيرة ؟

جـ٣ : الصوت . كل اعتمادى كان على ودنى، لأنى طبعًا ما باشوفش فى أحلامى .

س٤ : كان ناس بيخبطوا على ظهرك وإلا واحد بس ؟

جـ٤ : لا ، أنا ماكنتش فى حالة مدرك فيها، يعنى ممكن يكون واحد أو مجموعة .

س٥ : ايش عرفك أن السواق كان متغاظ ؟

جـ٥ : لأنه الوحيد اللى كان بيزعق ومتنرفز والناس كلها زعلانة كده، فهو اللى كان بيقول هاتودينى فى داهية ، هاتضيعنى. فما فيش حد ممكن يقول الكلام ده إلا إذا كان السواق .

تعليق :

هذا الحلم -أيضًا- رآه الحالم قبل حوالى اثنتى عشرة سنة . وفى متداعياته عنه ذكر أنه فى يوم سابق على الحلم وقريب منه، كان يسير مع والدته فى ميدان الحلمية، فوجد تجمهراً من الناس حول حادثة، ووصلت عربة إسعاف . ووقف هو ووالدته مع الناس. وكانت أمه تتكلم عن منظر الدم، فاستشاط غضبًا من وصفها للمنظر، وعدم إمكانيته رؤيته .

ونلاحظ أن الحالم اعتمد -فى إدراكه لمحتوى هذا الحلم- على ثلاثة أنواع من الأحاسيس، هى : السمع واللمس والضغط ، فحاسة السمع ساهمت فى إدراكه أن العربة التى صدمته كانت عربة إسعاف عن طريق جرسها ، وفى إدراكه لتجمع الناس حوله عن طريق أصواتهم وضجيجهم ، وفى إدراكه لغيظ السائق وتعنيفه إياه عن طريق سماعه لشتائم السائق، وتوبيخاته المملوءة غيظًا، وحاسة اللمس أسهمت فى إدراكه أن أناسًا «تجس» جسمه ، وأن العربة التى صدمته كانت سيارة (وليست عربة كارو مثلاً) إذ أن لمسة العجلة جعلته يدرك أنها كوتش . أما إسهام الإحساس بالضغط فى الإدراك ، فقد تمثل فى إدراكه أن العربة كانت مسرعة، وذلك من إحساسه بشدة الصدمة ، فلو أنها كانت بطيئة لكانت الصدمة خفيفة ، كما تمثل -أيضًا- إسهام الإحساس بالضغط فى إدراك الحالم أن «ناس بيخبطوا على ظهره» .

على أنه مما يستحق الاهتمام هنا هو أن حاسة السمع كانت لها الغلبة فى سيادتها على حاسة اللمس فى نصيبها فيما يتعلق بالإدراك فى هذا الحلم. ولعلّ تقرير الحالم -صراحة- فى عبارته «كل اعتمادى كان على ودانى، طبعًا ماباشوفش فى أحلامى» ما يؤيد نتيجة هذه المقارنة ، كما أن إقران الحالم للسمع بالإبصار، ووصفه إياه كبديل ، يدلّل على أن حاسة السمع للكفيف تقوم مقام حاسة الإبصار عند المبصر من حيث أهميتها وجسامة دورها فى عملية الإدراك .

الحلم السادس :

حلمت انى أنا نازل الجامع فى وقت الفجر كده ورحت الميضة علشان اتوضأ فسمعت صوت حد ماشى حافى، فكانت مفاجأة لى لما مشيت علشان أشوف الشىء اللى ماشى فكانت مفاجأة لى لأنى لقيته ربنا، فخذنى من إيدى ووصلنى لغاية الحنفية . وطبطب علىّ كده بحنان . اتوضيت وبعد ما اتوضيت سألنى : مش عاوز حاجة ؟ فقلت له إنى عاوز أخش الجنة . فقال : لازم تصلى، فأنا صليت الصبح ، وخرجت من الجامع، فلقيت حد بيضحك على، أو بيضحك وقتها ، لأن ماكانش فيه حد إلا أنا ، فطبعًا بيضحك على، فقمت مفزوع، طبعًا كان الشيطان .

س١ : ايش عرّفك أن الوقت كان الفجر ؟

جـ١ : كان الكل نايم .

س٢ : ازاى تعرف؟

جـ٢ : من الهدوء . مافيش صوت ، ما فيش حركة .

س٣ : فيه حاجة ثانية خلتك تعرف ان الوقت كان الفجر ؟

جـ٣ : شكل الجو. إيه اللى يميز الفجر ؟ الديكة، الهدوء ، مثلاً دى الوقتى واحنا قاعدين (وكان الوقت ظهراً) فيه عصافير بتزقزق وحاجات كده .

س٤ : ايش عرّفك ان ده ربنا ؟

جـ٤ : كان حاجة كبيرة جداً . يعنى كل شىء كبير . رجليه عريضة قوى بحيث إنها بتعمل صوت كبير فى المشى.

س٥ : حسست عليها ؟

جـ٥ : لا . صوت المشية نفسها صوت كبير ، يعنى أنت تقدر تفرق بين الطفل الصغير والراجل الكبير فى صوت مشيته . وبعدين كونه طبطب على فى حنان ومشانى برفق كده . يعنى خدنى وصلنى للحنفية ، ما خلانيش أطس فى حاجة . وخوفى منه وهو بيطبطب على خلانى أحس أن ده ربنا .

س٦ : طيب ايش عرّفك إن فيه حد بيضحك عليك لما خلصت صلاة ؟

جـ٦ : سمعت صوت قوى ، وما كانش فيه حد فى المكان . صوت كان يطاردنى فى أى مكان أمشى فيه لغاية ما خرجت من الجامع .

س٧ : ايش عرّفك ان ده الشيطان ؟

جـ٧ : مافيش حاجة ممكن تضحك على الإنسان إلا الشيطان ، يعنى مين هايضحك ؟ ومين هايبقى موجود ؟ ، وبعدين كانوا قايلين لنا إن المدرسة اللى احنا فيها كانت تقريبًا مستشفى. فده كان له تأثير فى نفس الواحد منا . وفى الوقت ده كنت فى المدرسة ورايح أصلى فى جامع المدرسة . فكان دايمًا الإنسان ينتابه خوف شديد من أى حاجة كان بيعملها .

تعليق :

فى تمهيده ومتداعياته لهذا الحلم ، ذكر الحالم أنه رآه فى سن الثانية عشرة تقريبًا عندما بدأ يتعلّم الصلاة ويصلى، ويعرف الجنة والنار. ووقتها كان فى مدرسة داخلية بها المسجد الذى ظهر فى الحلم .

ومن الواضح أن الحالم اعتمد -فى إدراكاته لمحتوى هذا الحلم- على حاسة السمع، وقدرته على الإدراك (أو التوجه) المكانى، وعلى الإحساس بالضغط . وكانت السيادة لحاسة السمع بلا منازع، فقد أسهمت فى إدراكه لوقت الفجر (حيث الهدوء وعدم الحركة)، وفى إدراكه للإله، حيث سماعه لصوت «حد ماشى حافى» وسؤاله له «مش عاوز حاجة ؟» وقوله له لازم تصلى»، وفى إدراكه -أيضًا- للشيطان ، حيث سمع ضحكة، كما سمع صوتًا قويًا ظل يطارده حتى خرج من الجامع .

ومن الجدير بالذكر أن السمع استخدم هنا للقيام بوظيفة تكاد تكون -أساسًا- من وظائف اللمس للكفيف، كبديل لإبصاره المفقود، تلك هى إدراك الحالم للإله على أن «رجليه عريضة قوى» وأنه «كان شىء كبير» من مجرد الصوت الضخم الذى يحدثه فى المشى. ولعل المنطق هنا ليس سليمًا على إطلاقه، فإن الكثير من الأشياء ذات الحجم الصغير قد ينتج عنها الصوت الضخم . فالحلم هنا استخدم حاسة السمع بدلاً من حاسة اللمس فى إدراك مفاهيم يفترض أن اللمس أدق فى إدراكها (إذا استبعدنا الإبصار بطبيعة الحال) . وأغلب الظن أننا هنا أمام عملية لتحويل أفكار الحالم إلى صورة سمعية Audile Images كمقابل لعملية تحويل أفكار الحالم لدى المبصرين إلى صورة بصرية Visual Images ، تلك العملية التى سبق أن ذكرنا أنها إحدى العمليات الأساسية فى إخراج أحلام المبصرين وصياغتها . فالحالم هنا عبّر عن قدرة الله وعظمته بقوة الصوت . ولعل تعبير هذا الحلم عن الشيطان بـ «حد بيضحك على، أو بيضحك وقتها» ، دليل آخر واضح على عملية التصوير السمعى التى لجأ إليها الحالم ليترجم الفكرة الشائعة عن أن الشيطان للإنسان ويغويه، ويزين له طريق السوء، فاستعار الحالم الترجمة الدارجة لعمل الشيطان هذا بضحكه على الإنسان، فإذا بالحالم لايرى الشيطان يساومه على ترك الصلاة واتباع المعاصى، بل يسمع -فقط- الضحك العالى للشيطان كتصوير سمعى لهذه الفكرة ، فترجم الموقف من عملية ذهنية حسّية سمعية . ولو صدق استنتاجنا هذا، فإن معنى ضحك الشيطان هنا وفزع الحالم منه لدرجة استيقاظه ، أن الحالم تحدوه رغبة شديدة فى دخول الجنة وأن شرط ذلك- كما أمره الله - هو الصلاة . لكن الشيطان له بالمرصاد ، فهو يخشى أن يغويه عن الصلاة «يضحك عليه» بحيث يفقده أمل دخول الجنة. ومن هنا، فإن خوف الحالم من ضحك الشيطان ليس إلا كناية عن خوفه من غواية الشيطان له .

وفى هذا الحلم نلمس تقرير الحالم وتقديره لأهمية الإبصار -بشكل غير مباشر- فى عبارتيه «خدنى من ايدى ووصلنى لغاية الحنفية» و «مخلانيش أطس فى حاجة».

وهناك ملاحظة تستحق الذكر - وإن بدت هامشية بالنسبة لهدف هذا البحث- وهى أن أحلام هذا المكفوف، والتى رواها للباحث ، كانت كلها أحلامًا مضى عليها سنوات طويلة- على نحو ما ذكرنا- كما كانت -أيضًا- من نوع الأحلام التى نطلق عليها «أحلام الهيلة Anxiety Dreams » أو «الكوابيس Nightmares » وهى الأحلام التى تهزنا، بما تحويه من مشاعر الخوف، والضيق والألم البالغة .

الحالة الثالثة

الإبصار : كف بصر كلى منذ الشهور الأولى للميلاد .

المؤهل : قراءة وكتابة .

النوع : أنثى .

السن : ٢٧ سنة تقريبًا .

العمل : تبحث عن عمل .

الجنسية : مصرية .

الحلم السابع :

حلمت أن بابا مات . وبعدين أنا فى الحلم فى الأول ماعيطش. وبعدين كل اللى كنت باحس بيه وقتها هو ياترى أنا هاعمل إيه فى حياتى بعد كده ؟ يا ترى هاعيش إزاى ؟ هاعمل إيه بعد كده فى حياتى بالنسبة للإقامة ، للحياة ، معيشتى أنا نفسها ؟ وبعدين بصيت لقيت نفسى تلفت وقمت وصحيت . وبعدين لما نمت ثانى حلمت برضه إن هو مات، وفى الوقت ده عيطت كتير، وصحيت مضطربة من النوم. بعدين قلت الحمد لله إن ده كان حلم مش حقيقة .

س١ : ايش عرّفك أن والدك هو اللى مات ؟

جـ١ : الناس كانوا بيقولوا فى الحلم. وبعدين حد بيقول للثانى البقية فى حياتك (فلان- اسم والدها-) مات، وحاجات ذى كده .

س٢ : إيه هى الحواس اللى اعتمدتى عليها فى معرفة إن أبوكى مات ؟

جـ٢ حاسة السمع . وأصل أنه قبل ما أنام كان فيه واحد ميت قبلها فى عمارتنا ، وبعدين حسيت ان مراته ما اتصرفتش كما يجب ، ما فيش مأتم ما فيش استقبال للمدعوين .

س٣ : وبإيه يفكرك الحلم ده ؟

جـ٣ فى الواقع أن بابا عيان . وهو دايمًا كتير بيتكلم عن الموت، وبعدين معاملته لنا ، أو لى أنا شخصيًا بتتحسن، فحسيت أن ده قريب من النهاية . فأنا كتير بأفكر فى الموضوع ده بدون الحلم .

تعليق :

هذا حلم مزدوج، رأته الحالمة فى فترتين من نومها ، فصلت بينهما لحظات من اليقظة، وكان ذلك منذ حوالى أسبوعين من روايته للباحث . ويدور محتواه حول فكرتين، هما : موت الأب ومصيرها بعده. وربما أثر كون الحالة أنثى فى رفع درجة مقاومتها للإفاضة عن تفاصيل أخرى فى الحلم ، بدليل مقاومتها لسرد أحلام أخرى غير هذا الحلم ، بحجة أنها نادراً ما تحلم، وإذا حلمت فنادراً ما يظل الحلم عالقًا بذهنها . وهذا الموقف لم يشجع الباحث على الاستمرار فى استفساراته عن هذا الحلم .

وعلى كل حال ، فإن إدراك الحالة هنا لمحتوى الحلم كان يعتمد -أساسًا- على «حاسة السمع» كنص تعبيرها . «فالناس كانوا بيقولوا فى الحلم» و«حد بيقول للتانى البقية فى حياتك. فلان (اسم والدها) مات وحاجات زى كده». كما أن الحواس الأخرى لم تلعب دوراً ملموسًا فى هذا الحلم، فالدور الأساسى قامت به حاسة السمع فقط .

ثانيًا – حالات كف البصر الكلى المتأخر

الحالة الأولى

الإبصار : كف بصر كلّى منذ حوالى سبع سنوات وثلاثة أشهر .

المؤهل : دبلوم صناعى (بعد الإعدادية العامة بسنة دراسية) .

النوع : ذكر .

السن : ٢٩ سنة تقريبًا .

العمل : كان يعمل براداً قبل الإصابة بكف البصر ، والآن يتدرب على السويتش .

الجنسية : سودانى .

الحلم الثامن :

حلمت أنى تزوجت البنت اللى باحبها وذهبنا للخرطوم . وأول قعدة قعدناها كنا فى المقرن (منطقة بالخرطوم حيث التقاء أو اقتران النيل الأبيض بالنيل الأزرق)، وكنت شايف النيل الأزرق والنيل الأبيض. وكنت -أيضًا- بأنظر للجزيرة توتى (جزيرة وسط النيل بالخرطوم) زى ما كنت زمان بأشوف الحاجات دى على الطبيعة . واللى بأحبها دى مصرية بيضاء ، مش زينا سمراء كده .

س١ : إيش عرّفك ان اللى قاعدة معاك هى اللى بتحبها وحتجوزها ؟

جـ١ : أنا كنت متعلق بيها هنا فى مصر. وفى أثناء الحلم حلمت بأن خلاص الجوازة دى تمت وسافرنا إلى السودان .

س٢ : إيه هى الحواسى اللى خلتك عرفت ان اللى قاعدة معاك هى حبيبتك ؟

جـ٢ نبرات صوتها جاءت فى ودانى كان هى نفسها مش حد تانى .

س٣ : بس نبرات صوتها ؟

جـ٣ : كنت ورتها قبل كده لواحد مبصر فوصفها لى، ، صورتها انطبعت فى ذهنى على طول كأنى مبصر وشايفها .

س٤ : إنت ماشفتهاش أصلاً ؟

جـ٤ : فعلاً لم أرها لأنى تعرفت عليها السنة اللى فاتت بس .

س٥ : ايش عرفك انك قاعد فى المقرن ؟

جـ٥ : لأنى تخيلت انى فى الخرطوم . وأجمل منظر الواحد يراه على الطبيعة هو مقرن النيلين . وهو أجمل منظر فى الخرطوم . فهو المكان الوحيد الذى تعلق فى ذهنى لكى نجلس سويًا وأعرّفها المقرن وجمال الطبيعة وهى مبصرة طبعًا .

س٦ : إيه هى الحواس اللى خلتك عرفت انك قاعد فى المقرن ؟

جـ٦ : أنا راسم منطقة المقرن وواضعها فى ذهنى . وعرفت بأننى جالس فى المقرن لأنى حسّيت بجو لطيف جداً ، وتيار مياه النيل، وتغريد الطيور، وسير العربات الذاهبة إلى أم

درمان أو الآتية للخرطوم . وكنت شايف بعينيه النيل الأزرق، وهو مقترن بالنيل الأبيض . وأيضًا ، كنت أنظر فى تأمل على جزيرة توتى ، وهى فى الضفة الأخرى، الضفة الشرقية ، وكنت أنظر على البواخر النيلية اللى فى النيل. فالحلم ده كان بجد، كأننى مبصر فعلاً .

س٧ : اللى جاءت لك فى الحلم دى بتفكرك بإيه ؟

جـ٧ : كانت تفكرنى بشىء كنت أتمناه قبل ما أكون كفيف، بأنى أتجوز واحدة مصرية .

س٨ : وبإيه كمان ؟

جـ٨ : أنا تعرّفت بيها بطريقة الصدفة فى ميدان العتبة ، كنت ماشى وكنت عاوز أركب تاكسى . فطبعًا عاوز أشوف واحد علشان يوقف لى التاكسى. فمن حسن حظى كانت هى بجوارى ، وسألتنى رايح فين ، فأنا عرفتها على المطرح اللى رايح فيه . وسألتنى عن اسمى وليه جاى مصر فأنا عرفتها ، وبعدين الوقت كان ضيق جداً فأنا أخذت وياها ميعاد آخر. وهى -أيضًا- بتعمل موظفة فى وزارة المالية والاقتصاد فى مصر. وفعلاً فى اليوم التالى انتظرتنى فى ميدان العتبة وتقابلنا .

س٩ : يا ترى إيه علاقتك بها دلوقتى ؟

جـ٩ : هى خطيبتى دلوقتى .

تعليق :

لما كان كف البصر قد أصاب الحالم متأخراً فقط، فإنه لديه خبرة بالصور البصرية Visual Images ، وبالتالى يسهل عليه استدعاءها أو عملها ، طالما أن مركز الإبصار فى المخ لم يصب بسوء ، وإنما الذى أصيب هو عضو الإبصار فقط (العين) . وفى هذه الحالة ، يمكنه أن يرى صوراً بصرية تمامًا كما يراها المبصر فى الحلم . وهذه ظاهرة تماثل ما يعرفه العلم جيداً ويطلق عليه «خداع الميتور» (يوسف مراد : ١٩٦٦، ٦٧)، فالمقطوع اليد يحس أحيانًا بأكال فى أطراف أصابعه، كأنها موجودة فعلاً.

وبالفعل، لعبت حاسة الإبصار دوراً أساسيًا فى إدراكات محتوى هذا الحلم. ولقد لخص هذه الحقيقة فى عبارته «فالحلم ده كان بجد كأننى مبصر فعلاً». وبهذا الخصوص، فإن الدور الذى لعبه الإبصار فى إدراكات محتوى هذا الحلم لايكاد يختلف عن دوره فى إدراكات محتويات أحلام المبصرين . ومما يلفت النظر أن الحالم لم يعتمد، فى إدراكه لخطيبته فى هذا الحلم ، على حاسة السمع فقط (وهى الحاسة التى لعبت الدور الأساسى الثانى فى إدراكات محتوى هذا

الحلم)، كما كنا نتوقع ؛ حيث إنه لم يرها فى حقيقة الأمر، بل أسهمت -أيضًا- حاسة الإبصار فى إدراك الخطيبة، إذ أن الحالم كون عنها صورة بصرية انطبعت فى ذهنه من وصف أحد المبصرين لها. ولقد لخّص هذه الحقيقة فى قوله : «كأنى مبصر وشايفها» .

ونحن هنا إزاء عملية نجدها -أيضًا- فى أحلام المبصرين، وهى ترجمة موضوعات لم تسبق لهم رؤيتها إلى صور بصرية من مجرد سماع وصف لها (كرؤية الأنبياء فى الأحلام) . وهذا يدلّل على مدى سيادة حاسة الإبصار، ودورها فى الإدراكات، بحيث إن هذه الحاسة لايكاد يسقط دورها إلا فى أحلام الحالات، التى لم تسبق لها الخبرة بالإبصار ، أو سبقت لها هذه الخبرة لكن نسيتها ؛ لأنها كانت مبكرة جداً، أو - كما نتوقع- التى سبقت لها هذه الخبرة، لكن تلفت مراكز الإحساس البصرى فى المخ ؛ حتى وإن كان هذا التلف حديثًا ؛ إذ تكف قدرة الإنسان فى هذه الحالة على الإدراك البصرى كله، حتى ولو كانت عيناه سليمتين .

خلاصة القول ، إن عملية التصوير البصرى Visulization (كعملية أساسية من عمليات إخراج الحلم عند المبصرين) قد استطاعت أن تقوم بالدور الأساسى فى هذا الحلم ، بل إنها لم تسمح لحاسة السمع بالانفراد بإدراك الخطيبة، فساهمت فى هذا الإدراك، عن طريق تصويرها بصريًا ، حسب وصف أحد المبصرين لها. أما بقية الحواس وعلى الأخص السمع ، فقد ساهمت -أيضًا- فى إدراكات هذا الحلم ، لكن دور أى منها لم يكن بمثل أهمية دور الإبصار، على الرغم من أن الحالم مكفوف البصر منذ أكثر من سبع سنوات .

الحلم التاسع :

حلمت أن والدى حى وجالس وياية ، واحنا قاعدين كده فى الجنينة بتاعة البيت بتاعنا، وصورته ونفس شكله فى خيالى وفى ذهنى ، مافيش أى تغيير خالص . وكنا جالسين وبنلعب مع بعض طاولة . بس أفتكر بعد كده صحيت على طول .

س١ : ايش عرّفك أن اللى قاعد معاك ده والدك ؟

جـ١ : الشىء الوحيد اللى خلانى أعرف ان هو والدى لأن صورته وشكله فى ذهنى دايمًا . كان والدى لما باكون نايم على السرير بيصحينى ويقول لى بدل ما أنت نايم تعالى نلعب طاولة ونتونس (نتسلى عن طريق الدردشة) لأن كان بيحبنى شديد، وكتير جداً ، علشان كده هو دايمًا فى خيالى وصورته قدامى على طول . ده السبب اللى خلانى عرفت إن ده والدى.

س٢ : يا ترى إيه الحواس اللى ساعدتك فى انك تعرف ان ده والدك ؟

جـ٢ الإنسان لما يكون كفيف بيعتمد كلّى على السمع . لكن أنا كنت فى الحلم كأنى مبصر وشايفه . داللى خلانى عرفت أن هو أبويا، وبعدين شكله زى نفس شكله بالضبط .

س٣ : يا ترى فيه حاجة تانية عرفتك أبوك ؟

جـ٣ : لا ما فيش .

س٤ : الحلم ده بيفكرك بإيه ؟

جـ٤ : بيفكرنى بأه بأيام حلوة قضيتها مع والدى قبل ما يموت سنة ١٩٦٨، كنت أنا ملازمه دايمًا فى البيت، وخارج البيت . ده هو السبب، بس .

تعليق :

رأى الحالم هذا الحلم قبل روايته للباحث بحوالى أسبوع . وفى هذا الحلم- كما فى الحلم السابق تمامًا- تلعب حاسة الإبصار الدور الأساسى فى إدراك محتوى الحلم، بل إن الحالم يبادر -تلقائيًا- إلى إنكار دور السمع فى إدراكات هذا الحلم، مع تقرير دور الإبصار؛ إذ يقول : «الإنسان لما يكون كفيف بيعتمد كلّى على السمع ، لكن أنا كنت فى الحلم كأنى مبصر وشايفه» : وهكذا، نجد أن هذا الحلم يشبه -فى كيفيات إدراكه- أحلام المبصرين تمامًا .

ونلاحظ أن هذا الحلم كسابقه ، يؤكدان لنا أن الإدراك البصرى لايتنازل عن دوره السيادى والأساسى فى إدراكات الحلم، إلا إذا استحال على الحالم إمكانية التصور، أو التصوير البصرى. فبالرغم من أن الحالم مكفوف البصر كفًا تامًا ، إلا أن إمكانياته لاتزال تساعده على التصور والتصوير البصرى ؛ حيث إن مراكز الحس البصرى فى المخ لازالت سليمة ، كما أن خبرته بالمدركات البصرية لازالت حديثة نسبيًا ، ولم تمح بعد من ذاكرته .

الحالة الثانية

الإبصار : كف بصر كلّى منذ حوالى سنتين .

المؤهل : ثانوية تجارية .

النوع : ذكر .

السن : ٢٢,٥ سنة تقريبًا .

العمل : لم يعمل بعد ؛ لأن إصابته كانت قبل ظهور نتيجة مؤهله مباشرة ، ويتدرب بالمركز النموذجى لتوجيه المكفوفين .

الجنسية : فلسطينى من الضفة الغربية (الخليل) .

الحلم العاشر :

كنت واقف فى حته كده ما اعرفش فين بالضبط يعنى، كنت أنا وبابا وجدى فجأة كده لقينا نفسنا وسط جماعة ، ما اعرفش مش فاكر باقول لواحد منهم إيه ، طلع مطواه وضربنى هنا (مشيراً إلى ذراعه الشمال) بضربتين ، وبعدين ضرب بابا فى إيده الشمال كده على طول (مشيراً إلى جزء من الذراع) ، حاجة بتاع عشرة سنتيمتر . فنزل دم لكن ماسلش ، زى بقعت حواليها بس، جرحى وجرحه ، نجأة ، كده لقيتهم مسكوا فى بابا وبيضربوه ، وبعدين كده لقيت نفسى أنا ماشى أنا وواحد طالعين فى طريق كده عالى، وبعد ما حودت ناحية إيدى الشمال مر على شخص راكب حصان ، أنا حسبت حساب إنه يقول لى أقف ويجى لى. وفعلاً استوقفنى ونزل عن الحصان . كلمنى بعض كلام لكن مش فاكره يعنى. وبعدين بالرشاش وأطلق على النار فى بطنى . بطنى بقت تمغص على أثر إطلاق النار . فى الفترة دى لقيت خالى واقف جنبى، وبابا واقف قصاد منى، يعنى تقريبًا على بعد عشرة متر أو أكثر شوية . بس .

س١ : وانت فى الحلم ده كنت حاسس إنك كفيف ؟

جـ١ : لا .

س٢ : مكان الحلم ده كان فين ؟

جـ٢ فى البلد عندنا (يقصد الخليل بالضفة الغربية) .

س٣ : إيه الحواس اللى انت اعتمدت عليها فى معرفة انك مع بابا وجدك ووسط جماعة .

جـ٣ : البصر، العيون .

س٤ : قصدك إنك كنت مبصر فى الحلم ؟

جـ٤ : أيوه .

س٥ : تمامًا يعنى ؟

جـ٥ : تمامًا .

تعليق :

هذا حلم رواه الحالم للباحث بعد حوالى شهر من رؤيته له . ونلمس فيه الدور الأساسى والسائد الذى يلعبه الإدراك البصرى فى إدراكات محتواه، على الرغم من أن الحالم مكفوف البصر تمامًا منذ حوالى سنتين . وهذا هو نفس ما وجدناه فى حلمى المكفوف السابق، ويؤيد ماسبق أن ذهبنا إليه فى تعليقنا على هذين الحلمين .

الحلم الحادى عشر :

شفت نفسى كنت نايم على السرير ، وفجأة صحيت فتحت عينيه بابص كده يظهر كانت عربية بتمر فى الشارع والنور بتاع السيارة قايد ومعكوس على السقف مع وجود خيال القفص الحديدى بتاع الشباك على السقف . فأنا استغربت كده وقلت الحمدلله آدى أنا بشوف . فعلى طول قمت من السرير ووقفت على الشباك . ما اعرفش الفصل كان شتا أو صيف ، لكن شمس مافيش ، وكده زى مغيمة أو ضباب أو حاجة زى كده ، وشفت واحد باعرفه اسمه عبد الرحمن ، فقلت أقول له علشان يقول لأهلى إنى أنا بقيت أشوف، وبعدين قلت لا بلاش ، لما أروح أنا أقول لهم . ونزلت على الشباك شفت قصادى واحد باعرفه وأنا مبصر اسمه رشاد، ومعه شخص ثانى اسمه حسين عرفته بعد فقد بصرى . فكنت عاوز أنده لهم علشان أقول لهم إنى أنا بقيت أشوف . فجأة لقيت نفسى وقعت فى ركن الأودة، وأصبت بالذهول ، يعنى بقيت أترعش، وحاجات زى كده وبعدها صحيت من النوم على أثر الخضة دى .

س١ : تقدر تقول لى الحواس اللى اعتمدت عليها فى هذا الحلم ومعرفة اللى فيه .

جـ١ : برضه البصر، العيون .

س٢ : إيه اللى عرّفك أن اللى كان مع رشاد هو حسين ؟

جـ٢ : أنا لما أقابل شخص بعد ما فقدت بصرى باتخيله فى مخيلتى، يعنى أرسم له هيكل خاص أو خلقة خاصة. طبيعى الشخص ده اتخيلته فى مخيلتى . ولما كنت أمشى معاه عرفته إن هو قصير ونحيف ، من مشى معاه عرفته أنه قصير ونحيف . فلما شفته فى الحلم بعينه شفته إنه قصير ونحيف وحسب الخلقة اللى رسمتها مخيلتى له.

س٣ : تقدر توصف لى الخلقة اللى رسمتها فى خيالك عنه زى ما تكون بتوصف واحد تعرفه من أيام ما كانت مبصر .

جـ٣ : عينيه صغيرة (ضيقة) (س: اعتراض : ومنين عرفت كده ؟ جـ : ممكن يكون لصغر حجمه)، شعره خروبى كده عسلى (س: اعتراض : عرفت ازاى ان شعره خروبى ؟ جـ : ما أقدرش أعرف لها تفسير لكن أنا كده متخيله يعنى) أبيض الخلقة (س: اعتراض ايش عرَّفك أنه أبيض ؟ جـ: عشان الصفة السايدة عندنا البياض) .

س٤ : إيه تانى ؟

جـ٤ : ما اعتقدش ، بس .

س٥ : مش ممكن تكون الناس وصفته لك ؟

جـ٥ : لا ، ما حدش وصفه لى . أنا طبيعى أى شخص باتخيله فى مخيلتى، على أساس بارتاح نفسيًا ، وما أشعرش أنى أنا كفيف يعنى.

س٦ : يا ترى إيه خلاك تحلم الحلم ده تفتكر ؟

جـ٦ : شدة تفكيرى بالبصر ، يعنى بالعيون ، وتلهفى لرجوع البصر .

تعليق :

هذا حلم رواه الحالم بعد أن طلبت منه أن يروى لى حلمًا يظهر فيه موضوع ما ، أو شخص ما ، يكون الحالم قد تعرَّف عليه بعد فقده لبصره (لأرى كيف يصوِّر الحالم هذا الموضوع أو الشخص، وأى الحواس يستعين بها فى إدراكه) . وهو حلم رآه الحالم قبل روايته بحوالى سنة ؛ أى بعد كف بصره بسنة تقريبًا ، وكان وقتها يعيش فى رام الله بالضفة الغربية .

ويتضح جليًا من هذا الحلم الدور الأساسى السائد للإدراك البصرى، كما اتضح فى الحلم السابق له ، والحلمين الأسبقين لزميله مكفوف البصر متأخراً . بل زاد هذا الحلم عن الأحلام الثلاثة السابقة تأكيداً على قضية الإدراك البصرى، بحيث جعلها محوره الأساسى، وبالغ الحلم هنا فى دقة الإدراك البصرى والتركيز عليه؛ فالحالم فى حلمه يصحو ويفتح عينيه «وبص» فيرى نور السيارة مضاءً «ومعكوس على السقف مع وجود خيال القفص الحديدى بتاع الشباك على السقف . فأنا استغربت كده وقلت الحمدلله أدى أنا بأشوف ... وشفت واحد باعرفه اسمه عبد الرحمن ، فقلت أقول له علشان يقول لأهلى إنى أنا بقيت أشوف».

كما اتضح لنا -أيضًا- فى هذا الحلم كيف يعمد مكفوف البصر -متأخراً- إلى رسم صورة بصرية للأشخاص والموضوعات، التى لم يبصرها من قبل، عن طريق تخيلاته الخاصة . ويعبِّر

عن هذا بقوله : «فلما شفته فى الحلم بعينه شفته إنه قصير ونحيف وحسب الخلقة اللى رسمتها مخيلتى له ... أنا طبيعى أى شخص باتخيله فى مخيلتى، على أساس بارتاح نفسيًا، وما أشعرش أنى أنا كفيف يعنى» . وهذه الظاهرة سبق أن وجدناها فى الحلم الثامن لحالة كف البصر المتأخر السابقة (صورة الخطيبة) . وهكذا، يصدق ما ذهبنا إليه فى تعليقنا على حلمى الحالة السابقة على حلمى هذه الحالة .

نتائج البحث وخلاصته

من استعراضنا للأحد عشر حلمًا السابقة ، وما تلاها من تعليقات، يمكننا أن نخرج بالنتائج العامة التالية :

أولاً : من حيث المبدأ ، فإن المكفوفين يحلمون - كغيرهم - أثناء النوم .

ثانيًا : المبادئ العلمية المعروفة عن أحلام المبصرين وديناميانها تصدق بنفس الدرجة على أحلام المكفوفين ؛ وأولها ما هو معروف من أن الحلم تحقيق رغبة . وتكفى النظرة السطحية إلى بعض الأحلام -التى أوردناها- لمعرفة الرغبة التى يحققها الحلم لصاحبه ، كما فى الحلم الثالث والثامن والتاسع والحادى عشر . أما البعض الآخر، فيحتاج إلى نظرة أعمق ومتداعيات أطول للكشف عن الرغبات التى يحققها ، كما أن تأثير بقايا اليوم السابق على صياغة أحلام المبصرين واضح هنا -أيضًا- بنفس الدرجة فى أحلام المكفوفين .

ثالثًا : استكمالاً للبند السابق، فإن ما هو معروف من كون الأحلام على أنانية مطلقة [١] Absolutely Egoistic، بمعنى أن كلاً منها يدور حول الحالم نفسه- ينطبق بنفس الدرجة على جميع أحلام المكفوفين التى -أوردناها- إذ تدور كلها حول دوافع الحالمين الخاصة ومشاعرهم واهتماماتهم وخبراتهم .

رابعًا : أحلام مكفوفى البصر متأخراً ، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار فى المخ بسوء، يحتل فيها الإدراك البصرى مركز السيادة بين أنواع المدركات الأخرى، بحيث لايكاد يختلف الأمر عن الحال فى أحلام المبصرين العاديين ، فكانوا يعبرون تلقائيًا عن أنهم كانوا يرون فى أحلامهم وكأنهم مبصرون تمامًا .

١- المرجع السابق لفرويد عن تفسير الأحلام ، ص٣٣٣ .

خامسًا : مكفوفو البصر متأخراً ، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار فى المخ بسوء ، يحاولون رسم صورة بصرية للموضوع، أو الشخص الذى يتعرفون عليه، بعد كف بصرهم ، مستوحاة من تخيلات المكفوفين الخاصة، وأحاسيسهم المختلفة، ومن أوضاع المبصرين لهم . ومن ثم ، فإنهم يرون هذه الموضوعات وهؤلاء الأشخاص فى أحلامهم على نفس الصور البصرية التى رسموها لهم فى حياة اليقظة . ومن الملاحظ أن هذه الظاهرة تحدث -أيضًا- لدى المبصرين بنفس الكيفية ؛ فالكثير منهم يرى صوراً بصرية لموضوعات أو أشخاص لم تسبق له رؤيتهم (كرؤية الأنبياء والرسل فى الأحلام) . وهكذا ، يمكن القول إن أحلام مكفوفى البصر متأخراً ، والذين لم تصب لديهم مراكز الإبصار فى المخ ، تشبه تمامًا أحلام المبصرين العاديين بهذا الخصوص ؛ حيث تكون إحدى عمليات إخراج الحلم الأساسية هى تحويل أفكار الحلم إلى صورة بصرية .

سادسًا : مكفوفو البصر مبكراً منذ الشهور الأولى لميلادهم يدركون فى أحلامهم باستخدام نفس الحواس التى يدركون بها فى يقظتهم . فهم فى يقظتهم يعتمدون فى إدراكهم اعتماداً أساسيًا على حواس السمع واللمس والضغط والقدرة على الإدراك، (أو التوجه) المكانى -Spa tial Orientation ، وكذا -أيضًا- فى أحلامهم . هذا -بطبيعة الحال- إلى جانب حواس أخرى، مختلفة أقل أهمية ، وإن كانت تساعد على استكمال عملية الإدراك . ونظراً للأهمية البالغة للإدراك البصرى فى التعرُّف على الموضوعات ، والتى حرم منها مكفوف البصر مبكراً، ونظراً لحاجته إلى الاعتماد الأكثر على بقية الحواس والقدرات . التى تساعد فى عملية الإدراك حتى يعوض نقص الإدراك لافتقاد الإبصار ، نقول : نظراً لذلك كله، تقوى بقية الحواس والقدرات المساعدة على الإدراك لتعويض نقص الإبصار، بسبب قوة الدافع لذلك من جانب ، وبسبب تدريبها واستخدامها المستمر من جانب آخر .

سابعًا : لو قارنا بين حاسة السمع ووزن دورها فى إدراك محتوى أحلام مكفوفى البصر المبكر ، وبين غيرها من الحواس والقدرات، لوجدنا السيادة التى تكاد تكون مطلقة لحاسة السمع ، بحيث يمكن أن نقرر أنها تحتل نفس مكانة الإبصار فى أحلام المبصرين. ففى كل أحلام مكفوفى البصر المبكر - التى أوردناها (الأحلام السبعة الأولى)- لم يختف دور السمع فى أى منها، بل كان على الدوام دوراً أساسيًا . هذا ، بينما كادت فى بعض الأحلام تختفى أدوار اللمس أو الضغط أو التوجه المكانى، أو غير ذلك من بقية الحواس والقدرات المساعدة على الإدراك . بل وجدنا ما هو أكثر من ذلك ، حيث وجدنا فى الحلم الأول أن السمع قام

بتصحيح إدراك الحالم الذى خدعه اللمس ، وحيث أدرك الحالم فى الحلم السادس عرض قدم موضوع حلمه من مجرد سماعه للصوت الضخم لمشيته .

وقد ترجع أهمية وجسامة وسيادة دور السمع فى أحلام مكفوفى البصر المبكر (وعلى الأرجح -أيضًا- مكفوفو البصر المتأخر، الذى أصيبت فيه مراكز الإبصار فى المخ، بحيث نقدت قدرتها على أداء وظيفتها) إلى ما لحاسة السمع من مزايا فى عمليات الإدراك، سواء فى اليقظة أو الحلم ، إذا ما قارناها بغيرها من الحواس والقدرات المسهمة فى الإدراك ، باستثناء الإبصار بطبيعة الحال. وقد يكون أهم هذه المزايا .

١- اتساع دائرة المدركات السمعية ، فمثلاً يمكنك إدراك قدوم صديقك فلان من مجرد سماع صوته . وهذا أمر يوسع من دائرة مدركات الكفيف ، ولاشك أن هذه ميزة يفتقدها الإحساس اللمسى ؛ إذ أن دائرة مدركاته محدودة للغاية، حيث لاتتجاوز ما تصل إليه يد الإنسان، أو يلامس أجزاء جسمه، وكذا الأمر بالنسبة للإحساس بالضغط، أو التذوق مثلاً .

٢- سرعة الإدراك السمعى وسهولته وأمانه، إذ تدرك الأصوات الصادر عن المنبهات الخارجية دون انقضاء فترة طويلة على صدورها . ودون بذل جهد كبير فى هذا الإدراك ، ودون التعرض لأضرار . ويكفى أن نقارن السمع باللمس أو التذوق أو الضغط لنتبين صحة هذا الاستنتاج . فعلى سبيل المثال فقط، يلزم للإدراك اللمسى وقت كاف لكى يقترب الإنسان فيزيقيًا من موضوع الإدراك ، كما يلزم الجهد اللازم لهذا الاقتراب ولمد اليد وتمريرها على موضوع الإدراك كله. كما أن اللمس قد يعرض الإنسان لخطورة ؛ كالحريق أو الالتهاب أو التسمم .. إلخ .

٣- الإدراك السمعى أكفأ وأدق كثيراً . فعلى سبيل المثال ، إذا استثنينا الإبصار ، فإنه لاتوجد أية حاسة تمكننا من التعرُّف على صديق ما سوى حاسة السمع، إذ نسمع صوته فنقول هذا فلان من قبل أن نراه. ولعل الحلم الأول يوضح هذه الحقيقة -بما لايقبل الشك- حيث ظل الحالم مخدوعًا فى موضوع حلمه حتى نطق ، فإذا بالحالم يكتشف حقيقته عن طريق سماعه لصوته .

٤- إذا استثنينا المدركات البصرية، فإن المدركات السمعية أكثر تنوعًا، وأكثر تمايزاً ، وأكثر عدداً ، مما يعطى الحلم مفردات متمايزة أكثر عدداً من الصور السمعية، فيتيح له مرونة أكثر ودقة فى تصوير الأفكار . فعلى سبيل المثال -فقط- نجد أنه بقدر ما لنا من أصدقاء ، فإن لكل منهم صوته المميز .

٥- لقد بلغ من وزن السمع وأهميته لعملية الإدراك أن الإنسان طول يقظته يظل مستخدمًا حاسة السمع فى إدراكاته. حتى فى الحالات التى لاتستثار فيها حاسة السمع (حالات الهدوء التام) يدرك الإنسان بفضلها الشيء الكثير، كأن يكون الكل نيامًا ، أو أننا وقت الفجر ... بل إن الإنسان لو تعمد للحظات أن يكفَّ حاسة السمع لوجد صعوبة بالغة فى ذلك، بعكس الأمر فى بقية الحواس الأخرى، حتى الإبصار ، إذ يمكن للإنسان أن يعمد إلى كف هذه الحاسة فيغمض عينيه أثناء يقظته . ويستتبع هذا أن حاسة السمع تحتل المكان الثانى مباشرة فى عملية الإدراك لدى المبصرين من حيث الأهمية (بعد حاسة الإبصار) . وبالتالى، فهى تحتل المكان الأول لدى المكفوفين . ويكفى أن نذكر أن أبرز ما يميز الإنسان على الحيوان وهو اللغة -بكل ما لها من أهمية فى بناء الحضارة ونقلها عبر الأجيال- يستحيل تعلمها إلا باستخدام حاسة السمع .

ثامنًا : ينبنى على كل ما ذكرناه فى البند السابق من ميزات السمع أن يكون لحاسة السمع من الكفاءة ما يجعلها تحتل دور الإبصار فى أحلام المكفوفين مبكراً (وعلى الأرجح -أيضًا- أحلام مكفوفى البصر المتأخر، الذى أصيبت فيه مراكز الإبصار فى المخ، بحيث فقدت قدرتها على أداء وظيفتها) بكل جدارة . وهذا ما وجدناه فعلاً فى أحلام المكفوفين مبكراً ، حيث قامت الصور السمعية بالدور الأساسى فى صياغة أحلامهم ، الأمر الذى قد يسمح لنا أن نقفز إلى استنتاج أكثر جرأة عن أحلامهم، فنقول إن عملية إخراج الحلم لديهم تستخدم حيلة من نوع لانألفه فى أحلام المبصرين، وهى التصوير السمعى لأفكار الحلم ؛ أى ترجمة أفكار الحلم إلى مدركات سمعية ، كمقابل لحيلة التصوير البصرى، التى تلجأ إليها عملية إخراج الحلم لدى المبصرين. وفى الحلم السادس أوضح مثل لعملية التصوير السمعى هذه ؛ إذ استخدم الحلم الصوت الضخم ليترجم فكرة عظمة الإله وقدرته ، كما استخدم الضحك العالى ليترجم فكرة الخوف من غواية الشيطان للحالم ، على نحو ما شرحنا فى التعليق على هذا الحالم .

تاسعًا : قد يستعين المكفوف مبكراً بحاسة الإبصار فى إدراكات الحالم، لكن الاستعانة هنا تكون بشكل غير مباشر عن طريق الاستعانة بشخص آخر مبصر، على نحو ما يحدث فى اليقظة تمامًا ؛ إذ يستعين المكفوف على عبور الشارع بأحد المبصرين . ونجد هذه الظاهرة واضحة فى الحلمين الثالث والسادس ، مما يشير إلى إحساس المكفوفين بالدور الهام للإبصار فى الإدراك .

عاشراً : إن عملية إخراج الحلم وصياغته لاتتخلى بسهولة عن حيلتها الأساسية المتمثلة فى ترجمة أفكار الحلم إلى صور بصرية ، حتى فى أحلام المكفوفين . فهى لاتسلم بهذا التخلى إلا

فى حالة واحدة -فقط- هى حالة كف البصر المبكر جداً ، حيث لايكون لدى المكفوف أية قدرة على التصور البصرى . أما فى حالات كف البصر المتأخر (باستثناء - كما نتوقع- حالات كف البصر المتأخر الناتجة عن تلف مراكز الإبصار فى المخ) ، فإن عملية إخراج الحلم وصياغته تظل متمسكة بترجمة أفكار الحلم إلى صور بصرية ، حتى لو تطلب الأمر الاستعانة بصور بصرية لموضوعات أو أشخاص ، لم يسبق للمكفوف رؤيتهم حين كان مبصراً ، على نحو ماحدث فى الحلمين الثامن والحادى عشر . مما يؤكد صدق ما ذهب إليها المحللون النفسيون من نزعة الحلم الطاغية إلى الترجمة البصرية للأشياء والأفكار ، حتى إن هذه الترجمة تعتبر أهم الحيل التى تلجأ إليها عملية إخراج الحلم وصياغته .

وأخيراً ، فإنى أخشى أن أكون قد تجاوزت ، فى استنتاجى من هذا البحث، تلك الحدود التى تسمح بها المادة التى جمعت، كما أرجو أن تتاح بحوث أخرى- سواء لغيرى أو لى- تسمح باختبار هذه الاستنتاجات مستقبلاً .

* * *

المراجع :

١- سيجموند فرويد . تفسير الأحلام ، ترجمة مصطفى صفوان ومراجعة مصطفى زيور. القاهرة، دار المعارف ، الطبعة الأولى .(بدون تاريخ) .

٢- سيجموند فرويد . محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى ، ترجمة أحمد عزت راجح ومراجعة محمد فتحى : القاهرة ، الأنجلو المصرية .(بدون تاريخ) .

٣- فرج عبد القادر طه . دراسة مقارنة بين إدراك المحتوى الظاهر لأحلام المكفوفين والمبصرين ، المجلة الاجتماعية القومية ، عدد : ٣ ، ١٩٧٢ .

٤- يوسف مراد . مبادئ علم النفس العام . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ .

٥- Taha, Farag Abdel Kadir . "Auditization" In :Dream - work of the Early Blind Persons , XXIII International Congress of Psychology , Acapulco , Mexico, September, 1984 .

الأستـــاذ الجامعـــى *

(الإنسان والسلوك)

تقديم فى تمهيد :

إذا كان المثقفون فى كل أمة يمثلون عقلها الواعى ، ورأسها المدبر ، وقائدها المسئول، فإن أستاذ الجامعة يقف على رأس هؤلاء جميعًا . فهو ، علاوة على كونه من كبار مثقفى الأمة ومن خلاصة علمائها، ومن كبار باحثيها العلميين ، وممن يشاركون فى أداء الواجبات والمهام المختلفة التى يحتاجها المجتمع ويكلفهم بأدائها، فإن المجتمع يعهد إليه بتعليم أجيال من شبابه العلم النافع، الذى يدبر شئون المجتمع، ويعالج مشكلاته ، وينطلق به نحو التقدم المنشود ، ويحقق له الرفاهية والازدهار؛ فالأطباء والمهندسون ، والمعلمون والمربون ، والباحثون العلميون والتكنولوچيون ، والمفكرون والمنظرون ، والأدباء والفنانون ، وغيرهم كثير كثير ممن يبنون المجتمع ، هم -أساسًا- ممن يتتلمذون على يد الأستاذ الجامعى ، ويتخرجون فى مدرسته الفكرية والعلمية والتطبيقية . ومن هنا ، كانت أهمية الأستاذ الجامعى ومكانته فى أى مجتمع كان؛ شرقًا وغربًا .

الخصائص اللازمة للأستاذ الجامعى :

ولاشك ، أن الأستاذ الجامعى، لكى يحقق نجاحًا مقبولاً فى دوره الذى يسنده المجتمع إليه، لابد وأن يتحلّى بخصائص ، ويتصف بصفات ، وتتوافر له سمات واستعدادات وقدرات فى شخصيته كإنسان ، لعل من أهمها :

١- المعرفة الواسعة فى مجال التخصص :

من أدوار أستاذ الجامعة الرئيسية دوره كمعلم : فالأستاذ الجامعى يقوم بتدريس مواد متخصصة لتلاميذه فى سنوات دراستهم الجامعية ، كما أنه يقوم بالإشراف على بحوثهم ورسائلهم العلمية فى مجال تخصصه ، والتى يقومون بها فى دراساتهم العليا لنيل درجة

* محاضرة ألقيناها بجامعة المنصورة بدعوة منها. وقد كتبت بعد ذلك ونشرت فى مجلة علم النفس، العدد الحادى عشر (يوليو- سبتمبر ١٩٨٩) ، ص١٨-٢٤ .

الماچستير أو الدكتوراة. ومن هنا ، كانت معرفته الواسعة فى مجال تخصصه العلمى أمراً بالغ الأهمية والضرورة . كما أن مداومة اطلاعه على ما يستجد من دراسات وبحوث ومراجع ونظريات فى مجال تخصصه أمر شديد الأهمية له، حتى يستطيع أن يمد طلابه- سواء أكانوا بالمرحلة الجامعية أم بمرحلة الدراسات العليا- بالمعرفة الصحيحة، وبالمعلومات المتطورة فى مجال التخصص . كما أن هذا يجنبه الحرج الشديد الذى يحسه الأستاذ عندما يسأله التلميذ عن معلومة فى تخصصه ، فيعجز عن إمداد تلميذه بما يسأل عنه، أو ينكشف عدم علمه به . فيصغر فى عين تلاميذه ، ويذهب هذا بكثير من تقديرهم لشخصه، واحترامهم لمكانته .

ومن هنا ، كانت الجامعات أحرص ما يكون على اختيار أساتذة المستقبل فيها من أفضل خريجيها تحصيلاً ، وأعلاهم تقديراً فى كل التخصصات العلمية التى تحتاج إليها .

٢- الذكاء :

من أهم ما يميز الإنسان الذكى حدة فهمه، وسرعته، ودقته، وصوابه ، وقدرته العالية على التصرف الناجح الموافق فى المواقف والظروف التى تحتاج إلى سرعة تصرف وبديهة حاضرة، خاصة فى الموقف الصعبة أو المحرجة التى تواجه الفرد لأول مرة . ومن مميزات الذكى -أيضًا- استفادته من خبراته الماضية فى مواجهة المواقف والظروف والمشكلات التى تجابهه، لكى يحلها ، وينجح فى التعامل معها. هذا ، إلى جانب الإبداع والابتكار والأصالة، التى تتوافر فى كثير من الأنشطة التى يقوم بها الإنسان الذكى .

ولو أمعنا النظر فى المميزات والخصائص التى تميز الإنسان الذكى، والتى ذكرنا بعضها الآن، فسوف نجد أنها جميعًا من أهم ما يلزم الأستاذ الجامعى، ويرفع من مستوى أدائه لواجباته المختلفة . فذكاء المعلم -كما هو معروف- يعتبر من أهم العوامل المؤثرة على كفايته فى القيام بواجبه التعليمى على خير وجه .

ويورد بعض العلماء ؛ مثل : موريس فيتلس ما يشير إلى اعتبار مهنة المدرس فى المرتبة الثانية ، من حيث مستوى الذكاء المرتفع الذى يلزمها ، وذلك من بين أكثر من ثلاثين مهنة أوردها فيتلس (٤ : ٧٦٧) . وإذا كان هذا يصدق على المعلم أو المدرس بصفة عامة ، فالأولى أن يصدق على الأستاذ الجامعى بصفة أخص، حيث يقوم بواجب التعليم والتدريس فى مستويات التعليم العليا والأكثر تعمقًا وتخصصًا وأصالة . هذا ، علاوة على أن المهام الأخرى

الملقاة على عاتق الأستاذ الجامعى ؛ كالبحث العلمى ، والإشراف على رسائل الماجستير والدكتوراة كلها مما يتطلب مستويات عليا من الذكاء ، على النحو الذى عرضنا به مميزات الإنسان الذكى .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك أن الأستاذ الجامعى يتصل -عادة- ويتعامل مع فئات تتميز بالذكاء المرتفع (كالطلبة الجامعيين والزملاء من أساتذة الجامعة) ، تبين لنا مدى أهمية ارتقاع مستوى ذكائه للنجاح والتوفيق فى أداء واجباته .

٣- المهارة اللغوية :

يلزم الأستاذ الجامعى ، لكى ينجح فى واجباته التعليمية والتدريسية خاصة، أن يتصف بالمهارة اللغوية ؛ ونقصد بذلك ارتفاع مستوى قدرته على التعامل بالألفاظ والكلمات والجمل واستخدامها بكفاءة وطلاقة للتعبير عن المعانى والأفكار التى يريد أن يوصلها إلى غيره ، وأيضًا ارتفاع مستوى قدرته على فهم المعانى، التى تكمن وراء الألفاظ والكلمات والجمل التى يسمعها أو يقرؤها ، وخلو حديثه من عيوب النطق المختلفة ، واتصاف مخارج حروفه بالوضوح والتميز ؛ إذ أن كل هذا يساعده على إيضاح ما يريد شرحه لطلابه ، وما يبغى إيصاله إليهم من أفكار ومعلومات (٢ : ٩١) .

فإذا أضفنا إلى هذا أن جزءًا رئيسيًا من واجبات الأستاذ الجامعى هو الكتابة والتأليف، وإعداد البحوث وكتابة تقاريرها ، تبين لنا مدى أهمية كفاءته فى التعبير اللغوى السليم، والأسلوب السلس المفهوم .

٤- اتساق الفكر ومنطقيته :

كما أن لكل إنسان درجة من الذكاء تختلف عن زميله ، وبالمثل -أيضًا- درجة من المعرفة فى مجال تخصصه ، ودرجة من المهارة اللغوية ، فإن له درجة من اتساق الفكر ومنطقيته تختلف عن زميله ، نعرف هذا بين زملائنا وطلابنا .. فهذا يمكنه أن يعرض مشكلته فى إيجاز شديد وبشكل واضح يمكنك من فهمها سريعًا ؛ وذاك يقضى معك الوقت الطويل، الذى يشرح لك فيه مشكلته، دون أن تستطيع فهم شىء منها ، على الرغم من تركيزك الشديد معه، وفى نفس الوقت الذى تكون فيه هذه المشكلة شديدة البساطة . ويرجع ذلك إلى مدى اتساق الفكر وتماسكه ومنطقيته. بل إننا نجد بعض الأمراض النفسية التى يكون من أعراضها الرئيسية اضطراب التفكير وخلطه وتداخله ولامنطقيته، كما هو لدى غالبية مرضى الفصام .

ولاشك ، أن واجبات الأستاذ الجامعى فيما يتعلق بالتعليم والتدريس ، والبحث العلمى، والإشراف على طلبة الدراسات العليا ، والتأليف ... تقتضى منه أن يكون فكره شديد الاتساق والتماسك ، وأن يكون منطقه متصفًا بالوضوح والسلامة ، وإلا ضعفت كفاءته فى أداء واجباته ، واهتزت صورته أمام طلابه وزملائه .

٥- الصحة النفسية أو الاتزان النفسى :

نقصد بالصحة النفسية ، أو الاتزان النفسى، للإنسان مدى خلو شخصيته من الانحرافات السلوكية والأمراض والاضطرابات النفسية . فالإنسان الذى يستمتع بمستوى عالٍ من الصحة النفسية، أو الاتزان النفسى، هو إنسان يكاد يخلو من مظاهر الانحرافات السلوكية والأمراض والاضطرابات النفسية المختلفة .. ولاشك، أن الصحة النفسية (أو الاتزان النفسى) مسألة نسبية ، شأنها شأن بقية جوانب الشخصية، كالذكاء وغيره ؛ بمعنى أن الصحة النفسية الكاملة أمر لايكاد يتحقق لإنسان ما ، وأن مقدار الصحة النفسية يختلف من فرد لآخر ، بحيث نجد فرداً أكثر صحة نفسية (أو اتزانًا) من غيره ، لكننا لانكاد نجد فرداً كامل الصحة النفسية. كما أننا سوف نجد حتى لدى أشد الناس جنونًا ، بعض المظاهر- وإن قلت- تدل على سلامة بعض الجوانب النفسية . فكما لانستطيع أن نقول إن فلانًا كامل الذكاء وفلانًا منعدمه ، فإننا لانستطيع أن نقول إن فلانًا كامل الصحة النفسية وفلانًا منعدمها. هذا من الناحية العلمية البحتة ، لكننا نصطلح فى الواقع- ومع التجاوز - على وصف الإنسان بالصحة النفسية (أو الاتزان) إن كان يكاد يخلو من مظاهر الانحراف السلوكى، أو الأمراض النفسية الواضحة ، وأن نصفه بالمرض النفسى، إن كانت مظاهر الانحراف السلوكى، أو المرض النفسى، واضحة فيه.

هذا ، ويعتبر مستوى الصحة النفسية جانبًا هامًا من جوانب شخصية أى إنسان - وليس الأستاذ الجامعى فقط- بحيث لانكاد نصف شخصية إنسان دون ذكر أو إشارة لمستوى صحته النفسية ؛ ذلك لأن مستوى الصحة النفسية من أشد جوانب الشخصية تأثيراً على سلوك الإنسان ونشاطه ، وعلاقاته مع محيطه ومجتمعه . فالصحة النفسية للإنسان إذا اضطربت انعكس ذلك على كل أفعاله ونشاطه وسلوكه وعلى كل علاقاته بما ومن يحيط به، فإذا بسلوكه وأفعاله تختل، فلا تحقق الهدف منها ، وهو التوافق والنجاح المهنى والاجتماعى والشخصى، وإذا بعلاقاته المختلفة مع الأفراد الذين يتعامل معهم تضطرب، فلايعود يدركهم الإدراك السليم، أو يفهمهم الفهم الصحيح ، فيؤثر كل ذلك تأثيراً سلبيًا على تعامله معهم

وعلاقاته بهم . بل إن الأمر قد يصل بالإنسان - على نحو ما يحدث فى الجنون- إلى أن يصبح خطراً على نفسه - كما فى حالات الاكتئاب التى يحاول فيها الانتحار- أو يصبح خطراً على الآخرين - كما فى حالات جنون الاضطهاد- فيحاول تدمير الآخرين قبل أن يقوموا بتدميره ، كما يصور له وهمه ، وتراوده هواجسه .

وما سبق من حديثنا عن الصحة النفسية (أو الاتزان النفسى) يوحى بأن الصحة النفسية من ألزم ما يكون للأستاذ الجامعى. فهو أحوج ما يكون إلى الشخصية المتزنة، التى تكسبه احترام طلابه، وتقدير زملائه، وتمكنه من التعامل السوى معهم، فينجح فى تحقيق ما ينتظره مجتمعه منه، وما تريده جامعته له .

٦- الطاقة الجسمية والنفسية :

يحتاج الإنسان، حتى يؤدى واجباته فى أية مهنة كانت، إلى توافر الطاقة الجسمية والنفسية التى تساعده على ذلك . فعلى سبيل المثال، نجد أن الإنسان فى حالة المرض الجسمى عندما تتبدد طاقته الجسمية وتضعف ، لايستطيع القيام بالمهام الملقاة على عاتقه، خاصة إن كانت تتطلب حركة واستخداماً للقوى العضلية ، كحمل الأثقال، أو دفعها، أو الجرى، أو القفز، أو السباحة .. وبالمثل، نجد أن الأستاذ الجامعى يلزمه توافر مستوى عالٍ من الطاقة الجسمية والنفسية يساعده على القيام بواجباته المختلفة .

ولعل أهمية صحة الأستاذ الجامعى النفسية تبرز هنا -أيضًا- حيث إن الصحة النفسية تحفظ للإنسان طاقته الجسمية والنفسية، فلاتبددهما فى الصراعات النفسية العنيفة التى تهز كيان الشخصية وتصدعها ، كما أنها تحرره من القلق المبدِّد للطاقة بنوعيها فيدخرها ليقوى بها على أداء واجباته المتعددة خير أداء . ولذا، كان من أهم ما ينبغى مراعاته عند اختيار من نعدهم للعمل فى المستقبل أساتذة للجامعة هو سلامة صحتهم الجسمية وصحتهم النفسية كليهما، ضمانًا لتوافر قدر مناسب من الطاقتين الجسمية والنفسية، تساعدهم على القيام بأعباء واجباتهم المتنوعة .

٧- الميل للتدريس بالجامعة :

يمثل الميل شرطًا هامًا للنجاح فى أى عمل ، والتوفيق فيه. فالإنسان لايحقق نجاحًا ملحوظًا إلا فى العمل الذى يحبه، ويميل إليه، ويستمتع بأداء مهامه . والناس يختلفون فى ميولهم وأهوائهم، فهذا يميل إلى مهنة معينة، بينما يميل آخر إلى غيرها وهكذا . وكلما

صادف الإنسان عملاً يميل إليه كلما توقعنا له مزيداً من النجاح فيه . حيث يفضل الفرد بذل جهد أكبر، وقضاء وقت أطول فى أداء ما يميل إليه من أعمال، وبالتالى نتوقع له المزيد من النجاح فيه، خاصة إذا كان يمتلك القدرات والاستعدادات والخصائص اللازمة لهذا العمل (٣ : ٣١-٦٦) .

٨- الضمير الحى :

إذا كان الضمير الحى مطلوبًا فى كل مواطن ، وفى كل من يكلف بعمل، فإنه بالنسبة لأستاذ الجامعة ألزم وأوجب . فمن أهم واجبات الأستاذ الجامعى التعليم والتدريس . والضمير الحى يجعله يقوم بهما ، ويؤديهما على أفضل وجه يستطيعه ؛ فيبذل أقصى ما يمكنه لشرح موضوعات دروسه ، وإفهام جميع طلابه مادته العلمية ، ويكرر الشرح إذا احتاج بعض الطلاب إلى ذلك دون تبرم أو ضيق ، كما ينظر إليهم نظرة مساواة عادلة ، لايفرق فيها بين طالب وزميله، ولايحابى واحداً دون الآخر ، ولايجامل هذا على حساب ذاك ؛ نظراً لقرابة تربطه به، أو مصلحة خاصة ينتظرها منه، أو تملقًا لنفوذ أولياء تقربًا منهم، أو رهبة وخوفًا من سلطتهم ، فيختل بذلك تقييمه الموضوعى لطلابه، ويهدر مبدأ العدالة والمساواة بينهم . ومن هنا قيل عن مهنة التدريس خاصة أنها مهنة ضمير .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن أستاذ الجامعة لارقيب عليه فيما يؤديه من واجبات، وفيما يعطيه لطلابه من تقديرات ، إلا رقابة غير مباشرة تمارس على استحياء (نظراً لإحساس المجتمع أن أساتذة الجامعة هم صفوته التى ينبغى عليه أن يعطيها كل ثقته وتقديره) ، لأدركنا مدى حاجة الأستاذ الجامعى خاصة إلى الضمير الحى .

ومن الجدير بالذكر أن الضمير أحد المكونات الرئيسية فى شخصية الإنسان (١ : ٥٤-٥٧) . ويمثل الضمير -فى أي أمة- مشكلة أخلاقية تقع على عاتق الأسرة خاصة، والمجتمع عامة، مسئولية تكوينه وتنميته وتربيته على صورة فاضلة عند الأفراد . ولهذا ، فإن صلاح المجتمع أو فساده لابد منعكس فى نهاية الأمر- بشكل أو بآخر- على ضمائر أبنائه ، ومنهم أساتذة الجامعة بطبيعة الحال.

الأستاذ الجامعى والسلوك :

السلوك هو النشاط والتصرفات التى تصدر عن الشخصية . ونحن ننتظر من كل فئة مهنية معينة سلوكًا معينًا ، ونطالبها به، وننتقدها إن حادت عنه، أو تجاهلته وانحرفت عن

معاييره . فنحن -على سبيل المثال- ننتظر من رجال الدين أن يكونوا مثاليين فى إقامة الشعائر الدينية، وفى تبنى القيم التى يحث عليها دينهم أيًا كان، ونستنكر منهم أى خروج على ذلك . والسلوك يصدر عن الشخصية ككل، ويتحدد -إلى درجة كبيرة- بخصائص الشخصية ومميزاته الخاصة ، دون أن ننفى ظروف الموقف الذى تسلك الشخصية فيه . ومن هنا، وجدنا الشخصية المعينة يختلف سلوكها فى موقف عنه فى آخر، بمثل ما نجد أن الشخصين المختلفين يسلكان سلوكًا مختلفًا ، إن هما وضعا فى ظروف مماثلة . نضرب لذلك مثلاً بظاهرة الدروس الخصوصية فى الجامعة ، فعلى الرغم من أن الحاجة المادية لأحد أساتذة الجامعة قد تكون مساوية، أو أشد، من زميل معين ، فهو مع ذلك يرفض إعطاء الدرس الخاص بإباء وشمم ، بينما يسعى زميله هذا جاهداً نحو اجتذاب الطلاب لإعطائهم دروسًا خاصة .

ولقد قدّمنا الحديث عن الخصائص المطلوبة فى شخصية الأستاذ الجامعى ؛ لأنها هى التى سوف تحدد لنا - إلى حد بعيد - سلوكياته وتصرفاته ، حيث يصبح السلوك والتصرف ترجمة أمينة لسمات الشخصية المعينة وخصوصياتها . فنحن لانطلب فى شخصية الأستاذ الجامعى خصائص وسمات معينة ، إلا لأنها سوف تطبع سلوكه، بحيث تجعله يتم بالصورة التى نرضى عنها، والتى تسهم فى الارتقاء بمستوى التعليم الجامعى ، وتساعد خريجيه على أن يخدموا وطنهم بصورة أفضل، ويتقدموا به إلى مستوى أرقى .

وفى ضوء هذا، فإن من أهم ما نطلبه فى سلوك الأستاذ الجامعى ما يلى :

١- تجسيد القدوة الصالحة :

فالأستاذ الجامعى ليس معلمًا فقط، بل هو مربٍ يؤثر فى تشكيل طلابه، ويصقل شخصياتهم على نحو ما يفعل الآباء . وأهم ما يساعده فى ذلك استقامة سلوكه ، واتصافه بالأخلاق القويمة ، وتبنيه قولاً وعملاً ما نتعارف عليه من القيم الفاضلة، والمثل الأخلاقية العليا. وبالتالى يجسد لطلابه القدوة الصالحة التى يتشربونها -بوعى أو دون وعى- فتصبح جزءا متممًا لضمائرهم ، ولما يعرف فى علم النفس بالأنا الأعلى، الذى يوجه السلوك نحو المثل العليا ويراقبه ، ويثيب الفرد بالسعادة وراحة الضمير إن أحسن الفعل ، ويعاقبه بعذاب الضمير إن أساء (١ : ٥٤-٧٥) .

فالأستاذ الجامعى ليس -فقط- قدوة ومثلا لطلابه ، بل و-أيضًا- لمن يعرفونه، ومن يحتك بهم ؛ نظراً لمستواه العلمى والثقافى المرتفع، الذى يستقطب كثيرين لتقليده، أو

للاقتداء به بوعى أو بدون وعى . ولنا أن نتصور استاذاً جامعيًا يدخل المحاضرة مخموراً ، أو يسير فى الشارع وقد تعاطى المخدرات ، أو يعرف عنه الاتجار فيها ، أو يتعاطى الرشوة ، أو يشترك فى عمليات نصب .. لاشك، أن تأثير هذا ومثله على الناشئة خاصة، والمجتمع عمومًا ، يكون أشد تدميراً ، مما لو كان يمارس هذا السلوك الشائن شخص غيره من الفئات المهنية ، التى لاتتخذ منها الناس مثلاً ولاقدوة .

ولذا ، فإننا ننشد فى سلوك الأستاذ الجامعى أن يكون مثلاً أعلى لتجسيد الولاء لهذا الوطن ولهذا المجتمع ، وأن يدعم بالقول والعمل القيم السامية : كالبساطة فى المظهر، والموضوعية فى التقييم ، والعدالة فى الأحكام ، والنزاهة فى المعاملات، والصدق فى القول، والإخلاص فى العمل ..

٢- رفض الدروس الخصوصية ومقاومتها :

إذا كانت ظاهرة الدروس الخصوصية تمثل ظاهرة سلبية استحدثت فى مجال التعليم العام، فإنها تنحدر إلى مستوى المأساة فى التعليم الجامعى. فعلاوة على أن الأستاذ الذى يسمح لنفسه بإعطاء دروس خصوصية -سواء أكان ذلك فى التعليم الجامعى، أم فى التعليم العام- سوف يصرف كل طاقته واهتمامه للدروس الخصوصية ، فلايبقى منهما شيء لأداء واجباته المكلف بها فى المدرسة أو الجامعة، نقول -علاوة على ذلك- فإن الدرس الخاص بالنسبة لأستاذ الجامعة -على وجه خاص- هو رشوة مقنعة، لأن أستاذ الجامعة هو الذى يضع الامتحان ، وهو الذى يصحِّحه ، والرقابة عليه فى كليهما ضعيفة- كما سبق أن أشرنا - ولهذا كان تحريم الجامعة صريحًا على الأستاذ الجامعي إعطاء دروس خصوصية ، خشية هذا المنزلق الخطير .

فإن أضفنا إلى هذا أن التعليم الجامعى هو تعليم متخصص ، كما أنه نهاية المراحل التعليمية ، فإن هذا يعنى أن من ينجح -دون وجه حق- بسبب رشوة الدرس الخاص، سوف لايجد فرصة لتعويض ما فاته من علم (بما أن الجامعة نهاية المرحلة التعليمية) ، كما أن أستاذ الجامعة ، الذى يرشى بالدرس الخاص، سيخرج للمجتمع ما يتوهم المجتمع أنهم إخصائيون، وهم فى الحقيقة غير ذلك ، فيعهد إليهم بما لم يؤهلوا بالفعل عليه من أعمال فيفشلون فيها. ولنا أن نتخيل المصائب التى يجرها على المجتمع طبيب أو مهندس ، كانت الرشوة أساس نجاحه وحصوله على شهادته الجامعية .

فإذا كانت وزارة التعليم تحارب الآن الدروس الخصوصية فى مدارسها ، وتجد فى ذلك ماوسعها الجهد، فإن الجامعة أولى بذلك ، لخطورة ما تجره الدروس الخصوصية فيها من وبال على المجتمع .

٣- رفض نشر المذكرات ومقاومتها :

يجب أن يقاوم أستاذ الجامعة نشر المذكرات واعتماد الطلاب عليها فى التحصيل العلمى، إلا عند الضرورة القصوى ، وفيما ندر من أحوال . وقد أصبح انتشار المذكرات بالجامعة واعتماد الطلاب الأساسى عليها -فى أيامنا هذه- وصمة عار فى جبين التعليم الجامعى، يؤرق -هو والدروس الخصوصية- ذوى الضمائر الحية ، ممن يهمهم حال التعليم الجامعى فى مصر. فالمذكرات يعيبها اختصارها الشديد، وتعجل تأليفها وطباعتها ، مما يجعل الطالب يعتمد علي مؤلف مملوء بالأخطاء ، لم يكتمل نضجه ، شديد الاختصار ، يتناول قشور المادة فقط. فيسعد الطالب بها متوهمًا أنها تحتوى على العلم كله، فيقتصر بها عن قراءة المراجع الأساسية ، فالإنسان -بطبعه- يحب أن يبذل أقل جهد لتحقيق ما يريد . وكم نسمع عن مواد أساسية تدرس بالجامعة فى بضع عشرات من الصفحات، هى كل مذكرة المادة ومرجعها الأول والأخير. وفى هذا امتهان، ما بعده امتهان، للدور العلمى للجامعة . وبعض الأساتذة الذين يقومون بإعداد هذه المذكرات وطبعها يستهدفون -أساسًا- التيسير على الطالب على حساب العلم، بينما يستهدف بعضهم الآخر تحقيق كسب مادى كبير وسريع، وكلا الهدفين مدان فى الأعراف الجامعية الأصيلة.

ويرتبط بهذا السلوك، ويقترب منه، جعل الطالب يرجع إلى مرجع واحد هو مرجع الأستاذ ، حتى لو كان كتابًا موسعًا ، وليس مذكرة مختصرة . بل يجب أن نستحث الطالب الجامعى على الاطلاع والبحث والاستزادة مما جاء فى المراجع المختلفة والمصادر الرئيسية فى التعليم الجامعى ؛ لأنه تعليم نوعى تخصصى عال، يختلف -فى طبيعته- عن التعليم الإعدادى والثانوى، الذى يعتمد على الكتب المقررة . لكن، ينبغى أن يستثنى من ذلك بعض المواد المحدّدة التى تتطلب طبيعتها ذلك، كمواد النصوص على سبيل المثال .

ومما يؤسف له أن جامعاتنا أصبحت الآن أميل إلى اعتماد فكرة الكتاب المقرر وعدم مقاومتها ومحاربتها ، إلا أننا نهيب بالأستاذ الجامعى الحق أن يقوم هو بذلك ، وبشكل شخصى مع طلبته ، فيعطيهم أسماء المراجع الرئيسية لمادته، ويستحثهم على البحث والقراءة

فيها، حتى نطور تعليمنا الجامعي، ونعود به ونتفوق على ما كان عليه في السابق، قبل تفشي المذكرات ، وظهور الدروس الخصوصية .

٤- التقييم الموضوعي لتحصيل الطلاب ورفض المحاباة :

يجب أن يكون السلوك الفعلي لأستاذ الجامعة تطبيقًا للمبدأ الأخلاقي القائل «لاتخن من ائتمنك»، فالمجتمع قد ائتمنه على القيام بتعليم شبابه، وتقييم تحصيلهم تقييمًا موضوعيًا، تتحقق فيه العدالة والمساواة بينهم جميعًا . وبناءً على هذا، سوف يوجههم المجتمع ويختارهم لأعمال دون أخرى. وما لم يكن التقييم موضوعيًا نزيهًا ، خاليًا من الأغراض والأهواء والمنافع الشخصية الضيقة ، فسوف يضار المجتمع ضرراً بليغًا. ولنا أن نتصور أستاذاً جامعيًا أراد أن يجامل زميلاً له في ابنه ، فيسر له أخذ الدرجات العليا في المواد بحيث أصبح أول دفعته ، وعُيِّن معيداً (أو أستاذاً مبتدئًا بالجامعة) تبعًا لذلك، وهو في الواقع شديد الضعف في مستواه العلمي، حيث كانت الدرجات المرتفعة التي حصل عليها لمجرد المجاملة، فكم تخسر الجامعة، وكم يخسر المجتمع من تصرف كهذا .. ؟ !! وكم تتدمر من نفوس طموحة لزملاء هذا الطالب ، الذين يرون أن تقديراتهم العلمية تتحكم فيها المجاملات الشخصية ، وليست العدالة الموضوعية.. وكثيراً ما يشبه موقف الأستاذ الجامعي بموقف القاضي، الذي نطلب فيه النزاهة والموضوعية والعدالة والمساواة .

٥- الأمانة في البحث والنقل والاقتباس :

من بين مهام الأستاذ الجامعي الأساسية قيامه بالبحث العلمي وبالتأليف . ويجب أن يلتزم سلوكه في كليهما بالأمانة العلمية ، ويقصد بها هنا التزام الدقة والموضوعية والصدق، والبُعد عن الأهواء الخاصة والتعصب، أثناء البحث أو التأليف، على حد سواء. فواجب الأستاذ الجامعي هنا هو أن يستهدف الوصول إلى الحقيقة، وكشفها وإظهارها دون لوى لها ، أو تحايل عليها، فإذا خرج من بحثه بنتيجة لايرضاها ، أو لايحب الاعتراف بها ، ولم ينشرها وتجاهلها ، فإنه هنا يكون قد خان الأمانة العلمية الواجبة في البحث . كما أن الأستاذ الجامعي عندما ينقل نصًا عن غيره من المؤلفين ، أو ينقل معلومة دون أن يشير إلى ذلك صراحة وبوضح، فإنه يكون قد قام بسرقة علمية ، يستحق الإدانة عليها ماديًا ومعنويًا ، مما ينتقص من قدره ومكانته. وقد يصل به الأمر إلى حد فصله من الجامعة ، ومن عضوية الجمعيات العلمية التي ينتمي إليها، إمعانًا في رفض المجتمع لمثل هذا السلوك المشين .

خلاصة فى خاتمة :

استهدفنا فى هذا المقال أن نضع تصورنا لما ينبغى أن يكون عليه الأستاذ الجامعى من خصائص شخصية ، وسمات إنسانية ، واستعدادات نفسية وعقلية. هذا، إضافة إلى ما ينبغى أن يلتزم به فى فى سلوكياته وتصرفاته الشخصية والمهنية .

ولاندّعى أننا قد أحطنا بكل ما ينبغى ذكره فى هذين الأمرين، بل إننا قد اكتفينا -فقط- بذكر بعض مما رأيناه ذات أهمية منهما فى ظروف الجامعة، التى نعيشها الآن، وننفعل بها، مشاركين فى همومها ومقلقاتها ، وذلك وفق ما يسمح به حيز المقال، فبدأنا بالحديث عن أهمية توافر المعرفة الواسعة فى مجال تخصص الأستاذ الجامعى ، ثم ضرورة توافر الذكاء فيه كقدرة عقلية هامة ، ثم ضرورة توافر قدرٍ كبيرٍ من الطاقة الجسمية والنفسية له ، تقويانه على أداء مهام واجباته المختلفة ، ثم أهمية توافر ميله لمهنة التدريس الجامعى، حتى يمده بالدافع النفسى لأداء واجباتها على أفضل وجه يستطيعه . ثم تحدثنا عن ضرورة أن يتوافر للأستاذ الجامعى مكون أساسى من مكونات الشخصية، هو الضمير الحى الذى يسهم فى دفعه لأداء واجباته المهنية، ويحرس التزاماته الأخلاقية والإنسانية .

ثم انتقلنا -بعد ذلك- إلى سلوك الأستاذ الجامعى ، وبيَّنا أنه سوف يكون ترجمة لخصائصه الشخصية ، التى ذكرنا بعضها فى حديثنا السابق. وهكذا ، أشرنا إلى ضرورة أن يجسد الأستاذ الجامعى بسلوكه القدوة الصالحة التى نرجو أن يقتدى بها شبابنا ومواطنونا ، ثم ذكرنا ضرورة رفض الأستاذ الجامعى ومقاومته لظاهرة الدروس الخصوصية ، ولظاهرة انتشار المذكرات التى يعتمد عليها الطلاب فى تحصيلهم العلمى، ثم انتقلنا إلى ضرورة أن يكون تقييم الأستاذ الجامعى لتحصيل طلابه تقييمًا موضوعيًا عادلاً ، يرفض فيه ويقاوم ضغوط المحاباة والمصالح المتبادلة. ثم أشرنا -أخيراً- إلى ضرورة أن يتصف الأستاذ الجامعى، وهو يسلك فى دروب البحث أو التأليف، بالأمانة العلمية .

ولقد أعطينا -أثناء عرضنا لكل ذلك- شروحًا وأمثلة توضح ما نقول وتبرره، وتكشف الهدف منه وتبرزه .

* * *

المراجع :

١- سيجموند فرويد . محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى، ترجمة أحمد عزت راجح . القاهرة مكتبة مصر ، بدون تاريخ .

٢- فرج عبد القادر طه . علم النفس وقضايا العصر . القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨٨، (الطبعة السادسة).

٣- فرج عبد القادر طه . علم النفس الصناعى والتنظيمى . القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨٨ (الطبعة السادسة) .

٤- موريس فيتلس . علم النفس المهنى، ترجمة أحمد زكى صالح ، فى : ميادين علم النفس ، المجلد الثانى، أشرف على تأليفه جيلفورد، وأشرف على ترجمته يوسف مراد. القاهرة، دار المعارف ، ١٩٥٦ .

الأستاذ الجامعى
و «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر»

عن الميثاق الأخلاقى :

«فى منتصف عام ١٩٩٥، صدر «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» عن «الجمعية المصرية للدراسات النفسية» و«رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية »، حيث تم نشره بعدد أبريل ١٩٩٥ من «مجلة دراسات نفسية» وبعدد مايو ١٩٩٥ من «المجلة المصرية للدراسات النفسية». كما أن «مجلة الثقافة النفسية» التى تصدر فى بيروت عن مركز البحوث النفسية بلبنان قامت فى عدد أكتوبر ١٩٩٥ بنشره أيضًا، مع تقريظه كخطوة حضارية تتطلبها المهن النفسية ، لا فى مصر وحدها بل فى سائر بلاد العالم المتحضر، وحثت البلاد العربية على اقتفاء أثر مصر فى هذا الشأن .

ولعل من نافلة القول أن نذكر أن المواثيق الأخلاقية للمشتغلين بعلم النفس معروفة ومنشورة فى كثير من بلاد العالم المتقدم ، والذى حقق فيه علم النفس - بخدماته المتنوعة والمتشعبة- مكانة عالية ؛ كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى انجلترا ، وفى غيرهما . ولقد كان وضع مثل هذا الميثاق الأخلاقى ونشره أملاً كبيراً راود المشتغلين بعلم النفس فى مصر زمنًا طويلاً ؛ منذ أن انتظم رواده الأوائل -من نصف قرن- فى «الجمعية المصرية للدراسات النفسية » وأعلنوا عن إنشائها ، ومنذ المؤتمر الرابع لعلم النفس فى مصر » والذى عقدته «الجمعية المصرية للدراسات النفسية » فى كلية الآداب بجامعة عين شمس فى يناير من عام ١٩٨٨ ؛ حيث شكل المؤتمر لجنة من أساتذة علم النفس لوضع ميثاق أخلاقى للمشتغلين بعلم النفس ؛ نظراً للحاجة الماسة إليه. إلا أن هذه الآمال لم تتحقق، وتلك الجهود لم تستمر ولم تنجح لسبب أو لآخر- وظل الإحساس بالحاجة إلى هذا الميثاق يتزايد ، إلى أن دعت «رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية» إلى ندوة ساهمت فيها «الجمعية المصرية للدراسات النفسية» حول «المعايير الأخلاقية للممارسة النفسية فى مصر ». ولقد عقدت هذه الندوة ، لمدة يوم واحد فى القاهرة (٢٨ / ٣ / ١٩٩٤) ، حيث عرضت فيها أوراق وبحوث

---

* نشر هذا المقال فى مجلة دراسات نفسية، المجلد الثامن، العدد ٤، أكتوبر ١٩٩٨، ص٣٠٧-٣٣١٦ .

مختلفة . وفى نهاية الندوة تشكلت لجنة لإعداد الميثاق الأخلاقى ، واختير لها فرج عبد القادر طه رئيسًا . وطلب منها تكثيف الجهد، والبدء الفورى فى إعداد الميثاق، ومناقشة بنوده على أوسع نطاق بين المشتغلين بعلم النفس وأساتذته وأعضاء «الجمعية المصرية للدراسات النفسية» و «رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية». وفى هذه اللجنة بذل عبد الحميد صفوت إبراهيم جهداً كبيراً ؛ حيث كان -علاوة على عضويته فيها - يقوم بالأعمال التى تتطلبها الأمانة العامة للجنة . وبعد مناقشات مشروع الميثاق وإقراره فى صيغته النهائية من قبل «الجمعية المصرية للدراسات النفسية» و«رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية» ، تم نشره بمجلتيهما ؛ على نحو ما سبق أن ذكرنا ، وبهذا استكملت إجراءات صدوره . وبدأت بعض مراجع علم النفس العربية تنشره كملحق لها، وبدأ -أيضا- بعض أساتذة علم النفس يدرِّسونه فى موادهم، لتوعية طلابهم بالأصول الأخلاقية الواجب الالتزام بها أثناء ممارساتهم المهنية بعد تخرجهم ، بل أثناء دراستهم وتدريبهم أيضًا .

ولاشك فى أن «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر «شأنه شأن المواثيق الأخلاقية النفسية الأخرى بدول العالم ، أو مواثيق المهن الأخرى التى صدرت بمصر، تحتاج بين الحين والآخر، إلى مراجعة تتمثل فى حذف أو إضافة أو تعديل فى بنوده وأجزائه ، وفق تطور الممارسات المهنية، وما يستجد فيها وعنها من مشكلات وقضايا ، وما يطرأ على المجتمع وظروفه من تغيرات وتحولات؛ على نحو ما يحدث فى ميثاق جمعية علم النفس الأمريكية، على سبيل المثال .

الميثاق المصرى والأستاذ الجامعى :

يتكون نص الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر « من تمهيد واثنين وثمانين (٨٢) بنداً ، موزعة على ثمانية أقسام، هى :

١- مبادئ عامة : ويشتمل على (١٧) بنداً .

٢- القياس النفسى: ويشتمل على (١٣) بنداً .

٣- أخلاقيات البحوث والتجارب : ويشتمل على (١٤) بنداً .

٤- أخلاقيات التشخيص والعلاج : ويشتمل على (١٠) بنود .

٥- أخلاقيات التدريس والتدريب : ويشتمل على (١٤) بنداً .

٦- العمل فى المؤسسات الإنتاجية والمهنية : ويشتمل على بندين .

٧- الإعلام والإعلان والشهادة : ويشتمل على ستة (٦) بنود .

٨- حول تطبيق هذا الميثاق : ويشتمل على ستة (٦) بنود أيضًا .

بنود الميثاق الأخلاقى وسلوكيات الأستاذ الجامعى :

نظراً للقيمة والأهمية الكبرى، التى يضعها المجتمع على الأستاذ الجامعى فى تعليم وتكوين المواطن الصالح خلقيًا، والكفء علميًا ومهنيًا ، فإننا نجد أن عين المجتمع تركز عليه فى سلوكياته للاطمئنان إلى صلاحيتها، وفى أخلاقياته للاطمئنان إلى سلامتها، وإلى صفاته الشخصية للاطمئنان إلى مناسبته للمهمة الملقاة على عاتقه . وفى مقال لنا بعنوان «الأستاذ الجامعى : الإنسان والسلوك» (فرج عبد القادر طه : ١٩٨٩) أشرنا إلى بعض ذلك : مثل ضرورة توافر الصحة النفسية والاتزان النفسى، والضمير الحى، وأن يكون سلوك الأستاذ الجامعى تجسيداً حيًا واقعيًا للقدوة الصالحة ، وأن يرفض الدروس الخصوصية ، وأن يقاوم نشر المذكرات، وأن يكون موضوعيًا رافضًا للمحاباة أو المجاملة فى تقييمه لتحصيل طلابه ، وبعيداً عن أى نوع من الاستغلال فى علاقاته بهم. وتعاملاته معهم كل هذا إضافة إلى ماينبغى أن يتحلى به من أمانة فى البحث والنقل والاقتباس ...

فإذا ما انتقلنا إلى بنود «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر»، وأقسامه ، وجدنا أن هذا الميثاق قد خصَّص أربعة عشر بنداً (١٤) منه تحت القسم الخاص بأخلاقيات التدريس والتدريب ، إضافة إلى أربعة عشر بنداً أخرى تحت القسم الخاص بأخلاقيات البحوث والتجارب، مما يشير إلى أن هذا الميثاق قد فطن إلى أهمية سلوك الأستاذ الجامعى، فخصص ما يزيد عن ثُلث بنوده لتقنينه وتحديد ما يجب أن يتصف به هذا السلوك ، وما يلزم أن يحكمه من إطار أخلاقى، وقيم فاضلة ؛ حيث إن واجبات الأستاذ الجامعى تتركز -أساسًا- فى التدريس والتدريب والبحث العلمى، كما نعلم جميعًا. ولئن بدت هذه البنود خاصة بالمشتغلين بعلم النفس، فإن من نافلة القول أن نذكر أن أغلبها ينطبق على المشتغلين بالعلوم الأخرى ، وقد يحتاج بعضها ، لانطباقه على العلوم الأخرى، إلى تعديلات وتحويرات شكلية ؛ لاتمس الجوهر الكامن فيها.

وهكذا ؛ يبدأ الميثاق الأخلاقى -فى تمهيده- بالقول : «لكل مهنة - من المهن الهامة فى المجتمع- أخلاقيات ومواثيق وقواعد ومبادئ تحكم قواعد العمل والسلوك فيها، وشروطه ، وما ينبغى التزامه من جانب المتخصصين فيها، والممارسين لنشاطها . وهذا الميثاق الأخلاقى يعتبر دستوراً تعاهدياً بين المتخصصين ، يلتزمون ، وفقًا له ، بالسلوك الهادف إلى أداء مهنى عالٍ ، يترفع عن الأخطاء ، والتجاوزات الضارة بالمهنة ، أو بمشتغليها ، أو بالإنسان الذى تستهدفه هذه الخدمة النفسية . ويكتسب هذا الدستور قوته واحترامه من قوة الالتزام الأدبى والإجماع الصادق على أهمية تنظيم هذه المهنة من جانب العاملين فيها».

ويضيف الميثاق الأخلاقى، فى مبادئه العامة، فى البند الثانى : «يسعى الإخصائى النفسى إلى إفادة المجتمع ، ومراعاة الصالح العام ، والشرائع السماوية ، والدستور والقانون» وفى البند السادس : «يقيم الإخصائى النفسى علاقة موضوعية متوازنة مع العميل، أساسها الصدق وعدم الخداع ... متجنبًا شبهة الاستغلال أو الابتزاز ». وفى البند السابع : «لايقيم الإخصائى النفسى علاقات شخصية - خاصة مع العميل - يشوبها الاستغلال الجنسى، أو المادى ، أو النفعى ، أو الأنانى»، وفى البند السابع عشر والأخير من القسم الأول من الميثاق، والخاص بالمبادئ العامة، يقول الميثاق : «يسعى الإخصائى النفسى لأن تكون تصرفاته وأقواله فى اتجاه ما يرفع من قيمة المهنة النفسية فى نظر الآخرين ، ويكسبها احترام المجتمع وتقديره ، وينأى بها عن الابتذال والتجريح ». ولعل الأمر الذى لايحتاج إلى زيادة بيان أو تأكيد هنا هو أن الإخصائى النفسى -فى البنود السابقة جميعًا- يدخل فى مقصوده أستاذ علم النفس بالجامعة، كما أن العميل، أو المستهدف من الخدمة، يدخل فى مقصوده الطالب الجامعى .

وعندما ننتقل من هذه البنود والقواعد العامة ، وما بها من إشارات وتلميحات، أو تصريحات عن الالتزامات الأخلاقية الواجبة على الإخصائى النفسى (وأستاذ علم النفس بالجامعة واحد منهم) ، إلى ما هو أكثر مباشرة ودخولاً فى مجال أخلاقيات التدريس والتدريب، كقسم مستقل من بنود الميثاق الأخلاقى ، فإننا نجد البند الأول يقول : «يبذل الإخصائى النفسى كل ما يستطيع لإعداد وتدريب المتخصصين الجدد فى علم النفس ، مع إسداء النصح والتوجيه المخلص لهم ». وفى البند الرابع نجده أكثر صراحة ووضوحًا، حيث يقول: «يقدر الإخصائى النفسى الذى يعمل بالتدريس أو التدريب السلطة التى لديه على المتدربين أو الطلاب، وعليه القيام بجهد متزن لتجنب ممارسة سلوك ينتج عنه إهانة الطلاب،

أو الحط من قدرهم ». وفى البند السادس يقول : «يجب أن يترفَّع الإخصائى النفسى المشتغل بالتدريس عن التصرفات التى تسئ إليه أخلاقيًا ؛ مثل إجبار الطلاب على القيام بأعمال المنفعة الخاصة ...» . وفى البند السابع يقول : «يترفَّع الإخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس عن قبول أى مقابل مادى أو معنوى لما يقدمه للطلاب من محاضرات ، أو تدريبات أو إشراف ، بخلاف المرتب أو المكافأة التى تقدمها له جهة العمل». وفى البند التاسع من هذا القسم المتعلق بالتدريس والتدريب فى الميثاق، نجده ينتقل إلى بيان ما يجب علينا مراعاته عند تعيين أستاذ الجامعة فيقول : «يحرص الإخصائى النفسى المشتغل بتدريس علم النفس على مصلحة القسم الذى ينتمى إليه، وذلك بالاهتمام بضم أفضل العناصر على أسس موضوعية ، ودون مراعاة لاعتبارات المنافسة على المناصب الإدارية ، والتى قد تنتج عن هذا الاختيار». والأسس الموضوعية هنا تشمل -بلا شك- مدى الاتزان النفسى لعضو هيئة التدريس المراد تعيينه ، ومدى استمتاعه بالخلق القويم والصفات الشخصية الفاضلة ، علاوة على الكفاية العلمية والمهنية بطبيعة الحال .

أما عن أخلاقيات البحوث والتجارب - والتى تعتبر من واجبات أستاذ الجامعة الأساسية- فإن الميثاق الأخلاقى يفرد لها عدة بنود يدرجها تحت قسم «أخلاقيات البحوث والتجارب» . فنجد البند الأول فى هذا القسم يقول : «يبتعد الإخصائى النفسى عن توجيه أهداف البحث لأغراض المجاملة ، أو لخدمة أهداف خاصة، أو للدعاية ». وفى البند السادس يقول الميثاق : «يحرص الإخصائى النفسى على عدم استخدام سلطاته الإدارية ، أو نفوذه الأدبى، أو أساليب الإحراج ، أو الضغط على من يرأسهم ، أو على من تكون لديه سلطة أكاديمية عليهم ؛ كالطلاب ، أو المعيدين، أو المترددين للإرشاد أو العلاج ، وذلك لدفعهم للمشاركة فى (البحث) أو للضغط عليهم للاستمرار فيه، إذا رغبوا فى التوقف» .

ولعل ما عرضناه من نماذج لبنود الميثاق الأخلاقى يوضح حرصه وتنبيهه على ضرورة تحلى الأستاذ الجامعى بالخلق الحميد، والسلوك الرشيد، والاتزان النفسى الواضح، والبُعد غاية البُعد عن كل ما يمس النزاهة والأمانة ، وشبهة الاستغلال المادى أو المعنوى لطلابه... كما يوضح فى الوقت نفسه وينبه إلى أهمية الموضوعية ونزاهة الغرض، سواء عند إعداد الأستاذ الجامعى أو تعيينه أو ترقيته .

وليس هناك من شك فى أن أهمية وظيفة الأستاذ الجامعى تفرض علينا الحرص الشديد والالتزام الصارم بضرورة تطبيق ما جاء ببنود الميثاق الأخلاقى، متعلقًا باختيار أستاذ الجامعة

وتدريبه وتعيينه وترقيته ، بناءً على معايير اجتماعية ، ومبادئ أخلاقية ، والتزامات أدبية، تنأى بأستاذ الجامعة عن الانحرافات السلوكية والأخلاقية، وتركز جهوده فى نفع طلابه، وتأصيل مؤلفاته ، والارتقاء ببحوثه ومستواه العلمى .

القيم الأخلاقية وإجبار عالم النفس واطسون على الاستقالة من الجامعة :

يعتبر العالم الأمريكى چون واطسون John B.Watson (١٨٧٨-١٩٥٨) من أعظم علماء النفس وأشهرهم فى العالم ، فهو مؤسس المدرسة السلوكية فى علم النفس ؛ حيث يعتبر كتابه «السلوكية Behaviorism» الذى صدر عام ١٩١٤ فى طبعته الأولى (وروجع بعد ذلك عدة مرات ، ولا زال منتشراً ومتداولاً حتى الآن) دستور السلوكيين، وأساس فكرهم التقليدى فى علم النفس، وشاملاً للمبادئ الأساسية والتقليدية للاتجاه السلوكى المنتشر فى أنحاء العالم. وفى عام ١٩٠٩ ، عين أستاذاً Full Professor فى جامعة چونز هوبكنز Johns Hopkins University . فكان من أصغر أساتذة الجامعة سنًا ، وأنشطهم وأشهرهم باتجاهه الجديد فى دراسة علم النفس والسلوك . وفى عام ١٩١٥ ، اختير رئيسًا لجمعية علم النفس الأمريكية (الـ APA) .

وبمثل ما كان صعود واطسون سريعًا وقويًا فى ميدان علم النفس، كان هبوطه سريعًا وسقوطه مدويًا- على نحو ما يشير رايموند فانشر (Raymond Fancher : 1979 ; 321) - حيث انتهى تاريخه المهنى الجامعى فى خريف عام ١٩٢٠ بشكل مأساوى، عندما أجبرته جامعة هوبكنز على تقديم استقالته . فلقد تورط فى علاقة غير مشروعة مع تلميذته روزالى راينر Rosalie Rayner أدت به إلى الطلاق من زوجته الأولى والزواج منها. فقد رأت إدارة الجامعة أنه لايجوز الصفح عن سلوك من هذا النوع ؛ إذ يتعارض مع مكانة الجامعة واحترامها كمؤسسة تربوية . وقد ظل واطسون - هذا العالم العملاق - بقية حياته المهنية ، حتى وفاته فى عام ١٩٥٨ ،يزاول أعمالاً دون مستواه العلمى، وشهرته العالمية .

ومع قناعتنا بأن موقف الجامعة الأمريكية من واطسون- بسبب هذه الخطيئة الأخلاقية- كان سيختلف عنه فيما لو حدثت فى أيامنا هذه، إلا أننا أوردناها كمثل على مدى الخطورة فى تجاهل القيم والمعايير والأخلاقيات، التى يجب أن يتصف بها سلوك الأستاذ الجامعى وأن يخضع لها؛ خاصة فى مجتمعنا العربى. ومن هنا كان تركيز «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» كبيراً فى تصريحاته، أو تلميحاته، للقواعد والمبادئ التى يجب على

الأستاذ الجامعى أن يلتزم بها فى سلوكه ، وأن يراعيها فى تصرفاته ، وأثناء القيام بواجباته، وفى مختلف علاقاته ، خاصة ما كان يرتبط منها بطلابه وتعليمهم وتدريبهم وتقييمهم .

أستاذ الجامعة : أأخلاق أم كفاية ؟

ركز «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» - كما رأينا- على أخلاقيات الأستاذ وضوابط سلوكه ومعاييرها باعتباره -فى الأصل- متخصصًا أُنيطت به مهمة تعليم أجيال المتخصصين وتدريبهم ، واختيار من يصلح منهم للدراسات العليا وتعيينه وترقيته ليزامله ، أو يواصل واجبات الأستاذية من بعده .

وأستاذ الجامعة- على الأقل فى مصر - له حرية تكاد تكون مطلقة ، ودون رقيب إلا من ضميره - عندما يقوم بواجباته المختلفة ، فهو الذى يحدِّد موضوعات المادة التى يقوم بتدريسها ، ومراجعها ، وهو الذى يضع امتحاناتها ثم يقوم بتصحيحها ، وهو الذى يدرِّب طلابه، ويمتحنهم شفويًا وعمليًا ، ويضع لهم درجاتهم التى ينجحون وفقها ، أو يرسبون ... الأمر الذى يعنى أن المجتمع قد ائتمن هذا الأستاذ ، وأطلق يده فى أداء هذه المهمة الجليلة. ويجب على أستاذ الجامعة أن يكون عند حسن هذا الظن من جانب المجتمع، ولايجوز له أن يقابله بالنكران ، فيخون الأمانة، أو يستهتر بأداء الواجب، أو يستغل الطالب ويتربح منه، سواء أكان ذلك فى الدروس الخصوصية ، أم المذكرات التى تسطح العلم، وترهق الطالب بعبء مالى جديد، إضافة إلى عبء المراجع العلمية، أم فى أداء مصالح معينة، أم فى تحقيق أغراض خاصة للأستاذ .. إلى آخر ما هنالك، مما نسمع عنه فى الدردشات، أو نقرأ عنه فى الصحف والمجلات.

ولعل من أهم واجبات أستاذ الجامعة حسن اختيار طلابه فى الدراسات العليا ، خاصة لدرجتى الماجستير والدكتوراة ، واللتين يتم فيهما الإعداد العلمى والمهنى لأستاذ الجامعة فى المستقبل ، حيث يكون بينهم المعيد والمدرس المساعد بالجامعة . وعادة -فى مصر على الأقل- تترك الحرية لأستاذ الجامعة فى اختيار طالبه للماجستير أو الدكتوراة ، وعادة ما يترك للطالب -أيضًا- اختيار أستاذه ؛ بمعنى أن يكون الاختيار متبادلاً بينهما . ومن هنا، فإن التلاميذ تحسب على أساتذتها، إن أحسنت أو أساءت ، فيفخر بعضهم ببعض ، كما قد يتنكر بعضهم لبعض ويتنصل منه ، على أساس المحصلة النهائية لعلاقاتهم من زاوية نظر كل منهم .

وما يهمنا فى هذا المقام هو المعيار الذى ينبغى أن يختار الأستاذ على أساسه تلميذه . هل هو معيار الكفاية العلمية ؟ أم معيار السواء النفسى والخلقى؟ أم هما معًا ؟

نحن لانشك فى أن من الأفضل الجمع بين المعيارين معًا ؛ حيث لايمكن لأستاذ المستقبل فى الجامعة أن يستغنى عن أيٍ من المعيارين ، فالمستوى العلمى والمهنى لازم لحسن القيام بوظيفة التدريس والتعليم والتدريب والبحث ، كما أن المستوى الخلقى والاتزان النفسى لازمان أشد اللزوم للعلاقة الموضوعية النزيهة والعادلة والبعيدة عن الاستغلال والمحاباة فى التقييم من جانب الأستاذ، الذى تقوم بإعداده لتلاميذ المستقبل ، كما أنهما- أقصد المستوى الخلقى والاتزان النفسى، ضمانة - إلى حد كبير- ضد الفساد والاستغلال والاستهتار الذى يلوث بعض الناس فى أدائهم لواجباتهم . وهكذا، فإن القضية ليست مفاضلة -عند إعدادنا أو اختيارنا لأستاذ المستقبل بين الكفاية العلمية والمهنية وبين المستوى الخلقى والاتزان النفسى، وإنما يقتضى الأمر ضرورة الجمع بينهما ، بمثل ما يقتضى المشى السليم وجود ساقين سليمتين، حيث لاتكفى سلامة ساق واحدة .

ومن حسن الحظ أن إعداد الأستاذ الجامعى يستغرق سنوات طويلة، يدرس فيها لدرجتى الماجستير والدكتوراة ، ومن ثم تتاح للأستاذ فرصة طويلة لاكتشاف عيوب تلميذه ، وسلبيات سلوكه ، وسوء أخلاقه إن كانت هذه الصفات تميزه . وهنا، يمكن للأستاذ أن يتخلَّى عن تلميذه، أو يكتفى بحصوله على الماچستير، مع نصحه فى الحالتين بنقله إلى مهنة أخرى غير التدريس فى الجامعة ، وذلك حتى لايسيئ مستقبلاً إلى سمعة الجامعة، وأيضًا إلى سمعة أستاذه فى الوقت ذاته باعتباره - فى نهاية المطاف محسوبًا عليه، كما سبق أن أشرت .

خلاصة فى الختام :

يعتبر صدور «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» فى منتصف عام ١٩٩٥، نقلة حضارية فى ميدان الخدمة النفسية فى مجالاتها المختلفة . ذلك أن تقعيد الأداء المهنى، وإحاطته بسياج من الأخلاقيات الفاضلة المفصَّلة والموثقة والمعلنة فى الوقت نفسه، أمر لاتستغنى عنه أية مهنة ، ذات شأن وأهمية فى المجتمع، على نحو ما هو معروف ومتحقِّق فى الصحافة والطب والمحاماة ، وغيرها . ويدعونا هذا إلى التوعية ببنود هذا الميثاق ونشره ، والتعريف بأهم ما جاء به على مستوى المجتمع عامة، والمثقفين خاصة، والمبتدئين فى دراسة علم النفس والتخصص فيه على نحو أخص وأولى ؛ فأخلاقيات مزاولة المهنة ينبغى أن تسبق

الأداء المهنى ذاته. بل إن الأداء المهنى ذاته لايحقق الفائدة المرجوة منه إن ابتعد عن القيم الأخلاقية اللازمة للمهنة ؛ فالمحامى الذى يخون موكِّله ، والطبيب الذى ينتهز فرصة إجرائه لعملية جراحية ، فيسرق بعض أعضاء جسم المريض أثناءها لبيعها لمريض آخر يحتاجها ، والصحفى الذى يبتز مواطنًا ما وإلا شهر به فى صحيفته دون وجه حق، والإخصائى النفسى الذى لايرعى حقوق عميله ، ولايحافظ على أسراره، فيحاول ابتزازه عن طريق التلويح بإفشائها ، والأستاذ الذى يستغل سلطته على تلاميذه ... كل هؤلاء ، وأمثالهم فى المجتمع، يضرونه أضعاف ما يفيدونه .

ولقد اخترت فى هذا المقال أن أركز على توصيات الميثاق الأخلاقى المصرى للمشتغلين بعلم النفس وتحديداته -تصريحًا أو تلميحًا- للأخلاقيات التى يجب أن يلتزم بها أستاذ الجامعة ، راجيًا أن تتاح لى فرص أخرى للحديث عن جوانب أخرى من هذا الميثاق .

المراجع :

١- فرج عبد القادر طه . الأستاذ الجامعى- الإنسان والسلوك ، مجلة علم النفس . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عدد . ١١ ، سبتمبر ١٩٨٩ ، ١٨-٢٤ .

٢- فرج عبد القادر طه . كلمة تمهيدية لتقديم الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر، مع نص الميثاق . المجلة المصرية للدراسات النفسية . القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، العدد : ١٢ ، مايو ١٩٩٥ ، ١١١-١٢٧ .

٣- الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر . مجلة دراسات نفسية . القاهرة، رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية ، المجلد الخامس ، عدد : ٢ ، إبريل ١٩٩٥ ، ١٨١-١٩٦ .

٤- Fancher , E. F. . Pioneers of Psycholgy. New York - London , Norton & Company 1979 .

تعليق :

نحن نسمع كثيراً ، ونقرأ فى الصحف عن أساتذة جامعة محبوسين رهن التحقيق، أو صدرت ضدهم أحكام بالسجن فى قضايا تمس خيانة الأمانة وسوء السلوك والأخلاق واستغلال النفوذ. ويتصادف -بعد الفراغ من كتابة هذا المقال- أن تنشر جريدة الأهرام الصادرة فى ٢١ يوليو ١٩٩٨ ، فى صفحة ٣٤ الخبر التالى :

٤٣٠.

القبض على أستاذ بإحدى كليات جامعة (...) استغل عمله بالكونترول لمساومة الطلاب الراسبين لإنجاحهم :

كتب - محمد شعير :

ألقت مباحث الأموال العامة القبض على أستاذ جامعى بإحدى كليات جامعة (...) لاتهامه باستغلال موقعه الوظيفى ، كعضو بهيئة الكونترول بالكلية، للحصول على مبالغ مالية على سبيل الرشوة من الطلبة الراسبين ، مقابل التدخل لإنجاحهم فى المواد التى رسبوا فيها، وتولت النيابة التحقيق .

وكانت المعلومات قد وردت إلى مدير الإدارة العامة لمباحث الأموال العامة تفيد قيام الأستاذ الجامعى بمساومة طلاب الكلية للحصول على مبالغ مالية كبيرة بحكم عمله ضمن هيئة الكونترول مقابل إنجاحهم ، وأكدت تحريات ضباط إدارة مكافحة جرائم الرشوة واستغلال النفوذ بالتنسيق مع ضباط حرس جامعة (...) أن الأستاذ الجامعى يتمتع بسمعة سيئة داخل محيط عمله بالكلية ، وأنه اعتاد استغلال سلطاته الوظيفية فى الاتصال بالطلاب الراسبين لتحقيق الاستفادة المادية من ورائهم ، وتأكدت المعلومات ببلاغ تقدمت به طالبة بالفرقة الثانية بالكلية بأن الأستاذ الجامعى تقاضى مبلغ ٤ آلاف جنيه ، وأكدت المراقبات السرية، التى رصدتها مباحث الأموال العامة ، بأن المتهم سبق له الحصول على مبالغ مالية أخرى من الطالبة، وأنها تقدمت ببلاغها رافضة الخضوع لمساومته ، وتم إعداد كمين لضبط المتهم، حيث ألقى القبض عليه متلبساً داخل مطعم شهير بميدان التحرير، بعد أن أكد للطالبة أنه سيضمن نجاحها فى المواد التى ادعى رسوبها فيها. وعثر معه على أرقام جلوس لبعض الطلبة والأرقام السرية المناظرة لها، كما تم ضبط مبالغ مالية كبيرة بحوزته لم يتمكن من تحديد مصدرها وتولت النيابة التحقيق» .

ثانيًا

تصديرات

كلمة تمهيدية لتقديم «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» *

إن الالتزام العلمى الجاد، والعرف الحضارى السائد يحتِّمان على المشتغلين بالمهن على اختلافها أن يكون لكل منها ميثاق أخلاقى معروف، يُلجأ إليه لتوجيه الممارسين لها نحو ماينبغى عليهم، وما يجب من كيفية ممارسة نشاطهم، وضبط سلوكهم، ومحاسبتهم عند الخروج عن مقتضيات الواجب وأخلاقيات المهنة.

ولذلك، فقد كان أملاً كبيراً راود الجمعية المصرية للدراسات النفسية، ورابطة الإخصائيين النفسيين المصرية، والمشتغلين بعلم النفس فى مصر عامة، أن يوضع ميثاق يحدد أصول مزاولة المهنة النفسية، ويلزم المشتغلين فيها بمبادئ أخلاقية ترفع من شأنها وتعلى من قدرها فى إفادة المجتمع ورفاهية أفراده، مع حفظ كرامتهم والسعى- ما وسع الجهد- لصالحهم.

وفى هذا الإطار، كونت الجمعية المصرية للدراسات النفسية لجنة من المتخصصين لوضع الميثاق الأخلاقى، تنفيذاً للتوصية الثانية من توصيات مؤتمرها الرابع لعلم النفس فى مصر، والذى عقد فى كلية الآداب بجامعة عين شمس فى يناير من عام ١٩٨٨، إلا أن هذه اللجنة لم يكتب لها الاستمرار. كما دعت رابطة الإخصائيين النفسيين لندوة أسهمت فيها الجمعية المصرية للدراسات النفسية، مشاركة مع كلية تربية دمنهور (جامعة الإسكندرية)، حول «المعايير الأخلاقية للممارسة النفسية فى مصر». ولقد انعقدت هذه الندوة لمدة يوم واحد بالقاهرة (الاثنين ٢٨ / ٣ / ١٩٩٤). وقد عرضت فيها الأوراق التالية :

١- المعايير الأخلاقية فى مجال علم النفس الإدارى، للأستاذ الدكتور نجيب اسكندر.

٢- أخلاقيات البحث فى مجال علم النفس التجريبى، للأستاذ الدكتور فؤاد أبو حطب.

٣- المعايير الأخلاقية فى مجال النشر العلمى، للأستاذ الدكتور صفوت فرج.

٤- أخلاقيات الممارسة الإكلينيكية، للأستاذ الدكتور فرج عبد القادر طه.

---

* هذه الكلمة قدَّم بها مؤلف الكتاب «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» فى منتصف عام ١٩٩٥، باعتباره رئيساً للجنة التى أعدته

٥- المعايير الأخلاقية فى مجال القياس النفسى ، للأستاذ الدكتور محمود عبد الحليم منسى .

وقد تمت مناقشات هامة من جانب السادة الأعضاء الذين حضروا الندوة . وانتهت الندوة إلى صياغة توصيات ، كان من بينها تكوين لجنة لإعداد «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» . واختير الأستاذ الدكتور فرج عبد القادر طه رئيسًا لها . وكلِّفت بتكثيف نشاطها لسرعة إنجاز الواجب الذى كلِّفت به ؛ نظراً لمسيس الحاجة إليه فى مصر .

ولهذا، فقد تمت استعانتها لتحقيق ذلك بأوراق الندوة سابقة الذكر ، وما جاء فى الندوة نفسها من مناقشات وما طرح من آراء، وبغير ذلك أيضًا ؛ على نحو استفادتنا من الترجمة التى قام بها ونشرها أ.د. صفوت فرج ، ود. عبد الحميد صفوت إبراهيم ، ود. محمود عبد الرحيم غلاب «للمبادئ الأخلاقية للإخصائيين النفسيين ودستور السلوك لجمعية علم النفس الأمريكية »، فى عدد أكتوبر ١٩٩٢ من مجلة دراسات نفسية . باعتبارها أحدث صورة للدستور الأخلاقى لجمعية علم النفس الأمريكية .

ولقد نوقش مشروع هذا الميثاق ، قبل إقراره على هذه الصورة ، فى عدة مناسبات ، وعلى عدة مستويات ، نذكر منها :

١- إرسال مئات الصور من مشروع الميثاق إلى المشتغلين بعلم النفس فى مصر ، سواء عن طريق البريد (الذى قامت به رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية ، عن طريق نشرتها الداخلية عدد يوليو - أغسطس ١٩٩٤) ، أو عن طريق الاتصال المباشر، طالبين إبداء الرأى حول مواد المشروع ، وما جاء فيه .

٢- قامت الجمعية المصرية للدراسات النفسية بتكرار ما قامت به الرابطة فى البند السابق؛ حيث وزع الكثير من صور المشروع على أعضاء «المؤتمر الحادى عشر لعلم النفس فى مصر» ، والذى عقد فى شهر يناير ١٩٩٥ بجامعة المنيا . كما قامت الجمعية -أيضًا- بطباعته وتوزيعه على أعضائها لنفس غرض إبداء الرأى عليه (بنشرة أخبار علم النفس، فبراير ١٩٩٥، التى تصدرها الجمعية) .

٣- ناقش مجلس إدارة رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية مشروع الميثاق مناقشة تفصيلية فى جلسة خاصة عقدت لذلك ، دعانى إليها مشكوراً ؛ وذلك فى يوم ١ / ١ / ١٩٩٥ ، حيث اعتمد الميثاق فيها .

٤- خصص «المؤتمر السنوى الحادى عشر لعلم النفس فى مصر» ، والذى عقد بجامعة المنيا فى يناير ١٩٩٥ (بمدينة المنيا) جلسته الثانية ، يوم ١٧ يناير ، لمناقشة مشروع الميثاق .

٥- فى ١٦ مارس ١٩٩٥ ، ناقشت الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، فى جمعيتها العمومية ، مشروع الميثاق وأقرته . وبهذه المناسبة ، ينبغى علينا أن ننوه بالجهد المخلص والضخم ، الذى بذله الزميل الدكتور عبد الحميد صفوت إبراهيم ، كعضو لجنة إعداد الميثاق . كما نشير إلى أن ظهور هذا الميثاق ، بالصورة التى هى عليه، ما كان يمكن أن يتم لولا الحماس والجهد الذى بذله كل من الأستاذ الدكتور فؤاد أبو حطب ، بصفته رئيسًا للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والأستاذ الدكتور صفوت فرج ، بصفته رئيسًا لرابطة الإخصائيين النفسيين المصرية ، وبصفتهما - أيضًا- من أعضاء لجنة إعداد الميثاق .

ونحن ، إذ نقدم اليوم هذا «الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر» فإننا نهنئهم- جميعًا- على ظهوره لأول مرة بمصر ، بل والعالم العربى. ونهيب بجميع المشتغلين بعلم النفس وأساتذته وطلابه الجامعيين أن يتدارسوه ويلتزموا بما جاء فيه ، حتى يتحقق القصد منه . والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه ، ولصالح الوطن ، والمشتغلين بعلم النفس، والمتخصصين فيه .

تقديم «مجموعة علم النفس الإنسانى»

يتنازع علم النفس تياران : أحدهما قديم ، وإن كان لايزال يجد له حتى الآن أنصاراً ، وهو علم النفس الآلى أو الميكانيكى. وهو الذى ينظر إلى الإنسان على أنه آلة تسيِّرها قوانين جامدة تنطبق على كل البشر، أشبه بتلك القوانين التى تخضع لها الآلة فى حركتها ، إنها نفس القوانين ، سواء نقلت الآلة من بيئة إلى بيئة ، أو صدرت من دولة إلى أخرى . فحركة الآلة لاتحمل معنى ولاتستهدف غرضًا غير الغرض الذى يستهدفه مصممها أو مشغلها . وواضح أن مثل هذا التيار فى علم النفس- وإن أنكر كثير من المنتمين إليه ارتباطهم به ، مع أن مؤلفاتهم تشهد بذلك- يشئ الإنسان، ويذهب به بعيداً .. بعيداً عن فهم ذاته، حيث يحوله من إنسان فاهم إلى شىء أو آلة غير فاهمة ، غير قاصدة لمعنى فى حياتها تحققه ، أو هدف فى سلوكها تستهدفه .

أما التيار الآخر ، وهو التيار الذى يتزايد أنصاره الآن ، فهو التيار الذى يدرس الإنسان بما هو إنسان ، تكونت شخصيته ، بما هى عليه ، وقت دراسته كحصيلة لما انحدرت إليه من خصائص وراثية عن طريق الأبوين والجدود ، وما تفاعل معها من الظروف البيئية الأسرية والتربوية والثقافية والاجتماعية المختلفة . تلك الشخصية التى تعتمل بداخلها ، ولاشك ، أفكار شتى،، ورغبات متعارضة ، وآمال متدافعة ، وتخيبلات متوهمة ، ودوافع متصارعة ، وانفعالات متناقضة ، وتمتلك -فى نفس الوقت- مهارات وخصائص عقلية ومعرفية وحسِّية وحركية وجسمية مختلفة ، وتعيش هذه الشخصيات بما هى عليه فى بيئة طبيعية واقتصادية وثقافية واجتماعية معينة ، تتأثر بها وتؤثر فيها. وبالتالى ، فإن الشخصية الإنسانية - فى نظر هذا التيار - تسلك وتتصرف لتحقيق التوافق مع ما يعتمل بداخلها ، ومع ما يحيط بها -فى نفس الوقت- من عوامل بيئية لاحصر لها ، قد يبدو بعضها أحيانًا- وهو بالفعل كذلك- عوامل متوهمة لا وجود لها ، إلا فى عقل صاحبها فقط. إذن، فإن الإنسان، وفق هذا التيار،

* الكلمة التى قدَّم بها مؤلف الكتاب لسلسلة كتب «مجموعة علم النفس الإنسانى»، التى بدأ الإشراف على إصدارها عام ١٩٧٩ ، بكتابة «سيكلوچية الحوادث وإصابات العمل» والذى نشرته مكتبة الخانجى، وفى صدره هذه الكلمة .

يقوم بسلوكه متجهًا به نحو هدف يحققه ، مراعيًا ومتأثراً بعوامل شتى وظروف كثيرة. وهذا الهدف من سلوكه ، وأيضًا تلك العوامل والظروف الكثيرة التى يتأثر بها سلوكه، يكون بعضها شعوريًا ، يعرفه الإنسان جيداً ، ويمكنه أن يحدثنا عنه . كما يكون بعضها الآخر لاشعوريا يحتاج معه الإنسان إلى بذل جهد كبير وفق منهج خاص ، حتى يمكنه معرفته وإدراك كنهه . وهكذا ، يتأكد لنا أن هذا التيار من علم النفس إنما هو تيار يستهدف فى دراسته للنفس الإنسانية، فهم الإنسان بما هو إنسان . وليس بما هو آلة . وبعبارة أخرى، فإنه يقصد دراسة الإنسان وفهمه على حقيقته البشرية .

ولما كان الإنسان بما هو إنسان، وبما يصدر عنه من سلوك وتصرفات، هو أشد الكائنات الحية تعقيداً ، وصعوبة على الفهم، فإن هذا التيار الأخير فى علم النفس كان ولايزال أشد التيارين وعورة وأجهدهم للباحث . ومن ثم ، فقد استهوى التيار الأول- والذى يبسط الإنسان ويسطحه ، وبالتالى تصبح دراساته أسهل ضبطًا وأيسر دقة- بعض الباحثين النفسيين الذين يفضلون الدقة والضبط على حساب العمق والثراء والوصول إلى لب الحقيقة . ولهؤلاء نقول إن دراسة شىء جوهرى (يستحق الدراسة) وإن كانت بدقة أقل ، خير من دراسة شىء ثانوى (لايستحق الدراسة) وإن كانت بدقة أكبر. ونظراً لما هناك من تيارات أيديولوچية تسود العالم اليوم وتستهدف تزييف وعى الإنسان بذاته ، والحفاظ على اغترابه فى مختلف مجالات حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية ، فإن هذا التيار من علم النفس، والذى يستهدف دراسة الإنسان بما هو إنسان ، يعتبر -بحق- إنجاز علم النفس الحديث فى مواجهة مشكلة اغتراب الإنسان فى القرن العشرين .

هذا ، وعندما ارتأيت إصدار مجموعة لعلم النفس، وقفت طويلاً أمام العنوان الذى يجدر بى أن أطلقه عليها ، فلم أجد أصدق من «مجموعة علم النفس الإنسانى» تأكيداً لمنطلقها العلمى، ولاتجاهها فى دراسة سيكلوچيا الإنسان بما هو انسان .

تقديم كتاب
« سيكلوچية البغـاء »

إنما لمما يسرنى أن أقدم للمكتبة العربية دراسة من الدراسات النفسية المصرية، القليلة والرائدة، فى مجال مشكلة اجتماعية لها خطورتها ، خاصة فى مجتمعات العالم النامية ؛ هى مشكلة البغاء . ولشدة خطورتها ولجسامة أضرارها، جرَّمتها القوانين الرسمية فى غالبية بلاد العالم ، كما حرَّمتها الشرائع الدينية، وأدانتها القيم والأعراف الاجتماعية ، وقاومتها -كذلك- العشائر الإنسانية . وظل الخزى والعار يلاحقان البغى وأفراد أسرتها من آباء وإخوة وزوج وأبناء، حتى لو أوقعوا عليها من العقاب أشده. وهكذا، تخاطر البغى بسمعتها وسمعة أسرتها ، وتهين كرامتها، وتقامر بمستقبلها، إلى حد فقدان حياتها ذاتها فى بعض الأحيان .

وهنا يثار تساؤل يطرحه علم النفس : ما الذى يدفع البغى إلى كل هذه المخاطر ؟ ويستتبع هذا بالضرورة تساؤل آخر : ما هى العوامل والظروف الممهدة لتوريط الأنثى فى سلوك البغاء؟

لقد تصدت مؤلفة الكتاب من خلال دراسة نظرية وميدانية جادة لبحث هذه المشكلة – رغم صعوبة بحثها ومحظوراته العديدة- بجرأة الباحث المتمرس المتمكن، وبنزاهة العالم وموضوعيته. فخرج هذا الكتاب، الذى كان فى الأصل رسالتها للماجستير فى علم النفس بإشرافى. ومن خلالها ، جمعت وعالجت من البيانات الميدانية ما مكنها من الإجابة عن التساؤلين السابقين .

هذا، وإذا نظرنا إلى خريطة علم النفس الحالية فى مصر- بل وفى العالم – سوف يصدمنا أن نجد بعضًا من علماء النفس وباحثيه من ذلك النوع الذى ينطبق عليه وصف «وحيد النظرة One- sided» ؛ أى ذلك الشخص الذى لايستطيع أن يرى شيئًا إلا من جانب واحد فقط . ولذا، فهو يتصف بالجمود فى اعتقاده أن منهجًا معينًا هو المنهج العلمى الوحيد فى بحث الظواهر النفسية ، وأن نوعًا معينًا من أنواع القياس النفسى هو النوع الوحيد الذى ينبغى استخدامه ، وأن أسلوبًا معينًا من تحليل البيانات هو الأسلوب الوحيد الصحيح ، وما عداه يتعين تجاهله، وأن نظرية معينة من نظريات العلم هى النظرية الوحيدة الصحيحة وما عداها فهو باطل يجب تجنبه . ومن الصعب أن تقنع وحيد النظرة هذا بغير ما يعتقد ، وكأنك أمام

---

* الكلمة التى قدَّمنا بها كتاب «سيكلوچية البغاء» لمؤلفته نجية إسحق عبد الله ، والذى نشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٨٤ .

شخص اعتقد فى مذهب معين من المذاهب الدينية، وذهب فى التعصب له حداً لايمكنه الرجوع عنه . فنظرته -عندئذ- جامدة غير قابلة للتعديل، فضلاً عن التبديل . ولقد عانت الدراسات النفسية فى مصر أحيانا من سيطرة عدد من «وحيديى النظرة» ، ولازالت -حتى الآن- تستمر سيطرة بعضهم على بعض مجالات البحوث النفسية، مما يقيدها ويحد من فائدتها. وفى بعض الأحيان ، تسنح لواحد من هؤلاء فرصة لتقييم بعض البحوث والدراسات النفسية فيظلمها ويبخسها قدرها، ما لم تتفق مع نظرته الضيقة وفكره المنغلق .

ومع هذا ، فإننا نلحظ فى مصر الآن ما يدعو إلى التفاؤل والأمل فى انحسار «وحيديى النظرة» هؤلاء، وتزايد نسبة العلماء والباحثين فى علم النفس من ذوى النظرة المتكاملة ، الذين يرون الصحة فى كثير من النظريات ، فيستفيدون منها فى دراساتهم ، كما تمكنهم مرونتهم من أن يروا ، فى نفس النظريات ، جوانب من الباطل ينبغى الحذر منها . فلا هذا مقبول بكل تفاصيله ندافع عنه حتى بالباطل ، ولا ذاك مرفوض بكل تفاصيله نقاومه ونهاجمه ولو بالزور. وهكذا ، يستفيدون من كل المناهج ، وكل النظريات ، وكل أنواع القياس ، وكل أنواع التحليل ، وينتقون من كل ما يناسب الموضوع المعين لدراساتهم وبحوثهم. فينتفح أمامهم الكثير من أسرار الظواهر النفسية ، وتسهل دراستها ، طالما خرجوا من عماء التعصب إلى نور النزاهة الموضوعية .

ومن حسن الحظ أن مؤلفة هذا الكتاب من هؤلاء الشموليى النظرة . ولقد أيدت، بدراستها الميدانية ، صدق رؤيتنا للمنهج العلمى الصحيح ، واستنكارنا لتعصب «وحيديى النظرة» . فلقد جمعت فى دراستها بين أكثر من نوع من الاختبارات النفسية ، واستخدمت أكثر من نوع من تحليل البيانات ، واستعانت فى تفسير نتائجها الميدانية بأكثر من نظرية من النظريات العلمية. ونظراً لامتيازها فى استخدام الاختبارات المتباينة ، وإجادتها لأنواع تحليل البيانات المختلفة ، ودقتها فى فهم نظريات علم النفس المتعددة، استطاعت أن تجيد استخدام كل وأن تحسن الاستفادة منه ، فإذا بها تجد اتفاقًا كبيراً فى النتائج المستخرجة من أدوات متباينة ، ومن أساليب تحليل مختلفة ، ومن نظريات نفسية متعددة . وهكذا ، يصدق القول الفلسفى بأن «النظريات صادقة فيما أثبتت ، خاطئة فيما نفت»، كما يتأيد الإحساس بأن الناس أعداء ما يجهلون .

وعند هذا ، لابد وأن نعترف بفضل أستاذنا الجليل الدكتور مصطفى زيور، الذى علّمنا بغض التعصب الأعمى، وهيأ لنا -فى إعدادنا العلمى- شمولية النظرة وانفتاح الفكر. كما نتذكر بالخير كله أستاذنا الراحل الدكتور يوسف مراد، الذى شاركه كل هذا .

مدينة نصر فى ٨ / ٨ / ١٩٨٣

تقديم كتاب
«سيكلوچية الجريمة والفروق بين الجنسين»

هذا كتاب عن سيكلوچية الجريمة وفروقها بين الجنسين ، وهو -كما يبدو من عنوانه- فريد فى بابه ، هام فى موضوعه ، تفتقر إليه المكتبة العربية العلمية، لسد بعض ما ينقصها من دراسات سيكلوچية عن مشكلاتنا الاجتماعية .

ويمثل الكتاب -فى أصله- رسالة المؤلفة لدرجة الدكتوراة فى علم النفس، التى أنجزتها تحت إشرافى، لتتوج بها مرحلة إعدادها العلمى الطويلة، وتخصصها الأكاديمى الدقيق . احترمت فيها المؤلفة عملها العلمى غاية الاحترام، فلم تدخر فيه وسعًا، ولم تتعجل فيه نتيجة، أو تفقد صبراً على الجهد والبحث والاطلاع خلال الفترة التى ركزت فيها على إنجاز رسالتها هذه، ممتدة إلى حوالى الأعوام الخمسة .

لقد درست المؤلفة فى كتبها هذا (أو فى رسالتها تلك) سيكلوچية الجريمة دراسة على المستوى النظرى المكتبى. تأخذ منها وتستفيد مما يحويه التراث العلمى المحلى والأجنبى من معلومات وحقائق ، وأفكار ونظريات ، وبحوث ودراسات ، ثم انتقلت إلى دراسة ميدانية لواقعنا المحلى الخاص بالجريمة مستخدمة المنهج العلمى المعترف به فى الدراسات النفسية ، كشف عما تبحث عنه من عوامل نفسية تكمن وراء الجريمة ، وما تفترق فيه الإناث عن الذكور، خاصًا بهذه العوامل والمؤثرات ، وما يميز البناء النفسى للمجرم ونظيره فى المجرمة ، وذلك على عينة من المسجونين والمسجونات .

ولاشك فى أن الجريمة تندرج تحتها أنواع عدة منها، فهناك السرقة والاختلاس، والنصب ، والرشوة ، والتزوير ، والاغتصاب والبغاء، وجرائم المخدرات ، وجرائم القتل . ومن بين هذه الأنواع اختارت المؤلفة للدراسة أشدها خطورة وفتكًا وتدميراً ؛ أعنى جرائم القتل، وجرائم تهريب المخدرات والاتجار فيها. فالنوع الأول يدمر نفسًا ويذهب بروح ، والثانى يعتدى على مجتمع بأسره ، يدمر فى أفراده جسميًا وعقليًا وخلقيًا واقتصاديًا .. ومن هنا ، يكتسب هذا الكتاب قيمة كبرى من بحثه فى جريمتين تروعان المجتمع، وتكادان تذهبان بأمنه ، وتخلان

الكلمة التى قدَّمنا بها كتاب «سيكلوچية الجريمة والفروق بين الجنسين» لمؤلفته نجية إسحق عبدالله فى عام ١٩٨٩ .

باقتصاده ، تنخران فى بنيانه ، حتى أن المجتمع ، لمحاربتهما وحصارهما ، يشدد العقوبة على كل منهما ، حتى أنه قد يصل بها إلى حد الإعدام لمن يتورط فى أيهما .

أما منهج المؤلفة ، فى بحثها الميدانى ، فهو المنهج المتكامل الذى يجمع بين دقة القياس النفسى وبين فن إجراء المقابلة الإكلينيكية ، بين التصحيح الكمى للاختبار النفسى الموضوعى وبين التفسير الكيفى للاختبار النفسى الإسقاطى، وبين ما تشى به مادة المقابلة الإكلينيكية من دوافع نفسية وخصائص دينامية الشخصية وبنائها. كل ذلك فى وحدة منسجمة تتكامل زواياها وتتناغم عناصرها ، بحيث تنتهى إلى فهم أشمل وأدق ، وإلى استبصار أعمق وأصدق لظاهرة الجريمة وعواملها وسيكلوچيتها بين الجنسين . وما كان هذا ممكنًا ، إلا لقلة من الباحثين والمتخصصين ؛ إذ غالبًا ما نجد الباحث متعصبًا لنوع واحد من أدوات البحث، أو لنهج واحد من طرقه ، وحتى لو أحسنا الظن به ورفعنا عنه التعصب ، فإن الباحث غالبًا لايجيد إلا نوعًا واحداً من أدوات البحث ، أو نهجًا واحداً من طرقه. إلا أن مؤلفتنا قد أجادت هذه الأدوات المتباينة مجتمعة، لحسن استعدادها وشدة اهتمامها وشغفها بتأصيل تكوينها العلمى ، مما بدا واضحًا فى مؤلفها السابق عن سيكلوچية البغاء ، وفى مؤلفها الحالى الذى نسعد بتقديمه الآن

وفى قناعتى ، أن الدكتورة نجية - تلميذة الأمس وزميلة اليوم- بدراستها النظرية والميدانية لسيكلوچية البغاء فى درجة الماچستير ، وبدراستها- النظرية والميدانية -أيضا- لسيكلوچية الجريمة فى رسالتها للدكتوراة ، قد وضعت قدمين راسخين فى قلب التخصص فى علم نفس الجريمة، مما يجعلنا ننتظر منها الكثير فى هذا الميدان .

أما عن الدكتورة نجية كزميلة ، فإنها تمتاز بما نرجو أن يتوافر للباحث العلمى وللأستاذ الجامعى من خلق قويم ، وأمانة علمية ، ونظرة موضوعية والتزام بالحق نزيه ، وبحث عن الحقيقة دءوب ، فى صبر وأناة ، وسعة أفق واطلاع .

مصر الجديدة فى ٣ / ١١ / ١٩٨٩

ثالثاً

شخصيـات وسيـر

الأستاذ الدكتور مصطفى زيور
عقل عالم وقلب إنسان

حصل أستاذنا الدكتور مصطفى رضوان زيور هذا العام (١٩٨٨) على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية . فكان فوزه بهذه الجائزة فوزاً للجائزة نفسها، التى وضعت فى محك اختبار صعب منذ سنوات عديدة، عندما أخطأت كبار مستحقيها عن جدارة، ونالها كثير من ذوى الحظوة والشهرة الزائفة .

لقد كان الدكتور زيور مستحقًا لهذه الجائزة من سنوات طوال، لم يفز بها رغم ترشيح الجهات العلمية له، وكنا - نحن تلاميذه - نتساءل فى دهشة عن سبب تخطى الجائزة له ؟؟!! لكن يبدو أن الحق - ولو طال الانتظار - ينبغى ألا نيأس من وصوله إلى صاحبه .

تمتاز حياة الدكتور زيور وتاريخه بتفرد واضح بين علمائنا الأجلاء فى التكوين الأكاديمى، والنشاط العلمى على السواء. فلقد ولد فى أول سبتمبر من عام ١٩٠٧ ، وحصل على درجة الليسانس فى الفلسفة من كلية الآداب مع أول دفعة تتخرج من الجامعة المصرية عام ١٩٢٩ ، وهى جامعة القاهرة الحالية، ثم سافر إلى فرنسا ، حيث حصل فى عام ١٩٣٠ من جامعة السربون على شهادة الفلسفة العامة والمنطق ، وعلى شهادة الكيمياء البيولوجية والطب فى عام ١٩٣٨، وعلى دبلوم الدراسات العليا فى علم النفس التجريبى فى عام ١٩٣٩ . ثم حصل فى عام ١٩٤١ على درجة الدكتوراة فى الطب من جامعة ليون (حيث اضطرته ظروف الحرب العالمية الثانية إلى هجرة باريس إلى ليون) . ولقد كان تحوله إلى الدراسة العلمية فى الطب من أجل أن يتيح له ذلك دراسة التحليل النفسى والتخصص فيه، كما كانت تشترط كثير من معاهد التحليل النفسى آنذاك . وبالفعل ، التحق الدكتور زيور بمعهد التحليل النفسى بباريس ، وقضى به نحو أربع سنوات، حيث حصل على دبلوم التحليل النفسى ، وعلى زمالة جمعية باريس للتحليل النفسى، ثم زمالة الاتحاد الدولى للتحليل النفسى بعد ذلك . فكان بهذا أول محلل نفسى مصرى، بل عربى أيضًا ، يحصل على هذه الزمالة .

---

* كتب المؤلف هذا المقال تحية وتهنئة لأستاذه بمناسبة حصوله على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ١٩٨٨ ، ونشره بالعدد الثامن من مجلة علم النفس (أكتوبر- ديسمبر١٩٨٨) ص٧-١٠ ، ثم ألقى محاضرة موسعة عنه فى معرض القاهرة الدولى للكتاب يوم ٢٢ / ١ / ١٩٩٥ ، بدعوة من الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وأثناء إقامته بفرنسا، والتى امتدت بضع عشرة سنة ، تقدم إلى عدة مسابقات فى أمراض الجهاز العصبى والطب العقلى، ظفر فيها بوظيفة طبيب مقيم بمستشفى تعليمى يتبع كلية الطب بجامعة باريس، فقام بمهام تعليمية لطلاب الطب، وعلاجية للمرضى؛ هذا علاوة على البحوث العلمية التى نشرها آنذاك فى الدوريات المتخصصة . ولقد وصل إلى منصب رئيس عيادة الأمراض النفسية بكلية الطب بجامعة باريس، قبل عودته إلى القاهرة للعمل فى الجامعة فى أوائل الأربعينيات .

وهكذا، يتضح لنا أن الدكتور زيور قد وصل فى إعداده الأكاديمى إلى أعلى درجات التخصص فى الطب ، وعلم النفس، والتحليل النفسى، علاوة على الأساس الفلسفى الذى اكتسبه من دراسة الفلسفة بالجامعة المصرية وبالجامعة الفرنسية . فإذا أضفنا إلى كل ذلك رغبته المتوقدة فى قراءة ومتابعة أحدث ما تنشره الدوريات العلمية والمراجع والمؤلفات الموسوعية فى هذه التخصصات العلمية الأربعة (الطب، وعلم النفس ، والتحليل النفسى، والفلسفة) ، تبين لنا صدق رأينا -فيما قدمناه فى صدر هذا المقال- من أن الدكتور زيور امتاز بين علمائنا الأجلاء بتكوين أكاديمى متفرد، ممعن فى الموسوعية والشمول، متعدد فى التخصص، ضارب بجذور بعيدة الغور فى جوانب الفكر الإنسانى وفروعه المختلفة .

ومن المنطقى أن يقابل هذا الإعداد الأكاديمى المتميز نشاط علمى يعادله فى المستوى. ولقد صدق هذا بالفعل . فقد مارس الدكتور زيور التدريس منذ أوائل الأربعينيات وحتى الآن، فى جامعات مصر الثلاث الكبرى ـجامعة فؤاد الأول ، وجامعة فاروق الأول ، وجامعة إبراهيم، والتى تحولت مسمياتها إلى جامعة القاهرة، وجامعة الإسكندرية ، وجامعة عين شمس حسب الترتيب) . فدرّس فيها مواد علم النفس العام ، والتحليل النفسى ، وعلم النفس المرضى ، والطب النفسى ، وعلم النفس الطفل ، وعلم النفس التجريبى بكليات الآداب وكليات الطب. وكان فى كل ذلك مثالاً للأستاذ الجامعى الحق المتمكن من تخصصه، القادر على نقله وتدريسه وشرحه لتلاميذه ، الموضوعى فى تقييمه لطلابه، الإنسانى فى علاقاته، والذى يترك لتلاميذه حرية اختيار وتبنى ومناقشة وجهات النظر العلمية المختلفة .

ولقد كان من حظ جامعة عين شمس أن وقع اختيار المرحوم الدكتور طه حسين فى عام ١٩٥٠ على الدكتور زيور لينشئ ويرأس قسم علم النفس بكلية الآداب بها (وكانت تسمى آنذاك بجامعة إبراهيم) .

فقام بإنشاء هذا القسم مشتركًا مع قسم الاجتماع فى السنتين الأولتين من الدراسة الجامعية ، ثم يستقل عنه فى السنتين الأخيرتين . وبعقلية العالم التى تمتاز بتكريس الموضوعية ، وتحارب التعصب وضيق الأفق، قام بوضع برامج القسم واختيار مواده العلمية وأساتذته الذين سيساعدونه، بحيث حقق فى كل ذلك انفتاح قسم علم النفس على كافة التيارات العلمية المشروعة والتخصصات الأخرى التى تخدم علم النفس ؛ كالاجتماع والأنثروبولوچيا وتاريخ الحضارة والفلسفة والإحصاء. وهكذا، لم يكن هذا القسم -كما كان متوقعًا من محلل نفسى ينشئه ويرأسه- أقرب الشبه بمعهد للتحليل النفسى ، الذى يعتبر الدكتور زيور رائده فى العالم العربى ، بل كان ولازال قسمًا لعلم النفس بمختلف تياراته ؛ يتكامل فيه تيار التحليل النفسى ، مع تيار التجريب ، مع تيار القياس ، مع التيار الإكلينيكى ، مع تيار علم النفس الاجتماعى، ليعد كل ذلك إخصائيًا نفسيًا شامل النظرة للظاهرة النفسية، دونما تعصب لزاوية نظر معينة تعميه عن إدراك الجوانب المختلفة للظاهرة، وتضيق عليه الخناق فى فهمها . وهكذا ، استعان فى التدريس لهذا القسم بزملاء وتلاميذ له من تيارات علمية مختلفة ؛ كان منهم المرحوم الدكتور يوسف مراد، والمرحوم الدكتور السيد محمد خيرى، والمرحوم الدكتور أحمد وجدى، والدكتور لويس كامل مليكة ، والدكتور مصطفى صفوان ، والدكتور سامى محمود على، والدكتور أحمد فائق، والدكتور أحمد عكاشة، والدكتور سيد عبد الحميد مرسى، والدكتور عبد المنعم المليجى.. وبالتالى، لم يكن مستغربًا أن تتخذ منه كثير من جامعات مصر ، التى نشأت بعد إنشاء هذا القسم ، مثلاً تحتذيه عند إنشاء أقسام لعلم النفس بها ، فتنقل عنه كثيراً من مواده وبرامجه وطرق تدريسه... بل إننا عندما ذهبنا إلى جامعة محمد الخامس بالمغرب نجحنا فى إنشاء قسم لعلم النفس ، كان فى مواده وبرامجه مشابهًا لقسم علم النفس بآداب عين شمس (وكان ذلك فى النصف الأول من السبعينيات) . ونقصد من هذا أن هذا القسم الذى أنشأه الدكتور زيور فى جامعة عين شمس أصبح مثلاً يحتذى فى كثير من الجامعات العربية أيضًا .

هذا ، وفى مجال إعداد طلاب الدراسات العليا وأساتذة علم النفس ، نذكر أنه قد تخرَّج على يديه عشرات التلاميذ، الذين يحملون درجات الماچستير والدكتوراة فى علم النفس ، وعشرات المساعدين والمريدين الذين تشربوا عقلانية علمه وفكره، وإنسانية نزعاته واتجاهاته . وكل هؤلاء وأولئك ينتشرون الآن فى الجامعات، والمراكز العلمية المصرية والعربية والعالمية. ويكفى أن نذكر من بينهم الدكاترة مصطفى صفوان، وسامى محمود على ، وأحمد فائق .

وفى مجال التأليف ونشر الثقافة الجادة والمعرفة العلمية ، نجد أن للدكتور زيور باعًا طويلاً فى هذا. فلقد اشترك وزميله المرحوم الدكتور يوسف مراد (أستاذ علم النفس آنذاك بكلية الآداب- جامعة فؤاد الأول) فى إصدار «مجلة علم النفس» ، والتى كانت تصدر ثلاث مرات فى السنة ، وظلت هكذا لمدة ثمان سنوات من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣ ، دون أن يتخلف عدد منها عن موعد صدوره، حتى كان العدد الثالث والأخير من المجلد الثامن (فبراير - مايو ١٩٥٣) ، الذى أعلن فيه توقف المجلة عن الصدور تحت عنوان حزين تصدَّر العدد يقول «صوت آخر يسكت» . ولقد كانت هذه المجلة مثلاً طيبًا للمجلات العلمية والثقافية الجادة والملتزمة ، حتى ذاع صيتها ، وأقبل على النشر فيها كبار العلماء من أنحاء العالم، مثل سيرل بيرت Cyril Burt ، وبول فريس Paul Fraise ، وجون ويزدم John Wisdom ، وشارلز ڤالنتين Charles Valentine ، وهوراس إنجلش Horas English ومثل -أيضًا- هنرى ڤالون Henri Vallon عالم النفس الفرنسى المعروف، والذى نشر مقاله الشهير «أثر الآخر فى تكوين الشعور بالذات Le role de l'autre dans la conscience du moi » فى مجلة علم النفس المصرية فى عددها الأول بمجلدها الثانى (يونيو ١٩٤٦) ، وترجمه الدكتور يوسف مراد فى العدد التالى (أكتوبر ١٩٤٦). وكانت المجلة تنشر هذه المقالات بلغاتها الأجنبية (الإنجليزية أو الفرنسية) ، ثم تترجمها أو تلخصها فى الأعداد التالية . كما كانت مجلة الملخصات السيكلوچية Psychological Abstracts ، التى تصدرها جمعية علم النفس الأمريكية ، تتولى نشر ملخصات عما يصدر فى «مجلة علم النفس» المصرية. وما كان هذا متاحًا ، لولا جدية رئيسى تحرير المجلة ، وسمعتهما الطيبة فى الأوساط العلمية العالمية. ولاشك، أن مجلة علم النفس تعتبر خير شاهد على جدية الثقافة المصرية، والتزامها العلمية والعقلانية، وولاءها القومى فى ذاك العصر .

ولقد واصل الدكتور زيور خدمته للثقافة العلمية الجادة برئاسته تحرير «مجلة الصحة النفسية» فى أول صدورها عام ١٩٥٨ ، والتى كانت تصدر عن الجمعية المصرية للصحة العقلية ثلاث مرات فى العام .

كما أنه أشرف على ترجمة ونشر أمهات كتب التحليل النفسى، والتى ألفها سيجموند فرويد وأنافرويد وأوتو فينخل ، وذلك فى سلسلة أشرف على إصدارها باسم «المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى» تولت دار المعارف نشر أغلبها، ثم اشتركت معها بعد ذلك مكتبة الأنجلو المصرية. وكان يكتب تصديراً لكل منها ، هو فى حد ذاته يعد إسهامًا علميًا جاداً وأصيلاً فى موضوعه .

كما أشرف -أيضًا- على إصدار سلسلة ثقافية علمية باسم «مكتبة الدراسات النفسية والاجتماعية» قام فيها بتقديم بعض المؤلفات النفسية الهامة ، سواء المؤلفة أو المترجمة .

وفى الخمسينيات ، أفردت الإذاعة المصرية للدكتور زيور سلسلة من الأحاديث فى التحليل النفسى، كان كل منها بمثابة محاضرة قيمة ، ودرسًا شيقًا عن موضوع أو مشكلة عامة؛ كالقمار والاكتئاب والنسيان والقلق النفسى.. وقد نشرتها وزارة الإرشاد القومى آنذاك بعد إذاعتها ضمن كتاب بعنوان «فى التحليل النفسى» صدر فى سلسلة «مختارات الإذاعة» . كما استدعته كثير من الجمعيات والهيئات العلمية لإلقاء محاضرات عامة ، يبرز فيها وجهة نظر علم النفس فى بعض المشكلات والقضايا المثارة .

وكان للدكتور زيور -أيضًا- فضل الريادة فى العالم العربى لدراسات وبحوث الأمراض السيكوسوماتية Psychosomatics (الأمراض الجسمية التى ترجع فى أسبابها الجوهرية إلى عوامل نفسية) . بل إنه منذ وقت مبكر فى اكتشاف هذه النوعية من الأمراض، والقيام ببحوث فيها (فى الأربعينيات) ، شارك أستاذنا الدكتور زيور ، على المستوى العالمى، ببحوث عنها نشرت له فى الخارج، كان بعضها بالحوليات الطبية الفرنسية . ولذا، لم يكن مستغربًا أن يكون أول مدير لمعهد الطب السيكوسوماتى، الذى أنشئ بباريس، هو الدكتور سامى محمود على ، أحد تلاميذ الدكتور زيور ومساعديه .

وعندما شرع المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى القيام ببحث ميدانى شامل عن تعاطى المخدرات فى مصر، أسند إلى الدكتور زيور رئاسة هيئة البحث، حيث قام بتكوينها فى عام ١٩٥٧ بشكل نموذجى ، إذ ضمت خبراء واستشاريين فى علم النفس، والاجتماع، والطب والإحصاء . واستمر رئيسًا لها ومشرفًا عليها حتى عام ١٩٦٥ ، حيث صدر خلال هذه المدة من رئاسته وإشرافه تقريران فى مجلدين كبيرين عن هذا البحث ، نشرهما المركز القومى (الأول عام ١٩٦٠ ، والثانى عام ١٩٦٤) .

وكان الدكتور زيور -أيضًا- رئيسًا للجنة علم النفس التى تولت كتابة المصطلحات النفسية التى ضمها «معجم العلوم الاجتماعية» ، الذى أصدرته اليونسكو، بالاشتراك مع مجمع اللغة العربية بمراجعة الدكتور إبراهيم مدكور، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة عام ١٩٧٥ . كما أنه قد ترجم لأعلام علم النفس فى «معجم أعلام الفكر الإنسانى» ، والذى قام بتصديره الدكتور إبراهيم مدكور ، ونشرت الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة جزءه الأول عام ١٩٨٤ ؛ على أمل بنشر الأجزاء التالية تباعًا .

كما كان الدكتور زيور أول رئيس للجنة العلمية لجمعية الطب النفسى (وهى أحد فروع الجمعية الطبية المصرية) ، كما كان -أيضًا- مقرراً للجنة علم النفس بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

• وعلاوة على هذا وذاك ، فقد قام الدكتور زيور بتمثيل مصر فى كثير من المؤتمرات العلمية العربية والعالمية، وألقى فيها بحوثًا علمية أصيلة، وجادة نالت تقدير الأوساط العلمية واهتمامها. من ذلك -على سبيل المثال- تمثيله لمصر فى أول مؤتمر دولى للطب النفسى ، والذى عقد بباريس عام ١٩٥٠ ، وتمثيله لمصر فى المؤتمر الدولى السابع عشر لعلم النفس عام ١٩٦٠ .

وإضافة إلى كل هذا ، فقد قدم الدكتور زيور الكثير من المقالات التى نشرت فى «مجلة علم النفس» و «مجلة الصحة النفسية» السابق ذكرهما ، وفى مجلات ثقافية وعلمية مصرية وعربية وعالمية أخرى كثيرة. ومن حسن الحظ ، أن غالبية هذه المقالات قد جمعت أخيراً فى كتاب بعنوان «فى النفس» صدر عن دار النهضة العربية ببيروت ، عام ١٩٨٦ .

والدكتور مصطفى زيور ، فى كل ما كتب، أو حاضر، أو أذاع، يتناول بالتحليل والتأصيل موضوعات وقضايا تهم العلم ، كما تهم المجتمع ، يستفيد منها الطالب والأستاذ المتخصص والمثقف العام، وتعتبر مراجع أصيلة لكل من يتناول موضوعها بالدراسة العلمية الجادة ؛ مثل موضوعات : سيكلوچية التعصب، الآباء المشكلون ، تعاطى الحشيش كمشكلة نفسية، القمار، الأحلام ، الحب، الأمراض السيكوسوماتية ، الربو الشعبى، الاكتئاب النفسى، المعرفة والشفاء ، أضواء على المجتمع الإسرائيلى ، الطب النفسى والفلسفة المعاصرة ، جدل الإنسان بين الوجود والاغتراب ..

والدكتور مصطفى زيور، فى كل ما كتب، أو حاضر، أو أذاع، كان مثالاً للنزعة العلمية العقلانية ، ونموذجًا لالتزام العالم بقضايا الإنسان عامة ، وقضايا وطنه خاصة ، فى مزج فريد بين عقلانية العالم وموضوعيته وحياده ، وبين اتجاهاته ونزعاته الإنسانية بما هو إنسان ، ذلك المزج الذى لايقدر عليه إلا من امتلك قدرات الدكتور زيور، وتحلى بطباعه وأخلاقياته .

ألم أقل إن جائزة الدولة التقديرية قد تأخرت عليه كثيراً ؟؟ لكن حمداً لله !! إذ فاز بها أخيراً ، فكان ذلك بمثابة فوز خاص لكل تلميذ من تلاميذه، أو مريد من مريديه ، فتهنئة خالصة له ولهم .

مصطفى زيور

عقل عالم وقلب إنسان

(عود على بدء) *

أما البدء فكان منذ حوالى ست سنوات ، عندما كتبت فى العدد الثامن من مجلة علم النفس (المصرية) – فى أكتوبر ١٩٨٨ مقالاً بنفس العنوان (أعيد نشره فى كتابنا- علم النفس وقضايا العصر، دار المعارف ، ١٩٩٣) ، تحية وتهنئة لأستاذى الكبير الذى كرَّمته الدولة، حينذاك بمنحه جائزتها التقديرية فى ذاك العام .

وها أنذا أعود- فى ذكراه الرابعة- إلى نفس العنوان مستكملاً ومضيفًا ، مترحِّمًا ومتذكرًا، وهل مثله ينسى ؟ ولئن كانت مقالتى الأولى قد ركزت على تكوين زيور العقلى والمعرفى والعلمى والفكرى، وإنجازاته المتميزة فى كل هذه الجوانب ، فإنى ها هنا أركز على الجانب الإنسانى العظيم فيه ، وأبدأ بأن أسجل لزيور أن تلاميذه كانوا محل تقدير كبير منه ، وعناية عظيمة بهم، وكأن رسالته الكبرى فى الحياة أن يقدم لبلده أكبر عدد من تلاميذ نابهين، يتسلحون بالعلم، كما يتسلحون بالخلق القويم. فكان زيور- رحمه الله- لاينادى أحدنا ، ونحن بالسنة الثانية بالتعليم الجامعى (حيث بدأ فى تدريس التحليل النفسى لنا) إلا واسمه مسبوقًا بلفظ «السيد» . كما كان يدعونا إلى منزله كثيراً ، وإلى جلسات خاصة معه خارج الجامعة ، حيث يمثل بالنسبة لنا مكان الأب العطوف ، يستضيفنا فيكرم ضيافتنا ، نتسامر حول العلم والفكر والمعرفة ، ناهلين من بحر علمه الغزير وعطائه الفياض . وكلما زاد عددنا حوله زاد إحساسه بالسعادة . وكأننا عصبة أبناء يتفاخر بهم الآباء . وهكذا، جسد زيور واقعيًا ما يقال نظريًا عن أبوة الأستاذ ، ونجح بسلوكه معنا فى إقناعنا بأن الأستاذية الحقة ليست مجرد وظيفة مهنية، بل -أيضًا- هى علاقة إنسانية، متخطيًا بها حدود المحدود إلى اللامحدود . فما انتهت علاقتنا به بتخرجنا من الجامعة ، أو باستكمالنا لدرجاتنا العلمية العليا ، بل ظلت واستمرت .

---

* نشر هذا المقال فى الملف الذى أعدته «مجلة أدب ونقد» القاهرية، والتى يصدرها «حزب التجمع الوطنى الوحدوى» العدد : ١٠٩ ، سبتمبر ١٩٩٤ ، ٣٣-٣٨ ، حيث أفردت لأستاذنا المرحوم مصطفى زيور ملفًا خاصًا على عددين متتاليين .

لم يفرض زيور على أيٍ من تلاميذه اتجاهًا علميًا معينًا ، ولاموضوع بحث محدداً ألزمه بدراسته ، بل كان يترك لكل منا حرية اختيار اتجاهه العلمى تحت إشرافه، يساعده فى ذلك بعض من معاونيه فى الإشراف والتوجيه - إذا لزم الأمر. حيث كانت قناعته الأكيدة أن حرية الباحث لابد وأن تصان، وأن إمكانياته -التى يختلف كل منا فيها عن غيره- لابد وأن تحترم، وتتاح لها كافة الظروف للتفتح والنمو . وهكذا، نجد لزيور تلاميذ من اتجاهات علمية شتى ، نبغوا فيها وأجادوا ، لكلٍ منهم تفرده واستقلاليته ، دونما تعصب يضيق الأفق، ويغلق العقل، ويحد من الفهم والمعرفة- والإبداع . وبالتالى، نجا زيور مما وقع فيه كثير غيره ، حيث خرجوا على أيديهم «نسخًا كربونية» تغنى إحداها عن الأخرى ، ولايمتاز فيها فرد عن فرد . وبذلك تطمس معالم كل منهم، وتتقيد انطلاقاتهم ، وتتوارى إبداعاتهم .

وإن أنسى لا أنسى موقفًا له معى. يعتبر نموذجًا للتقدير والالتزام الذى يفرضه الأستاذ على نفسه نحو تلميذه . كان ذلك فى بداية السبعينيات، حيث كنت قد انتهيت من كتابة بحث ميدانى عن كيفية إخراج المكفوف لحلمه ، وفيه وقعت على حيلة يستخدمها المكفوف أطلقت عليها «التصوير السمعى» يلجأ إليها المكفوف - ضمن ما يلجأ من حيل يشارك فيها المبصرين- ليترجم مضمون حلمه، ويخرجه على النحو الذى يرويه . وقبل أن أقوم بنشره فى مقال، عرضته على أستاذى لأطمئن على رأيه . وعند اتصالى تليفونيًا به حدد لى موعداً أمر عليه فى بيته ، حيث أنه انتهى من قراءته، ويريد مناقشتى فى بعض ما جاء فيه . وفى هذا الاتصال التليفونى عرف أنى أكلمه من الشارع- فليس عندى تليفون خاص - وأنى ذاهب لتوى إلى جامعة القاهرة لحضور مناقشة رسالة دكتوراة لصديق لى . وبينما أنا فى قاعة المناقشة ، أفاجأ بأستاذى زيور يقف على بابها ينقل بصره لكى يرانى ، فلما لمحته خرجت إليه، وإذا به كان قد نسى موعداً هامًا فى نفس الموعد الذى حدده لى لكى أزوره . ولم يجد أمامه من سبيل لتصحيح الوضع إلا مجيئه إلى فى قاعة المناقشة .. هكذا، كان زيور ، يأبى إلا أن يعطينا من نفسه قدوة إنسانية تجسد معانى الأستاذية .

كان زيور دائمًا مع الحق ، لايخشى فى سبيله طاغية ، ولايدفعه خوف إلى ممالأة سلطان أو تملقه . وفى هذا ، يلخص لنا حسين عبد القادر - تلميذه الوفى- موقفًا معروفًا لزيور إبان حركة التطهير التى قامت بها الثورة فى الخمسينيات، فأصابت بعض أساتذة الجامعة ، حيث يقول فى مقال بعنوان : «مصطفى زيور : علمًا من رواد التنوير» بندوة تكريم رواد علم النفس

والتربية – المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٤ : «تحدى زيور قرار التطهير- الذى يلقى بعالم طُلعة كيوسف مراد فى مهب الريح – بشموخ يعرفه من ينازله ، وهدوء يعرفه من قرب منه فى الأوقات الصعبة والعصيبة ، وبحل يعرف مغبة ما يختار ، لكنه مع النفوس الأبية ليس له من اختيار» .

كانت الريح العاصفة قد اقتلعت -ضمن من اقتلعت- الأستاذ الدكتور إبراهيم نصحى، وحل مكانه الأستاذ الدكتور مهدى علام عميداً . وكانت لزيور مهابة فى القلوب، وخشية يستطيع فهمها من يعرف التحليل النفسى والطابع الطرحى، الذى استقر الفهم الفرويدى على أنه موجود فى كل علاقة إنسانية، ويومها ، وكما يحدِّث زيور ، وإن كان بعض شهود الواقعة أحياء ، أطال الله عمرهم .

«بدأت متجهم الوجه ، محتشداً بالغضب ، سائلاً دكتور مهدى :

«هل يرضيك ما يصنعه الصِّغار والصِّغار (ولم أترك له فرصة للتساؤل) أما سمعت يادكتور مهدى عن أكلة لحم الأب (وضحك الرجل مستفسراً) (ولم يترك زيور فرصة) يوسف مراد يلقى به فى الشارع ، هكذا ...

ويرد مهدى علام متسائلاً ، وقد أدرك طرفًا من غضبة زيور . ماذا نصنع، ويعلم الله أنى مثلك حزين له ولغيره، ولكن ماذا بأيدينا يا زيور بك» .

«أمسكت بطرف خفى من بصيرة – بعد لفظة بك- بإمكانية استجابة د. مهدى لما سأقترحه . واقترحت لحظتها أن نصدر إعلانًا عن حاجة القسم – قسم علم النفس بآداب عين شمس- لأستاذ لعلم نفس الطفل، وكنت أعرف أن ذلك مستحيل ، لكننى انطلقت بالمطلب الأعلى والأصعب ، ونهض د. مهدى من كرسيه متسائلاً فى وجل ، أراد ألا يظهره ، قائلاً «لكن يا دكتور زيور . .» ولم أدعه يكمل فقلت : إذا ، فلننتدبه لتدريس علم نفس الطفل والفسيولوچيا ، أو فلألحق به، وأخرجت استقالتى من جيبى، فقد كنت -وبالفعل- عازمًا عليها ، درءاً للمرارة والمهانة معًا .. وكان د. مهدى كريمًا وللحق، أخذ يهدئ من انفعالى، وهو يدفع الآخرين خارج الغرفة ، وبعد نقاش قدرت فيه صعوبة موقفه، وإدراكه للغبن الواقع على مراد ، وافق على الانتداب على أن أتحمل المسئولية ، وذلك بقرار من مجلس القسم الذى لم يخذلنى زملائى فيه . . »».

ويرى زيور أن أحد تلاميذه ، والواقع حديثًا فى محنة اعتقال سياسى، أجدر بجائزة الدولة التشجيعية ، فلايخشى سخط النظام الحاكم أو غضبه عليه، فيقرر فى حماس شديد ،

وموضوعية واضحة منح الجائزة للدكتور أحمد فايق، الأمر الذى بدا لنا وقتها (فى أواخر الستينيات) وكأنه تحد جرئ للنظام الحاكم ، لكنه - بطبيعته- كان فى الحق لايقف عند حد . ويسافر هذا التلميذ إلى كندا، حيث يستقر به المقام، فيكون له شأن دولى فى التحليل النفسى، وأى شأن أفضل من أن يعرض عليه منصب عمادة معهد التحليل النفسى، فى كندا فيعتذر عنه، وهو المحلل النفسى وأستاذ التحليل النفسى الشهير هناك .

ويتطوع زيور فى إنسانية وأبوة لافتة للنظر بتقديم لكثير من الدراسات والكتب التى ألفها تلاميذه، فإذا به يكتب التقديم فى جدية وموضوعية وعمق، مقدمًا فيه رؤية له حول الكتاب وموضوعه، هى -فى حد ذاتها- إضافة أصيلة يزدان بها المؤلف، ويرجع إليها الباحثون والدارسون. ومن حسن الحظ ، أنه جمع معظمها ونشره قبل وفاته ببضع سنين ، ضمن كتابه المجمع «فى النفس» الذى نشرته دار النهضة العربية ببيروت، عام ١٩٨٦ .

وينتقى زيور من تلاميذه بضعة، يرى -بخبرة المحلل وحدسه ونفاذ بصيرته -صلاحيتهم للتدريب على ممارسة العلاج النفسى، والنجاح فيه ، فيشجعهم على ذلك، ويتعهدهم بالتدريب المتواصل ، ويناقش معهم الحالات ويوجههم فى علاجها ، ويرشدهم إلى أفضل السبل لتحقيق العلاج الناجح . وأذكر أنى عندما ترددت فى الاستمرار فى علاج حالة طالبة كانت تراودها فكرة الانتحار بين الحين والآخر. مخافة أن ترتكبه أثناء فترة علاجى لها، وأردت أن أتوقف عن علاجها ، تاركًا لزيور أمر تحويلها إلى غيرى، يكون أقدر وأكثر خبرة وتمرسًا (وكانت الحالة تعانى من عصاب الوسواس القهرى) ، رفض أستاذى أن يوافقنى على ذلك ، وشجعنى على الاستمرار فى علاجها، بقوله : إن المريض، فى مثل هذه الحالات العصابية، يستحيل عليه أن ينفذ فكرة الانتحار أثناء فترة العلاج، طالما كان المعالج جاداً مخلصًا ، صاحب ضمير مهنى وخلقى قويم .

وهكذا ، كان زيور يشجعنا ويدفعنا دفعًا إلى النجاح ، يفخر بكل منا ويشيد به فى غيابه. فهو المحلل الكفء ، الذى يبصر خفايا الدوافع والانفعالات ، ويلمح مكنونات النفس، ويكشف أساليب مراوغاتها ، كل ذلك فى ذاته أولاً، ثم فى غيره ثانيًا . وبالتالى يستطيع بمهارة الحكيم، وحنكة الخبير ، وحدس المحلل أن ينجح فى فهمها وقيادها، فيحقق أكبر النجاح معها . ومن هنا، نجح زيور فى اعتبار تلاميذه امتداداً له وأبناءً أعزاء يدفعهم دفعًا للنجاح والتقدم، ويفرح كلما وجدهم يحققون نجاحًا تلو نجاح ؛ إذ يعتبره نجاحًا ذاتيًا له ولرسالته . فى

حين نظر كثير غيره إلى تلاميذهم باعتبارهم منافسين لهم، فكانت الغيرة منهم، ومحاولة هدمهم ، والحيلولة- بوعى أو بدون وعى - دون تقدمهم وتفتح إمكانياتهم واستكمال نضجهم وعطائهم .

هكذا ، تسود النزعة الإنسانية مواقف زيور وجوانب شخصيته ، حتى إذا وصلنا إلى ماكتبه زيور وأمعنا فيه النظر، وجدناه يؤكد ذلك ويبرزه . سواء أكان ذلك من حيث موضوعات الاهتمام ، أم من حيث طريقة التناول . فهو يكتب فى الموضوعات التى تهم الإنسان بما هو إنسان . يتصف باحتوائه على عواطف سامية ومتدنية، وعلى انفعالات من الخوف والرجاء ، والحب والبغض ، والسعادة والتعاسة، وعلى ميول من الخير والشر، ومن البناء والتدمير .. فها هو يكتب فى الوجود ، والاغتراب ، والتعصب ، والقلق العصبى ، والاكتئاب النفسى، والربو الشعبى، والحساسية ، وتعاطى المخدرات ، والقمار ، والنسيان ، والتخيل ، والأحلام ، والحب، والصوفية ، وانحراف الأحداث ، والآباء المشكلين ، والمعرفة والشفاء، وعلاقة الطبيب بالمريض ...

أما طريقته فى تناول موضوعاته ، فعلاوة على عمق المعالجة العلمية، ورصانة الأسلوب اللغوى الأدبى الممتاز، فهى تعلى من القيم الإنسانية النبيلة والبناءة ، وتدعو للحق والخير والجمال ، وتبين عن انشغال بهموم الوطن الجامع والإنسان الفرد ، وترسم طريقًا لتحقيق سعادة الإنسان، وتحريره من اليأس والآلام .

جزاه الله عما قدمه لوطنه ولتلاميذه خير الجزاء، وتولاه الله برحمته وغفرانه . وألهمنا الصبر على فراقه .

* * *

الأستاذ الدكتور السيد محمد خيرى
وثلث قرن فى خدمة علم النفس *

«ترحم فى ذكرى»

لقد شرفتنى الهيئة المنظمة للمؤتمر -مشكورة- بتكليفى أن ألقى كلمة عن الإسهامات العلمية لأستاذنا الرائد الدكتور السيد محمد خيرى، الذى تصادف رحيله عنا فى مثل هذه الأيام من العام الأسبق (١٩٨٤) ؛ وكان آنذاك أستاذاً لعلم النفس بجامعة الرياض بالمملكة العربية السعودية ، يواصل رسالته فى نشر العلم الذى تخصص فيه، ووهبه جل حياته . وكان قد ترك العمل أستاذاً لعلم النفس، وعميداً لكلية الآداب بجامعة عين شمس قبل ذاك بحوالى اثنى عشر عامًا إلى الجامعة السعودية .

حصل أستاذنا الراحل على دبلوم معهد التربية الابتدائى عام ١٩٣٦، وبكالوريوس فى علم النفس مع مرتبة الشرف من جامعة لندن عام ١٩٥٠ ، ودكتوراة الفلسفة فى علم النفس من جامعة لندن -أيضًا- عام ١٩٥٢ ، وبعدها ، عاد إلى مصر مدرسًا لعلم النفس بقسم الدراسات النفسية والاجتماعية بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، ثم رقى أستاذاً مساعداً لعلم النفس فى عام ١٩٦١ . وفى ٢٦ مارس من عام ١٩٦٨ رقى أستاذاً . وفى أول أكتوبر من نفس العام عين رئيسًا للقسم . وفى نفس اليوم عين -أيضًا- عميداً للكلية لمدة عامين. ثم جددت عمادته لمدة عامين آخرين فى أول أكتوبر عام ١٩٧٠ . وقبل انتهاء مدة عمادته الثانية بأسابيع قليلة ، أعير لجامعة الرياض ، التى ظل بها حتى رحل عن دنيانا ، مع غفران الله ورحمته.

واسمحوا لى أن أنتقل إلى الحديث عن الحياة العلمية لأستاذنا الراحل: أعد الدكتور السيد محمد خيرى رسالته للدكتوراة ، وقدمها عام ١٩٥٢ لجامعة لندن ، وكانت عن مستويات العمليات العقلية المعرفية . وقد استخدم فى إعدادها عشرين اختباراً نفسيًا ، طبقها على صبية ، ثم قام بتحليل عاملى ، انتهى منه إلى أن العمليات العقلية المعرفية تندرج فى مستويات من الأبسط إلى الأعقد، مبتدئة بالعمليات الحسية، فالعمليات الإدراكية، فالعمليات الارتباطية، فالعمليات العلاقية، ومنتهية بالذكاء العام .

---

* الكلمة التى ألقاها المؤلف فى المؤتمر الثانى لعلم النفس فى مصر، والذى عقد بالقاهرة فى أبريل من عام ١٩٨٦ .

ولقد كان لهذا البحث صدى كبير فى الأوساط العلمية ، حيث نشر بمجلة علم النفس البريطانية فى نفس العام، كما لخص بفرنسا فى مجلة L'Anne Psychologique فى العام التالى (١٩٥٣) ، كما عقد القسم النفسى فى أكاديمية نيويورك للعلوم مؤتمراً عام ١٩٥٣، ناقش فيه البحث، ونشرت المناقشة فى مجلة الأكاديمية بنفس العام أيضًا . وفى عام ١٩٥٤ نشر الكتاب السنوى لعلم النفس، والذى أشرف عليه أستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد، مقالاً عن البحث بقلم صاحبه (وقد نشرت دار المعارف بالقاهرة هذا الكتاب السنوى) .

وبعد حصول أستاذنا الراحل على درجة الدكتوراة من جامعة لندن، عاد إلى مصر ليعمل مع زملائه رواد علم النفس بكلية الآداب فى جامعة عين شمس، تحت إشراف رائدهم وأستاذهم الدكتور مصطفى زيور - أمد الله لنا فى أجله ومتعه بالصحة والعافية .

وكان قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بهذه الكلية فى ذاك الوقت هو القسم الوحيد فى كليات الآداب، الذى يتخرج منه متخصصون فى علم النفس على مستوى الليسانس ، وظل كذلك لفترة طويلة امتدت إلى أواخر الستينيات .

ولقد عهد إلى الدكتور خيرى بتدريس الإحصاء ، وعلم النفس التجريبى، وعلم النفس الصناعى، والفروق الفردية . كما أشرف على تكوين معمل علم النفس بالكلية ، وجلب وصناعة أجهزته الأساسية ، والتى لازال يوجد منها الشىء الكثير حتى الآن .

وكان من حسن حظ قسم الدراسات النفسية والاجتماعية بآداب عين شمس فى ذاك الوقت أن اختص أستاذنا الراحل بتدريس الإحصاء لطلبته، فقد كان -رحمه الله- يتمتع بموهبة كبيرة فى التدريس والشرح، مما مكنه من أن يحيل مادة جافة بالنسبة لطلبة الآداب تتعامل بالأرقام الجامدة إلى مادة طيعة الفهم ، سلسلة المتابعة ، شيقة الدراسة، مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالبحث النفسى والتربوى والاجتماعى . وعلى كثرة طلبته الذين كانوا يحضرون محاضراته فى الإحصاء، ويبلغون -أحيانًا- المئات الأربع، كان معظمهم يفهم درس المحاضرة، رغم ما هو معروف عن مادة الأرقام من صعوبة وعسر. لقد فهم مادته فاستطاع - بلغة علم النفس- أن ينقل هذا الفهم إلى تلاميذه ، وقديمًا قالوا : إذا فهمت أفهمت . كما أنه أحب مادته واستمتع بها فاستطاع - بلغة علم النفس أيضًا- أن يجعل تلاميذه يشاركونه وجدانيًا حب المادة والاستمتاع بها. وقد جاء كتابه «الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية » شاهداً على ذلك . ولايزال هذا الكتاب -الذى ظهر فى أواسط الخمسينيات- يعد مرجعًا هامًا

حتى اليوم للمشتغلين بالبحوث النفسية والتربوية والاجتماعية . وقل أن نجد رسالة ماجستير أو دكتوراة فى علم من هذه العلوم الثلاثة لجأت إلى المعالجات الإحصائية لبياناتها، إلا كان هذا الكتاب مرشداً أساسيًا لها .

هذا ، وقد تعددت أوجه النشاط العلمى، الذى قام به أستاذنا الراحل، ولعل من أهمها وأسبقها استعانة ديوان الموظفين به فى تصميم وتقنين مجموعة من الاختبارات النفسية، وإجرائها مع المقابلات الشخصية للذين كانوا يتقدمون للعمل فى الوظائف الحكومية منذ إنشاء ديوان الموظفين فى أواسط الخمسينيات .

وفى أواسط الخمسينيات -أيضًا- أنشئت وزارة الصناعة، وبها إدارة للكفاية الإنتاجية والتدريب المهنى، وكان بهذه الإدارة قسم خاص للاختبارات النفسية، تولى أستاذنا الراحل الإشراف عليه منذ إنشائه ، وحتى إعارته إلى المملكة العربية السعودية . وقد كان يشرف فيه على إعداد وتقنين بطاريات الاختبارات النفسية، وتطبيقها على طالبى الالتحاق بمراكز التدريب المهنى التابعة للوزارة، والمنتشرة فى أنحاء مصر، وهى مراكز للتدريب تعمل وفق نظام التلمذة الصناعية، وتقبل الحاصلين على شهادة الإعدادية العامة بشروط معينة، كان منها النجاح فى الاختبارات النفسية التى تعقدها الوزارة . وكانت تتقدم إليها أعداد ضخمة من حملة الإعدادية تعدت -فى كثير من السنوات- العشرة آلاف طالب . ولقد كان من نتيجة ذلك أن خرج إلى الوجود تحت إشرافه ثلاث بطاريات للاختبار السيكلوجى لتلاميذ مراكز التدريب المهنى مكتملة الإعداد والتقنين، وهى :

بطارية حرف المعادن :

وتتكون من اختبارات : الاستدلال اللفظى، والذكاء الإعدادى، والاستدلال الميكانيكى، والمعلومات الميكانيكية، والعمليات الحسابية ، والتصور المكانى، وتكميل الأشكال، وتذكر الأشكال ، والتجميع الميكانيكى، ومهارة الأصابع ، وثبات اليد.

بطارية حرف الجلود :

وتتكون من اختبارات : الاستدلال اللفظى، والعمليات الحسابية ، والتفكير الحسابى، والمثابرة العضلية ، وقوة قبضة اليد.

بطارية حرف الزجاج :

وتتكون من اختبارات : الاستدلال اللفظى، والعمليات الحسابية ، والتفكير الحسابى ، والرسم على النموذج ، وتقدير الأطوال ، وثنى السلك ، وثبات اليد، ومهارة الأصابع .

ومع أن بعض الاختبارات كان مكرراً فى البطاريات الثلاث، إلا أن تنوعها وكثرتها يشيران إلى مدى الجهد الذى بذل فى تصميمها وإعدادها وتقنينها، هذا، ولازال تلاميذ أستاذنا الراحل، فى القسم النفسى بمصلحة الكفاية الإنتاجية فى وزارة الصناعة، يواصلون هذا النشاط العلمى فى تقنين الاختبارات النفسية، وتطبيقها على المتقدمين لهذه المراكز التدريبية.

وفى الخمسينيات -أيضًا- أنشئ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، وفى عام ١٩٥٧ بدأ العمل فى أهم وأضخم بحوث المركز فى ذاك الوقت، وهو بحث «تعاطى الحشيش»، وكانت الهيئة العلمية التى عهد إليها بوضع خطة البحث وتنفيذه تحت إشراف أستاذنا الدكتور مصطفى زيور ، وكان الرجل الثانى فى هذه الهيئة، ونائب مشرفها، هو أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى. وكان جهده واضحًا فى هذه الهيئة العلمية للبحث، سواء فى التخطيط له، أو الإشراف على تدريب الإخصائيين الميدانيين، أو وضع خطة التحليل الإحصائى لبيانات البحث . ولقد أصدر المركز القومى للبحوث تقريرين كبيرين عن هذا البحث : التقرير الأول فى عام ١٩٦٠ ، ونشرته دار المعارف فى ٤٢٥ صفحة ، والتقرير الثانى فى عام ١٩٦٤ ، ونشرته دار مطابع الشعب فى ٣٣٨ صفحة، وذلك بخلاف التقارير الفرعية الأخرى .

وفى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية -أيضًا- أشرف أستاذنا الراحل ، بالاشتراك مع المرحوم الأستاذ أحمد زكى محمد، على الهيئة العلمية لبحث «قياس وتشخيص الروح المعنوية لدى العمال الصناعيين»، وقام فى الإشراف بالدور الرئيسى ، كما قام بكتابة تقرير البحث الذى أصدره المركز القومى عام ١٩٧٢، وطبعته الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية فى ٣٣٠ صفحة . ويعتبر هذا البحث رائداً فى مجاله فى العالم العربى، علاوة على ماللموضوعه من أهمية تطبيقية قصوى فى قضايا التنمية والإنتاج .

وفى عام ١٩٧١، عقد مؤتمر علم النفس بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وشارك فيه جمع كبير من باحثى علم النفس ومتخصصيه من الهيئات العلمية، والجهات المهنية المختلفة فى مصر. وقسم المؤتمر إلى ثلاث لجان، حيث كانت «لجنة علم النفس والإنتاج» وهى اللجنة الأولى، بالإضافة إلى لجنتى «علم النفس والتربية» و«علم النفس والتغير

الاجتماعى». وكان المؤتمر كله تحت رئاسة أستاذنا الدكتور أحمد زكى صالح، رحمه الله ، بينما كانت لجنة «علم النفس والإنتاج» تحت إشراف أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى، وقد بذل فيها جهداً كبيراً ، سواء فى إعداد لها ، أم تنظيمها ، أم مراجعة بحوثها ، أم رئاسة جلساتها ومناقشاتها .

هذا، وقد تعدد الإنتاج العلمى لأستاذنا الراحل فى فروع علم النفس المختلفة بين التأليف، وبين الترجمة، أو الإشراف عليها ومراجعتها . فبالإضافة إلى كتابه الأساسى فى الإحصاء، والذى سبق أن أشرنا إليه، ونشرته دار الفكر العربى بالقاهرة فى عام ١٩٥٦ فى ستمائة صفحة، نشر عام ١٩٦٧ كتابه عن «علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية» ، وقد نشرته دار النهضة العربية بالقاهرة فى ٥٢٣ صفحة . ولقد نال عنه جائزة الدولة التشجيعية فى العام التالى، وهو كتاب تميز -إلى جانب عرضه للموضوعات الأساسية فى علم النفس الصناعى- بتضمنه لخبرة أستاذنا الراحل الشخصية فى هذا المجال، وبحوثه الميدانية فى مصر، بالإضافة إلى خبرة تلاميذه وبحوثهم أيضًا ، مما جعله يمتاز بالأصالة والقيمة . ولازال -حتى الآن- يعتبر مرجعًا هامًا للباحث فى مجال علم النفس الصناعى والتنظيمى .

وفى أواسط الخمسينيات ، اشترك أستاذنا الراحل، تحت إشراف أستاذنا المرحوم الدكتور يوسف مراد ، فى ترجمة كتاب «ميادين علم النفس»، الذى أشرف على تأليفه جليلفورد، ونشرت دار المعارف بالقاهرة مجلده الأول عام ١٩٥٥ ، ثم مجلده الثانى فى العام التالى . وكان من نصيب أستاذنا الراحل الدكتور السيد محمد خيرى ترجمة عدة فصول من المجلدين ، خاصة ما تعلق بعلم نفس الطفل، وعلم النفس التربوى، وعلم النفس المهنى. ولقد اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة؛ لأنه عرض المبادئ والمعلومات الأساسية لغالبية فروع علم النفس وموضوعاته الرئيسية آنذاك . كما اشترك، فى نفس الفترة تقريبًا، فى ترجمة بعض كتيبات «علم النفس للآباء والمدرسين» تحت إشراف أستاذنا الدكتور عبد العزيز القوصى؛ مثل كتيب «المشاكل الانفعالية للنمو» تأليف إنجلش وفنسن، وكتيب «المشكلات الانفعالية للمرض» تأليف جوسلين . وكانت هذه الكتيبات تصدر فى مصر، بالتعاون مع مؤسسة فرانكين للطباعة والنشر كسلسلة دراسات سيكلوچية مترجمة تهتم بدراسة نفسية الأطفال وتربيتهم . كما شارك أستاذنا الراحل بعض تلاميذه فى ترجمة كتاب «رعاية الطفل وتطور الحب» تأليف چون بولبى ،ونشرته دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٥٩، وترجمة كتاب «علم النفس الاجتماعى فى الصناعة» ، تأليف براون، ونشرته دار المعارف فى عام ١٩٦٠ .

وفى مجال الترجمة -أيضًا- قام رحمه الله بمراجعة ترجمات لبعض الكتب، أو أشرف عليها، أو اشترك فى ذلك مثل كتاب «سيكلوچية الفروق بين الأفراد والجماعات» الذى ألفته أناستازى وفولى، ونشرت ترجمته الشركة العربية للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٥٩، وكتاب «علم نفس الشواذ» ، الذى ألفه كوفيل وزملاؤه ، ونشرت ترجمته دار النهضة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧ ، وكتاب «علم النفس فى مائة عام» الذى ألفه فلوجل، ونشرت ترجمته العربية دار الطليعة ببيروت، عام ١٩٧٣ .

وعلاوة على كل هذا، فقد قام أستاذنا الراحل بكتابة العديد من المقالات والدراسات للدوريات العلمية ، نذكر منها :

- مقالة فى العدد الأول لمجلة الصحة النفسية، الذى صدر عام ١٩٥٨ ، وكان المقال بعنوان «الصحة النفسية والصناعة» . وفيه لخص -باقتدار- موضوعات علم النفس الصناعى الأساسية ، رابطًا بين بعضها البعض من جانب، وبينها وبين الصحة النفسية من جانب آخر. ولازال هذا المقال -حتى الآن- يرجع إليه فى كثير من بحوث علم النفس الصناعى والتنظيمى وكتاباته .

- مقالة عن «الاستبار فى الاختيار المهنى»، والذى نشرته المجلة الاجتماعية القومية فى عدد يناير ١٩٦٧ من المجلد الرابع، وهى المجلة التى يصدرها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة . وكان هذا المقال عبارة عن تقرير عن تجربة ، قام بها لدراسة ثبات المقابلة وصدقها، وكان ، رحمه الله، يفضل لفظ «الاستبار» على لفظ «المقابلة» ؛ إذ يرى أن المقابلة تسبر عمق الشخص وأغواره فى البحث النفسى، فهى لهذا استبار أصدق من كونها مجرد مقابلة . وإن كان لفظ الاستبار لم يكتب له الشيوع فى الكتابات العربية، ربما بسبب كونه غريبًا على السمع .

- مقاله عن معامل الارتباط فى البحوث النفسية والاجتماعية ، ونشره بحوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس عام ١٩٦٦ / ١٩٦٧ . وقد تعرض فيه وناقش مدى أهمية معامل الارتباط الإحصائى للبحوث الإمبريقية والميدانية ، فى مجال علم النفس والاجتماع .

أما فى ميدان إعداد وتقنين الاختبارات النفسية، فقد كان لأستاذنا الراحل باع طويل فى ذلك. فبالإضافة إلى إشرافه على إعداد اختبارات بطاريات مصلحة الكفاية الإنتاجية الثلاث -والتى سبقت الإشارة إليها - قام باعداد وتقنين اختبارين جمعيين لقياس الذكاء، نشرتهما دار النهضة العربية بالقاهرة فى الستينيات ؛ أحدهما هو اختبار الذكاء الإعدادى ، ويصلح

لقياس ذكاء الأطفال من سن عشر سنوات حتى السابعة عشرة. وقد قنن الاختبار على عينة كبيرة الحجم، حيث اشتملت على «٣٤١٢ تلميذاً من مدارس القاهرة وعلى ١٨٠٣ تلاميذ من مدارس الوجه البحرى، وعلى ٥٨٨ من مدارس الوجه القبلى ؛ أى أن العينة الكلية للتقنين تكونت من ٥٨٠٣ تلاميذ ». أما الاختبار الثانى، فهو اختبار الذكاء العالى، والذى قال عنه «ويصلح هذا الاختبار لقياس الذكاء، حسب ما عرفناه فى المستويات التعليمية الثانوية، وما يعادلها، والعليا، والجامعية، بما فى ذلك الدراسات العلمية، أو الأدبية النظرية، أو العملية» وكانت عينة تقنين هذا الاختبار كبيرة أيضًا، حيث بلغت ٥٨٢٨ فرداً من المستويات التعليمية المختلفة (ثانوى- معاهد عليا- جامعات) . وهذا يوضح مدى الجهد الذى بذله ، رحمه الله، فى إعداد الاختبارين، ومدى التزامه للأصول العلمية الواجبة فى تقنين الاختبار النفسى .

هذا، ولم يقتصر جهد أستاذنا الراحل فى مجال القياس النفسى على إعداد وتقنين الاختبارات والبطاريات النفسية، بل إنه امتد إلى إعداد وتقنين تلاميذه، إن صدق هذا التعبير الذى نستعيره من ميدان القياس النفسى ، حيث اهتم فى تدريسه وإرشاده لطلابه بإكسابهم المهارات والتقنيات الخاصة بإعداد الاختبارات النفسية وتقنينها ، فكان يقوم بتدريس وسائل تقنين الاختبار النفسى لطلبته ويدربهم عليها، حتى لو كان ذلك خارجًا عن المنهج التقليدى الذى يعهد إليه بتدريسه . فكثيراً ما شارك أستاذنا الدكتور لويس كامل مليكة تدريس بعض موضوعات معينة فى القياس النفسى ؛ كتحليل الوحدات، ودراسة الثبات، ودراسة الصدق، وتحديد المعايير للاختبار النفسى، وذلك فى مادة الفروق الفردية التى كان، رحمه الله ، مكلفًا بتدريسها . كما كان تدريسه للإحصاء موجهًا -فى جزء كبير منه- نحو إجراءات تقنين الاختبار النفسى ، والتقنيات الإحصائية المختلفة واللازمة لإعداد الاختبار النفسى الصالح وتقنينه، ولازال بعض طلبته الذين قاموا بتحضير رسائلهم للماجستير أو للدكتوراة ، يذكرون إصراره على أن تتضمن كل رسالة للماجستير أو للدكتوراة إعداد وتقنين اختبار نفسى جديد على البيئة المصرية ، واستخدامه فى الدراسة الميدانية التى تتطلبها الرسالة . ولذلك، فقد كان له فضل كبير فى نشر الوعى بمنهجية تقنين الاختبار النفسى وإعداده ، لدى تلاميذه وطلابه .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن أستاذنا الراحل- كما كان فى طريقة تدريسه- كان -أيضًا- فى كل ما كتب - منشئًا أو مترجمًا - سهل المتابعة واضح العبارة مرتب الفكر، مقنع الرأى ، سديد المنطق .

وعلاوة على هذا وذاك ، فقد امتاز- رحمه الله- بنزعة واضحة نحو التكوين العلمى لطلبته، وتشجيعهم، وإرشادهم، وإفساح المجال أمامهم، ورعاية مصالحهم، والاهتمام بها، ولم يأل جهداً فى ذلك . فكان تشجيع طلبته على التحصيل مستمراً، وكان مكتبه دائمًا مفتوحًا لكل مستويات الطلبة، سواء فى سنوات الليسانس، أم الدراسات العليا، واسع الصدر فى مناقشتهم ومتابعتهم وإفهامهم، ما قد عسر عليهم وإرشادهم إلى ما خفى عنهم، دونما تبرم يظهر على وجه، أو ينم عنه سلوك . ولقد شارك أستاذنا الدكتور زيور اجتهاده فى فتح المجال أمام طلبته الواعدين بتدعيمهم، ومساعدتهم ، ومد يد العون والتوجيه لهم، ما وسعتهما الطاقة . ويكفى أن نذكر أن قسم الدراسات العليا بكلية الآداب بجامعة عين شمس قد أحصى سبع عشرة رسالة ماچستير ، وتسع رسائل دكتوراة ، استكمل إنجازها، وتمت مناقشتها تحت إشرافه- رحمه الله- هذا بخلاف الرسائل التى بدأها ، ولم تستكمل، تحت إشرافه، وبخلاف -أيضًا- الرسائل التى قدم لأصحابها توجيهاته وإشاداته ومساعداته، والتى قدمت للجامعات والكليات المختلفة، حيث كان المشرفون عليها يوجهون طلبتهم إليه، لأخذ المشورة فيها واستطلاع الرأى إزاء ما استشكل منها. ولاشك أن هؤلاء وأولئك جميعًا مدينون له بذلك ، يتذكرونه بالعرفان ، ويطلبون من الله له الرضوان .

فليرحم الله أستاذنا الراحل إنسانًا وفاضلاً ، عالمًا ومعلمًا، مثلاً وقدوة أبًا ورائداً . وليمد الله لنا فى أجل الأحياء من أستاذتنا الرواد، ويجزى الجميع عنا خير الجزاء .

* * *

الأستاذ الدكتور لويس كامل مليكة وجدية الالتزام

أستاذنا الدكتور لويس كامل مليكة ، والذى يسعدنى أن أتحدث عنه اليوم ، يعتبر واحداً من كبار رواد علم النفس وأعلامه المعدودين فى مصر والوطن العربى، بل إن سمعته المشرفة ، وإسهامه العلمى الجاد يتخطيان دائرة مجتمعنا العربى إلى المجتمع العلمى العالمى . كما سوف يتضح مما سنذكره فيما بعد .

النشأة والتكوين العلمى:

ولد أستاذنا فى الخامس من شهر يوليو عام ١٩٢١ بأخميم فى محافظة سوهاج . وتدرج فى مراحل التعليم حتى حصل على بكالوريوس العلوم من جامعة فؤاد الأول آنذاك (جامعة القاهرة حاليًا) فى عام ١٩٤٣ ، ثم دخل المعهد العالى للتربية ، حيث تخرج منه بامتياز فى عام ١٩٤٥ . عين - بعد ذلك- مدرسًا فى مدرسة الإبراهيمية الثانوية (جاردن سيتى، القاهرة) لمدة عام ، ثم انتقل إلى التدريس فى مدرسة الأورمان النموذجية التابعة لكلية التربية، قبل إيفاده فى البعثة العلمية إلى جامعة ستانفورد بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٩ ، وفى ذلك الوقت ، كانت مدرسة الأورمان النموذجية مركزاً لإجراء تجارب تربوية رائدة. وكان يشرف عليها كبار أساتذة علم النفس والتربية ، ومنهم الأستاذان : إسماعيل القبانى، ومحمد فؤاد جلال، والدكتوران : عبد العزيز القوصى ، وصلاح قطب ، فتركوا أثراً راسخًا فى تكوين شخصيته ؛ مربيًا وباحثًا .

وفى جامعة ستانفورد (كاليفورنيا) بالولايات المتحدة الأمريكية - وأثناء بعثته العلمية، وتلمذته للحصول على درجة الدكتوراة فى علم النفس- درس الدكتور مليكة فروعًا مختلفة لعلم النفس على يد أساتذة أجلاء- على نحو ما يذكر لنا. ففى القياس النفسى، درس على يد

---

* الكلمة التى ألقيت فى «ندوة تكريم رواد علم النفس والتربية» بدعوة من «المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة » فى الخامس من مايو ١٩٩٦ ، ثم نشرت فى «مجلة دراسات نفسية » كتكريم وتحية بمناسبة فوزه بجائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٩٧ ، وذلك بمجلدها السابع فى العدد الثانى، أبريل ١٩٩٧ ، ١٦٧-١٧٩ .

ميريل ، التى شاركت تيرمان فى إعداد مقياس ستانفورد- بينيه للذكاء ، وهو المقياس المعروف عالميًا ، وعلى يد همفريز ، تلميذ ترمان ، ورئيس قسم علم النفس بجامعة إلينوى بعد ذلك . وفى علم النفس الإكلينيكى ، درس على يد لورانس . وفى اختبار الرورشاخ ، درس على يد جوزيف لافت . وفى ديناميات الجماعة، درس على يد الأستاذ كرتش (أحد أقطاب مدرسة الجشتالط) ، وفى علم النفس الاجتماعى، درس على يد فارنسورث ، الذى شارك لابيير فى كتاب علم النفس الاجتماعى، وفى علم النفس الإرشادى درس على يد الأستاذين : كاولى ، وماكدانيال، وفى علم النفس الارتقائى درس على يد الأستاذين : سترلز أور . وفى الإحصاء درس على يد الأستاذ ماكينمارا . كما استمع الدكتور مليكة- أثناء بعثته- إلى محاضرات الأستاذين هلجارد وكرنباك ، ودارت بحوثه حول التفاعلات الداخلية بين الاستعدادات والقدرات الخاصة والميول وسمات الشخصية والإنجاز .

وهكذا. يتبين لنا أن الدكتور مليكة قد أتيح له تكوين علمى رفيع المستوى، وأن حظه منه كان موفوراً ، حيث تتلمذ على يد أساتذة عظام ، سواء منهم من كان بمصر ، أو بالولايات المتحدة الأمريكية ، مما كان له أبلغ الأثر فى إنجازاته العلمية بعد ذلك .

التاريخ المهنى :

وبعد حصوله على الدكتوراة فى علم النفس فى عام ١٩٥٢ ، عاد إلى مصر ، حيث عين مدرسًا لعلم النفس بكلية الآداب، جامعة عين شمس ، وكانت الجامعة الوليدة - آنذاك- باسم جامعة إبراهيم باشا . كما كانت الجامعة المصرية الوحيدة التى بها فرع متخصص فى علم النفس ، يعطى خريجيه شهادة التخصص فى هذا العلم . وفى عام ١٩٦٠ ، رقى أستاذاً مساعداً لعلم النفس بالكلية ، وظل بها حتى عام ١٩٦٧ ، حيث نقل أستاذاً ، ورئيسًا لقسم الأفراد والعلاقات الصناعية ، ومديراً لمركز البحوث بالمعهد القومى للإدارة العليا بالقاهرة حتى عام ١٩٦٩ . ثم انتقل للعمل كبيراً لخبراء منظمة اليونسكو فى مشروع تنمية الموارد البشرية الممولة من برنامج الأمم المتحدة للتنمية فى السودان . ما بين عامى ١٩٦٩ ، ١٩٧٣، ثم إلى العمل نائبًا للمدير، وكبيراً لخبراء اليونسكو فى المركز الأفريقى للتدريب والبحث فى إدارة التنمية (كأفراد) بطنجة بالمغرب، ما بين عامى ١٩٧٣ و١٩٧٧ ، ثم مديراً لمشروع اليونسكو لتعليم الكبار فى إيران، ما بين عامى ١٩٧٨ و ١٩٧٩ ، ثم باكستان مديراً لمشروعات اليونسكو فيها ما بين عامى ١٩٧٩ و١٩٨٢ . وقد تخلل هذه الفترة قيامه بالعمل

خبيراً فى مقر رئاسة منظمة اليونسكو فى باريس بفرنسا، فى المدة ما بين شهرى فبراير وأكتوبر من عام ١٩٧٩ ، كما تخلل الفترة الأسبق سفره للعمل أستاذاً زائراً فى معهد علم النفس، جامعة السارساربروكين بألمانيا فى صيف عام ١٩٦٤ . ولقد تلقى الدكتور مليكة عروضًا للعمل أستاذاً بجامعة ولاية أوهايو بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٧ ، وجامعة نورث ويسترن الأمريكية عام ١٩٦٩ ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٦٩ أيضًا ، إلا أن ظروفه لم تمكنه من قبول هذه العروض فى حينها .

وفى عام ١٩٨٨ ، عمل أستاذاً زائراً بقسم علم النفس بجامعة الكويت حتى عام ١٩٩٠ ، حيث عاد للعمل أستاذاً بالقسم الذى أسهم فى إنشائه مع الدكتورين زيور وخيرى. وبدأ فيه عمله الجامعى بمصر، وهو قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

وخلال حياته العلمية الحافلة ، عمل خبيراً أو مستشاراً لعديد من الهيئات والمؤسسات والمراكز العربية والفنية منها المصرية أو العربية أو الدولية ، مما لايتسع المجال، ولايسمح المقال- هنا- بحصره . ومن أمثلة ذلك ، عمله عضواً بالهيئة الفنية لديوان الموظفين بمصر بين عامى ١٩٥٤ و١٩٥٥ ، وعمله خبيراً بالمركز الدولى للتدريب على تنمية المجتمع فى العالم العربى بسرس الليان بمحافظة المنوفية ، فى الفترة ما بين عامى ١٩٥٤ و١٩٦٩ ، وإشرافه على عدد من البحوث والبرامج التدريبية لأكثر من عشرين عامًا بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بالقاهرة ، وعضوية فريق العمل لدراسة جدوى مشروع إنشاء الجامعة الفلسطينية المفتوحة (اليونسكو ، باريس، عام ١٩٧٩) ، وعضوية لجنة العادات والتقاليد والقيم بالمجالس القومية المتخصصة بمصر ما بين عامى ١٩٨٣ و١٩٨٤ . وعضوية فريق بحث «تحسين أوضاع الريف فى العالم العربى» برعاية جامعة طوكيو الدولية ومنتدى العالم الثالث بين عامى ١٩٨٦ و١٩٨٨ . هذا، إضافة إلى مهمات ميدانية من قبل منظمة اليونسكو لتخطيط وتقييم مشروعات تنمية الموارد البشرية فى السودان فى نوفمبر من عام ١٩٨٤ ، وفى باكستان عام ١٩٨٥ ، وفى البحرين بين عامى ١٩٨٦ ، و١٩٨٧ .

وهو- إلى جانب كل هذا - قام ويقوم بأعمال لبعض الوقت ، منها- على سبيل المثال- أنه كان خبيراً للجنة المصرية الأمريكية المشتركة للتعليم بين عامى ١٩٥٣ و١٩٥٥ ، كما أنه كان مستشاراً لمركز تحليل الفرد فى القوات المسلحة المصرية ، وعضو فريق العمل فى مشروع التربية الخاصة للمعوقين بوزارة التعليم، ومستشار مؤسسة كاريتاس- مصر فى شئون الإعاقة

العقلية . ومستشار المجلس القومى للطفولة والأمومة فى بحوث الإعاقة ، وفى إعداد الإطار الفكرى لقطاع التعليم فى مكون الطفولة والأمومة فى بحوث الإعاقة ، وفى إعداد الإطار الفكرى لقطاع التعليم فى مُكَوِّن الطفولة والأمومة فى خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية الرابعة (٩٧ / ١٩٩٨- ٢٠٠١ / ٢٠٠٢) . وبالإضافة إلى إعداده لهذا الإطار، أعد الدكتور مليكة أربع أوراق فى موضوعات : التربية البيئية ، والتربية السكانية ، والتعليم الفنى، والخدمة النفسية المدرسية . كما أنه أشرف ويشرف ويشارك فى مناقشة رسائل الماجستير والدكتوراة ، وفى لجان ترقية الأساتذة بالجامعات والمراكز العلمية والمعاهد العليا . كما أنه أستاذ مشرف على البحوث التى يجريها طلبة الدراسات العليا فى المنطقة العربية ، فى قسم الدراسات العربية والإسلامية بأكاديمية أوكسفورد للدراسات العليا ، بجامعة أوكسفورد بالمملكة المتحدة .

والدكتور مليكة - أيضًا - مستشار ومحكِّم لعدة دوريات علمية ؛ منها : مجلة العلوم الاجتماعية ، والمجلة العربية للعلوم الإنسانية (جامعة الكويت) ، وعالم المعرفة (الكويت) ، والمجلة المصرية للدراسات النفسية (بمصر)، ومجلة دراسات نفسية (بمصر) ، والمجلة الدولية للتربية الخاصة (بكندا) .

هذا ، علاوة على أنشطته وإسهاماته العديدة فى المؤتمرات العلمية والبرامج التدريبية وحلقات البحث ؛ فى مجالات متنوعة ، منها الخدمات والبحوث النفسية، وتنمية الموارد البشرية ، وتعليم الكبار، والإدارة العليا ، والإصلاح الإدارى ، والدفاع الاجتماعى ، وتأهيل المعوقين ... وقد شارك فى كل هذا إما بالبحوث وتقديم الأوراق، وإما بالعمل محاضراً ، أو مدربًا ، أو مديراً . أما مركز هذه الأنشطة ، فكان مصر ، أو بلاد الوطن العربى ، أو الدول الأجنبية . من ذلك - على سبيل المثال- برامج الإدارة العليا لوكلاء الوزارات ورؤساء مجالس إدارة المؤسسات والشركات، ولجنة برامج القادة الإداريين ، بالجهاز المركزى للتنظيم والإدارة (بالقاهرة) ، ومؤتمر تنمية الموارد البشرية فى أفريقيا ، برعاية اليونسكو بطنجة فى المغرب عام ١٩٧٦ . وبرامج التدريب فى كل من بيشاور ولاهور وكراتشى بباكستان (بين عامى ١٩٧٩ و١٩٨٢) ، وبرنامج التدريب فى إدارات شركة الخطوط الجوية السعودية بجيزان (السعودية : مؤسسة جروب للاستشارات الإدارية - عام ١٩٨٧) ، وبرنامج «الخدمات النفسية والاجتماعية فى رعاية القُصَّر» (الهيئة العامة لشئون القُصَّر - الكويت - ١٩٨٩) .

الإسهامات فى مجال القياس النفسى :

لعل أشهر إسهامات أستاذنا الدكتور لويس كامل مليكة وأكثرها جدارة بالتقدير ، منذ بدأ نشاطه العلمى فى أوائل الخمسينيات وحتى هذه اللحظة ، هو ما قام ويقوم به فى مجال ترجمة وإعداد وتقنين الاختبارات والمقاييس النفسية ، حتى أنى أدّعى- بكل ثقة - أن إسهامه فى هذا المجال لم يصل إلى مستواه أى عالم مصرى أو عربى حتى الآن .

لقد بدأ- إما منفرداً أو مشاركًا بعض زملائه من أساتذة الجامعة- مشواره فى هذا المجال، واستمر فى التزامه الجاد بأن ينذر نفسه لإثراء هذا المجال ، ولإمداد مجتمعه المصرى والعربى بالاختبارات والمقاييس النفسية ، التى بذل أقصى ما يستطيع فى دراستها وإعدادها نظريًا وميدانيًا وإحصائيًا للاطمئنان إلى صلاحيتها ، باعتبارها الأداة الرئيسية التى يستخدمها الإخصائى النفسى أثناء ممارسته عمله. وهكذا ، طوّع الكثير والمنوّع من الاختبارات والمقاييس النفسية التى نشأت وأعدت فى بيئات أجنبية ؛ وعدل فيها وطور حتى أصبحت صالحة - أو على الأقل- مناسبة- إلى حد مقبول- للاستخدام فى بيئتنا المصرية أو العربية . وهذا أمر لايكلف إنفاق وقت فقط ، ولاجهداً فقط، بل يكلف أيضًا أموالاً طائلة ، أنفقها - جميعًا - من جيبه الخاص عن قناعة ورضا . وهو بهذا يعطينا مثلاً لقدوة الأستاذ العالم الذى لايتاجر بعلمه ، بل الذى ينفق من جيبه عليه ؛ التزامًا جاداً لخدمة بلده، وتخصصه ، مهما كلفه ذلك .

وفى مجال القياس النفسى والاختبارات ، أضرب أمثلة لما أسهم به أستاذنا الدكتور مليكة من إعداد ونشر بحوث ودراسات منها :

- مقياس ستانفورد- بينيه للذكاء (بالاشتراك مع الدكتور محمد عبد السلام أحمد) : (مواد المقياس ، وكراسة التعليمات، وكراسة تسجيل الإجابات) .

- دليل مقياس ستانفورد بينيه ، الصورة الرابعة- مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٤ .

- بدأ الدكتور مليكة- منذ بضع سنوات- بالتعاون مع زملائه وطلابه ، فى قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس، الإعداد والتقنين المحلى للصورة الرابعة (١٩٨٥) من مقياس ستانفورد وبينيه ، والإشراف على البحوث المرتبطة به . وقد أعدت- فعلاً- الجداول المعيارية لهذه الصورة المتطورة على عينة تقرب من ٢٤٠٠ فرد من الجنسين، ومن مختلف مناطق الجمهورية فى الفئات العمرية من ٢ إلى ٣٠ سنة ، والعمل مستمر لإعداد جداول معيارية للأعمار فوق سن الثلاثين .

– مقياس وكسلر- بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين (بالاشتراك مع الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل) . (مواد المقياس، وكراسة التعليمات ، وكراسة تسجيل الإجابات) . وقد أعد الدكتور مليكة الجداول المعيارية لهذا المقياس ، كما قام بدراسة ونشر الدلالات الإكلينيكية للمقياس .

– مقياس وكسلر لذكاء الأطفال (بالاشتراك مع الدكتور محمد عماد الدين إسماعيل) (مواد المقياس ، وكراسة التعليمات، ونماذج التصحيح، وكراسة تسجيل الإجابات) .

– اختبارات الاستعدادات الفارقة (بالاشتراك مع الدكتور السيد محمد خيرى مرسى) .

– اختبار الشخصية المتعدد الأوجه (بالاشتراك مع الدكتور عطية محمود هنا ، والدكتور محمد عماد الدين إسماعيل) . (كراسة الأسئلة ، وكراسة تسجيل الإجابات، والصفحة النفسية، ومفاتيح التصحيح) .

– اختبار الشخصية المتعدد الأوجه : دليل الاختبار ، مكتبة النهضة المصرية (الطبعة الأخيرة ، ١٩٩٠ ، وتشمل مراجعة شاملة وإضافات حديثة عديدة) .

– مقياس الفصام فى اختبار الشخصية المتعدد الأوجه ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٦ .

– مقياس الانحراف السيكوباتى فى اختبار الشخصية المتعدد الأوجه ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ .

– مقياس الانقباض فى اختبار الشخصية المتعدد الأوجه، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦ .

– مقياس الهستيريا فى اختبار الشخصية المتعدد الأوجه ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ .

– اختبار رسم المنزل والشجرة والشخص : مواد الاختبار .

– دراسات استطلاعية لاختبار رسم المنزل والشجرة والشخص ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٠ .

– اختبار رسم المنزل والشجرة والشخص : مؤشرات التحليل الكمى فى ضوء الجداول المحلية للمعايير الوصفية والكمية والمصورة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ .

– دراسة الشخصية عن طريق الرسم، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأخيرة ، ١٩٩٤ ، بعد إضافة فصول جديدة .

- المفردات فى قياس الذكاء ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠ .

- اختبار تصنيف الشكل واللون (بالاشتراك مع الدكتور قدرى حفنى) ، مواد الاختبار .

وهكذا ، يتبين لنا أن الدكتور مليكة قد التزم، فى جدية شديدة وموضعية صارمة أمام ضميره المهنى والوطنى ، فأخذ على عاتقه إما منفرداً - وهذا فى أغلب الأحيان- وإما بالتعاون مع زملائه - وهذا فى أحيان قليلة- نقول : أخذ على عاتقه المهمة البالغة الصعوبة ، وهى الإعداد والتقنين المحلى لبعض أهم الأدوات النفسية ، التى يستعين بها الإخصائيون والباحثون النفسيون فى مصر وفى العالم العربى فى وقتنا الراهن . وقد أسهم فى إعداد مواد هذه الاختبارات والمقاييس ، ونشر الكتيبات الخاصة بها . وأجرى العديد من الدراسات اللازمة لها. وقد نقل عنه ما أعده فى مصر إلى اللهجات المحلية فى بعض البلاد العربية مع التطويع البيئى والدراسات اللازمة ، على نحو ما فعل الدكتور فرج عبد القادر طه، والدكتور صلاح مرحاب فى المغرب (الصورة المغربية لمقياس وكسلر- بلفيو لذكاء الراشدين والمراهقين ، الرباط، مطبعة الكوثر، ١٩٧٧) ، والأستاذ هايل موسى فى الأردن ؛ حيث أعد صورة أردنية تحت إشراف الدكتور فرج طه لمقياس وكسلر- بلفيو أيضًا (١٩٨٢) ، والأستاذ مطلب مد الله الشويخ فى إعداده صورة عراقية لذات المقياس تحت إشراف الدكتور فرج طه- أيضًا- فى أوائل الثمانينيات .

الإسهامات فى مجال الكتب والتأليف والتحرير والترجمة :

أما إسهامات الدكتور مليكة فى مجال الكتب والتأليف ، فهى منوعة، وفى مجالات علمية نفسية مختلفة ، كما أنها تمتاز بالدقة والعمق والأمانة العلمية ، التى امتاز بها بين زملائه وتلاميذه

ففى مجال علم النفس الاجتماعى وديناميات الجماعة، نجد له :

- سيكلوجية الجماعات والقيادة : الجزء الأول - الطبعة الرابعة ، وتشتمل على إضافات عديدة وجديدة ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٨٩ .

- سيكلوجية الجماعات والقيادة : الجزء الثانى- الطبعة الرابعة، وتشتمل - أيضًا - على إضافات جديدة وعديدة ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٩ ، كما فعلت بالجزء الأول .

- قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية : المجلد الأول (تحرير) ، وقد طبعته الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٥ ، وأعادت طبعه الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٨٦ .

- قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية : المجلد الثانى (تحرير) ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، عام ١٩٧٠ .

- قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى الوطن العربى : المجلد الثالث (تحرير) ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٧٩ .

- قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى الوطن العربى: المجلد الرابع (تحرير) ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٨٥ .

- قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى الوطن العربى: المجلد الخامس (تحرير) ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ١٩٩٠ .

- قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى الوطن العربى: المجلد السادس (تحرير) ، وقد طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٩٤ .

ويقوم الدكتور مليكة - حاليًا - بإعداد مواد المجلد السابع من هذا الكتاب .

وفى مجال علم النفس النفس الإكلينيكى ، نجد لأستاذنا الدكتور مليكة إسهامات شديدة القيمة ، لا غنى عنها للدارس أو الباحث فى ميدانى القياس النفسى وعلم النفس الإكلينيكى، حتى أنها تقترب من الموسوعات فيما تقدمه من خدمة للطالب . ولعل أهمها جميعًا كتابه «علم النفس الإكلينيكى : التشخيص والتنبؤ فى الطريقة الإكلينيكية ؛ والذى تولت نشر طبعاته الأربع الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب من عام ١٩٧٧ حتى عام ١٩٨٥ ، وتقوم مكتبة النهضة المصرية بنشر طبعته الخامسة . والكتاب تحت المراجعة فى الوقت الحاضر .

هذا ، إضافة إلى كتابه «العلاج السلوكى وتعديل السلوك» ، والذى نشرته دار القلم بالكويت ، عام ١٩٩٠ ، ونشرت طبعته الثانية عام ١٩٩٤ . كما نشرت له - أيضًا - مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٩٠ كتابه «التحليل النفسى والمنهج الإنسانى فى العلاج النفسى». تضاف إلى هذا كله بحوثه التى استهدفت العلامات الإكلينيكية فى الاختبارات والمقاييس النفسية ، والتى سبق أن أشرنا إليها فى هذه الكلمة، عند حديثنا عن إسهاماته فى مجال الاختبارات والقياس النفسى .

هذا ، علاوة على عدد كبير- وفى مجالات علمية منوّعة - من البحوث والدراسات ، والمقالات المنشورة ، التى ظهرت على هيئة كتب أو كتيبات ، منفردة أو مشتركة ، أو قدمت على هيئة دراسات ، أو تقارير لكتب ، أو فصول فى كتب .. سواء منها ما كتب بالعربية أو كتب بالأجنبية ، وقد نشرت أو قدمت فى جهات مختلفة من العالم ؛ الأمر الذى يصعب حصره، ولاتتسع كلمتنا هذه لذكر تفاصيله . يضاف إلى هذا عدد كبير- أيضًا- من البحوث والتقارير غير المنشورة .

المهمات العلمية والمؤتمرات والبرامج التدريبية :

لاشك فى أن التكوين الأكاديمى المميز، والإسهامات العلمية المتميزة ، مع جدية الالتزام ، والموضوعية التى يعرف بها الدكتور مليكة ، كل هذا مكّنه من القيام بمهمات علمية كثيرة، ورشحه للاشتراك فى مؤتمرات أو برامج تدريبية عالية المستوى. وفيما يلى نماذج - فقط- من هذه الأنشطة ، مع ملاحظة أن عدداً غير قليل منها كان برامج تدريبية ، شارك فيها إما محاضراً أو مدربًا أو مديراً ، وهى تشمل مجالات متنوعة ، منها : الخدمات والبحوث النفسية، والدفاع الاجتماعى ، وتنمية الموارد البشرية ، والإدارة العليا والعلاقات الصناعية والإصلاح الإدارى، وإدارة الأفراد ، والاستشارات الإدارية ، وتعليم الكبار ... ومن جملة هذه الأنشطة ، نذكر :

- مشاركته فى المؤتمرات السنوية للجمعية الأمريكية لعلم النفس فى شيكاغو فى عام ١٩٧٥ ، وفى سان فرنسيسكو عام ١٩٩١ وفى واشنجطون العاصمة فى عام ١٩٩٢ .
- مشاركته فى المؤتمرات السنوية للمجلس الدولى لعلم النفس فى سان فرنسيسكو عام ١٩٩١ ، وفى أمستردام عام ١٩٩٢ ، وفى لشبونة عام ١٩٩٤ .
- مشاركته فى المؤتمر الدولى الخامس والعشرين لعلماء النفس فى بروكسل عام ١٩٩٢ .
- مشاركته فى المؤتمرات السنوية للجمعية المصرية للدراسات النفسية .
- عمله مستشاراً لورشة عمل تقويم برامج تنمية المجتمع، التى عقدت بسرس الليان بمحافظة المنوفية ، برعاية اليونسكو عام ١٩٦٤ .
- عمله مديراً لبرنامج تدريب المرشحين لمناصب وكلاء الجهاز المركزى للتنظيم والإدارة بمصر عام ١٩٦٨ .

- اشتراكه فى مؤتمر تعليم الكبار بشيراز وطهران بإيران ، برعاية اليونسكو عام ١٩٧٠ .

- اشتراكه فى ثلاث حلقات بحث عن المهارات الاستشارية فى تنمية وتشخيص المنظمة ، والتى عقدت فى بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٥ .

- اشتراكه فى حلقة بحث مشكلات البحوث النفسية والاجتماعية فى البلاد العربية ، والتى عقدها أعضاء هيئة التدريس فى معهد علم النفس بجامعة السارساربروكين بألمانيا عام ١٩٦٤ .

- عمله مديراً لبرنامج الخدمات السيكلوچية للمعوقين ، بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

- رئاسته لبعض جلسات ندوة «المرأة والمشاركة السياسية » التى عقدت بالمجلس القومى للطفولة والأمومة فى عام ١٩٩٥ .

- رئاسته - أيضًا - لبعض جلسات ندوة «الطفل - الشارع - العمل»، والتى عقدت بالمجلس القومى للطفولة والأمومة فى عام ١٩٩٥ .

المواد الدراسية التى قام بتدريسها :

لقد قام الدكتور مليكة - خلال عمله الجامعى- بتدريس عدة مواد هامة فى صلب تخصصه، نذكر منها :

- علم النفس الإكلينيكى ؛ بكليتى الآداب بجامعتى عين شمس والكويت؛ حيث كان أول من درّس هذه المادة بالجامعات المصرية .

- علم النفس الإكلينيكى المتقدم ؛ لدبلوم الخدمة النفسية بكلية الآداب بجامعة عين شمس.

- قياس نفسى؛ بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

- قياس نفسى متقدم ؛ لطلبة الماچستير بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

- مناهج البحث ؛ لطلبة الماچستير بكلية الآداب بجامعة عين شمس .

- مناهج البحث فى الإدارة ؛ لطلبة الدراسات العليا بالمعهد القومى للإدارة العليا وأكاديمية السادات .

- علم النفس الاجتماعى وديناميات الجماعة ؛ بكليتى الآداب بجامعتى عين شمس والكويت .

- علم النفس التجارى ؛ بكلية التجارة بجامعة عين شمس ، حيث كان أول من درّس هذه المادة بالجامعات المصرية .

- دراسات نفسية ؛ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ، حيث كان- أيضًا- أول من درس هذه المادة بالكلية .

العضوية فى الهيئات العلمية :

هذا ، والدكتور مليكة - إلى جانب كل ما سبق أن ذكرناه - عضو فى عدة هيئات علمية بارزة ، هى :

- الجمعية النفسية الأمريكية (APA) ؛ قسم علم النفس الإكلينيكى ، وقسم العلاج النفسى.

- المجلس الدولى لعلماء النفس (ICP) ؛ عضو مجلس الإدارة ، والمسئول عن البحوث عبر الحضارية .

- أكاديمية نيويورك للعلوم .
- جماعة الاستشاريين الأفارقة (طنجة- المغرب) .
- الجمعية المصرية للدراسات النفسية .
- رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية .
- عضو مجلس إدارة الهيئة القومية لمحو الأمية وتعليم الكبار .
- عضو اللجنة الاستشارية لجهاز بناء وتنمية القرية المصرية .

- والدكتور مليكة من أوائل من حصلوا على ترخيص من وزارة الصحة بممارسة العلاج النفسى .

الدكتور مليكة وتلاميذه :

لقد كنت واحداً ممن أسعدهم الحظ بالتلمذة المباشرة على يد أساتذة عظام ؛ كالدكتور مصطفى زيور ، والدكتور يوسف مراد ، والدكتور السيد محمد خيرى مرسى، رحمهم الله جميعًا ، والدكتور لويس مليكة ، أطال الله لنا فى عمره ، ومتعه بالصحة والعافية . وأشهد،

أننا لم نكن نستفيد من علمهم الواسع والغزير - فقط- عندما كنا نستمع لمحاضراتهم ، أو نقرأ مؤلفاتهم ، أو نجالسهم ونحاورهم فى بيوتهم ، أو نلتقى بهم فى أماكن عامة ... بل كنا - أيضًا- نستفيد مما كانوا يبثونه فينا من قيم نبيلة، تدعو للتمسك بالحق والموضوعية والأمانة والنزاهة وانفتاح العقل وتبنى النهج العلمى والمنطق العقلانى، مع مقاومة التعصب - سواء فى ذلك أكان مع أم ضد تيار علمى بذاته ، أو أيديولوچى فى جوهره ، كما كان سلوكهم الفعلى ترجمة مباشرة وصريحة لكل هذا . فها نحن نجد الدكتور زيور ، وهو المحلّل النفسى الملتزم ، ينشئ أول قسم لعلم النفس بالجامعات المصرية ، وهو قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، فلا يركز فيه على مواد التحليل النفسى وحدها- وكان ذلك فى إمكانه ، بل يستعين بزميليه : الدكتور السيد محمد خيرى مرسى، والدكتور لويس كامل مليكة ، ليدرِّسا معه مواد علم النفس التجريبى، والفارقى، والصناعى، والإحصاء، والقياسى، وعلم النفس الإكلينيكى، وعلم النفس الاجتماعى، وديناميات الجماعة - مع آخرين لتدريس الأنثروپولوچيا وغيرها ... بحيث أصبحت مواد التحليل النفسى لاتشمل إلا جزءاً قليلاً من مجموع المواد المقرر تدريسها بالقسم .

لقد ضرب لنا أمثال هؤلاء الأساتذة العظام مثلاً ، فأصبحوا لنا قدوة فى إنكار الذات والتضحية والحرص على تلاميذهم وتبنيهم وتنميتهم شخصيًا ، ورفع مستواهم علميًا وخلقيًا . فما زلت، وبعض زملائى، نذكر كم كان هؤلاء يرحبون بلقائنا ، ويدعوننا إلى بيوتهم ، ويتبسطون معنا فى الحديث ، ويساعدوننا فى المشورة العلمية ، أو اللازمة لمشكلاتنا الشخصية . مما كان يشجعنا على استشارتهم وطلب معونتهم ونصحهم ورأيهم فيما نقوم به من بحوث ، أو نتصدى له من تأليف ، أو ترجمة لبعض العبارات أو المصطلحات . يتوج كل هذا درجة عالية من التواضع . ولازلت أذكر موقف أستاذنا الدكتور مليكة ، عندما ذهبت إليه فى بيته ، وطلبت منه أن يعطينى بيانات عنه، أستعين بها فى كتابة ملخص لسيرته، كواحد من أعلام علم النفس فى العالم العربى، حتى أضمنها فى موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، التى كنت أقوم- آنذاك - بتحريرها ، فقد رفض ذلك فى البداية ، وحاول أن يثنينى عن ضمه فى هذه الموسوعة ، ولولا إصرارى وما بذلته فى سبيل إقناعه من جهد ما استجاب إلى طلبى. بل إنى لأشهد أن الدكتور مليكة وزملاءه- من أساتذتنا العظام- ما سببُّوا لنا - أحيانًا- من ضيق إلا سعيًا لصالحنا، ورغبة فى تعليمنا ورفع مستوانا : فكنا - أحيانًا- نضيق بالتزامهم وجديتهم وصرامتهم فى محاضراتهم، وكثرة ما يكلّفوننا به من بحوث وأعمال،

وضخامة ما يقرِّرونه علينا من مواد دراسية . إلا أننا، بعد التخرج والانخراط فى الحياة العملية والمهنية، أحسسنا كم كانوا على حق ، وكم أفادونا، وعملوا على صقل شخصياتنا وعلمنا ، منطلقين من التزامهم الجاد بموقفهم المبدئى من إفادتنا كأبناء لهم، وإفادة المجتمع بتخريج جيل على مستوى من العلم والخلق يفيد الوطن ولاءً له وحبًا . حتى أننا - الآن - نتمنى لو أن كل أساتذتنا كانوا على هذا المستوى المشرف من الأساتذة الذين ذكرتهم . وعندما ننظر حولنا الآن نصاب بغصة لما آل إليه حال كثير من أساتذة الجامعة من استهتار بالمسئولية، ونقص فى جدية الالتزام بها، والوفاء لها .

الدكتور مليكة وتكريم الأجانب له :

إزاء هذه الحياة الحافلة والمتميزة ، مع جدية التزامه ، واستقامته الخلقية، فإننا لانتعجب أن يؤدى كل ذلك إلى أن ينال الدكتور مليكة مكانة عالية ومتميزة فى الأوساط والهيئات العلمية العالمية .

من ذلك ، أن يشير إليه مارك تسلر وزملاؤه فى الكتاب الذى حرره بعنوان : «تقويم وتطبيق البحث المسحى فى العالم العربى » (ص١٥٥) ، نشر ، «ويست فيو» بولدر ، بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٧ . وأن يحصل على شهادة Distinguished Leadership Award ، وإدراج تاريخ حياته فى المجلد الرابع من الدليل الدولى للمعهد البيوجرافى الأمريكى الصادر عام ١٩٩٢ (ص٢٤٣) ، وذلك لإسهاماته الممتازة فى علم النفس ، بوصفه علمًا ، وبوصفه مهنة .

وأخيراً : فها هى الجمعية النفسية الأمريكية - وهى أكبر جمعية - من نوعها فى العالم - تكرم أستاذنا الدكتور / مليكة ، بمنحه درجة الزمالة Fellow فى علم النفس الإكلينيكى ، بناءً على توصية من قسم علم النفس الإكلينيكى بالجمعية ، وذلك عام ١٩٩٣ . وهى أعلى درجة علمية تمنحها الجمعية ، كما أنها أول زمالة - من نوعها - يحصل عليها مصرى فى علم النفس الإكلينيكى من هذه الجمعية . وجاء فى شهادة الزمالة أن الدرجة قد منحت له «تقديراً للإسهامات الممتازة، وغير العادية، فى علم النفس الإكلينيكى ، بوصفه علمًا وبوصفه مهنة» كما جاء فى خطاب تهنئة رئيس الجمعية الدكتور فرانك فارلى، ورئيسة لجنة العضوية الدكتورة جلوريا جوتسجين ، أنهما ، بالنيابة عن مجلس المندوبين ومجلس المديرين ، وبالنيابة عن أعضاء الجمعية ، يتقدَّمان له بالتهنئة لحصوله على «أعلى مكانة فى الجمعية» . وقد منحت

الجمعية النفسية الأمريكية عام ١٩٩٥ الدكتور مليكة درجة الزمالة- أيضًا- في قسم العلاج النفسي.

وبعد :

إذا كان الأستاذ الدكتور لويس كامل مليكة يلقى كل هذا الاعتراف والتقدير والتكريم في الخارج ، نتيجة لما يقدمه لبلده ولعلمه ، أو يقدمه لبلاد العالم الخارجي، ممثلاً لهما (بلده وعلمه) من إسهامات جادة ومتميزة فإنه - أيضًا- يلقى الاعتراف والتقدير داخل وطنه وبين تلاميذه . من ذلك ، أن قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس يقوم بترشيحه سنويًا لجائزة الدولة التقديرية ، بعد أن حصل عليها أستاذنا المرحوم الدكتور مصطفى زيور مباشرة ، حيث لايسمح للقسم الجامعي أن يُرشِّح أكثر من عالم واحد في وقت واحد . كما أنه يُرشَّح- أيضًا- لنفس الجائزة من هيئات علمية أخرى، ومنها جامعة المنيا ، ونأمل أن نهنئه قريبًا بفوزه بها ، فهو بها جدير ، بدون شك .

رابعًا

القسم الإنجليـزى

19- Nagaty . M.O. (1988) . Avicenna. In : Figures in Islamic education (pp. 245-262). Riyadh: The Arab Bureau of Education for the Gulf States (in Arabic) .

20- Rageh. A.F. (1961) . Industrial psychology. Cairo : The Modern Printing Establishment (in Arabic) .

21- Shackleton, V.J., & Ali A.H. (1990) . Work related values of managers: a test of the Hofstede model . Journal of Cross-cultural Psychology. 21 (1) . 109-118 .

22- Sultan, I., & F.A. (1975) . Psychology of truck and bus drivers. Cairo, The National Center for Social and Criminological Research (in Arabic) .

23- Taha, F.A (Ed.) (1973) . Readings in industrial psychology . Cairo, Raafat Bookshop (in Arabic) .

24- Taha, F.A. (1974) . Test battery for blind sensormotor aptitudes. Cairo, al-Taaleef Press (in Arabic) .

25- Taha , F.A . (1980a) . Psychology of the problem worker . Cairo , El-Khangy Bookshop (in Arabic) .

26- Taha , F.A. (1980b) . Industrial and organizational psychology . Cairo : Dar al-Maaref (in Arabic) .

27- Taha , F.A. (1982) . Industrial psychology in Egypt : Past present , and future. Paper presented at the 20th International Congress of Applied Psychology . Edinburgh , Scotland .

28- Taha, F.A. (1986) . Test battery for youngster's guidance . Cairo : Ministry of Labour Power (in Arabic) .

29- Tashkandy . A., Balkhy , H., & Damanhoury, R. (1988). Industrial and vocaltional psychology. Jedda : Musbah Bookshop (in Arabic) .

30- Um Al- Qura University , Mekka, Saudi Arabia (1990) . Directory of the Psychology Department (in Arabic) .

10- Al- Ṭai, N.M. (1976). Vocational preference and some personality traits. Unpublished Ph. D. Thesis , Ain Shams University (Egypt) (in Arabic).

11- Dowadar, A.M. (1991) . Factors determining achievement motivation in the light of some variables between male and female employees in Egypt. Proceedings of the 7th Annual Convention of the EAPS (pp. 49-73), Cairo (in Arabic) .

12- El-Gazzar . M.E., & Sander , B.W. (1984a) . Changeover from foreign to national management in multicultural organizations : A system model and case studies paper presented at the 7th International Congress of Cross-cultural Psychololgy . Acapulco , Mexico .

13- El-Gazzar . M.E., & Sander, B.W. (1984b). Organization and behavioral impact of managerial changeover to the nationals in a developing country . Paper presented at the 23rd International Congress of Psychology. Acapulco, Mexico .

14- Hamed . A.G. (1981). Morale measurement of industrial labourers in Iraq and its diagnosis. Upublished M.A. Thesis, Ain Shams University (in Arabic).

15- Ibrahim, A.S. (1991) . Attitude toward risk and traffic accidents. Psychological Studies (Egypt). 1 (4) , 605-635 (in Arabic) .

16- Khairy, E.M. (1967). Industrial psychology and its local application . Cairo: Dar el-Nahda al-Arabia (in Arabic).

17- Khairy, E.M., & Mohammed , A.Z. (1972) . Measuring and diagnosing morale of industrial workers . Cairo : The National Center for Social and Criminological Research (in Arabic) .

18- Khairy, E.M. (1976) . Psychological selection of apprentices for vocational training centers , Cairo: Productivity and Vocational Training Authority , Ministry of Industry (in Arabic).

References :

1- Abou El-Neil , M.E. (1985) . Industrial psychology . Beirut : Dar el- nah da al-Arabia (in Arabic) .

2- Abou - el-Neil , M.E. (1986) . Vocational guidance and productivity Paper presented at the first Conference on Vocational Guidance . Cai- ro . Ministry of Laboru Power (in Arabic) .

3- Achoui , M . (1989) . Industrial and organizational psychology in Algeria: Present stated and future perspectives . Paper read at the Maghrebian Meeting on The Present Status of Psychological and Educational Stud- ies in the Greater Maghreb , University of Oran, Algeria (in Arabic) .

4- Achoui , M., & Lucif, S. (1988) . Leadership style and organizational structure . Journal of the Social Sciences (Kuwait), 16 (3) , 61-74 (in Arabic).

5- Ahmed , R.A. (1992) . Psychology in the Arab countries . In : U.P. Gie- len, L.L. Adler , & N.A . Milgram (Eds.), Psychologists (pp. 127-150). Amsterdam : Swets & Zeitilinger .

6- Al-Harby, M.S. (1985) . Vocational attitudes of intermediate and sec- ondary school students . Unpublished M.A. Thesis , Um Al Qura Uni- versity, Mekka Saudi Arabia (in Arabic).

7- Al- Hossein , Z.A. (1990) . Directory of the university theses in Saudi Arabia. Riyadh: King Faysal Center for Research (in Arabic) .

8- Ali, A. H., & Al- Shakis , M. (1985). Managerial value systems for work- ing in Saudi Arabia : An empirical investigation . Group and Or- ganizational Studies , 10 , 135-155 .

9- Al- Sarraf , Q.A. (1990). Sex differences in attitudes of college students in Kuwait toward manual work . Journal of the Social Sciences (Kuwait), 18 (2) , 246-255 .

(1990) , carried out a study on Work related values of managers in which they tested the Hofstede model in the Sudanese milieu .

Conclusion :

As previously mentioned , industrial and organizational psychology varies much in advancement from one Arabic country to another , in the areas of application, university education , dissertations and field studies , and publications , At the same time , it is very similar in objectives , ways of teaching and training , scientific methods of field studies and statistical and qualitative analysis. The differences tend to reflect different levels of economic , social, and cultural development , which vary widely from one Arabic country to another , while similarities can often be attributed to the influence of pioneering Egyptian psychologists , who introduced psychology as a distinct scientific discipline to the Arab world .

A great number of the Arabic research studies in industrial and organizational psychology have been conducted with the purpose of obtaining advanced academic degrees . Examples include Taha (1968) in Egypt, and Al-Tai (1976) and Hamed (1981) in Iraq. It also seems that organizational psychology has received more attention than industrial psychology in some Arab countries ; such as Saudi Arabia (Al-Gazzar & Sander, 1984a 1984b ; Ali & Al- Shakis, 1985 ; Tashkand , Balky , & Damanhoury , 1988) , and the Sudan (Shackelton & Ali , (1990) .

It is also true, as can be detected from the previous discussion about industrial and organizational psychology , that the social structure , the historical circumstances , and the different and changing conditions that characterize or surround every Arabic country , affect in many ways the advancement of all scientific disciplines , as is the case in any country in the whole world .

3- A positive relationship was found between the length of service and humanistic relations, especially among the first level supervisor . This may reflect the continuation of face-to-face interaction and personal contacts over a long period of time.

4- A positive relationship was found between number of subordinates and the supervisor's interest in job performance among the third level supervisors .

Industrial and Organizational Psychology as a Profession :

Generally speaking , there appears to be little coordination between the academic interests of organizational psychologists and the requirements of Algerian companies and governmental bodies . However , there exist some Algerian companies and projects , which have been able to make use of the resources of industrial and organizational psychology . For instance , The National Authority for Electricity and Gas employs several graduate students in industrial and organizational psychology .

Finally , it should be mentioned that the future of industrial and organizational psychology in Algeria and the other Greater Maghreb countries depends mainly on the overall expansion of psychology , which up till now has been rather modest in scope.

Industrial and Organizational Psychology in Other Arab Countries :

In some other Arab countries (e.g. Kuwait, Iraq, the Sudan), a few research studies and publications have appeared in industrial and organizational psychology, Al- Sarraf (1990) investigated gender differences in the attitudes of Kuwaiti college students toward manual work . For example ; in Iraq, Al-Tai (1976) studied the vocational preferences and personality traits of school students while, Hamed (1981) measured the morale of Iraqi industrial workers , as mentioned above . In the Sudan, Shackleton and Ali

students , half of them discontinued their studies due to financial and family reasons .

Some research studies in industrial and organizational psychology have been carried out in Algeria over the last ten years . Several of these studies were conducted for the purposes of obtaining M.A. or Ph. D. degrees from British and American universities.

Field studies of Industrial and Organizational Psychology in Algeria :

Other reseach studies have also been carried out in Algeria covering topics ; such as worker's absenteeism , resignation, training, working conditions, and leadership and structure (Achoui: 1989) .

We mention here a paper entitled "Leadership styled and Orgnizational structure" , conducted by M. Achoui and S. Lusief. They conducted their study in an industrial organization in Algiers, on the base of Fielder theory of leadership effectiveness . The sample consists of 73 supervisors devided to three groups according to their levels of supervision . The first level is the lowest which is very near to the workers, the third is the highest level, which is on top of leadership . They administered the Foelder Scale of leadership characteristics to the three groups. These characteristics are classified in two dimensions ; much interested in job performance , or much interested in humanistic relations .

The most important results of the study are :

1- Supervisors close to their workers (such as the observers, controllers, masters and other first level and direct supervisors) showed more interest in humanistic relations than in job performance .

2- The high position supervisors (such as managers), were more interested in job performance .

some psychology graduates are appointed under different titles in some position in either governmental or business institutes . Some of them carry out psychological duties ; such as counseling , clinical diagnosis, therapy, case studies , school psychology , and vocational selection, and guidance .

Nowadays, Saudi Arabia is much concerned with social , economic , and industrial development . Education is considered a cornerstone of advancement . This concern is manifested in the foundation of seven universities . Each of the universities has one or more departments of psychology, which give considerable concern to industrial and organizational psychology . Seen in this light , it may be expected that this discipline will prosper in Saudi Arabia in the near future.

Industrial and Organizational Psychology in Algeria :

Industrial and Organizational Psychology in Algerian Universities : In Algeria , psychology became a subject of interest during the early 1960s . At the Institute of Psychology . University of Algiers, industrial psychology was first introduced as a distinct academic and scientific discipline during the academic year 1971- 1972 . The first group of graduate students in industrial psychology graduated in 1976 . The number of enrolled students in that field increased gradually from 186 in 1976 to 400 in the academic year 1978-1979 as a result of the economic expansion during the 1970s . During the early 1980s, the number of students enrolled in industrial psychology decreased dramatically to a mere 100 in 1986 , reflecting an intensive process of restructuring (Achoui, 1989) . The organizational dimension was added to industrial psychology in both teaching and training as a result of the Educational Reform which took place in 1980 .

As for postgraduade studies, a master degree program was established at the University of Algiers in 1985 . However , of the 20 enrolled graduates,

2 . There are positive attitudes toward military , engineering , medical professions, and university education .

3. Vocational attitudes are more appartent and better defined among secondary pupils than intermediate school students .

4 . When relatives and friends work in certain vocations , pupils tend to prefer the same vocation .

5 . Many sources form vocational attitudes; such as television , radio, magazines and newspapers, books, teachers, fathers, relatives, and friends working in the same vocations .

A. Safwat Ibrahim carried out a research study on attitude toward risk and traffic accidents . (Ibrahim : 1991) . In this study , Ibrahim administered the locally developed "Safwat Risky Attitude Scale": consisting of five subscales to a sample of 622 male university students . The subjects kept a record of the traffic accidents they were involved in. Two groups of subjects emerged : the traffic accident group. The most important findings of this study are :

1. The traffic accident group scored significantly higher than the non-accident group on the Risky Attitude Scale, and also in the following subscales : Health Carelessness, Accident Proneness, and Over-confidence .

2 . There was a positive relationship between number of accidents and age. While the first finding agress with the results of previous studies. In this field, the second finding differs from findinge in most other studies , which indicate that the younger drivers are more involved in traffic accidents, because of less experience , greater impulsiveness , and lack of cautiousness.

Industrial and Organizational Psychology as a Profession in Saudi Arabia :

In Saudi Arabia as in Algeria and most other Arab countries, "psychologist" as a formal and official title is not in general use yet . Nevertheless,

Field Studies and Publications of Industrial and Organizational Psychology in Saudi Arabia :

As in Algeria and most other Arab countries , the main textbooks and references of industrial and organizational psychology in Saudi Arabia are written by Egyptians . English textbooks and references are sometimes used, especially by postgraduate students .

Saudi textbooks and references in this discipline are very rare. One example is industrial and vocational psychology, published by Tashkandy , Balkhy , and Damanhoury (1988) . There are also some pertinent aricles and papers published in local or international periodicals and conferences . Examples include : The changeover from foreign to national management in multicultural organizations (El- Gazzar & Sander: 1984a) , Organizational and behavioral impact of managerial changeover to the nationals (El-Gazzar & Sander : 1984b) , and managerial value systems for working in Saudi Arabia : An empirical investigation (Ali & Al- Shakis: 1985) .

One of the most important subjects drawing the attention of Saudi and other psychologists in the oil-producing Arab states concerns the generally negative attitude toward manual labour and vocation . Several research studies have been conducted in this area . An example of this is the disseration entitled vocational attitudes of intermediate and secondary school students, carried out by M.S. Al- Harby (1985) for a master degree in psychology. The study's aim was to investigate the attitudes of 906 intermediate and secondary school students (between 14 and 20 years old) toward different professions , the effects of the father's vocational level on these attitudes , and shape these sttitudes. the most important results of this study are :

1 . Negative attitudes exist toward manual vocations; such as mechanics, electricity , carpentry , plumbing , and toward vocational training centers.

Industrial and Organizational Psychology in Saudi Arabia:

Industrial and Organizational Psychology at Saudi Arabian Universities :

Industrial and organizational psychology is a main course in the departments of psychology in many faculties of Saudi universities, especially faculties of education , at the undergraduate or postgraduate levels. . It is also taught as an auxiliary course in faculties of engineering and elsewhere .

Industrial and organizational psychology has acquired considerable status in postgraduate studies . For instance , the directory of the department of psychology , Faculty of Education. Um Al- Qura University in Mekka (1990) , lists twelve master theses in industrial and organizational psychology out of 60 psychology theses carried out during the time period 1975 - 1989 ; (Doctoral programs have not yet been introduced at this university) The same trend was also found in the other Saudi psychology departments , i.e. , the department of psychology , Faculty of Education , King Saud University in Riyadh , in which 19 master theses in the field of industrial and organizational psychology have been conducted from 1982 to 1992 , out of 54 Master theses in all fields of psychology . The doctoral studies at King Saud University are scheduled to begin in the near future . Some psychology departments have very recently instituted doctoral studies , such as Al-Imam Mohammed Ibn Saud University . In the directory of the university theses in Saudi Arabia , it was recorded that there are 51 master theses carried out in all fields of psychology, among them 27 (33%) in the field of industrial and organizational psychology. This indicates how much attention is given in Saudi Arabia to industrial and organizational psychology in comparison with other fields of psychology .

covers all area of this discipline, both traditional and modern , including vocational selection , guidance, classification and rehabilitation, job analysis, job evaluation , vocational adjustment , management , humanistic relations, leadership, efficiency , etc. But it is now facing several problems and obstacles, which are affecting its growth and advancement . such as :

1. Reserach budgets are research in the humanities and social sciences . This reflects Egypt's major financial problem .

2. Scientific attitudes are not highly appreciated or respected in the modern Arabic culture, when compared to the more developed countries . Therefore, higher authorities tend to neglect scientific procedures and principles in managing their jobs and organizations .

3 . The economic difficulties facing Egypt lessen the importance of industrial and organizational psychology as a theoretical or applied discipline ; because of the close relationship between industrial psychology's advancment and industrial and economic prosperity .

4 . Fewer Egyptian psychologists now attend international conferences and congresses because of shriniking budgets and low individual income (Ahmed: 1992) .

5 . Government scholarships for postgraduate studies abroad have diminshed considerably in recent years , especially in psychology . The reinstatement of these scholarships could invigorate the discipline in Egypt by helping introduce the most up-to- date principles and scientific knowledge from abroad .

tional psychology have been published in the Arabic language. They include industrial psychology by Ahmed E. Rageh (1961). Industrial psychology and its local applications by Al-Sayed M. Khairy (1967) , Readings in industrial psychology by Farag A. Taha (1973) , Industrial and organizational psychology by Farag A. Taha (1980) , and industrial psychology by Mahmoud Abou- el- Neil (1985) .

In addition , relevant papers and articles are being published in psychological or sociological periodicals , and conferences held in Egypt and elsewhere .

Industrial and Organizational Psychology as a Profession :

In Egypt , "Psychologist" has been a formal title in governmental departments and elsewhere for almost 40 years . It is now also used in private and public companies and institutions . On the formal level , the title of "psychologist" is not usually made more specific through additional labels ; such as "industrial" "clinical" , or "educational". Actually, this claaification is made according to the field in which the psychologist is a hospital , he is then a clinical psychologist or educational counslor. If he is working in vocational selection , classification , guidance or rehabilitation, he is then an industrial and organizational psychologist , and so on this situation is expected to change : The Egyptian psychologist's job will probably be classified according to different specialization when psychology as a discipline gains more advancement , as it has in more developed countries .

Final Comments on Industrial and Organizational Psychology in Egypt:

It appears that industrial and organizational psychology in Egypt is relatively advanced when compared to many Third World countries , especially in the Arab World . Industrial and organizational psychology in Egypt

Besides , such field studies and dissertations , there are test batteries , which have been developed and standardized in Egypt , including Productivity Batteries which have been developed in the Training Authority , (Ministry of Industry) under the supervision of Late preofessor Khairy (1976). The test batteries consist of psychological tests developed for selecting the most suitable apprentices for a special Vocational Training Center and batteries include paper and pencil as well as performance tests . The standardization samples included thousands of 14 to 18 years old candidates for the vocational training centers , who had obtained the Preparatory Certificate (a level between primary and secondary education) .

Another example is the Test Battery for Youngster's Guidance , which was developed and standardized under the supervision of Farag Taha (1986), and published by the Ministry of Labour power . It was developed and standardized as a part of various vocational guidance activities carried out by that Ministry . The standardization sample included 226 male youngsters between 12 and 18 years old who did not continue their academic study. All tests included in the battery are individual tests .

In the field of rehabilitation of the blind , Farag Taha developed in 1974 a Test Battery for Blind Sensorimotor Aptitudes . The standardization sample of this battery included 56 male and 17 female blind subjects .

It should be noted that the above - mentioned dissertations, research projects , and standardization studies are based upon generally accepted scientific methodology, including both quantitative and qualitative analysis of the obtained qualitative analysis of the obtained data .

Egyptian Publications in Industrial and Organizational Psychology :

Since the 1960's , several Egyptian textbooks in industrial and organiza-

and have personality traits dissimilar to those of psychopathes.

3 . The successful drivers had a significantly lower mean score on the sensorimotor coordination tests. This indicates that successful drivers have better coordination in these areas .

4. The quantitative analysis of the Thematic Apperception Test revealed that successful drivers had a significantly lower mean aggressive tendencies and thought disturbances . This indicates that successful drivers are more psychologically mature and less emotionally .

The results of this field study suggest that drivers should be selected according to a test battery including tests for measuring general comprehension, sensorimotor abilities and coordination , and personality traits and dynamics .

(4) Factors determining achievement motivation in the light of some differences between Egyptian male and female employees : This study is among the recent field studies in the discipline of industrial and organizational psychology in Egypt , having been conducted by Abdel-Fattah Dowadar in 1991 . He administered five psychometric scales to measure achievement motivation , locus of control . self-assertion , religious values , and anxiety and depression (Dowadar: 1991). His sample consisted of 263 male and 272 female employees from governmental departments and business companies in Alexandria. The most important results of this study are :

1. There was no significant difference in achievement motivation between males and females .

2. There were significant positive correlation between achievement motivation and religious values, self - assertion , and internal locus of control .

Dowader provided sensible psychological interpratations of his results some, of them were replicated by Abou-Al-Neil (1986) .

In 1981 , Abdel- Monem Hamed conducted a a study in Iraq to measure the morale of Iraqi industrial workers, found results similar to those of Khairy and Mohammed (Hamed: 1981) .

(3) Psychology of truck and bus drivers : Another important field study is Psychology of truck and bus drivers , which was conducted in Egypt in 1975 under the supervision of Emad Sultan and Farag Taha , and published by the National Center for Social and Criminological Research in Cairo . A first step in this study was making a job analysis for driving camions and buses (defined as big cars for heavy transportation in/or between towns and cities). The main objective of this job analysis was to detect the mental abilities, personality traits and vocationally well - adjusted driver. For this purpose , Taha and Abou - El- Neil developed as comprehensive and intensive a job schedule as possible. Their job analysis schedule was puplished separately to beused as a model for other job analyses. Tests for motor control, sensorimotor abilities, personality traits , and personality dynamics were administered to a smple of 162 male bus and camion drivers . These included 75 maladjusted/ failed , and 87 well- adjusted / successful drivers . According to the empirical data recorded in their files, these included accidents, traffic violence , car - damaging , dishonesty, malingering , absenteeism , and complaints . The most important results of this field study are :

1. The successful drivers had a significantly higher mean score on the General Comprehension Subtest of the Wechsler-Bellevue Intelligence Scale. This result indicates that successful drivers are more efficient in reality perception, reality judgment, and responding to reality .
2. The successful drivers had a significantly lower mean score on the Picture Arrangement Subtest of the Wechsler - Bellevue Scale. This indicates that successful drivers rely less upon trial and error in their driving ,

(2) Measuring and diagnosing morale of industrial workers: One of the most appreciated studies in the field of industrial and organizational psychology is that supervised by El- Sayed Khairy and Ahmed Zaki Mohammed (1972). This field study was carried out on a sample of 400 industrial workers in different departments of an industrial company . The sample was comprised of 330 males . A scale, especially developed for measuring and diagnosing morale , was administered to this sample to detect the departments with the highest and the lowest morale . The Raven Progressive Matrices Test for intelligence and a Sociometric Test were administered to workers of the departments with the highest and the departments with the highest and the lowest morale . In addition , the Wechsler - Bellevue Intelligence Scale and the Thematic Apperception Test were administered to supervisors of the departments differing in morale. The most important results of this study are :

1. A positive relationship was found between morale and salary, promotion, privileges and favors, good relations and good communications.
2. A positive correlation was found between intelligence of workers and their morale. The same result was also true for the supervisors who were supervising departments of high morale in comparison with those who were supervisng departments of low morale.
3. The supervisors of the high morale departments had better mental health, and were more psychologically mature in comparison with those of the low-morale departments.
4. There was a positive correlation between group cohesiveness and morale in the departments.

fected by disturbance of logical thinking and emotional stability . So, this function is more disturbed in psychotics than others. This result seems to support the above result.

3. The problem group scored significantly higher in the aggression category of the Hand Test . This indicates that the problem worker is more aggressive , and has personality traits and motives which characterize persons , who have psychotic trends as compared with others. This indicates that the probelm workers are characterized by immature psychological development . This result appears to support the previously mentioned results of the Wechsler Test .

4. The qualitative analyses of both the Thematic Apperception Test and the Clinical Interview showed more psychotic aspects in personality structure and personality dynamics of the problem workers (such as shown in more organic brain damage , paranoid destructive motives , psychopatic trends, melanchlic aspects. and bizarre thinking) . This result shows that the problem worker relies more on primitive psychotic mechanisms ; such as projection, introjection , and splitting . This also indicates that the problem worker is more psychologically disturbed and immature . This result supports the above- mentioned ones .

5. The problem worker showed less conformity to authority agencies , as shown in his responses to the Thematic Apperception Test along with his Chlinical Interview . This trend may cause clashes with bosses and authority agencies, and lead to vocational maladjustment .

   Perhaps, the most important finding of this study is that the different kinds of tools or techniques)psychometric versus projective tests and clinical interviews) led to integrated and unified results (not to contradictory results as sometimes claimed) .

under the supervision of Professors Mostafa Zewar , and El-Sayed Khairy. The study used the Wechsler - Bellevue Intelligence Scale for Adults, the Hand Test , the Thematic Apperception Test , and the Clinical Interview .

The Wechsler - Bellevue Scale and the Hand Test were administered to 20 industrial male workers , who were considered problematic based upon information included in their files . The incidence of accidents frequent absence ; technical faults' low productivity ; failure to establish good relations with bosses , colleagues , or subordinates ; frequent complaints about or from bosses , colleagues or work systems and regulations ; disobedience with respect to bosses and regulations . The Wechsler- Bellevue Scale and the Hand Test were also administered to a control group of 20 male workers, who were considered normal . according to the above-mentioned measures. Both groups had similar job positions, The Thematic Apperception Test and the Clinical Interview were administered to eight of the most problematic workers , and eight of their peers from the control group for an intensive , deeper and more comprehensive study .

Data of this study were analyzed quantitavely and qualitatively , using a psychoanalytic approach . The most important results of this study are :

1. The problem group scored lower, but not statistically significantly so, in all intelligence quotients of the Wechsler Scale (total, verbal, performance , and efficiency) when compared to the control group . This result might indicate that the problem worker is relatively less efficient in reality perception , reality judgment, and reaction to reality .
2. The problem group scored significantly lower on the comprehension subtest of the wechsler . This subtest measures mainly the function of judgment and reality testing . This mental function is especially af-

ganizational psychology. Ain Shams University has the first and the largest independent department of psychology in Egypt. From the time the first master degree was given in 1955 until the year 1997 , there have been approximately 60 doctoral and master graduates in the industrial and organizational field .

Almost 15 years after the foundation of the department of psychology at Ain Shams University , other Egyptian universities began to establish their own independent departments of psychology . The department give a considerable attention to the subject of industrial and organizational psychology. Many of them offer master and doctoral degrees in industrial and organizational psychology, and some of them have one or two year programs awarding diplomas in industrial and organizaltional psychology. Industrial and organizational psychology is also a main course in some other university departments ; such as departments of administration , engineering , and commerce . It is also a main course taught in many colleges and technical secondary schools controlled by the Ministry of Education .

Disserations and Field Studies of Industrial and Organizational Psychology :

Many Egyptian disserations and field studies carried out in the field of industrial and organizational psychology use the same scientifc methods as American and European researchers do . These include collecting data from a representative sample, developing tools and standardized tests , analyzing these data by quantitative or qualitative methods , and using modren statistical techniques. Some examples of such dissertations and field sudies follow :

(1) Psychology of the problem worker : A doctoral dissertation was conducted by Farag A. Taha, in 1968, at Ain Shams University (Taha : 1980a)

Also , in the seventies, the Ministry of Education became more concerned with psychological services in its schools dedicated to special education . There are more than fifty such schools scattered allover Egypt. They are established to teach , educate, guide, and train pupils who are not normal , such as the blind , deaf, feebleminded and delinquent . The Ministry of Education has appointed hundreds of psychologists in these schools. Psychologists in thse schools conduct for accepting or refusing pupils in the special schools. They counsel and guide the students vocationally . educationally . and psychologically. Nowadays , such psychological services have been extended to normal schools .

There are also several industrial companies and vocational institutes allover Egypt, which use psychological procedures for their own good and welfare.

Industrial and Organizational Psychology at the Egyptian Universities :

Industrial and organizational psychology draws its importance and advancement , to some extent , from the attention that Arab universities have bestowed on it . The Egyptian universities give this discipline a considerable importance in teaching and training .

The first independent university department of psychology in Egypt was the department of psycological and sociological studies, Faculty of Arts , Ain Shams University , in 1952 under the supervision of late professor M. Zewar, who was a psychiatrist and psychoanalyst trained mostly in France . The second member in this department was late professor E.M. Khairy, whose psychology degree was from London University. His major interest was in the field of industrial and organizational psychology . He and his students , supervised many doctoral and master theses in industrial and or-

train personnel for jobs and vocations useful to the industrial developmen of Egypt. Late professor E.M. Khairy of Ain Shams University was re-cruited to supervise many centers for training according to the apprentice-ship system have been established allover Egypt. Many psychologists have been appointed to analyze jobs. and adopt or be used in the selection and classification of the applicant pupils , who have recently obtained the Preparatory Certificate (about 16 years old). Nowadays, the number of these training centers has grown up to more than 40 , covering all provinces in Egypt. In 1990 , the above mentioned department tested psychologically about 13.000 pupils to select some thousands for the training centers mentioned above .

In the early seventies , the Ministry of Labour Power in Egypt became interested in applying psychological tests and interviews in the vocational guidance offices it established allover the country . It called on Taha to develop and standardize a test battery for the vocational guidance of youngsters between 12 and 18 years old , who had not continued their academic study (Taha: 1986) .

Many ministries and governmental departments in Egypt have used the services of industrial and organizational psychology in some of their divisions, and in many institutions and organizations under their supervision . The Ministry of Social Affairs, for example, supervises many institutes and organizations designed for rehabilitation, providing services for the feebleminded and delinquents . In such institutes and organizations , there are many permanent or part-time psychologists, who are responsible for psychological investigations needed for diagnosis, counselling, guidance, rehabilitation , and vocational training .

principles of modern industrial and organizational psychology ; concerning vocational, selection guidance , training , and fitness in general , Ibn Sina heavily stresses the fitness of personality traits, character, and mental aptitudes for variuos occupations.

INDUSTRIAL AND ORGANIZATIONAL PSYCHOLOGY IN EGYPT :

Emergence of Industrial and Organizational Psychology :

Industrial and organizational psychology in Egypt can be traced back to the year 1952 (Taha, 1982) . In this year , "Dewan Al-Mowazzafeen: (Ministry of Employees) was established . The "Dewan" supervised the appointment of new employees in governmental jobs. In this "Dewan", there was a main department specializing in psychological testing , interviewing , selecting and classifying of new employees . It was almost forbidden for any employee to be appointed in governmental jobs unless he/she was subjected to this selection by that department . The "Dewan" Al-Mowazzafeen" appointed psychologists to provide help in analyzing jobs, adopting or developing psychological tests appropriate for the Egyptian culture, interviewing and selecting applicants, and classifying the new applicants , and classifying the new employees . In 1964 , the "Dewan Al-Mowazzafeen" was transformed into "Al-Gihaz Al-Markazy" (Ministry for Organization and Management) . Subsequently , the Al-Gihaz transfered the abovementioned psychological procedures to the governmental ministries and departments, should they prefer to use them .

In 1954, the Ministry of Industry was established which includes a department responsible for "Productivity and Vocational Training Authority . "One of the department's main responsibilities is to select , classify , and

development . There is a time lag of almost a half century between the introduction of modern university education in Egypt , and in many other Arab countries, and so industrial and organizational psychology is more advanced in Egypt than in any other Arab country . Most Arab professors, editors authors , and translators of main references and textbooks of industrial and organizational psychology are Egyptians. Because of this fact , we shall not find grat differences in how the main topics of organizational psychology are taught or investigated in the Arab countries , Everywhere , almost identical methods are used in the education training , and application of the scientific principles of this discipline . The only important difference among the Arab countries is the degree of advancement achieved .

In this context , we must mention the interest and pioneering of some ancient Arab philosophers , who anticipated some of the main objectives and scientific principles of modren industrial and organizational psychology . In his book ; "Book of Politics" , the great Arab philosopher Ibn Sina (980-1037) (or Avicenna) wrote: "If the sponsor of the boy (or his father wants to choose a job for him , he has first to evaluate the boy's nature, character , and intelligence to choose the job according to all these aspects . After choosing the job (as mentioned), the sponsor has to know how much the boy is interested in this job and desires working in it . The sponsor also has to make sure that the boy appreciate and ability that help him in performing this job, After that , and according to it , the sponsor has to decide . This procedure is more accurate and logically accepted ; because it saves the boy's time not being spent in vain "(Nagaty: 1988) .

In these words of Ibn Sina (which have been written in Arabian we note how this great Arabian philosopher draws our attention to the main scientific

Industrial and Organizational Psychology in the Arab World

ABSTRACT :

This paper reviews the status of the field of industrial and organizitional psychology in the Arab World . The focus will be on the countries which have shown more interest than others in this discipilne; such as Egypt , Saudi Arabia and Algeria , adopting an approach, which is descriptive and evaluative , the paper will deal with the present situation as well as the foreseeable future of industrial and organizational psychology in the Arab World . Foremost among the things to be investigated in this chapter are the following :

1- Industrial and organizational psychology as a discipline in universities .

2- Dissertations and field studies in this dicipline .

3- Books and other publications in the same discipline .

4- Industrial and organizational psychology application in the government bodies and business organizations.

5- Industrial and organizational psychology as a profession .

INTRODUCTION :

Industrial and organizational psychology as a discipline differs widely from one Arabic country to another , in its history , advancement , applications , and social, academic , and professional status. This is mainly due to major differences among Arab countries in academic progress and industrial

---

A paper published in the Journal of "Derast Nafsiah" (psychological studies), vol . 1 , January 1998 , 112-135 .

Induatrial Paychology in The Egyptian Universities :

Industrial Psychology has been an independent subject in the undergraduate studies in Faculty of Arts, Ain shams University since the year 1952 . Some later years , the other Egyptian Universities began to teach industrial psychology as an independent subject for the undergraduate, and also for the graduate students .

Many of the postgraduate studying for the masteral or the doctoral degree in psychology conducted thesis in the field of industrial psychology , especialy since the sixties up till now .

Future of Industrial Psychology in Egypt :

Since Egypt is now more and more concerned with developing and organizing labour power along with scientific management; it is expected that industrial psychology will graw more and more in the future . This is true for both studying , research , publications and applications .

Main References :

1- Khairy , E. (1967). Industrial psychology and its applications, (in Arabic). Cairo, Dar Annahda Al- Arabia .

2- Ragaih , A. (1961). Industrial psychology , (in Arabic). Cairo. Addar- Al-Kawmia .

3- Taha , F. (1980). Industrial and organizational psychology , (in Arabic). Cairo, Dar- Al- Maarif .

4- Taha , F. (1982). Readings in industrial and organtizational psychology, (Edited, mainly in Arabic with English summaries. Cairo, Dar-Al Maarif .

In the seventies The Ministry of Education became more concerned witl psychological services in its schools dedicated for "Special Education" These Schools are more than 50 scattered allover Egypt . They are established to teach, educate, guide and train pupils who are not normal , such as blinds, deafs , feebleminded s, delinquents. Ministry of Education has appointed more for each school) . Psychologists in these schools are responsible for psychological investigations needed for accepting or refusing the pupil in the special school, counselling , guiding , vocationally and educationally , supervising and following up the pupil .

There are also so many industrial companies and vocational institutes all over Egypt, which use and apply psychological procedures for its good and welfare.

Publications of Industrial Psychology in Egypt :

In Egypt , few books in industrial psychology have been published (in Arabic language) since the sixties, such as: "Industrial psychology" by professor Ragih, (1961) , " Industrial psychology and its applications" by professor Khairy (1967) , my book on "Readings in industrial psychology " (1973) and also my Book on "Industrial and organizational psychology (1980) .

There are also some researches conducted and published in the field of industrial psychology , such as "Morale of industrial workers" conducted by professor Khairy (published in 1972), "Psychology of accidents" conducted by me (published in 1979) and "Psychology of the problem worker" also conducted by me (published in 1980) .

In addition to these publications, there are some papers and articles by my professors, colleagues and me which are published in scientific journals and conferences in Egypt, or outside it .

Ministry of Social Affairs also uses industrial psychology services in some of its departments and in so many institutes under its supervision . In the early fifties, the institutes of "Youm Al-Mustashfiat- Wa- Attaheel- Al-Mihany" has been established. It is an institute dedicated mainly for rehabilitation services , in which there are psychologists who are responsible for all psychological investigations needed for diagnosis, counselling , guidance , rehabilitation and vocational training . They also carry out following ups to cases needing such services or supervision . The Ministry of Social Affairs also supervises the institute . These institutes are responsible for rehabilitation and following up blinds . In these institutes, there are psychologists whose main duty is to investigate psychologically and to guide vocationally the blind . In this concern, I developed and standardized a " Test - Battery for the Aptitudes of The Blinds ", which was published in 1974, as I was a partimer psychological consultant in KASR-AL - NOOR institute. It contains 5 performance tests. The above mentioned ministry also supervises, since the fifties , so many institutes are called "AL-TATHKEEF AL-FIKRY" , in which there are many psychologists (permanent or partimer) who are responsible for psychological investigations needed to define the rate of feeble mindedness for the special case, and to lay down the plan for its counselling , guidance , training , supervision and following up . This ministry also supervises , since the fifties , all the Juvenile delinquents , institutes all over Egypt . These institutes are now known as the institutes of "THE SOCIAL DEFENCE" . There are so many psychologists (either permanent or partimer) in these social defernce institutes. Their duty is to carry out psychological investigations for the juvenile delinquents needed for their classifying , counselling , vocational or educational guidance and vocational training , supervising , and following up the cases .

In the year 1956, the Ministry of Industry was established, in this minist there was a department called "Productivity and Vocational Training D partment " .

One of the main responsibilities is selecting , classifying and training fi jobs and vocations that are greatly needed for the industrial development For this purpose, so many centers for training according to the apprentice ship system have been established all over Egypt. Many psychologists hav been appointed to analyse jobs, and adopt or develop psychological tests t be used in selection and classification of the applicant pupils, who have re cently obtained the preparatory certificate (about 16 years old). Some o these tests are paper and - pencil tests , some other are performance. Afte the applicant passes the psychological tests; he has to pass also the psycho logical interview to be selected or guided to a training center . Nowadays the number of these training centres has grown to be more than 40 centers covering all provinces in Egypt . The above mentioned department testec psychologically about 12000 pupils in the year 1980 to select about 7000 ap- prentices for the training centers .

In the early seventies the Ministry of Labour Power became concerned with applying psychological tests and interviews in the vocational guidance office it established all over Egypt . It called me to develop and standardize a Test- Battery to be applied in vocational guidance of the youngsters (be- tween twelve and eighteen years old) who have not continued their scho- lastic study . This battery has been developed and standardized, and is useed now . It comprises ten tests, some of them contian sub-tests. some of these tests are verbal , others are performance .

INDUSTRIAL PSYCHOLOGY IN EGYPT :

PAST , PRESENT AND FUTURE

AIm :

The aim of this paper is to review , in brief, the history of industrial psychology in egypt, along with its current and futuere state.

Emergence of Industrial Psychology in Egypt and Its Present State :

Industrial psychology in Egypt could be traced back to the year 1952 . In this year "DEWAN AL- MOWAZZAFENE" (Ministry of Employees_ was established . This "Dewan" was very similar to a ministry in charge of appointing all the new employees in all government jobs . In this "Dewan", there was a main department specialized for testing, interviewing , selecting and classifying the new employees ought to be appointed in any governmental department or job . It was strictly forbidden for any emnloyce in the governmental jobs to be appointed unless he is subjected to this selection by the above mentioned department of that "Dewan" . This "Dewan Al-Mowazzafeen" called and appointed some psychologists to help in analysing jobs, adopting or developing psychological tests for the Egyptian culture , and interviewing applicants to select and classify the new employees. In the year 1964, this "Dewan Al- Mowazzafeen" has been transfered to "AL-GIHAZ AL-MARKAZY LE-TANZEEM WAL- EDARAH" (Ministry of Organizing and Management). Later on, this Gihaz left the above mentioned psychological procedures to the governmental ministries and departments, if they prefer using them .

A paper presented in the 20th International Congress of Applied Psychology Edinbugth, 25th - 31 st . July 1982 .

5) Hamed, A . Morale measurement of industrial labourers in Iraq and its diagnosis, in the above mentioned edited book .

6) Khairy, E .1972 (Cairo) Measurment of morale and its diagnosis of industrial workers, The National Center for Social and Criminal Research, (in Arabic).

7) Taha, F . 1979 Psychology of Accidents, Al- Khangy Library, Cairo , (in Arabic with English summary) .

8) Taha, F. 1980 Psychology of the problem worker, Cairo, El-Khangy Library, (in Arabic with English summary) .

fecting industrial efficiency . Vocational adjustment , in general , needs basically healthy percieving , judging and dealing with the socially and physically work environment. It seems also that some mild neurotic mechanisms, such as repression and reaction formation, facilitate Efficiency.

Conclusion :

Arabic field studies on psychology of efficiency in industry showed , as did the studies in other environments , that there is a great relation between good efficiency and normal mental health. Mental health implies adjustment; adjustment , in turn , implies the most important kind of adjustment ; I mean efficiency .

Since the Third Developing Countries are in a bad need for raising productivity, they have to pay more attention to all procedures that promote mental health of their peoples , such as psycho- social counseling , educational and vocational guidance, psychological and psychiatric therapy .

MAN REERENCES

1) Abd El-Hady, S . 1982. Anxiety level and absence of industrial workers, In: Readings in industrial and organizational psychology, Edited by F. Taha.. Cairo, Dar Al- Maaref, (in Arabic with English summaries).

2) Abou El- Neel, M. Relation between psychosomatics and occupational adjustment, in the above mentioned edited book .

3) Abou El-Neel , M . Incentives and mental health in industry, in the above mentioned edited book .

4) Ahmed, F. Psychology of the frequently absent worker in industry, in the above mentione edited book .

telligence, mental health and group cohrsiveness are better In the highly morale departments and their supervisors. Morale is of great importance to efficiency as we all know .

In the studies of Abou El- Neel, it was obvious that anxiety and psychosomatics have bad effect on efficiency . They make the worker less concentrating , less attentive, and more exhausted, so, his work becomes less efficient .

Absence, as studied by Ahmed Abd El-Hady , showed to be highly related to anxiety , feeling of persecution, general frustration and inability . This means that absence (as sign of inefficiency) is highly related to psychological defects in the worker's personality make-up. In the same time, Ahmed didn't find any relation between absence and the physical factors he studied which means that absenc is a psychological problem than any other else .

In my study on accidents it was obvious that accidents (as a very important sighn of inefficiency) are not related to intelligence quotients as such , but to intelligence pattern as affected by psychological disturbances, which appears in more scatter within the intelligence psychograph, more difference between the verbal level and the performance level of intelligence ... etc.,

When I studied the inefficiency as such , in my study on the problem worker , I found him to be significantly more aggressive, which means more psychological disturbance, I found him also neglecting , to some extent, the relationship with others (lower in direction and dependence). He also showed more psychotic aspects, which means serious inefficiency in percieving reality , Judging it, and dealing with . All these psychological disturbances are also theoretically and logically accepted as being seriously af-

1- No statistically significant difference between the problem group and the non- problem group on Intelligence Quotients (as shown by the Wechsler) .

2- The problem group scored sinificantly higher on aggression (as shown by the Hand Test) .

3- They also had sinificanlty lower scores on direction (as the Hand Test showed) .

4- They also had sinificantly lower scores on dependence (as shown by the Hand Test) .

5- The problem workers also showed more psychotic aspects in personality structure (such as organic brain disease, paranoid dsetructive motives , psychopathic trends, melancholic aspects and bizzare thinking) as shown by the deep dynamic study detected from the TAT and the clinical interview interpretations.

6- The problem worker showed, in the above mentioned deep study , to be less in neurotic reactions and mechanisms (such as repression, displacement, somatization and reaction formation of disliked wished and motives) .

7- The problem worker generally showed more serious pathological aspects, in the same deep study .

Discussion :

In the Arabic field studies mentioned above, there is a great tendency to assure that efficiency of the industrial worker is highly possitive correlated with his Normal Mental Health, i.e. the more mentelly health the worker is the more efficient he becomes. In the study of Khairy and that of Hamed, in-

4) There is a significant possitive correlation between accidents and scatter of the psychograph of the Wechsler Scale .

5) The difference between the verbal level and the performance level is significantly greater in the accident group .

6) The reliability of intelligence psychograph tended to be lower in the accident group .

5 . The Problem Worker and Mental Health :

In a field study on the psychology of the problem worker in industry (1968), Farag Taha applied these fourtools:

1) The Wechsler- Bellevue Intelligence Scale for adults mentioned above.

2) The Hand test translated and adapted by the National Center for Social and Criminological Research, Cairo .

3) The Thematic Apperception Test (TAT) .

4) The clinical interview with the associative anamnesis approach *.

The first two tools (The Wechsler and the Hand Test) were applied on two matched groups of industrial workers , each of them composed of 20 workers. The first of them has been chosen as an experimental group (the most problematic workers), while the second was chosen as a control group (the least problematic workers). The other two tools (The TAT and the HT) had been applied only on 8 workers of each group . The problem worker , in this study , was defined as the worker, whose behavior is an obstacle against the attainment of high production (Quantity and Quality) of the industrial organization ; such as accidents, absence, illness, malinger , complaining , inefficiency .. etc .

The most important results of this study , concerning our paper, were (8) :

---

*For details on this approach see; Deuch , F. & W. Murphy . 1951. The clinical interview , New York , International Universities Press, Inc .

ufacturing Co., (Cairo) . He studied two groups of variables, The First of them war meir The Stadisatical, (age, marital stadus wage , wark time , educational leval and distanca betwen The rasidance and Job siad) , The sacomd Groib of . Factors cuas The siycugical make up of the parsonatly the stadisatical investicagtional failed Todacal any relatinal betwen the above mantianat. Vatiaplas, and the and the problem of worker's absence".

For studying the psychological make-up of personality, Faris Ahmed selected 30 workers from the main sample, on whom he applied the (TAT) and the clinical interview . He used , to some extent , the deep dynamic approach . In this concern, he found the frequently absent worker to have more feeling of persecution , of general frustration and inability (4, 263-295) .

4- Accidents and Mental Health :

Farag Taha , in a field study on accidents and intelligence (1965) applied the Wechsler- Bellevue Intelligenc Scale, translated and adapted by Louis Kamel and Mohammed Ismail on two matched groups of industrial workers , each of them composed of 35 workers . Every worker of the first group , which was an experimental group , had frequently accidents in a period of four years before the beginning of the study . Every worker of the other group, which was a control group, had no accident in the same period. He summarized the results of his study which concerned this paper as follows (7,5) .

1) There is no significant correlation between accidents and total intelligence , verbal intelligence , or performance intelligence .

2) There is no significant correlation between accidents and any subtest of the Wechsler Bellevue except comprehension.

3) There is no significant correlation between accidents and high or low score on total intelligence , verbal intelligence, performance intelligence , or, any subtest.

Abdel Monem Hamed , (an Iraqi researcher) found (1981) in a field study on "The Iraqi General Co. for spining and weaving" , some results which were very simillar to those of El-Sayyed Khairy , which mentioned above, especially those concerning the positive correlations between intelligence and morale, normal mental health and morale, and group cohesiveness and morale, (5, 473-504) .

2) Psychosomatics and Vocational Adjustment.

Mahmoud Abou El-Neel in his study on psychosomatic and occupational adjustment in industry (1972) , found negative correlations between occupational adgustment of workers and psychosomatic disorders; and also between occupational adjustment and anxiety (2, 197-225) . In a field study on psychosomatic and emotional factors related to workers occupationally maladjusted in Industry (1974) , Abou El Neel also found , when he applied the Cornell Index , that the maladjusted group exceeded . the adjusted one in many mental abnormals such as anxiety , depression , psychopathly .. (3, 251-262) .

3) Absence of Industrial Workers and Mental Health :

Sawsan abd El- Hady in her study on anxiety level and absence of industrial workers (1971) , applied an Arabic adaptation of the Anxiety Scale Questionnaire developed by Cattell on a sample of 544 industrial workers . She found positive correlations between anxiety levels and absence . The mean of these correlations is 0 . 46, which is highly statistically significant (1, 297-3230.)

Faris Ahmed also studied the frequently absent worker in industry (1971). His Sample contains two contrasted groups of absence criterion, each of them contains 73 workers matched workers, from Nasr Auto Man-

MENTAL HEALTH AND EFFICIENCY OF THE INDUSTRIAL WORKER

Aim :

The aim of this paper is to review , in breif , some field studies which aimed at investigating the relationship between efficiency (or some of its aspects as non- accidents and non- absenteeism ... etc) and mental health of the industrial worker. These studies have been carried out by psychologists in the Arab Region , especially in Egypt. This does not mean that psychologists are the only experts in such a field denying all other experts, who play great parts in the same field , like psychiatrists and sociologists ... etc .

1- Moral of Industrial workers:

El- Sayyed khairy (Late prof . of psychology at Ain Shams Univ., Cairo) had conducted a field study on morale of industrial workers, published in Arabic (1972) by the National Center for Social and Criminological Research, Cairo . This study showed that there is a positive correlaion between intelligence of workers and their morale (6,259) , and the same result was also true for the supervisors (6, 260), who were supervising departments of high morale in comparison with those who were supervising low morale departments . The study also indicated that the supervisors of the low morale departments were less normal in mental health . In comparison with those of the high morale departments, who were more normal (6, 261) and more psychologically matured (6, 277). this field study, More over, vevaled apositirerelationship between group cohesiveness and morale (6,277) .

A paper read in the 1987 World Congress for Mental Health, Cairo , Egypt (October, 18-22 1987) .

IMAGES for the seeing . I can say that there is an "AUDITIZATION" which takes place as a procese in the DREAM-WORK of the very early blind . In the fourth dream , mentioned above , the dreamer translated GOD to high sound on the ground made by his feet, and also translated the SATAN (the devil) to a loud laugh . In Arab world they use the idiomatic "the Satan laughed at him" to mean that the Satan deceived him and made him do immoral deeds. In this case, we can rationaliz why laughing could be agood AUDITORY translation for the SATAN .

7 . But, why the early blind person mainly rely upon auditory images , in his dreams, instead of the visual images im the case of seeing person? It is because of the superiority of accuracy , rapidity , easiness and efficiency of hearing in comparison with anyother sense excluding vision (See the misperception made by taction) .

Main References :

1 . Freud , S. ; 1938. Interpretation of dreams, In : The basic writings of sigmund Freud , Edited by A. Brill, New York, The Modern Library .

2 . Thaha , F.; 1972 A Comparative study on how sighted and blind perceive the manifest content of dreams, Cairo, The National Review of Social Sciences, (Egypt), 3 .

Results and Conclusions :

We can deduce some results and conclusions from this study, the most important of which could be summarized as follows :

1 . The blind dreams like other people .

2 . The scientific facts about dreams of the seeing apply also to the dreams of the blind such as wish- fulfilment, the experiences of the preceding day and the absolute egoism.

3 . Dreams of those, who became recently blind, compose mainly of visual images as they were really seeing . In this point they do not differ from the seeing person. They spontaneously express this fact: "we see in our dreams as we did before loosing our vision " . I expect that this fact is right only when the center of vision in the brain is not damaged.

4 . Those recently blind persons (without brain damage as mentioned above) try to draw a visual image for the object which they know after blindness. They compose this image which the seeing persons give to them . They see these images in their dreams.

5 . The early totally blind persons (since the first six months of birth or before) use all senses they have in dreams as the seeing persons do (such as hearing, taction, smelling , tasting and spatial orientation to perceive in dreams as they do to perceive in reality .

6 . Hearing is the dominant sense in dreams of the early totally blind . This fact is right for every dream I studied . It seems to me that the hearing in the early blind takes the place of vision in dreams of the seeing and the DREAM-WORK translates the LATENT IDEAS to AUDITORY IMACES for these blind , as the dream-work does translate these ideas to VISUAL

3 . " I saw myself in the dream as if I am here in the kasr (the place where he works) . I entered the switchroom . After a while, a girl put her hand in mine for salutation . I thought that I knew her very well from her hand . I took her and went out the room . After she talked to me I realized that she was not the girl whom I want and thought, it was at first I became displeased, and we left each other" .

- How did you know that you entered of the switchroom ?

- Conditions of the place; the noisy of the room , students who are training on the switch, the door which is not widely opened , also the switch room is narrower than other rooms, and the arrangement of things in this room is not like other rooms.

4 . " I was going to the Mosque at an early hour to pray. I heared someone walking . To my surprise; I found him to be our GOD ... I asked him to make me enter Paradise ... After finishing prayer, I heard a loud laugh which made me wake up anxiously. It was the SATAN (devil) who laughed at me" .

- How did you know it was an early hour?

- The calmness; no voice, no motion.

- How did you know that he was GOD who met you ?

- He was a very huge thing . His feet were very wide; because they made high sound on the ground .

-How did you know that it was the SATAN who laughed at you?

- There is none who can laugh at a person except the SATAN , and there was no human being in the Mosque at that time except me .

them to show how inquiries were made . The first and the second dream are drawn from recently blind, the third and the fourth are drawn from early blind.

1. " I saw myself sleeping on bed . I suddenly got up , opened my eyes, saw a car passing in the street with its lights reflexed on the ceiling of my bedroom making a very clear image of the iron bars of the window. I was completely surprised and said to myself: Thanks for God as I am now seeing. I sat up and went to the window. I saw through the window a friend of mine called Abderrahman. I asked him to tell my relatives that I became sighted. I was strongly affected to wake up".

    - Which senses you rely upon in knowing the details of this dream ?

    - Only vision , the eyes .

    - What motivated you to see this dream?

    - My keen interest in recovering my vision .

2. " I saw in the dream that I have been married to my beloved , and went to Khartoum (the capital of Sudan) . She and I were sitting in the Mogran (a place in Khartoum where the White Nile meets the Blue Nile) . I saw the White Nile , the Blue Nile and the Toty Island , as I had seen them before blindness" .

    - How did you know that you were sitting with the beloved?

    - Of her voice , which I distinguished well .

    - Only her voice?

    - I previously asked one of my seeing friends to look at her and describe her for me. I grasped an image for her , which became registered in my mind as a visual picture, as if I were a seeing person .

" AUDITIZATION" IN DREAM-WORK OF THE EARLY BLIND PERSONS

Aim :

Psychoanalysts state that dreams are mainly composed of visual images. What about the dreams of the BLIND ? How do the blind perceive the manifest content of their dreams ? How do they differ frome the sighted people in this concern? The aim of this paper is to answer these questions .

Sample :

The sample contains five totally blind persons ' of whom four are males and one female . Three of them are totally blind since the first six months of their birth or before , one became blind when he was about twenty years old (about two years before this study) and one bacame blind when he was about twenty - two years old (about seven years before this study) . Three of these five blind are Egyptian, one is Sudanese and one from Al-Khaleel in the Western Bank . I divided these five totally blind who lost their sight very early in their childhood , the second contains the two recently blind.

Data :

Data of this study is composed of eleven dreams drawn from the sample , along with inquiries and associations about every one of these eleven dreams . The inquiries concentrated on how the blind perceive the MANIFEST CONTENT of his dream , which SENSES he used to know this content . Here, I put down some parts of four dreams and some inquiries about

---

A paper read in XXIII INTERNATIONAL CONGRESS OF PSYCHOLOGY ACAPULCO , MEXICO . SEPTEMBER 2-7 , 1984 .

struggle strongly against war and pro- peace allover the world, otherwise we will be threatened as a a species by our own destructiveness .

References :

1 . Butross Abdel Malick & Others; 1967 . The Dictionary of Bible, Maktabat Almashal Alengeeliah . Beirut, Lebanon, (In Arabic) .

2 . Freud , S. 1922, Beyond the Pleasure Principle, London, The International Psycho-analytical Press .

3 . Halsey, W. & E. Friedman (Editors) 1980. Collier's Encyclopedia. New York, Collier, Inc .

4 . Klein, M. The Psycho- analysis of children. London, The Hogarth Press , 1975 .

5 . Storr, A. 1984, Human aggression . Pelican Books .

6 . Walsh, R. 1984 , Staying alive. London, New Science Library.

4- All thinkers allover the world must support strongly the human tendencies and the beneficent political and social values , such as fair demands of all people to live in peace , to restore peacefully their territories , to have their own free will in their political and social decisions , and to have all human rights given to all developed countries .

All thinkers must also propagandize and support peaceful negotiations in problem solving , and avoid motivating or supporting aggressive solutions They have also todeny and struggle against any . country having unfair desire to destroy others, to take their territories by violence or to cause any unfair harm to others .

This suggestion, if applied , will decrease so many reasons motivating, wars and different kinds of aggression .

Conclusion :

In this paper, I have mentioned some psychological factors which could contribute in facilitating wars and eliminating peace, such as : destructive motives, sado-masochistic tendencies, psychopathic tendencies, delusions of grandeur, delusions of persecution and apathetic trait. I figured how mankind desires wars and dislikes peace , consciously or unconsciously . .I sugested four suggestions which could stand solid against the instigation of aggresion , decrease inclination towards wars and increase opportunities for peaceful problem solving . If we really search for peace , we all must strongly support such proposals and all procedures strengthening peace and eliminating wars and aggressive actions .

It is widely known that all mankind will suffer destruction and harm if any atomic war arises . We, on earth , are most like those who are in one ship in midsea, if it is wrecked or drowned all will die. So, we all have to

defeat these psychological factors tempting him to be involved in wars , aggression and all kinds of destruction for himself or others. I think we can partially overcome this challenge if these suggestions put are successfully achieved .

1- There must be psychoanalysts, psychiatrists and psychologists among members in defense counsels of the governments . In this case, they would interpret , investigate and reveal the real motives of war and make other members more aware of them . Disclosed. at that time, the rationalization of war become disclosed. The decision for beginning war, or for avoiding it, will then be more correct and wise.

2- There must be many television films which illustrate the horrible damage which is caused in wars for both lives and economic such as "The Day After" film . In such a case, most people are going to realize lwo much pain, grievances and different kinds of destruction could be caused in war , for both sides of fighters either was he the conqueror or the defeated . This will create great fear of war, and will strengthen the anti-war public opinion , which , in turn , stresses leaders not to take the war decision and to be pro peace .

3- Organizing parties , groups, movements, conferences, publications and a yearly week for propagandizing peace and refusing wars in problem solving . I think the yearly week dedicated to peace beginning on 6 August is very suitable, because on that day it was the first time in history that an atomic bomb hit a city (Hiroshima, Japan, 6 Aug., 1945) .

   In such a case, there will be a good opportunity for most thinkers of different ideologies and from different countries to propagandize and support peace allover the world , and to make great Lobbyism in favor of peace and against war . This will also contribute in forming and strengthening public opinion in the same direction .

Religion and Peace:

Because of the command of destructive tendencies on mankind psychological structure as mentioned above , religions appreciate peace very much and urge all people to live in peace . In Islam , for example, God is called so many names, among them is "THE PEACE" which means in Arabic "As-salam" . The good Moslem, also , is supposed to greet any one or any group when he meets them or when he leaves them by saying "Peace may be upon you" which means in Arabic "Ass alamuAlikom. In cler istiunity, it is said-that "God is Love" . In Jewish , Solomon, the gread king and prophet got his throne name from the hebrew word "Shlomoh" , which means peace. Jerusalem, as a city, had drawn its name from God of peace , and it is called city of peace.

Religions also stricktly forbid any beleiver to express aggressive deeds , destructive actions or causing harm to anyone or any group unless for self-defence , for evil resistance or for prevention of greater harm .

Proposals :

As we have mentioned above , there is a great appetite in mankind for being aggressive and destructive . This may facilitate involving in wars and taking mankind away and away from living in peace or spreading peace around him . It seems really true that making war is easier than making peace. Wars such as the Second World War and the SIXT - DAY WAR , for example , have begun within few days while steps undertaken for peace in the Middle East, for example are very slow since 1973 uptil now. This is due to many factors , among them psychological ones , mentioned above , which make it easier to be involved in war than to gain peace .

The great challenge now facing mankind from my point of view , is to

different . If the leader of a country has such a type of personality, he may misunderstand political factors and other reality circumstances which may be of great importance . He also will be indifferent pertaining destructions he may cause to his country or rivals .

Mankind and Peace :

Mankind is greatly in need of peace . He needs peace for staying alive , for his prosperity and for enjoying different kinds of pleasures. But , unfortunately , it seems true that mankind does not seriously and honestly search for peace. Peace negotiations between the United States and the Soviet Union has not achieved nor maintained peace . Every time these negotiations gain one step towards peace, they quickly retreat two . They proceed steps towards peace very slowly , while taking steps towards hostility and wars very quickly. Since the Second World War has ended uptil now the United States and the Soviet Union have been involved in peace negotiations . Without gaining decisive results towards real peace . Both of them supports wars in Asia, Africa and Latin America . At the sametime each of them claims that it supports peace and struggles for war prevention .

It seems to me that psychoanalysts, especially Sigmund Freud and Melanie klein are right when they stressed the destructive drives of mankind . Their hypothesis about death instinct seems, unfortunately, right . There are so many data derived from reality , and mythology support death instinct hypothesis . The holy books of believers (The Koran of Moslems , the Bible of Christians and the Old Testament of Jews) tell us the same story of the first killer , Cain , the oldest son of Adam and Eve , who killed his brother Abel , the second son of Adam and Eve . This Symbolizes that destructive tendency is deeply rooted in the mankind structure since the beiginning of his creation . This also gives strong support involving in wars and eliminating peace .

means a beeief of grandeur voiced by aperson which is both untrue and un-influenceable by logic or evidence. In such a case the leader may over-estimate his country's power and his efficiency in directing war against his rival and winning it . Adolf Hitler was an example of this symptom He over-estim ated his powr and his management efficiency in war to the degree that he involved himself in fighting the Soviet Union , Amercan States , Britain and France at the sametime . This mad behavior caused loss to his personal life and destruction to his country . Moreover, it led to dividing Germany - to two separated countries , i. e. , East Germany and west Germany , These two Germanies became contrasted in their social , economic , and political orientations. Each of them could be involved in awar against other . None can emagine a greater catastrophe than thise .

V. Delusions of Persecution :

This is also a mental morbid symptom which could motivate a dis-turbed leader to start war or to appreciate it. In persecution the leader belives in a false idea that others want to harm or destroy him or the country he leads. So, he becomes suspicious and prefers taking offense as a defense step. In such a case his country could be easily invol ved in a war These de-lusions of persecution may or may not be accompanied by delusions of gran-deur . If they are accompanied by delusious of grandeur it will be easier and easier that this country which is led by a persecuted leader will be easily in-volved in so many wars .

VI . Apathetic or Schizoid Personality :

This is the last psychological factor we are going to mention as fa-cilitating wars. It is a morbid case which makes personality detached from reality , mistaken in estimating circumstances , hollow of feelings and in-

II . Sado- masochistic Tendency :

This is another disguised factor which facilitates involving in wars and resists maintaining peace. the Sado- masochistic tendency is a pyschological morbid symptom which could be found in the personality structure of some individuals. This tendency motivates them to gain great pleasure from infliction of pain upon others, from being cruel and aggressive , and at the same time from being insulted, humiliated, punished and accepting " guns rather than butter. " In this case war would be an ideal satisfaction for such disturbed personalities, because it leads to horrible harm for all those who are involved in the war from both sides.

It seems obvious that the sado - masochistic tendency is supported by the previous psychological factor ; i.e . ; the destructive motives or the destructive instinct.

III . Psychopathic Tendencies :

These tendencies may also be responsible for being involved in a war . Psychopathy is a personality disorder , in which the person does not respect social norms and repeats his immoral actions and deeds without sense of guilt or learning from past experience . Psychopathy results in abnormally aggressive or seriously irresponsible conduct . If there is a leader of this type on top of authority , it would be a catastrophc not only for his country but also for others . Most of us remember what Adolf Hitler had done in the Second World War , killing so many people and destroying so many cities .

IV . Delusions of Grandeur :

This is another psychological factor which could facilitate involving in adestructive war . Delusion of grandeur is a mental morbid symptom whcih

true, as Senator William Fulbright states : "Only on the basis of an understanding of our behavior can we hope to control it in such a way as to ensure the survival of the human race . " I am not here ignoring or denying the important roles played by economical , political , historical and geographical .. factors, but I believe that psychological factors in the war - peace game have been underestimated.

In this paper, the author identifies and highlights some psychological factors that play a significant role in the war peace game He also suggests at the and of it a proposal in that concern .

I . Destructive Motives :

Among psychological factors which could be seen as facilitating the road to war and excluding peace in problem solving is the destructive motives. These motives are sometimes seen - as most of psychoanalysts do-as innate instinct in human being which motivates him for destructive actions for himself and others . These destructive motives could be overt and conscious or disguised and unconscious . If we objectively analyzed the disguised factors of such war as the Second World War , or American - Vietnamese war , we would be immediately convinced by these destructive motives; i . e . this destructive instinct .

These destructive motives play the same role in wars all over the world . For example , one cannot objectively accept rationalizations presented by neither Iraq nor Iran for this war . Undoubtedly, these wars could deeply satisfy mankind destructive motives by the extreeme damage they make for both individuals and economics . Anthony Storr wrote on the cover of his book entitled Human aggression (reprinted 1985 in Pelican Books) this statement : "The Sombre fact is that we are the cruellest and most rutlaless species that has ever walked the earth" .

DOES MANKIND REALLY SEARCH FOR PEACE ?
A PSYCHOLOGICAL VIEW

Introduction :

Few years after the second world war , Mankind has been stressed by the very horrible threat of the destructive nuclear arms . Moreover this expected destructive war nowdays affects world ecnomics very much . The States and the Soviet Union yearly increase their military budgets which reached now a total expenditure of some hundred billion dollars yearly for each of them . I expect that these hundreds of billion dollars will run quickly to thousands since the price of petroleum hasbeen sharply decreased . this case will save more money to be spent in war and defence procedures . This mad waste of money in weapons is leading world to a destructive disaster for both the developed countries ; if the war starts and for the undeveloped countries ; because of lack of monay needed for their developing which the developed countries waste in militarism . Linus Pauling in his forward to Roger Walsh's Book entitled "Staying Alive " (1984) states : "So . long as the present policy of confrontation between the United States and the Soviet Union continues, and so long as a great fraction of the world's wealth is wasted on militarism , there is no possiblity of solving the problems" .

In such a case all human sciencses , especially psychology , have to play a destinictive role in war prevention and peace making . The first step must be discovering factors motivating to war and that leading to peace . This step will be the solid base indicating the second step ; i . e . defeating war instigation and strengthening peace policies in problem solving . It is really

---

A paper read in 8th international Congress of Cross- Cultural Psychology, Istanbul, Turkey , July 6-10 , 1986 .

-3-

The English Part

PSYCHOLOGY
and
CURRENT ISSUES

[Collected Papers]

By

Farag Abdel Kadir Taha (Ph. D.)

Professor of Psychology, Faculty of Arts,

Ain - Shams University

and

Member of "Institut D'Egypte"

(Egyptian Academy)

Seventh Edition

1999

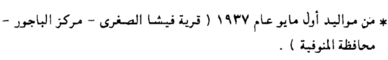
رقم الإيداع ٣٦٤٢/٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 002 - 8

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق

د. فرج عبد القادر طه



* من مواليد أول مايو عام ١٩٣٧ (قرية فيشا الصغرى - مركز الباجور - محافظة المنوفية) .
* ليسانس فى علم النفس (١٩٥٩) ، وماچستير فى علم النفس (١٩٦٥) ، ثم دكتوراه فى علم النفس (١٩٦٨)؛ وذلك من قسم علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس.
* مدرس علم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس منذ عام ١٩٦٩ .
* يعمل حاليًا أستاذًا لعلم النفس بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، كما كان رئيسًا سابقًا للقسم .
* نائب رئيس الجمعية المصرية للدراسات النفسية .
* له العديد من المقالات الثقافية، والبحوث العلمية التى نشرت فى المجلات والدوريات المصرية والعربية والأجنبية .
* له العديد من المؤلفات المنشورة ، ومنها : « قراءات فى علم النفس الصناعى والتنظيمى» (إشراف) : الطبعة الرابعة ، لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٤ - و « علم النفس الصناعى والتنظيمى » : الطبعة الخامسة لدار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦ ، والطبعة الثامنة لعين للدراسات والبحوث عام ١٩٩٧ - و « علم النفس وقضايا العصر» : الطبعة الرابعة لدار النهضة العربية ببيروت عام ١٩٨٦ ، والطبعة السادسة لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٣ - و « أصول علم النفس الحديث » : الطبعة الثانية لدار المعارف بالقاهرة عام ١٩٩٤ - و « سيكلوچية الحوادث وإصابات العمل » : مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٧٩ و « سيكلوچية الشخصية المعوِّقة للإنتاج » : مكتبة الخانجى بالقاهرة عام ١٩٨٠ - و « موسوعة علم النفس والتحليل النفسى » (إشراف) : دار سعاد الصباح ، القاهرة - الكويت ، ١٩٩٣ .
* اشترك ببحوثه فى عدة مؤتمرات علمية محلية وعربية وعالمية ؛ منها بحثه عن علم النفس الصناعى فى مصر ؛ والذى عرضه بالمؤتمر الدولى العشرين لعلم النفس التطبيقى (أدنبره باسكتلندا عام ١٩٨٢) ، وبحثه عن أحلام المكفوفين ؛ والذى ألقاه بالمؤتمر الدولى الثالث والعشرين لعلم النفس (أكابولكو بالمكسيك عام ١٩٨٤) ، وبحثه عن علم النفس والسلام العالمى ؛ والذى ألقاه بالمؤتمر الدولى الثامن لعلم النفس عبر الحضارى (استانبول بتركيا عام ١٩٨٦) ، وبحثه عن الصحة النفسية والكفاية الإنتاجية لعمال الصناعة ؛ والذى ألقاه فى المؤتمر الدولى للصحة النفسية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٨٧ .
* عضو بعدة جمعيات علمية محلية وعالمية .
* اختير (منذ عام ١٩٨٤ وحتى ١٩٩٤) عضواً بمجلس إدارة الجمعية الدولية لعلم النفس التطبيقى (IAAP) .
* اختير منذ عام ١٩٨٦ خبيراً لعلم النفس بمجمع اللغة العربية .
* رئيس اللجنة التى أعدت « الميثاق الأخلاقى للمشتغلين بعلم النفس فى مصر » ، والذى صدر عام ١٩٩٥.
* رئيس تحرير « مجلة دراسات نفسية » التى تصدر عن رابطة الإخصائيين النفسيين المصرية .
* اختير منذ عام ١٩٩٦ عضواً بالمجمع العلمى المصرى .



لوحة الغلاف « ميتا فيزيقا » للفنان « أندريه ماسون



للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES